مصـــر
ولـع فـرنسى

تأليف : روبير سوليه
ترجمة : لطيـف فــرج

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشاب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

مصر : ولع فرنسى

تأليف: روبير سوليه   ترجمة: لطيف فرج

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

تمهيد

كنا في فصل الخريف، وكنت في العاشرة من عمري. لقد عدنا على التو إلى القاهرة بعد قضاء ثلاثة أشهر على پلاچ صغير بالقرب من الإسكندرية كأجازة صيف أو «الأجازة الكبيرة» بصحبة مجموعة من الأسر الصديقة...وفي القاهرة عدت من جديد إلى مدرستي ذات الجدران الحمراء والشرفات المزينة بالزهور والنوافذ الزجاجية الواسعة والكائنة على حافة الصحراء وهي مدرسة الليسيه المصرية-الفرنسية بهليوپليس، إحدى أفضل مدارس البعثة العلمانية الفرنسية في الشرق. كانت رائحة الحبر الپاريسي لا تزال تفوح من كتبنا المدرسية الجديدة تماماً والتي كنا نعرف منها حكايات لافونتين، والأسقف المغطاة بالثلوج، وتصريف الأفعال الفرنسية، وقصة چان دارك فوق المحرقة... وكان كتاب النحو العربي هو الكتاب الوحيد الذي يجب أن يكون «مصنوعاً في مصر».

لكن ما كدنا ندشن أقلامنا وحقائبنا المدرسية في ذلك العام حتى أعادونا إلى منازلنا. كان خريف عام ١٩٥٦، وكانت الحرب. لقد دخل الجنود الإسرائيليون والفرنسيون والإنجليز الأراضي المصرية بلا استئذان رداً على قيام عبد الناصر بتأميم قناة السويس. وكانوا في پاريس يسمّون هذا «حملة قناة السويس»، في حين يسمونه في القاهرة «العدوان الثلاثي الغاشم».

ولم تكن هذه الحرب حرباً حقيقية بالنسبة لنا نحن المقيمين في العاصمة بعيداً عن پورسعيد - أو على الأقل بالنسبة للطفل الذي كنته والذي كان مفتوناً بمشاهدة ما يشبه لعبة كبيرة تجعل أجازة الصيف أكثر طولاً. لقد قاموا بدهان زجاج فوانيس السيارات باللون الأزرق وبتكويم أكياس الرمل عند مداخل العمارات. وكان يجب علينا أيضاً إطفاء الأنوار فى المساء حين نسمع صفارات الإنذار بالغارات الجوية. ويتم استرعاء انتباه المخالفين أو المهملين بصوت جهوري يثير الرعب.

وكان طفل العاشرة يلعب لعبة الحرب دون أن يدري أنه يعيش حدثاً تاريخياً مأساوياً على وشك أن يحدث انقلاباً في الشرق الأوسط وفي حياة أسر عديدة من بينها أسرته. هل يجب عليّ أن أوضح بدقة أننا كنا ننتظر بلهفة عقد قران أحد أخوالي المصري الجنسية

على ابنة قنصل فرنسا العام بعد بضعة أسابيع، وأن الدعوات كانت قد أرسلت؟ لا جدال بأن «العدوان لثلاثي الغاشم» سوف يحرمنا من الحفل الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر.

كانت «حرب السويس» خيبة كبيرة. فبعد انتهاء هذه المغامرة الحربية التي أوقفتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بعد أيام قليلة. تم طرد الإنجليز والفرنسيين والعديد من اليهود من مصر. واختار آخرون اقتفاء أثرهم خلال السنوات التالية: إيطاليون، ويونانيون، ومصريون من أصول لبنانية أو سورية من أمثالنا...كانت هجرة جماعية حقيقية تشير إلى انتهاء عصر، هو عصر مصر الجامعة لأجناس عديدة مختلفة.

إن هذا التعبير مغالى فيه ويتجاوز الحد. إذ لم تكن مصر كلها غارقة فى هذا المناخ الفريد للغاية الذي سمح لأناس ينتمون إلى أصول وإلى ديانات مختلفة بأن يعيشوا في القاهرة وفي الإسكندرية جنباً إلى جنب بل ومعاً في ظل نوع من المرح وخلو البال. لكن مصر كلها كانت خاضعة تقريباً لنفوذ هذه الأقلية الأوروبية أو «المتأوربة» ولآثاره سواء المفيدة أو الضارة. كانت بريطانيا العظمى ذاتها ترتاب في هذه البيئة التي تسودها أكثرية من الفرانكفونيين تعرقل مشروعها الاستعماري: لأنه إذا ما كانت بريطانيا تحتل وادي النيل، فقد كانت الثقافة الفرنسية هي التي تجتذب البورجوازية المصرية الكبيرة والمثقفين المصريين. كانت بريطانيا تهيمن على الحكومة والبوليس والجيش، بينما تسود فرنسا على الصحافة والصالونات الأدبية والمدارس الأكثر شهرة.

ويكمن منشأ هذا التقسيم الغريب في تنافس قديم العهد يعود إلى بداية القرن التاسع عشر. كان جيش بونابرت قد احتل مصر لمدة تبلغ بالكاد ثمانية وثلاثين شهراً لكنه ترك فيها آثاراً يتعذر محوها. فبعد انتهاء الحملة الفرنسية بسنوات لجأ محمد علي مؤسس الأسرة المالكة المصرية إلى الفرنسيين لكي يؤسس دولة حديثة. وقام رجل فرنسي هو «شامپليون» بحل رموز اللغة الهيروغليفية، كما قام بتأسيس مصلحة الآثار المصرية فرنسي آخر هو «مارييت». وقام «فرديناند ديلسپس» الفرنسي أيضاً بوضع وتنفيذ مشروع قناة السويس...لقد أدى احتلال بريطانيا لمصر بدءاً من عام ١٨٨٢ إلى تدعيم الروابط بين القاهرة وباريس، إذ كان من الطبيعي اتجاه الوطنيين المصريين نحو المنافس التقليدي لانجلترا ليعضد مطالبهم بالاستقلال.

وفاجأت فرنسا المصريين وأثارت غضبهم حين تدخلت عسكرياً في بورسعيد عام ١٩٥٦ . لقد أصابت هذه المبادرة التعسة وجود فرنسا على ضفاف النيل بضربة قاصمة. وكان يلزم مرور عقد كامل من أجل استئناف العلاقات الودية بين الدولتين، لكن لم يكن من الممكن عودة الأمور إلى سابق عهدها. لقد حلت شراكة عاقلة محل الروابط الحارة

... وتستمتع فرنسا اليوم بصورة إيجابية للغاية من غير أن تكون في بؤرة الاهتمام، أما بالنسبة لمصر فإنها تمارس سحراً حقيقياً على الفرنسيين، لكنه سحر يتعلق أساساً بمصر الفرعونية.

وفي الملحمة الزاخرة التي دامت خلال القرنين المنصرمين -كان أبطالها علماء ودبلوماسيون وجنود ومعلمون ورجال دين وكتاب وفنانون وتجار ورجال بنوك ومهندسون ونسّاك وملهَمون وبضعة أشقياء- نجد الأسوأ ينزوي بصفة عامة أمام الأفضل. إن «فرنسا المصرية» هي مقادير مثيرة وأخاذة ومتقدة تتسم بإنجازات مذهلة.

إن هذه القصة التاريخية -التي أنحدِر منها مع آخرين عديدين- هِي التي أرغب في سردها هنا. فإنني مصري بالمولد لا تجري في عروقي قطرة دماء فرنسية واحدة، وقد اكتشفت فرنسا بانبهار حين كنت في الثامنة عشرة من عمري. اكتشاف أم لقاء من جديد؟ لقد كانت فرنسا مألوفة لدي من قبل ومن على بعد بفضل الكتب وبفضل مدرسين ممتازين بمدرسة الليسيه ثم لدى الجيزويت. وشكراً للكونتيسة سيجور Ségur [كاتبة فرنسية من أصل روسى ١٧٩٩-١٨٧٤]* ولهيرچيه Hergé (مواطن بلچيكي) اللذين كانا من أوائلِ من قدمني إلى أسلافهما الجاليين!

إن المؤلَّفات التي تكتب عن الفرنسيين ومصر لا حصر لها. ولا يوجد من بينها مؤلَّف واحد يتناول مجمل هذه القصة. حتى الكتاب الذي وضعه چان مارى كاريه Jean-Marie Carré المعنون «الرحّالة والكُتّاب الفرنسيون» يقتصر على الكُتّاب- الرحّالة مثلما يشير عنوانه ولا يذهب إلى أبعد من عام ١٨٦٩. وقد كتب هذا الأستاذ الجامعى في مقدمة الطبعة الأولى من كتابه الصادر عام ١٩٣٣ يقول: «توجد لوحة ضخمة تحتاج إلى من يرسمها، وتضم هذه اللوحة جميع أولئك الذين ساهموا في اكتشاف مصر القديمة أو في نهضة مصر الحديثة». ويضيف قائلاً: « من المؤكد أنها لوحة مشحونة بالآفاق الباهرة وتتميز بالأهمية والحيوية وبالتنوع والثراء! وتتعاقب فيها مآثر الحزم والعزيمة مع مظاهر الفكر المجتهد ودلائل الحساسية وأحلام الخيال الشعرى. ونجد فيها تلازم الأدباء مع العسكريين ورجال القانون مع النشطاء المتنوعين الذين مع ذلك تتكامل مجهوداتهم وتتناسق داخل هذه اللوحة الشاملة الضخمة.»

ورأي چان-ماري كاريه بتواضع أن هذا المشروع أكبر من قدراته وحدد حديثه مكانياً وزمانياً. والحال أنه منذ عام ١٩٣٣ ظهرت شخصيات عديدة أخرى، وتتابعت أحداث

* من الآن فصاعداً كل ما بين القوسين [ ] هو إضافة من المترجم.

أخرى مما جعل المهمة أكثر صعوبة. فمن الممكن أن تحتاج مثل هذه اللوحة إلى عشرين جزءاً وأن تستغرق عمراً بأكمله. فهل يجب لهذا الامتناع عن التصدي للموضوع؟ هل يجب التخلي عنه بحجة أنه حافل وخصب؟ إن الأمر يتوقف على الهدف الذي نسعي إليه. إنني لا أسعى هنا إلاّ إلى رواية قصة تاريخية دون الزعم بأنني سأرويها بصفة شاملة. فالقارىء الذي يرغب في الاستزادة سيجد في هذا الكتاب بياناً بالمراجع اللازمة.

إن ذكرى مرور مائتي عام على حملة بونابرت التي تقع في عام ١٩٩٨ هي مناسبة لوضع الأمور في نصابها حتى وإن كان المصريون لا يرغبون اطلاقاً في الاحتفال بذكرى غزو بلادهم– وهو أمر مفهوم تماماً– ويفضلون الاحتفال بمرور قرنين على التبادل الثقافي وعلى «الآفاق المشتركة» مع فرنسا. وسواء كانت الحملة تشير إلى تاريخ مولد مصر الحديثة أم لا، إلا أنها تمثل لحظة زمنية هامة تمخضت عن نتائج جسيمة. ولكي نحاول فهم هذا الحدث يجب العودة إلى الوراء قليلاً: ليس من الضروري العودة إلى عهد قديم للغاية، بل إلى القرن السادس عشر حينما استقرت جالية فرنسية على ضفاف النيل لأول مرة.

الجزء الأول

التقاء عالمين

(١)

حجاج وتجار وفضوليون

مصر؟ إنها بالنسبة لمواطن فرنسي يعيش في القرن السادس عشر، هي أولاً ذكرى توراتية، أو بالأحرى ذكرى وردت في الكتاب المقدس بصورتين متناقضتين تماماً. ففي العهد القديم هرب العبرانيون بقيادة موسى من وادي النيل بعدما تحولوا فيه إلى عبيد. لقد افلتوا من مطارديهم الذين غرقوا في البحر الأحمر ثم اتجهوا بعدها إلى أرض المعاد. وفي المقابل يروي العهد الجديد أن المسيح ومريم ويوسف التجأوا إلى مصر بناء على نصيحة الملاك للهروب من هيرودس [ملك اليهود] الذي أمر بقتل كل مولود جديد. وبقيت الأسرة المقدسة في مصر حتى وفاة الملك الطاغية. وسواء كان وادي النيل أرضاً خطرة يتم الهروب منها أو أرضاً آمنة يتم اللجوء إليها فإنها ترتبط في كل حال بمفهوم الهروب.

ومصر هي أيضاً ذكرى الحرب الصليبية السابعة التي قادها سان لوى [الملك لويس التاسع] عام ١٢٤٩. إنها ذكرى مجيدة ومؤلمة في آن واحد، إذ بعدما قام الفرنسيون باخضاع دمياط انهزموا في المنصورة وهلكتهم الأوبئة. ولم يبخل جوانفيل Joinville كاتب الحوليات البارع [١٢٢٤-١٣١٧] في سرد التفاصيل الدقيقة عن هذه الملحمة الفاشلة. هكذا كتب عن الإسهال الذي أصاب سان لوي: «... بسبب إصابته بدوزنتاريا جعلته يقص قعر سرواله، ويضطر للذهاب إلى المرحاض مرات عديدة[1].» لقد تم أسر ملك فرنسا ثم أفرج عنه مقابل فدية بعد حدوث مغامرات عديدة. ويتحفظ رعايا هذا الملك من هؤلاء «العرب المسلمين» -لا يسمونهم مصريين إطلاقاً- الذين انهزموا ثم انتصروا بصورة المحاربين الشجعان، الذين يمكن التفاوض معهم لكنهم قد يخلفون الوعد ويذبحون أسراهم. وفي هذا أيضاً نجد علامات متناقضة.

1- Jean de Joinville. *Histoire de Saint Louis*, avec traduction en français moderne. Paris. Dunod, coll. «Classiques Garnier». 1599.

ومصر أخيراً هي صورة خلابة. فبالرغم من المآسي التي يرويها چوانڤيل عن الحرب الصليبية إلا أنه يقدم وصفاً ساحراً لمصر، يؤكد فيه بأن النيل «يختلف عن جميع الأنهار الأخرى[٢]». إنه يسكب فيضانه النافع الذي لا يمكن أن يأتي إلا «بمشيئة الله». إن أحداً لا يعرف منبعه: ينحدر مجرى المياه هذا من نوع من جبل كبير توجد فيه أسود وأفاع وأفيال وعجائب عديدة. «في المساء يلقي الناس بشباكهم في النيل؛ وحينما يحضرون في الصباح يجدون في شباكهم هذه السلع التي تباع بالميزان في بلادنا وهي الجنزبيل والقرفة ونبات الراوند والألوة. ويقولون إن هذه الأشياء تجيء من الجنة الأرضية...»

وظل الفرنسيون خلال أمد طويل لاحق يمزجون بين كل هذه الأشياء: التاريخ التوراتي، وذكرى الحرب الصليبية والبعد السحري. وتقوم قصص رحلات الحجاج بتغذية هذا اللبس بدلاً من تبديده. وبعد أن يقوم هؤلاء السائحون الأوائل بالصلاة في القدس وبيت لحم يذهبون إلى وادي النيل الذي بدا حينذاك كملحق للأرض المقدسة. ولا يشهدون في مصر إلا جزءاً صغيراً للغاية، إذ يهتمون بخاصة بمدفن القديس سرچيوس Saint Serge في القاهرة، و«بشجرة العذراء» التي تبعد عن هذا المكان عدة كيلومترات، أو يزورون مقر القديس مرقص بالأسكندرية. ومن أهم الأماكن التي ينشدون زيارتها دير سانت كاترين في سيناء حيث يصلّون فوق قبر شهيدة موقّرة. لقد لجأت هذه الاسكندرانية كريمة النسب إلى هذا الجبل في بداية القرن الرابع لأن عذريتها كانت مهددة بسبب محاولات الإمبراطور الروماني ماكسيميان لإغرائها. وعند وفاتها قامت الملائكة بوضع جثمانها فوق قمة الجبل. وبعد مضي مئات السنين وجد جثمانها سليماً ونقل إلى الدير حيث تم تقطيعه إلى أجزاء كانوا يوزعونها على السائحين ذوي المنزلة الرفيعة.. وقد أحضر الكونت دي شامپاني de Champagne اليد اليمنى لهذه التعيسة إلى فرنسا...

كانت الرحلة عبر الصحراء تدوم عشرة أيام وتتكلف أموالاً كثيرة. ولا يستطيع القيام بها سوى الأثرياء المنتمين إلى طبقة النبلاء. كانوا يتفقون مع البدو لكي يرافقونهم عبر الصحراء إلى دير سانت كاترين. كان هذا الحجّ -والرحلة إلى مصر- يقتصر على الذكور: «لم يكن مسموحاً لأية سيدة بزيارة الدير، بل كانت الزيارة ممنوعة حتى بالنسبة لإناث الحيوانات[٣].» كان الرهبان يستضيفون الزائرين بطريقة متواضعة للغاية، ولا يقدمون لهم طعاماً في وقت الصيام أكثر من العيش الجاف والزيتون وبعض الخل. ويمنح الحجاج الذين يعلقون شعارات نبالتهم فوق أعمدة الكنيسة البازيليك عضوية جماعة سانت كاترين.

2.*Ibid.*
3.Mahfouz Labib.*Pélerins et Voyageurs au mont Sinai.* Le Caire. HFAO.1961.

وبعد صعودهم إلى قمة الجبل يشاهدون الحجر الذي أخرج موسى منه الماء، ويرون حتى الحفرة التي تم صنع العجل الذهبي فيها...

وبطبيعة الحال فإن الإيمان المسيحى لا يغمر جميع هؤلاء الرحالة. فالرحلة السياحية إلى مصر يعتبرها شباب الأرستقراطية الفرنسية وسيلة للتحرر، إن لم يكن للمجون فى ظل إطار غريب خارج المسيحية. ولم يمنع الحجّ روح المغامرة ولا حب الاستطلاع.

إن روايات هذه الرحلات الأولى التى تنتشر في فرنسا «من قلعة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر[4]» تقدم عن مصر صورة خيالية. إنهم يحكون عما يظنون أنهم شاهدوه أو عما يتمنون مشاهدته. وكانت الصور المصاحبة لحكاياتهم خادعة أيضاً. فيقول الطبيب الباريسي بيير بلون دي مانس du Mans عن تمثال «أبو الهول» في الجيزة أنه «مسخ على هيئة تمثال فهو من الأمام عذراء ومن الخلف أسد[٥]»، في حين يصفه الراهب الفرنسيسكانى أندريه توفيه [١٥٠٣أو ١٥٠٤-١٥٩٢] فيقول أن رأسه مستديرة ومجعّدة ويقع وسط حقل من الزهور[٦]. ويصف هذا الراهب الأهرام بأنها مدببة وأن قممها من الماس. وقد أحصى في القاهرة ٢٢ ألف و٤٨٠ مسجداً وهو رقم كبير حتى بالنسبة إلى مدينة تتعلق بالمساجد. ومن جهة أخرى فقد ورد هذا الرقم في روايات عديدة مماثلة، إذ كان الرحالة يميلون إلى استلهام بعضهم البعض كما لو كانوا من أجل توثيق شهاداتهم.

جالية مصر الصغيرة

كانت توجد في مصر في القرن السادس عشر جالية فرنسية صغيرة أمكنها الإقامة في البلاد بفضل نظام الامتيازات الأجنبية. فقدكانت مصر أحد «مرافىء المشرق»، وهو اسم أطلق على الوكالات التجارية التي أقيمت في مدن الإمبراطورية العثمانية والتي حصلت على هذا الاسم من المرافىء التي كانت تتيح للسفن تفريغ ركابها وبضائعها. وكان نظام الامتيازات الأجنبية هذا قد أقيم بمقتضى اتفاق عقد عام ١٥٣٥ بين ملك فرنسا وسلطان القسطنطينية، إذكانت مصر منذ ثمانية عشر عاماً قبل توقيع الاتفاق قد غزاها الأتراك الذين يثيرون الرعب في أوروبا. وكان فرانسوا الأول ملك فرنسا [١٥١٥-١٥٤٧] قد أثار

4. Jean-Marie Carré. *Voyageurs et Écrivains français en Égypte* Le Caire. IFAO.rééd. 1956.t.1.

5. PierreBelon du Mans. *Les observations de plusieurs singularitez et choses mémorables trouvées en Grèce. Asie. Judée.Égypte. Arabie et autres pays estranges.* 1554-1555.

6. *Cosmographie du Levant.* 1556.

استنكار جزء كبير من العالم المسيحي لأنه يقيم علاقات مع الأتراك، لكن ألم يكن على استعداد للتحالف مع الشيطان لمحاربة شارل كنت Charles Quinte [إمبراطور ألماني ١٥١٦–١٥٥٥]؟.

ولم يكن هذا الاتفاق معاهدة رسمية: فالسلطان العثماني «أمير المؤمنين، ومالك البرين والبحرين» لا يتفاوض حتى وإن كان ذلك مع «ملك فرنسا المسيحي جداً ومفخرة ملوك دين المسيح». إن هذه الامتيازت هي إنعامات يمنحها السلطان بصفة مؤقتة ويجب أن تحظى بموافقة خلفائه. وقد حصلت فعلاً على موافقة خليفته في عام ١٥٦٩، ثم حصلت بعدها على موافقة الخلفاء الآخرين عشرات المرات. ومن وقتها فصاعداً اقتدت غالبية دول الغرب المسيحية بالمثال الفرنسي وحصلت من الباب العالي على امتيازات مماثلة.

وبموجب هذه المعاهدة المقنّعة حصل الطرفان على مزايا اقتصادية وسياسية. فالامتيازات تمنح التجار الفرنسيين حرية الشراء والبيع في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية. ويستمتع هؤلاء التجار بإعفاء من غالبية أنواع الضرائب ويمكنهم الإقامة محلياً وممارسة شعائرهم الدينية. ولا يختص القضاة المحليون بالفصل في الخلافات التي تنشب بين المقيمين من الأجانب لكنها تعرض على قنصل بلادهم الذي يقوم بتطبيق القانون الفرنسي: بل وأكثر من ذلك: تلتزم السلطات المحلية بالمساندة في تنفيذ هذه الأحكام. وفيما يتعلق بالمنازعات مع الأهالي فمن المحظور محاكمة الفرنسيين في غياب «الترجمان» (المترجم الرسمي للقنصلية) الخاص بهم، وفي حالة الاتهام بارتكاب جريمة ممنوع محاكمتهم أمام قضاة المحاكم الاعتيادية[7]. وباختصار، كانت الامتيازات الأجنبية تمنح الفرنسيين حقوقاً أكثر من العثمانيين ذاتهم. زد على ذلك أن هذه الحقوق امتدت لتشمل جميع الأجانب الذين ينضوون تحت لواء العلَم الملَكي. هكذا نصّبت فرنسا نفسها حامية للكاثوليك الشرقيين طوال قرون عديدة.

ولم ينتظر تجار مارسيليا ومقاطعة پروڤانس هذه الامتيازات لكي يتاجروا مع مضر. فقد كانوا منذ أمد طويل –مثل منافسيهم البنادقة– نشطاء في الإسكندرية وفي القاهرة. فمنذ السنوات ١٤٨٠ حين انضمت مقاطعتي مارسيليا وپروڤانس إلى فرنسا أحضرا معهما السوق المصرية كمهر لهذا الارتباط. لكن لسوء الحظ فقد هذا السوق أهميته بعد مضي عدة سنوات بسبب اكتشاف ڤاسكو دي جاما لطريق رأس الرجاء الصالح. فقد تم فتح طريق

7. Henri Lamba, *De l'' évolution juridique des Européens en Égypte*. Paris, 1896.

بحري مباشر بين أوروبا والشرق الأقصى دون حاجة إلى نقل البضائع من سفينة إلى أخرى، ولم يعد وادي النيل بعدها سوقاً رئيسياً للتوابل، ومخزناً للمنتجات الواردة من الهند والصين وبلاد العرب وفارس والسودان وأثيوبيا.

ومع ذلك استمرت بلاد الفراعنة خلال القرن السادس عشر في تلقي البضائع عن طريق البحر الأحمر التي تنقل على ظهور الجمال إلى القاهرة، ومن ثم بالمراكب إلى الإسكندرية. وأصبح التجار الفرنسيون يشترون في مصر البضائع المحلية بخاصة مثل الأرز بالإضافة إلى المرّ والبخور والعاج وريش النّعام، ثم بدأوا بعد قليل في شراء منتج جديد سرعان ما ذاع وانتشر بكثرة وهو: بن بلاد العرب. وكان المصريون يحصلون من فرنسا على جوخ إقليم لانجدوك أو دوفينيه وحرائر ليون ومنسوجات پروڤانس والمعادن والخردوات.

لم تكن الجالية الفرنسية التي أقامت فى مصر بفضل الامتيازات الأجنبية تابعة لملك فرنسا لكن لسلطات مارسيليا. وقد لزم الانتظار حتى يتولى لويس الرابع عشر العرش لكي يتحول قنصل فرنسا إلى موظف تابع للملك. لم يكن قبلها سوى تاجر مثل الآخرين لكنه يحصل رسوماً على جميع البضائع التي يتم شحنها. بل وكان في بعض الأحيان لا يقيم في القاهرة ويفوض قنصليته إلى آخر يستأجرها. وتمخض هذا النظام عن اضطرابات ومنازعات، وفي عام ١٦٧١ هرب قنصل فرنسا من مصر. وفى العام التالى أرسل مواطنوه خطاباً ساخطاً إلى الغرفة التجارية بمارسيليا لأن القنصل الجديد يقوم «بتجارة بيع الأسلحة الشائنة». ويؤكدون في خطابهم بأن «هذه الجريمة تزداد فظاعة لأنها تتعلق بأسلحة جديدة هي المسدسات والبنادق والبنادق الصغيرة التي تطلق طلقتين في وقت واحد. ولن يتوانى عدو ديننا عن الاستفادة من هذه النماذج» .[(٨)]

تكشف لهجة هذا الخطاب عن الحالة النفسية للفرنسيين في مصر الذين لم يكونوا أكثر من بضع عشرات: إذ بالرغم من المزايا الواردة في الامتيازات الأجنبية إلا أنهم يشعرون بأنهم محصورون ويعيشون في عزلة. ولا يكفيهم الإفلات من قراصنة البحر، ومن قطاع الطرق الذين يعيثون فساداً على ضفاف النيل، ومن أوبئة الطاعون التي قد تستمر عدة شهور: بل لا بد أيضاً أن يكونوا دائماً حذرين في مواجهة عداء السكان وابتزازات الحكام المحليين.

وأقام الفرنسيون في القاهرة في منازل متلاصقة على أطراف الأزبكية في فناء واسع

8. Cité par Raoul Clément dans *les Français D' Égypte au xvIIe et au xvIIIe siècle,* Le Caire, IFAO, 160.

تغمره مياه فيضان النيل خلال بضعة شهور من كل عام. إنهم يعيشون في حي يسمى حي الافرنج يتم غلقه أثناء الليل بواسطة باب كبير. وفي الإسكندرية كما في رشيد يتجمعون داخل «وكالة» وهي مبنى من قطعة واحدة يشبه مبنى الدير. يوجد داخل الوكالة فناء في الوسط تحيط به مخازن ودكاكين في الدور الأرضي في حين توجد المساكن في الدور العلوي. وفي الليل يتم غلق باب الوكالة على سكانها وكذلك في أيام الجمع أثناء الصلاة. وتقتصر اتصالات الفرنسيين بالسكان على المساومات التجارية أساساً.

كان من حق القنصل وحده أن يركب حصاناً. ويتنقل مواطنوه على ظهور الحمير، على أن يراعوا الهبوط من على ظهر الحمار والسير على أقدامهم عندما يمرون أمام مسجد أو يلتقون بشخصية هامة. والويل للساهين أو الغافلين فسرعان ما تذكّرهم ضربة العصا بضرورة تنفيذ الأوامر... وإذا كان من حق القنصل ارتداء الزي الأوروبي، إلا أن الفرنسيين الآخرين مجبرون على ارتداء الزي الشرقي. وحتى بعد أن تم إلغاء هذا الإجراء في منتصف القرن السابع عشر، فقد كان يجب على المواطنين الفرنسيين ارتداء غطاء خاص للرأس: «طاقية سوداء مزينة بعمامة خفيفة من الحرير.»

ويوضّح الإصلاح الذي أدخله كولبير Colbert [سياسي فرنسي عين مسئولاً عن الشئون المالية] عام ١٦٨١ تنظيم جاليات المشرق بتفصيل دقيق. فيعاون القنصل «مندوبان عن الأمة» ومجموعة من الموظفين من بينهم جراح وعطّار [صيدلي]. محظور على الفرنسيين الإقامة في مصر أكثر من عشر سنوات. ومن المحظور عليهم أيضاً مرافقة زوجاتهم لهم أو زواجهم محلياً. يمكن لزوجات القناصل وحدهن مرافقة أزواجهن بشرط أن تكون الزوجة « كبيرة السن وحميدة الأخلاق». لم يتمكن بعض التجار من حرمان أنفسهم من استقبال نساء في مساكنهم، أو حتى من أن يعيشوا كأزواج مع نساء من العبيد الزنوج، مما تسبب في نشوب منازعات مع القنصل وحوادث عنف مع السكان. كان «كاهن الأمة» يسهر أيضاً على السلوك الأخلاقي لدى الفرنسيين. كان هذا الكاهن المنتمي في أغلب الحالات إلى جماعة الفرنسيسكان يقيم قداساً يومياً في كنيسة صغيرة خاصة بالقنصلية.

لم يكن الحكام المحليون يحترمون الامتيازات الأجنبية إلا قليلاً. إن القسطنطينية بعيدة. وكان السلطان التركي يسعى إلي التقليل من قوة الإغراءات التي تدفع الباشا المحلي إلى الاستقلال فأقام إلى جواره قوتين أخريين تتوازنان مع سلطات الباشا هما: المليشيات [الانكشارية والعزب وغيرها]، والمماليك البكوات. والحال أن هذا التقسيم خلق مناخاً من التشكك وشجّع على حدوث تكدير وإزعاج للأوروبيين. فقد كانوا مضطرين للإذعان

إلى مطالبات مستمرة تتجاوز الحد أحياناً، ولهذا كانوا يقترضون بفوائد باهظة من مُقرضين محليين.

وظل القاطنون الفرنسيون يشكون من هذه «المنغصات الجائرة» خلال قرنين ونصف. لكن يمكن تصور أنهم كانوا يحصلون في المقابل على تعويضات كافية في مصر. وقد قال أحد المراقبين النابهين عشيّة الثورة الفرنسية إنه حين يعود هؤلاء القاطنون إلى فرنسا «تنمحي ذكرى المنغصات وتبقى الذكريات البشوشة»[٩].

مسحوق المومياوات لدى العطار-الصيدلي

عرفت فرنسا منذ القرن السادس عشر نوعاً من الشغف بالأشكال المصرية. فقد ظهرت فيها تماثيل «أبو الهول» لتزيين المداخل والحدائق بل وحتى المقابر، مثل مقبرة غليوم دي بيلاي Guillaume du Bellay [عسكري وديپلوماسي وكاتب فرنسي ١٤٩١-١٥٤٣] في كاتدرائية دي مانس. لكنها ايطاليا هي التي شهدت أوسع انتشار لهذه الظاهرة. كان لا بد للفرنسيين الزائرين لايطاليا أن يزوروا التماثيل المصرية العديدة التي تزيّن الكاپيتول [مقر السلطة] في روما وتزخرف مواقع أخرى مثل ڤيلا ميديسيس أو قصر فارينيز. كان الهوس بمصر الذي انتشر في ايطاليا منذ قبل أربعة عشر قرنا حينما كانت مصر ولاية رومانية قد عاد من جديد إلى الظهور بقوة: وبمبادرة من البابا سيكست الخامس Sixte V نصبت أربع مسلات في ميادين المدينة المقدسة بين أعوام ١٥٨٦ و١٥٨٩.

وفي فرنسا كان العطارون يبيعون عقاراً اسمه «مومياء» وهو على هيئة مسحوق أو معجون يميل لونه إلى السواد، ومن المفترض أنه مستخرج من حرق المومياء.[١٠] كان الإمبراطور فرانسوا الأول ذاته لا يذهب في رحلة اطلاقاً دون أن يأخذ معه على سرج حصانه حقيبة جلدية صغيرة مشتملة على «مسحوق المومياء». وقد اشتهر هذا المنتج مجهول المنشأ بأنه يشفي أمراض الجهاز التنفسي والهضمي ونزيف الدم، ونزيف الحيض الزائد عن الحد فضلاً عن أمراض أخرى. وبطبيعة الحال اشتهر أيضاً بأنه مادة مثيرة للشهوة الجنسية. وقد حصل هذا المنتج على شهرة كبيرة إلى حد أن امبرواز پاريه Ambroise Paré [جراح فرنسي شهير ١٥٠٩-١٥٩٠] نشر «حديث عن المومياء» لكي يستنكر

9. Volney, *Voyage en Égypte et en Syrie pendant les années 1783,84 et 85*, 1787.
10. Ange-Pierre Leca, *les Momies*, Paris, Hachette, 1976.

هذه الإغراءات الكريهة. ويقول جراح عصر النهضة الشهير أن الدواء المزعوم «يُحدث آلاماً كبيرة في المعدة وعفونة في الفم وقيئاً شديداً ويتسبب في حدوث النزيف لا في ايقافه».

وبالإضافة إلى مسحوق المومياء المستخدم كدواء ظهرت المومياء الكاملة المثيرة للفضول والتي كان پيير بيلون Pierre Belon العائد من مصر يسميها بلطف «الجثمان المحفوظ». ومع ذلك كان من الصعب نقل المومياوات عبر البحر المتوسط لأن البحارة الفرنسيين -الأكثر اعتقاداً بالخرافات من زملائهم الإنجليز أو الفلامنديين- كانوا يعارضون وجودها على سطح السفينة: يبدو أن هذه الجثث الملفوفة كانت تثير العواصف. وفي المقابل كان القباطنة لا يترددون في ملء قعور سفنهم بالمسلات والتماثيل أو بقطع من الأعمدة الفرعونية التي لا تمثل بالنسبة لهم أية فائدة. ففي ذلك العصر كانت المواد المصرية بصفة عامة لا تعتبر عملاً فنياً بل مثيراً للفضول. كانوا يعزون إليها قوة سحرية شريرة.

وشهدت فرنسا مولد أول «متاحف» الغرائب التي يكوِّم فيها الهواة جميع أنواع الأشياء المجلوبة والغريبة. وكان من أكثر أناس عصره غرابة وأكثرهم تقدماً قاضٍ من إقليم پروڤانس اسمه نيكولا كلود فابري دي پيريسك de Peiresc (١٥٨٠-١٦٣٧): كان هذا الخبير بمصر مصاباً «بمرض عضال ولم يتمكن اطلاقاً من السفر إلا بأفكاره وبفضل الأشياء التي جمعها في متحفه.ومع ذلك يمكن اعتباره قد ارتحل وتنقل أكثر من جميع معاصريه[١١]». فقدكان على علاقة دائمة بأعضاء الجالية الفرنسية في مصر، وبقباطنة السفن وبمحبي الاستطلاع الأمميين، وانتهي پيريسك باقتناء مجموعة هائلة من الغرائب المصرية بل وأصبح يمتلك معرفة بوادي النيل يندر وجودها في عصره.

وخلال القرنين السادس والسابع عشر كانت مصر «بلاد النوادر المختارة[١٢]». ويعود هذا إلى حقيقة أنها ظلت غامضة ومتعذرة على الفهم. وستظل على هذه الحال طالما أنه لم يتم حل رموز اللغة الهيرغليفية. إنهم يعرفون قراءة اللغة الصينية، لكنهم لا يعرفون شيئاً من اللغة المصرية القديمة. والحال أن بلاد الفراعنة تعتبر أقدم بلاد على ظهر الكوكب الأرضي، كما يرتبط تاريخها بتاريخ العالم اليهودي والمسيحي: فقد ورد ذكرها في التوراة ٦٨٠ مرة...

إن مصر القديمة تغذي الأساطير بصورة أفضل لأنها صامتة. ويعتبرها الماسونيون مصدر

11. Sydney H. Aufrère, *La Momie et la Tempête*. Avignon. Alain Bathélémy, 1990.

12. Krystof Pomian, préface, *ibid*. النص منشور كاملاً في

الحكمة، وهي حكمة مكنونة في الكتابات «الخفية». وبالنسبة لبعض الماسونيين لا يوجد مهندس في الكون أعظم من امنحوتب الذي شيد هرم سقارة. وفي عام ١٧٣١ نشر القس جان تيراسون Jean Terrasson وهو ماسوني فرنسي رواية متميزة للغاية اسمها «سيتوس»، وقد استلهمها موزار فيما بعد عند تأليفه قطعته الموسيقية «المزمار المتهلل». و بعد مضي نصف قرن قام كاجليوسترو Cagliostro [مغامر إيطالي اشتهر في فرنسا بشفاء الأمراض وبممارسة علوم السحر والتنجيم ١٧٤٣–١٧٩٥] بافتتاح رواق «الشعائر المصرية» بمدينة ليون بفرنسا.

وفي ظل حكم لويس الرابع عشر بدأت فرنسا في الاهتمام بالشرق. وحينما أنشأ كولبير شركة الهند عام ١٦٦٤ لم يكن ذلك بغرض اختطاف جزء من تجارة إنجلترا فحسب. فقد قام كولبير ذاته بتنظيم شباب من المشرقيين لتدريبهم على الترجمة وتكوين هيئة للملك من «السكرتيريين المترجمين للغات الشرقية». وبينما كانت كلية «كوليج دي فرانس» تتزود بكرسي أستاذية للغات العربية والتركية والفارسية، قام دي رير Du Ryr قنصل فرنسا الأسبق لدى مصر بترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية لأول مرة عام ١٦٤٧. وبعد مضي نصف قرن كانوا يتخاطفون «ألف ليلة وليلة». وفي عام ١٦٩٦ استرعت الانتباه مسرحية من فصل واحد اسمها «مومياوات مصر[١٣]» عرضت على مسرح بورجوني Bourgogne بباريس من تأليف جان–فرانسوا رينيار Jean François Regnard، وقام الممثلون بأدوار: كليوباترة، وأوزيريس، وأرليكان، وكولومبين...

المستشرقون والمكتشفون الأوائل

ومع ذلك يزداد الاقتراب من المومياوات. ويشهد وادي النيل وصول نوع جديد من الرحالة: إنهم ليسوا حجاجاً بل مستكشفين، وهم في الأغلب مفوضون من السلطة الملكية التي تأمرهم بجمع أكبر عدد ممكن من المسكوكات والمخطوطات العربية. كان هؤلاء الرحالة بصفة عامة ممن عاشوا سنوات عديدة في مصر، ويعرفون لغة البلاد بالإضافة إلى المبشرين. قام هؤلاء جميعاً بزيادة معلومات الغرب التاريخية والجغرافية والعرقية بالرغم من الأخطاء الفاحشة الواردة في تقاريرهم. وأعقب هؤلاء الفرنسيون أوروبيين آخرين مثل الدانمركي فردريك نوردن Fredric Norden أو الإنجليزي ريتشارد پوكوك Richard

13. *L' Égyptomanie à l' épreuve de l'archéologie*. Paris, musée du louvre, 1996.
14. Jean-Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte*, op. cit.

Pococke التي سرعان ما ترجمت مؤلفاتهم في باريس ولاقت هي الأخرى رواجاً كبيرا[١٤].

وفي عام ١٦٦٥ صدر كتاب ينم عن معرفة عميقة عنوانه «رحلات مسيو دي تيڤينو في المشرق»، اشتمل على وصف مصر بدقة وكذلك مدنها الرئيسية والعجائب الموجودة فيها. قد تكون كلمة «بدقة» مبالغاً فيها قليلاً. ولنقل إن هذا المستكشف الذي لم يذهب إلى أبعد من الدلتا قد رسم صورة جذابة عن مصر. فقد تناول التفاصيل الصغيرة أثناء وصفه للإسكندرية، لكن في المقابل لم تعجبه القاهرة إطلاقاً ووجد نفسه مضطراً لاقتباس الرقم الخيالي الخاص بعدد المساجد فيها البالغ ٢٣ ألف مسجداً وهو رقم سبق ذكره. ومع ذلك قام چان دى تيڤينو Jean de Thévenot بوصف تفاصيل مشاهد الحياة اليومية والاحتفالات الدينية الإسلامية. كما أنه فتح بنفسه مقبرة فى سقارة وأخذ معه إلى فرنسا مسحوق مومياء بل وتابوتاً.

وبعد مضي عشرين عاماً قام راهب دومينيكي من أصل ألماني يدعى الأب ڤانسليب Vansleb برحلة أكثر جسارة إلى مصر، وكان قد رحل إليها بناءاً على طلب كولبير Colbert [سياسي فرنسي عمل سكرتيراً للملك لويس الرابع عشر ١٦١٩-١٦٨٣]. زار رجل الدين هذا الأديرة القبطية في وادي النطرون وذهب إلى الفيوم ثم عبر الصحراء إلى أن وصل إلى البحر الأحمر. وصعد في النيل حتى جرجا الأمر الذي لم يفعله أي فرنسى من قبل. كان الوحيدان اللذان غامرا في عام ١٦٦٨ حتى وصلا إلى إسنا هما راهبان من الفرنسيسكان اسمهما پروتيه Protais وفرانسوا François ، وقد اختلط عليهما الأمر وظنا أنها أسوان.

ويمكن منح إكليل النصر عن تلك الفترة إلى راهب يسوعي من القاهرة هو الأب پول سيكار Paul Sicard الذي كانت معرفته باللغة العربية ممتازة. كان هدفه أثناء استكشافه لمصر العليا هو إعادة الأقباط «المنشقين عن الكنيسة الرومانية» إلى «العقيدة الصحيحة». لكنه اكتشف وهو سائر على الطريق كنوزاً أثارت إهتمامه. فنحن مدينون له بوصف تفصيلي لمدينة طيبة التي عثر على موقعها، في حين أن الراهبين الفرنسيسكانيين مرا بها دون التحقق من هوية الأنقاض. وفي شتاء عام ١٧٢١-١٧٢٢ قام الأب سيكار بمتابعة استكشافه حتى كوم امبو وأسوان وفيله. وقد استعان بورجينيون دانڤيل Bourguignon d'Anville أحد علماء الجغرافيا الفرنسيين بالمعلومات التي حصل سيكار عليها، لكي ينشر في باريس بعدها بنصف قرن خريطة دقيقة لمصر إلى حد غريب وذلك دون أن تطأ قدماه وادي النيل.

ويعزى إلي بينوا دي مايبه Benoit de Maillet قنصل فرنسا في مصر، المستعرب هو أيضاً، أنه منح مواطنيه أول مؤلف شامل عن بلاد الفراعنة. ويتميز كتابه «وصف مصر» الصادر عام ١٧٣٥ – قبل صدور المؤلف الضخم الذي يحمل العنوان ذاته بثلاثة أرباع القرن– بأنه قد أبرز لأول مرة المعمار الإسلامى الذي لم يكن يهم رجال الدين إلا في النادر. وسرعان ما نفدت الطبعة الأولى من كتابه. وفي خلال أقل من عام صدرت طبعتان أخريان. وقد صاح ناشره القس لو ماسكرييه Le Mascrier في عام ١٧٤٠ هاتفاً: « نهر النيل مألوف لدى العديد من الناس مثل نهر السين. حتى آذان الأطفال قد أضجرها تكرار الحديث عن شلالاته ومصباته. إن جميع الناس قد شاهدوا المومياوات أو سمعوا عنها.» قد يكون القس الطيِّب مبالغاً بعض الشيء. لكن المؤكد أن مصر كانت في منتصف القرن الثامن عشر تشغل العقول. كانت أيضاً موضوعاً للجدل بين المفكرين المسيحيين وفلاسفة التنوير؛ إذ كان الأولون يرون في الحكمة المصرية برهاناً على الوحي، بينما يرى الآخرون أنها دليل إخفاق الاكليروسية [تدخل القسس في الزمنيات].

وخلال السنوات ١٧٨٠ أظهرت ماري انطوانيت [ملكة فرنسا ١٧٥٥ ١٧٩٣] شغفاً بمصر حين أمرت بإحضار عدد من القطع الفنية إلى القصور الملكية. كانت تهوى تماثيل أبو الهول التي نجد أشكالاً مختلفة منها في غرفة نومها بقصر ڤرساي، أو في صالونها في فونتينبلو، أو في مكتبها الخاص في سان–كلو. وفي نفس العصر ازدهرت في الحدائق أكشاك الغرائب الأجنبية المسماة «مصانع» التي كانت غاصة بالأهرام وبالمسلات. وكان المصنع المقام في حديقة «ايتوپ» قد شيده مهندس معمارى اسمه جان– باپتيست كليبر Jean -Baptiste Kléber الذي أصبح جنرالاً فيما بعد واشتهر في معركة فلوريس [في بلچيكا] ثم في مصر...

كان من الممكن الظن بأن الثورة الفرنسية التي تنادي بالجمهورية وبالمساواة ستدين الفراعنة. لكن هذا لم يحدث. بل على العكس فقد استخدمتهم لصالحها بإلحاحها على حكمتهم، وعلى إحساسهم بالعدالة، واتساع معارفهم –وباختصار «معارفهم وعلومهم». إن هذا الاستثمار لعالم أكثر غموضاً وأكثر قدماً من الحضارة اليونانية– الرومانية يتيح محاربة المسيحية «واتمام بنيان الثورة الخيالي لكنه ديني[١٥]». إن مصر القديمة تساهم من خلال صروحها بالنقاوة التي تتباين مع مأثور النظام القديم منذ العهد القوطي[١٦]. ففي

15. Bruno Étienne, «L'éyptomanie dans l'hagiographie maçonnique», in *D'un Orient l'autre,* Paris. CNRS. 1991.
16. Jean-Marcel Humbert, *L'Égyptomanie dans l'art occidental,* Paris, Acr, 1989.

١٤ يوليو ١٧٩٢ أقيم بساحة شان دي مارس [بپاريس] هرم من القماش كديكور للاحتفال بهدم رموز الإقطاع. وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ بمناسبة ذكرى الشهداء أقاموا هرماً في حدائق التويلرى ومسلة بميدان الڤيكتوار. وعند الاحتفال بالعيد الثورى يوم ١٠ أغسطس التالي شيدت بميدان الباستي نافورة البعث من الجص بلون البرونز . وكانت تمثل الطبيعة الإلهة المصرية إيزيس الجالسة بين أسدين مرتدية تنورة مصرية وتضع على رأسها غطاءاً فرعونياً. كانت «تضغط على ثدييها الخصبين لإفراز سائل البعث النقي والشافي» .

إن مصر تتآلف مع جميع النظم والأيديولوچيات. إنها لا تزال غامضة ويزداد سحرها أكثر فأكثر. وهكذا تتفاقم أبعاد الإغراء بغزوها.

(٢)

إغراءات الغزو

لماذا مصر؟ ولماذا فرنسا؟ لم ينته التساؤل بشأن المسعى الغريب الذي قام به لايبنز Leibniz [فيلسوف وعالم ألماني ١٦٤٦-١٧١٦] في عام ١٦٧٢. فقد ذهب هذا الفيلسوف الذي كان وقتها في الخامسة والعشرين من عمره إلى باريس لتسليم مذكرة إلى الملك لويس الرابع عشر. إنه يقترح بوضوح إرسال جيش لغزو بلاد الفراعنة. وكتب يقول: «هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره والأكثر سهولة في تنفيذه.» إن مصر من بين جميع بقاع العالم «هي الأفضل موقعاً من أجل السيطرة على الدنيا وعلى البحار». والحال أنها خالية من أي دفاع ولا تنتظر سوى «وصول جيش تحرير لكي تنهض».

لم يكتف لايبنز بهذه التأكيدات العامة. فقد تناول التفاصيل، متملقاً «الحكمة المعروفة» عن «الملك شديد الإيمان بالمسيحية». وكان لايبنز لا يجهل علاقات فرنسا السيئة مع تركيا ولا رغبتها في محاربة هولندا. وكتب: «كانت مصر في قديم الزمان منبعاً للعلوم، وعريناً لمعجزات الطبيعة... فلماذا يجب على المسيحيين فقدان هذه الأرض المقدسة التي تربط آسيا بإفريقيا، وتتوسط كحاجز بين البحرين الأحمر والمتوسط، وتعتبر مستودعاً لغلال الشرق، ومخزناً لكنوز أوروبا والهند؟» وأكد الفيلسوف أنه بدلاً من الهجوم على هولندا مباشرة من الأفضل هزيمتها عن طريق مصر. ذلك لأن نجاح هذا المشروع «سيؤمن امتلاك الهند، وتجارة آسيا، والسيطرة على الكون».

ولا يقوم لويس الرابع عشر باستقبال لايبنز ولا حتى بالرد عليه. قام أحد وزرائه بمجرد ابلاغ أمير مايانس [مقاطعة ألمانية] الذي يعمل الفيلسوف الشاب لديه بأن الحروب الصليبية لم تعد مطابقة لذوق العصر منذ لويس التاسع». وبقي الحال على ما هو عليه. واختار الملك شن الحرب في أوروبا....واكتفى في فرنسا بإلغاء معاهدة نانت التي كانت تؤمن السلام بين الكاثوليك والبروتستانت.

وفي ظل حكم لويس الخامس عشر لم يتم طرح المسألة المصرية: كانت العلاقات مع

تركيا أفضل، وبدت السلطة العثمانية أكثر استتباباً على ضفاف النيل. وكان يلزم انتظار العهد التالي لنشهد عودة المشروع للظهور. فقد انهالت على لويس السادس عشر النداءات المصحوبة بحجج متنوعة لكي يحتل مصر، في الوقت الذي ازداد فيه ضعف الإمبراطورية العثمانية بسبب حربها ضد النمسا وروسيا.

وكانت المذكرة الأكثر شهرة في تلك الفترة هي مذكرة البارون دي توت De Tott الذي عاد من القسطنطينية عام ١٧٧٦، بعد أن عمل فيها معاوناً لسفير فرنسا، ومدرّباً عسكرياً في الجيش التركي. لقد أكد في مذكرته أن مصر بلاد مليئة بالثروات ويمكن غزوها بسهولة. وإذا لم نستولِ نحن عليها فإنجلترا ستفعل ذلك. ويرى دي توت أنه توجد ذريعة جيدة لاحتلال بلاد الفراعنة هي: الإهانات والابتزازات المتزايدة التي يعاني منها الفرنسيون المقيمون هناك.

وقد تأثر وزير الحربية بهذه المرافعة فأرسل البارون دي توت إلى مصر في مهمة سرية للاستطلاع وبرفقته قبطان سفينة ورسّام. سافر البارون إلى الموقع ثم عاد إلى فرنسا أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى بصواب مشروعه. ولكن لم يتم حتى دراسة المشروع لأن الأعمال الحربية مع إنجلترا تمنع الاستغناء عن جزء من قوات الجيش.

قصتان شديدتا الاقناع

خلال الأعوام السابقة للثورة، نُشرت قصتا رحلات مختلفتين للغاية لكنهما تفضيان إلى النتيجة ذاتها. وقد أثرت هاتان القصتان بصورة كبيرة في المثقفين والسياسيين الفرنسيين.. حصلت القصة الأولى الصادرة عام ١٧٨٧ على شهرة كبيرة وهي من تأليف ڤولني Volney وعنوانها «الرحلة في مصر وسوريا». وحصلت الثانية على شهرة أقل وكانت قد نشرت قبل الأولى بعام من تأليف كلود اتيين ساڤاري Savary وعنوانها «خطابات عن مصر».

ينتمي ساڤاري إلى اقليم بريتاني الفرنسي وهو مثقف للغاية ويعرف اللغة العربية. لقد قام وهو في السابعة والعشرين من عمره بترجمة القرآن وكتابين آخرين عن النبي محمد. استمرت اقامته في مصر من عام ١٧٧٧ إلى ١٧٩٧. وحين وصل إلى الإسكندرية كان قد تم اغتيال قنصل فرنسا حديثاً، وكانت الفوضى الشديدة تسود البلاد حيث يتجابه المماليك بعضهما مع البعض. ولكن هذا لم يمنع ساڤاري من النظر إلى البلاد بانبهار: «الدلتا.. هذه الحديقة الشاسعة حيث لا تكل الأرض اطلاقاً من الانتاج، وتقوم طوال العام

بتقديم محاصيل الخضروات والفواكه والزهور... وفي شمال المدينة نجد أشجار الليمون والبرتقال والزهور تنمو في الحدائق اعتباطاً...وحين يكون الجو مشتعلاً بالحرارة، والعرق يتصبب من جميع أعضاء الجسم، يتنسم الإنسان اللاهث النسيم المنعش مثلما يتنسم الانسان صحته بعد المرض. وكم هو ساحر أن يقوم الانسان باستنشاق الهواء العليل تحت هذه الخمائل، وعلى شط جدول المياه الذي يرويها! ففي هذا المكان يعتقد الرجل التركي الممسك بغليون طويل من الياسمين المعنبر بأنه قد انتقل إلى حدائق النعيم الموعودة في القرآن...وفي هذه الحدائق نجد أيضاً فتيات من جيورجيا قام آباؤهن المتوحشون ببيعهن كعبيد وقد خلعن هنا الحجاب الذي يضفي عليهن الاحتشام المراعى في العلانية. وحين تكون هؤلاء الفتيات متحررات من كل إكراه فإنهن يرقصن أمامهم رقصات خليعة، ويغنين ألحاناً عذبة، وينشدن قصصاً شعبية تصور عاداتهم ومباهجهم...» .

أما الفتيات القرويات اللاتي يهبطن في الماء ليغسلن الملابس في التُرعة فلسن أقل إثارة: «يغتسلن جميعاً في التُرعة ويتركن جرّاتهن وملابسهن على الضفّة. يدعكن أجسادهن بطمي النيل، ويلقين بأنفسهن بين الأمواج ليلعبن فيها...»

ويمكن تصور حماس ضباط حملة بونابرت وهم يقرأون سافاري أثناء عبورهم البحر المتوسط بعدها ببضع سنوات[1]! أما الجنرالات فإنهم يقرأون كتاب ڤولني باعتباره كتابهم المفضّل، ويرونه أكثر رزانة وجدية مثل كتب الجغرافيا السياسية والاقتصادية الثمينة. لكن لا يجب المبالغة في تصوير التعارض بين الكتابين. فإن صعقة حب وادي النيل التي أصابت سافاري لم تمنعه من ابراز الحالة المفجعة التي تعيش فيها «هذه المملكة الجميلة التي يحكمها متوحشون» ومن أن يدعو إلى غزو مصر: «إذا ما كانت مصر المجردة من أسطول بحري ومن المصانع والمقتصرة تقريباً على مميزات أرضها لا تزال تمتلك كل هذا الثراء الكبير، فيمكنك أن تتصور يا سيدي، كيف ستكون أحوالها حين تصبح بين أيدٍ مستنيرة...حينما يصبح هذا البلد الجميل بين أيدي أمة محبة للفنون سيكون مركزاً لتجارة العالم، والجسر الذي يربط أوروبا بآسيا. سيعود هذا القطر المحظوظ ليصبح من جديد معهداً للعلوم وأفضل أماكن العالم للإقامة العطرة. وليست هذه المشروعات بأوهام يا سيدي.»

أما ڤولني فهو محامٍ شاب من مقاطعة لامايين ويرغب في الاستفادة من ميراث كبير حصل عليه لكي يتنقل. لكنه لا يرغب في الترحال كيفما اتفق. لقد ظل طوال عام

1. Jean- Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte*, Le Caire, IFAO, rééd. 1956,t,I.

كامل يستعد ليصبح محترفاً حقيقياً للسفر، فأخذ يتدرب على النوم في العراء وعلى ركوب الحصان من غير لجام ولا سرج. وإذا كان لم يمكث في مصر إلا سبعة شهور قبل ذهابه إلى سوريا لكي يدرسها خلال مدة أطول، إلا أن نظرته الثاقبة جعلته يصف مصر كما لم يصفها أحد من قبل.

ولا تتسم كتابات ڤولني عن مصر بالحمية ولا بالحماسة، فهو يخالف ساڤاري في الرأي، لكنه ينتقد سطحيته. ويرسم ڤولني صورة قاسية عن بلاد يأكلها البؤس والأمراض والفوضى. حتي الطبيعة ذاتها لا تجد حظوة في عينيه: «القرى مبنية بالطين وتبدو مهدّمة، والسهل ممتد بلا نهاية ويتغير وفقاً للفصول فقد يكون بحراً من المياه العذبة أو مستنقعات وحلة، وبساطاً من الخضرة أو حقلاً من الغبار.» وبالرغم من نفور هذا المراقب إلا أنه دقيق للغاية إلى حد لا يستطيع معه عدم إبراز سحر البلاد. يكفي وصفه الرائع لبيوت الأغنياء في القاهرة ذات القاعات الفسيحة «حيث تنبثق المياه في أحواض من الرخام» لكي يجعلنا نسعى لزيارتها: «لا يوجد في النوافذ زجاج لكن توجد شبكة لإدخال الضوء التي تتكلف أحياناً أكثر من زجاجنا. ويجيء الضوء من الأفنية الداخلية حيث ترسل أشجار الجميز صورة خضراء ينشرح لها البصر. وأخيراً توجد فتحة في اتجاه الشمال أو في أعلى السقف للحصول على الهواء الهفّاف، في الوقت الذي نجد فيه من حولنا ملابس وأثاثات تشيع الدفء مثل الأقمشة الصوفية والفرو. ويزعم الأغنياء أنهم بفضل هذه الاحتياطات يستطيعون التخلص من الأمراض: في حين أن رجل الشعب الذي يرتدي قميصاً أزرق ويفترش حصيراً خشناً يصاب بالزكام أقل منهم ويستمتع بصحة أفضل منهم.»

وتحدث ڤولني بالدقة ذاتها عن التجارة والمكوس والضرائب كما تحدث عن تحصينات ميناء الإسكندرية، وبذلك يكون قد قدم وثيقة فريدة للفرنسيين الذين يحلمون بغزو مصر. وبالرغم من حديثه بالسوء عن وادي النيل إلا أنه دعا بشدة إلى هذا الغزو مستخدماً كلمات ساڤاري بالتقريب: يجب أن تنتقل هذه البلاد إلى «أيد أخرى» ولو من أجل إنقاذ الصروح المدفونة في الرمال. «لو امتلكت مصر أمة محبة للفنون الجميلة لعثرنا فيها على مصادر لمعرفة العصور القديمة لا نجدها في مكان آخر من العالم...إن هذه الصروح المدفونة في الرمال محفوظة فيها كمستودع للجيل المقبل.»

وباختصار يوجد في غزو مصر ما يرضي جميع الأذواق. ويمكنه أيضاً إرضاء السياسيين والعسكريين مثلما يرضي المستكشفين والعلماء والفنانين ومحبي الإنسانية. هذا بالإضافة إلى جميع أولئك الذين تسحرهم هذه البلاد بغموضها أو بحريمها...

شرف فرنسا ومصلحتها

لم ينس ڤولني أن يصف طغيان المماليك «هؤلاء العَسْكَر الفاسقن والماجنين»، وكذلك حالة الجالية الفرنسية الصغيرة التي تعيش في «اعتقال دائم». وكان الجدل يدور حول هذين الموضوعين في باريس التي تتلقى المزيد من التقارير الديبلوماسية ونداءات الاستغاثة. الواقع أن الحالة في مصر تدهورت للغاية. فقد السلطان سيطرته على زمام الأمور في هذه الولاية وأصبح أسياد البلاد لا يحافظون إلا على الشكليات: فالمملوك علي بك الذي استولى على السلطة عام ١٧٦٨ يرفض دفع الجزية السنوية للباب العالي. إنه يقوم حتى بسكّ النقود وبرسم صورته عليها. وفي أحد أيام الآحاد قامت هذه الشخصية المرعبة بالقبض على العديد من رجال الدين الفرنسيين أثناء القداس ولم يقبل الإفراج عنهم إلا مقابل فدية. وفي أحد الأيام طلب إعطاءه ساعة دقاقة مرصعة بالماس. وقد رأوا أخيه يقوم بنفسه بضرب الساعاتي الفرنسي بالعصا. وفي يوم آخر طلب كميات كبيرة من الأقمشة لكي يكسي جنوده. لقد تحول «أعضاء الأمة الفرنسية» [المواطنون الفرنسيون] إلى ضحايا للمماليك البكوات الذين تتزايد شراهتهم. وفي عام ١٧٧٧ انسحبت القنصلية الفرنسية من القاهرة إلى الإسكندرية ومعها غالبية التجار: ففي الإسكندرية كانت الصراعات الدموية بين البكوات أقل حدة، كما أنه من الممكن فى حالة الخطر اللجوء إلى سفينة فرنسية.

وقرر بضعة تجار البقاء في القاهرة على مسئوليتهم الخاصة. ومن بين هؤلاء شارل ماجالون Charles Magallon الذي يقوم بأعمال القنصل في انتظار أن يصبح قنصلاً رسمياً عام ١٧٩٣. وقد لعبت هذه الشخصية الأساسية دوراً حاسماً فيما بعد وهو يعيش في مصر منذ ربع قرن. كانت زوجته تستطيع الدخول إلى حريم المماليك إذ كانت تبيع لهن الأقمشة. وكثيراً ما كان يتم الاستنجاد بمدام ماجالون للتدخل لصالح أحد ضحايا الإذلال من بين مواطنيها.

وأدت الثورة الفرنسية إلى إضعاف الجالية الفرنسية إلى حد كبير. أولاً لأن فرنسيي مصر انقسموا إلى معسكرين متعارضين إلى حد التعارك في بعض الأحيان. ثم لأن الحالة الفوضوية السائدة في باريس كانت تشجع المماليك على الإكثار من ابتزازهم. كان التجار الفرنسيون يسمعون من يقول لهم: «لم يعد لديكم ملك!». كان القلق يتزايد بين الفرنسيين فكانوا «يشترون الأسلحة ويجتمعون ساعتين كل يوم للتدرب على استخدامه»[2] ولم يكن قنصلهم يكف عن نقل مسكنه من القاهرة إلى الإسكندرية والعكس تبعاً

2. François Charles-Roux, *Les origines de l'Expédition d' Égypte*, Paris. 1910.

للأحوال. وكان عدد الفرنسيين في مصر قليلاً إذ بلغ عام ١٧٩٠ : ٢٩ نسمة فى القاهرة، و١٨ فى إسكندرية، و١٤ فى رشيد.

وفي ذلك العام أرسلت الجالية «التماساً» إلى الجمعية التأسيسية الفرنسية والغرفة التجارية بمارسيليا لا لطلب النجدة، بل لاقتراح فرض حصار بحري على مصر مما يتيح لفرنسا الاستيلاء على الطريق إلى الهند. لقد تحول التجار إلى خبراء في الخطط الحربية الاستراتيجية، وقاموا بتحديد عدد القطع البحرية اللازمة لتنفيذ هذا العمل: « أربع فرقاطات، تتولى اثنتان محاصرة مينائي الاسكندرية ودمياط، والأخريان تتجولان بين جدة والسويس.» . لم يتلقوا أي رد. يبدو أنه كانت لدى الجمعية التأسيسية شئون أخرى أكثر أهمية.

وفي عام ١٧٩٣ أرسل «التماس» آخر إلي باريس. وفي هذه المرة لم يكن المطلوب فرض حصار بحري، بل الاحتلال الصريح الواضح. وقد أكد الموقعون عليه بأن: «ستة آلاف من المواطنين–الجنود سيطردون بكوات القاهرة، ولن يكلف غزوها أي دماء». ولم يحصلوا أيضاً على رد. ونشط شارل ماجالون من جانبه وكتب إلى ڤرنيناك Verninac سفير باريس لدى القسطنطينية يقول: «أرجوك أيها المواطن بألا تتقاعس عن المعاونة في إعطاء مصر لفرنسا. هذه من أجمل الهدايا التي يمكنك منحها لها. سيجد الشعب الفرنسي في هذا الكسب موارد هائلة.»

وانتهى ماجالون بالحصول على من يستمع إليه. فقد أصبح تاليران Talleyrand وزيراً للعلاقات الخارجية وطلب منه كتابة مذكرة توضيحية اقتبس منها جملاً كاملة دونها فى تقرير رفعه إلى حكومة الإدارة [الديركتوار] يوم ١٤ فبراير ١٧٩٨. كان هذا التقرير دعوة إلى احتلال مصر. وأبرز تاليران [كان أسقفاً في السابق] فيه مدى ضخامة الشرور التي يرتكبها المماليك. وقال: « لقد اقتربت ساعة عقوبتهم. ولا يمكن لحكومة الإدارة التنفيذية تأجيلها. إن الكرامة الوطنية التي أهينت بقحة تقتضي انتقاماً صارخاً.» وبطبيعة الحال أنه لم يمكن اختزال هذه العملية إلى الانتقام من أجل حفنة من التجار ولا حتى إلى انقاذ كرامة فرنسا. فقد بسط الوزير الحاذق مجموعة من الحجج الأخرى الكفيلة بإغراء المديرين وتملقهم في الوقت نفسه.

فقد ذكر تاليران أمام هؤلاء المدافعين عن الشعب، والمعتبرين أعداءاً للطغيان أنه «حين تقوم حكومة الإدارة بالانتقام للإهانات الموجهة للجمهورية فإنها تحرر سكان مصر من الطغيان الذي يعذبهم». وأضاف بأنه منذ قبل ثمانية عشر قرناً قام الرومان بسلب مصر من ملوك عظام محبين للفن والعلم. واليوم يمكن للفرنسيين انتشالها «من أكثر الطغاة بشاعة». وإذا ما كانت حكومة فرنسا السابقة كثيراً ما فكرت في هذا الغزو. «إلا أن قدراتها

كانت أضعف من تنفيذه. إنه من المقدر لحكومة الإدارة القيام بتنفيذ هذا المشروع باعتباره مُكمّلاً لكل ما قدمته الثورة الفرنسية من جمال وعظمة ومنفعة إلى العالم المُعجَب».

وبعد أن انتهى الوزير من كلامه الجيد أمكنه الانتقال إلى الاعتبارات العملية. إن مصر بلاد غنية كما أن موقعها الجغرافي يجعل منها المركز التجارى الطبيعى للعالم. فإذا ما قامت فرنسا بتحقيق الأمن والاستقرار فيها، ستتمكن الملاحة المتجهة إلى الهند من التخلي عن طريق رأس الرجاء الصالح باهظ الثمن والعودة إلى مضيق السويس كما كان يحدث في زمن سابق (حتى لو تطلب الأمر نقل الركاب والبضائع من سفينة إلى أخرى بسبب اللسان الأرضي الذى يفصل البحر المتوسط عن البحر الأحمر). ويوضّح تاليران أن فرنسا سوف تفقد إن عاجلاً أو آجلاً مستعمراتها في أمريكا، وأنه لا يوجد تعويض أفضل من مصر. إنها بلاد يسهل أخذها، ولن تدخل الإمبراطورية العثمانية في حرب للدفاع عنها. ويمكن لمفاوض ماهر إقناع القسطنطينية بأن احتلال وادي النيل يستهدف الدفاع عن سلطتها في مواجهة المماليك المتمردين. وعلي أي حال «فالإمبراطورية العثمانية لن تدوم أكثر من خمسة وعشرين عاماً»، ويجب على الجمهورية «أن تستولي على ما يناسبها من بين أنقاضها». وهو يضع مصر بلا تردد في المرتبة الأولى من هذه الأنقاض.

مهمة حضارية

لكن هل يمكن للثورة الفرنسية نصيرة حقوق الإنسان احتلال بلد آخر؟ إنه سؤال جيد. وقد أجابوا عليه بالإيجاب وباستخدام حجج بارعة شرحها هنري لورانس بصورة جيدة [٣]. يرى الثوار الفرنسيون أنه إذا كانت أوروبا تتفوق مادياً على مناطق العالم الأخرى، فذلك لأن حضارتها–كانت كلمة «حضارة» [civilisation] كلمة حديثة وقتها– قائمة على العقل. وكل ثقافة لا تنتمي إلى العقل تكون مجردة من المنفعة، وبالتالي من الشرعية: ولا يمكن لعدو العقل القيام بتنظيم الحضارة، والمقصود بعدو العقل هو الاستبداد. وتمثل مصر حالة فريدة من نوعها طالما أن الحضارة ولدت فيها في زمن الفراعنة في صورة الحكمة. وبعدها انتقلت الحضارة إلى اليونان وإلى روما معبِّرة عن نفسها بالمواطنة. ثم ظهرت حضارة العرب التي طورت العلوم. وفي النهاية وصلت هذه الحضارة إلى أوروبا التي ورثت جميع هذه الخاصيات. والحال أن فرنسا بفضل الثورة أصبحت على رأس الحضارة.

3. Henry Laurens, *L' Expédition d' Égypte*, Paris. Armand Colin, 1989.

فهل يمكننا احتكارها؟ أليست الحضارة مقدّرة للجنس البشري بأكمله؟ وحين تقوم فرنسا بنقل الحضارة إلى وادي النيل فإنها لا تفعل سوى العودة بها إلى منابعها.

لم يقم بونابرت ولا تاليران باختراع الحملة على مصر. إن أصول هذا المشروع سابقة بكثير، حتى وإن كان اللقاء بين الرجلين في ديسمبر ١٧٩٧ وتماثل وجهتي نظرهما حول المسألة أتاح لهما تنفيذ مشروع لاينز القديم. إن بونابرت هو الجنرال الأكثر شهرة والأكثر تدليلاً في الجمهورية. فبعد قيامه بحملة إيطاليا الباهرة أحضر معه إلى حكومة الإدارة معاهدة السلام مع النمسا الموقعة في مدينة كومبوفورميو [الإيطالية]. لم يعد لفرنسا سوى عدو واحد له شأن، هو إنجلترا. والقضية كلها هي معرفة كيفية محاربتها. هل يتم مهاجمتها مباشرة بانزال القوات على سواحلها؟ هل يلزم انتزاع هامبورج والهانوفر منها؟ أم تهديد تجارتها مع الهند بالقيام بعملية عسكرية في المشرق؟ لقد قام بونابرت بتحليل كل افتراض من هذه الافتراضات الثلاثة في تقرير قدمه إلى الديركتوار يوم ٢٣ فبراير ١٧٩٨ ولم يفته تقديم افتراض رابع شكلي هو عقد السلام معها.

إن الشرق يجتذب نابليون منذ أمد بعيد. لقد قرأ منذ وقت غير بعيد كتاب «تاريخ العرب» *L' Histoire des Arabes* الذي يضم أربعة أجزاء من تأليف قسيس يدعى دي مارينى de Marigny الذي اختلق لنفسه مجموعة من مفردات اللغة العربية. وبعدها تصفّح سريعاً كتاب سافاري، ثم التهم كتاب ڤولني كما التقى به وتناقش معه في جزيرة كورسيكا. كان مثال إسكندر الأكبر يهيمن على فكر نابليون الذي كان مقتنعاً بأنه إذا كانت السلطة تكمن في باريس فإن العمل الكبير يمكن إنجازه في الشرق. هذا فضلاً عن أن باريس ليست مستعدة لأن تهب نفسها له. يجب عليه العثور على وسيلة تبعده عن باريس من غير أن يصبح منسيّاً. كانت هذه الأفكار تتوافق مع أفكار العديد من أعضاء حكومة الإدارة الذين يرغبون فى إبعاد الجنرال المزعج مع الاستفادة منه فى الوقت ذاته: فالشعب لن يتفهم الاستغناء عن خدماته.

ومن أجل استيفاء موضوعنا فلنذكر التفسير الذي يقدمه فرويد [عالم النفس النمساوى المعروف ١٨٥٦-١٩٣٩] مهما كانت قيمته. كان نابليون معقّداً نفسياً من أخيه الأكبر جوزيف، وكان فى حاجة إلى الثأر بغزو مصر أرض يوسف الذي ورد ذكره في التوراة. «حين نكون يوسف الذى يريد أن يبدو كبيراً فى أعين أشقائه فأين يمكن الذهاب إن لم يكن إلي مصر؟ فإذا ما بحثنا عن كثب الدوافع السياسية لمشروع هذا الجنرال الشاب، سنجد أنها بلا شك لم تكن شيئاً آخر غير عقلنة شاطحة لفكرة تخيلية[٤]».

٤. خطاب من فرويد إلي توماس مان مؤرخ فى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٦.

وفي سرية اتخذ الديركتوار قراراً باختيار مصر. لم يكن الجنود الذين ركبوا السفن بميناء طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ يعرفون الجهة التي يقصدونها. كان مخططاً انضمام أساطيل أخرى إليهم في البحر المتوسط. كان عدد القوات الكلي ٥٤ ألف رجل بما فيهم مختلف العاملين. ومع ذلك تم الإعداد للحملة خلال بضعة أسابيع. إن الأسطول الذي يتحرك مهيب وضخم ويضم بخاصة ١٣ سفينة حربية وست فرقاطات لكن لم يكن القائد العام ذاته مخدوعاً في قدرة البحرية الفرنسية التي أصيبت بضعف شديد منذ الثورة. إنه يقوم بمخاطرة كبيرة حين ينطلق هكذا في البحر المتوسط حيث يوجد الأميرال نيلسون [الأميرال الإنجليزى ١٧٥٨–١٨٠٥] الذي سيمنعه سوء الحظ وحده من العثور عليه. ومع ذلك وبالرغم من نقص الأموال إلا أنه يمكن اعتبار هذا الجيش المتجه إلى الشرق والذي يضم جنرالات عظام ووحدات حاربت في ايطاليا والمانيا أفضل جيوش العالم.

ولم يكن ينقص حملة مصر الغرابة والشذوذ عن المألوف. بالبداهة أن تفردها يعود إلى وجود حوالى ١٦٧ مدنياً اسمهم «العلماء» الذين أحصاهم أمين عام خزانة الجيش أثناء عبور البحر المتوسط: «٢١ عالم في الرياضيات، وثلاثة في الفلك، و١٥ في العلوم الطبيعية وهندسة المناجم، و١٧ مهندساً مدنياً، و١٥ جغرافياً، وأربعة مهندسين معماريين، وثلاثة مهندسين إنشائيين، وثمانية رسامين، ونحات واحد، و١٠ ميكانيكيين فنانين، وثلاثة في البارود والمتفجرات، وعشرة أدباء وسكرتيرين، و١٥ قنصلاً ومترجماً، و٩ شئون صحية، و٩ حجر صحي، و٢٢ فني طباعة، و٢ موسيقيين [٥]». ومن بين هؤلاء بعض المشاهير: جاسپار مونج Monge المعتبر أفضل عالم في الرياضيات في عصره بعد أن ابتكر طريقة شهيرة في تعليم الهندسة الوصفية. وكلود لوي بيرتوليه Berthollet عالم كيمياء كبير اكتشف خواص الكلور المزيلة للألوان وطبقها على تبييض المنسوجات، واتيين جيوفروي سان– هيلير Geoffroy Saint-Hilaire أستاذ كرسي في علم الحيوان بالمتحف، وكان قد حصل على شهرة في السادسة والعشرين من عمره قبل وضعه لأسس علم الأجنة. وكان العديد من أعضاء الحملة من الشباب صغار السن الذين حصلوا على الشهرة فيما بعد مثل: فورييه Fourier، وكونتيه Conté، ولانكريه Lancret... وكما كتب فرانسوا شارل–رو: «لم يحدث من قبل إطلاقاً لجيش ذاهب لغزو أحد البلدان أن أخذ معه دائرة معارف حية مثل هذه[٦]».

5. Gabriel Guémard, *Histoire et Bibliographie critique de la commission des sciences et des arts et de l'Institut d'Égypte,* Le Caire, 1936.
6. François Charles-Roux, *Bonaparte gouverneur d'Égypte,* Paris, 1936.

كان بونابرت حريصاً على إضفاء البُعد العلمي والفني على حملة مصر وذلك بعد أن خاض تجربة من ذات النوع، لكن على نطاق ضيق للغاية وذلك أثناء غزواته العسكرية في الراين وايطاليا. إنه شديد الفخر لقبوله عضواً بأكاديمية العلوم –فقد احتل مقعد كارنو [جنرال وسياسي وعالم ١٧٥٣–١٨٢٣]– ويشعر بأنه يحمل مشروعاً «حضارياً» لبلاد الفراعنة. فقد أمر قبل الرحيل بشراء مكتبة حقيقية تضم ٥٥٠ مؤلف أساسي. وحمل جيش الشرق معه أيضاً مواد للطباعة بثلاث لغات (الفرنسية والعربية واليونانية)، ومعملاً كيميائياً، ومكتبة فيزياء، ومكتبة تاريخ طبيعي، ومرصد، وتجهيزات كاملة لصناعة المناطيد ولقيادتها...

وتم توزيع العلماء على عدة سفن أثناء عبور البحر المتوسط، حتي لا «يُسلِّم العلم لمصير سفينة واحدة». كان غالبية الضباط يغتاظون ويسخرون من وجود العلماء، لكنهم تعلموا شيئاً فشيئاً الاطلاع على خدماتهم وتقديرها. ولم يكن في استطاعة أحد وقتذاك التخيل بأن حملة مصر ستترك عن طريق هؤلاء المدنيين أثراً حقيقياً في التاريخ.

(٣)

بونابرت... باشا القاهرة

هبط بونابرت من السفينة إلى أرض مصر يوم ٢ يوليو ١٧٩٨ بلا أية صعوبة، بعد أن استولى في الطريق على مالطة. وقد واجه في الإسكندرية مقاومة بسيطة سرعان ما أخمدها، فقد فقدت الإسكندرية أبهتها القديمة ولم تعد سوى قرية كبيرة تضم بضعة آلاف من السكان وغير محصّنة دفاعياً: لقدكان شارل ماجالون القنصل الفرنسي السابق على حق، وهو على أي حال يرافق القائد العام في رحلته على ظهر سفينة أميرال البحر المسماة «الشرق»، وترك بديلاً عنه ابن شقيقته الذي جاء فوق ظهر السفينة للترحيب بهم. وأبلغهم أن الاميرال الإنجليزى نيلسون الذي يبحث عن أسطولهم قد غادر الإسكندرية منذ قليل. وحين قال نيلسون للحاكم إنه لا جدال بأن الفرنسيين يستعدون لغزو مصر سخر منه الحاكم قائلاً: «لماذا يجيء الفرنسيون؟ ليس لديهم شيئاً يفعلونه هنا.» على أي حال فالمماليك مقتنعون بأنه إذا ما ارتكب الكفار حماقة الرغبة فى اجتياح البلاد فإنه سيتم دق أعناقهم جميعاً.

وبعد مضي بضعة أيام كان جزء من جيش الشرق في طريقه نحو القاهرة. أية فكرة تلك التي جعلتهم يحتلون مصر في غَمرة الصيف! إن زي الجنود الفرنسيين لا يتناسب اطلاقاً مع الجو الحار ولا مع الرمال. قبعاتهم ليست كافية لحمايتهم من الشمس. إنهم محبوسون داخل الأحذية الجلدية عالية الرقبة المحيطة بسيقانهم ويختنقون في أزيائهم العسكرية المصنوعة من نسيج دقيق الخيوط وجلد البقر كما أنهم جياع وعطاش. لقد سقط بعضهم في الطريق. واستولى اليأس على آخرين فقتلوا أنفسهم بالرصاص أو ارتموا في النيل. وقال شاهد من ضباط الصف الفرنسيين: «كنا في حالة محزنة، ويقتفي أثرنا

جماعات من العربان على طوال الطريق، كانوا يقتلون بلا هوادة جميع الرجال الذين يتخلفون عن الركب بسبب ضعفهم أو معاناتهم [1]».

كان الجنود الفرنسيون يخشون المماليك وسيوفهم المعقوفة التي يقال إنهم يستطيعون بضربة واحدة منها شطر العدو إلى نصفين. ومع ذلك فقد اطمأنوا خلال المواجهات الأولى بشأن القدرات الحقيقية لهذه المليشيات التي تتحلى بالشجاعة لكنها طائشة إلى حد كبير. ففي يوم ٢١ يوليو انسحق المماليك أمام التشكيلات العسكرية الفرنسية المربعة أثناء المعركة الشهيرة «معركة الأهرام» التى جرت في الواقع فى إمبابة بعيداً عن الأهرام بمسافة كبيرة. وهذا يعني عدم صحة الأسطورة الشائعة القائلة بأن «أبي الهول» فقد أنفه في ذلك اليوم: من المحتمل أن تكون قذيفة عثمانية اقتلعت أنفه في زمن سابق، إلا إذا كان هذا الجزء البارز قد ذهب ضحية لعوامل التآكل...ويجب أيضاً أن نعرف أن بونابرت لم يهتف قائلاً «من فوق هذه الأهرام أربعون قرناً تنظر إليكم»، بل قال ما هو أكثر ركاكة: «اذهبوا، وفكروا بأنه من فوق هذه الصروح أربعون قرناً تراقبنا»...

باسم الله العلي القوي

هرب مراد بك وابراهيم بك المهيمنان على مصر، إذ لجأ أحدهما إلى الصعيد والآخر إلى الدلتا وبرفقته الحاكم العثمانى. لم تعد توجد سلطة فى القاهرة حيث قام جمهور غاضب بسلب قصور المماليك التي تم هجرها. وأصدر نابليون بياناً رسمياً باللغة العربية جاء فيه: «يا أيها المصريون، اننا حضرنا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان. أما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين.»

والحال أنه بالنسبة لدين النبي محمد فقد حفظ بونابرت تحذير ڤولني الذي كتب يقول: «لكى يمكن الاستقرار في مصر يجب شن ثلاثة حروب: الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالي، والثالثة وهي أصعبهم جميعاً ضد المسلمين.» لكن الچنرال الفرنسي صاحب الانتصارات المجيدة في أوروبا قرر اجتذاب المسلمين بدلاً من محاربتهم. إن هذه الصورة التي تبين الچنرال الفرنسى الشاب وهو يبهر علماء الدين الإسلامي كبار السن قد ألهمت أكثر من رسام أوروبي، مثلما ألهمت ڤيكتور هوجو في كتابة بعض أشعاره بأسلوب رائع في مؤلفه «أهل الشرق» *Les Orientales*.

1. Colonel Vigo Roussillon, "Mémoires militaires", cités par Charles la Jonquière. *L' Expédition d'Égypte, 1798-1801*, Paris, 1899-1905, t. 11.

وحين نزل بونابرت من السفينة إلى الإسكندرية جهر بعقيدته الدينية بصراحة أكثر بمعاونة ڤينتور دي پارادي Venture de Paradis أكبر علماء الحملة سناً فقد أصدر بياناً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على اساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف اهالي مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد يتعاملون بالذل والاحتقار في حق المّلة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدي... هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة [أي القوقاز وجيورچيا] يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذي لا يوجد في كرة الارض كلها، فاما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون، قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح لا تصدقوه، وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالي واحترم نبيه والقرآن العظيم...قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحض النصارى على محاربة الاسلام.»

وقد حرصوا على تنقيح النسخة الفرنسية حتى لا يصدموا جنود الجمهورية. لكن إعلان بونابرت الغريب لم يقنع المسلمين إلا قليلاً. وتمثل المذكرات اليومية التي دونها عبد الرحمن الجبرتي كاتب الحوليات المصري الشهير وثيقة فريدة عن هذه الفترة(٢). فقد بين الجبرتي أخطاء الصياغة والأسلوب والأخطاء النحوية الواردة في هذا الإعلان، وقال إنه مليء بالتنافر وبالتوكيدات التي تتنافى مع دين الرسول. ويرى الجبرتي أن هؤلاء الناس يدعون إلي إسلام باطل، وأن معاداتهم للكاثوليكية تجعلهم موضع شبهة أكبر بأنهم ملحدون(٣). وقال الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس ديوان الأعيان الذي شكله بونابرت ما معناه بأنهم «طائفة من الفلاسفة [...] ينكرون البعث والحياة الأخرى ورسالات الأنبياء، ويضعون العقل البشري فوق كل شيء».

وارتأى بونابرت أنه يتعذر ممارسة نفوذ مباشر على السكان المحليين، فالتجأ إلى الوسطاء. وطلب في وصيته إلى كليبر Kléber منح المصريين رؤساء، وإلا فإنهم

2. Abdel-al-Rahman al-Jabarti, *Journal d'un notable du Caire durant l' expédition françahse, 1798-1801,* traduit et annoté par Joseph Cuocq, Paris, Albin Michel, 1979.

3. Excellente synthèse de la pensée de Jabarti sur ce point, in Henry Laurens, *L' Expédition d' Égypte,* p. 95-97.

سيختارونهم لأنفسهم. «لقد فضلت العلماء والفقهاء في القانون: ١) لأنهم رؤساء بحكم الطبيعة؛ ٢) ولأنهم شارحو القرآن، ولأن أكبر العقبات التي عانينا منها ولا زلنا نعاني، تنشب من الأفكار الدينية؛ ٣) ولأن للعلماء أخلاق طيبة، ويحبون العدالة، وهم أغنياء، وتحركهم مبادىء أخلاقية طيبة. لا جدال أنهم الأكثر أمانة في البلاد. إنهم لا يعرفون ركوب الخيل، ولا المناورة العسكرية، ولا يجيدون تصور القيام بحركة مسلحة[٤].»

وتم في القاهرة كما في الأقاليم تشكيل ديوان استشاري يضم علماء وموظفين كبار. وكان يتولى المحافظة على النظام أعضاء في المليشيات العثمانية السابقة تحت قيادة ضابط فرنسي. وظن نابليون أنه يجب أن يفرض على العلماء ارتداء وشاح [يسميه الجبرتي «طيلسان» ويتم وضعه فوق الكتف] يحمل ألوان العلم الفرنسي الثلاثة لكنه واجه منهم رفضاً واستنكاراً. وقد تخلى حتى عن فكرة فرض تعليق شارة تحمل الألوان الفرنسية. ومع ذلك انتشرت هذه الشارة بين سكان القاهرة الذين أصيبوا بالرعب بسبب أعمال القمع التي شنها الفرنسيون بعد الثورة الأولى في اكتوبر ١٧٩٨ . وقد انتزعوا هذه الشارة عن الذين يحملونها إذ اعتبروهم غير جديرين بحملها...

حدث الكثير من سوء الفهم والمنازعات. لم يتفهم السكان إجراءات صحية مختلفة لوقف انتشار الأوبئة، مثل تجميع القمامة أوكنس ورش الشوارع. كما لم يتفهموا الالتزام بإضاءة الشوارع ليلاً للمحافظة على الأمن. ووصل سوء الفهم إلى الأوج حين أمرت السلطات الفرنسية بإزالة أبواب الأحياء الثقيلة التي يغلقونها ليلاً من أجل المحافظة على الأمن[٥]... فقد فوجيء الفرنسيون باندلاع ثورة القاهرة الأولى [يسميها الفرنسيون تمرداً]، بتحبيذ من نداءات من القسطنطينية لشن حرب مقدسة. ولكن سرعان ما تدخل الجيش وتم قذف حي الأزهر بالمدفعية. ويقول الجبرتي إنه تم تدنيس الجامع الشهير بأسوأ طريقة ممكنة من جانب الجنود الفرنسيين الغاضبين بسبب وفاة عدة عشرات من مواطنيهم، ومن بينهم الجنرال ديبوى Dupuy قائد جيش العاصمة. دخل الجنود الأزهر بخيولهم التي ربطوها بعمود القبلة المقدسة، ثم بدأوا يرتكبون أعمال النهب والتدمير. «لقد نهبوا وخربوا القاعات المجاورة والملحقات وحطموا الفوانيس والقناديل...رموا الكتب الدينية ومن بينها نسخ القرآن على الأرض وكانوا يدوسونها ويدّنسونها بأحذيتهم، كما لطخوا الموقع بالبول

4. «Mémoire sur l' administration intérieure», publié intégralement par Charles La Jonquière, *L'Expédition d' Égypte,* op. cit., t. V, p. 597-606.

5. Jean-Joël Brégon, *L'Expédition française au jour le jour*, 1798-1801. Paris, Perrin, 1991

والبراز والبصاق..» وبعيداً عن هذا المجون والفسق وبالرغم من مظاهر التصالح، جرت أعمال قمعية بلا رحمة. قال بونابرت «كنا نقطع رؤوس حوالي ثلاثين شخصاً في كل ليلة»، فقد كان مقتنعاً بأنه يجب إشاعة الرعب من أجل الحصول على الاحترام.

معجزات العلم

كان نيلسون [الأميرال الإنجليزى] يبحث عن الأسطول الفرنسي. وفى النهاية عثر عليه يوم أول أغسطس ١٧٩٨ في «أبو قير» حيث رست السفن الحربية بلا حذر. وكانت مجزرة. لم يتبق لبونابرت من أسطوله كله سوى سفينتين وفرقاطتين سمحوا له بالعودة إلى فرنسا في العام التالي. لقد فقد في هذه المعركة ١٧٠٠ بحار غير المصابين الذين بلغوا العدد نفسه تقريباً. أصبح جيش الشرق سجيناً في مصر، عاجزاً عن العودة إلى بلاده. واستخلص بونابرت درساً: «لم يعد لدينا أسطول. حسناً، يجب أن نموت هنا أو نخرج عظماء مثل السابقين... هذا الحادث سيجبرنا على فعل أشياء أكبر مما كنا نعتزم... يجب علينا أن نكفي ذاتنا بذاتنا.» ومن ثم اعتمدوا على براعة العلماء الذين كانوا هم ذاتهم قد فقدوا منذ بضعة أسابيع سابقة جزءاً من معداتهم وأجهزتهم (ميكروسكوبات، ومشارط، وكراسات تجميع أعشاب...) وذلك بسبب جنوح سفينة وقع لها حادث طارئ، كما فقدوا أجهزة أخرى بعدها ببضعة شهور حينما تم نهب منزل كافاريللي Caffarelli بالقاهرة.

بالرغم من مرارتهم، عكف أعضاء لجنة العلوم والفنون على العمل فوراً. تم تحديد ثلاثة أهداف لهم: الأول تقديم مساعدة تقنية لعسكريي وإداريي البلاد؛ ثم اكتشاف أسرار مصر وإظهارها لأوروبا؛ وأخيراً «نقل فنون أوروبا إلى شعب نصف متخلف ونصف متحضر» وذلك وفقاً لنص كلمات چومار Jomard [مهندس وجغرافي وأثري ١٧٧٧-١٨٦٢]. وفي يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ أنشىء معهد مصر على غرار معهد فرنسا. اختير أعضاؤه الستة والثلاثون من بين أكثر أعضاء اللجنة شهرة وتم تقسيمهم إلى أربع فئات: رياضيات، وفيزياء، واقتصاد سياسي، وأداب وفنون. كان مونج Monge [عالم رياضيات ١٧٤٦-١٨١٨] رئيساً للمعهد، ونابليون نائباً للرئيس، وفورييه Fourier [عالم طبيعة ورياضيات ١٧٦٨-١٨٣٠] سكرتيراً عاماً.

أقيم المعهد في قصرين خاصين بالمماليك وكان يسوده جو عمل حقيقي. وكتب چيوفروى سان-هيلير [عالم طبيعة ١٧٧٢-١٨٤٤] إلى والده في اكتوبر ١٧٩٨: «أجد هنا حديقة واسعة، ومعرضاً للحيوانات، ومكاتب فيزياء وتاريخ طبيعي. وألتقي هنا برجال لا يفكرون إلا في العلوم، وأعيش وسط بيت يتأجج بالعلم والمعرفة.»

وفي الجلسة الأولى طرح بونابرت ستة أسئلة عملية للغاية أتاحت الفرصة لتكوين ست لجان عمل: كيف يمكن تحسين أفران الخبز للجيش؟ هل يمكن العثور على مادة بديلة لحشيشة الدينار [مادة نباتية] لصنع البيرة؟ هل توجد طريقة لتنقية مياه النيل ولتبريدها؟ هل من الأفضل إقامة طواحين هواء أم طواحين ماء في مصر؟ ما هي المواد المحلية التي يمكن استخدامها لصنع بارود؟ كيف يمكن تحسين النظام القضائي والتعليم في مصر؟

ومنذ الجلسة الثانية قدم مونج تقريراً عن السراب الذي كثيراً ما ضلل الجنود العطاش ومنحهم آمالاً كاذبة أثناء مسيرتهم المضنية نحو القاهرة. وتم تشكيل لجان جديدة لإعداد معجم مصطلحات عربية ولمقابلة الموازين والمقاييس في مصر وفرنسا... عاد نابليون مرة أخرى بأسئلة جديدة: هل يمكن زراعة العنب في مصر؟ وحفر آبار في الصحراء؟ وتزويد قلعة القاهرة بالمياه؟ والاستفادة من أكوام الأنقاض المحيطة بالقاهرة؟ وبناء مرصد؟ وإقامة مقياس على النيل؟

وكانت بعض التقارير ذات أهمية تاريخية مثل تقرير بيرتوليه [عالم الكيمياء الشهير] عن تكوُّن كربونات الصوديوم بصورة طبيعية في النطرون. وتم نشر جميع هذه التقارير في مجلة علمية اسمها «العقد المصرى» *La Décade égyptienne* في الوقت الذي أصدر فيه جيش الحملة جريدة أخرى للأنباء الخفيفة اسمها « أخبار مصر» *Le Courrier de L'Égypte*. كانت هذه الجريدة تنشر أخباراً مختلفة وأداة للدعاية لبونابرت، وهي أول جريدة تصدر في القارة الإفريقية.

وحقق أعضاء لجنة العلوم والفنون معجزات. ذلك مثل نيكولا جاك كونتيه Nicolas Jacques Conté مخترع الرصاص الصناعي لأقلام الرصاص الشهيرة الذي كانت براعته وفكره الموسوعى موضع الإعجاب العام. فقد قال مونج عن ابن الجنايني هذا الذي أصبح قائداً لفرقة المناطيد بالجيش: «إنه يمتلك جميع العلوم داخل رأسه وجميع الفنون بين يديه.» وقد كتب أحد الفرنسيين الذي قضى جزءاً من حياته في مصر لدراسة أعمال هذه اللجنة الشهيرة: «إن ما ابتدعه كونتيه خلال بضعة شهور لا يصدق: طواحين هواء، مغازل صوف وقطن، صناعة نسيج، مصانع ورق، قبعات، مسابك لحروف الطباعة، آلات لدبغ الجلود، ولسك النقود! قام أيضاً بصنع نقالات لنقل الجرحى، وحمالات خاصة للمدفع لعبور الصحراء، وحدد انصالاً للسيوف، وصنع تلسكوبات، وطبولاً وأبواق موسيقية[٦]!»

وبالرغم من أن الجبرتي كاتب الحوليات المصري كان متشككاً وصارماً تجاه الاحتلال

6. Gabriel Guémard, *Histoire et Bibliographie critique de la commission des sciences et des arts et de l'Institut d'Égypte*, Le Caire, 1936.

إلا أنه عبّر عن ذهوله حينما شاهد طواحين الهواء، والعربات النقالة التي كان يستخدمها الفرنسيون، ومكتبة المعهد الذي دعي لزيارته. وقد تأثر لحقيقة أن الأوروبيين يعملون ليلاً ونهاراً من أجل تعلّم اللغة العربية. ويروي الجبرتي: «واذا حضر اليهم بعض المسلمين [هكذا فى الأصل] ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز اماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه اليهم، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الافكار[7].»

ويندهل الجبرتي أيضاً من تجليات الكيمياء والطبيعة: «ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا في كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة اخرى فصعد منه دخان ملوّن حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر، فقلبه على البرجات حجرا يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وباخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا. وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة [البندقية] انزعجنا منه فضحكوا منا.» وتحدث الجبرتي طويلاً بعد ذلك عن عرض آخر يتعلق بالكهرباء وبالجلفنة التي تحدث انتفاضات لدى حيوانات ميتة ومقطعة إلى أجزاء لم يعلق قائلاً: «ولهم فيه امور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول امثالنا.»

وفي يوم آخر أظهر الزائرون المصريون قلة تأثرهم بتجربة كيميائية. كان بونابرت حاضراً وشعر بضيق لهذا. ولاحظ الشيخ البكرى ذلك فسأل بيرتوليه فجأة فيما إذا كان علمه يتيح له أن يكون في مصر وفي المغرب في آن واحد. هزّ الكيميائي الكبير كتفيه بما يعني لا معقولية هذا الأمر. فصاح الشيخ البكري: «ها أنت ترى بأنك لست ساحراً بصفة مطلقة!»

المستكشفون يباشرون العمل

ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر: كانت هذه إحدى المهام التي عهدت حكومة الديركتوار بها إلى بونابرت. تم ذكر حفر قناة السويس صراحة في القرار الرسمي الصادر يوم ١٢ أبريل ١٧٩٨: «يستولي الجنرال قائد جيش الشرق على مصر؛ يطرد الإنجليز من

٧. عبد الرحمن الجبرتي، «عجائب الآثار فى التراجم والاخبار»، الجزء الثانى دار الجيل، بيروت، ص. ٢٣٣.

جميع ممتلكات الشرق التي يستطيع الوصول إليها؛ ويهدم بنوع خاص جميع وكالاتهم التجارية على البحر الأحمر...يحتل برزخ السويس ويتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتأمين امتلاك الجمهورية الفرنسية للبحر الأحمر بصفة مطلقة.»

حفر قناة السويس...لم يخترع السياسيون الفرنسيون هذه الفكرة الكبيرة. إذ يحلم الأوروبيون بربط البحرين منذ بداية القرن السادس عشر. فالأمر يتعلق بشن هجوم مضاد لطريق رأس الرجاء الصالح وانقاص طريق الهند إلى النصف.

وفي ليلة عيد الميلاد عام ١٧٩٨ ذهب بونابرت إلى السويس برفقة العديد من الجنرالات وثلاثمائة جندي.وعدة علماء من بينهم مونج وبيرتوليه وچاك -ماري لوپير Jacques-Marie Le Père كبير مهندسي الطرق والجسور. وعند أطراف هذه الضيعة البائسة الواقعة في إطار خلاب عبر نابليون البحر الأحمر في فترة الجزر، لزيارة «عيون موسى» منابع المياه شديدة الملوحة، وعاين آثار قناة كانت تربط النيل بالسويس منذ قرون سابقة. وعند العودة فوجيء نابليون ومرافقوه بالمد. وكادت تقع كارثة محققة. قام جندي بانقاذ الچنرال كافريللى من الغرق لكنه فقد ساقه الخشبية في هذه المغامرة. كانت هذه هي أولى الأضرار الناشبة عن مشروع شق قناة السويس...وبعد مضي عدة سنين لم ينس نابليون سرد هذه الواقعة في «مذكرات سان-هيلين» وعلق عليها قائلاً: «لقد خرج كافاريللي من هذا الحادث فاقداً لساقه الخشبية، وعلى أية حال فقد كان يحدث له ذلك أسبوعياً.»

وتم تكليف لوپير بالشروع في اتخاذ الإجراءات اللازمة للربط بين البحرين عن طريق قناة حالما يصبح الأمر ممكناً. وعاد المهندس لوپير لزيارة برزخ السويس أربع مرات برفقة معاونيه. كان لوپير يعمل في ظل ظروف صعبة من بينها تهديدات البدو ووجود عجز في الوسائل التقنية، الأمر الذي قد يفسر أسباب الاستنتاج الخاطيء الذي تضمنه تقريره، والقائل بارتفاع مستوى مياه البحر الأحمر عن مياه البحر المتوسط بحوالي عشرة أمتار. هذا الاستنتاج يؤدي إلى نتائج جسيمة لأن اختلاف مستوى المياه بين البحرين يثير الخوف من حدوث فيضان يغرق الدلتا في حالة حفر قناة بينهما. وقال لوپير في تقريره أن حفر قناة مباشرة سيواجه عقبة رئيسية هي: صعوبة إنشاء ميناء في خليج «بيت آمون» [اسمه اليوم «تل الفرما»]، ويقع على البحر المتوسط شرقي پورسعيد بحوالى ٣٥ كيلومتراً]. وأظهر مهندس الطرق والجسور ميلاً لحفر قناة غير مباشرة. على أية حال لم يسعف الوقت بونابرت لتنفيذه، لكن تم طرح المشروع، وسيتولى آخرون تنفيذه فيما بعد...

ويحتفظ استكشاف صعيد مصر للفرنسيين بدوافع للانبهار وبحصيلة باهرة. كان ڤيڤان

دينون [نحّات وديبلوماسي فرنسي ١٧٤٧-١٨٢٥] البالغ الخمسين من العمر يرسم بمفرده في ذيل الحملة الفرنسية التي يقودها الجنرال ديزيه Desaix . لم يكن الجنود يتفهمون تماماً فائدة العلماء والفنانين المرافقين للحملة. «ماذا يفعل هؤلاء الرجال أصحاب القبعات الكبيرة والسترات الخضراء الطويلة داخل المخيمات؟ هؤلاء الذين يقومون بمسح الرمال والحفر فيها؟ وفي أوقات الجوع والإعياء كان الجنود المشاة يلقون على هؤلاء العلماء تبعية فكرة القيام بهذه الحملة ويغيظونهم بتسميتهم «الحمير البيضاء الصغيرة(٨).» وحدث أثناء وقوع هجوم غير متوقع من جانب المماليك أن قام ضابط بجيش الشرق باعداد فرقته الصغيرة في وضع التشكيل المربع، ثم أصدر أمراً ظل شهيراً: «الحمير والعلماء في الوسط...وقوف!»

ومع ذلك يروي ڤيڤيان دينون أنه عند الوصول إلى طيبة «وأمام مشهد الأنقاض المبعثرة توقف الجيش تلقائياً، وأخذوا يصفقون وكأن احتلال أنقاض هذه العاصمة كان هو الهدف من وراء أعماله المجيدة وأنه استكمل غزو مصر(٩)». وأمام معبد دندره الذي كان جزؤه الأكبر مدفوناً في الرمال جاءه أحد الضباط ليقول له: «منذ أن جئت إلى مصر وأنا أشعر بالخيبة في كل شيء، لقد كنت طوال الوقت حزيناً ومريضاً، لكن دندره أبرأتني؛ إن ما رأيته اليوم قد خلصني من جميع متاعبي.»

إن دينون رجل فنان. لكن العمل كان مختلفاً تماماً بالنسبة لمجموعة من الشباب الفرنسي أرسلت إلى الموقع عام ١٧٩٩ لدراسة نظام النيل والزراعة تحت إشراف مهندس للطرق والجسور. فبعد انتهاء المهمة شغف طالبان بمدرسة البوليتكنيك الفرنسية بعلم الآثار أحدهما في الثانية والعشرين من عمره ويدعى بروسبير جولوا Prosper Jollois والثاني في التاسعة عشر ويدعى إدوار دوڤيلييه Édouard Devillier . لقد قاما بصنع نماذج من المعابد والتماثيل والمسلات والتحف من جميع الأنواع وكانا بارعين للغاية في تقليدها. وحينما انضمت إليهما فيما بعد اللجنتان العلميتان اللتان شكلهما نابليون تبين أنهما أنجزا بالفعل الجزء الأساسي من العمل(١٠). وخلال عودة العلماء من الشباب وكبار السن إلى القاهرة سجلوا العديد من العجائب الأخرى المحفوظة بطريقة باهرة في الرمال وفي ظل

8. Jean-Marie Carré, V*oyageurs et Écrivains français en Égypte,* Le Caire, IFAO, rééd. 1956,t.1.
9. Dominique Vivant Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte,* Paris, .1802.
10. Jean-Claude Golvin, «L'expédition en Haute-Égypte à la découverte des sites», in Henry Laurens, *L'Éxpédition d'Égypte, op. cit.*

هذا المناخ الجاف. وقد تم شحن صناديقهم المليئة بالمذكرات والرسوم إلى فرنسا بعد مضي عامين.

وفي يوم ١٩ يوليو ١٧٩٩ اكتشف الكابتن فرانسوا-اكزافييه بوشار الضابط المهندس حجراً بين أنقاض حصن بالقرب من مدينة رشيد يحمل نقوشاً كتابية باليونانية والديموطية والهيروغليفية. لم يغب عن العلماء الفرنسيين أهمية هذا النصب «المصنوع من الجرانيت الأسود شديد النعومة والصلابة والبالغ ارتفاعه ٣٦ بوصة.» وقد اخترعوا وهم لا زالوا في القاهرة طريقة مستحدثة في علم الطباعة على الحجر لكي يتمكنوا من المحافظة على نسخ من هذه النقوش. ولكن حجر رشيد لم يفدهم كثيراً في ذلك الوقت. وتشير النقوش اليونانية إلى أن فيلوباتور بطليموس [بطليموس الثالث عشر حاكم مصر من عام ٥١ إلى ٤٧ قبل الميلاد] قد أعاد فتح جميع قنوات مصر وحشد من أجل ذلك العديد من الرجال وأنفق أموالاً ضخمة. وقد ظنوا وقتها أن نقوش اللغات الأخرى تقول الشيء نفسه. واعتقدت جريدة «لو كورييه ديجيبت» [أخبار مصر] أن النقوش الديموطية هي نقوش سريانية وأكدت بأن «هذا الحجر يمثل أهمية كبيرة لدراسة الحروف الهيروغليفية، وربما حتى يقدم لنا أخيراً مفتاح هذه اللغة.».

(٤)

الحنين إلى الوطن

وبعد مصر، بدأ غزو سوريا. ففي يوم ١٠ فبراير ١٧٩٩ رحل بونابرت في اتجاه المشرق بصحبه الجنرال لان Lannes [أصبح مارشالاً ١٧٦٩-١٨٠٩] والجنرال كليبر و١٢ ألف رجل. وكتب إلى الديريكتوار بأن هدفه منع التقاء الجيشين التركيين وطرد الإنجليز من السواحل. هل يعتزم التوغل أكثر حتى القسطنطينية؟ تغيرت استراتيچيته. فهو يسعى إلى إثارة العرب ضد الأتراك بعد فشله في جمع المسلمين حوله. كما أنه مقتنع بأن السوريين مستعدون لمعاداة الأتراك وأنه يمكن أن يثور اليونانيون والأرمن في إثرهم . لا جدال بأن ناپليون يحلم «بالزحف نحو القسطنطينية ومن ورائه تحالف يضم جميع هذه الشعوب[١]» .

بدأت حملة سوريا بعبور الصحراء الذي يحمل ذكريات مؤلمة لكنه ينطوي على انتصارات سريعة في العريش وغزة ويافا. وفي هذه المدينة الأخيرة يصدر ناپليون أمراً بقتل الأسرى. يجب إطلاق النار على جميع من ليسوا بمصريين ويقرب عددهم من ألفين وخمسمائة شخص. ومع ذلك تم قتلهم بالحراب لوجود نقص في طلقات الرصاص. ووصف شاهد عيان هذه المجزرة بقوله: «هرم مرعب من الموتى ومن المشرفين على الموت ممن تقطر دماؤهم[٢]».

ولكن الموقف أمام عكا كان مختلفاً. فالمدينة محصنة بشدة من جانب العثمانيين كما يقوم الأسطول الإنجليزي بقيادة سيدني سميث بتموينها. وانتقل الفرنسيون من حالة الإحباط إلى الرعب لوقوعهم ضحايا لوباء الطاعون. كان ديچنيت Desgenettes كبير الأطباء يطعم نفسه بالڤيروس لكي يطمئن الجنود.لكن بلا جدوي. إن وفاة الجنرال بون وبخاصة الجنرال كافاريللي الذى يعبده الجنود ساهم في تحطيم معنويات المهاجمين. وفي

1. Henry Laurens, *L'Expédition d'Égypte*, Paris, Armand Colin, 1989.
2. J. Miot, *Mémoires pour servir à l'hisroire des expéditions en Égypte et en Syrie*, Paris, 1814.

١٧ مايو، بعد شن الهجوم الرابع عشر وبعد شهرين من المجهودات غير المجدية تم رفع الحصار، وعادوا إلى الطريق الصحراوى اللعين حاملين المرضى والمصابين.

عاد بونابرت إلى القاهرة بعد أن نقص جيشه بمقدار الثلث، لكنه يقوم بتنظيم استقبال ظافر. وأصدر بياناً باللغة العربية لإبلاغ سكان القاهرة بأنه لم يعد يوجد حجر فوق الآخر في عكا «إلى حد أنه يمكن للمرء أن يتساءل فيما إذا كانت توجد مدينة في هذا المكان من قبل.» وظهر أن القائد العام الذي لم يفلح في استخدام ورقة العروبة عاد مرة أخرى للإسلام. فقد أوضح أنه «يحب المسلمين ويحترم النبي»، ويعتزم «بناء جامع لا مثيل له في العالم»، بل وحتى «سيعتنق الدين الإسلامى».

لكنه لم يفعل فقد ظهرت عقبتان أمامه وأمام جنوده: الأولى صعوبة قبول الختان، والثانية صعوبة التخلي عن الخمور. وتخلى العلماء المسلمون بمهارة عن النقطة الأولى ثم عن الثانية. لكن تلاشى الموضوع مثلما تلاشت الأجوبة...وكان الجنرال جاك مينو Jacques Menou هو الوحيد من بين أصحاب الرتب العالية (كان قبل الثورة عضواً بالجمعيات العامة عن طبقة النبلاء) الذي اختار الإسلام ديناً له والزواج من مسلمة، كما سمى نفسه عبدالله. كان نابليون بونابرت «يستخدم الجامع في مصر، مثلما كان يستخدم الكنيسة في ايطاليا[٣]».

وعلى أي حال فقد كان حماس الجنرالات الفرنسيين للإسلام ينزل عقاباً بالمسيحيين المحليين. من المؤكد أن نابليون كان يستخف بهم. فقد حذر كليبر من منحهم «حريات» وكان يتمني أن يظلوا «أكثر خضوعاً وأكثر احتراماً للأمور الخاصة بالإسلام مثلما كانوا في الماضى». وقد شرح ذلك ببرود فقال: «مهما فعلت سيظل المسيحيون أصدقاءنا دائماً.» وإذا كان نابليون قد أسند إلى المسيحيين جباية الضرائب فقد كان ذلك بسبب الضرورة لا رغبة في تحسين أحوالهم[٤]. ومع ذلك فقد حارب عدة مئات من هؤلاء المسيحيين إلى جانب القوات الفرنسية في فرقة قبطية تحت قيادة يعقوب الشهير. وحدث الشيء ذاته مع الكاثوليك القادمين من سوريا بقيادة المدعو چوزيف حموي.

ثورة القاهرة الثانية

بعد بضعة أسابيع من عودة بونابرت إلى مصر، علم بنبأ نزول حوالي ١٨ ألف تركي

3. Albert Sorel. *Banaparte en Égypte, Paris,* Plon.
4. Jacques Tagher, *Coptes et Musulmans,* Le Caire, 1952.

من السفن بالقرب من الإسكندرية. أسرع إلى ملاقاتهم وأرجعهم إلى البحر. إن هذا النصر الذي حققه في «أبوقير» (٢٥ يوليو ١٧٩٩) سمح له بمحو الهزيمة البحرية التي تحمل الاسم ذاته، وبأن يبرر رحيله إلى فرنساحيث قدره يناديه. إنه يعرف بأن الديريكتوار قد خسر ايطاليا وأنهم في حاجة إليه في باريس– أو على الأقل أنه في حاجة لأن يكون هناك. وفي يوم ٢٣ أغسطس يهبط سراً على الأرض الفرنسية برفقة العديد من الجنرالات من بينهم بيرتييه ودوروك ولان ومارمون وموراً وكذلك العديد من أعضاء لجنة العلوم والفنون ومن بينهم مونج وبيرتوليه وڤيڤان دينون.

وكان خليفته كليبر غير مقتنع تماماً بهذا الرحيل، لكنه قام بتبريره أمام الجنود بالتلميح بإمكانية عودة جيش الشرق بأكمله إلى فرنسا. إنه مقتنع شخصياً بأنه لم يعد لدى هذا الجيش شيئاً هاماً يفعله في مصر، وأنه سيكون أكثر فائدة بكثير في ميادين المعركة في أوروبا. وكان هذا هو الشعور السائد إلى حد كبير لدى الضباط. «كانت الأغلبية تعتقد أن غزو مصر هو مغامرة قصيرة وباهرة ومجدية وكانوا يظنونها فاصلاً ترفيهياً. لكنهم وجدوه حصاراً ونفياً ووقفاً للتقدم والترقي(٥)...» لو كان الأسطول لم يتحطم في أبو قير لكانوا قد أقلعوا منذ أمد بعيد.

ومع ذلك ينهض القائد العام الجديد بأعباء وظيفته مع تناوله للأكثر أهمية: الحصول على أموال–وبالتالى جباية الضرائب– لمواجهة موقف مالي خطير ولدفع رواتب العسكريين المتأخرة. قام بتقسيم مصر إلى خمسة أقسام وعين عليها أمناء للخزينة من الفرنسيين يعاونهم مساعدون أقباط. في الواقع كان يوجد نقص في كل شيء: مدافع، وبارود، وخشب، وأحذية للجنود، وتبن للخيول...

ولم يمنع هذا معهد مصر من متابعة أعماله. استمر العلماء الفرنسيون في ظل كليبر في وضع خرائط للمدن، وتنقيب البحيرات، ودراسة نباتات البلاد، وتصنيف المعادن والحشرات... قاموا بقياس الهرم الكبير، وتقرر تجميع جميع الأعمال العلمية في مؤلف واحد كبير (كتاب **وصف مصر** المقبل).

كان كليبر يرسل تقارير متشائمة إلى الديريكتوار. فهو يرى أن جيش الشرق لن يستطيع الصمود طويلاً في وادى النيل بسبب حرمانه من التعزيزات، ولكونه بلا دفاع من ناحية سوريا، ولمواجهته لتهديدات القوات التركية والإنجليزية وما تبقى من قوات المماليك في آن واحد. ومن هذا المنظور خاض مفاوضات مع أعدائه. وتم وضع أسس الاتفاق يوم ٢٤

5. Albert Sorel, *Bonaparte en Égypte,* op. cit.

يناير ١٨٠٠ وهي: يمكن للفرنسيين الرحيل بشرف على مراكب عثمانية وضعت رهن تصرفهم. أثار هذا الاتفاق حماس جزء كبير من الجيش الفرنسي كان متشوقاً إلى حزم حقائبه، وبدأوا في الواقع في الجلاء عن مصر العليا والدلتا.

لكن الأحداث تتدافع. لا تصدق حكومة لندن على الاتفاق بإيعاز من نيلسون وتطلب استسلام الفرنسيين بلا قيد ولا شرط. وحينذاك خاطب كليبر جنوده ساخطاً فقال: «أيها الجنود، لا يمكن الرد على مثل هذه السفاهات إلا بتحقيق الانتصارات! استعدوا للقتال.» واستجاب الجنود له. ففي يوم ٢٠ مارس قام ١٥ ألف فرنسي بإنزال هزيمة ساحقة بالأتراك الذين يزيد عددهم ثلاثة أو أربعة أضعاف.

وفي اليوم التالي اندلعت ثورة القاهرة الثانية بتحريض من آلاف العثمانيين والمماليك والمغاربة. أقيمت المتاريس وارتكبت أعمال عنف ضد المسيحيين. انتظمت المقاومة في الحي القبطي. بدأ كليبر بحصار المناطق الثائرة. وفي ١٥ أبريل أطلق نيران مدافعه وشن هجوماً على حي بولاق الذي تم حرق منازله الواحد بعد الآخر. تم إخماد الثورة وفرض ضرائب باهظة على المسلمين وبخاصة الأعيان. استعاد الجيش الفرنسي مواقعه في الدلتا وانضم مراد بك أحد الزعيمين المملوكيين إلى المحتل وأعلن نفسه «سلطاناً فرنسياً». كانت الريح تتجه لصالح الفرنسيين. لقد أعيد غزو مصر جزئياً. تم تنظيم فيالق شرقية (يونانية ومماليك وقبطية...) لتعزيز جيش الاحتلال. توقف الحديث عن الجلاء.

وفي يوم ١٤ يوليو قتل كليبر في حديقة مقر اقامته بعد أن طعنه بخنجر سليمان الحلبي السوري المسلم. ثم تسليم القاتل إلى بارتيليمي Barthélemy المرعب، وهو مسيحي يوناني مشرقي انضم إلى الفرنسيين وكان مكلفاً بالأعمال الخشنة. سرعان ما اعترف سليمان الحلبي بأنه قد فعل ذلك من تلقاء نفسه وبأنه قد أبلغ العديد من شيوخ الأزهر بنياته. تم قطع رؤوس ثلاثة من هؤلاء في حين كانت من نصيب القاتل «عقوبة للاعدام مع التعذيب سائدة في البلاد بالنسبة للجرائم الكبرى»: «هذه العقوبة هي حرق يده اليمنى ثم اعدامه بالخاذوق وترك جسده معلقاً فوق الخاذوق حتى تأكله الطيور الجارحة». تم تنفيذ هذا الاعدام المخيف فور تشييع جثمان كليبر. لكن الشاغل العلمي لم يتوان عن الاعلان عن نفسه، إذ حصل لاري Larrey رئيس الجراحين الفرنسيين على جسد المنكّل به ليضمه إلى مجموعته. وظلوا «خلال سنوات عديدة يعرضون جمجمة القاتل على طلبة الطب وذلك قبل أن يستقر مصيرها في متحف الإنسان(٦)».

6. Henry Laurens, *L'Expédition d'Égypte, op. cit.*

عبدالله مينو مشايع للاستعمار

كان عبدالله مينو خليفة كليبر مسلماً حديث العهد. لم يكن لهذا الجنرال هيبة سابقيه وكانوا يوجهون إليه انتقادات عديدة. وفي المقابل إنه يحمل مشروعاً مترابطاً سيبدأ في تنفيذه وهو: استعمار مصر. فمن رأيه أن الفرنسيين موجودون في مصر لكي يبقوا فيها ويجب عليهم تدبير أمورهم وفقاً لهذا. إن القائد العام الجديد لا يحب المسيحيين، ويشكّل ديواناً لا يضم غير المسلمين. ويشرع في إصلاح ضريبي كما يصدر مرسوماً يفرض على المحاكم المصرية إصدار أحكامها باسم الجمهورية الفرنسية. وخلال بضعة شهور من الاستقرار وتوقف التهديدات العسكرية صدرت مجموعة من التنظيمات. ومن باريس بدأ نابليون الذي أصبح حاكماً لفرنسا [قنصل أول] في إرسال ذخائر إلى مصر.

ومع ذلك لم يكن مينو يحظى بمحبة قواته ولا باحترامها. إن أساليبه البغيضة في معاملاته مع خصومه وميوله المفرطة نحو فرض اللوائح جعلته موضع انتقادات متزايدة. هكذا تزايد التبرم داخل الجيش الذي يتساءل منذ بداية الحملة عن أسباب مجيئه إلى ضفاف النيل.

قيل للجيش في البداية إنه جاء إلى مصر بتعضيد من السلطان العثماني لتحريرها من طغيان المماليك. لكن السلطان أصدر النداءات لشن حرب مقدسة ضد الفرنسيين، ثم أرسل القوات لمحاربتهم. وها هم الفرنسيون يتحالفون الآن مع مراد بك الزعيم المملوكى الذى كان قد لجأ إلى الصعيد...إذا كان رحيل نابليون قد خلق شعوراً بالتخلي والإهمال، فإن اغتيال كليبر المحبوب للغاية قد أحدث أحزاناً وبلبلة. ويزداد الشعور بمصاعب الحياة اليومية. إنهم لا يستطيعون الاعتياد على المناخ ولا على رداءة البيئة الصحية. إنهم لا يتذوقون الطعام المحلي، ويتحسرون على النبيذ الجيد. أما بالنسبة للنساء...فبائعات المؤن والخمور تعانين من المضايقات والملاحقات وكذلك الثلاثمائة زوجة أو صديقة للعسكريين اللاتي حضرن بالمراكب سراً. كانت العلاقات بالمصريات صعبة، والجنود ينحرفون نحو المومسات. أنواع التسلية والترفيه نادرة، حتى وإن كان المسيحيون المحليون افتتحوا مقاهٍ على النمط الأوروبى. لم يكن يكفى صعود الهرم الأكبر، أو نقش الاسم عليه، أو حتى تناول طعام العشاء فوق قمته لتبديد الحنين إلى الوطن. وتكشف الخطابات التي أرسلها الجنود الفرنسيون إلى عائلاتهم واحتجزها الإنجليز أثناء الطريق عن الكثير في هذا الشأن(٧).

7. Jean-Joël Brégeon, *L'Égypte française au jour le jour, 1798-1801*, Paris, Perrin,1991

الواقع أن الحملة تعاني منذ البداية من تذبذب أهدافها مثلما أوضحه المؤرخ جاك بانفيل Jacques Bainville: «هل يريدون إقامة مؤسسة دائمة؟ هل يسعون إلى تحويل الأنظار والحصول على وسيلة للمقايضة في الحرب مع إنجلترا التي سيطرت حينذاك على كل شيء؟ لم تكن هذه الأفكار واضحة حتى في ذهن بونابرت. كانوا في بعض الأوقات يتحدثون عن مصر باعتبارها «مستعمرة» ستحل محل المستعمرات التي فقدتها الثورة، وأنها ستكون بسبب غناها وموقعها الفريد أفضل مائة مرة من سان دومينجو. وفي مرات أخرى كانوا يعتبرونها كرهينة ووسيلة للتفاوض. إنهم لم يرغبوا في وضع السيادة التركية موضع التساؤل. فقد أعلنوا للسكان بأنهم قد جاءوا لتخليصهم ولمساعدتهم على حكم أنفسهم بأنفسهم. لكنهم قاموا بأفعال متناقضة تماماً فهم تارة يبذلون محاولات للاحتواء وأخرى يضعون التخطيطات لإقامة حكومة محلية. في الواقع أن النظام الذي كان قائماً هو الاحتلال العسكري العطوف، كان نظاماً مؤقتاً لم تتحدد طبيعته قط، فهو ليس استعماراً خالصاً، ولا حماية كاملة(٨).»

ولم يصبح عبدالله مينو رجل الاستعمار، بل رجل الانسحاب بعد نشوب عدة معارك عسكرية قادها الفرنسيون بطريقة سيئة ضد التحالف الإنجليزي-التركي وعلى إثر مفاوضات مهينة. وعلى ظهر مراكب تابعة لصاحب الجلالة ملك بريطانيا وبدءاً من ٢ سبتمبر عام ١٨٠١ بدأ انسحاب جيش الشرق. واصطحب الفرنسيون معهم جثمان كليبر الذي أخرجوه من قبره، كماحملوا جزءاً من الكنوز التي جمعها علماؤهم. أراد الإنجليز مصادرة كل شيء، وجرت مناقشات عنيفة في هذا الشأن. وقام عالم الطبيعة الفرنسي جيوفروي سان-هيلير بتهديد المنتصرين باسم زملائه فقال: «انكم تسعون إلى الشهرة. حسنا! فكروا في ذكريات التاريخ: لقد قمتم أيضاً بحرق مكتبة الإسكندرية.» وكان حجر رشيد الشهير من بين الأشياء التي استولى عليها الإنجليز وقد وضع في المتحف البريطاني فيما بعد (لم تشهد باريس هذا الحجر إلا مرة واحدة في عام ١٩٧٢ حين أحضر إليها بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على اكتشاف شامپليون).

لقد مكث جيش الشرق ثمانية وثلاثين شهراً على ضفاف النيل. وبلغ مجموع الرجال الذين فقدهم ١٣,٥٥٠ رجلاً -كان العديد منهم ضحايا لمرض الطاعون- وتبدو حصيلة حسابه الختامي بأنها ضعيفة للغاية. وقد كتبت مصرية ترأس القسم الفرنسي بكلية البنات بجامعة الأزهر تقول: «على إثر جلاء الفرنسيين عن أرض مصر لم يبق شيء من ثقافتهم.

8. Jacques Bainville, *Précis de l'histoire d'Égypte par divers historiens et archéologues, Le Caire.* IFAO, 1933, t, 3.

ظل المصريون غرباء تماماً عن هذه الحضارة التي تكشفت لهم. وبالرغم من روعتها إلا أنه لم يتبق شيء من لغتها ولا من ميولها أو فنونها فيما عدا بعض الاستثناءات». وسرعان ما أضافت: «يعود تاريخ مصر الحديثة إلى ٢ يوليو ١٧٩٨ ، وهو اليوم الذى أعلن فيه نابليون من فوق سفينته «الشرق» بأنه سيهبط إلى أرض مصر»(٩).

الواقع أن نتائج الحملة قد تجلّت بطريقة غير مباشرة وفي وقت لاحق. ولسوف تبدأ هذه القصة على التو.

9. Kawsar Abdel Salam el-Beheiry, *L'Influence de la littérature française sur le roman arabe,* Québec, Naaman, 1980.

(٥)

العودة من مصر

شرع ڤيڤان دينون في العمل فور عودته من مصر، إذ كان يكتب وينقش ويرسم بنفسه بعض اللوحات. وحقق كتابه «رحلة في مصر العليا والسفلى خلال حملات الجنرال بونابرت» رواجاً هائلاً. كانوا يتخاطفونه إلى أن تمت ترجمته إلى لغات عديدة. لقد صدرت منه أربعون طبعة خلال القرن.

ويعود نجاح هذا الكتاب الهائل أولاً إلى جودته وإلى جدّته. إنه شهادة يدلي بها مراسل حربي لا ينقطع إطلاقاً عن كونه فناناً. لقد حضر معركة «أبو قير البحرية» التي شاهدها من فوق برج، ورافق مينو في حملته «لتهدئة» الدلتا، وديزيه أثناء مطاردته للمماليك في الصعيد. كان يرسم مخطوطات أولية «بين كل طلقة بندقية وأخرى[1]»، مستخدماً ركبتي أحد الجنود كمنضدة، أو متسلقاً فوق كتفي آخر ليرى عن كثب نقشاً أو تاج عمود. كان هذا الفنان البالغ الخمسين من العمر يضطر إلى التوسل للعسكريين لكي يتوقفوا قليلاً أو لكي ينحرفوا عن الطريق المباشر. وفي وادي الملوك حصل على إذن بزيارة قبر رمسيس الثالث وأخذ يتصايح بصوت عالٍ للمطالبة بربع ساعة. «لقد منحوني عشرين دقيقة لا تزيد ثانية واحدة، وكان أحد الأشخاص يهديني بينما يمسك آخر بشمعة لإضاءة كل شيء أشير إليه...»

لقد أضفى هذا الريپورتاچ الذي تم بخطى عسكرية سريعة على كتابه مذاقاً خاصاً للغاية وجاذبية ضخمة. وبالرغم من أن الرسوم سريعة ألا أنها تتفوق على رسوم نوردن أو پوكوك التي كانت معتبرة حجّة حتى ذلك الحين. وفيما يتعلق بالنص فإنه لا يتقيد بالأصول الفنية: لا توجد اقتباسات من المؤلفين القدامى، ولا استطرادات تاريخية–فلسفية.

1. Jean Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte.* Le Caire. IFAO, rééd. 1956, t,1.

إنه يروي وقائع وصوراً مأخوذة من الواقع الحي، وفي خضم نيران الأحداث. ومع ذلك يبدي الفنان اهتماماً بجميع الجوانب فيمزج الفنون بالعهود، والصروح بالشخصيات، والأعراق بالسلالات الحاكمة.

ويمكن أيضاً تفسير نجاح هذا الكتاب بسبب أنه يتناول أخبار الساعة. لقد سبق ڤيڤان دينون جميع زملائه من علماء الحملة أو فنانيها. فقد كان أول كتاب يصدر ويستجيب بدقة إلى توقعات جمهور متعطش إلى مصر وإلى الأعمال البطولية. وهو يندرج في ذوق العصر كما يساهم في خلقه. إن كلمة الإهداء التي وجهها إلى بونابرت تعبر جيداً عن الرغبة في دمج الحضارة الفرعونية مع المغامرة النابوليونية، إذ تقول: «إن ضم بريق اسمك إلى روعة صروح مصر، هو ربط للوقائع المجيدة بالأزمنة الأسطورية...»

لكن هذا لم يمنعه -وهذه ميزة أخرى للكتاب- من التعبير عن حيرته بل وعما يثير اشمئزازه. لقد وجد هذا العاشق لليونان صعوبة في الاستمتاع بالفن المصري الذي لا يتوافق كثيراً مع المعايير الكلاسيكية، إلى أن جاءت اللحظة التي عشقه فيها أمام معابد الصعيد. فقد كانت الأهرام مثلاً تبدو له علامة على سلطة استبدادية تحشد آلاف الرجال لتشييد صروح عديمة الجدوى وتتجاوز الحدود.

لقد رافق دينون جيشاً أثناء خوضه للمعارك الحربية الأمر الذي لم يفعله أي كاتب-رحالة آخر من قبل، ذلك باستثناء جوانفيل في وقت الحرب الصليبية لكنه لم ير من مصر شيئاً. واكتشف دينون في هذه الرحلة فظائع الحرب وما يواكبها من قتل وثأر واغتصاب وتشويه. وبينما يقوم هذا الوطني الفرنسي بالافتخار بالانتصارات الفرنسية إلا أنه لم يستطع الامتناع عن الصياح: «أيتها الحرب كم أنت باهرة في التاريخ! وكم تصبحين شائنة حين لا تخفين ويلات التفاصيل!»

موسوعة منقطعة النظير

وسيتبين لنا في وقت لاحق أن لوحات دينون أقل دقة بكثير من لوحات كتاب «وصف مصر». ولكن حين بدأ هذا العمل التذكاري الرائع في الظهور عام ١٨٠٩، كان دينون قد أصبح شهيراً بالفعل. فضلاً عن أنهم قد لجأوا إليه ليرسم صورة غلاف «مجموعة الملاحظات والأبحاث الموضوعة في مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى والمنشورة بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون العظيم.». وهذه الجملة الأخيرة الطويلة هي العنوان الفرعي لكتاب «وصف مصر» عند ظهوره.

إن رسم الغلاف الذي وضعه دينون هو صورة رمزية عن مصر. ويظهر هذا الرسم المنظوري الجسور الذي يمتد من البحر المتوسط إلى الشلالات المعابد والأهرام و«أبو الهول» والمسلات وحتي حجر رشيد دفعة واحدة...ويسير نابليون-الفتى الجميل راكباً عربته في مقدمة العلماء والفنانين. وتتدرج الانتصارات الفرنسية (أبو قير والعريش وغزة...) داخل أطر زخرفية فرعونية مثلها كمثل المدن الكبري القديمة كطيبة والإسكندرية. ويحيط بالحرف «N» أول الحروف المكونة لاسم نابليون ثعبان رمز الخلود المعروف.

وتشتمل الطبعة الأولى من مؤلف «وصف مصر» على ٩ أجزاء من النصوص و١٤ جزءاً من اللوحات من بينها ٣ لوحات من القطع الكبير المسمّى «أطلنطى» الذى يبلغ طوله متراً و٢٠ سم. وتم تقسيم هذا العمل الكبير إلى ثلاثة أقسام هي: العصور القديمة، ومصر الحديثة، والتاريخ الطبيعي. ويضم ١٢٦ مبحث باهر حول الموضوعات الأكثر تنوعاً، و٨٩٤ لوحة مدهشة ملونة أو باللون الأسود. إنه يشتمل على كل شيء: من الرجال إلى الحشرات، ومن الصروح إلى أدوات النجارة لم يحدث من قبل دراسة فرنسا ذاتها أو أي بلد آخر بمثل هذه الدقة!

وتم تنفيذ هذا العمل الرائع تحت إشراف ثمانية ممن عاشوا في مصر والعارفين بها: برتوليه وكونتيه وكوستاز وديجينيت وفورييه وچيرار ولانكريه ومونج. وقد خلفهم فيما بعد چومار عالم الجغرافيا لأن إصداره امتد عبر سنوات. وحين صدر الجزء الأخير منه عام ١٨٢٨ كان نابليون قد رحل عن هذا العالم، ويحكم فرنسا شارل العاشر...وخلال هذه الفترة كان الناشر پانكوك قد أصدر طبعة ثانية جديدة سهلة التناول أهداها إلى الملك لويس الثامن عشر الذي تولى العرش بعد نابليون وقبل شارل العاشر. وتشتمل هذه الطبعة الجديدة على ٢٦ جزءاً من قطع الثمن وتكلفت ثلث تكلفة الطبعة السابقة.

كان ڤيڤان دينون قد عمل بمفرده كفنان. لكن هذا العمل هو عمل جماعى اشترك في تنفيذه خبراء تحدوهم الرغبة في أن يكون موسوعياً. إنه لا يشتمل على قصص رحلات ذاتية، ولا على رسوم أولية وتخطيطية، بل على إحصاءات ورسومات مهندسين ولوحات علماء الطبيعة. إن ميزة «وصف مصر» الكبرى هى دقته المفرطة. لقد كانت خريطة مصر التي رسمها ٢٣ رساماً بمقاس ١٠٠،٠٠٠١١ دقيقة إلى حد أن نابليون اضطر إلى منع نشرها في الحال لأسباب أمنية. وفيما يتعلق بالصروح لم يكتف المؤلفون بإظهارها بأمانة. قاموا بعرضها من الداخل والخارج ومن جميع الزوايا. وتستطيع عين القارئ أن «تحصي في الرسومات عدد الأحجار، وأن تتبين المواد والأنماط والتقنيات المستخدمة في البناء»؛

ويمكن في بعض الأحيان ملاحظة «أن المهندس لم يتقن عمل استدارة القبة، أو أنه أخطأ قليلاً في الحجم، أو في القياس المتري[٢]»...

ومع ذلك يسمح المؤلفون لأنفسهم بتصورات تخيلية بقصد استخدام فنون التعليم أو لمجرد منح الحيوية لهذا المؤلف–الصرح. إنهم يعيدون تشكيل صروح تهدم نصفها أو دفنت في الرمال، ويعيدون وضع الألوان الأصلية التي محتها القرون، ويرسمون أشخاصاً وسط الأحجار مما يساعد على تقدير أبعاد الصروح. ونرى بعض هؤلاء الأشخاص الأقزام يرتدون الزي العسكري، «ونرى أشباح ضباط يمتطون الخيول، وتماثيل صغيرة لجنود يسيرون في عرض عسكري، وجنوداً يعسكرون في خيام عند سفح الأطلال وآخرين يتسكعون بين أروقة المعابد». نرى كل هذا وكأنهم يبرزون الوجود الفرنسي للتذكرة «بالارتباط الحميم بين العلم والقوة، وبين ماضي مصر الأثري وحاضر الجيش الفرنسي»[٣].

وليس «وصف مصر» مؤلفاً خالياً من العيوب. لقد عمل كل مؤلف بمفرده مما يؤدي إلى التكرار أو إلى تفسيرات متباينة. ويعاني البنيان العام من الاختلال: يمكن أن نجد دراسة طبية إلى جانب مقال عن تربية الدجاج. لم تضع لجنة المؤلفين فهرست، كما أنها لم تنشر حتي تحليلاً موجزاً للكتاب مما يتيح للقارىء الاهتداء إلى طريقه في هذه المتاهة.

هل يمكن أن نعيب على المؤلفين خطأهم حين اعتقدوا بأن معبد دندره ليس إلا قصراً؟ لقد كانوا متأثرين بالتعليم التقليدى وبمناخ عصرهم، ولم يكن قد أمكنهم بعد حل رموز اللغة الهيروغليفية، ولهذا تأملوا العالم الفرعونى بطريقة مفرطة في التبسيط: فهم يعتقدون أنه عالم الأخلاق الوديعة يظهر إنسانيته في جميع الأحوال، حتى وإن كان في ميدان القتال؛ وأنه عالم تسوده الحكمة ويسوسه العلم؛ عالم كهنته علماء أكثر مما هم لاهوتيون[٤]...لكن كان «وصف مصر» عملاً باهراً في بداية القرن التاسع عشر، ولا يزال الباحثون حتي يومنا هذا يستفيدون منه، حتى ولو من أجل معرفة الصروح التي اختفت منذ ذلك الحين.

لكن لا يكفي شراء «وصف مصر»، بل يجب أن يتمكن القارىء أيضاً من الاحتفاظ

2.Jean-Claude Vatin.«Le Voyage et la Description», Images d'Égypte, Le Caire, CE-DEJ, 1992.

3.Ibid.

4.Claude Traunecker, «L'Égypte antique de la "Description" », in Henry Laurens, *L'Expédition d'Égypte,* Paris, Armand Colin, 1989.

به للرجوع إليه والبحث فيه. وقد قام نجار الأثاثات الباريسي شارل موريل في الأعوام ١٨١٠ بعرض مكتبة خاصة قام چومار برسمها. إنها قطعة موبيليا فاخرة مصنوعة من خشب البلوط الهولندى بها بروزات من خشب أرجواني اللون، وترتكز على أعمدة ناتئة عن الحائط تحمل نقوشاً مصرية النمط. ويوجد درج مزين بالجلد المدبوغ لوضع الأطلس الضخم ولتدوين الملاحظات. ويجد المشترون بدائل أخرى متنوعة لهذه المكتبة،كان موريل وغيره من نجاري الأثاثات يعرضونها في محلاتهم. وقد حصل دير سان بيير بسالزبورج على قطعة موبيليا أكثر فخامة ملبّسة بقشرة من خشب الكرز ومزودة بنقوش مذهبة. فقد قام الأب رئيس الدير بنفسه برسم نسخة من معبد دندرة نقلها عن إحدى لوحات «وصف مصر». لقد كلفته هذه المبادرة أموالاً كثيرة لكنه رأى أنها نفقات ضرورية من أجل «بث حب الشأن العلمي لدي رهبان الدير(٥)».

علم المصريات يجدد الهوس بمصر

بمرافقة كتاب «رحلة» تأليف دينون، وكتاب «وصف مصر» بخاصة، انتقلت فرنسا من الهوس بمصر إلى علم المصريات [دراسة مصر القديمة]. ومع ذلك فإن دراسة مصر القديمة يجدد الهوس بمصر، ونلتقى من جديد بهذا السياق عند كل اكتشاف كبير أو إنجاز يتم في وادى النيل، سواء كان فك رموز اللغة الهيروغليفية، أو حفر قناة السويس، أو إخراج كنوز توت عنخ آمون من تحت الأرض.

لقد تفشى الهوس بمصر داخل البورجوازيه الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر. إذ إزدهرت بينها قطع الأثاث القرنسية – كومودينوات وترابيزات وكونسولات وكراسي فوتيي– التي تحمل غطاء رأس فرعونى مصنوع من البرونز أو محفور مباشرة في الخشب.. لم يعد الأمر يتعلق بعناصر زخرفية متفرقة مثلما كان قبل الحملة لكن قطع أثاث «مصرية» كاملة. هذا بالإضافة إلى أنوع أخرى عديدة من المنتجات التي تستهلم الإنجازات المصرية القديمة. ومن بين هذه المواد: أواني المائدة، وبندول الساعات، و«الشبينيه» [عصيّ معدنية لتقليب الفحم في المدفأة]...ولن ننسى ورق تغطية الجدران وحواف المناديل. كما ظهر لون جديد سمي: «أرض مصر».

قام هذا الانتاج الوفير بتغذية الخيال الفرنسي واستحدث ميولاً واهتمامات. فقد كان عامل شاب من مدينة مارسيليا يدعى چان چاك ريفو يقوم في ورش باريسية بحفر أبو هول

5. *Égyptomanie. L'Égypte dans l'art occidental,* 1730-1930, Paris, musée du Louvre, 1944, p. 364 et 326.

مجنَّح في خشب الأكاچا الذى يصنعون منه الكراسي ومناضد «الجيريدون» [مناضد صغيرة ذات قائم واحد]. وكان يردد القول: «سأكون في حالة أفضل لو عرفت هذا الطراز الجديد في موطنه الأصلي!» وفي عام ١٨١٣ حقق ريفو حلمه لكي يصبح شيئاً فشيئاً أكبر نهّاب فرنسي للآثار القديمة في وادي النيل[٦]...

ولا يكفي كتابا «رحلة» و «وصف مصر» وغيرهما من الكتب العديدة الأخرى الأقل أهمية (دراسات علمية خاصة وشهادات الضباط) لتفسير تجدد الهوس بمصر في فرنسا خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. ويدلنا چان-مارسيل امبير Jean-Marcel Humbert أحد أفضل خبراء هذه الظاهرة على ثلاثة عوامل أخرى متساوية الأهمية ساهمت في حدوث هذا الافتتان الغريب ببلاد الفراعنة[٧].

العامل الأول هو إيطاليا. لقد عاد منها مهاجرون تأثروا بالأعمال الممصرة التي اشتهرت هناك منذ أمد طويل وأخذوا يطلبون الحصول على أشياء مماثلة. ومن جهة أخرى احتفت فرنسا باستقبال الآثار التي استولى عليها بونابرت في إيطاليا يومي ٩، ١٠ «تيرميدور» عام ٦ [التقويم الجمهوري الفرنسي ويتناظر مع عام ١٧٩٨]. كانت هذه الآثار تشتمل على عدد من التماثيل المصرية أو الممصرة من بينها تمثال انطينوس [الفتى الجميل] بڤيللا هارديان [الإمبراطور الروماني]، والتي ألهمت جمهور غفير من الفنانين ومن المقلدين.

وكان العامل الثاني في تجديد الهوس بمصر هو نفوذ الماسونية وتأثيرها، والتي استعادت أنشطتها في فرنسا بدءاً من عام ١٨٠١. كان ناپليون يأمل في السيطرة عليها وفي فصلها عن إنجلترا. وقد اجتهد في هذا الشأن بمعاونة كامباسيرس Cambacérès [قانوني وسياسي فرنسي ١٧٥٣-١٨٢٤] صاحب الأمر والنهي بمحفل الشرق الأعظم الذي ساهم في نشر الهوس بمصر في المحافل الماسونية. وقد شهدنا تكاثر المعابد فرعونية النمط، و«شهادات الأساتذة» المزخرفة بالأهرام و«أبو الهول»، والوزرات التي ترتديها النساء والمسماة «العودة من مصر»...

ويمكن تفسير تجدد الهوس بمصر بالسياق السياسي. فالمهندسون والرسامون والمزخرفون يسعون إلى الحصول على رضا القنصل الأول (ناپليون] الذي أصبح قنصلاً أولاً لمدى الحياة [١٨٠٢-١٨٠٤] ثم إمبراطوراً [١٨٠٤-١٨١٥]. وحينما ذهب ناپليون إلى بلچيكا خلال صيف عام ١٨٠٣ لزيارة «المقاطعات الملتئمة حديثاً» كانوا

6. Gean-Jacques Fiecher, *La Moisson des dieux*, Paris, Julliard, 1944.
7 Jean-Marcel Humbert, *L'Égyptomanie dans l'art occhdental*. Paris, ACR, 1989.

يستقبلونه في كل مكان بديكورات مصرية. ففي مدينة آنفر أقيم على جانبي دار البلدية هرمان من الجرانيت الأحمر غارقان في الكتابات الهيروغليفية وتعلو قمتهما كرات أرضية مضيئة. وفي بروكسل كان سلم إدارة الشرطة يشتمل على تمثال «لأبو الهول»، وعلى جرّة الأموات، بل وحتى على نباتات زعموا أنها نيلية. وفي حديقة الدار أقيمت مسلّة. وكان مبنى الدار وواجهات منازل عديدة أخرى تم دهانها باللون المسمى «أرض مصر». وفي مسرح لامونيه كانوا يعرضون مسرحية يقوم بطلها بانقاذ حياة والد محبوبته في أبو قير[8].

كان نابليون يتمنى اتجاه الفنون نحو الأحداث البارزة. ولم تخب آماله. فقد تنشط الفنانون من تلقاء أنفسهم أو بحث من ڤيڤان دينون الذي أصبح مديراً للفنون الجميلة وضاعف الطلبيات الرسمية. ومن بين خمس عشرة نافورة تقرر إقامتها بالمرسوم المؤرخ ٢ مايو ١٨٠٦ أقيمت ست منها بإلهام الفن المصري. كان النحاتون يتبارون في حميتهم ويزعجون مؤلفي «وصف مصر». وعلى إفريز نافورة شارع دي سيڤر تم إحلال النسر الإمبراطوري محل القرص المجنح. وقام المثّال الذي استلهم تمثال انطينوس [الفتى الجميل] بوضع غطاء رأس فرعوني فوق رأس الخادم الذي يمسك بجرّة في كل يد. وكانت خطيئة خفيفة بالقياس إلى البشاعات الجسيمة التي كانوا يرتكبونها في المدينة مثل صرح ميدان دي ڤيكتوار الذي أقيم عام ١٨٠٢ تكريماً لديزيه. فقد أقيم تمثال عارٍ لهذا الجنرال الذي غزا صعيد مصر، وبدا وهو يطل على فرعون مقطوع الرأس وبجواره مسلّة. وبلغ ارتفاع قاعدة التمثال ستة أمتار في حين بلغ ارتفاع التمثال ذاته أكثر من خمسة أمتار. وبما أن بعض سكان باريس قد فزعوا حين رأوا خاصيات الجنرال الفقيد الذكرية فقد أقاموا في حياء السقالات لإخفاء العضو المثير للفضائح. وفي عام ١٨١٨ اختفى هذا التمثال ثم ألقي بالصرح كله في مزبلة التاريخ...أما بالنسبة للمسلّة البالغ ارتفاعها ستين متراً التي تقرر تشييدها فوق جسر «لوبون نوف» فإنها لم تر النور: فبعد إقصاء نابليون تم وضع تمثال هنري الرابع فوق قاعدتها.

وفي ظل الإمبراطورية كان مصنع سيڤر [مصنع لإنتاج صيني فاخر للملوك والأسر الحاكمة والطبقات الإقطاعية والبورجوازية الكبيرة] يعمل بلا انقطاع انطلاقاً من رسوم دينون ولوحات «وصف مصر» التمهيدية وذلك لإنتاج أواني فخمة للمائدة. وكان العمل الأكثر روعة الذي انتجه هو «طاقم حلوى مزخرف بمشاهد مصرية» يشتمل على قطعتي

8.Bernard Van Rinsveld, «L'égyptomanie au service de la politique: la visite de Bonaparte â Bruxelles en 1803», in *L'Égyptomanie â l'épreuve de l'archéologie*, Paris, musée du Louvre, 1996.

أثاث إحداهما لتناول الشاي والأخرى للقهوة تزينهما في الوسط تحفة من الصيني «البسكوي» الأبيض طولها ستة أمتار ونصف! وقد تم رسم كل شيء عن مصر عليه: فيله، وإدفو، ودندره، والمسلات، وتمثالي ممنون وطريق للكباش يضم ٣٦ كبشاً...واستغرق إنتاج هذا الطاقم الرهيف خمس سنوات بسبب مواجهة صعوبات فنية. وقرر نابليون إهداء الطاقم إلى القيصر إسكندر الأول. لكن چوزفين [زوجة نابليون] طلبت الحصول على طاقم مماثل وبدأوا فعلاً في تنفيذ المهمة[٩]. وفي أول ابريل ١٨١٢ وصل الطاقم إلى قصر «مالميزون» «يحمله أربعة عشر رجلاً فوق سبع نقالات». لكن بعد مضي بعض الوقت استدعت الإمبراطورة مهندس الديكور الشهير تيودور برونينيار Brongniart لكي تقول له إنها تجد هذا الطاقم «بسيط أكثر من اللازم» وترغب في تغييره. وعاد الطاقم إلى مصنع سيڤر. وبعد مضي ست سنين قام لويس الثامن عشر بإهدائه إلى ولينجتون سفير بريطانيا العظمى لدى فرنسا وأرفق به جملة صغيرة أصبحت شهيرة: «أرجوك قبول بعض الصحون.»

ليس للإمبراطورية ماضٍ، ويجب أن تجد لنفسها طرازاً فنياً. ويقدم دينون المعاونة إلى نابليون من أجل تفصيل طراز على مقاسه، وذلك باستخدام الفن المصرى الذي يمكن استخدامه بأساليب كثيرة بفضل ثرائه. ويقول چان-كلود ڤاتان Jean- Claude Vatin «ليس طراز الإمبراطورية طرازاً واحداً، لكنه خليط من العناصر الغريبة...إنه ليس ديكوراً ذا طابع أصيل، لكنه يتيح التلبيس والانتحال وإعادة تشكيل زركشات حشوية مختلطة وزينات فرعونية مفترضة، كما يتيح عمل نسخ شيقة، ومستنسخات ممتازة، وتآلف متناسق بين الطرز والمواد[١٠].»

وفي ظل حكومة القناصل [١٧٩٩-١٨٠٤] كانت إحدى وسائل التسلية المنشودة والذائعة في المجتمع هي تمضية «سهرة مصرية». فبعد تناول طعام العشاء يدعو رب البيت المدعوين إلى الغرفة الأكثر إظلاماً في المنزل. وتجلس السيدات الحاضرات على مقاعد متقاربة للغاية. وفي هذا الظلام يبدأ في سرد قصة مرعبة. «وسرعان ما تشعر النساء بالرعشة تسري في أجسادهن، وبالهلع يستولى على نفوسهن. وتنتقل هذه الإحساسات من الواحدة إلى الأخرى بسبب التجاور، ويتزايد الخوف والهلع وانفلات الأعصاب حتى يطالب الجميع بالتوقف وإضاءة الأنوار...» ويبدو أن القنصل الأول كان يحب هذا النوع من اللهو[١١].

9. Jean- Marcel Humbert, in *L'Égyptomania....op. cit.*, p. 225.
10. Jean-Claude Vatin, «Vivant Denon en Égypte», *la fuite en Égypte*, Le Caire, CEDEJ, 1989.
11. Jean Savant, *Les Mamlouks de Napoléon*, Paris, Calmann-Lévy.

كان الهوس بمصر سابقاً لنابليون ولم يختف في عهده. ثم وجد حياة جديدة في ظل عهد الإحياء [١٨١٤-١٨٣٠]، وفي عهد ملكية يوليو [١٨٣٠-١٨٤٨] ثم الإمبراطورية الثانية [بعد ثورة فبراير ١٨٤٨]...كان يتم استخدام مصر في جميع المناسبات بما فيها ألعاب الأعياد الشعبية. ففي عام ١٨١٨ كانوا يعرضون بشارع فوبور پواسونيير لعبة «الجبال المصرية» على هواة الإحساسات المثيرة. كانوا يصلون إلى هذه الجبال عن طريق نوع من الرواق الفرعوني، وهي جبال بلا حاجز ويحدث لزوارها أن يصابوا بالدوار وتزل أقدامهم ثم يسقطون على الأرض.

وقامت الحملة الفرنسية بإلهام الرسامين خلال عقود طويلة. لم تكن هناك حاجة لأن يزور الفنان أرض الفراعنة لكي يرسم شوارع القاهرة أو اغتيال كليبر أو النصر في معركة الأهرام. وكان انطوان جرو Antoine Gros [١٧٩١-١٨٢٤] الأكثر موهبة من بين هؤلاء الفنانين غير الرحّالة، وقد قام برسم لوحة «المصابون بالطاعون في يافا» (١٨٠٤)، ومعركة أبو قير (١٨٠٦)، وتفوّق على لوحة «مسيرة الصحراء» التي رسمها چيريكو Géricault (١٨٢٢).

أما بالنسبة للشعراء فإنهم لم يتوقفوا عن الاحتفاء بالملحمة فالشاعر ديبرو Debraux يؤلف أغنية تقول ما معناه: «أتذكر تلك الأيام التي مضت كلمح البصر...حينما حصل الفرنسيون على شهرة واسعة.. أتذكر أنه فوق الهرم تجرأ كل منا على حفر اسمه؟.. برغم الرياح، وبرغم الأرض والبحر، رأينا علمنا يرفرف فوق مهد العالم....قل لي أيها الجندى أتذكر؟»

مماليك الإمبراطور

من بين المحاربين في مصر توجد فئة سحرت فرنسا في بداية القرن التاسع عشر هي: المماليك [المملوك هو من يملكه سيده = العبد] الذين جندهم جيش الشرق الفرنسي في وادي النيل بعد أن قاموا بالخدمة لديه هناك. كان الفرنسيون يرسمونهم ويشيدون بقدراتهم ويستلهمونهم لعمل تسريحات جديدة (تكوير الشعر فوق الرأس ووضع قنزغ فوقه) أو تصميمات لملابس الأطفال[١٢]. إن الهوس بالمماليك هو صورة من صور الهوس بمصر. ويقول «رستم» المملوك الأكثر شهرة بين هؤلاء في مذكراته أن نابليون قال له: «هذه غرفة نومي، وأريدك أن تنام بالقرب من بابها، ولا تدع أحداً يدخلها، إنني

12. Ibid.

سأعتمد عليك!» كانت صورة كلب الحراسة هي الصورة التى انطبعت في أذهان الفرنسيين خلال أمد طويل. فالمملوك هو إنسان بسيط إلى حد ما، شديد الإخلاص، ويمكن أن يقطع نفسه إرباً من أجل حماية الإمبراطور، سواء كان ذلك في ميدان القتال أو تحت سقف سان-كلو [مقر حكم نابليون].

كان نابليون قد قام بعد وصوله إلى القاهرة ببضعة شهور بتجنيد مماليك صغار تتراوح أعمارهم بين ثماني وست عشرة سنة تخلى أسيادهم عنهم. وعند عودة جيش الشرق إلى فرنسا عاد معه هؤلاء المماليك وغيرهم من يونانيين وسوريين وأقباط ممن تعاونوا مع قوات الاحتلال. وقد تم اختيار ١٥٠ مملوكاً منهم عهد بأمرهم إلي مورات Murat [مارشال فرنسي ١٧٦٧-١٨١٥] وأقاموا بثكنة ميلان وكانوا يرتدون زياً عسكرياً خاصاً. أما الآخرون فقد انضموا إلى فرقة «قناصى الشرق».

وشارك المماليك في معارك عديدة خاضها نابليون وأظهروا تميزاً خاصاً في معركة اوسترليتز [بالنمسا عام ١٨٠٥] ومعركة ايالو [روسيا١٨٠٧]. وقد كتب ماركو دي سان-هيلير Marco de Saint-Hilaire -كان في شبابه وصيفاً لنابليون- في مذكراته: «كانت سرية المماليك وسط الحرس الإمبراطورى مثل صفحة غامضة من صفحات ألف ليلة وليلة ملقاة وسط خطاب حماسى لديموستين». ويقول أيضاً: «كان كل شيء يتم على الطريقة التركية مثل راية الحرب فوق ذيل الحصان والطبول والأبواق وإعداد الحصان وإسراجه. أما هذه الملابس الأنيقة، وتلك السيوف المتوهجة والمعقوفة، والقُنزعة التى تعلو العمامة الأسيوية، وهذه المزركشات المصنوعة من الذهب والحرير فإنها تجعلنا نفكر بالرغم منا في فتوحات ملوك المغرب ومآثر بني سِراج.» ومع ذلك فقد تم تدريجياً انضمام مجندين من جنسيات مختلفة بل وحتى فرنسيين إلى فرقة المماليك. حدث ذلك وكأنه استشعار مسبق بتشكيل «الفرقة الأجنبية» فيما بعد...

وكانوا يتحدثون خلال السنوات التالية عن فئة أخرى من «المماليك» هم: الفرنسيون الذين تخلفوا في مصر والتحقوا بخدمة البكوات أو محمد علي مؤسس الأسرة المالكة المصرية. فقد كتب شاتوبريان Chateaubriand [كاتب فرنسي ١٧٦٨-١٨٤٨] في مؤلفه «الطريق من باريس إلى القدس»: «تترك الجيوش الكبيرة دائماً وراءها بعض المتخلفين عن الركب: وقد فقد جيشنا مائتين أو ثلاثمائة جندي ظلوا مبعثرين في مصر، وانحازوا إلى بكوات مختلفين وحصلوا على شهرة بالشجاعة.»

وتم وضع خمسة من هؤلاء المماليك تحت تصرف شاتوبريان أثناء إقامته القصيرة في القاهرة عام ١٩٠٦. كان رئيسهم يدعى عبدالله وهو ابن إسكافي من مدينة تولوز: «لقد

اعتنق هؤلاء المغتربين – على غرار الإسكندر – عادات السكان. كانوا يرتدون ثياباً حريرية طويلة، وعمائم بيضاء جميلة، وأسلحة فاخرة. وكان لديهم حريم وعبيد وخيول من أفضل ذُرِّية وكل شيء لا يمتلكه والديهم في منطقة جاسكونى أو بيكاردى [منطقتان في فرنسا]. لكن وسط الحصير والسجاد والأرائك التي شهدتها في بيوتهم لاحظت وجود أثر من وطنهم: وجدت زياً عسكرياً مزقته طعنات السيوف وفراشاً مصنوعاً بالطريقة الفرنسية».

وقام رحّالة آخرون بوصف فلول جيش الشرق هذه الذين كانوا يعملون كمرشدين في صعيد مصر أو أصحاب حانات في القاهرة. وعلى أية حال فإن أمثال «عبدالله القادم من تولوز» أو «سليم القادم من الأفينيون» قد وجدوا أيضاً ما يفتخرون به باعتبارهم مدربين عسكريين، وبذلك جسدوا مقدماً الوجود الفرنسي الجديد في مصر في ظل محمد علي.

(٦)

الخبراء الفنيون لدى محمد علي

بعد انسحابها المهين عام ١٨٠١، قامت فرنسا بتعزيز مركزها في مصر بسرعة مذهلة. فمنذ العام التالي عقدت معاهدة مع الإمبراطورية العثمانية: لقد نسوا كل شيء وأعادوا تأكيد الاتفاقيات السابقة بدءاً بالامتيازات. تم تعيين ماتيو ديلسبس Mathieu. de Lesseps (والد المحرك الأول لمشروع قناة السويس) قنصلاً فى القاهرة، وبرناردينو دروفيتى Bernardino Drovetti مساعداً له فى الإسكندرية.. وفي وسط بيئة تسودها الفوضى إذ يتصارع المماليك مع القوات العثمانية للسيطرة على البلاد، قام القنصل الفرنسي ومساعده بالرهان على الحصان الجيد: محمد علي. إنه عثمانى أصله من مدينة قولة بمقدونيا [دولة سابقة بالبلقان] ويعمل قائداً للفرقة الألبانية. وكان العلماء بتعضيد من السكان يتوجهون إليه من أجل إعادة الأمن. وقد اضطر الباب العالى إلى الاعتراف بالأمر الواقع. وفي عام ١٨٠٥ تم تعيين محمد علي حاكماً رسمياً على مصر. وكانوا في باريس، كما في عواصم أوروبية أخرى، يسمونه «نائب-ملك».

وحينما غادر ديلسبس مصر عام ١٨٠٤ تاركاً منصبه إلى دروڤيتى. كان محمد علي الرجل القوي في وادي النيل قد أصبح بالفعل صديقاً لفرنسا. لقد عرف ممثلو ناپليون كيف يكسبون ثقته ويقدمون له المشورة ويساعدونه في حدود إمكانياتهم. وقام دروڤيتى بخاصة بتطوير هذه العلاقة بمهارة. ينتمي دروڤيتي إلى منطقة بييمون [شمالى ايطاليا] وقد تحالف مع ناپليون خلال حملته على ايطاليا وكان ضابطاً شجاعاً ومديراً بارعاً. وفي عام ١٨٠٧ قدم نصائح ثمينة إلى محمد علي حين ارتكب الإنجليز حلفاء المماليك خطأ الرغبة فى إنزال قواتهم فى الإسكندرية: فقد انهزمت قوات صاحب الجلالة ويجب عليها الرحيل. وتمخضت هذه الهزيمة عن ازدياد نفوذ «نائب-الملك» [محمد علي] بصورة ضخمة. وبعد مضي أربعة أعوام يقوم بترسيخ سلطته بصفة نهائية حين أقام فخاً لكبار أمراء المماليك الذين أفناهم في قلعة القاهرة.

قدم له بعض زواره مثل دوم روفائيل الراهب القبطى الذي يلقى دروساً في اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية. وكان چان فرانسوا في منتهي الغبطة والسعادة.

كانت اللغة القبطية تجتذبه. وسرعان ما سيطرت عليه. ألم يبرهنوا على أنها من بقايا اللغة الشعبية للمصريين القدامى؟ لم تعد اللغة القبطية تستخدم إلا في الطقوس الدينية، كما أنها تكتب بحروف يونانية ممزوجة ببعض العلامات التي تعبر عن حروف صوامت غير منطوقة. لا توجد علاقة بينها وبين الخط الهيروغليفى. فمنذ القرن الرابع لم يتم نقش كتابة واحدة بالخط الهيروغليفى في مصر، ولا يستطيع أحد فك طلاسم هذه اللغة التي ذهب سرها مع آخر كهنة العصور القديمة.

ويقوم تلميذ جرينوبل الذي أصبح طالباً في پاريس بمتابعة دراسته بكوليچ دي فرانس، كما يتردد بانتظام على أبرشية سان–روش حيث يتلاقى الأقباط الذين جاؤا بمعية جيش الشرق. لم تكن لغتهم غامضة عليه. فقد قال في عام ١٨١٢ : «استسلمت تماماً لدراسة اللغة القبطية. كنت منغمساً في هذه اللغة لدرجة أنني كنت ألهو بترجمة كل ما يخطر على ذهني إلى القبطية. كنت أتحدث مع نفسي بالقبطية...ولفرط ما تفحصت هذه اللغة كنت أشعر أنني قادر على تعليم أحدهم قواعدها النحوية في يوم واحد. ولا جدال أن هذه الدراسة الكاملة للغة المصرية تمنح مفتاح المنظومة الهيروغليفية، وقد عثرت عليه.»

لكن شامپليون ليس بالرجل الذي يحبس نفسه داخل إطار واحد. كانت محاور اهتماماته متنوعة بصورة مدهشة كما كانت قدرته على العمل عجيبة. فقد قام بالتوازي مع قواعد النحو القبطي بكتابة نبذة عن الموسيقى الأثيوبية، وبتحرير مذكرة عن المسكوكات العبرية وبإصدار «دراسة وصف جغرافي لمصر قبل غزو قمبيز...» كان شقيقه الأكبر يتابعه خطوة خطوة، ينصحه ويؤنبه ويعجب به ويموّل مشترياته من الكتب. لا يمكن لأحدهما أن يعيش بدون الآخر. كانا يفعلان سوياً كل شيء حتى التصرفات الخاطئة. ولا يدل احتفاؤهما بناپليون خلال المائة يوم بعد انضمامهما إلى لويس الثامن عشر على حس سياسى باهر. كما لم تكن اشادتهما بالجمهورية بعد معركة ووترلو تدبيراً متميزاً. وعلى هذا استحق «الشامپوليونيان» المعاناة من بعض المضايقات ومن تحديد إقامتهما.

تارة الأفكار، وطوراً الأصوات

إن صيحة «وجدتها» التى انطلقت يوم ١٤ سپتمبر ١٨٢٢ ليست نتيجة لعمل من

أعمال الروح القدس، لكنها ثمرة للجهد والمثابرة. لقد استوعب چان-فرانسوا وهضم كل ما سبق اكتشافه أو تخمينه لكي يستخدمه أو يستبعده. إننا نعرف منذ القرن الثامن عشر أن أطر النقوش الموجودة في المعابد المصرية تشتمل على اسماء الملوك. وتحقق بعض التقدم أيضاً بفضل حجر رشيد المشتمل على ثلاث نسخ من النص نفسه: إحداهما باللغة اليونانية، والأخريان بكتابتين مصريتين هما الديموطية والهيروغليفية. وقد توصل الفرنسي سيلڤستر دي ساكي Silvestre de Sacy والسويدى چوهان ديڤيد اكربلاد Johann David Akerblad إلى نتيجة بأن الكتابة الديموطية هي حروف أبجدية تعبر عن أسماء أعلام أجنبية. أما الإنجليزي توماس يونج Thomas Young فقد نجح في تحديد مجموعة من الحروف الهيروغليفية المناظرة لكلمات يونانية. وكان عالم الفيزياء هذا -الذي لن يغتفر لشامپليون حلوله محله- قد استشعر أيضاً وجود حروف هيروغليفية منطوقة في مقال نشره عام ١٨١٩.

كانت ميزة چان-فرانسوا على منافسيه هي دراساته المتعددة، لأنه كان مؤرخاً وعالماً باللغات وإخصائياً في الجماليات في وقت واحد. لم يكن مولعاً بالقراءة فحسب لكنه واسع الخيال ويستمتع بحاسة استبصارية، وكان من جنس المخترعين وفقاً لما تدل عليه ارتباطاته السياسية وأبحاثه التعليمية وميوله ودعاباته...

كان شامپليون يحقق تقدماً خطوة خطوة. ففي البداية أشار إلى أنه يجب على الحروف الهيروغليفية أن تصدر أصواتاً لكي يمكنها التعبير عن اسماء يونانية. وكان هذا هو موضوع أول مذكرة يقدمها إلى أكاديمية الفنون والعلوم في جرينوبل حينما كان في التاسعة عشر. ثم باعتباره جهبذاً في اللغات السامية لاحظ أن المصريين لم يكونوا دائماً يكتبون حروف العلة، الأمر الذي يلقى بطبيعة الحال ضوءاً مختلفاً تماماً على نصوصهم. وقد شرح ذلك في كتابه «مصر في عهد الفراعنة» الصادر حينما كان في الخامسة والعشرين.

وجاءت مرحلة جديدة جوهرية: لقد برهن شامپليون على وجود قربى لغوية بين الخطوط المصرية الثلاثة- الهيروغليفى، والكهنوتى، والديموطى. ففي أغسطس عام ١٨٢١ أكد أمام أكاديمية الكتابات المنقوشة والآداب القديمة أن هذه الخطوط الثلاثة تنتمى إلى منظومة واحدة. لقد تم اشتقاق هذه الخطوط الثلاثة الواحد من الآخر: فالخطوط الهيروغليفية انتجت الخط الكهنوتى الذي هو مخطوط يدوي عادي للهيروغليفي، وأفضى الكهنوتي إلى الخط الديموطى الذي هو صورة تبسيطية لاحقة. هكذا كانت مصر القديمة تمتلك ثلاثة خطوط للتعبير عن لغة واحدة: الأول خطاً مقدساً والثاني خطاً عادياً مكتوباً باليد والأخير خطاً شعبياً [يستخدمه المصريون في حياتهم اليومية].

دروس كلوت بك في الطب

أظهر محمد علي اهتماماً بأن يكون جنوده في صحة جيدة، واستدعى طبيباً من مدينة مارسيليا اسمه انطوان بارتيليمي كلوت Antoine Barthélemy Clot لكي ينشيء مستشفى عسكري فى «أبو زعبل» على بعد بضعة كيلومترات من القاهرة. وكان إنشاء هذا المستشفى المصحوب بمدرسة في الطب سبباً في تجديد الطب المصري الذي كان يتولاه حتي ذلك الحين حلاقون غير أكفاء. ومن الطريف أن نعرف أن الدكتور كلوت ذاته بدأ طريق حياته كمساعد جلاق في مارسيليا لكي يحصل بعدها على مؤهل في الشئون الصحية ثم حصل على دكتوراه في الجراحة. لقد وصل هذا الرجل إلى مصر عام ١٨٢٥ وكان في الواحد والثلاثين من العمر « يقظ، ذكي، صوته عالٍ، نبرته حادة، يبدو عليه الإعجاب بالذات[٢]»، وبرفقته حوالي عشرين طبيباً شاباً من مارسيليا. وأحضر معه كتبه وأدوات طبية مختلفة، كما حصل من مستشفي البحرية بمدينة طولون على «أحد الهياكل العظمية البشرية الجميلة[٣]».

قام الدكتور كلوت بنفسه برسم خرائط المستشفى-المدرسة على حافة الصحراء. وقد عينوا له ١٥٠ طالباً مسلماً تم جمعهم من مدارس علوم الدين. لم يكن أحد منهم يعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية. وأقيم نظام تعليمي مبتكر بمعاونة مترجمين مسيحيين من الشباب: يقوم المدرس بإلقاء محاضرته أولاً على المترجم؛ ثم يتأكد من أن هذا المترجم قد فهم الدرس جيداً، ويقوم المترجم بعدها بإملاء الدرس على التلاميذ. وتم بالتوازي ترجمة كتب في الطب إلى اللغة العربية، وكانوا يلقون دروساً في اللغة الفرنسية علي أولئك الذين سيسمح لهم بإجراء الامتحان في باريس. وجرى أيضاً تعديل قسم أبقراط ليتواءم مع الإسلام وبعد أخذ موافقة علماء الدين الذين كانوا يراقبون الدروس عن كثَب.

وعاني الدكتور كلوت من بعض الهموم بشأن التشريح الذي حرّمه بعض علماء الشريعة، وذلك بالرغم من حرصه على اختيار الجثث من بين الموتي الكافرين. وتعرض الدكتوركلوت أيضاً لمحاولة اغتيال من جانب أحد تلاميذه، لكن طعنة الخنجر لم تصبه إلا بجرح بسيط... واستمر هذا التدريس وتطور بفضل مساندة محمد علي. وقام الطبيب القادم من مارسيليا بإنشاء مدرسة لتخريج القوابل، بعد أن ذهب لدى تاجر العبيد لشراء «عشرة نساء، خمس زنجيات وخمس حبشيات، اعتقدت أنهن الأكثر صلاحية، إذ كنت

2. Comte Louis de Saint-Ferriol, *Journal de voyage*, cité par Jean-Marie-Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte*, Le Caire, IFAO, rééd. 1956, t. 1
3. Clot bey, *Mémoires*, présentés par Jacques Tagher, Le Caire, IFAO, 1949.

أبحث عن البنية القوية والجمجمة السوية». وتم وضعهن في حراسة خصيان وقامت «مدموزيل فيري Mlle Fery خريجة دار التوليد بباريس» بإلقاء الدروس عليهن. وحقق هذا التعليم نجاحاً أدى فيما بعد إلى تدريب فتيات مسلمات سراً.

والواقع أن أنشطة الدكتور كلوت امتدت شيئاً فشيئاً لتشمل الطب المدني. وقد نجح في تكوين «مجلس عام للصحة». قام بتأليف وترجمة كتيب في الطب الشعبى تم توزيعه في المدن وفي الريف. وبسبب ارتفاع معدلات وفيات الأطفال في البلاد بصورة كبيرة، قاموا بتعليم الحلاقين كيفية تطعيم الأطفال ضد مرض الجدري. من المؤكد أن هذا الإجراء قد ساهم في ازدياد عدد السكان من ٣ ملايين نسمة عام ١٨٢٥ إلى ٥ ملايين عام ١٨٥٠. لكن كان من الصعب تطبيق نظام التطعيم وتعميمه فقد كان الفلاحون مقتنعين بأنه ليس إلا وشماً لمنعهم من الهروب من التجنيد [القرعة].

واستحق الدكتور كلوت الحصول على لقب البكوية بسبب موقفه البطولي أثناء وباء الكوليرا عام ١٨٣١. ثم تميز من جديد حينما تفشى وباء الطاعون. كان هذا الطبيب لا يؤمن بالعدوى، وقد أدت الشهرة التي حصل عليها في القاهرة إلى تأثيره في التقرير الذي نشرته أكاديمية الطب في باريس عام ١٨٤٥، إذ تغير في اتجاه مضاد لفكرة العدوى[٤].

وكان الدكتور كلوت داعية متحمساً لمحمد علي في فرنسا، فكان يصوره بأنه بطل التحديث المتميز، على عكس منافسه الدكتور هامون Hamont مؤسس مدرسة الطب البيطري في القاهرة الذي نشر كتاباً لاذعاً بعد عودته إلى فرنسا[٥].

لينان، وكوست، وچوميل، وآخرون

لا تعنى استعانة محمد علي بفنيين فرنسيين بالضرورة اعتزامه التشبُّه بأوروبا من جميع النواحي. فقد أقام في مصر احتكار الدولة الاقتصادي، كما شيد الصناعات الوطنية مما يتناقض تماماً مع الليبرالية الاقتصادية الرائجة على الناحية الأخرى من البحر المتوسط.

ومن بين الفرنسيين الذين ترتبط أسماؤهم بهذه المجموعة من المنشآت يحتل لوي لينان دي بلفون Louis Linant de Bellefonds المكان الأول. ينتمى لينان إلى منطقة لوريان الفرنسية وتعلم العلوم بفضل جده العالم بالرياضيات، وقام باكتشاف العالم حين سافر مع والده ضابط البحرية في رحلة بحرية طويلة. ومنذ أن بلغ السابعة عشر من عمره

4. Daniel Panzac, «Médcine révolutionnaire et révolution de la médcine dans L'Égypte de Muhammad Ali», *Revue du musulman et de la Méditerranée,* Paris, Edisud. nos 52-53.1989.
5. P.N. Hamont, L'Égypte sous Méhémet Ali, Paris, 1843, 2 vol.

كان القنصل دروڤيتي يرغب في بيع مجموعة تحفه إلى فرنسا، لكن الملك لويس الثامن عشر رفض الإفراج عن أمواله. واشترى ملك پيامون [مقاطعة في إيطاليا] وملك سردينيا [جزيرة إيطالية] ٨٢٧٣ قطعة أثرية من بينها حوالي مائة تمثال ضخم. وضعت التماثيل الضخمة المصنوعة من جرانيت وردي اللون وبازلت أخضر في فناء متحف تورين لتنبيء الزائر بوجود كنوز أخرى عديدة: لوحات وتماثيل نصفية، تحف برونزية، مسكوكات ذهبية وفضية، أوراق بردي...وبدخوله كهف علي بابا هذا كاد يغمى علي شامپليون مرة أخرى. إنه لا يعرف أين ينظر، فهو لم يتعامل حتى الآن إلا مع نسخ أو مع شظايا. هذا مع العلم بأنه لم ير إلا جزءاً من الغنيمة التي لا تزال غالبيتها داخل صناديق لم يتم إفراغها بعد.

وتحمل العديد من هذه القطع علامة چان–چاك ريفو Jean-Jacques Rifaud وكيل دروڤيتي. فإننا نجد مثلاً على جانب تمثال كبير لأبي الهول يحمل وجه امنحوتب الثالث النقش التالي: «اكتشف بمدينة طيبة عام ١٨١٨ بواسطة ريفو النحات الذي يعمل في خدمة دروڤيتي.» إن ريفو هذا القادم من مدينة مارسيليا يستخدم جيشاً من الأيدي العاملة في مواقع العمل. إنه سريع الغضب، وكتب البارون دي فورربان عنه بأنه كان «يضرب العزب الذي لا يفهمون اللهجة البروڤانسية». ومع ذلك يتحدث ريفو بلهجات عديدة ويعتبر نفسه مدافعاً عن العمال في مواجهة جشع الأعيان المحليين. على أية حال لم يمنع الحياء هذا العاشق للآثار المصرية –مثل منافسيه الإنجليز أو الايطاليين– من نشر قطعة حجرية منقوشة أو من استخدام المتفجرات لانتزاع تحفة فنية(٣)...

وبعد زيارته لتورين ذهب شامپليون إلى ليڤورنو حيث توجد مجموعة تحف أخرى جمعها القنصل الإنجليزي سولت ومعروضة للبيع. وقد نجح في اقناع شارل العاشر بشرائها مقابل ٢٠٠ ألف فرنك. وفي غضون ذلك عرض دروڤيتي مجموعة أخرى على فرنسا، وقام بملاطفة ملك فرنسا بأن أرسل له هدية من طرف محمد علي حاكم مصر. وأحدثت هذه الهدية دوياً شديداً في پاريس فقد كانت: زرافة! إن مجموعة تحف دروڤيتي الثانية أقل ثراء من مجموعة تورين وباعها مقابل ١٥٠ ألف فرنك. يمكن لشامپليون الآن أن يبدأ متحفه بخمسة آلاف قطعة فنية وضعها في الدور الأول من الفناء المربع لمتحف اللوڤر.

ويمكن للرجل الذي قام بحل الخطوط الهيروغليفية أن يذهب الآن إلى مصر الملازمة للياليه منذ أمد طويل، ومع ذلك لم يعرفها إلا من خلال الكتب والقطع الفنية أو أشخاص

3. Jean-Jacques Fiechter, *La Moisson des dieux*, Paris, Julliard. 1994.

قاموا بزيارتها. تم تشكيل بعثة فرنسية-توسكانية بموافقة ملكيْ فرنسا وتوسكانيا [منطقة بشمال إطاليا]. ضمت البعثة ١٢ عضواً ويرافق شامبليون فيها بصفة خاصة شارل لينورمان Charles Lenormant المفتش بالفنون الجميلة، وسكرتير ورسام شاب عاشق لمصر هو نيستور لوت Nestor L'Hôt الذى كان فى طفولته يحنّط الحيوانات ويدفنها تحت الأهرام في حديقة والده. ويقوم نيستور بكتابة يومياته أثناء هذه الرحلة وبإرسال خطابات عديدة لأسرته بأسلوب غير مألوف متسم بالحيوية. وعاد إلى فرنسا بعد أن رسم خمسمائة رسم ولوحة بالألوان المائية. ومن ثم عاد من جديد إلى مصر مرتين لكي يرسم المزيد من اللوحات(٤)...

ثلاثون عاماً بعد بونابرت

في يوم ١٨ أغسطس ١٨٢٨، أي بعد نابليون بثلاثين عاماً، نزل شامبليون ونيستور لوت والايطالي ايبوليتو روسيلليني Ippolito Rossellin وأعضاء البعثة الفرنسية-التوسكانية التسع الآخرين من السفينة إلى أرض الإسكندرية. مصر! لقد تهلل وجه الرجل الذي يسميه زملاؤه في البعثة «الجنرال» مبتهجاً. «شامبليون في مصر!، إنه موسى في أرض الميعاد، وقد شعر بالتهلل وبأنه ملك(٥).»

وبعد أن وطأت قدماه أرض الفراعنة بعشرة أيام كتب إلي شقيقه يقول: «إنني اتحمل حرارة الجو بأقصي ما أستطيع. يبدو أنني قد ولدت في هذه البلاد فالفرنج [الأوروبيون الغربيون] يرون أن سماتي تتشابه تماماً مع سمات رجل قبطي. إن لون شنبي الأسود الذي أصبح محترماً فعلاً يساهم كثيراً في جعل وجهي شرقياً. فضلاً عن أنني اكتسبت عادات وأعراف البلاد فأشرب الكثير من القهوة وأدخن النارجيلة ثلاث مرات يومياً.» وقد اكتشف فيما بعد مثل هذا الاستعداد المثير للتعاطف لدى العديد من الفرنسيين الذين يذوبون بسهولة في البيئة المحيطة.

ولم تعرب لجنة الاستقبال في الإسكندرية عن ترحيبها الحار بالزائرين. لقد أبدى دروڤيتي قنصل فرنسا ذهوله لحضور البعثة في حين أنه كتب إلى باريس مبيناً تحفظاته الشديدة على مثل هذه الزيارة. كان يبدو له أن الوقت غير مناسب اطلاقاً للحضور لمقابلة محمد علي وتقديم طلبات إليه بينما كانت السفن الحربية الفرنسية قد اشتركت أخيراً في

4. *Lettres, journaux et dessins inédits de Nestor L'Hôte. Sur le Nil avec Champollion,* recueillis par Diane Harlé et Jean Lefebvre, Paris, Paradigme,1993.
5. Jean Lacouture, *Champollion..., op. cit.*

«چوميل» [هكذا سمي القطن طويل التيلة] يباع في مارسيليا بسعر يزيد أربعة أضعاف عن سعر أفضل الأقطان في العالم[٩].

كم يبدو بعيداً ذلك الزمن الذي كان فيه تجار الجالية الفرنسية بمصر يعيشون في عزلة داخل حي الإفرنج أو داخل وكالاتهم التجارية! إنهم اليوم يتنقلون في أمان كامل مرفوعو الرأس. إنهم محترمون وفي الأغلب أثرياء وأحياناً أقوياء. وهم المجموعة الأكثر عدداً والأقوى نفوذاً من بين الأوروبيين العاملين لدى محمد علي. ويندرج هؤلاء «الفنيين» الذين لا يزيدون عن بضع عشرات في نظام تقوم فيه كل مجموعة اجتماعية بوظيفة محددة تماماً[١٠]. لقد أسند «نائب-الملك» الحرب والإدارة إلى الأتراك، والدپلوماسية والترجمة إلى الأرمن، والمالية إلى الأقباط، وشئون الدين إلى مسلمين من أصل مصري.

نظير ناپليون

استثمر محمد علي بمهارة صورته كنصير «للتحديث» -الأمر الذي يقدرونه للغاية في أوروپا- لكي يستميل الرأي العام الفرنسي ويحصل على الحظوة لدى الحكومات. أليس هو المستمر في إنجاز مهمة بوناپرت في مصر؟ لقد قال ڤيكتور هوجو ذلك بوضوح في مقدمة كتابه «شرقيات»: «ليست الوحشية الآسيوية القديمة مجردة من رجال شوامخ مثلما قد تعتقد حضارتنا. ويجب التذكر بأنها هي التي أنجبت العملاق الوحيد الذي يمكن لهذا القرن أن يقارنه ببوناپرت. هذا الرجل النابغة هو في الحقيقة تركي أو ترتاري، إنه محمد علي باشا الذي يمكن مقارنته بناپليون مثلما نقارن النمر بالأسد أو العقاب بالنسر.»

وفي عام ١٨٢٩ اقترحت باريس على محمد علي أن يستولى على ثلاث بلدان تحت الوصاية في شمال إفريقيا (طرابلس وتونس والجزائر)، ووعدته بمساعدته عسكرياً. وأوضح الباشا أنه لا يصلح لهذه المهمة مؤكداً أن المسلمين لن يغتفروا له مثل هذا العمل، وقال لقنصل فرنسا: «لو قمت بعقد هذا التحالف الذي تقترحه، فسوف أفقد ثمرة جميع أعمالى، وأفقد الاعتبار لدى أمتى ودينى.» وفي العام التالي نزلت القوات الفرنسية على الشاطىء الجزائري.

ولم يشارك شاتوبريان في حماس حملة المباخر لمحمد علي. فهو يقول في كتابه «مذكرات ما وراء القبر»: «إنني لن أترك نفسى تنخدع بسفن بخارية وبسكك حديدية، أو

9. Gabriel Dardaud, Un ingénieur français au service de Mohammed Ali, Louis Alexis Jumel (1785-1823). Le Caire, IFAO, 1940.
10. Henry Laurens, *Le Royaume impossible*, Paris, Armand Colin, 1990.

ببيع منتجات ومصانع، أو بثروة بعض الجنود الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين المجندين في خدمة الباشا. كل هذا ليس هو الحضارة » وكان ڤيكتور سكولشير Victor Schoelcher [سياسي فرنسي ١٨٠٤-١٨٩٣] المناضل ضد العبودية أكثر عنفاً أيضاً. فبعد أن زار مصر حيث تحقق من الطريقة الوحشية في «صنع الخصيان»، وسوء المعاملة في السجون، والضرائب التي يجبونها عن طريق الضرب بالعصا، كتب يقول: «إن الفلاح يموت من الجوع إلى جانب مخازن نائب-الملك المفعمة بالقمح[١١].» لكن هذه كانت أصوات منفردة. كان محمد علي يثير حماس فرنسا ويبدو بأنه أفضل حليف لها في الشرق. لقد كان تيير Thiers محرك الحكومة الفرنسية شبه مستعد في عام ١٨٤٠ لشن حرب ضد إنجلترا لدعم محمد علي في مطالبه من تركيا.

وفي عام ١٨٤٥ تم ترسيخ العلاقات الطيبة بين مصر وفرنسا عن طريق زيارتين في غاية الأهمية: زيارة إبراهيم باشا ولي العهد المصري إلى فرنسا وزيارة دوق دي مونپانسييه duc de Montpensier أصغر أبناء الملك لوي-فيليپ لمصر. ومنح وسام الجوقة الفرنسية إلى محمد علي الذي أقام مأدبة عشاء للدوق ليلة سفره وأعرب عن «امتناني الشديد لملك فرنسا وحكومته اللذين لم يتخليا إطلاقاً عن غمري بالرعاية في الأيام الصعبة كما في الأيام الهادئة.» وفي اليوم التالى سار محمد علي على قدميه لمرافقة الأمير الشاب حتى رصيف الركوب بالرغم من حرارة الجو ومن صحته الآفلة.

وقبل ذلك بخمس سنين كان حاكم مصر قد صرح لأحد زواره بقوله: «سواء ساعدتني فرنسا أو لم تساعدنى فهذا لن يغير من امتنانى لها. سأظل طوال حياتى مقدراً وشاكراً لما فعلته من أجلي ، وسوف أورث هذا إلى أبنائى وسأوصيهم بأن يظلوا دائماً في حماية فرنسا[١٢].» هل هو حديث حاذق يهدف إلى استمالة فرنسا للحصول على المزيد من المزايا؟ الواقع أنه ليس من السهل دائماً إخراج مكنون هذا الرجل الشرقي المفعم بالدهاء والذي يستطيع في كل وقت الاستناد إلى فرنسا لرفض طلب إنجليزي، والاعتماد على إنجلترا لمعارضة مشروع فرنسي...

11.Victor Schoelcher, *L'Égypte en 1845, 1846.*
12. Cité par Jacques Tagher dans le no spécial des *Cahiers d''histoire égyptienne* consacré à Mohamed Ali

الإغريقي-الروماني؟ ولسوء الحظ كان الآوان قد فات لإصلاح الأمر. ووقعت في فرنسا بغتة أحداث ثورة يوليو ١٨٣٠ في الوقت الذي كان فيه مدير متحف اللوفر ملازماً للفراش بسبب نوبة نقرس: قام المتمردون بتحطيم أبواب المتحف وحطموا واجهات العرض وملأوا جيوبهم. وبعد مضي بضع ساعات برز «سوق اللصوص» في ميدان شاتليه بباريس. تبين ضياع مئات القطع الفنية من القسم التابع لشامبليون، الذي تم تخويله بتعويض كل إنسان اشترى «بحسن نية» شيئاً مسروقاً. ولا يعدم الأمر وجود بعض النفوس المتعلقة بحب أوطانها مثل ذلك الساعاتي الذي أحضر خاتم رمسيس الثاني المصنوع من الذهب والذي أحضره له أحد مساعديه. لكن على أي حال لم يقف كثيرون أمام شباك دفع التعويضات.

ويبدأ شامبليون في إلقاء محاضراته في الكوليج دي فرانس حيث أنشيء كرسي للآثار المصرية خصيصاً له. وسرعان ما اضطره المرض إلى التوقف عن هذه المحاضرات. وفي يوم ٤ مارس ١٨٣٢ وافته المنية وهو في الواحد والأربعين من العمر، وبعد معاناته لآلام مبرحة. جرت مراسم الجنازة بسان-روش بحضور جمهور كبير كان يشترك في كرنفال عيد المرفع [عيد مسيحي غربي يسبق الصيام الكبير]. طلب شامبليون «المصري» دفنه بمقابر بير-لاشيز . أقيمت بجوار قبره مسلّة من الصلصال الرملي محاطة بسياج مشبك، لكن زوجته اضطرت للتصارع من أجل الحصول على معاش مناسب(٩).

واستمر المغتابون لشامبليون في طعنه بعد وفاته. لا يزال البعض ينكرون عليه اكتشافه؛ في حين يتهمه آخرون بسرقة الاكتشاف من توماس يونج. وتتناقص قوة حجج هؤلاء المعاندون شيئاً فشيئاً. ففي كل عام يمر يتضح العكس وتزداد أهمية عالم المصريات الذي رحل في وقت مبكر للغاية. ويصف شارل لينورمان الذي رافقه في رحلته المصرية مميزاته العلمية الفريدة أفضل من أي وصف آخر. فقال: «لديه قوة استبصار لا تنتسب إلا للعبقرية، وطهارة في البحث عن الحقيقة، وبساطة نبيلة تعترف بالخطأ حين تكتشفه، واستسلام هاديء للجهل حين يكون الوقت غير موات للمعرفة».

ولم يتمكن شامبليون من إتمام كتابه عن «النحو المصري» ولا القاموس الذي كان يعده. إن شقيقه الأكبر هو الذي قام بإتمامهما ونشرهما. وقال ويلكنسون الإنجليزي: «لقد سقط المشعل على الأرض ولا يستطيع إنسان التقاطه». ظل هذا القول صحيحاً لمدة خمس سنين إلى حين ظهور البروسي كارل ريتشارد ليبسيوس Lepsius على المسرح وقيامه بإحياء علم المصريات.

9. Hermine Hartleben, *Jean -François Champollion. Sa vie et son oeuvre.* Paris, Pygmalion.1983.

(٩)

مسلّة لميدان الكونكورد

إذا كان اكتشاف شامپليون قد ساد عشرينيات القرن التاسع عشر، فإن حدثاً آخر أقرب إلى النوادر قد ميّز العقد التالي. بل وأي حدث! لقد أثارت إقامة مسلّة في قلب پاريس جدلاً ومناقشات حامية في عهدي شارل العاشر ولوي-فيليپ.

كان شامپليون قد اضطر إلى العدول عن إحضار واحدة من هذه المسلات العملاقة المنحوتة من كتلة حجر واحدة والتي كانت في العهود القديمة رموزاً شمسية. كان محمد علي راغباً في إرضاء الدول الكبرى، فمنح واحدة إلى فرنسا والأخرى إلى إنجلترا. وكان شامپليون قد أعجب بهاتين المسلّتين «ابرتا كليوباطرة» حين نزل في الإسكندرية في أغسطس ١٩٢٨. وأرسل خطاباً إلى شقيقه أعرب فيه عن أمنيته بأن تأخذ فرنسا هديتها قبل أن «تفلت الفرصة منها». لكنه حين وصل الأقصر أصيب بنشوة وذهول ووقع أسير الإعجاب بمسلّتين أخريين من الجرانيت الوردى عند مدخل المعبد، ووجد أنهما أفضل بكثير من مسلّتي الإسكندرية.

ولكن محمد علي ليس على بعد خطوتين: ففى أبريل عام ١٨٣٠ استقبل رسولاً من قبل شارل العاشر «ولكي يعرب له عن امتنانه لفرنسا» منحه بسخاء مسلّتي الأقصر وواحدة من مسلّتي الإسكندرية. لكن ثلاث مسلات كثير للغاية. لقد اكتفوا بمسلّة واحدة التي كان مجرد نقلها أمراً محيّراً وقصة بذاتها. واختار شامپليون: «تلك التي على اليمين عند دخول القصر». إنه يفضلها لأن الأخرى تبدو له في حالة أكثر سوءاً. في الواقع أن المسلّتين مكسوتان بالرمال والأنقاض، ولم ير عالم المصريات تشققاً موجوداً في المسلّة التي اختارها لكنه لحسن الحظ ليس خطيراً...

لكن كيف يمكن نقل كتلة تزن ٢٣٠ طناً من الأقصر إلى پاريس؟ من المستبعد تماماً تقطيعها إلى أجزاء وقد وصف شامپليون مثل هذا العمل بأنه «تدنيس للمقدسات».

باريس لا تثير رؤية رجل مسلم النفور نفسه الذي تثيره في المدن الإيطالية [...] فضلاً عن أن الفرنسيين يتعاملون بالحسنى مع الأتراك الذين لا يحوزون على الرضا في ايطاليا إلا في الموانيء[٢].» كان دروفيتي يتحدث في هذا الموضوع باعتباره حجّة فيه. ولا جدال بأنه كان يبرز أيضاً بأنه لا مجال للتردد في الاختيار بين فرنسا القوية وايطاليا المجزأة.

وكسب دروفيتي الرهان بالرغم من مجهودات «الحزب الايطالي» والضغوط الإنجليزية. وبدءاً من عام ١٨٢٦ كانت غالبية الطلبة المصريين يذهبون إلى فرنسا، ويتجه عدد قليل منهم إلى إنجلترا أو النمسا. وكان دروفيتى لا يرتكب أية هفوة حين يتحدث عن «الأتراك»: كان محمد علي يخصص هذه الدراسات الأوروبية أساساً لتلاميذ أتراك وشراكسة وأرمن. إذ لم تشتمل بعثة عام ١٨٢٦ إلا على أربعة مصريين من بين حوالى أربعين طالباً.

ومن بين هؤلاء المصريين كان يوجد إمام واحد فى الخامسة والعشرين من العمر هو رفاعة الطهطاوى الذي لم تكن له صفة الطالب بل مرافق ديني مكلف بالوعظ والإمامة. ولم يتصور أحد أنه سيكون الشخصية الرئيسية في نهضة مصر الثقافية. لقد ولد الطهطاوي بمدينة طهطا بصعيد مصر عام ١٨٠١ وهو العام نفسه الذي جلت فيه القوات الفرنسية عن مصر، وينتمي إلى أسرة من الأعيان افتقرت بسبب إلغاء الالتزام. وعند وفاة والده أرسل الطهطاوي للدراسة بجامع الأزهر في القاهرة، حيث التقى بشخصية هامة هي أستاذه: الشيخ حسن العطار أحد الشيوخ القلائل المنفتحين على الحداثة، والذي تعايش مع العديد من علماء بونابرت الذين كان يعلمهم اللغة العربية. وعند انتهاء دراساته قام الطهطاوى ذاته بالتدريس في الأزهر قبل تعيينه واعظاً فى إحدى وحدات الجيش المصرى الجديد.

وحين تم اختياره عضواً بالبعثة الدراسية بفرنسا أوصاه الشيخ العطار بأن يدون يوميات خلال رحلته. كان الإمام الشاب والمؤمن الورع قلقاً سلفاً بما يمكن أن يخطه قلمه. لكنه طمأن نفسه بذكر حديث الرسول: «اطلب العلم ولو فى الصين»! وفي الصفحات الأولى من كتابه الذي أصبح شهيراً فيما بعد قال: «وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى ألا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق، وأن أفشى ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها، على حسب ما يقتضيه الحال. ومن المعلوم أني لا أستحسن الا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية[٣].»

2. Cité par Anouar Louca, in L'Égyptr aujourd'hui. Permanances et changements, Paris, CNRS, 1977.
3. Rifa'a al-Tahtawy, L'Or de Paris, Relation de voyage (1826-1831), traduit, présenté et annoté par Anouar Louca, Paris, Sindbad, 1989.

كتاب في «وصف فرنسا»

عند وصوله إلي فرنسا أصيب الطهطاوي بصدمة. فالنساء يسرن في الشارع بلا حجاب، تكشف ملابسهن عن الأكتاف والرقاب كما أن الأذرع عارية. إنهم يسيرون بهمة ونشاط، ويأكلون بالشوكة والسكين...كان مدير المدرسة المصرية في باريس هو چومار الذي أشرف على وضع مؤلف «وصف مصر». وقد استقبل الإمام الشاب الملتحى والمعمم، ثم قاده نحو الترجمة. ومكث الطهطاوي في فرنسا خمس سنوات لم يغادر خلالها باريس وعاشها مثل باقي الطلبة المصريين داخل نطاق مغلق. لكن أسعفه حبه للمعرفة والاطلاع وطبعه المتشدد وموهبته وقوة ملاحظته.

ولم يقتصر الشاب اليتيم القادم من صعيد مصر على تعلُّم اللغة الفرنسية، ثم ترجمة أكوام من النصوص (روسو، وڤولتير، ومنتيسكيو، وفينيلون...) إلى حد أرهق عينيه. فقد كان ينظر حواليه ويسمع ويكتب. وتتناول ملاحظاته أنواع التسلية واللهو والعناية «بصحة الأبدان» كما تتحدث عن أنماط المساكن والملابس. فهو يقول مثلاً : «ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور، وخصوصا فى أمر الملبس...ولم تقف إلي الآن عادة فى التزيى.» ويستخدم الطهطاوي اللهجة ذاتها في شرح ما قيل : «أن باريس جنة النساء، وأعراف الرجال، وجحيم الخيل»...

ويكتشف الطهطاوي الشاب «ورقات تطبع كل يوم» اسمها «الجورنالات، جمع جورنال». إنه يقرأ هذه الصحف بشراهة في قاعات الاطلاع. ويستفيد أيضاً بأفضل ما يمكن من الأشخاص الذين يقيم معهم علاقات. ذلك مثل علاقته بجوزيف أجوب أحد مواطنيه وهوشاعر رومانسي متألم نفسياً في منفاه فقد غادرت أسرته مصر عام ١٨٠١ مع قوات بونابرت. وأصبح أجوب معاوناً لچومار ويقوم بتدريس اللغة العربية بمدرسة اللغات الملكية. ويتحدث الطهطاوي أيضاً مع مستشرقين كبار مثل سيلڤستر دي ساكى Silvestre de Sacy وكوسان پيرسڤال Caussin de Perceval وچوزيف رينو Joseph Renaud. وقد دفعه ذلك إلى التخلي عن بعض أحكامه المسبقة. فهو يذكر أنه يمكن لأحد الأوروبيين أن يعرف اللغة العربية، بل ويعرفها جيداً مع احتمال أن ينطقها بلكنة أجنبية. أما بالنسبة للغة «الفرنساوية» فهو يرى أنها سهلة وتساعد الفرنسيين على التقدم في العلوم والفنون: «واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا، فان الالفاظ مبينة بنفسها.» ويقول الطهطاوي أنه «إذا شرع إنسان في مطالعة كتاب في أي علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ فيصرف سائر همته في

فرنسا ميزة تعليمية: «لن يكون ضاراً أن نضع تحت أعين أمتنا صرحاً بمثل هذه المنزلة حتى نجعلها تنفر من الدمى التافهة والزينات الرخيصة التي نسميها بزهو صروحاً عامة، وهي ليست إلا زخارف لصالونات النساء تتلاءم مع قامة عظماء رجالنا..إن عموداً واحداً بمعبد الكرنك أكثر روعة بذاته من واجهات فناء متحف اللوفر الأربع(٣)...»

وقد دار الجدل الحقيقي حول موضع نصب المسلّة المنحوتة من كتلة حجر واحدة. فمنذ سبتمبر عام ١٨٣٠ –حينما كان الأمر لا يزال يتعلق بإحضار مسلّتي الأقصر– كتب شامپليون إلى وزير البحرية يقول: «إن مكانهما محدد بصورة طبيعية وذلك سواء على جانبي مدخل اللوفر وأمام صف أعمدته، أو أمام رواق المادلين [كنيسة]»، أما الملك لوي–فيليپ الذي كان قد وصل إلى الحكم فيري إقامة المسلّة المصرية في ميدان الكونكورد حيث كان يوجد تمثال لويس الخامس عشر المصنوع من البرونز والذي وضعت الثورة مكانه تمثال الحرية. ويصر ناپليون على رأيه مبيناً أن ساحة الكونكورد واسعة ومكشوفة مما يتعارض مع جلال هذه التحفة الرائعة. وقد ساءت علاقات شامپليون مع الملك وفارق الحياة دون أن تتم تلبية مطلبه.

ومن أجل استطلاع رأي سكان پاريس وتعويدهم على ما يجرى إعداده قام الملك لوى–فيليپ على سبيل التجربة بنصب مسلّتين مزيفنين مصنوعتين من الكرتون المضغوط، إحداهما بميدان الكونكورد والأخري بساحة ليزانڤاليد. كانت النتيجة الرئيسية لهذه التجربة هي إنعاش الجدل ...كانوا يناقشون أيضاً نوعية القاعدة التي يصنعونها للمسلّة إذ أن قاعدتها الأصلية قد تركت في مكانها الأصلي بالأقصر بسبب سوء حالتها: وفي النهاية تقرر صنع قاعدة بديلة من كتلة جرانيت مستخرجة من منطقة بريتاني. أما بالنسبة للأربعة قرودچيات العراة المحيطين بالمسلّة والرافعين أيديهم لتحية شعاع الشمس المتحجر هذا، فقد أخذوهم من الأقصر لكن تم وضع هذه القرود الفاسقة في متحف اللوفر حتى لا يثيرون فزع بورچوازيي مدينة پاريس...

وكان يلزم نقل المسلّة المصرية من نهر السين إلى وسط ميدان لاكونكورد. اضطر المهندس لوبا إلى التخلي عن فكرة الآلة البخارية لأنها لا تحقق قوة كافية وابتكر آلة بديلة معقدة. فمن أجل نصب العملاق الحجري الضخم تم استدعاء القوة العضلية لـ٤٢٠ـ جندياً من جنود المدفعية أخذوا أماكنهم بجوار كل ذراع من أذرع عشر روافع رحَوية ولكل رافعة ستة عشرة ذراعاً. لقد كانت مجموعة من الإنشاءات المعقدة للغاية والتي

3. Lettre à son Frère, juin 1829.

تطلبت دراسات طويلة لأنه لا يكفي رفع المسلة إلى أعلى: بل يجب أيضاً منعها من التأرجح والسقوط في الاتجاه المضاد. تم ربط المسلة بأربع سلاسل معقودة من أعلى فوق أسلاك تثبيت. كان المهندس لوبا واعياً بالمخاطر المحتملة: «إن عدم فهم أحد الأوامر الصادرة، أو رباطاً غير جيد، أو مسماراً معوّجاً [...] يمكن أن يؤدي إلى كارثة رهيبة: ففي حالة سقوط الجهاز ستتحطم المسلّة، وتضيع ملايين الفرنكات، ولا جدال أن أكثر من مائة عامل سيسحقون.(٤)»

وأخيراً، وفي يوم ٢٢ أكتوبر ١٨٣٦ تجمع جمهور كبير في ميدان لاكونكورد لمشاهدة نصب المسلّة الشهيرة. وعلى ناصية شارع سان–فلورانتين المجاور كان أوركسترا من مائة عازف يعزف قطعة «أسرار إيزيس الخفية» لموزار. كانت السماء ملبدة بالغيوم. ولحسن الحظ أنها لم تمطر. كانت واجهة وزارة البحرية مغطاة بأكملها بالضباط والموظفين. وعند حوالي الظهر ظهر الملك وأسرته في الشرفة بعد بداية العملية.

وحين أعطى المهندس لوبا الإشارة بدأ جنود المدفعية مسيرتهم الموزونة على نغمة البوق. وبدأت الروافع الرحوية تدور حول محورها والجوامل تنتصب وتجذب المسلّة. وفجأة سمعوا صوت طقطقة أثارت القلق. توقفت العملية على الفور. أجرى لوبا مشاورات مع مساعديه. لم يجدوا شيئاً غير عادى، فقرروا الاستمرار.

تم اجتياز ثلث آخر من الطريق خلال أربعين دقيقة. إن المسلّة ترتفع بطريقة غير محسوسة. وأخيراً اتخذت مكانها فوق قاعدتها وسط هتافات ٢٠٠ ألف نسمة. وارتقى أربعة رجال فوقها ليضعوا الأعلام الفرنسية وغصون نبات الغار. وفي الشرفة ظهر الملك لوي–فيليب لتحية العلم ثلاثي الألوان.

وعلى الحجر الذي ترتفع فوقه المسلّة المصرية نقشوا السطور التالية:

في حضور الملك
لوي فيليب الأول
تم نقل هذه المسلة من الأقصر إلى فرنسا
ونصبت فوق هذه القاعدة بواسطة المهندس لوبا
وسط تصفيق جمهور غفير
٢٥ أكتوبر ١٨٣٦

وفي ذلك اليوم حصلت الميكانيكا الحديثة على المجد والتبجيل، وتم نسيان علم

4.Apollinaire Lebas, *L;Obélisque de Luxor. Histoire de sa translation à Paris, description des travaux auxquels il a donné lieu, avec un calcul sur les appareils d'abattage, d'embarquement, de halage et d'érection,* Paris, 1839.

هذه المدرسة تتشابه أكثر فأكثر مع جامعة. تخرج منها مترجمون أكفاء، وتمت ترجمة كتب عديدة واشتقاق كلمات عربية جديدة.

وكان العمر لا زال ممتداً أمام الشيخ رفاعة. قام بالإشراف على الجريدة الرسمية التي منحها دفعة جديدة وجعل اللغة العربية تغلب على اللغة التركية في الجريدة. كان من الداعين إلى التعليم العام والمدافعين عن وضع المرأة. وقد عانى أيضاً من مضايقات عديدة بل ونفي إلى السودان لأن هذا المستورد لأفكار جديدة يزعج المحافظين والطغاة...لا جدال بأن مساهمته الرئيسية هي تحبيذ بزوغ وعي وطني مصري. فمن بين جميع المفكرين في العالم العربي والإسلامي كان هو الأول في تمييز «الوطن» عن «الأمة الإسلامية[٦]».

لقد ذهب الطهطاوي إلى باريس حاملاً عقيدته الإسلامية وحدها. وعرف كيف يحافظ عليها في مدينة الضياع هذه. ولكنه عاد منها مصرياً –وليس هذا بالأمر الهين– ويتضح هذا من أبيات الشعر الخمس التي صاغها أثناء حرارة العودة. ولم تكن الأحداث المصرية الجارية والمهيمنة أثناء إقامته في باريس بعيدة عن تحوله هذا. كان الشيخ الشاب حتى ذلك الحين متمسكاً بما تعلمه في الأزهر، أي بأن الفراعنة عبدة الأصنام والمضطهدين للنبي موسى هم أعداء الإسلام. وها هو كل شيء يبدو في صورة جديدة: «لقد بدد ابن طهطا ظلمات القرون الوسطى التي غمرت الجماعة الإسلامية واستعاد جذوره الفرعونية. إنه يشعر بأنه موضوع الاكتشاف وغايته. إن إحياء مصر القديمة يكرس نمو هويته الثقافية تلقائياً[٧]» يجب أن نقول بأن إقامة الطهطاوي في فرنسا قد سبقها زلزال لم تتوقف توابعه عن زعزعة الوسط العلمي. إنها سنوات شامبليون.

6. Anouar Abdel-Malek, Idéologie et Renaissance nationale. L'Égypte moderne, Paris, Anthropos, 1969.
7. Anouar Louca, «Rifâ 'a al-Tahtawi ...»,art. cit.

٨

شامپليون يحل الرموز

أمسك چان فرانسوا شامپليون بأوراقه في يده وهبط مسرعاً على سلالم المنزل رقم ٢٨ بشارع مازارين بپاريس، وجري نحو أكاديمية الكتابات المنقوشة والآداب القديمة القريبة للغاية، حيث يعمل شقيقه چاك چوزيف. وحين دخل مكتب شقيقه صاح: «المسألة في حوزتي!» ثم سقط مغشياً عليه. حدث ذلك يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ في پاريس، وكان شامپليون قد تمكن علي التو من كشف غموض اللغة الهيروغليفية.

كان شامپليون في الواحد والثلاثين من العمر، لكنه قضى حوالي عقدين من الزمان في دراسة اللغات القديمة. لقد بدأ هذا العبقري أبحاثه في السن الذي يلعب فيه آخرون بالطوّق، وذلك في ظل رعاية واهتمام شقيقه الأكبر، الذي يقوم أيضاً بدور كفيله، وأستاذه وأبيه وأمه، والأنا الآخر[1]». كانا لا يفترقان إلى حد أن الناس كانوا يتحدثون عن شامپليون الصغير وشامپليون–فيچاك «Champollion-Figeac» (اسم المدينة التي ولد فيها الشقيقان مع فارق في السن بينهما قدره اثنا عشر عاماً).

وفي مدينة جرينوبل حيث لحق بشقيقه الأكبر، بدأ چان–فرنسوا وهو لا زال في سن الثالثة عشرة اهتمامه باللغات العربية والكلدانية والسريانية بعد أن كان قد درس اللاتينية والعبرية. وسرعان ما انكب على دراسة اللغة القبطية في انتظار اكتشافه للغتين الفارسية والصينية...ولحسن حظه كان حاكم المقاطعة ليس سوى عالم الرياضيات چاك فورييه سكرتير معهد مصر السابق الذي أسند إلى شامپليون–فيچاك الآثار الخاصة بالمقاطعة. وطلب الحاكم مقابلة هذا الصبي العجيب الذي يعرف الكثير بالرغم من صغر سنه، وقام باطلاعه على أوراق بردي وعلى مقتطفات من اللغة الهيروغليفية المنقوشة فوق الحجر ثم

1. Anouar Louca, «Déchiffrer Champollion», in *L'Égyptologie et Les Champollion.* Presses universitaire de Grenoble. 1974.

قدم له بعض زواره مثل دوم روفائيل الراهب القبطى الذي يلقى دروساً في اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية. وكان چان فرانسوا في منتهي الغبطة والسعادة.

كانت اللغة القبطية تجتذبه. وسرعان ما سيطرت عليه. ألم يبرهنوا على أنها من بقايا اللغة الشعبية للمصريين القدامى؟ لم تعد اللغة القبطية تستخدم إلا في الطقوس الدينية، كما أنها تكتب بحروف يونانية ممزوجة ببعض العلامات التي تعبر عن حروف صوامت غير منطوقة. لا توجد علاقة بينها وبين الخط الهيروغليفي. فمنذ القرن الرابع لم يتم نقش كتابة واحدة بالخط الهيروغليفى في مصر، ولا يستطيع أحد فك طلاسم هذه اللغة التي ذهب سرها مع آخر كهنة العصور القديمة.

ويقوم تلميذ جرينوبل الذي أصبح طالباً في پاريس بمتابعة دراسته بكوليچ دي فرانس، كما يتردد بانتظام على أبرشية سان-روش حيث يتلاقى الأقباط الذين جاؤا بمعية جيش الشرق. لم تكن لغتهم غامضة عليه. فقد قال في عام ١٨١٢ : «استسلمت تماماً لدراسة اللغة القبطية. كنت منغمساً في هذه اللغة لدرجة أنني كنت ألهو بترجمة كل ما يخطر على ذهني إلى القبطية. كنت أتحدث مع نفسي بالقبطية...ولفرط ما تفحصت هذه اللغة كنت أشعر أنني قادر على تعليم أحدهم قواعدها النحوية في يوم واحد. ولا جدال أن هذه الدراسة الكاملة للغة المصرية تمنح مفتاح المنظومة الهيروغليفية، وقد عثرت عليه.»

لكن شامپليون ليس بالرجل الذي يحبس نفسه داخل إطار واحد. كانت محاور اهتماماته متنوعة بصورة مدهشة كما كانت قدرته على العمل عجيبة. فقد قام بالتوازي مع قواعد النحو القبطي بكتابة نبذة عن الموسيقى الأثيوبية، وبتحرير مذكرة عن المسكوكات العبرية وبإصدار «دراسة وصف جغرافي لمصر قبل غزو قمبيز...» كان شقيقه الأكبر يتابعه خطوة خطوة، ينصحه ويؤنبه ويعجب به ويموّل مشترياته من الكتب. لا يمكن لأحدهما أن يعيش بدون الآخر. كانا يفعلان سوياً كل شيء حتى التصرفات الخاطئة. ولا يدل احتفاؤهما بناپليون خلال المائة يوم بعد انضمامهما إلى لويس الثامن عشر على حس سياسى باهر. كما لم تكن اشادتهما بالجمهورية بعد معركة ووترلو تدبيراً متميزاً. وعلى هذا استحق «الشامپوليونيان» المعاناة من بعض المضايقات ومن تحديد إقامتهما.

تارة الأفكار، وطوراً الأصوات

إن صيحة «وجدتها» التى انطلقت يوم ١٤ سپتمبر ١٨٢٢ ليست نتيجة لعمل من

أعمال الروح القدس، لكنها ثمرة للجهد والمثابرة. لقد استوعب چان-فرانسوا وهضم كل ما سبق اكتشافه أو تخمينه لكي يستخدمه أو يستبعده. إننا نعرف منذ القرن الثامن عشر أن أطر النقوش الموجودة في المعابد المصرية تشتمل على اسماء الملوك. وتحقق بعض التقدم أيضاً بفضل حجر رشيد المشتمل على ثلاث نسخ من النص نفسه: إحداهما باللغة اليونانية، والأخريان بكتابتين مصريتين هما الديموطية والهيروغليفية. وقد توصل الفرنسي سيلڤستر دي ساكي Silvestre de Sacy والسويدى چوهان ديڤيد اكربلاد Johann David Akerblad إلى نتيجة بأن الكتابة الديموطية هي حروف أبجدية تعبر عن أسماء أعلام أجنبية. أما الإنجليزي توماس يونج Thomas Young فقد نجح في تحديد مجموعة من الحروف الهيروغليفية المناظرة لكلمات يونانية. وكان عالم الفيزياء هذا -الذي لن يغتفر لشامپليون حلوله محله- قد استشعر أيضاً وجود حروف هيروغليفية منطوقة في مقال نشره عام ١٨١٩.

كانت ميزة چان-فرانسوا على منافسيه هي دراساته المتعددة، لأنه كان مؤرخاً وعالماً باللغات وإخصائياً في الجماليات في وقت واحد. لم يكن مولعاً بالقراءة فحسب لكنه واسع الخيال ويستمتع بحاسة استبصارية، وكان من جنس المخترعين وفقاً لما تدل عليه ارتباطاته السياسية وأبحاثه التعليمية وميوله ودعاباته...

كان شامپليون يحقق تقدماً خطوة خطوة. ففي البداية أشار إلى أنه يجب على الحروف الهيروغليفية أن تصدر أصواتاً لكي يمكنها التعبير عن اسماء يونانية. وكان هذا هو موضوع أول مذكرة يقدمها إلى أكاديمية الفنون والعلوم في جرينوبل حينما كان في التاسعة عشر. ثم باعتباره جهبذاً في اللغات السامية لاحظ أن المصريين لم يكونوا دائماً يكتبون حروف العلّة، الأمر الذي يلقى بطبيعة الحال ضوءاً مختلفاً تماماً على نصوصهم. وقد شرح ذلك في كتابه «مصر في عهد الفراعنة» الصادر حينما كان في الخامسة والعشرين.

وجاءت مرحلة جديدة جوهرية: لقد برهن شامپليون على وجود قربى لغوية بين الخطوط المصرية الثلاثة- الهيروغليفى، والكهنوتى، والديموطى. ففي أغسطس عام ١٨٢١ أكد أمام أكاديمية الكتابات المنقوشة والآداب القديمة أن هذه الخطوط الثلاثة تنتمى إلى منظومة واحدة. لقد تم اشتقاق هذه الخطوط الثلاثة الواحد من الآخر: فالخطوط الهيروغليفية انتجت الخط الكهنوتى الذي هو مخطوط يدوي عادي للهيروغليفي، وأفضى الكهنوتي إلى الخط الديموطى الذي هو صورة تبسيطية لاحقة. هكذا كانت مصر القديمة تمتلك ثلاثة خطوط للتعبير عن لغة واحدة: الأول خطاً مقدساً والثاني خطاً عادياً مكتوباً باليد والأخير خطاً شعبياً [يستخدمه المصريون في حياتهم اليومية].

وعلى هذا الأساس شرع شامپليون في معاينة نُسَخ حجر رشيد. فمن أجل ترجمة ٤٨٦ كلمة يونانية يلزم كتابة حروف هيروغليفية يزيد عددها ثلاثة أضعاف. وعلى هذا كان من المستحيل أن يكون كل حرف هيروغليفي يعبر عن فكرة. والحال أنه قد ثبت استحالة أن يكون لكل حرف هيروغليفي تعبير صوتي. وماذا بعد؟ لقد جاء الحل من معاينة إطارين وضعا جنباً إلى جنب يشتملان على اسماء يونانية وترجمتها بحروف هيروغليفية منطوقة. وخطا شامپليون خطوة أخرى صغيرة إلى الأمام إذ قام بمعاينة إطارين آخرين، ومن ثم اكتشف مبدأ الكتابة المصرية: إنها كتابة ترسم «تارة الأفكار، وطوراً أصوات اللغة». لقد اتضح كل شيء بعد ثلاثة عشر قرناً من الظلام!

وفي يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ قرأ شامپليون أمام الأكاديمية رسالته الشهيرة إلى مسيو داسييه M. Dacier (السكرتير الدائم لهذا المعهد). وترك هذا البيان أثراً عميقاً، لكنه لم يكن يتيح بعد فك الخطوط الهيروروغليفية: لم يكشف شامپليون إلا عن جزء من اكتشافه، إذ كان في حاجة لإجراء مراجعة وإعادة فحص. ولم يصرح بمفتاح اكتشافه إلا بعد مضي عامين وذلك في دراسته «موجز المنظومة الهيرغليفية لدى قدامي المصريين»، حيث قام بتوضيح هذه المنظومة بعبارة بليغة فقال: «إنها منظومة مركَّبة، فكل نص وكل جملة تشتمل على كتابة منقوشة ورمزية ومنطوقة في آن واحد، بل ويمكنني القول بأن كل كلمة تقريباً هي كذلك.»

لماذا انتظر عامين في حين أنه كان يعرف كل شيء تقريباً منذ اليوم الأول؟ هل هي دقة العالم المتخصص؟ حصافة المكتشف الذي يشعر بالغيرة تشتعل من حوله؟ إن چان لاكوتير Jean Lacouture كاتب سيرة حياة شامپليون يتساءل فيما إذا ما كان لا يوجد أيضاً في «ذلك الكتمان المتعجرف والبصير» نوع من الاحترام الموجَّه إلى «الشرق الغامض، والسر المصون طوال هذا الأمد». وكأن «المكتشف» يقدم دلالة باهرة على تواطئه مع هذا العالَم الذي قام بانتهاكه»[٢].

لقد ولد علم جديد بفضل رجل فرنسي عبقري. سيصبح من الممكن وضع تسلسل تاريخي أكيد للصروح المصرية. سيدخل التاريخ ملوك يشككون في وجودهم، كما أن الأنقاض الصامتة منذ قرون عديدة لن تتوقف بعدها عن الكلام. ذلك لأن خصوصية الصروح والآثار المصرية هي أنها تحمل كتابات منقوشة. لسوف يتيح اكتشاف شامپليون معرفة النصوص الرسمية، بل والحياة اليومية، والأشكال الفنية. لن يتمكن أشخاص وقورون

2. Jean Lacouture, *Champollion. Une vie de lumières*, Paris, Grasset, 1988.

من التحدث كيفما كان عن هذه الحضارة. لقد أصبحنا منذ الآن فصاعدا نمتلك طريقة ترشدنا في دراسة مصر.

كهف القنصل- تاجر العاديات

منح الملك لويس الثامن عشر مكتشف الحروف الهيروغليفية صندوقاً من الذهب. واستقبله في الڤاتيكان البابا ليون الثانى عشر واقترح عليه تعيينه كاردينالاً، إذ كان يعتقد -بتسرع زائد- أن اكتشافه يعزز التبسلسل التاريخى التوراتي الذي وضعته الكنيسة. رفض شامپليون بأدب رتبة كاردينال، لكنه قبل الحصول على جوقة الشرف ومنصب أمين المتحف المصري باللوڤر الذي افتتح في نوڤمبر ١٨٢٧ باسم متحف شارل العاشر. وفي غضون ذلك تقدم لعضوية أكاديمية الكتابات المنقوشة والآداب القديمة لكن لم يتم انتخابه! لقد فضلوا عليه الاقتصادي پوكڤيل Pouqueville. وفي مارس ١٨٢٩ أجرى شامپليون محاولة أخرى لكن في هذه المرة انتصر عليه رجل القانون پارديسو Pardessus. ويمكن تفسير هذا الإبعاد الغريب لأكبر عالم مصريات في جميع العصور بأسباب سياسية وبشدة البغض (بغض چومار بخاصة). وفي النهاية لم يقبل شامپليون كعضو في هذه الدائرة الضيقة إلا في مايو ١٨٣٠ بعد أن دافع عنه بشدة العديد من العلماء مثل أراجو وكوڤييه وفورييه وجيوفروى وسان-هيلير ولاپلاس.

إن مكتشف الخطوط الهيروغليفية في حاجة لأن يتحقق من صحة فرضيته. ولهذا ذهب أولاً إلى متحف تورين بإيطاليا الذي يمتلك مجموعة رائعة من الآثار المصرية اشتراها من برناردينو دروڤيتي قنصل فرنسا في مصر. يعمل دروڤيتي قنصلاً وتاجر عاديات مثل هنري سولت Henry Salt مثيله ومنافسه الإنجليزي. إنه يشترى كل ما يقع بين يديه ويجري حفريات ويستخدم عدداً كبيراً من الأيدي العاملة. وقام بزيارة منزله بالإسكندرية الكونت دي فورباِن de Forbin مدير المتاحف الفرنسية فأصيب بدهشة عميقة: «لقد قضيت جميع أيامي تقريباً لدى مسيو دروڤيتي. وبالرغم من أنه كان قد شحن جزءاً كبيراً من مجموعته إلى ليڤورنو [ميناء إيطالى] إلا أننى شاهدت لديه مسكوكات فى غاية الندرة. لقد تم تنسيق هذه القاعة العجيبة بنظام رائع، ويمكننا أن نتعلم خلال ساعات قليلة تاريخ مصر عن طريق الآثار التي تحويها وذلك بالطريقة الأكثر إمتاعاً والأكثر يقيناً. ولا يتوقف العرب عن ملاحقته في الخان الذي يعيش فيه: كل واحد منهم يحضر له مومياوات أو برونزيات أو مسكوكات وفي بعض الأحيان أحجاراً كريمة...»

كان القنصل دروفيتي يرغب في بيع مجموعة تحفه إلى فرنسا، لكن الملك لويس الثامن عشر رفض الإفراج عن أمواله. واشترى ملك پيامون [مقاطعة في إيطاليا] وملك سردينيا [جزيرة إيطالية] ٨٢٧٣ قطعة أثرية من بينها حوالي مائة تمثال ضخم. وضعت التماثيل الضخمة المصنوعة من جرانيت وردي اللون وبازلت أخضر في فناء متحف تورين لتنبيء الزائر بوجود كنوز أخرى عديدة: لوحات وتماثيل نصفية، تحف برونزية، مسكوكات ذهبية وفضية، أوراق بردي...وبدخوله كهف علي بابا هذا كاد يغمى علي شامپليون مرة أخرى. إنه لا يعرف أين ينظر، فهو لم يتعامل حتى الآن إلا مع نسخ أو مع شظايا. هذا مع العلم بأنه لم ير إلا جزءاً من الغنيمة التي لا تزال غالبيتها داخل صناديق لم يتم إفراغها بعد.

وتحمل العديد من هذه القطع علامة چان-چاك ريفو Jean-Jacques Rifaud وكيل دروفيتي. فإننا نجد مثلاً على جانب تمثال كبير لأبي الهول يحمل وجه امنحوتب الثالث النقش التالي: «اكتشف بمدينة طيبة عام ١٨١٨ بواسطة ريفو النحات الذي يعمل في خدمة دروفيتي.» إن ريفو هذا القادم من مدينة مارسيليا يستخدم جيشاً من الأيدي العاملة في مواقع العمل. إنه سريع الغضب، وكتب البارون دي فورباك عنه بأنه كان «يضرب العزب الذي لا يفهمون اللهجة البروڤانسية». ومع ذلك يتحدث ريفو بلهجات عديدة ويعتبر نفسه مدافعاً عن العمال في مواجهة جشع الأعيان المحليين. على أية حال لم يمنع الحياء هذا العاشق للآثار المصرية -مثل منافسيه الإنجليز أو الايطاليين- من نشر قطعة حجرية منقوشة أو من استخدام المتفجرات لانتزاع تحفة فنية(٣)...

وبعد زيارته لتورين ذهب شامپليون إلى ليڤورنو حيث توجد مجموعة تحف أخرى جمعها القنصل الإنجليزي سولت ومعروضة للبيع. وقد نجح في اقناع شارل العاشر بشرائها مقابل ٢٠٠ ألف فرنك. وفي غضون ذلك عرض دروفيتي مجموعة أخرى على فرنسا، وقام بملاطفة ملك فرنسا بأن أرسل له هدية من طرف محمد علي حاكم مصر. وأحدثت هذه الهدية دوياً شديداً في پاريس فقد كانت: زرافة! إن مجموعة تحف دروفيتي الثانية أقل ثراء من مجموعة تورين وباعها مقابل ١٥٠ ألف فرنك. يمكن لشامپليون الآن أن يبدأ متحفه بخمسة آلاف قطعة فنية.وضعها في الدور الأول من الفناء المربع لمتحف اللوفر.

ويمكن للرجل الذي قام بحل الخطوط الهيروغليفية أن يذهب الآن إلى مصر الملازمة للياليه منذ أمد طويل، ومع ذلك لم يعرفها إلا من خلال الكتب والقطع الفنية أو أشخاص

3. Jean-Jacques Fiechter, *La Moisson des dieux,* Paris, Julliard. 1994.

قاموا بزيارتها. تم تشكيل بعثة فرنسية-توسكانية بموافقة ملكي فرنسا وتوسكانيا [منطقة بشمال إطاليا]. ضمت البعثة ١٢ عضواً ويرافق شامبليون فيها بصفة خاصة شارل لينورمان Charles Lenormant المفتش بالفنون الجميلة، وسكرتير ورسام شاب عاشق لمصر هو نيستور لوت Nestor L'Hôt الذى كان فى طفولته يحنّط الحيوانات ويدفنها تحت الأهرام في حديقة والده. ويقوم نيستور بكتابة يومياته أثناء هذه الرحلة وبإرسال خطابات عديدة لأسرته بأسلوب غير مألوف متسم بالحيوية. وعاد إلى فرنسا بعد أن رسم خمسمائة رسم ولوحة بالألوان المائية. ومن ثم عاد من جديد إلى مصر مرتين لكي يرسم المزيد من اللوحات(٤)...

ثلاثون عاماً بعد بونابرت

في يوم ١٨ أغسطس ١٨٢٨، أي بعد نابليون بثلاثين عاماً، نزل شامبليون ونيستور لوت والايطالي ايپوليتو روسيلليني Ippolito Rossellin وأعضاء البعثة الفرنسية-التوسكانية التسع الآخرين من السفينة إلى أرض الإسكندرية. مصر! لقد تهلل وجه الرجل الذي يسميه زملاؤه في البعثة «الجنرال» مبتهجاً. «شامپليون في مصر، إنه موسى في أرض الميعاد، وقد شعر بالتهلل وبأنه ملك(٥).»

وبعد أن وطأت قدماه أرض الفراعنة بعشرة أيام كتب إلى شقيقه يقول: «إننى اتحمل حرارة الجو بأقصي ما أستطيع. يبدو أنني قد ولدت في هذه البلاد فالفرنج [الأوروبيون الغربيون] يرون أن سماتي تتشابه تماماً مع سمات رجل قبطي. إن لون شنبى الأسود الذي أصبح محترماً فعلاً يساهم كثيراً في جعل وجهى شرقياً. فضلاً عن أنني اكتسبت عادات وأعراف البلاد فأشرب الكثير من القهوة وأدخن النارجيلة ثلاث مرات يومياً.» وقد اكتشف فيما بعد مثل هذا الاستعداد المثير للتعاطف لدى العديد من الفرنسيين الذين يذوبون بسهولة في البيئة المحيطة.

ولم تعرب لجنة الاستقبال في الإسكندرية عن ترحيبها الحار بالزائرين. لقد أبدى دروڤيتي قنصل فرنسا ذهوله لحضور البعثة في حين أنه كتب إلى باريس مبيناً تحفظاته الشديدة على مثل هذه الزيارة. كان يبدو له أن الوقت غير مناسب اطلاقاً للحضور لمقابلة محمد علي وتقديم طلبات إليه بينما كانت السفن الحربية الفرنسية قد اشتركت أخيراً في

4. *Lettres, journaux et dessins inédits de Nestor L'Hôte. Sur le Nil avec Champollion,* recueillis par Diane Harlé et Jean Lefebvre, Paris, Paradigme, 1993.
5. Jean Lacouture, *Champollion..., op. cit.*

تحطيم الأسطول التركي–المصري في نافارين. لكن خطاب القنصل وصل باريس متأخراً...وشامبليون من ناحيته مقتنع بأن دروفيتي يناور بدهاء لكي يمنعه من الحضور إلى أرض الفراعنة. وقد كتب شامبليون إلى شقيقه الأكبر يقول: «لقد ارتعد تجار الآثار عند سماعهم نبأ وصولي إلى مصر والتصريح لي بالتنقيب(٦)». هل ساهم شامبليون المصاب في أغلب الأوقات بعقدة اضطهاد في منح دروفيتي صورة الشيطان(٧)؟ على كل حال خضع دروفيتي. فقد هدد شامبليون بإبلاغ الصحافة الأوروبية إذا ما رفضوا منحه التصاريح اللازمة.

واستقبل محمد علي شامبليون الذي حصل منه على فرمان وعلى حراسة وتسهيلات متنوعة أخرى. يمكن للبعثة الآن أن تبدأ عملها. نزل «الجنرال» متجهاً نحو القاهرة بصحبة فرقته الصغيرة، لكن بطريقة مقبولة أكثر من طريقة بونابرت. كان يبحر بسلام في النيل وتغمره الانفعالات بمشاهد الفلاحين الذين يعيشون في المواقع التي سيجرى أبحاثه فيها.

دامت رحلته تسعة عشر شهراً استكشف خلالها خمسين موقعاً. دونت نتائج هذه الرحلة في ست مجلدات كبيرة عنوانها «صروح مصر والنوبة» وذلك بخلاف الشهادات الملحقة مثل شهادة نيستور لوت. كانت المعجزات تتابع أمام أعين هؤلاء العشاق لمصر: الجيزة، و،سقارة، ودندرة، وطيبة...وأمام معبد الكرنك صاح شامبليون متهللاً: «لسنا في أوروبا سوى أقزام، لا يوجد شعب قديم أو حديث تصور الفن المعماري مثلما فعل المصريون وعلى مستوى بمثل هذه المهابة والفخامة والرحابة ؛ لقد تصوروا هذا الفن باعتبارهم رجال ترتفع قاماتهم إلى مائة قدم...إن الإبداع الذي يحلق عالياً فوق أروقتنا في أوروبا يسقط عاجزاً عند أقدام بهو الأعمدة في الكرنك الذي يضم ١٤٠ عموداً(٨)».

وفي وادي الملوك اختار أعضاء البعثة قبر رمسيس كفندق يقيمون فيه، «مقر حقيقي للموت، ما دمنا لا نجد فيه نبتة عشب ولا كائن حي، باستثناء بنات آوى والضباع التي في الليلة قبل الماضية التهمت الحمار الذي يمتطيه خادمي على بعد مائة خطوة من قصرنا». وكان دخوله معبد أبو سمبل المعرض لخطر تدفقات الرمال مغامرة أخرى، فقد كتب شامبليون: «لقد خلعت ملابسي كلها تقريباً، ولم أحتفظ على جسمي سوى بقميص عربي وسروال من الكتان. كانت درجة الحرارة ٥١ درجة وعند انزلاقي للدخول

---

6. *Jean François Champollion, Lettres et Joutnaux écrits pendant le voyage d"Égypte,* recueillis et annotés par Herr-ine Hartleben, Paris, Christian Bourgois, 1986.
7. Jean-Jacques Fiechter, *La Moisson des dieux,* Paris, op. cit.
8. Jean-François Champollion, Lettres et Journaux..., op. cit.

في المعبد ظننت أنني أدخل فوهة فرن مشتعل. قمت أنا وروسيلليني وريتشي وأحد العرب المرافقين لنا بالطواف داخل هذا المعبد المحفور المدهش، وكان كل واحد منا يحمل شمعة. وبعد ساعتين ونصف من الإعجاب والذهول، وبعد أن شاهدنا جميع النقوش شعرنا بحاجتنا إلى استنشاق بعض الهواء، ولذا تلزم العودة إلى مدخل الأتون مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة للخروج. ارتديت صديريتين من الفانلة وأحاطوني بمعطف كبير فور عودتي إلى الضوء. وهناك بالقرب من أحد التماثيل العملاقة الموجودة في الخارج جلست لمدة نصف ساعة لأستريح وحتى يزول العرق الغزير.»

استمر شامپليون يعمل في هذا «الحمام التركي» ساعتين صباحاً وساعتين بعد الظهر خلال عدة أيام مما أضر بصحته وقد كتب إلى مسيو داسييه ظافراً: «يحق لي أن أبشرك بأنه لا يوجد ما يلزم تغييره في «رسالة حول الحروف الأبجدية الهيروغليفية» التي وضعناها. إن هذه الأبجدية صالحة: وتنطبق بنجاح متساوٍ على الصروح المصرية في زمن الرومان كما في زمن البطالسة. ومن المهم للغاية أنها تنطبق أيضاً على الكتابات المنقوشة في جميع معابد وقصور ومقابر العهود الفرعونية.»

سقوط المَشْعل

عند عودته من صعيد مصر قابل شامبليون محمد علي الذي طلب منه كتابة مذكرة عن تاريخ الآثار القديمة. إن الألباني الذي أصبح فرعوناً يريد معرفة أسلافه البعيدين...من الطبيعي أن يستجيب عالم المصريات للطلب لكنه يستغل الفرصة لكي يكتب مذكرة ثانية تلفت انتباه محمد علي إلى ما شاهده من «تخريب وحشي» في جميع أنحاء مصر. إنه يصر على ألا ينتزعوا «أي حجر أو قالب طوب بأي عذر كان» ، وأي نحت ملون أو غير ملون وذلك فى أماكن معينة قام بوضع قائمة بها. واقترح تنظيم الحفريات للمحافظة على هذا التراث منقطع النظير من «تعديات الجهل والجشع الأحمق». لم يفعل محمد علي شيئاً. وبعد مضي بضعة أعوام قدم رفاعة الطهطاوي بعد عودته من فرنسا التماساً إلى محمد علي يشتمل على المطلب ذاته لكن بلا نتيجة. وكان يجب انتظار فرنسي آخر هو أوجوست ماريت Auguste Mariette من أجل إقامة مصلحة للآثار المصرية.

وكتب شامپليون خطاباً إلى شقيقه يقول فيه: «لقد جمعت أعمالاً تكفيني العمر كله!». وعند عودته إلى پاريس سرعان ما انكب على العمل بالرغم من الهموم التي أثقله متحف اللوفر بها. ألم تعنَّ لهم الفكرة الغريبة بزخرفة عدة قاعات بالنمط

الإغريقي–الروماني؟ ولسوء الحظ كان الآوان قد فات لإصلاح الأمر. ووقعت فى فرنسا بغتة أحداث ثورة يوليو ١٨٣٠ فى الوقت الذي كان فيه مدير متحف اللوڤر ملازماً للفراش بسبب نوبة نقرس: قام المتمردون بتحطيم أبواب المتحف وحطموا واجهات العرض وملأوا جيوبهم. وبعد مضي بضع ساعات برز «سوق اللصوص» في ميدان شاتليه بباريس. تبين ضياع مئات القطع الفنية من القسم التابع لشامپليون، الذي تم تخويله بتعويض كل إنسان اشترى «بحسن نية» شيئاً مسروقاً. ولا يعدم الأمر وجود بعض النفوس المتعلقة بحب أوطانها مثل ذلك الساعاتي الذي أحضر خاتم رمسيس الثاني المصنوع من الذهب والذي أحضره له أحد مساعديه. لكن على أي حال لم يقف كثيرون أمام شباك دفع التعويضات.

ويبدأ شامپليون في إلقاء محاضراته في الكوليج دي فرانس حيث أنشيء كرسي للآثار المصرية خصيصاً له. وسرعان ما اضطره المرض إلى التوقف عن هذه المحاضرات. وفي يوم ٤ مارس ١٨٣٢ وافته المنية وهو في الواحد والأربعين من العمر، وبعد معاناته لآلام مبرحة. جرت مراسم الجنازة بسان–روش بحضور جمهور كبير كان يشترك في كرنڤال عيد المرفع [عيد مسيحي غربي يسبق الصيام الكبير]. طلب شامپليون «المصري» دفنه بمقابر پير–لاشيز . أقيمت بجوار قبره مسلّة من الصلصال الرملي محاطة بسياج مشبك، لكن زوجته اضطرت للتصارع من أجل الحصول على معاش مناسب(٩).

واستمر المغتابون لشامپليون في طعنه بعد وفاته. لا يزال البعض ينكرون عليه اكتشافه؛ في حين يتهمه آخرون بسرقة الاكتشاف من توماس يونج. وتتناقص قوة حجج هؤلاء المعاندون شيئاً فشيئاً. ففي كل عام يمر يتضح العكس وتزداد أهمية عالم المصريات الذي رحل في وقت مبكر للغاية. ويصف شارل لينورمان الذي رافقه في رحلته المصرية مميزاته العلمية الفريدة أفضل من أي وصف آخر. فقال: «لديه قوة استبصار لا تنتسب إلا للعبقرية، وطهارة في البحث عن الحقيقة، وبساطة نبيلة تعترف بالخطأ حين تكتشفه، واستسلام هادىء للجهل حين يكون الوقت غير موات للمعرفة».

ولم يتمكن شامپليون من إتمام كتابه عن «النحو المصري» ولا القاموس الذي كان يعده. إن شقيقه الأكبر هو الذي قام بإتمامهما ونشرهما. وقال ويلكنسون الإنجليزى: «لقد سقط المشعل على الأرض ولا يستطيع إنسان التقاطه». ظل هذا القول صحيحاً لمدة خمس سنين إلى حين ظهور البروسى كارل ريتشارد ليپسيوس Lepsius على المسرح وقيامه بإحياء علم المصريات.

9. Hermine Hartleben, *Jean -François Champollion. Sa vie et son oeuvre.* Paris, Pygmalion.1983.

(٩)

مسلّة لميدان الكونكورد

إذا كان اكتشاف شامپليون قد ساد عشرينيات القرن التاسع عشر، فإن حدثاً آخر أقرب إلى النوادر قد ميّز العقد التالي. بل وأي حدث! لقد أثارت إقامة مسلّة في قلب پاريس جدلاً ومناقشات حامية في عهدي شارل العاشر ولوي-فيليپ.

كان شامپليون قد اضطر إلى العدول عن إحضار واحدة من هذه المسلات العملاقة المنحوتة من كتلة حجر واحدة والتي كانت في العهود القديمة رموزاً شمسية. كان محمد علي راغباً في إرضاء الدول الكبري، فمنح واحدة إلى فرنسا والأخرى إلى إنجلترا. وكان شامپليون قد أعجب بهاتين المسلّتين «ابرتا كليوباطرة» حين نزل في الإسكندرية في أغسطس ١٩٢٨. وأرسل خطاباً إلى شقيقه أعرب فيه عن أمنيته بأن تأخذ فرنسا هديتها قبل أن «تفلت الفرصة منها». لكنه حين وصل الأقصر أصيب بنشوة وذهول ووقع أسير الإعجاب بمسلّتين أخريين من الجرانيت الوردى عند مدخل المعبد، ووجد أنهما أفضل بكثير من مسلّتي الإسكندرية.

ولكن محمد علي ليس على بعد خطوتين: ففى أبريل عام ١٨٣٠ استقبل رسولاً من قبل شارل العاشر «ولكي يعرب له عن امتنانه لفرنسا» منحه بسخاء مسلّتي الأقصر وواحدة من مسلّتي الإسكندرية. لكن ثلاث مسلات كثير للغاية. لقد اكتفوا بمسلّة واحدة التي كان مجرد نقلها أمراً محيّراً وقصة بذاتها. واختار شامپليون: «تلك التي على اليمين عند دخول القصر». إنه يفضلها لأن الأخرى تبدو له في حالة أكثر سوءاً. في الواقع أن المسلّتين مكسوتان بالرمال والأنقاض، ولم ير عالم المصريات تشققاً موجوداً في المسلّة التي اختارها لكنه لحسن الحظ ليس خطيراً...

لكن كيف يمكن نقل كتلة تزن ٢٣٠ طناً من الأقصر إلى پاريس؟ من المستبعد تماماً تقطيعها إلى أجزاء وقد وصف شامپليون مثل هذا العمل بأنه «تدنيس للمقدسات».

وعلى أي حال فقد سبق أن نجح الرومان في القرن الرابع في تنفيذ عملية مماثلة حين عبروا البحر المتوسط بمسلّة أخذوها من معبد الكرنك وأقيمت بميدان القديس بطرس. واقترح شامبليون تشييد «عوامة» خاصة. واتخذت اللجنة التي شكلها ملك فرنسا قراراً لصالح تشييد سفينة خاصة ذات قاع مستوٍ تستطيع السفر في البحر والصعود في النيل والنزول في السين، وبذلك يمكن تفادي النقل من ظهر سفينة إلى أخرى. وبدأ العمل في بناء سفينة جديدة بميناء طولون الفرنسي سميت «الأقصر».

غادرت السفينة «الأقصر» فرنسا يوم ١٥ أبريل ١٨٣١ وعلى ظهرها طاقم من ١٥٠ شخصاً يضم نجارين، وحدادين، ونحاتي حجر، وميكانيكيين. كان يقود هذه العملية المهندس أبوللينير لوبا Apollinaire Lebas وهو رجل قصير القامة لا يوحي ظاهره بالثقة. وصل الطاقم إلى الأقصر يوم ١٤ أغسطس التالي بعد صعود النيل وأقاموا وسط أطلال طيبة. عاش أفراد هذا الطاقم في الأقصر لمدة عام. قاموا بتحويل جزء من المعبد القديم إلى حي للبحارة مزود بمساكن منفصلة للانباشية والرقباء. وأقام الضباط في شقق علوية مزودة بأثاثات بحرية. وقاموا ببناء مطبخ وفرن ومطحن ومخبز، بل ومخزن أسلحة وآخر للبارود والمتفجرات، ومستشفى يضم ثلاثين سريراً. هكذا ولدت مدينة فرنسية صغيرة في أحضان معبد فرعوني!

وتوقف العمل بسبب تفشي وباء الكوليرا ولم تغادر المسلّة قاعدتها إلا يوم ٣١ أكتوبر. وفي اليوم التالي كتب قبطان «الأقصر» ڤرنيناك سان–مور Verninac Saint-Maur إلى شامبليون يقول: «ابتهج معنا يا سيدى المواطن العظيم: لقد غادرتنا الكوليرا وخضعت المسلّة الغربية بالأقصر أمام أبسط الوسائل الميكانيكية الحديثة. فقد أمسكنا بها أخيراً ومن المؤكد أننا سنحضر إلى فرنسا هذا الصرح الذي لا بد وأنه سيزودكم بمادة لدروسكم الممتعة، وسيحوز على إعجاب العاصمة. ستشهد باريس ما صنعته حضارة قديمة من أجل صيانة التاريخ في ظل انعدام مطبعة. وسترى أنه إذا كانت فنوننا مدهشة، فإن شعوباً أخرى صنعت فنوناً قبلنا بأزمان طويلة لا تزال نتائجها المدهشة تذهلنا حتى اليوم[1].»

ومع ذلك لا تزال تفصل المسلة عن ساحل النيل مائتان وستون متراً. يلزم التفاوض مع الفلاحين لشراء أكواخهم وهدمها من أجل إفساح الطريق. وتم اتخاذ احتياطات لا حصر لها من أجل نقلها على قضبان من الخشب وبمعاونة أربعمائة عامل تم استئجارهم محلياً، ولا يمكن شحن التحفة الثمينة على ظهر السفينة إلا في نهاية ديسمبر بسبب مستوى مياه

1. Raymond de Verninac Saint-Maur, *Voyage du Luxor en Égypte, entrepris par ordre du roi,* Paris, 1835.

النهر: وتم تقطيع مقدمة «الأقصر» مؤقتاً حتى يمكنها استقبال هذا العملاق الذي يبلغ طوله أكثر من ٢٢ متراً.

كانت السفينة مضطرة إلى انتظار الفيضان التالي، ولهذا لم تترك طيبة إلا يوم ٢٢ أغسطس ١٨٣٢ . وقضي الفرنسيون هذه الإقامة الجبرية الجديدة في الصيد وفي زيارة الآثار. وأخيراً انحدرت سفينة «الأقصر» في النيل على مراحل لكنها اضطرت من جديد إلى مد إقامتها في رشيد بسبب الصعوبات التي واجهتها في العبور من النيل إلى البحر المتوسط. وتم استدعاء إحدى أوائل السفن البخارية التي امتلكتها فرنسا واسمها «أبو الهول» التي قامت بقطر «الأقصر» وسط بحر مضطرب بصورة خطيرة. وفي النهاية وصلت الشحنة إلى طولون [ميناء فرنسي] يوم ١٠ مايو ١٨٣٣ بعد تحويل غير منتظر لمسار الإبحار عن طريق رودس. وفي طولون يواجه طاقم المركب مفاجأة سيئة هي حجزهم في الحجر الصحى، بالرغم من احتجاجاتهم. وفي يوم ٢٠ يونيو تستأنف «الأقصر» رحلتها من جديد في اتجاه مدينة روان الفرنسية عن طريق جبل طارق. تعبر مصب نهر السين ثم تصعد في النهر حتى باريس، حيث تصلها في النهاية يوم ٢٣ ديسمبر. لقد دامت هذه العملية اثنين وثلاثين شهراً، ومع ذلك يلزم وقت طويل آخر لإتمامها. يلزم مرور ثلاثة أعوام أخرى من أجل إنجازها بنجاح[٢]!

الميزات التعليمية للمسلّة المصرية

لا يحظى مبدأ نصب مسلّة في باريس بموافقة جميع الناس. فرفاعة الطهطاوي الذي كان قد عاد إلى مصر لا يوافق على هذا التبديد للثروات القومية ويبلغ محمد علي برأيه هذا لكنه لا يستمع إليه. ألم يفكر الوالي فى تفكيك أحد أهرام الجيزة لبناء السدود؟ ليست للآثار القديمة فى نظره قيمة سوى أنها مادة أولية أو أداة سياسية.

وفي فرنسا اعترض الشاعر بيتروس بوريل Petrus Borel [١٨٠٩-١٨٥٩] ساخطاً: «ألا يمكنكم ترك كل منطقة وكل مناخ محتفظاً بمفاخره وبزخارفه؟ ليس لأي شيء قيمة إلا حينما يكون في موضعه الخاص ووسط أرضه ومسقط رأسه وتحت ظل سمائه. يوجد ارتباط متبادل وتآلف حميم بين الصروح والبلاد التي أقامتها. يجب أن تتجاور المسلات المصرية مع أعمدة المعبد، وعبادة الشمس، ويجب أن تكون وسط الصحراء..»

لكن شامبليون ينظر إلى الأمور بطريقة أخرى. فهو يرى أنه سيكون للمسلّة المصرية في

2. Bernadette Menu, *L'Obélisque de Luxor*, Versailles, 1987.

فرنسا ميزة تعليمية: «لن يكون ضاراً أن نضع تحت أعين أمتنا صرحاً بمثل هذه المنزلة حتى نجعلها تنفر من الدمى التافهة والزينات الرخيصة التي نسميها بزهو صروحاً عامة، وهي ليست إلا زخارف لصالونات النساء تتلاءم مع قامة عظماء رجالنا..إن عموداً واحداً بمعبد الكرنك أكثر روعة بذاته من واجهات فناء متحف اللوڤر الأربع[٣]...»

وقد دار الجدل الحقيقي حول موضع نصب المسلّة المنحوتة من كتلة حجر واحدة. فمنذ سبتمبر عام ١٨٣٠ -حينما كان الأمر لا يزال يتعلق بإحضار مسلّتي الأقصر- كتب شامپليون إلى وزير البحرية يقول: «إن مكانهما محدد بصورة طبيعية وذلك سواء على جانبي مدخل اللوڤر وأمام صف أعمدته، أو أمام رواق المادلين [كنيسة]»، أما الملك لوي-فيليپ الذي كان قد وصل إلى الحكم فيري إقامة المسلّة المصرية في ميدان الكونكورد حيث كان يوجد تمثال لويس الخامس عشر المصنوع من البرونز والذي وضعت الثورة مكانه تمثال الحرية. ويصر ناپليون على رأيه مبيناً أن ساحة الكونكورد واسعة ومكشوفة مما يتعارض مع جلال هذه التحفة الرائعة. وقد ساءت علاقات شامپليون مع الملك وفارق الحياة دون أن تتم تلبية مطلبه.

ومن أجل استطلاع رأي سكان پاريس وتعويدهم على ما يجرى إعداده قام الملك لوى-فيليپ على سبيل التجربة بنصب مسلّتين مزيفنين مصنوعتين من الكرتون المضغوط، إحداهما بميدان الكونكورد والأخري بساحة ليزانڤاليد. كانت النتيجة الرئيسية لهذه التجربة هي إنعاش الجدل ...كانوا يناقشون أيضاً نوعية القاعدة التي يصنعونها للمسلّة إذ أن قاعدتها الأصلية قد تركت في مكانها الأصلي بالأقصر بسبب سوء حالتها: وفي النهاية تقرر صنع قاعدة بديلة من كتلة جرانيت مستخرجة من منطقة بريتاني. أما بالنسبة للأربعة قرودحيات العراة المحيطين بالمسلّة والرافعين أيديهم لتحية شعاع الشمس المتحجر هذا، فقد أخذوهم من الأقصر لكن تم وضع هذه القرود الفاسقة في متحف اللوڤر حتى لا يثيرون فزع بورچوازيي مدينة پاريس...

وكان يلزم نقل المسلّة المصرية من نهر السين إلى وسط ميدان لاكونكورد. اضطر المهندس لوبا إلى التخلي عن فكرة الآلة البخارية لأنها لا تحقق قوة كافية وابتكر آلة بديلة معقدة. فمن أجل نصب العملاق الحجري الضخم تم استدعاء القوة العضلية لـ.٤٢٠ جندياً من جنود المدفعية أخذوا أماكنهم بجوار كل ذراع من أذرع عشر روافع رَحَوية ولكل رافعة ستة عشرة ذراعاً. لقد كانت مجموعة من الإنشاءات المعقدة للغاية والتي

3. Lettre à son Frère, juin 1829.

تطلبت دراسات طويلة لأنه لا يكفي رفع المسلة إلى أعلى: بل يجب أيضاً منعها من التأرجح والسقوط في الاتجاه المضاد. تم ربط المسلة بأربع سلاسل معقودة من أعلى فوق أسلاك تثبيت. كان المهندس لوبا واعياً بالمخاطر المحتملة: «إن عدم فهم أحد الأوامر الصادرة، أو رباطاً غير جيد، أو مسماراً معوّجاً [...] يمكن أن يؤدي إلى كارثة رهيبة: ففي حالة سقوط الجهاز ستتحطم المسلّة، وتضيع ملايين الفرنكات، ولا جدال أن أكثر من مائة عامل سيسحقون.(٤)»

وأخيراً، وفي يوم ٢٢ أكتوبر ١٨٣٦ تجمع جمهور كبير في ميدان لاكونكورد لمشاهدة نصب المسلّة الشهيرة. وعلى ناصية شارع سان-فلورانتين المجاور كان أوركسترا من مائة عازف يعزف قطعة «أسرار إيزيس الخفية» لموزار. كانت السماء ملبدة بالغيوم. ولحسن الحظ أنها لم تمطر. كانت واجهة وزارة البحرية مغطاة بأكملها بالضباط والموظفين. وعند حوالي الظهر ظهر الملك وأسرته في الشرفة بعد بداية العملية.

وحين أعطى المهندس لوبا الإشارة بدأ جنود المدفعية مسيرتهم الموزونة على نغمة البوق. وبدأت الروافع الرحوية تدور حول محورها والحوامل تنتصب وتجذب المسلّة. وفجأة سمعوا صوت طقطقة أثارت القلق. توقفت العملية على الفور. أجرى لوبا مشاورات مع مساعديه. لم يجدوا شيئاً غير عادى، فقرروا الاستمرار.

تم اجتياز ثلث آخر من الطريق خلال أربعين دقيقة. إن المسلّة ترتفع بطريقة غير محسوسة. وأخيراً اتخذت مكانها فوق قاعدتها وسط هتافات ٢٠٠ ألف نسمة. وارتقى أربعة رجال فوقها ليضعوا الأعلام الفرنسية وغصون نبات الغار. وفي الشرفة ظهر الملك لوي-فيليب لتحية العلم ثلاثي الألوان.

وعلى الحجر الذي ترتفع فوقه المسلّة المصرية نقشوا السطور التالية:

في حضور الملك
لوي فيليب الأول
تم نقل هذه المسلة من الأقصر إلى فرنسا
ونصبت فوق هذه القاعدة بواسطة المهندس لوبا
وسط تصفيق جمهور غفير
٢٥ أكتوبر ١٨٣٦

وفي ذلك اليوم حصلت الميكانيكا الحديثة على المجد والتبجيل، وتم نسيان علم

4.Apollinaire Lebas, *L;Obélisque de Luxor. Histoire de sa translation à Paris, description des travaux auxquels il a donné lieu, avec un calcul sur les appareils d'abattage, d'embarquement, de halage et d'érection,* Paris, 1839.

المصريات. «هكذا وجب على شامبليون المكتشف الانزواء أمام لوبا الذي قام بعملية نقل المسلّة[٥].»

شاعر رومانسي تأسره المصريات

في قصيدته الشعرية الطويلة المسماة «مسلات تحن لماضيها» (١٨٥١) عقد تيوفيل جوتييه Théophile Gautier [كاتب وشاعر فرنسي١٨١١-١٨٧٢] مقارنة بين توأمتي الأقصر اللتين تم انتزاعهما الواحدة من الأخرى. تعرب مسلّة باريس عن حزنها الشديد فتقول ما معناه:

«أنا المسلّة التي فقدت شقيقتها..أشعر في هذا الميدان بالملل...لقد تجمد جبيني من الثلج والضباب والرذاذ والمطر... بعد أن أصابه الصدأ.»

أما شقيقتها التي بقيت في موطنها، وتفادت عناء السفر وعذاب الاقتلاع من الجذور، والتي تبدو كأنها حصلت على النصيب الأفضل فتقول:

«إنني أسهر كحارس وحيد...لهذا القصر الكبير الخارب...وسط الوحشة السرمدية....قبالة مساحة شاسعة الأبعاد.»

لكنها تستدرك قائلة:

«كم أريد أن أكون مثل شقيقتي...فينقلوني إلى باريس الكبيرة هذه...لأكون بجوارها لكي ألهو...وسط ميدان يزرعوني فيه.»

وتختتم مسلّة الأقصر قائلة: «الأخرى حية...أما أنا فميتة..». إنها ليست إلا قصيدة شعر رومانسي. ويستند جوتييه إلى شهادة صديقه ماكسيم دي كان Maxime du Camp الذي حظي بالسفر إلى صعيد مصر وشاهد مواقع الاختطاف. وفي ديسمبر ١٨٥١ كتب جوتييه له خطاباً قال فيه: «إنني غيور بدناءة من سعادتك، وأحسد خادمك على مصيره...يجب على سرقة بنك فرنسا، أو قتل بعض البورجوازيين، أو طعن رجل رأسمالي لكي أسافر وألحق بك.»

وفي عهد الإمبراطورية الثانية ازداد البعد بين التوأمتين: فقد تم «كساء» مسلّة الكونكورد مرات عديدة بمناسبة عقد اجتماعات شعبية حاشدة. كانوا يحيطونها بالمنصات وبتمثال لأبي الهول مصنوع من الكرتون المضغوط وبأعمدة مصطنعة من الجرانيت. وفي

5. Jean Vidal, «L'absent de l'obélisque», in Jean Lacouture, *Champollion. Une vie de lumières*, Paris, Grasset, 1988.

يوم ١٥ أغسطس ١٨٦٦ -يوم عيد الإمبرلطور- احتجزت خلف أروقة معبد مصري صناعي أضيء بمصابيح غاز[٦]...

إن تيودور جوتييه المنهمك في أنشطة باريسية عديدة لم يزر مصر إلا عام ١٨٦٩ بعد أن خصّها بصفحات كثيرة بل وحتى بعد أن امتزج بها. ويعتقد هذا الرومانسي بأننا «لا ننتسب دائماً للبلد الذي شهد مولدنا»، فقد كتب إلى جيرار دي نرڤال: «إن لامارتين وڤيني إنجليزيان عصريان؛ وهوجو اسپاني- فلمنتي من عصر شارل كينت...وأنا تركي لكنني لست من استانبول بل من مصر. يبدو لي أنني عشت في الشرق، وحين اتنكر في أحد الكرنڤالات بارتداء القفطان والطربوش فإنني أشعر بأنني استعيد ملابسي الحقيقية. لقد كنت دائماً مندهش لأنني لا أفهم اللغة العربية بيسر. لا بد وأنني نسيتها.»

وفي عام ١٨٣٨ يتمخض عشقه لمصر عن رواية أولى رومانسية ومبدعة اسمها «ليلة كليوباطرة». غير أنه في عام ١٨٤٠ يصدر قصة «قدم مومياء» وهي قصة مستوحاة مباشرة من كتاب ڤيڤان دينون ومرتبطة به. فحينما كان دينون يعبر وادي الملوك اكتشف «قدم مومياء صغيرة» أحضرها معه...«ولا شك بأنها كانت قدم سيدة شابة من الأميرات الفاتنات». ووصف شكل هذه القدم بأنه ممتاز «كأنها لم تعان من المشي الكثير، ولم تندعك داخل أي حذاء». وقد وصف جوتييه هذه القدم بأسلوبه الخاص فقال إنها: «لم تمس الأرض إطلاقاً، ولم تلامس سوى أرقى أنواع الحصير المصنوع من بوص النيل، وأكثر أنواع السجاد نعومة المصنوعة من جلد النمور.»

هذه القصة المليئة بالمعلومات الأثرية غير الدقيقة احتوت على أسس جميع العناصر التي نجدها في كتاب أصدره عام ١٨٥٨ اسمه «رواية المومياء» وحصل على شهرة واسعة: وفي هذه الرواية يصف افتتان رجل معاصر بسيدة من العصور القديمة، مع تركيز رغبته الجنسية على جزء معين من جسدها، كما يصور الحنين إلى الأصول وإلى الأم المثالية[٧]...لكن في هذه المرة حصل تيوفيل جوتييه على معلومات دقيقة موثقة بطريقة قلما يتبعها الروائيون. كان مصدر جوتييه الأساسي كتاب علمي دقيق للغاية عنوانه «تاريخ عادات الحزن والجنازات لدى الشعوب القديمة» تأليف ارنست فيدو Ernest Feydeau ويتضح من التعمق في دراسة رواية مومياء أن المؤلف استعان بمصادر أخرى جادة لا يقل عددها عن نصف دستة[٨]. ويلزم التنويه بأن تلك السنوات اتسمت بنشاط واسع في علم

6. Jean-Marcel Humbert, L'Égyptomanie dans l'art occidental. Paris, ACR, 1989.
7. Claude Aziza, «Les romans de momies», in *L'Égyptomanie à l'épreuve de l'archéologie*, Paris, musée du louvre, 1996.
8.Jean-Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte*, Le Caire, IFAO,rééd. 1956, t. II.

المصريات، يدل عليه صدور العديد من الكتب وعرض «غرفة الملوك» بالمكتبة الوطنية بپاريس عام ١٨٤٤.

إن جوتييه الذي نشر روايته في البداية على حلقات في «لو مونيتور أونيڤرسيل» لم يكتف بشرح النصوص العلمية، بل استند أيضاً بدقة إلى النقوش والرسوم المحفورة المتاحة وأجرى مع فيدو أحاديث فنية عميقة لا حصر لها. وفيما بعد وصفت ابنته چوديت Judith [كاتبة وشاعرة ١٨٤٥-١٩١٧] في روايتها «عقد الأيام»: «الصالون المزدحم بألواح الخشب الكبيرة الموضوعة فوق قواعد»، وحمية المؤلف الذي يقف في كل لحظة للتحقق من صحة معلومة ثانوية. ومن فرط ما شاهدت الفتاة الصغيرة «هذه الصور الغريبة، حيث توجد رؤوس حيوانات فوق أجسام بشر، وأغطية للرأس عجيبة ذات قرون»، فقد أفضى الأمر إلى أنها لم تعد تحلم إلا بالمومياوات، ولا تلف عروستها إلا بالشريطات الصغيرة، وتضع فوق وجهها قناعاً من الورق المذهب، وتضعها داخل صندوقها الذي تحول ليصبح تابوتاً...

ويؤكد چان ماري كاريه Jean-Marie Carré أن «رواية مومياء» التي درسها بعمق ليست رواية مصرية إلا من ناحية الزي والبيئة. فقد ظلت شخصياتها «رومانسية»[٩]. ولكن أية دقة في أزيائها! وأية أبهة في زخارفها! وأي أسلوب! وبما أن تيوفيل جوتييه اتبع قوانين العلم عن طريق استخدامه لشروح تفصيلية دقيقة للغاية، فيمكنه أن يبيح لنفسه بأن يجعل قارءه يحلم عندما يقدم إليه مومياء مثيرة جنسياً أكثر مما هي نابضة بالحياة: «تظهر السيدة الشابة تقاطيع جسمها الجميلة عارية باحتشام، ومحتفظة بالرغم من كل هذه القرون المنصرمة بكل رشاقتها اللدنة. ويتخذ قدها وضع ڤينوس غير الشائع لدى المومياوات.... إنها تخفي بإحدى يديها نصف صدرها البكر، وتحجب بالأخرى محاسن غامضة كما لو كان حياء المتوفاة لم يأنس بما فيه الكفاية لظلمات القبر الواقية...وتذكرنا صغر يديها الرقيقتين، ونعومة قدميها الحسناوين المنتهية أطرافها بأظافر نضرة مثل العقيق، ورهافة القوام، وهيئة الثدي الصغير والمرفوع، ومحيط الأرداف قليل البروز، واستدارة الفخذ والساق الطويلة قليلاً ذات الكعب الرقيق والمتسق... يذكرنا ذلك برشاقة الراقصات الممشوقات.»

وقد أنجبت رواية جوتييه العديد من الأعمال الأخرى. لم يكن لوكنت دى نوى Le-comte du Noüy هو الرسام الوحيد الذي يستوحيها لرسم لوحتيه «رمسيس في حريمه»

9..Jean-Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte*, op. cit.

وناقلو الأنباء». أما بالنسبة للأدب فقد واءم بين المومياوات وبين مدارسه. حين تخلي المذهب الرومانسي عن مكانه للمذهب الواقعي ثم للمذهب الطبيعي، قاموا بعكس التصورات: فقد أعقب الرجل المعاصر العاشق لسيدة من العصور القديمة، المومياء الذكر الذي يجد في سيدة حديثة صورة محبوبته أو تجسيدها(١٠).

ولعل جوتيه كان يجهل حين كتب روايته قصة مومياوات أخرى جاءت إلى پاريس وكانت أقل إثارة جنسياً، لكنها لا تقل إيحاءاً. إنها المومياوات التي أحضرها علماء ناپليون معهم من مصر والتي كانت محفوظة في متحف اللوڤر. وقد أجبرتهم رائحة كريهة تخرج من بعض هذه الجثث على دفنها سراً في الحدائق. والحال أنه تم دفن شهداء ثورة يوليو ١٨٣٠ في نفس المكان. وبعد مضي عشر سنين حين أرادوا نقل مائة من جثث هؤلاء الأبطال لدفنها تحت أعمدة الباستيل كان من المتعذر التفرقة بينها وبين المومياوات المجاورة لها. حتى إنه أصبح يوجد عدد من المصريين والمصريات تحت الباستيل(١١)...ولا يقل هذا الأمر شأناً عن مسلّة الكونكورد!

10. Claude Aziza, «les romans de momies», art. cit.
11. Ange-Pierre Leca, *Les Momies,* Paris, Hachette, 1976.

(١٠)

نحو ملاقاة الزوجة - المنْقذة

في يوم ٣٠ أبريل عام ١٨٣٣ نزل من السفينة إلى أرض الإسكندرية أربعة أشخاص يرتدون زياً مضحكاً وغريباً. كانوا ملتحين، يرتدون قبعات [بيريه] حمراء ويطوون شعورهم الطويلة داخلها، وسترة سوداء ضيقة عند الخصر، وصديري في لون القرمز وبنطلونات حمراء فاقعة شبه ملصوقة على أجسادهم، و«ايشارب» أبيض يرفرف في الهواء. وعندما شاهدهم البحارة العرب أخذوا ينبهون بعضهم بعضاً ويتغامزون ساخرين. لكن لم يعتد أحد على هؤلاء السائحين الذين عند مغادرتهم لميناء مارسيليا منذ قبل ثلاثة وعشرين يوماً كاد ملاحو الميناء هناك أن يقذفوا بهم في مياه البحر.

إنهم فرنسيون، ويقدمون أنفسهم بأنهم سان سيمونيون، ويطلبون مقابلة محمد علي. وفي قصر رأس التين قالوا لهم بأن الباشا ينام القيلولة، وحين عادوا في اليوم التالي لم يستطع حاكم مصر استقبالهم لأن المترجمين ليسا متواجدين... واضطروا إلى الاكتفاء برؤيته يوم ٤ مايو أثناء ركوبه حصانه بجوار الترسانة. قاموا بتحيته فأجابهم «بلطف شديد» ثم سار في طريقه[1]

استقبلهم فرديناند ديلسبس نائب قنصل فرنسا، وقام السان سيمونيون بعقد اجتماع لإلقاء محاضرة على الأوروبيين المقيمين بالإسكندرية. اكتظت القاعة بالحاضرين، وشرح السان سيمونيون مغزى حضورهم إلى أرض الفراعنة وهو: تحبيذ قيام اتحاد عالمي بين الشعوب و«ملاقاة الزوجة-المنقذة». وفي يوم ٦ يونيو انضمت إلى هؤلاء الرواد مجموعة أخرى وصلت من فرنسا وذلك في انتظار وصول رئيسهم بروسبير انفانتان Prosper Enfantin في نهاية اكتوبر. وفي تلك الأثناء دعاهم سليمان بك [سليمان باشا فيما بعد وكان اسمه السابق الكولونيل سيف] بمنزله وقدمهم إلى العديد من الموظفين المصريين.

1. Philippe Régnier, *les Saints-Simoniens en Égypte,* Le Caire, Banque de l'Union européenne, 1989.

إن الكونت سان–سيمون Saint-Simon المتوفي عام ١٨٢٥ لم يسعفه الوقت لتطبيق أفكاره الاشتراكية المؤسسة على الإنتاج الصناعي واللاعنف. وقد خلفه في هذه المهمة تلميذه انفانتان Enfantin، غير أنه حولها من مدرسة فكرية إلى جماعة مؤمنة تعتنق أفكاراً شاذة: ويزعم هذا المهندس خريج مدرسة البوليتيكنيك الفرنسية «الأب» عن اقتناع كامل بأنه سيتقابل في الشرق مع سيدة متحررة يدعونها «الأم»، ستصبح زوجته ويقومان معاً بقيادة اتحاد الشعوب العالمي. وقد كشف لأحد أنصاره الملتفين حوله أن تاريخ هذا اللقاء قد ظهر له في المنام: وسيكون خلال عام ١٨٣٣.

لقد أثبطت فرنسا همّة السان سيمونيين. إنهم يرون بأن الإنتاج الصناعي الذي هو مصدر كل تقدم يواجه العقبات في فرنسا من جانب هيكل الملكية البالي والأخلاق المسيحية التي تحظر الاستمتاع بمباهج هذا العالم. ويرون أيضاً أنه يجب على كل مجتمع حديث تحبيذ الشهوات المادية بما فيها الجسدية. وهل يوجد حقل تجارب أفضل من الشرق المادي والشهواني(٢)؟

المزج بين الشرق والغرب

ومع ذلك لم يكن عشرات السان سيمونيين الموجودين في مصر من الهازلين. فيوجد بينهم مهندسون، وأطباء، وفنانون، ونساء عديدات سابقات لعصرهن مثل سيسيل فورنيل، وكلوريد روچيه، وسوزان ڤوالكان. لقد غادر هؤلاء الحالمون الكرماء فرنسا المعادية لهم: كان انفانتان ذاته قد دخل السجن بتهمة الفسق والاحتيال. وبدا وادي النيل له بأنه المكان المثالي للمزج بين الشرق والغرب عن طريق تنفيذ شق قناة السويس وذلك وفقاً لما كتبه انفانتان «الأب» إلى أحد تلاميذه: «إن دورنا هو أن نقيم بين مصر العتيقة ويهودا [بالضفة الغربية بفلسطين] أحد الطريقين الجديدين المؤديان من أوروبا إلى الهند والصين. وفيما بعد سنشق الطريق الآخر في پناما. هكذا سوف نضع قدماً فوق النيل والأخرى فوق القدس. وسوف تمتد يدنا اليمنى إلى مكة، ويغطي ذراعنا الأيسر روما ويستند على پاريس. إن السويس هي مركز حياتنا العملية. سنقوم هناك بإنجاز العمل الذي ينتظره العالم ليعترف بأننا رجال.»

ويرى السان سيمونيون أنهم «الحملة الفرنسية الثقافية الثانية» (بعد حملة بوناپرت). ويندرج محمد علي في حلمهم تماماً: «لقد أصاب ناپليون مصر بسيفه التمديني، وتابع

2.Id., «Thomas-Ismayl Urbain, métis, saint-simonian et musulman», in La Fuite en Égypte, Le Caire, CEDEJ, 1986.

محمد علي العمل العسكري مع صبغه بطابع صناعي.» فهنا في مصر لن تعرقل المعارك السياسية العمل الاقتصادي. إن كل شيء يتركز بين أيدي رجل واحد هو «نائب-الملك» الذى لا يعانى من ضغط الرأى العام «وهو الأمر الذي يصيب البلدان الديموقراطية بالعجز».

وبعد مضي وقت قليل منذ وصوله إلى مصر ذهب انفانتان إلى برزخ السويس لاستكشاف الموقع. وعاد مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بإمكانية ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط. لكن محمد علي لا يريد سماع الحديث عن ممر دولي يعبر بلاده قد يهدد استقلالها. وهو يرغب في المقابل بناء سدود على النيل من أجل تحسين الري في الدلتا وجعل أحد فرعي النيل صالحاً للملاحة طوال العام. خضع المهندسون السان سيمونيون للأمر: وعوضاً عن ربط البحرين، قاموا بالمشاركة في بناء السدود تحت إشراف الفرنسي لينان دي بيلفون Linant de Bellefonds الذي عيّن مسئولاً عن هذه الأعمال.

أصيب تلاميذ سان-سيمون بالغم حين اكتشفوا الطريقة اللاإنسانية التى يعامل بها «المتمم لأعمال نابليون» غالبية مواطنيه، مما يجعل هؤلاء الفلاحين البؤساء يقطعون إصبعهم أو يفقأون عينهم للتخلص من التجنيد أو من تعبئتهم في أعمال السخرة بلا أجر لتنفيذ مهام ذات منفعة عامة. كان عدد الضحايا رهيباً. فمن أجل حفر ترعة المحمودية وحدها التي تربط الإسكندرية بالنيل، ألم يقل المشنّعون على الوالي بأن ضحايا تعلية ضفاف هذه الترعة بلغوا ٢٠ ألف قتيل؟ واقترح انفانتان تكوين «جيش صناعي» يضم فرق وسرايا وكتائب. ويكون للعمال زي موحد وراتب وجراية مثل جنود الجيش. ولا يشترك في هذا الجيش إلا الأطفال البالغين أكثر من عشر سنين (معيار إنساني). وفي المقابل لن يستخدموا سوى المشوهين عن عمد حتى لا يبدو تشويه الذات بأنه ضمان ضد التجنيد (إجراء وقح أم حيلة ماهرة لكي يقبل الوالي تنفيذ المشروع؟).

ونجح لينان بلفون في الحصول على الموافقة على مشروع أقل طموحاً. سوف يتم الاكتفاء بفيلقين من العمال، لكن سيتم وضعهم لأول مرة تحت رئاسة رؤساء ومراقبين للعمال وفقاً لتسلسل رئاسي حقيقي. وحصل السان سيمونيون أيضاً على موافقة على إنشاء مدرسة للهندسة المدنية بجوار ساحة العمل الواقعة عند رأس الدلتا. كانوا يفيضون بالأفكار وأقنعوا محمد علي بإنشاء مجلس أعلى للتعليم العام، وبإنشاء لجنة استشارية للعلوم والفنون. وقد أمكن لهؤلاء الموظفين الذين من طراز جديد أن يتكيفوا مع الظروف ومع البيئة المحيطة. إن «زيهم الشرقي» يقترب من الزي المسمى «النظام» الذي كان قد تم فرضه قبل بضع سنوات على الجيش المصري الجديد، والمشتمل على طربوش صغير. وقد

وصف انفانتان زيه الجديد لأحد الذين يراسلونه فقال: «شعري ولحيتي بصفة خاصة أقل طولاً، أرتدي طاقية من الكشمير، وردائي أحمر بأكمام مفتوحة، السترة منفصلة عن التنورة، وفوق حزامي القديم المصنوع من الجلد الأسود أرتدي عباءة صوفية بيضاء، وارتدي بابوجاً أحمر فوق خفٍّ أصفر وصديري ملصوق بزراير صغيرة مثل الأتراك. وبذلك تكون قد عرفت صورتي.»

وفي يوم ١٥ أغسطس ١٨٣٤ أقيم في ساحة العمل حفل في غاية المرح وفرنسي للغاية للاحتفال بذكرى نابليون. انضم للحفل فردينان ديلسبس ولينان دي بلفون. قام الكولونيل السابق سيف [سليمان باشا] بإنشاد أغانيه، ولم يمنعه إسلامه من أن يكون شرهاً في شرب الشمپانيا التي سالت بغزارة.

ويشعر ميمو Mimaut قنصل فرنسا بالاستياء من أخلاق انفانتان وأصحابه. إن «فتيات القناطر» يثرثرن ويغتبن. ألا تقوم أجاريت كوسيدير الأخت السان-سيمونية بالتنقل بحرية من خيمة إلى أخرى «ومن ذراع إلى آخر[٣]»؟ كانت في السابق تعمل عاهرة بمدينة ليون الفرنسية. ويعبن أيضاً على الجميلة كلوريند روجيه زياراتها الطويلة لمسكن سليمان بك.

وأصبح الفنان الشاب فيليپ چوزيف ماشرو النديم الفكه للجالية الفرنسية بالقاهرة. كان هذا السكرتير السابق لڤيڤان دينون يقوم بالتمثيل فوق خشبة مسرح صغير في الموسكي. إنه بصفة خاصة رسام موهوب يقوم بتدريس الرسم بمدرسة الفرسان بالجيزة، وقد أسند الكولونيل السابق سيف إليه زخرفة جدران قاعته للبلياردو. وفيما بعد اهتدى ماشرو للإسلام وتزوج وأصبح اسمه محمد افندي.

سوزان والمصابون بالطاعون

توقفت الأعمال التمهيدية لبناء القناطر عام ١٨٣٥ بسبب وباء طاعون رهيب ذهب ضحيته ٣٥ ألف نسمة في القاهرة وأباد ثلث سكان الإسكندرية. وبينما وضع الأطباء السان سيمونيون أنفسهم لخدمة المرضى بشجاعة، انتهز انفانتان الفرصة لزيارة صعيد مصر. ويقول چان-ماري كاريه: «دام غيابه ستة شهور، وكان لدينا انطباع بأن للرحلة تأثير كبير طيب عليه. لقد نسي إحياء الجنس البشرى وتوقف بقاربه الشراعى في جميع المدن المجاورة للساحل، وكانت تستهويه الأسواق المكتظة وعاش حياة مرحة لم يقاوم خلالها جاذبية جمال السمراوات. إنه صياد ماهر، وكان يصطاد التماسيح وأبو قردان وسط بوص

3. Id., *Les Saint-Simoniens en Égypte, op. cit*

النيل، كما كان يتوقف عند المواقع الأثرية وزار أبيدوس ودندره. وفي الأقصر التقى مع مجتمع القاهرة الراقي الذي هرب من الوباء، واستأنف علاقات أكثر وداً مع القنصل ميمو، وعمل على اتقان لغته العربية، وانتظر في هدوء الرؤيا الإلهية التي لم تظهر إطلاقاً[٤].»

وكتبت سوزان ڤوالكان صفحات مؤثرة عن وباء الطاعون. كانت هذه السان سيمونية الشابة المنتمية إلى أصل متواضع تقوم بأعمال الغسيل والكواء لدى أصدقائها قبل أن تلتحق بالعمل لدى الدكتور دوساب Dussap المتزوج من سيدة شرقية وتساعده ابنته هانم. بدأت سوزان التدرب على أعمال التمريض مع تعلُّم اللغة العربية في الوقت نفسه. إنها تقلد هانم التي يمكنها فصد الدماء والتطعيم ومداواة الجروح[٥]». ومن الغريب أن أناساً كانوا يلعبون الكرة في الشارع بجدية واهتمام. وقد شرحوا لسوزان بأن الشياطين هي التي تحضر الأوبئة ، وبأن هذه الشياطين عندما تصاب بالإرهاق من الرفرفة فى الهواء فإنها ترتمي فوق الأشخاص وتفترسهم.، وتقوم الكرة بجذب هذه الكائنات الشريرة وبتحويل أنظارها بعيداً عن البشر...

إن الأوروبيين المقيمين في القاهرة الذين لم يهربوا من المدينة يغطون أنفسهم بقماش مشمّع ظناً منهم بأنهم بذلك يحمون أنفسهم من الوباء. ويصر الأطباء السان سيمونيون على أن الطاعون ليس معدياً. إنهم يقدمون المساعدة للمحتضرين ويمارسون التشريح والفحص الدقيق لمحاولة فهم المرض. ودفع العديد منهم حياتهم ثمناً لهذا. كان الدكتور دوساب المتعلق بفكرة عدم وجود عدوى يستقبل المصابين بالطاعون في منزله. وتروي سوزان ڤوالكان: «في الأيام التي لا نستقبل فيها المرضى كان الطبيب الصالح يأخذني لزيارة نساء قبطيات أو أرمن بل وحتى داخل الحريم التركي لأن سنه ولحيته الطويلة الممتدة حتى وسطه كانتا جواز مروره، وكان يقدمني لهن على أنني لا أقل عنه علماً...آه لماذا لم أستطع الاحتفاظ بهذا الطبيب الفاضل وبعزيزتي هانم؛ أي خير كان يمكننا صنعه لهذه البلاد!»

واختطف الوباء الدكتور دوساب وابنته. وحينذاك قبل طبيب فرنسي آخر هو الدكتور كلوت بك أن تلتحق سوزان من الخارج بمستشفى الأزبكية بشرط أن تتنكر في زي رجل...وبعد أن أصبحت سوزان أمّاً قررت متابعة دراستها في فرنسا لعدم وجود مدرسة

4. Jean-Marie Carré, Voyageurs et Écrivains français en Égypte. Le Caire, IFAO, rééd. 1956, t. 1.
5. Suzanne Voilquin, *Souvenirs d'une fille du peuple. Une saint-simonienne en Égypte*. Paris, Maspero, 1978.

قابلات في مصر تستطيع الالتحاق بها[٦]. لقد عادت إلى فرنسا وهي تشعر بالحزن لإحساسها بأنها قد خدعت.

تحتل النساء مركزاً شديد الخصوصية في المغامرة السان سيمونية بمصر. إن مجرد السفر بحرية في الأعوام ١٨٣٠ هو حدث تاريخي. وقد سموا هذا بظرف «حلم التنقل»...لم تكن تجتذب العديد من السان سيمونيات هذه الإقامة في الشرق الذي يبدو لهن كآخر مكان يصلح لتشجيع المساواة بين الجنسين. كانت أمريكا تستهويهن أكثر بكثير حيث تبدو النساء هناك أكثر تحرراً. مصر أم العالم الجديد؟ جرت منافسة بين حلمين، أحدهما العودة إلى المنابع والآخر لا يقل جاذبية وهو التوجه نحو إلبكارة[٧].» وفي ظل الاهتمام بتحقيق رسالة انتصار الشرق. فقد كتبت كلوريند روجيه قبل أن تنزل في الإسكندرية: « بالنسبة للنساء اللاتي تستنشقن الحياة الجديدة توجد مهام كبيرة هناك حيث تعيش المرأة في عبودية».

وسرعان ما تبينت سوزان ڤوالكان صعوبة المهمة. إن حالة البلاد وحالتها الخاصة كامرأة نصف متحررة تعيش في بلاد أجنبية—كانت ترتبط بعلاقة خفية— تصيبها بالدوار. فقد كتبت في مذكراتها: «يا إلهي! هل سترد هذه الأرض العربية إلينا في المستقبل من الحب كل ما أعطيناها من نبالة وعذوبة وإخلاص؟» وتعتبر مذكرات سوزان الأكثر شجناً من بين الصفحات التي كتبت عن وادي النيل. ويمكن تشبيهها بالنص الرائع الذي كتبته سيدة إنجليزية هي ليدى داف جوردون Duff-Gordon التي ذهبت بعدها بثلاثين عاماً للإقامة وسط الفلاحين في صعيد مصر[٨].

دراسة مشروع قناة السويس

توقف العمل في بناء القناطر بسبب التغير المفاجيء لرأى الوالي أكثر مما بسبب وباء الطاعون. لم يعد محمد علي يرغب في المشروع لأسباب مختلفة وبالأخص لأسباب اقتصادية. أصيب انفانتان بخيبة أمل كبيرة وفقد الثقة في هذا البونابرت الجديد. وقد أباح لأحد أصدقائه بأن مصر لن تتحرر حقيقة «إلا بطرد الجنس التركي كلية». ومن هنا يلزم حدوث تدخل عسكري إنجليزي—فرنسي لتأسيس محمية أوروبية[٩]...

وفي العام التالي اجتمع حوالي عشرون من السان سيمونيين للاحتفال بعيد ميلاد

. 6.*Ibid.*
7. Daniel Armogathe, «Les saints-simoniens et la question féminine», in Les Saints-Simomiens et l'Orient, Aix-en-Provence, Edisud, 1990.
8. Lady Lucie Duff-Gordon, *Lettres d'Égypte, 1862-1869.* Paris, Payot, 1996.
9.Philippe Régnier, *Les Saint-Simoniens en Égypte, op. cit.*

انفانتان. وتروي سوزان ڤوالكان: «قضينا الليل في الرقص والحديث وشرب الأنخاب في صحة أصدقائنا وأهالينا الباقين في فرنسا[١٠]». ولكن كنا قد فقدنا الحماس. وعاد «الأب» بصحبة بعض تلاميذه إلى فرنسا عام ١٨٣٦ بعد أن أقام في مصر ثلاث سنين لم يتح له خلالها حفر قناة السويس ولا العثور على «الأم». فهل يعني هذا أن حساب السان سيمونيين الختامي كان تافهاً؟ العكس هو الصحيح.

لقد بقي بعض السان سيمونيين في مصر. وكان هذا بنوع خاص شأن شارل لامبير Charles Lambert الذي حصل على رتبة البكوية ثم الباشوية. ونحن مدينون لهذا المهندس المرموق بإنشاء مدرسة پوليتيكنيك عام ١٨٣٨ -الأولى من نوعها في الإمبراطورية العثمانية- أصبحت فيما بعد «الجزء المحوري للبنية التعليمية» في البلاد[١١]. وأسس لامبير أيضاً مرصد القاهرة. ومن بين الذين أطالوا إقامتهم في مصر پيرون Perron الذي أصبح مديراً لمدرسة الطب، وأورباں Urbain (اعتنق الإسلام) مدير مدرسة الهندسة العسكرية ببولاق. وفي تلك السنوات كان كل إنجاز كبير أو شبه كبير يرتبط باسم أحد السيمونيين: تورنو Tourneux (السكك الحديدية)، ديشارم Descharmes (الجسور والكباري)، لامي Lamy (نفق شبرا)، أوليڤييه Olivier (الري)، لوفيڤر Lefèvre (التنقيب عن المعادن)، چاڤاري Javary وجونديه Gondet (صناعات كيميائية)... ولا ننسى روچيه Roger الذي أنشأ النواة الأولى للموسيقى العسكرية بمدرسة المدفعية.

لم يهمل انفانتان فكرة ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط. وفي يوم ٢٧ نوڤمبر ١٨٤٦ أنشأ في پاريس جمعية دراسات لقناة السويس بالتعاون مع فرانسوا بارتليمي آرليس-دوفور François Barthélemy Arlès-Dufour رجل الصناعة الكبير بمدينة ليون الفرنسية ومهندسين آخرين مشهورين: الفرنسي فرانسوا پولان تالابو François Paulin Talabot والإنجليزي روبرت ستيفنسون Robert Stephenson (ابن مخترع القاطرة البخارية) والنمساوي لويس دي نيجريللي Louis de Négrelli. وفي مصر يمكنه الاعتماد على لامبير وبخاصة على لينان دي بلفون الذي يستهويه المشروع وقد وضع بالفعل رسماً له. وحصلت هذه المبادرة على تأييد غرف تجارية عديدة من بينها غرف مارسيليا وليون وڤنيسيا وتريستا وپراغ. كما جرت دراسات جديدة في الموقع بعد الحصول

10. Suzanne Voilquin, *Souvenirs d'une fille du peuple, op. cit.*
11. Selon Anouar Abdel-Malek *Idéologie et Renaissance nationale. L'Égypte moderne,* Paris, Anthropos, 1969.

على تصريح من محمد علي الذي بدأ يستشف فائدة مثل هذا المشروع لكنه احتفظ بحقه في السيطرة عليه.

وأوضح پولان تالابو في تقريره المنشور عام ١٨٤٧ أن مستوى ارتفاع المياه في البحرين متساوٍ، وذلك على عكس اعتقاد دام ألف عام ورأي مهندس ناپليون. هذا التوضيح صحيح لكنه أدى إلى نتيجة غير متوقعة هي: التخلي عن فكرة شق قناة مباشرة بين البحرين. ويوضح تالابو بأنه لا يمكن للمياه أن تجري إلا بوجود اختلاف بين مستوى ارتفاعها، وبدون جريان المياه لا يمكن الحصول على قناة ولا على مصب دائم في البحر المتوسط. إن انفانتان يريد أن تصل القناة إلى ميناء الإسكندرية مما يفرض عبورها لنهر النيل. ويفترض مثل هذا المسار الشاذ -الشبيه بشذوذ أفكار السان سيمونية- إنشاء قناة مقنطرة لمسافة كيلومتر واحد مزودة بعدة أهوسة عند كل منحدر...وبقي الموضوع في زوايا النسيان إلى أن ظهر فرديناند دي ليسپس Ferdinand de Lesseps على المسرح.

(١١)

كُتّاب فرنسيون في الشرق وفى مصر

إن العمل الصغير الرائع الذي نشره چيرار دي نرڤال Gérard de Nerval [كاتب وشاعر فرنسي] عام ١٨٥١ لا يندرج داخل أي نمط من الأنماط الأدبية المعروفة، فهو ليس وصفاً لرحلة، ولا دراسة، ولا رواية. وحين «يعطّر دي نرڤال الواقع بالشعر والتخيُّل» انما يقدم «حكاية الليلة الثانية بعد الألف المتوافقة مع الذوق الفرنسي» [١] في ذلك العصر. ويمكن توسيع نطاق هذه الملاحظة لأن «نساء القاهرة» اللاتى يشغلن الجزء الأكبر من كتاب «رحلة في الشرق» يخلبن أيضاً -وحتى اليوم- لب المصريين الناطقين باللغة الفرنسية. إذ تقول جامعية بالقاهرة: «يجد المصري في هذا الكتاب وداً لا يصادفه كثيراً لدى الكتاب الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين[٢]». ويعود السحر المتصاعد من الكتاب إلى نرڤال، هذا الحالم البارع في تصوير الواقع بالكلمات.

الشرق بالنسبة لچيرار دي نرڤال هوى قديم. كان في شبابه ينسخ فنون الخط العربي من غير أن يتمكن من فهمه. وفيما بعد قام الرسام ماريلات Marilhat بإطلاعه على رسوماته التخطيطية عن مصر. وكثيراً ما كان يحلم بألف ليلة وليلة، ويشعر بأنه قد انتقل إلى القاهرة فى عهد السلطان بيبرس. ولكن رحلته هذه التي استمرت من يناير إلى نوڤمبر ١٨٤٣ زار خلالها مصر ولبنان والقسطنطينية هي أيضاً رحلة علاجية: كان هذا الرجل البالغ الرابعة والثلاثين قد أدخل المستشفي بسبب نوبة جنون، ويريد أن يثبت للمحيطين به ولنفسه بأن عقله سليم.

---

1. Hassan el-Nouty, *Le Proche-Orient dans la litterature française, de Nerval à Barrès,* Paris, Nizet, 1958.
2. Laïla Enan, «L'Égyptien de Nerval», in *La Fuite en Égypte,* Le Caire, CEDEJ, 1986.

وفي مصر يبقى في القاهرة فهو على عكس الرّحالة الآخرين لا تستهويه «مجرد أنقاض نستطيع معرفتها جيداً عن طريق الرسوم». إنه يرى بأن «ملاحظة عادات وطبائع المدن الحيّة أكثر طرافة من حطام المدن الميتة»(٣). لا جدال أن هذا الموقف غير الشائع يصنع تفرد كتابه. فبدلاً من أن يجعل القاريء يحلم بالمعابد والمسلات والمومياوات، يقوم نرڤال بدمجه مع نوع من غرائب الحياة اليومية والأسرية. ففي القاهرة يستأجر نرڤال منزلاً قديماً في حي الإفرنج، ويرتدي الزي الشرقي ويقوم بحلق شعر رأسه ليرتدي الطربوش الصغير المألوف. لم يستطع نرڤال أن يعيش أعزباً لأن الجيران يقلقون على بناتهن فيشتري جارية بعد أن شجعه قنصل فرنسا الذي رأى أن هذا الأمر طبيعي...باختصار، لقد اندمج داخل هذا المشهد الذي كان يسحره من قبل أن يعرفه.

فهل لا يزال يسحره بعد مضي بضعة شهور؟ لقد عبّر عن تبدد أوهامه بطريقة شبه رسمية في خطاب أرسله إلى تيوفيل جوتييه [الكاتب الفرنسي] نشر يوم ٧ أكتوبر ١٨٤٣ في «چورنال دي كونستانتينوپل»: «كلا إنني لم أعد أفكر في القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة دون أن أتذكر الإنجليز الذين وصفتهم لك، والأتراك الذين يرتدون الزي الأوروبي، والفرنجة الذين يرتدون الزي الشرقي، وقصور محمد علي الجديدة المبنية كالثكنات، والمؤثثة بالفوتويات والأرائك المصنوعة من خشب الأكاچو، وقاعات البلياردو، والساعات الدقاقة، ومصابيح الزيت، وصور السادة الأبناء بزي جنود المدفعية، وجميع ما هو على غرار النموذج الأمثل للبورجوازي الريفي...»

ومع ذلك فإنه نرڤال ذاته هو الذي يقدم لنا في كتابه «رحلة إلى الشرق» صورة فاتنة عن قصر محمد علي ذاته الموجود في شبرا: «توجد مقصورة زجاجية تشرف على سلسلة من الشرفات المتدرجة على شكل الهرم، وتبرز في الأفق في مشهد أخاذ...ثم نعود للنزول بعد أن أعجبنا بترف القاعة الداخلية والستائر الحريرية المتطايرة في الهواء الطلق بين أكاليل الزهور والورود في الحدائق الغناء. ونسير في ممرات طويلة من أشجار الليمون المشذّبة على هيئة المردن، ونعبر غابات أشجار الموز ذات الأوراق الشفافة واللامعة كالزمرد. وعند الطرف الآخر من الحديقة نصل إلى غرفة حمّام في غاية الروعة والتي لا يمكن وصفها هنا بالتفصيل لأنني لم أجربها...وخلال ليالي الصيف يتنزه الباشا في بركة المياه مستقلاً قارب مذهب تدفعه نساء حريمه بالمجاديف. وتستحم هؤلاء السيدات الجميلات في هذه البركة على مرأى من سيدهن، غير أنهن ترتدين الكريب الحريري الرقيق...»

٣. خطاب إلي والده مؤرخ ٢ مايو ١٨٤٣.

كلا، إن مصر لم تخيّب آمال نرڤال، لا سيما وأنه كان فيما بعد يسعى إلى العودة إليها. إن تصريحه المعلن بتبدد أوهامه هو من سمات الرومانسية، كما أنه وسيلة لإثبات أنه ليس مجنوناً. فبعد دخوله القاهرة وكأنه في حلم، وبعد أن كان أسيراً لأوهامه ألا يجب عليه «أن يعيد المسافر إلى الوعي بالواقع، وأن يجعله يشهد تبدد الأوهام الخادعة تدريجيا[4]»؟ ومع ذلك فإننا نظل طوال الكتاب في نوع من الافتتان بالرغم من بعض الصور المرعبة مثل بيع الجواري من الشابات الزنجيات: «كان التجار يعرضون خلع ملابس هؤلاء الجواري، ويفغرون أفواههن حتى يشاهد المشترون أسنانهن، ويجعلنهن يمشين حتى يرون مدى لدانة صدورهن...»

لكن تتم موازنة هذه الصفحات بمناخ عام شديد العذوبة وبأوصاف باذخة. لم يعرف ساڤاري، ولا ڤولني، ولا دينون كيف يروون بمثل هذه الدقة ولا بمثل هذا التحديد موكب «المحمل» الذي يحمل كسوة الكعبة التي يرسلونها كل عام: «كأن أمة قد ذابت في جمهورحاشد يملأ على اليمين أكمة المقطم، ويغطي على اليسار آلاف المباني بمدينة الموت المهجورة عادة...إن جميع موسيقيي القاهرة يتبارون في الضجيج مع نافخي المزمار وضاربي الدفوف بالموكب، كما أن فرقاً موسيقية ضخمة تجثم فوق الجمال...وعند انقضاء نحو ثلثي النهار تعلن أصوات مدافع القلعة المصحوبة بالتهليل والهتافات والأبواق أن المحمل الذي يضم كسوة الكعبة في طريقه إلى المدينة...وتقبل على التتابع ستة أو ثمانية جمال وحيدة السنم مغطاة بالكامل بالزينات والريش والسجاد الباهر....وبين وقت وآخر يتوقف المحمل فتسجد الحشود على الأرض وتنحني الجباه...»

وينذهل ڤيكتور هوجو بكتاب «رحلة إلى الشرق» هذا وقال عنه إنه يعفيه من زيارة مصر. فهل يوجد مديح أكثر من هذا؟

لقد قام جيرار نرڤال بالاطلاع على العديد من الكتب والوثائق قبل سفره إلى مصر. وفي القاهرة كان يتردد بانتظام على مكتبة أنشأها الفرنسيان پريس داڤين والدكتور أبوت ونجد فيها «جميع الكتب المتيسرة عن مصر». كانت هذه المكتبة ملتقى للمثقفين الأوروبيين في القاهرة. وتوجد أماكن أخرى لا تقل إثارة للإعجاب مثل صيدلية «كاستانيول». كان نرڤال يلتقي فيها مع بكوات من أصل فرنسي يجيئون للحديث مع مسافرين عابرين ولجمع بعض التذكارات عن الوطن. وكان يرى «كراسي الصيدلية بل

4. Michel Jeanneret, dans la présentation du voyage en Orient, Paris, Garnier-Flammarion, 1980.

والمصاطب الموجودة خارجها مليئة بشرقيين مشتبه في أمرهم، والحاملين لنجوم لامعة على صدورهم، وهم يتحدثون مع الفرنسيين ويقرأون الصحف، بينمايمسك السوُّاس خيولهم ذات السروج المزينة بالقصب بالقرب منهم». ويمكن تفسير أسباب هذا الازدحام بوجود محطة بريد قريبة ؛ فقد كانوا يجيئون كل يوم لانتظار الخطابات والأخبار التي تصل في النادر، وتبعاً لحالة الطرق أو لهمّة حاملي الرسائل. لم تكن السفينة الإنجليزية التي تسير بالبخار تصعد في النيل إلا مرة في الشهر.» كم أنت عذبة يا مصر عام١٨٤٣ !

نائب – ملك يدير ظهره لأوروبا

بعد مضي ست سنين، وأثناء زيارة جوستاف فلوبير Gustave Flaubert [كاتب فرنسي جاء إلى الشرق من ١٨٤٩ إلى ١٨٥١] وماكسيم دي كان Maxime du camp [كاتب ورحّالة فرنسي زار الشرق ١٨٤٩-١٨٥١] لم يكن الفرنسيون يعيشون في مثل هذه الراحة والطمأنينة. كان عباس الأول قد خلف جده محمد علي كوالٍ على مصر، وهو رجل اقطاعي لا يحب الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين. إن أغلبية الفنيين الذين يتولون وظائف كبيرة وأصبحوا بكوات أو باشاوات فقدوا وظائفهم. غادر بعضهم البلاد عائدين إلى فرنسا. دامت هذه الفترة المظلمة عشر سنوات إلى حين اغتيال الحاكم المنغلق على الثقافة الأوروبية، وكان الغربيون يشنعون كثيراً على هذا الرجل الذي اتسم عهده على أية حال بانطواء مصر على ذاتها. ولم يظهر فلوبير أي تسامح تجاه عباس الأول: «أبوح لك سراً بأن عباس رجل أبله وشبه معتوه، لا يستطيع فهم شيء ولا عمل شيء. إنه يفسد العمل الذي أنجزه محمد علي، والقليل المتبقي لن يصمد. إن التذلل العام السائد هنا (الخسّة والجبن) يصيبك بالإشمئزاز، وفي هذا الشأن نجد أوروبيين عديدين شرقيون أكثر من الشرقيين[٥].» أما ماكسيم دي كان من جانبه فإنه يغتاب الوالي الجديد باستخدام بضع كلمات («رجل بدين، أكرش، شاحب اللون، سلوكه أخرق، ساقاه مقوستان، وعينه جامدة») ويشير ضمناً إلى شراهته في تناول الطعام كالمراهقين: «وتصدر أحياناً عن كتلة اللحم هذه ضحكة مرتجة لا تبسط أسارير وجه منتفخ من الإفراط»[٦].

ومع ذلك لم تكن مصر في عهد عباس الأول دولة ديكتاتورية وبوليسية. كان الكاتبان يتجولان في البلاد بحرية يحملان جوازات مرور ثمينة تفتح لهما جميع الأبواب. لقد نجح

٥. خطاب إلي الدكتور كلوكيه Cloquet مؤرخ ١٥ يناير ١٨٥٠.

6. Maxime du Camp, *Le Nil*, Paris, 1877.

ماكسيم دي كان في أن يحصل لصديقه على بعثة دراسية - بلا أجر- من وزارة الزراعة والتجارة الفرنسية. وكان هو ذاته مكلفاً من جانب وزارة التعليم العام - بلا مقابل أيضاً- بدراسة الآثار، في حين أسندت أكاديمية النقوش والآداب القديمة إليه التقاط صور.

كان كل منهما في الثامنة والعشرين من عمره وابناً لطبيب جراح كما كانا يتشاطران حب الأدب وغرابة الأطوار. لكن التشابه بينهما يتوقف عند هذا الحد. ماكسيم دي كان مجتهد ومثابر ويلتهم جميع الكتب الخاصة بمصر كما يقوم بالتعليق في هوامشها وبوضع ملفاته في مكانها، ويهتم بالتنظيم إلى حد أنه يتفق مع شخص من القاهرة اسمه خليل بك لكي يعطيهما دروساً في العادات والأخلاق الإسلامية لمدة أربع ساعات يومياً. وفي مقابل أطماع ماكسيم الراغب في استثمار هذه الرحلة إلى أقصى حد ممكن لكي يصبح رجلاً شهيراً، نجد لدى جوستاف تراخياً وتردداً كما أنه ممزق بسبب رواية «نزعة سان انطوان» التي لم يكملها. إن زيارة المعابد تصيبه بالسأم في أغلب الأوقات، وهو لذلك «يتغيب» متذرعاً بحجج متنوعة. ومن جهة أخرى فقد عانت صداقتهما بشدة من رحلة مصر هذه وانتهى الأمر بتباغضهما. ويقول چان-ماري كاريه Jean-Marie Carré الذي لا يطيق الأول ويعجب بالثاني بشدة: «ليس دي كان إلا محباً للأدب، بينما فلوبير كاتب[٧]».

ومنذ أن عاد دي كان إلى فرنسا نشر كتاب «النيل» وألبوم صور. ولم يكتب فلوبير أثناء الطريق إلا نصاً صغيراً «القارب الشراعي»، وخربش ملاحظات بطريقة مقتضبة مكتفياً بأنه سيقوم «بصياغتها في جمل» بعد انتهاء الرحلة، ثم تركها في أحد الأدراج. وحين تم نشر أعماله الكاملة عام ١٩١٠ قامت ابنة اخته كارولين فرانكلين جروت بإخراج هذه المذكرات من قبرها وأصدرت منها نسخة «منقحة» من غير أن تقول ذلك: إنها لم تقم فقط بمسح فقرات جسورة أو غير لائقة لكنها استبدلت أيضاً بعض الكلمات بغيرها. هكذا تحولت كلمتي «بغايا» و«عاهرات» إلى «جليسات» و«عوالم»...واختفي كتاب فلوبير «رحلة في مصر» من التداول خلال ستين عاماً لأن أحد الهواة كان قد اشترى المخطوط الأصلي. وكان يلزم انتظار بعض الوقت حتى يتمكن پيير-مارك دي بياسي Pierre-Marc Biasi الباحث بمركز البحوث القومي الفرنسي CNRS من التأكد من صحة المخطوط ومن نشره[٨]. إنه نص محير مكون من جمل قصيرة للغاية تفصلها خطوط قصيرة لكن يشع منه وميض الموهبة.

7. Jean-Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains français en Égypte*, Le Caire. HFAO, rééd. 1956, t. II.

8. Gustave Flaubert, *Voyage en Égypte*, présenté par P.-M. de Biasi, Patis, Grasset, 1991.

استكشاف المساخر

يمكن تفسير أسباب فظاظة بعض فقرات كتاب «رحلة في مصر» بأنه لم يكن مدوناً بقصد النشر، ويمكن أيضاً أن نرى فيها طريقة جديدة للنظر إلى الأشياء: «يروي فلوبير ما رآه بدون إبداء رأيه ومن غير أن يتدخل في الموضوع غير أنه بتطبيق مبدأ الموضوعية هذا في رواية «الأشياء المرئية» ، وهذا الرفض لإصدار الأحكام، وهذه النسبية المطلقة في وجهات النظر، هي التي سرعان ما تساعده على إحداث ثورة في فن الرواية[٩].» وفي مصر اكتشف الكاتب ما يسميه «مساخر». وقد اكتشف هذه المساخر أولاً لدى بعض مواطنيه مثل الشاعر المسخرة شاما Chamas وهو شاعر هاوٍ يقوم بإنشاد أجمل أبيات شعره أمام جوستاف الذي ينفجر ضاحكاً ويطلب منه إعادة الإنشاد مرة بعد أخرى.

وهو يرى المساخر لدى المصريين بنوع خاص، فيرصدها ويخرجها بقوة وأحياناً بفظاظة منقطعة النظير. وقد يصل به الحد أحياناً إلى أن يصبح غير محتمل ومثال ذلك وصفه لمستشفى قصر العيني: «إنه مستشفى معتنى به، وهو من أعمال كلوت بك- شهدت فيه حالات مرض زهري يرثى لها. ففي عنبر مماليك عباس كان العديد منهم مصابين به في ... وبإشارة من الطبيب كانوا ينهضون جميعاً واقفين فوق أسرّتهم ثم يفكون أحزمة بنطلوناتهم (كما لو كانوا يقومون بمناورة عسكرية) ويفتحون أشراجهم بأصابعهم لكي يظهرون القروح...» وكتب فلوبير في مذكراته أيضاً أنه حدث في مصر الوسطى حينما وقف المركب بحذاء الجبل الذي يضم ديراً قبطياً والذي يهبط الرهبان الأقباط من على جداره الصخرى باستخدام حبل طويل ليطلبوا إحساناً: « قام أحد بحارتنا (وهو رجل مسخرة) بالرقص عارياً رقصة خليعة لكي يطرد الرهبان المسيحيين، كان يظهر لهم عجيزته بينما هم يتشبثون بجوانب المركب.»

وفي مصر، أصبح فلوبير الرومانسي واقعياً. إنه يختزن صوراً، ويتم تغير بطيء سيحدد بقية أعماله. ومثلما كتب چان- ماري كاريه: «لم يعد الأمر بالنسبة لفلوبير تخيل الشرق أو التلذذ بالموحيات الرومانسية؛ ولم يعد حتى يتعلق بتصوير الشرق وبأن يكون رساماً للمشاهد أو مزخرفاً لها؛ لكن يجب عليه الدخول خلف المسرح لاقتحام الكواليس، والتغلغل خلف جميع هذه المظاهر البرّاقة والجذابة، لكشف القناع عن الرغبات والأفكار...».

وفي الصعيد وبصحبة ماكسيم دي كان طلب فلوبير من الشهيرة كُشُك هانم عشيقة

9. Pierre-Marc de Biasi, ibid.

عباس سابقاً التي أصبحت عاهرة متفرغة أن تقدم لهما خدماتها. وكتب: «إنها شخصية همايونية، عظيمة الثديين، فتحات أنفها مشقوقة، ركبتاها رائعتان، عيناها شديدة الاتساع، وحينما ترقص تظهر ثلم عميقة من اللحم فوق بطنها.» . وكتب فقرة أخرى من نفس النوع عن راقصة أخرى أكثر شباباً: «نزلت مع صفية زجيرة– إنها شديدة الانحلال، مهتاجة، وممتعة، نمرة صغيرة. قمت بتلطيخ الأريكة...»

لكن لماذا تسلط الأفكار الجنسية هذا؟ كانت مصر في القرن التاسع عشر تبدو أمام العديد من الفرنسيين كمكان للحرية الجنسية المتعذرة في أوروبا المتصلبة. كان الشرق يوحي «لا بالخصوبة وحدها بل بالوعد الجنسي (وبالتهديد)، وبملذات جسدية لا تكلّ، وشهوة غير محدودة، وبطاقات مولّدة عميقة[١٠].» كان فلوبير يمثّل أكثر من أي كاتب آخر فرضية إدوارد سعيد القائلة بأن «الشرق» غير موجود، «إنه من اختراع الغرب، فهو قرينه ونقيضه، وتجسّد مخاوفه وشعوره بتفوقه في الوقت نفسه، وهو لحم الجسد الذي يبتغي الغرب بأن يكون روحه[١١]»

10. Edward Saïd, *L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident,* Paris, Seuil, 1980.
11. *Ibid.*

(١٢)

مبنى الحريم
أمام عدسات التصوير

إذا كان فلوبير لم يسع حتي إلى تنفيذ عقده مع وزارة الزراعة والتجارة، إلا أن «ماكسيم دي كان» نفذ مهمته بدقة. لقد قام بتصوير الصروح وفقاً لما طلب منه، وما أن عاد إلى فرنسا حتي قام بنشر الصور التي التقطها في كتاب -الأول من نوعه- حقق نجاحاً كبيراً.

وقد ارتبطت مصر بالتصوير الفوتوغرافي منذ اليوم الذي أعلن فيه عن هذا الكشف أمام الجمهور. ففي يوم ١٩ أغسطس عام ١٨٣٩ قدم آراجو Arago [عالم وسياسي فرنسي ١٧٨٦-١٨٥٣] هذا الاختراع الجديد أمام أكاديمية العلوم ثم أعلن بحماس أمام سامعيه: «كل إنسان سيفكر في الفائدة الكبيرة التي كان يمكن للحملة الفرنسية على مصر الحصول عليها من طريقة للنسخ بمثل هذه الدقة وهذه السرعة. وكل إنسان سيذهل حين يفكر بأنه لو كان التصوير الفوتوغرافى معروفاً في عام ١٧٩٨ لكانت لدينا اليوم صور دقيقة لعدد من اللوحات الرمزية التي حرم الوسط العلمي منها إلى الأبد بسبب شراهة بعض العرب والتخريب الذي قام به بعض الرحّالة.» وأضاف آراجو عالم الطبيعة والفلك بأنه مع ذلك فالوقت ليس متأخراً: «من أجل نسخ الملايين والملايين من الحروف الهيروغليفية التي تغطى الصروح الكبيرة في طيبة، ومنف، والكرنك، يلزم قيام فيالق من الرسامين بهذا العمل طوال حوالي عشرين عاماً. لكن بفضل جهاز داجير للتصوير يمكن لرجل واحد أن يقوم بتنفيذ هذا العمل الضخم بنجاح. زودوا معهد مصر بجهازين أو ثلاثة من أجهزة داجير هذه، وسنجد أن مساحات شاسعة من الخطوط الهيروغليفية الصادقة ستحل مكان اللوحات العديدة الكبيرة الموجودة بالعمل الكبير [كتاب وصف مصر] الذي أنجزته حملتنا الخالدة. هذه الصور الفوتوغرافية ستتفوق على أعمال أكثر الرسامين مهارة في تصوير الخطوط بصدق وفي إبراز الطابع المحلي.

وحصلت رسالة آراجو على استجابة فورية. فبعد مضي أقل من شهرين سافر إلى مصر الرسّامان هوراس ڤيرنيه Horace Vernet وفردريك جوبيل فيسكيه Frédéric Goupil Fesquet مسلحين بجهاز داجير زودهما به ليريبور Lerebours خبير البصريات بعد أن شرح لهما كيفية استخدامه. إن ڤيرنيه رسام شهير رسم لوحات زيتية عديدة تمثل موضوعات بحرية ومعارك حربية، وهو عضو بمعهد مصر وكان يدير الأكاديمية الفرنسية في روما. وحين وصل لويس فيليب للعرش وهو حاميه وصديقه الشخصي جعل منه رساماً شبه رسمي. وكان قد رسم لوحة «مطاردة الأسد» كما رسم فيما بعد اللوحة الرائعة «الاستيلاء على سمالا بالجزائر» التي يبلغ طولها ٢١ متراً.

وفي يوم ٦ نوڤمبر كان الرجلان في الإسكندرية يباشران العمل بجهاز داجير بهمة ونشاط وبمساعدة ابن أخ ڤيرنيه. ومع ذلك لم يكن يكفي الوقوف بثبات أمام قصر رأس التين ثم إطلاق السدادة. إن الآلة ذاتها ثقيلة ومربكة وتتطلب معالجات عديدة. كانوا يستخدمون الواح معدنية مفضضة يجب تعريضها لأبخرة اليود لتغطيتها بمادة حساسة للضوء وذلك قبل الإغلاق عليها في صندوق خاص. وكان التحميض أيضاً أكثر تعقيداً: فيجب تعريض الصورة لأبخرة الزئبق ثم وضعها في محلول كلور وصوديوم ساخن. وعلى أية حال فقد كانت الصورة وحيدة.

وفي يوم ٧ نوڤمبر قام المصوران الفرنسيان بإجراء تجربة تصوير أمام محمد علي بقصر رأس التين بالإسكندرية. ويروي فيسكيه: «ذهبنا إلى القصر في السابعة صباحاً بموكب من العربات. كان كل شيء معداً مسبقاً ولا يتبقى سوى وضع الكليشية في الغرفة المظلمة وإظهار الصورة في الزئبق. كان نائب-الملك [الوالي] ينتظرنا بفارغ الصبر ويروح ويجيء وقد وضع يديه خلف ظهره بطريقة نابليون؛ وكان ممسكاً بسيفه الذي يقوم أحياناً بلف علاقته كنوع من التسلية، ويقف حوله في صمت تام قواد جيشه الذين دعاهم لمشاهدة هذا النوع الجديد من المشاهد. ودعونا لدخول غرفة مستقلة تطل على الحديقة (كان الأطباء في ذلك الوقت يحظرون على محمد علي معاشرة حريمه). تم توجيه الغرفة المظلمة نحو الطبيعة وشاهد الحاضرون في ذهول الصورة المنعكسة على مرآة الجهاز[1]».

تم استبدال الزجاج نصف الشفاف باللوحة المحتوية على اليود على مرأى من حاكم مصر الذي كان يتابع ما يدور بيقظة. ويروي فيسكيه أن «شدة الاهتمام كانت بادية على سيماء محمد علي، وكان نوع من القلق يبدو على تعبيرات عينيه رغماً عنه وازداد القلق

1. Frédéric Goupil Fesquet, *Voyage en Orient fait avec Horace Vernet en 1839 et 1840.* Paris, 1843.

في اللحظة التي تم فيها الإظلام من أجل وضع اللوحة في الزئبق. كانت حدقتا عينيه تلمعان وتدوران بسرعة غريبة في مداريهما. وساد صمت مشحون بالذهول والقلق بين الحاضرين الذين اشرأبت أعناقهم ولم يجرؤا على القيام بحركة واحدة، ولكن هذا الصمت قطعه صوت مفاجيء صادر عن كبريتة كيميائية انعكس وميضها الفضي بصورة جذابة على جميع هذه الوجوه البرونزية. كان محمد علي واقفاً بجوار الجهاز فقفز في مكانه وحرك حواجبه البيضاء الكثيفة وصرخ قائلاً...«هذا من عمل الشيطان!»، ثم دار على عقبيه وترك المكان وهو ممسك بسيفه الذي لم يتركه لحظة واحدة.»

قام ڤيرنيه وفيسكيه بتصوير حريم الوالي. إنه مبنى عادى من الخارج يختلف تماماً عن الرسوم التي جري تخيلها عن الشرق. إن الثورة الداجيرية هي أيضاً تصوير هذا الواقع بحالته الطبيعية. لقد قام علماء بونابرت أنفسهم ببعث الحياة في رسومهم بإضافة لون أو أشخاص إلى المناظر. هكذا كانت هذه هي المرة الأولي التي شوهدت فيها مصر الفاتنة ومصر الساحرة بلا تأويل وعن طريق استخدام جهاز. وهذا يكفل إرضاء العقول الوضعية المولعة بالموضوعية، لكنه يصيب كثيرين آخرين بالحيرة.

ويجب مرور بعض الوقت على التصوير الفوتوغرافى قبل اعتباره فناً صالحاً لاستكشاف الواقع لا لتقليده فحسب. كان رواد جهاز داجير لا زالوا حتى ذلك الحين يعملون من أجل استكشاف أسرار جهازهم الخافية. لم يكونوا حتى متأكدين من نجاح الصور التي يلتقطونها. فقد حدث مثلاً أن أصيب جوبيل بخيبة أمل حين حاول يوم ٢١ نوڤمبر تصوير هرم خوفو بالرغم من اتباعه للطريقة التى وضعها مخترع الجهاز. واعترف فى مذكراته اليومية بأن «أربع أو خمس محاولات للتصوير فشلت مما أصابنا بإحباط شديد». وفي اليوم التالى «بدا لي أنه من المخزي للغاية أن أعود إلى القاهرة بدون الحصول على أي تذكار للصروح الأكثر شهرة في العالم بالرغم من تشنيعات رفاقي الذين هددوا بإلقاء جهاز داجير في النيل.» وأخيراً لم ينجح في التقاط صور «أبو الهول» والأهرام إلا بعد تعريض لوحة الجهاز للضوء لمدة ربع ساعة. والتقى الفرنسيون الثلاثة مع رسام كندى هو بيير چولي دي لوبتينيير. كان رساماً هاوياً ويتنقل هو الآخر ومعه جهاز داجير أعطاه له ليريبور خبير البصريات. أخذ ثلاثتهم يتبادلون معاً بعض الانطباعات وبعض طرق التصوير بهذا الجهاز. وقطعوا معاً جزءاً من الطريق ثم ذهب كل فريق في حال سبيله: رحل ڤيرنيه وإبن أخيه وفيسكيه في اتجاه القدس، بينما استقل لوبتينيير المركب في اتجاه الصعيد لتصوير بعض الصروح ومعبد فيله، وقام خبير البصريات بنشر صورة المعبد هذه في مجلة «رحلات داجيرية» الفرنسية عام ١٨٤١.

من طريقة «الكالوتيپ» إلى محلول اللاصوق

وفي أعقاب هؤلاء الرواد تتابع وصول المصورين إلى مصر: أمپير Ampère عام ١٨٤٠، والكونت دي پرانچي de Prangey عام ١٨٤١، وأندريه إتيبيه Itier عام ١٨٤٣ ...وفي خلال العشرين عاماً التالية لاختراع داجير لم تجذب أي بلد أخرى غير مصر مثل هذا العدد من الباحثين عن الصور[٢].

- كان التصوير الفوتوغرافي يستميل الرسامين فضلاً عن الكُتّاب أيضاً مثل چيرار دي نرڤال الذي أحضر إلى مصر جهاز داجير. كانت هذه «الآلة المعقدة وسريعة العطب» تكلفه تجمع الناس حوله معتقدين بأنها أعمال سحرية. وسرعان ما تخلى عن الجهاز لأنه كان يجد مشقة في استخدامه. وكتب إلى والده: «لقد عاد جهاز داجير في حالة جيدة ولم أستفد منه كثيراً. إن المركبات الكيمائية اللازمة تتحلل في المناخ الحار، وقد ألتقطت صورتين أو ثلاثة على الأكثر...»

وبعد مضي بضع سنوات استخدم ماكسيم دي كان في مصر طريقة أخرى عملية أكثر هي طريقة «كالوتيپ» التي ابتكرها فوكس تالبوت Fox Talbot [عالم طبيعة إنجليزي ١٨٠٠-١٨٧٧). يتعلق الأمر في هذه المرة بصور يتم طبعها على ورق باستخدام «نيجاتيف» يتيح استخراج عدة صور لكن بعد القيام بمعالجات عديدة. يجب غمس الورقة في نترات الفضة الأمر الذي لا بد وأن يصبغ بالسواد أصابع من يقوم بهذا العمل خاصة إذا ما كان أخرقاً. ويجب تحميض الصورة في المحلول نفسه، ثم تثبيتها في برومور الپوتاسيوم. وقد قام ماكسيم دي كان المصاحب لفلوبير في رحلته إلى مصر بضم خادم من جزيرة كورسيكا لمساعدته، وكتب عنه يقول: «كان هذا الخادم يقوم بتقطير الماء وغسل الأحواض بينما كنت أقوم وحدي بهذا العمل الشاق وهو استخراج النسخ السلبية (النيجاتيف)». وعند عودته إلى فرنسا تم طبع ١٢٥ صورة معالجة بطريقة الكالوتيپ في معمل بلانكار إيڤار بمدينة لوس-لس-ليل: إنها صور مناظر باردة للصروح بدون أية حساسية فنية. وقام ماكسيم دي كان ببيع مواده وأجهزته قبل حتى صدور كتابه[٣]، وتوقف عن الأهتمام بالتصوير الفوتوغرافي.

وكان تينار Félix Teynard هو الرحالة الذي استجاب لنداء آراجو العلمي أكثر من أي إنسان آخر وهو مهندس من مدينة جرينوبل ذهب إلى وادى النيل عام ١٨٥١-١٨٥٢

2. Marie-Thérèse et André Jammes, *En Égypte au temps de flaubert. les premiers photographes, 1839-1860,* Paris, 1980.
3. Maxime du Camp, *Égypte, Nubie, Palestine et Syrie.* Paris, 1852.

ونشر كتاباً عنوانه «مصر والنوبة». ويوضح عنوان الكتاب الفرعي طموح الكاتب: «أطلس مصوّر يصلح كتكملة لكتاب وصف مصر العظيم». وقد قام تينار بمعاينة الصروح من وجهة نظره كمهندس، وأرفق بصوره تعليقات دقيقة للغاية عن منظورية المنظر وزواياه. وهذا لم يمنعه من إظهار حساسيته، ولا جدال بأنه يمكننا أن نرى في هذا الكتاب صور مصر الأكثر جمالاً من بين صور الخمسينيات من القرن التاسع عشر(٤).

لم يكن الفرنسيون هم الوحيدون الذين يخلدون مصر بتصويرها من تحت الغطاء الأسود. كانت صور ذلك العصر الأكثر روعة هي الصور كبيرة الحجم التي التقطها المصور الإنجليزي فيرث Francis Firth الذي يستخدم طريقة جديدة هي طريقة اللصوق. لكن شركاء داجير في المواطنة يحتلون مكاناً في الصف الأول في التصوير المصري الذي بدأ في التنوع. فقد نشر تريمو Pierre Trémaux المهندس المعماري الذي زار الشرق مرتين خلال الفترة من ١٨٤٧ إلى ١٨٥٤ مشاهد من الحياة اليومية ولوحات لحرفيين وأول صور عارية. وبعد وقت قليل رافق الرسام چيروم Gérôme المثّال بارتولدى Bar-tholdi في زيارة إلى مصر واستخدم العديد من الصور التي التقطها الأخير لرسم أولى لوحاته الشرقية.

وظهر أوائل المصورين الفرنسيين المقيمين في القاهرة في ستينيات القرن التاسع عشر. كان آرنو Hippolyte Arnoux وبيشار Émile Béchard وديزيريه Ermé Désiré يلتقطون في معاملهم صوراً كاملة للأشخاص، بل ويعرضون على السائحين مناظر شعبية ومشاهد طبيعية وأثرية. واحتوت العاصمة المصرية في ذلك العصر شخصية فرنسية كبيرة في مجال التصوير هو لوجراي Gustave Le Gray. كان لوجراي قد اضطر لغلق معمله في باريس وحصل على وظيفة مدرس رسم في القاهرة التي لم تمنعه من زيارة الحجرة المظلمة. وقد قام بإثراء تاريخ التصوير الفوتوغرافي ببعض المناظر الرائعة في صعيد مصر.

ولم يتوقف المصورون سواء كانوا مصورين مقيمين أو عابرين، أثريين أو فنانين مهنيين أو هواة، عن زرع أجهزتهم الرابضة فوق ثلاثة أرجل في وادى النيل. إن مصر التي كثيراً ما تم استنساخها من جميع الزوايا وباستخدام جميع أنواع الإضاءة المتاحة لم تفقد غموضها كما لم تفقد جاذبيتها. ومع ذلك فإن تلاقي تقنية ثورية مع أحجار العصور القديمة يجعلنا نعيد تأمل الزمن العابر ونغير المراجع. فأمام صروح شبه دائمة ومستقرة مثل الأهرام تبدو العلاقة مع الزائل معكوسة(٥). إنها ليست لحظات زائلة تلك التي يقوم التصوير بتخليدها، لكنه الخلود هو الذى يفسح مجالاً أمام فعل اللحظة.

4. Denis Roche Jr, «La description (photographique) de l' Égypt», Égyptes, Avignon, no. 3,1993.

5. Alain D'Hooghe et Marie-Cécile Bruwier, *Les Trois Grandes Égyptiennes,* Paris, Marval, 1996.

الجزء الثانى

طموحات كبرى

(١)

ديلسپس يستعرض فروسيته

دامت الرحلة البحرية المضنية عشرة أيام في البحر المتوسط الهائج. وأخيراً ظهرت الإسكندرية في الأفق كشريط رقيق أبيض يمتزج بالزَّبَد. إنها ليست واضحة، فهم لازالوا بعيدين عنها. هل هي الإسكندرية حقاً؟ وكلما يزداد اقتراب السفينة من الشاطيء يمكن للعين الخبيرة وحدها تمييز ظلال قصر رأس التين والكثبان الرملية الصغيرة المغطاة بطواحين الهواء، كما يمكن بقليل من الحظ رؤية عمود السواري. كان الأوروبيون الذين يصلون الإسكندرية للمرة الأولى يصابون بخيبة أمل في هذه المدينة التي بلا مرتفعات وليست في هيئة نابولي ولا مارسيليا.

وفيما يخص فردينان ديلسپس Ferdinand de Lesseps فإن هذا اليوم السابع من نوڤمبر ١٨٥٤ يمثل التلاقي من جديد. فقد عرف مصر قبل ذلك بعشرين عاماً لأنه كان يتولى فيها مهام قنصل فرنسا. ومع ذلك فالاضطراب الذي ينتابه في هذه اللحظة يرتبط برهان يجازف من أجله أكثر من ارتباطه بذكريات ماضية. إنه يعود إلى أرض الفراعنة حاملاً لمشروع، ويعرف بأن هذه الرحلة ستقرر مصيره إلى آخر حياته. ففي خلال بضعة أيام سيبلغ الرابعة والأربعين من عمره. إنه في عنفوان الصحة، قوي البنية، قصير القامة، ممتليء الجسم. إنه فارس ممتاز ومتحدث بارع، كما يعرف هذا الديپلوماسي السابق كيف يكون مجاملاً مع النساء ومهذباً مع الجميع. ولا جدال بأنه كان خلال هذه الرحلة البحرية المضطربة مرافقاً ممتازاً ينشر الراحة والاطمئنان من حوله.

كان ينتظر نزوله من السفينة رجلان: صديقه القديم رويسينايرز Ruyssenaers قنصل هولندا العام ووزير البحرية المصرية ممثلاً لوالي مصر. ويفلت ديلسپس من الزحام المألوف لتجار من كل نوع ولحمّالين شبه رسميين. ويستقل عربة تابعة لبلاط الحاكم

إلى ڤيللا باذخة على ضفة ترعة المحمودية حيث ينتظره جيش من الخدم المصطفين على السلّم.

وكيف لا يفكر في المرة الأولي التي نزل فيها من السفينة إلى أرض الإسكندرية عام ١٨٣١؟ لم يستطع وقتها النزول من السفينة، وكان قادماً من تونس يحمل لقباً متواضعاً هو «التلميذ– القنصل» أو المرشح لأن يكون قنصلاً: في ذلك الوقت تم اكتشاف حالات كوليرا ووضع جميع الركاب في العزل الصحي. وبينما كان الشاب ديلسپس يقيم في الحجر الصحي بلا عمل يؤديه انغمس في قراءة الكتب التي أحضرها له رئيسه مسيو ميمو. وفي هذا المكان عرف الدراسة التي أجراها لوپير Le Père أحد علماء الحملة الفرنسية حول إمكانية شق برزخ السويس: حفر قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، الأمر الذي سيختصر الطريق إلى الهند إلى النصف. واستولت هذه الآفاق الجسورة على أحلامه.

ديپلوماسي مغضوب عليه

لم يجد فردينان ديلسپس صعوبة في التأقلم مع مهنة الدپلوماسى بعد دراسته للقانون إذ كان والده وجده دپلوماسيين. وألحقه خاله بارتليمي Barthélemy [كان سفيراً ووزيراً للخارجية وعضواً بحكومة الإدارة ١٧٤٧–١٨٣٠] بوزارة الخارجية الفرنسية قبل أن يعينه بالقرب منه في لشبونة. وكان والده ماتيو Mathieu هو الذي فتح أمامه طريق مصر إذ كان هو ذاته أول ممثل لفرنسا في مصر بعد الحملة الفرنسية خلال الفترة من ١٨٠٢ إلي ١٨٠٤. كان فردينان في البداية تلميذاً – قنصلاً ثم نائباً لقنصل فرنسا في مصر مرتين خلال الفترة بين ١٨٣١ و١٨٣٧، وكان لديه الوقت لمعرفة البلاد وللتآلف مع العادات والطباع الشرقية. وقد أظهر مهارة وشجاعة. كان موقفه نموذجياً أثناء وباء الطاعون الذي أصاب البلاد عام ١٨٣٤ مما جعله يحصل على وسام جوقة الشرف بجدارة. وبعد مضي ثماني سنين أظهر بطولة أكثر في مدينة لشبونة حين كانت محاصرة ومعرضة لقذف المدفعية. وكوفيء بتعيينه سفيراً لفرنسا في مدريد حيث أمكنه إثبات مواهبه كمفاوض.

وفي عام ١٨٤٩، كان هذا الدپلوماسى في أوج مجده وحاصلاً على أوسمة عديدة ولجأوا إليه ليتولى وساطة حسّاسة بين البابا والجمهورية الرومانية. لم يكن يعرف ما ينتظره... كانت القوات الفرنسية تعسكر على أبواب المدينة المقدسة ومستعدة للتدخل. وفي ظل حالة من الاضطراب، حيث تعوز تعليمات پاريس الاتساق، حاول ديلسپس منع حدوث نزاع مسلح. إنه يروح ويجيء ويزخر نشاطاً. هل كان نشيطاً أكثر من اللازم؟ لقد

اغتاظ العسكريون. واستدعى إلى پاريس حيث مثل أمام مجلس الدولة الذي أوقع عليه عقوبة تأديبية باللوم. انقطعت حياته الدبلوماسية. ولم يعد أمام الرجل النشيط إلا القيام بدور مزارع من الأعيان يعيش في قصر بمنطقة بيري الفرنسية، وحيث يلاحقه النحس: ففي خلال بضعة شهور توفيت زوجته ثم أحد أبنائه بالحمّى القرمزية.

ومع ذلك كان الدبلوماسي السابق يفكر أثناء تقاعده في القناة الشهيرة التي يمكن أن تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. وكتب مذكرة في هذا المعنى وترجمها إلى اللغة العربية وفكر في تقديمها إلى الوالي في مصر. لكن مياهاً كثيرة جرت في وادي النيل منذ رحيل ديلسپس. إن عباس باشا [الأول] رجل جفول ومتشكك ويقود البلاد بيد من حديد. إنه لا يحب الأوروبيين، كما أن الفرنسيين يمقتونه. هل يمكن أن يلتفت إلى مثل هذا المشروع؟ وفي يوليو ١٨٥٢ يرسل ديلسپس خطاباً يستشير فيه صديقه رويسينايرز قنصل هولندا في مصر ذاكراً له أن «المشروع لا زال مشوشاً». وقد رد عليه القنصل الهولندي بلا مواربة قائلاً بأنه لا توجد أية فرصة لكي يهتم الوالي بمثل هذا المشروع.

وحينذاك قرر ديلسپس تقديم مشروعه مباشرة إلى السلطان حاكم مصر الأسمي- وقد أشرك معه أحد الممولين من أصدقائه. وعاد المفاوض الذي أُرسل إلى القسطنطينية «بخفّي حُنين». فقد قالت له السلطات العثمانية إنه لا يمكن الشروع في مثل هذه الأعمال إلا عن طريق الحاكم بمصر. وقد أذعن ديلسپس. وكتب إلى صديقه القنصل الهولندي بالقاهرة: «في ظل مثل هذه الحالة سأترك مذكرتي بشأن شق قناة السويس راكدة، وسأوجه اهتماماتي إلى الزراعة وبناء مزرعة نموذجية إلى أن يجيء وقت آخر يكون مواتياً أكثر.»

لم ينتظر ديلسپس طويلاً...ففي الليلة السابقة ليوم ١١ يونيو ١٨٥٤ قام مماليك شبان ينتمون إلى حريم عباس الأول الخاص باغتياله. وتم إخفاء نبأ وفاته خلال ٤٨ ساعة لإتاحة الوقت اللازم لابنه كي يصل القاهرة ليخلف والده. وقاموا بنقل عباس بالعربة في وضح النهار من قصر إلى آخر كما لو كان لا يزال حيّاً. لكن هذه الحيلة لم تنجح، وقام سعيد خال المرحوم والوريث الشرعي للعرش بالحضور إلى القلعة برفقة الهيئة القنصلية لكي يطالب بتولي السلطة. وحصل على حقه بدعم وتأييد الباب العالي.

ولا يوجد نبأ يمكن أن يدخل السرور إلى قلب ديلسپس أكثر من هذا. إذ كان يعرف سعيداً منذ كان شاباً مراهقاً، بل ويعتبر نفسه صديقاً له. كان سعيد الأمير الشاب يعاني وقتذاك من البدانة، وكان والده محمد علي يفرض عليه نظاماً غذائياً صارماً للغاية وتمرينات رياضية تعسفية. وكان سعيد يلجأ إلى فرديناند ديلسپس قنصل فرنسا ليعد له

طعاماً من المكرونة الشهية. ومن هنا تولدت الصداقة بينهما...وقد روى ديلسبس هذه القصة بنفسه.

وسرعان ما كتب ديلسبس خطاباً إلى الحاكم الجديد لكي يهنئه بالمنصب. وقال له إن الدبلوماسية لم تعد تشغل وقته وسيكون سعيداً لو أمكنه الإعراب له عن تقديره واحترامه. رد عليه سعيد ودعاه إلى المجيء إلى مصر في شهر نوفمبر بعد عودته من زيارة القسطنطينية.

العاهل الذي يلعب لعبة الحرب

وفي يوم ٧ نوفمبر ١٨٥٤ قام فردينان ديلسبس بارتداء ملابسه السوداء وتعليق أعظم أوسمته عليها لكي يمثل أمام الوالي [أو نائب–الملك كما يسميه المؤرخون الأوروبيون] في قصر الجبّارى. وقد كتب خطاباً إلى مدام ديلامال Delamalle حماته وكاتمة أسراره قال فيه بأن هذه كانت الوسيلة التي أعرب بها للشخص الذي عرفه من قبل «والذي أصبح في موقع جديد عن الاعتبار والاحترام الذي يتقبله قلب الإنسان دائماً بسرور»[1]. كان الحديث بينهما ودياً. تحدثوا عن ذكريات الماضى، وذكر سعيد أصناف «الاضطهاد» التى عاني منها خلال عهد سلفه. وفي اليوم التالي ذهب الرجلان معاً إلى حدائق القصر لتجربة المسدسات التي أهداها الرجل الفرنسي إلى صاحب الجلالة... وكتب فردينان إلى مدام ديلامال عن هذه المقابلات بأن الحديث بينهما لم يتطرق في أية لحظة إلى موضوع قناة السويس «الموضوع الذي لا أريد إثارته إلا حين أكون واثقاً، وعندما يكون ناضجاً بحيث يستطيع العاهل تبني الفكرة وكأنها تخصه أكثر مما تخصني».

ودعاه سعيد لمرافقته بعد عدة أيام في رحلة من الإسكندرية إلى القاهرة عن طريق الصحراء. وبطبيعة الحال قبل ديلسبس الدعوة بسرور. وفي انتظار حلول موعد الرحلة قام بزيارة أصدقاء قدامى واستقبل بعض الشخصيات في المسكن المخصص له. كان يسأل هؤلاء وأولئك عن عادات نائب–الملك «وعن ميوله واتجاهاته النفسية والأشخاص المحيطين به...»، أي أنه كان باختصار يمهد الطريق.

وقام سعيد باشا بإهداء ديلسبس حصاناً جميلاً قادماً من سوريا. وفي رحلتهما هذه عبر الصحراء الليبية [الغربية] سيصحبهما... عشرة آلاف جندي. إن الوالي الجديد يحب أن يلعب لعبة الحرب، وذلك منذ أن عينه والده أمير عظيم للأسطول المصرى. ويقول نوبار باشا الأرمني في مذكراته إن هذا الأسطول لم يكن موجوداً، ثم يضيف بمكر بأن سعيداً «كان يعاني من دوار البحر».

1. Ferdinand de lesseps, *Lettres, journal et documents,* Paris, 1875-1881.

والوالي الجديد هو الابن الرابع لمحمد علي ويبلغ الثانية والثلاثين من العمر. إنه ليس ون چواناً: فهو ممتلىء الجسم إنْ لم يكن بديناً، ومصاب بحَوَل بشع في العين. لكن هذا العاهل الشرقي لجية شقراء ولا تنقصه خفة الروح والظرافة. لقد تلقي تعليماً حديثاً ويتحدث الفرنسية بسهولة بفضل معلم فرنسي يدعي كونيج بك Koenig Bey . إن الأوروبيين المقيمين في مصر يحبونه لا سيما وأنه يكره العادات الاقطاعية التي كان يتحلى بها سلفه. فمنذ اغتيال هذا الأخير لم تكف الألسنة عن الثرثرة. إنهم يعزون إلى عباس جميع أنواع الآثام ويعتبرونه متوحش الطباع. حتي نوبار باشا الذي كان يخدمه ويدافع عنه لا يخفي سلوكه السادي، وقد روى بأن المرحوم أمر بخياطة شفتي إمرأة من حريمه لأنها قامت بالتدخين المحظور بأمر منه[٢]. غير أن المؤرخين المعاصرين يميلون نحو التقليل من بشاعة الصورة...

وإننا لا نمتلك بشأن هذه الرحلة والحدث الرئيسي الذي جري فيها إلا شهادة ديلسپس ذاته. وهي شهادة فريدة في دقتها وفي شاعريتها وتستحق أن ننقل عنها أجزاءاً كبيرة، لكن من غير أن ننسى الملاحظة التالية التي أدلى بها چورج إدجار-بونيه - Georges Edgar Bonnet أهم كاتب لسيرة فردينان والتي تنطبق على تكملة بقية القصة: «إذا كان فردينان يغيِّر الحقائق قليلاً، فهو يصبغها أو بالأحرى يلونها بتفاؤل لا يكل، الأمر الذي يضفي على الواقع انطباعاً خادعاً[٣]». ولا جدال أنه لولا هذا التفاؤل لما نجحت مغامرة السويس...

مُرافعة في الصحراء

انضم ديلسپس إلى أركان الحرب برفقة «ذو الفقار باشا» الذي يعرفه من قبل وصديق سعيد باشا منذ الطفولة. وتحدث معه بشأن مشروعه فوعده بمساندته. كان الرجلان يتشاركان في خيمة فاخرة التجهيز تقع إلى جانب خيمة «نائب-الملك». وفي هذا المعسكر المتنقل كانت الموائد مصنوعة من خشب الأكاچو، والأباريق من الفضة، والأواني من صيني السيڤر.

وفي الصباح أعلنت الموسيقى العسكرية أن صاحب الجلالة استيقظ. كان سعيد مرحاً للغاية لأنه قد نجح في الليلة السابقة في جعل مدفعيته تعبر بحيرة مريوط، بالرغم من رأي

2. Nubar Pacha, *Mémoires*, introduction et notes de Mirrit Boutros-Ghali, Beyrouth, 1983.
3. Georges Edgar-Bonnet, *Ferdinand de Lesseps*, Paris, 1951, t.1.

قواد جيشه الذين كانوا يرون تعذر هذا العبور. ودُعِي ديلسبس إلى دخول خيمة الوالي. ويقول: «بقينا أكثر من ساعتين نتحدث وحدنا عن موضوعات عديدة تهمنى للغاية والتي تهدف بصفة عامة إلى بدء عهده بمشروع كبير ومفيد.» إننا لا نزال دائماً في مرحلة تمهيد الطريق.

وفي يوم ١٥ نوفمبر خطر على بال الرجل الفرنسي فكرة أن يعرض أمام سعيد باشا مزايا حصانه. فقام بعبور حاجز من الحجر بقفزة واحدة ثم استمر في العدو بسرعة. أبدى القادة الحاضرون إعجابهم بالإنجاز. وفيما بعد قال ديلسبس بشاعريته أن هذا العرض «كان من بين أسباب موافقة المحيطين بنائب–الملك على مشروع قناة السويس».

وحانت اللحظة الحاسمة: «ففي الساعة الخامسة بعد الظهر امتطيت الجواد وعدت إلى خيمة نائب–الملك بعد أن قفزت من جديد فوق الحاجز الذي تحدثت عنه للتو. كان نائب–الملك مبتهجاً وباسماً. أخذني من يدي التى احتفظ بها لبرهة في يده وجعلني أجلس على أريكته بجواره. كنا وحدنا، وكنا نرى من فتحة الخيمة غروب الشمس الجميل الذي كان شروقها في الصباح قد هزّ مشاعري. كنت أشعر بالقوة بسبب هدوئي وسكينتي في اللحظة التي ساتناول فيها موضوعاً حاسماً للغاية بالنسبة لمستقبلي. كانت دراساتي وتأملاتي بشأن قناة البحرين ماثلة بوضوح في ذهني، وكان يبدو لي بأن تنفيذها سهل التحقيق إلى حد أنني لم أشك في أنني سأستطيع نقل اقتناعي إلى عقل العاهل. عرضت مشروعي دون الدخول في التفاصيل وذلك بالاستناد إلى الوقائع والحجج الرئيسية الواردة في مذكرتي التي كان يمكنني تلاوتها من بدايتها حتى نهايتها.»

ماذا تقول هذه المذكرة الشهيرة؟ أولاً إن ربط البحرين المتوسط والأحمر بواسطة قناة ملاحية قد شغل دائماً الرجال العظام الذين حكموا مصر بدءاً من سيزوستريس إلى محمد علي ومروراً بالإسكندر ونابليون. فضلاً عن أنه كانت توجد خلال عهود عديدة عبر العصور قناة غير مباشرة تتصل بالنيل. إن العاهل الذي سيقوم بتنفيذ شق قناة ملاحية حقيقية سيظل خالداً أكثر من بناة الأهرام «الصروح عديمة الجدوى». واستشهد فرديناند ببعض الأرقام: سيتم اختصار المسافة بين لندن وبومباي إلى النصف، وتخفيض المسافة بين القسطنطينية والهند إلى الثلث...

قام سعيد المصغي باهتمام بإلقاء بعض الأسئلة. كانت لدى فرديناند إجابة على كل سؤال. إنه لا يتحدث عن المسافات بالفراسخ فحسب، بل وعن الأطنان التي سيتم نقلها والأموال التي ستتكلفها وتدرها مبيناً بأن هذه القناة ستكون مشروعاً مربحاً. ومع ذلك أعرب الوالي عن قلقه تجاه رد فعل القسطنطينية ولندن وربما عواصم أخرى. قام الفرنسي بإزاحة

جميع الاعتراضات وسرد المزايا التي ستجدها الإمبراطورية العثمانية وكذلك بريطانيا العظمى وجميع بلدان العالم في مثل هذا الطريق المائي. وقام باستعراض المزايا التي ستحصل عليها البلدان الأخرى: فبالنسبة لألمانيا سيكون تكملة للملاحة الحرة في الدانوب؛ وبالنسبة لروسيا سيكون الجواب على الطموح الوطني تجاه الشرق؛ وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية سيكون وسيلة لتنمية علاقاتها مع الهند الصينية...

وبعد ساعتين من الحوار تمت استمالة سعيد. ويروي فرديناند: «استدعى قواده وطلب منهم الجلوس أمامنا على صف من الكراسي سهلة الطيّ، وحكى لهم الحديث الذي أجراه معي على التو، وطلب منهم إبداء الرأي في اقتراحات صديقه. إن هؤلاء المستشارين الذين سيدلون برأيهم ارتجالاً قادرون على إبداء الرأي بشأن حركات الفروسية أكثر من مشروع ضخم لا يمكنهم تقدير أهميته. كانوا يتجهون نحوي محملقين مما أعطاني الانطباع بأنهم يفكرون بأن صديق سيدهم الذي شاهدوه يقفز بحصانه برشاقة فوق الحاجز لا يمكن أن يقدم إلا الآراء الجيدة. وبينما كان نائب-الملك يروى لهم حديثنا كانوا يرفعون أيديهم تجاه رؤوسهم كعلامة على الموافقة.»

وطلب سعيد من ديلسپس أن يخط على الورق الخطوط العريضة لمشروعه. كان يجهل أن هذه المذكرة معدّة منذ عامين. ولا يتبقى على كاتبها سوى إجراء «عملية صقل أخيرة». وفقاً لتعبيره، وهو الأمر الذي أجراه أثناء الليل في خيمته لأن النوم قد طار من جفونه ويمكننا تصديقه في ذلك. وكانت المذكرة «مرسلة من معسكر مريوط إلى صاحب الجلالة محمد سعيد نائب-ملك مصر وتوابعها» ومؤرخة ١٥ نوفمبر ١٨٥٤.

كان ديلسپس قد نزل من السفينة إلى أرض الإسكندرية يوم ٩ نوفمبر: واحتاج إلى أقل من أسبوع لكي يكسب قضيته. وفي معسكر مؤقت أقيم في قلب الصحراء قرر رجلان تغيير خريطة العالم. وفيما يتعلق بالاثنين في حد ذاتهما فانهما ليسا بالشيء الكبير. أحدهما دپلوماسي مع وقف التنفيذ تبدو حياته المهنية بأنها قد انقضت. والآخر بالرغم من أنه نائب-ملك إلا أنه يحكم بلاداً ضعيفة النمو وليس إلا تابعاً لسلطان القسطنطينية. لكنهما سوف يثيران جدلاً ضخماً-سياسياً، وفنياً ومالياً- ويهزّان الدوائر الدپلوماسية والقنصلية ويستهويان الرأي العام.

وحينذاك بدأت معركة السويس.

(٢)

الاستثمار في الرمال

فردينان ديلسپس لم يخترع شيئاً: ففي منتصف القرن التاسع عشركان الوصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ماثلاً في جميع الأذهان فى أوروبا. كانوا يحلمون بالسويس كما يحلمون أيضاً بقناة پناما [التى تربط بين المحيط الپاسيفيكي والمحيط الاطلنطي]. إن البرزخين مرتبطان معاً في الخيال الجمعي، فلا بد أن يقود شق أحدهما إلى شق الآخر إن عاجلاً أو آجلاً.

وظل ديلسپس على صلة بالسان سيمونيين. وقبل أن يعود إلى مصر، اهتم بأن يمر على پاريس للتحدث مع المسئولين بجمعية دراسات قناة السويس الذين أطلعوه على وثائق مختلفة. والأرجح أنه كان كتوماً بشأن نياته ولم يسع حتى إلى إجراء مناقشة معهم حول أفضل وسيلة لتنفيذ المشروع. ويعتقد ديلسپس أن أصدقاء انفانتان هؤلاء يضلون الطريق مرتين. الأولى على المستوي الفنى بدعواهم بأن إقامة قناة مباشرة أمر يصعب تنفيذه ويلحق بمصر أضراراً عديدة. ويضلون الطريق على المستوى السياسي أيضاً حين يرغبون في الحصول على موافقة الحكومات الأوروبية في حين أن قرار شق برزخ السويس يجب أن يكون مصرياً وأن يستند إلى رؤوس أموال خاصة.

وديلسپس ليس مهندساً ولا ممولاً. إنه رجل عام غير متخصص يحوز على حاسة استبصار وعلى مهارة وقوة عزيمة في كل شيء. فإذا كان لم يخترع قناة السويس إلا أنه وجد الوسيلة لتنفيذ المشروع بالكشف عن أوراقه في الوقت المناسب. وهنا تكمن جدارته إن لم تكن عبقريته.

وكان الإنجليز مهتمين مباشرة ببرزخ السويس باعتباره الطريق إلى الهند. لكنهم على عكس الفرنسيين لا يفكرون في طريق ملاحي: فقد انصبت مجهوداتهم في تحسين المواصلات البرية في انتظار إنشاء خط السكك الحديدية الذي سيربط الإسكندرية

بالسويس. وفي عام ١٨٢٩ نجح أحد الرواد هو اللفتنانت واجهورن Waghorn في الذهاب من لندن إلى بومباى مروراً بالسويس في ثلاثة وسبعين يوماً بينما تستغرق المراكب الشراعية عادة بين أربعة أو خمسة شهور للالتفاف حول إفريقيا. وقام واجهورن خلال السنوات التالية وبلا أية مساندة من أحد بتحسين نظامه ليجعله ينقل المسافرين كما أمكنه تخفيض مدة الرحلة لتكون خمسين يوماً. وفي عام ١٨٥٠ مات هذا الرائد فقيراً وبائساً ومحروماً من التقدير والاعتبار الذي يستحقه[1]. وبعد مضي سنوات عديدة قام ديلسپس بتكريمه- «لقد فتح أمامنا الطريق واقتفينا أثره»- بإقامة تمثال له في پورتوفيق.

فرمان شخصي

في يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٥٤ ذهب قناصل الدول الكبري العامين إلى القلعة لمجاملة الوالى بمناسبة عودته إلى القاهرة. وفي وجود فردينان ديلسپس أعلن سعيد أمام الحاضرين أنه قرر حفر قناة بين البحرين وأنه كلف صديقه الفرنسي بتكوين شركة لهذا الغرض. استولى الذهول على الحاضرين. ثم وجه سعيد حديثه إلى قنصل الولايات المتحدة العام فقال له ساخراً: «حسناً، يا سيد ليون سوف نتنافس مع برزخ پناما وسوف ننتهي قبلكم.»

وفي غضون الأيام التالية، اهتم ديلسپس بإبلاغ قنصلي بريطانيا العظمي وفرنسا بمذكرته، واستقبل قنصلي النمسا وپروسيا، وزار عدة أمراء، وتحدث مع فرنسيين مقيمين بالقاهرة... كان يزخر نشاطاً للإسراع في مشروعه مع قيامه بمعاونة سعيد باشا في وضع اللمسات الأخيرة على فرمان الامتياز الذي سينشر يوم ٣٠ نوفمبر[٢].

وفي هذه الوثيقة ظهر اسم ديلسپس في الجملة الأولى: إنه قرار شخصي يشتهى مثله أكثر من رجل أعمال. وتستحق ديباجة هذا الفرمان أن نقتبسها كاملة: «استرعى صديقنا فردينان ديلسپس انتباهنا إلى المزايا المترتبة على وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر بواسطة قناة صالحة لملاحة السفن الكبيرة، وأحاطنا علماً بإمكانية تكوين شركة لهذا الغرض تضم ماليين من جميع الأمم، وقد رحبنا بالتدابير التي قدمها إلينا ومنحناه بموجب هذا سلطة مطلقة لتكوين وإدارة شركة عالمية لشق برزخ السويس، ولتشغيل القناة بين البحرين. ومن حقه أن يباشر أو يكلف بمباشرة جميع الأعمال والتشييدات، وتلتزم الشركة بأن تدفع مقدماً أي تعويض للأفراد في حالة نزع الملكية للصالح العام. ويتم كل شيء وفقاً للشروط والأعباء المحددة في المواد التالية».

1. John Pudney, *Suez. De Lesseps' Canal, Londres,* Dent, 1968.
2. Jules Charles-Roux, *L'Isthme et le Canal de Suez.* Paris, 1901.

مدة الامتياز ٩٩ عاماً بدءاً من يوم افتتاح القناة للملاحة. وعند انتهاء هذه المدة تصبح القناة وجميع منشآتها ملكاً لمصر مقابل تعويض يتم الاتفاق بشأنه. ويتم تنفيذ الأعمال على نفقة الشركة التي سيتم منحها مجاناً جميع الأراضي اللازمة لأنشطتها والتي لا تكون ملكاً لأفراد. ويمكن للشركة أيضاً الحصول مجاناً على جميع المواد التي قد تحتاجها من المناجم والمحاجر العامة. تحصل الحكومة المصرية على ١٥٪ من صافي الأرباح بالإضافة إلى فوائد وأرباح الأسهم التي تشتريها لنفسها عند الإصدار. وتكون أسعار ورسوم عبور قناة السويس متماثلة لجميع الأمم ولا يمكن لإحداها الحصول على امتيازات خاصة.

وبادرت الحكومة الفرنسية بمنح الوالي الجديد وسام جوقة الشرف الرفيع. جرى التسليم الرسمي يوم ٢٢ نوفمبر بحضور شخصيات عديدة من بينهم ديلسپس وابن عمه إدمون. لم يرد ذكر لمشروع قناة السويس في الكلمات التي قيلت بهذه المناسبة. تحدثوا فقط عن «أعمال إعادة تنظيم وإصلاح» بدأها محمد علي وسوف يتابعها ابنه سعيد الذي سيحظى «بتشجيع الإمبراطور وبمعاونته عند الحاجة». وكان سعيد باشا قدكتب خطاباً سرياً إلى الإمبراطور ناپليون [الثالث] يطلب فيه الحصول على «موافقته» على المشروع.

إن القناة مشروع خاص. ولا يجب أن تكون -ولا يجب بخاصة أن تبدو كأنها- مشروعاً تقوده فرنسا. وفي يوم ٢ يناير ١٨٥٥ كتب وزير الخارجية الفرنسية خطاباً إلى القنصل الفرنسي بالقاهرة يقول فيه: «في الوقت الذي لا نخفي فيه مطلقاً تعاطفنا مع القناة فإنه من الأفضل [...] أن تمتنع عن ربطها بمسئوليات القنصلية العامة». وقد تم اتباع هذا الخط السياسي بدقة شديدة حتى في الكواليس إلى حد أنه خلال الشهور التالية كان فرديناند ديلسپس يطالب بتأييد أكثر فاعلية من جانب حكومة بلاده.

هياج السان سيمونيين

لم ينس ديليسپس أن يرسل إلى جمعية دراسات القناة نسخة من جميع الوثائق: المذكرة التي وضعها، والفرمان، وجميع الخطابات المرسلة إلى القنصلين البريطاني والفرنسي. بل وأرسل لها أيضاً قائمة باسماء الأشخاص الذين في رأيه يمكن أن يكونوا مؤسسي الشركة القادمة: كانت اسماء الشخصيات السان سيمونية الأساسية واردة في هذه القائمة: وعاد عليه ذلك بتهنئات حارة من آرليس-دوفور Arlès-Dufour: «ممتاز جداً. منذ ستة وعشرين عاماً يحلم انفانتان وأصدقاؤه بالسويس. ومنذ عشرة أعوام ونحن ندرسها. ومنذ أربعة أعوام ونحن نبحث عن الحل دون أن نستطيع العثور عليه أو التنبؤ به، وها أنت تصل إلى هذا الهدف العظيم دفعة واحدة وبمحاولة واحدة...»

أما انفانتان فقد كان متحفظاً للغاية، إن لم يكن عدائياً صراحة. ففي خطاب أرسله إلى ديلسبس يوم ١٩ ديسمبر اكتفى بالاعتراض من الناحية الفنية مشيراً إلى «الاستحالة الأكيدة» بجعل قناة مباشرة تفضي إلى خليج بيت آمون [تل الفرما اليوم]. لكن على مر الأسابيع تزايدت معارضة انفانتان وأصبحت أكثر قسوة. وفي يوم ٥ يناير حصل على موعد لمقابلة نابليون الثالث ليحذر الإمبراطور من مشروع فرديناند ديلسبس ولكي يشيد بدراسات جمعيته التي يسعى لتجديد نشاطها.

وحدث خلاف بين مؤسسي جمعية الدراسات. اتفق تالابو Talabo مع انفانتان وتشبث بمشروعه الخاص بشق قناة غير مباشرة. أما آرليس–دوفور الذي أغراه فرديناند ديلسبس برئاسة مجلس إدارة الشركة المقبل فقد وجد صعوبة في اتخاذ موقف. وانضم نيجريللي لمشروع ديلسبس. أما ستيفنسن [ابن مخترع القاطرة البخارية] فإنه لا يؤمن بجدوى القناة طالما أن الإسكندرية سترتبط بالسويس عن طريق خط السكك الحديدية.

وجرى جدل بالتراسل بين انفانتان وديلسبس تناول أساساً المنهج الذي يجب اتباعه: كيف يمكن الحصول على موافقة الجماعة الدولية؟ وفي يوم ١٦ يناير كتب فرديناند ديلسبس إلى آرليس–دوفور: «يجب أن أسعى إلى المحافظة على الطابع المصري للمشروع بعيداً عن تعقيدات السياسة الأوروبية. إن القوى الكبرى تقبل الأمر الواقع، ولن يتفقوا أبداً على إحداث هذا الواقع[٣]».

ويرى انفانتان أن هذا الموقف خاطيء، فقد كتب إلى نيجريللي يقول: «إن مشروع السويس ليس مشروعاً مصرياً أو تركياً فقط كما يزعم مسيو ديلسبس: إنه مشروع أوروبي بصفة خاصة، بل وحتى عالمي، ومن المؤكد أن الشركة التي ستنفذه ستكون معبرة عن إرادة الدول الكبرى التي يهمها هذا العمل، إنه لن يكون ثمرة لنزوة عابرة من جانب سعيد باشا ولا لرعايته وعطفه على هذا أو ذاك من أصدقائه».

وتتصاعد النبرة تدريجياً ويصبح الجدل غير لائق. يرسل رئيس السان سيمونيين إلى ديلسبس خطابات غير سارة بل ومتوعدة. يوجه انفانتان اتهاماً إلى ديلسبس بأنه «ينقض علينا كالخنفساء» ، وينتهي بأن يعتبره «مجنون خطر يفسد مشروع السويس النبيل»، ثم يطلب «منعه من إيذاء الآخرين».

ويعتمد فرديناند ديلسبس على عائلته وأصدقائه في پاريس لمواجهة هجوم السان سيمونيين. تبذل حماته مدام دي لامال جهوداً سخية وتكثر من المساعي في الأوساط

3. Georges Edgar-Bonnet, *Ferdinand de Lesseps*, Paris, 1951,t.1.

الرسمية. وفي خطاب مثير للاهتمام مؤرخ يوم ٢٢ يناير ١٨٥٥ يكتب ديلسپس إلى حماته عن تصميمه الأكيد فيقول: «أريد القيام بعمل كبير بلا قصد خفي، وبلا مصلحة مادية شخصية...سأكون حاسماً في هذا الطريق، وكما أنه لا أحد يستطيع تحويلي عنه، فإنني واثق بأنني سأقود السفينة إلى المرفأ...وإنني أعترف بأن طموحي هو أن أقود وحدي خيوط هذا المشروع الكبير إلى أن يمكنه الانطلاق بحرية. وباختصار، فإنني لا أرغب في قبول شروط أي شخص، وهدفي هو فرض جميع الشروط...» هكذا يعلن ديلسپس رأيه الذي يلقي الضوء على حالته النفسية وينم عما سيجيء لاحقاً.

استكشاف البرزخ على جمل

وحانت الساعة لكي يذهب ديلسپس لاستكشاف الأرض. أشار عليه سعيد بأن يسافر وحده مع ليناَّن دي بلفون الذي يعرف جيداً طبوغرافية مصر وشبكة قنواتها. لكن بالنسبة لمشروع في مثل هذه الأهمية يفضل رئيس الشركة العالمية القادمة «الحصول على رأيين حتى وإن كانا متعارضين». وحصل على الموافقة بأن يرافقهما في الرحلة أيضاً موجيل Mougel مهندس الطرق والكباري الذي نفذ عدة مشروعات مائية كبيرة في البلاد[٤].

وتم تحديد يوم ٢٣ ديسمبر كموعد للرحيل وذلك قبل عيد الميلاد «نويل» بيوم واحد. كان بونابرت قد زار المنطقة في الموعد ذاته قبلها بستة وخمسين عاماً. ومنذئذ جرى إعداد الطريق بين القاهرة والسويس الذي يزيد طوله على ١١٠ كيلومتراً بقليل. أصبح يوجد على هذا الطريق خمس عشرة محطة للإبدال مزودة بالمأكولات والمشروبات بل وحتى وبالأسِرّة.

إن السويس ضيعة بائسة تقع بين البحر والصحراء ولا توجد بها شجرة واحدة. ويعيش في هذه الضيعة بين ثلاثة وأربعة آلاف نسمة يسكنون بيوتاً من الخشب أو الطوب اللِّبن. لا يوجد ينبوع ماء واحد. ويصل بريد الهند مرة كل خمسة عشر يوماً فيخلق حركة في هذا الموضع البعيد. إن مرسى المراكب رائع. نرى إلى اليمين مرتفعات عتاقة، وإلى اليسار تبدو على بعد جبال سيناء بظلالها الوردية.

قضى ديلسپس ومعاوناه بضعة أيام في السويس لفحص الميناء والمناطق المحيطة مستقلين زورقاً بخارياً تملكه الحكومة. زاروا آثار قناة العهود القديمة التي لا يزال من الممكن رؤية حوافها، وتحققوا من الأبنية القديمة التي كانت تشرف على مدخل القناة

4. Ferdinand de Lesseps, *Lettres, joutnal et documents*, Paris, 1875-1881.

إلى البحر الأحمر. وتمخضت فحوصهم عن اقتناعهم بأن مرسى السويس لا يمثل أية خطورة على الملاحة وذلك على عكس ما يؤكده البعض. ويمكن للسفن البحرية الصمود أثناء الأحوال الجوية السيئة. ووجدوا مثالاً على ذلك في السفينة—المخزن التابعة لشركة الهند الإنجليزية الراسية في الموقع منذ أكثر من عامين ولم تصب إطلاقاً بأي تلف.

وعند بزوغ فجر يوم ٣١ ديسمبر انطلقت القافلة على الطريق. كان ديلسپس ولينان يرتديان الزي العربي ويجثمان فوق جملين. أما موجيل وهو أقل منهما تحملاً للمشقة فقد تبعهما على ظهر حمار مرتدياً سترة وبنطلوناً رمادي اللون. كان مرافقوهم البدو يرعون براميل المياه، في حين كان الطباخون يحتفظون معهم بمعرض حيوانات حقيقي: خِراف، وماعز، ودجاج، وديوك رومي، وحمام داخل الأقفاص... وعند مغادرتها للسويس متجهة إلى الشمال سلكت القافلة مجرى القناة القديمة، التي كانت حوافها لا تزال موجودة. ومن أجل الوصول إلى البحر المتوسط كان يجب على القافلة عبور أكثر من ١٢٠ كيلومتراً من الأراضي الصحراوية.

وفي برزخ السويس يبدو أن الطبيعة قد رسمت بذاتها خط الاتصال بين البحرين. الواقع أنه يوجد من الشمال إلى الجنوب نوع من الوادي المكون من التقاء سهلين يهبط أحدهما بانحدار غير محسوس من جوف مصر ويهبط الآخر من تلال آسيا. وتنتشر في هذا الوادي بحيرات عديدة مما يجعلنا نعتقد بأن البحرين كانا في العهود القديمة متلاقيين.

وفي اليوم التالي وصلت القافلة إلى مستوى حوض البحيرات المرة الجاف الذي يحتل ٣٣٠ مليون متراً مربعاً. ورأى كل من لينان وموجيل أنه ممر طبيعي جاهز تماماً للقناة المقبلة، بل ورأيا أيضاً إمكانية تشييد خزان ضخم لتغذيته. وفي اتجاه الشمال قليلاً يوجد السرابيوم وهو هضبة ترتفع ١٥ متراً: إنه أحد النتوءات البارزة النادرة في برزخ السويس الذي لا يضم سوى سهول وتلال رملية. وفي كل جهة من حولهم كانت الرمال أكثر نعومة عما كانت في بداية الرحلة: توجد آثار أقدام الضباع والغزلان والثعالب. بدأت النباتات في الظهور بينما لم تكن موجودة في بداية الرحلة. وكانت كثافتها تزداد كلما اتجهوا شمالاً.

وفي بعد ظهر يوم ٢ يناير بلغت القافلة بحيرة التمساح المحاطة بالتلال والموجودة في منتصف البرزخ. ورأى لينان وموجيل أنها يمكن أن تكون ميناءاً عظيماً حيث يمكن للسفن أن تحصل على كل ما يلزمها من تموين وإصلاحات وتخزين البضائع. ويفضي إليها وادٍ طبيعي عمودي على الوادي الذي يحتل المحور شمال—جنوب. إنها أرض «جوشن» الشهيرة [الوارد ذكرها في التوراة] التي من المعتقد أن العبرانيين قد أقاموا فيها.

لقد كانت فيما مضى أرضاً خصبة لكنها لم تعد سوى صحراء جرداء ومع ذلك فلا زالت تتلقى الطافح من المياه المنجرفة من النيل. وقد رأى لينان وموجيل في هذه المنطقة رسماً طبيعياً لقناة ثانية تصلح للملاحة الداخلية ولحمل المياه العذبة لري الأراضي الزراعية ولتزويد العمال في البرزخ بمياه صالحة للشرب.

وفي مساء كل يوم، كان الفرنسيون الثلاثة يجلسون داخل الخيمة لمضاهاة ملاحظاتهم. إنهم يتصورون تخطيط القناة المقبلة، ويتناقشون حول مدى اتساعها ومقدار عمقها، بل وبدأوا حتى في حساب نفقاتها. وكان يتخلل هذه المناقشات قراءات في التوراة للاستدلال على المكان الذي وجد فيه موسى مع الشعب اليهودي منذ قبل آلاف السنين...

وكلّما كانوا يصعدون في اتجاه الشمال كان المهندسان يفحصان التربة بعناية للتأكد بأن حفر القناة لن يمثل صعوبات كبيرة. وقد شرحا لديلسپس بأن هذه الأراضي طينية ويمكن نزعها بأيدي الرجال حتى الوصول إلى حد المياه، ثم يتم بعدها استخدام الجرافات للوصول إلى العمق المطلوب. أما بالنسبة للرمال المتحركة التي كثيراً ما كانوا يخشونها فإنها لا تهدد باكتساح القناة مثلما يؤكد ذوو النيات السيئة أو غير المطلعين. والدليل على ذلك أنه لا يزال من الممكن للعين المجردة أن ترى آثار جميع معسكرات المهندسين الذين قاموا بقياس ارتفاعات أرض البرزخ منذ سبع سنوات مضت. إن التربة مستقرة تماماً سواء بسبب الحصى الذى يكسوها، أو النباتات التي تنمو فيها. فضلاً عن أنه لو كانت الرمال متحركة، فهل كانت آثار القنوات المشيدة في العصور الغابرة تظل باقية حتى اليوم؟

وفي شمالي بحيرة التمساح أقام ديلسپس ومعاونوه معسكرهم عند سفح هضبة الجسر التى يبلغ ارتفاعها عشرين متراً. إنها ذروة البرزخ، ويجب أن تعبرها القناة. ولكن لا يبدو هذا الأمر بأنه أكثر تعقيداً من هضبة السرابيوم.

وأخيراً يصلون إلى بحيرة المنزلة حيث توجد أسراب البجع والإوز العراقى والبشروش المصطفة في خطوط بيضاء وفيرة. وتتغذى هذه البحيرة بمياه فيضان النيل كما تتغذى بمياه البحر المتوسط، ولا يفصلها عن البحر سوى لسان رملي ضيق تعبره الأمواج أثناء الجو العاصف. كان الاعتقاد أن ساحل الفرما غير صالح للملاحة بسبب طمي النيل والرياح العاصفة التي تهب عليه خلال جزء من العام. وكانوا يؤكدون بأن السفن فى هذه النواحي لا تستطيع الاقتراب من البحر المليء بكميات كثيفة من الطمي. وقد أكد لينان وموجيل بأن هذا كله هراء! فپلاج الفرما يتكون من رمل نقي لا يحتوى على أية مواد

طينية يحملها النيل. ويمكن تشييد مرفأ مزدوج للسفن في هذا المكان لتنظيم ولوج القناة إلى البحر المتوسط.

وبعد عودتهم إلى القاهرة في يوم ١٥ يناير طلب ديلسپس من معاونيه إعداد مخطط للمشروع. ووجه إليهم كتابة حوالي عشرين سؤالاً، والحقيقة أنه كان يعرف غالبية الأجوبة إذ كان قد تناقش طويلاً حول جميع هذه النقاط أثناء الرحلة. وأصبح ديلسپس حائزاً على الخطوط العريضة لمشروعه وعلى ما يكفيه من الحجج والأدلة لكي يجيب على المتشككين والمعارضين. ويمكنه الآن أن يحمل عصاه ويرحل في جولة بالعواصم الكبرى حيث سيتقرر مصير قناة السويس.

استقبال بارد في القسطنطينية

ينص «الخط الشريف» الصادر عام ١٨٤١ على التزام الوالى بعرض «الشئون الهامة على الباب العالي للاطلاع والموافقة». فهل تعتبر قناة السويس من بين هذه الشئون؟ يرى سعيد أو يتظاهر أنها ليست كذلك. لقد نشر فرمانه دون الرجوع إلى السلطان بشأنه وهو يطلب التصديق عليه تأدباً. ويبدو له أنه يمكن لفردينان ديلسپس أكثر من غيره أن يعرض على القسطنطينية مزايا هذا المشروع الذي أصبح بالفعل معروفاً في العالم كله.

وكان عباس والى مصر السابق قد تصرف منذ بضعة أعوام سابقة بالطريقة ذاتها تقريباً بشأن السكك الحديدية . فقد وضع الباب العالي أمام الأمر الواقع ولم يطلب التصديق إلا فيما بعد بناءاً على نصيحة إنجلترا ومساندتها القوية. وقامت السلطات العثمانية حينذاك بفرض عدة شروط لإنقاذ ماء الوجه: يجب قصر خط السكك الحديدية على المسافة بين الإسكندرية والقاهرة (الواقع أنه كان سيمتد إلى السويس) ؛ ويجب أن تكون نفقات الأعمال على حساب الحكومة المصرية وحدها بلا استدانة؛ وأخيراً لا يجب اسناد تشغيل السككك الحديدية إلى أجانب.

وكانت پاريس قد حاولت بلا طائل منع إقامة السكك الحديدية هذه التي أوحى بها الإنجليز وقاموا بتشييدها. وكان أحد وزراء ناپليون الثالث قد قال لأحد المتحدثين معه من المصريين: «إن السكة الحديد التي تقيمونها هي سيف حاد في أحشاء فرنسا. ستتحول كل محطة سكة حديد تدريجياً إلى مستعمرة إنجليزية.» وبعد مضي بضعة أعوام تغير الحال تماماً: إنها إنجلترا الآن هي التي تخشي تحول برزخ قناة السويس إلى مستعمرة فرنسية.

وما أن وصل ديلسپس إلى القسطنطينية حتى تأكد من ذلك بنفسه، بالرغم من تفاؤله

الملازم له والذي يفسد أحكامه في بعض الأحيان. لقد كان الوزراء العثمانيون خاضعين لضغوط لورد ستراد فورد دي ردكليف Statford de Redcliffe سفير إنجلترا المخيف بل كانوا تابعين له، وكانوا يسمونه «السلطان سترادفورد» أو «عبد الخبيث». فهو سفير من المدرسة القديمة لا ينتظر وصول تعليمات من لندن لاتخاذ قراراته. كان يشغل هذا المنصب منذ حوالي عشر سنين، ويبدو أن نفوذه كان طاغياً في الإمبراطورية العثمانية شبه المنهارة.

واستقبل رشيد باشا الصدر الأعظم ديلسبس بكياسة، ثم استقبله السلطان. عرض عليهما المزايا التي ستحققها قناة السويس للإمبراطورية العثمانية والترحاب الممتاز الذي يلاقيه المشروع في العواصم الأوروبية. وتمادى في القول قليلاً حين أكد بأن إنجلترا لا تعادي المشروع على عكس ما قد يبديه سفيرها لدى القسطنطينية من «تكدُّر شخصي».

كانت السلطة العثمانية لا تود إغضاب إنجلترا ولا فرنسا اللتان تقفان في هذا الوقت تحديداً إلى جانبها لمحاربة القوات الروسية في القرم. لكنها لا تتحمس كثيراً لمشروع تبدو لها خطورته من عدة نواحٍ. فأولاً سوف تمنح هذه القناة مصر ثقلاً أكبر وبالتالي تصبح أكثر استقلالية تجاه القسطنطينية. وثانياً ستؤدي الامتيازات على الأراضي الممنوحة إلى الشركة العالمية المقبلة إلى إقامة أوروبيين في برزخ السويس، مما يتعارض مع المبادىء العثمانية. وثالثاً ستجد تركيا نفسها قد انفصمت عن مصر بواسطة حاجز مادي بلا أي ضمان بمرور سفنها الحربية عبر القناة.

وما كاد ديلسبس يغادر القسطنطينية حتى كتب الصدر الأعظم إلى والي مصر: «فلتأذن لصداقتي بأن تقول لك بأنني أشعر بحزن كبير لرؤية جلالتكم تلقون بأنفسكم بين ذراعي فرنسا. ولتتذكر ما تكلفه والدكم لوضعه ثقته في هذه الحكومة التي لا يزيد استقرارها عن استقرار ممثليها. إن فرنسا لا تستطيع أن تفعل شيئاً سواء ضدك أو معك، في حين يمكن لإنجلترا أن تؤذي كثيراً»[٥].

أغلبية المساهمين فرنسيون

بعد مروره بباريس حيث قام بحشد علاقاته وأقاربه وأصدقائه، ذهب ديلسبس إلى بريطانيا العظمى. لم تكن معارضة لورد بالمرستون Palmerston رئيس الوزراء موضع شك، لكن الغرف التجارية الإنجليزية تبدو أكثر تحبيذاً لشق القناة. عقد الرجل الفرنسي

5. Archives diplomatiques française, Affaires étrangères, «Alexandrie, 9 avril 1855». in *Correspondance politique.* Égypte, vol, 26.

اجتماعات، ووزع كتيبات، وأجرى أحاديث مع الصحف، محاولاً الاعتماد على الرأي العام لثني الحكومة عن موقفها. وأيدت اللجنة العلمية التي شكلها اختيار الطريق المباشر لمجرى القناة (تضم اللجنة أربعة فرنسيين، وأربعة إنجليز، ونمساوي، واسباني، وايطالي، وبروسي)، وقدرت تكاليف مجموع الأعمال بمائتي مليون فرنك والدخل السنوي بتسعة وعشرين مليون فرنكاً. وبذلك سيكون مشروعاً يدر أرباحاً جيدة.

وكان سعيد باشا يواجه ضغوطاً شديدة في القاهرة من المحيطين به الذين كانوا في أغلبهم معادين للمشروع. حتى الفرنسيين المقيمين في الإسكندرية كانوا يعارضون المشروع خشية أن تفقد مدينتهم عرشها لصالح ميناء جديد يبرز على البحر المتوسط. وكان سعيد باشا ينتظر في يأس تعضيد نابليون الثالث الذي أظهر إحجاماً محيّراً كما لو كان يخشى إنجلترا أو عقد معها حلفاً سرياً. وعندما عاد ديلسبس إلى مصر شد من عزم سعيد وأحاط به وحصل في يوم ٣٠ يناير ١٨٥٦ على فرمان نهائي بالامتياز: ستكون القناة المقبلة مفتوحة أمام سفن جميع الأمم، وسيتم تشييدها وتشغيلها بواسطة شركة عالمية.

وأصبح فردينان ديلسبس يعتمد أكثر من أي وقت مضى على الرأي العام الأوروبي للضغط على الحكومات، بل وأيضاً لتمويل الشركة. كانت الأوضاع في فرنسا مواتية حيث نشهد منذ عدة سنوات ازدهاراً ضخما في السوق المالي. إن ثراء البلاد واستقرارها السياسي يحثان المدخرين على الاستثمار.وقد نجحت الإمبراطورة الفرنسية الثانية حتى في تمويل حربها في القرم عام ١٨٥٤ وذلك بالدعوة إلى «مساهمة عامة من جانب رؤوس الأموال». وقد استجاب عشرة آلاف شخص لهذه الدعوة.(٦)

وبدأ ديلسبس في الاتصال برجال البنوك مثل فولد Fould وروتشيلد Rothschild فطلبوا عمولات كبيرة. غيّر رأيه وقرر أن يقوم بنفسه بتنظيم الاكتتاب في جميع البلدان بما فيها الولايات المتحدة. تم افتتاح مكتب في باريس، وتعيين مراسلين في الأقاليم وفي الخارج: بما أن المشروع عالمي فيجب أن يكون رأس المال عالمياً أيضاً. خاطب ديلسبس بنفسه الجمهور أثناء رحلات عديدة -في المملكة المتحدة (أربع مرات خلال الفترة من ١٨٥٦ إلى ١٨٥٨)، وبرشلونة، وفينيسيا، وتريستا، وفيينا، وأوديسا...

ليس بالأمر السهل اقناع الحائزين على رأس مال بالاستثمار في الرمال وفي مشروع قائم على الافتراض يقول عنه مهندسون مشهورون مثل ستيفنسون بأنه يتعذر تنفيذه فنياً. إن القناة غير مخصصة لعبور السفن الشراعية. والحال أن السفن البخارية لا تزال تخطو

6. Hubert Bonin, *Suez. Du Canal à la France (1858-1987)*. Paris, Economica, 1987.

خطواتها الأولى: ففي بداية عام ١٨٥٥ لم تكن السفن البخارية تمثل سوى ٥٪ أو ٦٪ من مجموع حمولة الأسطولين الإنجليزي والفرنسي. وينهض مشروع فرديناند ديلسبس أيضاً على الرهان على البخار.

وفي يوم ٥ نوفمبر ١٨٥٨ تم فتح باب الاكتتاب وطرح ٤٠٠ ألف سهم للبيع في السوق قيمتها الإجمالية ٢٠٠ مليون فرنك. حقق الاكتتاب في فرنسا نجاحاً كبيراً. فقد اكتتب ٢١ ألف شخص من جميع المهن: قضاة، وتجار، وضباط، ورجال الكنيسة، أو كما قال ديلسبس بحماس: «كل من يقرأ، أو يتأمل، أو يعلّم، أو يصلّي، أو ينتج، أو يدّخر، أو يحارب، أو يمارس صنعة أو حرفة». لقد اشتروا أكثر من ٢٠٧ ألف سهم. أما في الأماكن الأخرى فقد كان الفشل شبه تام. إن أولئك الذين اكتتبوا لم يدفعوا الثمن: «لم يكونوا على استعداد ولا في إمكانهم الوفاء بتعهداتهم، فالإنجليز لم يدفعوا احتراماً للموقف الذي اتخذته حكومتهم، والأمريكيون بسبب عدم مبالاتهم؛ والروس لخشيتهم؛ والنمساويون لأسباب سياسية[٧]».

هل تعهد سعيد باشا بتغطية الاكتتابات التي لا يتم الوفاء بها؟ على أي حال لم يكتب تعهداً بذلك. كان ديلسبس يرغب في إنقاذ المشروع فباع له جبرياً ١٧٦ ألف سهم بدلاً من ال ٦٤ ألف سهم المتفق عليها. وقد تمخض هذا الأمر عن نشوء موقف حرج تحدث عنه في مذكراته الأرمني نوبار باشا الذي كان عدواً شديد البأس لقناة السويس وقد روى بأنه حصل على هذه المعلومة من قنصل فرنسا الذي توجه سعيد باشا إليه بالشكوى[٨].

قام ديلسبس بتسليم ورقة منفصلة إلى سعيد باشا الذي سلّمها بدوره إلى سكرتيره دون أن يقرأها. وبعد مضي بضعة أيام طلب الفرنسي من الوالي أن يتكرم بإصدار أوامره لدفع قيمة اكتتابه. سأله سعيد «أي اكتتاب؟» أجاب: «قيمة اكتتابكم البالغة ٨٨ مليون فرنكاً.» وأحضروا الورقة المنفصلة التي دوّن على ظهرها بالفعل مبلغ ٨٨ مليون قيمة اكتتاب والي مصر. فقال ديلسبس «لقد مضت خمسة عشر يوماً وجلالتكم صامتون، وبهذا الصمت تكونون قد صدقتم على الاكتتاب. لقد أبلغت ذلك لزملائي وللأشخاص الذين يحملون لكم أرق المشاعر وكلفوني بإبلاغ تحياتهم إلى جلالتكم.»

7. Georges Edgar-Bonnet, *Ferdinand de Lesseps, op. cit.*
8. Nubar Pacha, *Mémoires,* introduction et notes de Mirrit Boutros-Ghali, Beyrouth. 1983.

ويقول نوبار إن سعيد باشا قال لقنصل فرنسا بلهجة عسكرية ما معناه: «لقد أغرقني صديقك ديلسبس حتى أذني». ويعلق المؤرخ المصري محمد صبري على هذا الأمر فيقول: «إن تحميل خزانة نائب ملك مصر بـ ٤٤٪ من رأس المال الإجمالي لشركة يقال إنها عالمية والذي كان يجب الحصول عليه من رؤوس الأموال الحرة هو دفع لسعيد نحو منحدر الاستدانة المشؤوم[٩].» على كل حال تم إنشاء شركة قناة السويس وأصبح ديلسبس رئيساً لها– شركة عالمية، جنسيتها مصرية، ومقرها باريس– ويمكن للأعمال أن تبدأ.

9. Mohammed Sabry, *L'Empire égyptien sous Ismail et l'ingérence anglo-française.* Paris, Geuthner, 1933.

(٣)

رائحة المال

في عام ١٨٥٦، أي بعد وصول سعيد باشا إلى السلطة بعامين، كانت معالم الإسكندرية قد تغيرت بالفعل. وكان الأرمني نوبار باشا -بالرغم من عدم تعاطفه مع الوالي الجديد أول من لاحظ هذا التغير بعد عودته من رحلة إلى أوروبا. فقد كتب: «ازداد عدد الأوروبيين. كانت توجد حيوية أكثر حتى بين السكان من أهالي البلاد. كانت توجد رفاهية أكثر وحياة في الخارج أكثر. اختفى مناخ الرعب والصمت الذي كان يثقل على البلاد في عهد عباس. كانوا يتحدثون بحرية ويقومون بالتنزه[1].» وكان الفرنسيون بنوع خاص يشعرون بحرية في مصر أكثر من أي وقت آخر. فلأول مرة تضم هذه البلاد عاهلاً يتحدث لغتهم الفرنسية بطلاقة.

وفي باريس كانوا يمتدحون سعيد. إنهم يقدرون محبته لفرنسا وخشونته. وقام الكاتب الفرنسي إدمون آبو Edmond About [١٨٢٨-١٨٨٥] مؤلف رواية «الفلاح» بوصف سعيد بعد وفاته باعتباره شخصاً ماجناً فقال: «عملاق طيب القلب، نهم، محب للحياة ولملذاتها، محب للمزاح، شارب عجيب للخمور، يستطيع إذلال الشخصيات الكبيرة، عريض الوجه، نضر، يعبر عن الطيبة والصراحة والكرم والشجاعة ولكنه يفسد كل هذا بالصلافة، فهو يحتقر الرجال ولا يحترم نفسه دائماً.»

وفي مصر حيث يتجه كل عهد جديد نحو الإعراب عن معاداته للأوروبيين، اتخذ سعيد بعض الإجراءات الليبرالية التي ساهمت في تخفيف المناخ. واستفاد من ذلك حتى الفلاحون الذين أصبحوا أحراراً في الشراء والبيع وفي زراعة ما يحلو لهم. ألغيت المتأخرات المستحقة للضرائب وأصبح من حق كل شخص قام بزراعة قطعة أرض لمدة خمس

1. Nubar Pacha, *Mémoires*, introduction et notes de Mirrit Boutros-Ghali, Beyrouth. 1983.

سنوات أن يصبح مالكاً لها. وفيما يتعلق بالتجار الأوروبيين فقد سمح لهم بالذهاب إلى الأرياف للتعامل مباشرة مع المزارعين. وبدأت المحاريث والطلمبات البخارية في الظهور في الأملاك الكبيرة، بينما تسببت حرب القرم في ارتفاع سعر القمح ثلاثة أضعاف.

وخلال الخمسينيات من القرن ١٩ أصبحت مصر «أمة تجارية ذات أهمية كبرى، إن لم تكن في المرتبة الأولى[٢]». استفادت من تطور البحرية البخارية الذي كان لا يزال يصعب استخدامها في المسافات الطويلة مثل المسافة حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، لكنها كانت تتوافق تماماً مع البحر المتوسط: ولهذا حصل برزخ السويس على أهمية باعتباره الطريق نحو الهند وذلك حتى منذ قبل حفر قناة السويس. كان خط السكك الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة قد اكتمل عام ١٨٥٦، وينتظر إتمام الجزء المتبقي بين القاهرة والسويس خلال عامين. إن الإسكندرية تستعيد مركزها كمخزن عالمي بعد قرون من التدهور. ويسود الميناء نشاط واسع إذ تختلط أكياس التوابل والحبوب وبالات القطن مع حقائب المهاجرين. ذلك لأن البلاد تجتذب أعداداً متزايدة من الأشخاص. كان يجيء كل عام حوالي ٣٠٠ ألف شخص للإقامة فيها، وبدأ هذا العدد يتزايد خاصة بعد عام ١٨٦٢ حين أدت حرب الانفصال في الولايات المتحدة الأمريكية إلى اشتعال أسعار القطن.

مُحتالون ونَهّابون

كان القادمون الجدد من أوربيين أو شرقيين ينتمون إلى جميع الفئات الاجتماعية. يعتمد بعضهم على وادى النيل لتكوين ثروة، والبعض الآخر للهروب من البؤس. وكان المحتالون صغاراً أو كباراً كثيرين. ويكونون في بعض الأحيان نهّابين يتشممون رائحة المال ويجدون فريستهم المثلى في سعيد باشا الذي يعرف أكثر من أي إنسان آخر كيف يلقي بالمال من النافذة. ولم يكن سلفه عباس باشا يعيش حياة الحرمان بالرغم من مظهره المحافظ: ففي عام ١٨٤٩ عبأ جزءاً من شارع سان أنطوان بباريس لصنع أثاثات قصور عديدة، وفي العام نفسه جعل مدافعه تطلق حوالي ألف قذيفة احتفالاً بختان ابنه...لكن الوالى الجديد على عكس عباس يعيش وسط الأوروبيين يتسلى بشذوذهم، ويخضع عن طيب خاطر لإغراءاتهم. وقام رجل فرنسي اسمه باڤاري Bavary بنوع خاص باللهو مع سعيد باشا وبنهبه (استلهم الكاتب الفرنسي الفونس دوديه Daudet تصرفات باڤاري في

2. David Landes, *Banquiers et Pachas*, Paris, Albin Michel, 1993.

روايته الشهيرة « *Nabab* ») وفي أحد الأيام اشتكى هذا المغامر من أنه لم يأخذ ما يكفي من المال: فقام سعيد المولى الكبير بالمحافظة على نفس المبلغ الذي وعده به لكنه دفعه بالجنيهات الاسترلينية بدلاً من الليرات الإيطالية...

ويذكر ساباتييه Sabatier قنصل فرنسا: «يحوم الباحثون عن الذهب بلا انقطاع حول نائب-الملك. فعند صدور أول نبأ بوفاة عباس جاؤا من جميع أركان أوروبا للانقضاض على مصر، كما لو كانوا ينقضون على كاليفورنيا جديدة. كانوا يقدمون المشروعات الأكثر غرابة والتصميمات الأكثر لا معقولية إلى صاحب الجلالة الذي أرى أنه أخطا حين أضاع وقتاً ثميناً في بحثها(٣).» قام سعيد بمنح امتيازات عامة لشركات أجنبية، مع احتمال أن يعود عند إفلاس هذه الشركات إلى شراء امتيازاتها من جديد بخسائر جسيمة. كانوا ينهكونه بكثرة المطالبات والاحتجاجات الغريبة. مثل هذا الرجل الأوروبي الذي يدعي أنه وقع ضحية حادث سرقة ويتهم الحكومة بعدم محافظتها على الأمن العام ويطالبها بالتعويض. أو ذاك الذي جنحت سفينته ثم يقول بأن السبب هو وجود جرف رملي...ويروون حكاية بأنه في أحد أيام الصيف كان سعيد باشا يستقبل أحد القناصل الأوروبيين بقصر رأس التين بالإسكندرية. كانت النوافذ مفتوحة. عطس القنصل مرة ثم عطس مرة أخرى فصاح سعيد في وجهه مازحاً: «تغطّي جيداً يا سيدي القنصل! فقد تصاب بالزكام ثم تطالبني حكومتك بدفع تعويض.» ويقول بعض الكتاب أن هذه القصة وقعت في عهد إسماعيل خليفة سعيد وهو أمر محتمل ومعقول أيضاً...

وكان العديد من القناصل الأوروبيين يعضدون المحتالين حينما لا يكونون متواطئين معهم. وكان السيد دي ليون de leon ممثل الولايات المتحدة يحظى بسمعة بغيضة. لم يكن يحمي سوى مواطن أمريكي واحد يقيم في مصر، لكنه كان يعتبر عدداً لا بأس به من رعايا الدول الأخرى بأنهم تحت حمايته. وكان سعيد يخضع للمعترفين بفضله لكي يتخلص من المشكلات التي تزعجه. لكن حدث أيضاً أن أحد القناصل طلب تعويضاً لنفسه: إنه السيد زيزينيا Zizinia ممثل بلجيكا الذي نجح في اغتصاب مبلغ كبير من سعيد بصفة تعويض، وبحجة أن (محمد علي) كان قد منحه شفوياً امتيازاً لكنه لم يحصل عليه. كان السيد زيزينيا قنصلاً لبلجيكا لكنه يوناني الجنسية وحاصل على الحماية الفرنسية: وكان يسانده زميله قنصل فرنسا(٤).

3.Archives diplomatiques françaises, Affaires étrangères, «Alexandrie, 2 octobre 1854», in Correspondance politique. Égypte, vol. 25.

4. Mohammed Sabry, L'Empire égyptien sous Hsmaïl et l'ingérence anglo-française, Paris, Geuthner, 1933.

كان سعيد باشا ذاته مسرفاً، ويجب عليه تسديد قيمة أسهم قناة السويس التي اشترتها مصر، ولهذا لا يستطيع الحصول على قروض: كان التشريع العثماني يحظر عليه ذلك. قام بالتحايل على هذه المشكلة في عام ١٨٥٨ بإصدار سندات على الخزانة. وفي نهاية العام التالي كان يوجد ٢ مليون جنيه استرليني في التداول. وتم بيع سندات أخرى حتى بلغ الدين المتداول ٣,٥ مليون في منتصف عام ١٨٦٠. لم يتم دفع مرتبات الموظفين. باع سعيد أدوات مائدته المصنوعة من الذهب لكي يحصل على بعض المال.

وفي سبتمبر عام ١٨٦٠ تم اتخاذ خطوة أخرى حينما وافق البنك الباريسي «لو كونتوار ديسكونت» على منحه قرضاً قدره ٢٨ مليون فرنكاً. وتعهد الوالي بعدم إصدار سندات أخرى في الأجل القصير دون الحصول على موافقة دائنيه الفرنسيين. لكنه لم يلتزم بوعده، إذ أصدرها تحت اسم آخر مختلف...ففي نهاية العام التالي بلغ الدين المتداول ١١ مليون جنيهاً. واضطر سعيد حينذاك إلى بيع خيوله وتسريح الموظفين، بل وتخفيض الجيش الذي كان يدلله كثيراً بصنع زي جديد لأفراده، وبإضافة وحدات جديدة إليه وترقية المصريين العاملين به.

كان يسدد الديون عن طريق الحصول على ديون جديدة: إنها دائرة مفرغة التي يدور فيها. كان المكتتبون ينتفعون من هذا الأمر لأن السندات تباع بأسعار مرتفعة للغاية. استفاد الماليون الحاذقون والوسطاء من كل نوع من هذه العمليات المالية. وكانوا في باريس يتابعون الموقف عن كثب. أليس من الأفضل أن يكون دائنو مصر من الفرنسيين؟ وكتب قنصل فرنسا إلى وزير خارجيته: «إذا نحن امتنعنا، سيقوم آخرون بشغل المكان(٥)».

ليس جميع رجال المال الفرنسيين نهّابين. إن أغلبيتهم يعتبرون أنفسهم أناساً شرفاء، بل وحتى راغبين في المساهمة في تطوير البلاد. ويتخذ عدد منهم موقفاً متعدد الجوانب، قام بتحليله بعمق الباحث البريطاني ديفيد لانديز David Landes الذي خصص دراسة معمقة لرجل البنوك إدوار ديرفيو Édouard Dervieu. إن رجال الأعمال هؤلاء يحترمون المبادىء، لكنهم في الواقع يتبعون نظامين لقواعد السلوك والأخلاق، الأول لقواعد العلاقات فيما بينهم، والآخر لعلاقاتهم مع أهل الشرق. إنهم ينظرون إلى أهل الشرق وفقاً لسلسلة من الأحكام التقييمية تتراوح بين الإزدراء والتعاطف: «كان البعض يرى في كل مصرى عدواً كامناً سيىء النية يحتاج إلى يقظة دائمة واللجوء إلى علاجات قوية. وينظر آخرون إلى أهالي البلاد كأطفال يحيكون مكائد خفية ويتصفون بسوء السلوك، وأنه يمكن

5.Archives diplomatiques françaises, Affaires étrangères, «Alexandrie, 19 aoû t1861». *op. cit.*, vol. 29.

تهذيبهم بعقابهم من جانب آبائهم وأصدقائهم وحماتهم الأوروبيين. ومع ذلك كان الجميع متفقين على أن مجتمع أهالي البلاد هو مجتمع متخلف، وأن الحضارة المصرية في مرتبة أدنى، ولا يمكن للأوروبي أن يخضع لعادات البلاد، لكن يجب على المصري أن يتعلم نهج الأوروبيين ويقبل أحكامهم. إن قواعد السلوك والقيم المعترف بها في أوروبا مثل الأمانة واحترام القواعد والعدل ...الخ التي تصوغ من ناحية المبدأ العلاقات الاجتماعية والمهنية في الغرب، يجب تعديلها لكي تتوافق مع واقع بيئة أجنبية [٦]».

كسب احترام الغرب

تسببت هشاشة حالة الوالى المالية في تقويض سلطة حكومته الضعيفة في مواجهة الأجانب، ومن ثم انحرف نظام الامتيازات. كان الأوروبيون ومن في حمايتهم يفلتون من عقوبة العدالة المحلية. كانوا يلجأون إلى السلطة القضائية لقنصلياتهم حتى بالنسبة لنزاعاتهم مع المصريين. إنهم يتمتعون بشبه حماية دبلوماسية، ومن المتعذر توقيع عقوبة عليهم. كان أصحاب الشكاوى من المصريين يسأمون انتظار نتيجة دعاواهم، فيلجأون بأنفسهم إلى القنصل المعني لكن ليبلغهم أحياناً بأن المشكو في حقه قد غير جنسيته وأصبح تابعاً لقنصلٍ متغاضٍ...

وفي نهاية عام ١٨٦٠ وصل إلى مصر مهندس فرنسي شاب تعاقدت معه شركة قناة السويس للعمل لديها.وبعد مضي عدة أسابيع كتب إلى أمه: «قضيت خمسة أيام في الإسكندرية. إنها مدينة جميلة خاصة في الحي الأوروبي. وتشهد المدينة طغياناً شديد الوطأة. فالأوروبيون يضربون العرب بطريقة خسيسة. ونرى كل إنسان تقريباً يحمل سوطاً في يده يضرب به بطريقة عشوائية. البذخ هنا يتجاوز الحدود. إنهم يتبرجون بطريقة مذهلة وبأحدث مبتكرات باريس[٧]».

وفي يناير ١٨٦٣ بعد وفاة سعيد باشا ببضعة أيام وعند بداية عهد خليفته إسماعيل وقعت حادثة ذات مغزى. فبينما كان «شاب فرنسي من أسرة طيبة» يدعى نابليون كونسي Napoléon Conseil يتنزه بحصانه في هدوء بحي الميناء بمدينة الإسكندرية هجم عليه جندي مصري مسلح بعصا. تضارب الرجلان. تدخل جنود مصريون آخرون في المعركة وجروا الرجل الفرنسي إلى قسم البوليس بعد أن لفوا الحبل حول رقبته. تجمع جمهور

---

6. David Landes, *Banquiers et Pachas, op. cit.*
7. Bruno Reyre, *Félix Paponot, 1835-1897*, archives familiales.

قليل حول الفرنسي وأخذوا يبصقون عليه ويهتفون: «الموت للنصارى! الباشا حامي النصارى مات!» عرف مسيو بوفال Beauval قنصل فرنسا بماحدث، فأرسل «قوّاسيه» المسلحين على الفور لاستعادة الشاب الفرنسي. وأرسل برقية إلى الوالي وكتب إلى وزير الشئون الخارجية ليطلب توقيع عقاب رادع حدد مداه بنفسه: «تجريد الضابط المسئول بالقسم من رتبته، وإلقاء القبض على الجنود الثلاثة المذنبين وعرضهم على الجمهور لمدة ساعة في الميدان الكبير أمام قنصلية فرنسا، وبحضور قوة عسكرية ضخمة». وأضاف قنصل فرنسا : «وإذا لم تتم الاستجابة إلى مطلبى خلال أربع وعشرين ساعة سأضطر إلى اتخاذ الإجراءات التي يتطلبها أمن مواطني» —وهذا يعني أنه سوف يستدعي قوات البحرية الفرنسية الموجودة في الميناء.

وخضع الوالي [الذى أصبح «خديو» فيما بعد]، وجرت مراسم العقاب وفقاً للطريقة التي حددها القنصل جرت بميدان القناصل —حيث توجد غالبية القنصليات الأوروبية، والبنوك، ومقار شركات الملاحة— بحضور جمهور غفير. وقف مسيو بوفال بشرفته بوسط الميدان. كان يلوح بالعلم ثلاثي الألوان ويهتف: «تحيا فرنسا!» تم تزيين الحي الأوروبي بالأنوار للإعراب عن الشكر لإسماعيل باشا «الذي أكد للأهالي وللجيش أن الروابط التي تربط مصر بالمدنية لم تنقطع».

وفي رده على برقية قنصل فرنسا قال الوالي: «إنني أيضاً متمسك بتقديم عبْرة وبتصويب نيات سيئي النية. إنني أعطيك أكثر مما تطلب.» وتوضّح هذه الجملة الأخيرة نفسية اسماعيل تماماً، المماثلة لنفسية سعيد واللذين حاولا خلال عهديهما كسب احترام الغرب وتفادي إغضابه مع احتمال الخراب أو بالأحرى تخريب البلاد. لقد كان سعيد مهتماً بإرضاء الغرب إلى حد أنه في عام ١٨٦٢ أرسل فرقة عسكرية سودانية إلى المكسيك لكي تحارب إلى جانب الحملة العسكرية الفرنسية هناك. لقد تم انتزاع هؤلاء الفلاحين التعساء من مسقط رأسهم للذهاب إلى آخر العالم لقضاء عدة سنوات في ظل ظروف يسهل تصورها من أجل معركة بلا معنى.

(٤)

كنوز مسيو مارييت

لا شيء كان ينبىء بأن أوجوست مارييت Mariette ابن الموظف الصغير بمدينة «بور-سور-مير» سيصبح المدافع الأول عن التراث المصري. لا شيء سوى حب استطلاع كبير ومواهب متنوعة وصلة قرابة بنستور لوت L'Hôte سكرتير شامبليون. وتأكد مارييت حين كان شاباً من ميوله أثناء ترتيبه للأوراق الخاصة بابن عمه المتوفى. لكنه كان قد أصيب بصعقة الحب لبلاد الفراعنة أثناء زياراته لمكتبة البلدية المزودة ببعض الكتب الجميلة، بل وحتى بصندوق مومياء تم الحصول عليه عام ١٨٣٧. تخلى مارييت عن وظيفته كمعلم في مدرسة المدينة وعن أعماله الصغيرة الصحفية والأدبية في مطبوعات محلية، وبذل جهده حينذاك للحصول على عمل بمتحف اللوفر ثم للحصول على بعثة إلى مصر.

وفي عام ١٨٥٠ كان في التاسعة عشرة من عمره وتسلّم مبلغاً صغيراً لكي يذهب إلى وادى النيل للحصول على مخطوطات قبطية وسريانية من الأديرة الموجودة هناك. استغرقت رحلته ٢٨ يوماً للوصول إلى مصر، وقام عند وصوله بتغيير برنامجه تماماً. فبعد مضي عدة سنوات قال أمام أكاديمية النقوش والآداب القديمة: «لم أجد مخطوطات، ولم أقم بمراجعة الموجودات في أى مكتبة من المكتبات، لكنني أحضرت معبداً حجراً بعد حجر.»

وفي بطريركية الأقباط بالقاهرة ظل واقفاً أمام الباب: إنهم لم يأنسوا كثيراً باثنين من سابقيه الإنجليز اللذين أسكرا الرهبان ليختلسا منهم بعض الكنوز...لقد انتهت بعثة مارييت قبل أن تبدأ. فهل يتخلى؟ هل يعود أدراجه إلى فرنسا؟ إن زيارته لقلعة القاهرة التي تطل على العاصمة المصرية جعلته لا يطرح السؤال على نفسه: «كان الهدوء غريباً. مدينة القاهرة تمتد أمامي. ويبدو كأن ضباباً كثيفاً وثقيلاً يسقط فوقها مُغْرِقاً بيوتها حتي أعلى سقوفها. وفي وسط هذا البحر العميق تبرز ثلاثمائة مئذنة كأنها صواري أسطول ما غائص

في المياه. وبعيداً جداً في اتجاه الجنوب نلمح غابات النخيل الذي يغرس جذوره في جدران مدينة منف المتهدمة. وفي الغرب تنتصب الأهرام الغارقة في الغبار الذهبى المتقد بنور الشمس الغاربة. كان المشهد عظيماً، وقد استغرقني بعنف موجع. سوف تغفرون لي هذه التفاصيل التي قد تكون شخصية إلى حد كبير، ولكنني مصر عليها لأنها كانت اللحظة الحاسمة. كانت تحت بصري الجيزة وأبو صوير وسقارة ودهشور وميت رهينة. حلم حياتي كله تحقق. يوجد هناك في متناول يدي تقريباً عالم كامل من المقابر والنصب التذكارية والنقوش والتماثيل. ما الذي يمكن قوله أكثر من ذلك؟ وفي اليوم التالى استأجرت بغلين أو ثلاثة بغال لحمل الحقائب وحمار أو اثنين ليحملاني، واشتريت خيمة وبضعة صناديق مليئة بالمؤن وجميع ما يمكن أن يعوق السفر في الصحراء، وفي يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٥٠ أقمت معسكري عند سفح الهرم...»

إكتشاف معبد الآلهة «السرابيوم»

ومع ذلك فإن مصير مارييت لم يتحدد في الجيزة بل في سقارة التي تبعد بضعة كيلومترات. فبينما كان يتجول في هذا الموقع الوعر لاحظ رأس تمثال لأبي الهول تبرز من الرمل، وبالقرب منه يندفن حجر محفور عليه باللغة الهيروغليفية ابتهال إلى الإله أوزيريس–أبيس. وتذكّر ماريت نصاً قديماً كتبه سترابون Strabon [جغرافي يوناني– ولد عام ٥٨ ميلادى؟] منذ ثمانية عشر قرناً: «بني السرابيوم في موضع غمرته الرمال إلى حد أن تكونت فيه بتأثير الرياح تلال رملية حقيقية، وحين قمنا بزيارته كانت تماثيل لأبي الهول قد دفنت في الرمال فغطت بعضها حتى رأسها والبعض الآخر حتى منتصف جسمها فقط...»

أسرع بالذهاب إلى قرية مجاورة واستأجر حوالي ثلاثين عاملاً وجمع بعض الأدوات وبدأ في رفع الرُّكام. عثر على تمثال ثم اثنين فثلاثة...حتى أخرج من الأرض مائة وأربعين تمثالاً لأبي الهول واكتشف العديد من المقابر. وفي أحد هذه المقابر اكتشف ماريت المبهور سبعة تماثيل من بينها تمثال رائع لكاتب يجلس متربعاً. وليس هذا هو كل شيء: فبعد أن تم إخلاء هذا الطريق طوال مسافة ٢٠٠ متراً أفضى إلى مقعد حجري نصف دائري مزين بإحدى عشر تمثالاً يونانياً. وفي اتجاه الشرق قليلاً أخرج العمال معبداً صغيراً لأبيس وتمثالاً للإله بس.

كان فلاحون يجيئون إلى موقع العمل لإحضار المياه والمؤن. كانوا ينظرون،

ويعلقون، ويشاركون بطريقتهم: «حدث أثناء تناول العمال طعام الغذاء ظهراً أن خرجت من خيمتي بغتة. وجدت خمس عشرة سيدة من جميع الأعمار جئن من القرى المجاورة واصطففن حول تمثال الثور أبيس. ورأيت إحداهن تصعد فوق ظهر الثور كأنها تركب على ظهر حصان ثم تبقى في هذا الوضع بضع لحظات. ثم تنزل من على ظهر الثور لتترك مكانها لسيدة أخرى حتى صعدن جميعاً على التتابع. سألت محمد عما يجري فعلمت منه أن هذا التمرين يتكرر بين وقت وآخر لأنهن يعتبرنه كفيلاً بالتغلب على العقم..»

وانكشف مارييت لمصر في الوقت الذي اكتشف فيه معبد الآلهة في سقارة. بدأ نجاحه يجد صدى. قام الباحثون الآخرون الذين ينقبون في المنطقة بطريقة غير رسمية بإرسال جواسيس إلي موقع عمل ماريت وقطعوا التموين عنه. لقد أعلنت الحرب عليه. وفي يوم ٤ يونيو ١٨٥١ أصدرت الحكومة المصرية قراراً بوقف الأعمال التي يقوم بها وبالاستيلاء على الأشياء التي اكتشفها. بذل القنصل الفرنسي جهوداً كبيرة ونجح في إلغاء القرار. لكن تم ارتكاب حماقة أعادت الأمور إلى ما كانت عليه. ففي باريس حيث وصلت بعض كنوز ماريت بدأوا أخيراً يهتمون باستغاثاته بأن المال الضئيل الذي حصل عليه لشراء المخطوطات الشرقية قد نفد منذ أمد طويل. ووافقت لجنة الميزانية بمجلس النواب الفرنسي على تخصيص اعتماد لعمليات رفع الأنقاض في سقارة...وعلى «نقل الآثار الفنية الناتجة عن هذا العمل إلى فرنسا». لم يتوان منافسو ماريت –ومن بينهم قناصل يعملون في القاهرة– عن استغلال هذا الاعتراف الطائش وتم من جديد منع العمل في موقع سقارة.

ومع ذلك فهو رجل عنيد وليست لديه النية للخضوع واستمر في معسكره في سقارة. كان يغافل أو يرشو المفتشين الذين يرسلونهم إليه ونجح في إرسال آثار أخرى إلى متحف اللوفر بباريس من خلال القنصلية وبالتعاون مع سائحين عابرين يخرجون من موقع عمله وقد امتلأت جيوبهم. كان يعمل أيضاً أثناء الليل: ففي ليل يوم ١٢ نوفمبر ١٨٥١ وعلى ضوء المشاعل تم اكتشاف مدخل سراديب المعبد الكبيرة. إنها من الآيات العجيبة. وفي فجر كل يوم كانوا يعيدون سد المدخل لمنع الباحثين المنافسين من دس أنوفهم...

وفي يوم ١٢ فبراير ١٨٥٢ تم التوصل إلى تسوية مع الحكومة المصرية أتاحت الاستمرار في متابعة هذ الكشف المثير بصورة علنية. وعند افتتاح السراديب شهد ماريت ظاهرة فريدة: «فمن المدخل الشمالي خرج عمود كبير من البخار أزرق اللون محدثاً دوياً كبيراً وكأنه يخرج من فوهة بركان. وظلت المقبرة حوالي أربع ساعات تفرغ الهواء الفاسد المحبوس داخلها منذ أمد بعيد.»

وبرز من الرمال تدريجياً مجمّع ديني كبير. اكتشف مارييت في السرداب الأول أربعة وعشرين تابوتاً حجرياً خالياً. لا شك أنه تم نهبها منذ عهود قديمة. وانطوى السرداب الثاني على مفاجآت أكبر: ٢٨ مومياء لأبيس سليمة وجثمان خايمواس ابن رمسيس الثاني مجاوراً لمجوهرات رائعة بصورة خرافية. وبالإضافة إلى هذه المقابر تم اكتشاف سراديب تعود إلى عصور متنوعة والعثور على معبد جنائزي.

وسافرت إلى باريس مئات الصناديق المليئة بالآثار التي لا تقدر بثمن. تسببت هذه الآثار في إثراء متحف اللوفر الذي عين به مارييت في أول يناير عام ١٨٥٢ كأمين على الآثار المصرية. أتاح له مرتبه الجديد استقبال زوجته وأبنائه الذين وصلوا مصر بلا تنبيه مسبق. تم توسيع منزل ماريت الصغير في سقارة ليصبح «فيللا ماريت» التي رفع العلم الفرنسي فوقها، لكن أثاثاتها لم تكن سوى تجميع مبتذل لألواح خشبية. عاش مكتشف السرابيوم مع أسرته في هذه الفيللا مدة عامين وسط الثعابين والعقارب والخفافيش، وفي الليل يسمعون عواء الضباع وبنات آوى وسط التلال...

يبدو أن الرفاهية آخر ما يهتم به ماريت المصاب بمرض الرمد والمضطر إلى ارتداء نظارات سميكة ومقعرة لحماية عينيه من الشمس. ومع ذلك فهو رجل مرح. وأدت النجاحات التي حققها والمحن التي اجتازها إلى تدعيم صورته كعملاق أشقر، خشن اليدين، مجادل، بل وحتى يخترع تفاصيل صغيرة مضحكة لإدخال الإنشراح في نفوس سامعيه.

وفي عصره كان اقتسام الحفريات هو العرف السائد. وكان الأربعون صندوقاً الممنوحين إلى ماريت يضمون حوالي ٢٥٠٠ قطعة فنية[1]. ولكن إذا ما أخذنا في الحسبان البعثات الأثرية الأخرى الشرعية أو غير الشرعية نجد أن متحف اللوفر كان يضم حوالي ٦٠٠٠ قطعة خلال العامين ١٨٥٢ و١٨٥٣[2]. ومن بين هذه القطع تجد العديد روائع عديدة مثل الكاتب المصرى المشهور، ومجوهرات الأمير خايمواس، والصرح التذكاري للثور أبيس... وإذا ما كان مكتشف السرابيوم لم يسع إلى الثراء الشخصى فإنه لم يترك أية وسيلة ولم يتوان عن أية حيلة لتصدير كنوزه.

ومع ذلك قام سعيد باشا بإسناد وظيفة أنشئت حديثاً إلى أوجوست ماريت وهي مأمور (أي مدير) الآثار المصرية. وبدءاً من هذه اللحظة تغيرت وجهة ماريت تماماً. أصبح المدافع الذي لا يلين عن التراث المصري، يناضل ضد لصوص الآثار والباحثين لحسابهم الخاص، كما ضد سخاء الوالي الذي يحاول دائماً منح بعض زواره الأوروبيين تمثالاً أو بعض المجوهرات أو تابوتاً فرعونياً. لقد تغير ماريت ١٨٠ درجة!

1. Élisabeth David, *Mariette pacha*, Paris, Pygmalion, 1994.
2. Christiane Ziegler, *Le Louvre, les antiquités égyptiennes*, Paris, Scala, 1990.

إنشاء متحف القاهرة

خلال الشهر التالي لتعيينه شرع ماريت في إقامة ثلاثين موقعاً جديداً للتنقيب. كان كل شيء يحتاج إلى تنظيم في بلاد تجاهلت خلال أمد طويل ثرواتها القديمة ووجدت نفسها مسرحاً لعمليات نهب كبيرة. كان يجب على «المأمور» أن يقوم أحياناً بمراقبة أولئك الذين من المفترض أن يراقبوه. وأدى اكتشاف كنز الملكة آح–حوتب الخرافي في فبراير ١٨٥٩ بمدينة طيبة إلى اصطدامه مع حاكم الإقليم الذي وضع المجوهرات في خزانة مختومة ليرسلها مباشرة إلى الوالي مرفقاً بها تحياته. احتدم ماريت غيظاً. وحصل على إذن بوقف كل مركب بخاري ينقل الآثار القديمة في النيل. وشهد النيل ملحمة بحرية شبيهة بأشهر معارك القراصنة. تمت استعادة الخزانة وأفرغت محتوياتها في متحف القاهرة. ومع ذلك احتجز سعيد باشا لنفسه سلسلة رائعة سداسية الحلقات وجعراناً في غاية الجمال(٣).

وكان لا بد وأن يكون لماريت أعداء ومن بينهم فرنسيون. ولا جدال أن أكثرهم حدة هو إميل بريس دافين Prisse d'Avennes وهو سليل أسرة إنجليزية هاجرت إلى منطقة الفلاندر الفرنسية، ثم أقام في مصر منذ أمد طويل. إنه مهندس معماري أصبح متخصصاً في المصريات، وقد جمع هذا المستعرب الموهوب كمية كبيرة من الوثائق والرسوم السريعة بقصد نشر كتاب حصل على شهرة تاريخية هو «تاريخ الفن المصري وفقاً للصروح، منذ الأزمنة الأكثر قدماً حتى السيطرة الرومانية». كان يمتلك منزلاً جميلاً في الأقصر بعد أن اختلف مع نصف سكان القاهرة. وقد أسرع إلى نشر النقوش البارزة في بهو الأجداد بمعبد الكرنك «قبل أن تقع في أيدي الألمان» ثم أرسلها سراً إلى متحف اللوفر في ٢٧ صندوقاً كتب عليها «مواد تاريخ طبيعي»...

ويرى دافين أن مأمور الآثار المصرية دجالاً ونصاباً: «يقوم ماريت الذي أصبح مديراً للآثار التاريخية ويحصل على رواتب قدرها ٢٠ ألف فرنك وسفينة بخارية ويعمل تحت امرته ألف رجل بالهيمنة كباشا على الآثار المصرية في وادي النيل حيث يجري حفرياته. وعندما كنت أتجول في البلاد رأيت كيف ينفذ أعماله بسفاهة وشعوذة. رأيت عند سفح الأهرام كيف يخرب أبا الهول الكبير لكى يبحث هناك عن سر خفي، وربما عن معلومات خاصة بأم أبيس تكون أقل تشوها من الكلام غير المفهوم الذي نشره. لقد علمت كيف أنه خدعنا بشأن اكتشافاته في السرابيوم التي لم تزودنا إلا بنصب تذكارية. إنه لم يستخرج

3. Élisabeth David, *Mariette pacha. op. cit.*

تمثال الكاتب المصري الشهير بفضل حفرياته لكنه اشتراه بمبلغ ١٢٠ فرنكاً من يهودي بالقاهرة يدعى مسيو فرنانديز كان قد أخرجه من الأرض في «أبو صوير»...لقد حصل ماريت على أكثر من تسعة آلاف فرنك من ذهب أجزاء المجوهرات الصغيرة أو التماثيل الصغيرة التي أخرجها من جفرياته في السرابيوم. قام بصهرها وصنع منها سبائك لصنع مجوهرات وقام ببيعها. ولا تزال ترتدي زوجته سواراً مصنوع من أنقاض الآثار وكانت ساذجة إلى حد أنها صرحت لي بذلك[٤].» لكن هذه الاتهامات لم تؤخذ بعين الاعتبار. كان دافين كثير الاغتياب بالنسبة للكثيرين إلى حد أفقده المصداقية...

ويقوم ماريت بتحقيق مشروع عزيز عليه هو: إنشاء المتحف المصري افتتح للجمهور عام ١٨٦٣ في حي بولاق القديم بالقاهرة. إن كلمة «متحف» كلمة كبيرة وفقاً لما يقوله ماريت: «كان الموقع في حالة يرثى لها: ساحل رملي وعر، تجور عليه مياه النيل في أغلب الأوقات. وفي الجنوب يوجد منزل وضيع ورطب حيث يقيم مدير المتحف وأسرته، وفي الشمال جامع قديم تستخدم قاعاته كمخزن لمتاع المسافرين وللبضائع، وفي الشرق وعلى حافة شارع بولاق الكبير توجد عنابر طويلة ومنخفضة قاموا بإعدادها كمكاتب للموظفين وقاعات لعرض الآثار[٥].» وكانت الخمس أو الأربع غرف المفتوحة للزوار سيئة الإضاءة، وفي بعض الأحيان يجدون عقارب أو ثعباناً نائماً. وفي النهاية اضطرت الإدارة إلى استدعاء أحد مشاهير الحواة الذي نجح في اجتذاب الثعابين والقضاء عليه[٦].

وكان ماريت يعيش وسط معرض حيوانات حقيقي. إذ كان زواره يندهشون حين يرون في الحديقة قروداً وغزالة بل وحتى جمل. ولا نستطيع القول بأن المأمور كان يحتفي كثيراً بزواره أو شديد الترحيب بهم. فقد وصفه الفيكونت دي فوجويه de Vogué [كاتب فرنسي ١٨٤٨-١٩١٠] بأنه شخصية صامتة وعابسة يرتدي بالطو وطربوشاً: «حينما يقوم زائر بالدخول عبر الحديقة يرفع حاجبيه بطرفة متعجرفة تنم عن استيائه، ويتابع المتطفل بعين غيورة شبيهة بعين العاشق الذي يرى غريباً يدخل لدى محبوبته، أو عين الكاهن الذى يرى دنيوياً يقتحم معبده.» وبعدما يزول انزعاجه يأخذك بحب ويجرك نحو متحفه حيث يستمر هناك في سحبك أمام أحجاره القديمة. وعلى أنغام صوته تنبعث الحياة في الأحجار، وتنهض المومياوات من أكفانها، وتتحدث الآلهة، ويفرد الكتاب بردياتهم، ويمتلىء الهواء بآلاف الجعارين رموز الأرواح المنطلقة[٧]...»

4. Émile Prisse d'Avennes. *Petits Mémoires secrets de la cour d'Égypte,* Paris, 1931.
5, Émile Prisse d'Avennes, *Petits Mémoires secrets de la cour d'Égypte,* Paris, 1931.
6.Édouard Mariette, *Mariette pacha, Lettres et souvenirs personnels.* Paris, 1904.
7.. Eugène Melchior de Vogué, *Chez les pharaons, Boulacq et Saqquarah,* 1880.

وفي عام ١٨٥٩ قام ماريت برفع الأنقاض عن معبدي ابيدوس ومدينة حابو. وفي ربيع العام التالي شرع في إجراء حفريات مثمرة للغاية في صان الحجر بالدلتا. غير أن سقارة كانت لا تزال تحتفظ بمفاجآت جميلة: فقد أخرج منها شيخ البلد ومصطبة تي. وخلال العام نفسه اكتشف في الجيزة تمثال خفرع المصنوع من صخر الديوريت.

وبدأ مرض السكر يضني «مأمور» الآثار المصرية المصاب برمد العيون. وفي أغسطس ١٨٦٠ كتب إلى صديق له: «إن عيوننا الزرقاء ليست مصنوعة للمناخ شديد الحرارة». وهذا لم يمنعه من إثارة إعجاب المحيطين به بملكاته غير الشائعة كقوة الملاحظة وحسن الاستبصار والاستنباط المنطقي. إن النبوغ الذي أظهره شامپليون في دراسة النصوص أظهر ماريت مثله في علم الآثار. وقد روى أحد معاونيه مشهداً عجيباً رآه أثناء رفع الرُكام عن معبد أبيدوس: «قام ماريت أمامي بحسن بصيرته المعتادة في مجال الحفريات بإرشاد فلاحيه إلى الموقع الذي يجب عليهم الحفر فيه إذ لا بد وأن حائط السور موجود به. استولت دهشة كبيرة على الرجال الذين يعملون لحسابه في ذات الموقع منذ ثلاثة أسابيع حين كشفوا عن الجدار المعني بعد بضع ضربات بالمعول، وكان الحائط مزيناً بالنقوش وبالكتابات المحفورة ذات الأهمية الكبيرة. وعند ذاك اقترب منه رجل عربي كبير السن قائلاً: إنني لم أغادر هذه القرية طوال حياتي، ولم أسمع اطلاقاً عن وجود سور في هذا المكان. كم عمرك لكي تتذكر موقعه؟- أجاب ماريت في هدوء بأن عمره ثلاثة آلاف عام- فرد عليه العجوز لا بد وأن تكون قديساً كبيراً لأنك تبدو شاباً بالرغم من عمرك هذا؛ فهل تأذن لي بالنظر إليك ملياً! وخلال ثلاثة أيام كان العجوز يجيء لتأمل القديس الذي يوزع بوفرة زائدة ضرباته بالعصا على العمال الذين لا يعملون كما ينبغي[٨]».

وفي باريس كانوا متذمرين من غياب ماريت الذي لا يزال معيناً بمتحف اللوفر. وأفضى الأمر برؤسائه إلى مطالبته بالاختيار بين فرنسا ومصر. كان ممزقاً بين البلدين لكنه اختار مصر بالرغم من علمه بأنه معرض لنزوات الباشا الحاكم وتقلبات مزاجه. وفي عام ١٨٦٣ مات سعيد باشا الأمر الذى كلفه قضاء فترة اختبار واستغفار حتى يعترف إسماعيل الوالي الجديد بأفضاله، ومن ثم أصبح لا يستطيع الاستغناء عن خدماته.

8. Théodule Devéria, *Journal de voyge*, cité par G. Devéria, in *Bibliothèque égyptologique*. t. IV.

(٥)

فنيون متعددون وعمال - فلاحون

لم تتوقف الحكومة البريطانية عن عدائها الشديد لمشروع قناة السويس. استمرت في بث الحجج القاتلة لتثبيط المساهمين، وبلبلة والي مصر، وتدعيم اعتراضات السلطان. وبدت حججها التي تنقلها الصحف مثل جريدة «التايمز» بأنها تتسم بمنطق لا يقاوم:

١) القناة مشروع غير قابل للتنفيذ، بسبب صعوبة الملاحة عند مدخليها المرتقبين.

٢) وحتى في حالة تنفيذه، فإن وجود القناة سيكون دائماً مهدداً بتراكم الطمى وبالرمال المتحركة.

٣) وبناء عليه يجب تخصيص مبالغ ضخمة لشق هذا الطريق المائي، ثم لصيانته مما يمنعه من أن يدر ربحاً.

٤) وبما أن المشروع لن يدر ربحاً، فسيكون عملية سياسية موجهة ضد إنجلترا لسلب طريق الهند منها، ولجعل برزخ السويس مستعمرة فرنسية.

وفي أثناء المناقشات التي دارت بمجلس العموم ارتفعت أصوات لصالح القناة لكنها كانت أقلية. استمر لورد پالمرستون [سياسي إنجليزي تولى وزارة الخارجية ثم رئاسة الوزراء] يؤكد بصوت عالٍ وجهوري بأن الموضوع يتعلق بأكبر عملية نصب في الأزمنة الحديثة. كان ديلسپس يدافع بلا كلل عن قضيته أمام الرأي العام البريطاني، ويقاوم بالكتابة في الصحف وبنشر الأرقام. وبالرغم من انزعاج حكومة صاحب الجلالة فقد تحدد يوم ٢٢ إبريل عام ١٨٥٩ كموعد لأول ضربة معول على ساحل البحر المتوسط.

وقبل الذهاب إلى موقع العمل أقام ديلسپس «مأدبة وداع» لجميع موظفي الشركة في أحد مطاعم پاريس. شربوا الأنخاب على شرف إمبراطور فرنسا (الذي لا يزال متحفظاً) والإمبراطورة أوچيني (ابنة عم فردينان ديلسپس ومن المؤكد أنها تعضده) والأمير چيروم (الأكثر حماساً وتم تعيينه راعياً للشركة). وطلب «عالِم مستشرق» يدعى دوشنو -Duche

noud إلقاء كلمة، ثم أنشد أبياتاً من الشعر من تأليفه وعلى شرف رئيس الشركة فقال ما معناه: «أنت يا من أنضجت في حضنك... تصميم هذا العمل الجليل... انت الذي حماسه غير كليل... قد حقق هذا الهدف العظيم... فلتنجز مهمتك الخالدة...»

وبدأ إنجاز هذه المهمة بأسلوب بطولي على لسان ضيق من الأرض بين بحيرة المنزلة وخليج الفرما، تكتسحه الرياح العنيفة، وتغمره أحياناً المياه. وأقام بضع عشرات من الرواد يقودهم لاروش Laroche مهندس الطرق والجسور في أكواخ خشبية وتحت خيام في الموقع الذي ولدت فيه مدينة بورسعيد فيما بعد. كان الموقع خالياً من كل شيء. ويلزم إحضار الغذاء وبراميل المياه والأدوات والخشب بل وحتى الأحجار بالمركب من دمياط أو من الإسكندرية الأكثر بعداً.

وبينما هم يقيمون الفنار ويبدأون في تشييد رصيف عائم تحركت الآلية الدبلوماسية. فقد أصدر السلطان في القسطنطينية أمراً إلى تابعه [الوالي] بوقف الأعمال. نقلت السلطات المصرية الأمر إلى الشركة. وطلب قنصل فرنسا ذاته من مواطنيه إطاعة الأمر. توقفت الأعمال في الموقع، لكن ديلسبس رفض الرضوخ. وبعد أن توقفت الأعمال بضعة شهور استؤنفت من جديد، ومن بعدها لم تتوقف مرة أخرى.

ومن أجل وقف الشكوك البريطانية بشأن استعمار البرزخ صدر مرسوم رسمي بأن يكون أربعة أخماس العمال علي الأقل من المصريين. وأصدر سعيد باشا مرسوماً خاصاً ينص على وجوب «قيام الحكومة المصرية بتوفير» هؤلاء العمال-الفلاحين الذين يتم استدعاؤهم- «بناء على طلبات كبار المهندسين ووفقاً للاحتياجات». وتحدد الأجر بأكثر من الأجر اليومي المعتاد بالثلث، وتقرر لأول مرة في وادي النيل دفع نصف الأجر للمرضي والجرحى. وتقرر أن يكون أجر الأطفال الذين تقل أعمارهم عن اثنى عشر عاماً قرش صاغ في اليوم (بدلاً من ثلاثة قروش للبالغين) لكن من حقهم الحصول على جراية كاملة من الغذاء. وأخيرا تتكفل الشركة بدفع نفقات انتقال العمال وأسرهم. وتمثل هذه الشروط تقدماً واضحاً، فقد كان الفلاحون يعملون عادة في حفر وتطهير ترع ومصارف الري بالسخرة وبدون أي ضمانات صحية أو اجتماعية.

هكذا اتخذت العلاقات المصرية- الفرنسية في بداية الستينيات من القرن التاسع عشر شكل علاقات عمل يومية غير مألوفة إلى حد كبير: فقد كانت علاقة بين مهندسين فرنسيين من خريجي مدرسة البوليتكنيك [التقنيات المتعددة]، ومدرسة السنترال [الفنون والصنائع] ومن مدرسة الطرق والجسور، وبين فلاحين فقراء وأميين انتزعوا من أرضهم ومن بيوتهم، والذين لا يفهمون معنى هذه الأعمال الجارية في الصحراء ولا ضرورتها.

ويظهر الفرنسيون عامة اهتماماً بالإنسان. ويصف أحد المسئولين بالشركة «عمالنا البواسل من الأهالي» الذين ينظمون أنفسهم داخل مجرى تتخلله المياه: «تغوص أقدام وأسفل سيقان الرجال الذين في منتصف الصف في الماء . إنهم ينحنون إلى الأمام ويأخذون قطع الطين بأيديهم ذاتها من القاع الذي قاموا من قبل بتقليبه بالفأس وهو أداة يعرفها أهالي البلاد جيداً وتشبه المعزقة لدى الفرنسيين لكنها أكثر منها قصراً وعرضاً. ويتم نقل قطع الطين هذه من يد إلى أخرى حتى تصل إلي حافة المجرى حيث يوجد رجال آخرون خارج المياه تماماً يمدون ظهورهم مع تشبيك أذرعهم من الخلف مما يشكل سلّة بدائية فوق ظهورهم. وحين يتم تكويم قطع طين كافية لتكوين شحنة يتحرك الفرد وهو محني الظهر حتى نهاية حافة المجرى حيث يفرد ظهره ويفك ذراعيه فينزلق الطين فوق الأرض. ومن ثم يعود رجلنا ليحمل شحنة جديدة وهلّم جرًا. ومن لغو الكلام القول بأنه في هذه المهنة الفريدة من نوعها نجد جميع الرجال قد خلعوا ملابسهم بحيث لا أنصح السائحات بزيارة موقع العمل هذا في حالة ما أذا وجدوا في المكان صدفة(١)» .

لكن لماذا هذا النظام المنتمي لأوقات مضت؟ لأن هؤلاء العمال غير قادرين على التدرب على استخدام الحوامل والمرافع والمجارف وعربات اليد [المزودة بعجلة واحدة من الأمام وبمقبضين من الخلف لرفعها] . آه! كيف كانوا يحمّلون عربة اليد؟ « كان أحدهم يمسك العجلة ويمسك آخران عريشي العربة المليئة، ويقوم الأبطال الثلاثة بحمل العربة بحمولتها في زهو...وتستطيع أن تدرك أنه في ظل عادات كهذه كانوا يفضلون العودة إلى استخدام الأسلوب البسيط الذي يستخدمونه في أعمال إقامة السدود لحجز المياه. بالإضافة إلى أن الاستحمام في مثل هذا المناخ في المياه المالحة ليس أمراً بغيضاً ولا ضاراً بالصحة. وقد انتهى الأمر بترك هؤلاء العمال يعملون بطريقتهم وهم ينجزونه بنشاط وحمية. نعم! إنهم يغنون، ويترششون بالماء، ويضحكون إلى حد إظهار أسنانهم البيضاء التي يتطلع إلي مثلها العديد من النساء الجميلات اللاتي نعرفهن(٢)» .

وبعد مضي سنوات يقدم لنا ڤوازان بك Voisin كبير مهندسي الأعمال رؤية أخرى أقل بهجة عن مواقع العمل(٣) . لقد وقعت حالات فرار خلال عام ١٨٦٠ لأن العمال الذين يحصلون على أجر يتناظر مع إنتاجهم يكسبون بالكاد ما يكفي لتأمين غذاءهم. ومن أجل استخدام عمال علّقت إعلانات في القرى تشدد على جودة الشروط المعروضة، وتوضح أنه

1. Olivier Ritt, *Histoire de l'isthme de Suez,* Paris, Hachette, 1869.
2. *Ibid.*
3. Voisin bey, *Le Canal de Suez,* Paris, 1902-1906.

«محظور تماماً على أي أوروبي إساءة معاملة العمال العرب». الواقع أن مواطنين مكلفون بتأمين النظام كانوا يضربون هؤلاء العمال بالعصا أو بالكرباج على غرار ما كان سائداً حينذاك في مصر كلها. وكان الفرنسيون لا يقاومون هذا الأمر. ويجدون أنفسهم دائماً يقومون بتبرير هذا التصرف أمام السائحين العابرين. وقد استمع الرسام نارسيس بيرشير Narciss Berchère أثناء زيارته لموقع العمل إلى مرشده السياحي يقول له: «الفلاح يشبه زوجة «سجاناريل» [إحدى شخصيات الكاتب المسرحي الفرنسي موليير] : إنه يطلب ضربه. لكن حذار! إنه لا يطلب ضربه منا نحن لكن من نظرائه. فضلاً عن أن الشيء الذي يتفرنا هو اضطرارنا إلى تنفيذ العقوبة القاسية بأنفسنا ..إن مجموعات العمال-الفلاحين تصل هنا بصحبة ضباط وشيوخ. وتقع مسئولية تنفيذ العمل المطلوب على عاتق هؤلاء وهم بالتالي المسئولون عن توقيع العقاب القاسي...سوف اصطحبك إلى القرية العربية لترى جلد بقرة جميل ممدد على الأرض: إنه ساحة العدالة حيث يدلون بالحجج الأكثر إقناعاً. وسوف ترى إلى أي مدى يتقبل المتهمون عقابهم بطيب خاطر(٤)».

كان مصير الإعلانات الجذابة المعلقة في القرى -حيث لا يعرف أحد القراءة- الفشل. لجأت الشركة المحتاجة لأيد عاملة إلى الوالى الذي أمر حكام الأقاليم بتزويد الشركة بكتائب من الفلاحين. أمروا بإحضار الفلاحين بالقوة الجبرية من جميع أنحاء مصر. ويقول ڤوازان بك: « وبدءاً من يناير ١٨٦٢ حل نظام السخرة بحصر المعني مكان الأسلوب السابق في استخدام العمال(٥)» .

كان يجري تنفيذ ثلاثة مشروعات، في آن واحد، إذ يتم إنشاء ميناء پورسعيد على البحر المتوسط، وحفر القناة الملاحية التي تربط هذا الميناء بمدينة السويس على البحر الأحمر، ثم حفر قناة أخرى للمياه العذبة بدءاً من النيل لتزويد المعسكرات. والواقع أن التزود بالمياه الصالحة للشرب كان أحد الموضوعات الأكثر إلحاحاً، لأن مئات الجمال التي تنقل براميل المياه لم تكن كافية لتأدية المهمة.

وفي هذه المرحلة الأولى كان يتم تنفيذ الجزء الأساسي من العمل بأيدي الرجال حتي وإن كانت بعض الجرافات التي أحضرت بصعوبة عن طريق البحر تعمل بنشاط في پورسعيد. كانت هذه المدينة الوليدة تضم ألفي نسمة في ربيع عام ١٨٦١ . تم بناء مساكن بها وأقيمت عدة ورش وورشة آلية لنشر الخشب وماكينات لتقطير المياه المالحة. وبالرغم من الانتهاء من تشييد الحوض والرصيف العائم إلا أن العديد من السفن التي تحمل المؤن كانت لا تزال تغرق.

4. Narcisse Berchère, *Le Désert de Suez, cinq mois dans l'isthme*, Paris, 1862.
5. Voisin bey, *Le Canal de Suez, op. cit.*

ولا تفتر حمية النشاط في داخل البرزخ حيث بدأ العمل في تسعة مواقع جديدة يقع بعضها في وسط الصحراء. إن آلاف الأشخاص منهمكون في الحفر بالمعول في الخندق ذاته، ويتم تحميل التراب الذي يرفعونه في المقاطف. ونرى على الدوام صفوفاً طويلة من الرجال تتسلق الحواف الوعرة التي وضعت عليها ألواح خشب أعدت كسلالم.، في حين تقوم صفوف أخرى بالهبوط حاملة للمقاطف الكبيرة الفارغة. وينشط هذا المحشر البشري أثناء الليل أيضاً على ضوء مئات المشاعل وأنغام الأغاني التي يبدأ الملاحظون في إنشادها.

وفي يوم ١٠ يونيو ١٨٦٠ ولد أول طفل فرنسي في البرزخ. سمي فردينان – سعيد.

تحكيم الإمبراطور

وفي عام ١٨٦١ اختارت الأكاديمية الفرنسية موضوع شق قناة السويس لمنح جائزتها السنوية في الشعر. وخاض ١٧٢ مرشحاً المعركة التي فاز فيها هنري دي بورنييه. دعي بورنيو غير المشايع للرصانة إلى قراءة قصيدته تحت قبة الأكاديمية. بدأ بالحديث عن تاريخ متشابك ومعقد في القرون الوسطى عن والٍ قام بتحويل القناة القديمة إلى خندق عفن وقذر إلى أن وصل إلى الوالي المستنير الذي حصلت عليه مصر وقادها في النهاية إلى النصر العظيم. ودعى عمال فرنسا إلى بناء الطريق المائي الجديد من أجل العالم، فقال :

إلي العمل؛ أيها العمال الذين تدفعكم فرنسانا
شقوا، للعالم، هذا الطريق الجديد.
آباؤكم الأبطال وصلوا إلي هنا
فكونوا حازمين مثل أولئك البواسل.
مثلهم تحاربون عند أقدام الأهرام،
وستتأملكم أيضاً آلافها الأربعة!

وكان ديلسبس الذي لا يكل يجيء لزيارة برزخ السويس بانتظام مرة بين كل رحلتين إلى أوروبا، لكي يفحص الأعمال الجارية وينشط الطاقات ويفض المنازعات. كان يستخدم عربة غريبة ذات عجل كبير تجرها أربعة جمال، وقام بول ميروو قنصل فرنسا السابق الذي رافقه في بعض رحلاته بوصف عربة فردينان وموكبه فقال: «قد نظن أنها عربة من العصور القديمة يركبها أحد الآلهة الوثنيون، طالما أن الموكب المحيط به غفير نشيط ومتألق».

وفي يوم ١٢ نوفمبر ١٨٦٢ وصلت المياه الأولى بالقناة الملاحية الجديدة إلى منتصف البرزخ وبدأت تملأ بحيرة التمساح. أقيم احتفال كبير حضره أعيان مصريون

وعلماء دين ومطارنة والعديد من قناصل الدول. وأعلن فردينان ديلسپس وهو يعطي إشارة إلى العمال المسلّحين بالمعاول: «باسم صاحب الجلالة محمد سعيد أُصدر أمري بدخول مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح بفضل الله ونعمته.» وكانت أنغام الموسيقى العسكرية وأصوات طلقات البنادق تغطي على صخب المياه الفائرة التي تكتسح بقايا السد مسرعة إلى هذا الحوض الشاسع المصاب بالجفاف منذ آلاف السنين...

وبعد مضي عدة أسابيع أصيب ديلسپس بالهلع حين علم بأن سعيد باشا مشرف على الموت. أسرع إلى الإسكندرية ووصل القصر بعد وفاة صاحب الفضل عليه. كان حزيناً وقلقاً. فإذا ما كان إسماعيل الوالي الجديد أكثر «تأورباً» من عمه إلا أنه ليس معروفاً بحماسه لمشروع قناة السويس. وكانت أول كلمة يدلي بها الوالي الجديد أمام القناصل الأجانب كفيلة بإثارة قلق شركة القناة إذ أنه انتقد مبدأ السخرة. وطلب ديلسپس من إسماعيل أن يشرح له معنى تصريحه فأجابه بحماس مشوب بالغموض: «لا يوجد من هو أكثر حماساً للقناة مني، لكنني أريد أن تكون القناة لمصر، وليست مصر للقناة.» واستمرت الأعمال في القناة وكأنه لم يحدث شيء.

واقترح ديلسپس إطلاق اسم «الإسماعيلية» على مدينة التمساح الوليدة والمؤهلة لأن تصبح ميناءً داخلياً. كانت هذه مناسبة لإقامة احتفال جديد أدلى فيه ديلسپس بكلمة بارعة: « بدأنا القناة مع محمد سعيد، وسوف نستكملها مع إسماعيل. وعلى هذا سيتم بدءاً من اليوم إحلال اسم الإسماعيلية مكان اسم التمساح، وليكن توحُّد مياه البحر المتوسط مع مياه البحر الأحمر هو أيضاً توحيد في المستقبل لاسمي سعيد وإسماعيل العزيزين على قلوبنا!»

وفي ربيع عام ١٨٦٣ عادت القسطنطينية إلي الهجوم، وطلبت القضاء علي السخرة في برزخ السويس وذلك لأسباب إنسانية، وحتى ذلك التاريخ كان اهتمام السلطات العثمانية بمصير الفلاح المصري خافياً على الجميع...لكن يجب أخذ هذا المطلب في الحسبان الذي بطبيعة الحال يجد صدى له في لندن حتى وإن كان فردينان ديلسپس قد بين أن مشروعه أكثر إنسانية بكثير من تشييد خط السكك الحديدية الإسكندرية–القاهرة–السويس الذي «يقوم على آلاف الجثث المصرية». ألم تقدم الشركة خدمات طبية واجتماعية؟ إن الإحصائيات السنوية التي تنشرها الشركة تبين أن معدل الوفيات لديها أقل من أي معدل آخر في جميع المشروعات التي أقيمت في مصر: يذكر تقرير الدكتور أوبير روش رئيس الأطباء أنه خلال الفترة من مارس ١٨٦١ إلى مارس ١٨٦٢ بلغت حالات الوفاة ٢٠

حالة بين ألف و٢٥٠ موظف أوروبي و٢٣ حالة بين سكان عرب يبلغون ١٢٠ ألف و٩٣٣ نسمة. وهذا يعني أن القناة تقتل من بين المصريين ما يقل مائة مرة عما تقتله من الأجانب...هل تكفي الظروف المناخية التي لم يتعود عليها الأجانب لتفسير مثل هذا الاختلاف؟ يبدو أنه لا يوجد من يستطيع تأكيد الأرقام التي تنشرها الشركة التي -مع ذلك- يصفها أحد الباحثين بمركز البحوث القومي الفرنسي بأنها معقولة(٦).

وعندما عاد نوبار باشا إلى السلطة كوزير للخارجية لدى إسماعيل باشا جعل من الغاء السخرة مرجعيته وطالب بإعادة طرح الاتفاقيات المعقودة للبحث والتفاوض. فمن غير المقبول أن يتم تعبئة ٢٠ ألف عامل بصفة دائمة، يصلون في الواقع إلى ٦٠ ألف، إذ يضاف إليهم أولئك الذين يحضرون إلى المواقع وأولئك الذين يغادرونها لفترة قد تمتد من أسبوعين إلى عشرين يوماً. ويقول نوبار: «كان سكان مصر محكوماً عليهم أن يعطوا الشركة بالمناوبة بين شهرين وثلاثة من وقتهم ومن عملهم ومن حياتهم بلا أي مرتب؛ لأنه بالرغم من الاتفاق الجاري الذي بموجبه يجب دفع فرنك عن كل يوم عمل إلا أن الشركة كانت تطردهم بلا أي مرتب بل وحتى يدفعون ثمن الغذاء على حسابهم(٧)».

اغتاظ ديلسبس، وتفاقم الموضوع. ذهب نوبار إلى باريس وطلب تحكيم نابليون الثالث. تحكيم غريب! إنه إمبراطور الفرنسيين الذي يقوم بالبت في خلاف بين مصر وفرنسيين...عقد نابليون الثالث لجنة لدراسة الموضوع، وبعد أن حصل على نتائج دراستها أصدر حكمه في وثيقة طويلة. يمكن لكل طرف من الطرفين أن يجد في الوثيقة ما يرضيه. طلب من الشركة التخلي عن كتائب العمال المصريين. ويجب عليها كذلك إعادة قناة المياه العذبة و٦٠ ألف هيكتار [حوالي ١٤٨ألف فدان] من الأراضي المروية جزئياً إلى مصر. وتتلقي الشركة مبلغ ٨٤ مليون فرنكاً كتعويض. وقد منح هذا التحكيم للشركة ضماناً رسمياً سيتيح لها في النهاية الحصول على موافقة السلطات العثمانية.

وفرغت مواقع العمل. غادر العمال عائدين إلى قراهم على مرأي من المهندسين الفرنسيين. تم إحلال عمال أوربيين ومشرقيين أجورهم مرتفعة للغاية مكان الفلاحين المصريين، وتم بخاصة إحضار ماكينات ضخمة صنعت في فرنسا خصيصاً لشق هذه القناة وسط الصحراء.

وبدأت مغامرة جديدة في ظل البخار الساحر.

6. Serge Jagailloux, *La médicalisation de l' Égypte aux x1xe siécle, 1798-1916*, Paris, Recherche sur les civilisations, 1986.

7. Nubar Pacha, *Mémoires*, introduction et notes de Mirrit Boutros-Ghali, Beyrouth, 1983.

(٦)

المعرض العالمي

إذا لم تذهب إلى مصر، فمصر ستحضر إليك... إن الأغلبية العظمى من الفرنسيين في عهد الإمبراطورية الثانية لم يذهبوا إلى وادي النيل، ولم يكن هناك أي احتمال بأنهم سيتمكنون من الذهاب إليه. وقد أتاح لهم المعرض الدولي المقام عام ١٨٦٧ فرصة رؤية بلاد الفراعنة. كانت أجنحة الشرق هي التي تستهوى السبعة ملايين نسمة الذين سارعوا إلى زيارة هذا المعرض المقام بساحة شان دي مارس بباريس. وكانت مصر -التي منحت حوالي عشرين ميدالية- تحتل في أجنحة هذا الشرق الساحر المكان الأول بلا منازع.

وصل إسماعيل باشا إلى باريس لحضور افتتاح المعرض، وكان مكللاً بهالة لقب جديد هو لقب «خديو» الذي فاوض مولاه سلطان القسطنطينية بشأنه طويلاً. إن أحداً في مصر لم يكن يعرف تماماً معنى هذا اللقب الذي يبدو أنه يعني في اللغة الفارسية «المَولى». إنه أكثر رفعة وسمواً من لقب «الوالي» الذي ينطوي على فكرة التبعية. وقد دفع إسماعيل باشا -حفيد محمد علي- مبلغاً كبيراً أيضاً للحصول على حق توريث الحكم وفقاً للنسب المباشر لأعضاء أسرته. هكذا تولى من بعده ابنه الأكبر توفيق ما أصبح يسمى بعرش مصر.

وكانت لدى فرنسا جميع الأسباب التي تدعوها إلى استقبال الباشا بأبهة وفخامة، فهو ناطق بالفرنسية، ومحب لفرنسا وخريج مدرسة سان-سير العسكرية الفرنسية. قامت سفن الأسطول الفرنسية المزينة بالأعلام باستقبال «المحروسة» حين رست بميناء طولون يوم ١٥ يونيو ١٨٦٧، بينما أطلقت مدفعية الحصون والقلاع نيرانها بلا انقطاع. وكان البارون أوسمان Haussmann حاكم السين في استقبال الخديو عند وصوله باريس. وفي فناء محطة ليون [إحدي محطات السكك الحديدية بباريس] وقفت كتيبة تابعة لفرقة المشاة

الثالثة والأربعين لتحية الضيف الكبير. واستقل إسماعيل باشا وحاشيته خمس عربات تابعة للبلاط الإمبراطورى مزينة بالكسوة الرسمية متجهين إلى قصر التويلرى في حراسة حاملي الرماح بالحرس الإمبراطوري. وأُدخل الخديو إلى صالون القنصل الأول حيث كانت تجلس الإمبراطورة «ومن حولها كبير فرسان القصر ورئيس مدربي الخيول ورئيس الصائدين بالكلاب والقائد الأعلى للحرس الإمبراطوري ووصيفة الإمبراطورة وبعض الضباط وسيدات الخدمة[1]...» كان الإمبراطور يعاني من آلام روماتيزمية ولهذا لم يحضر الاستقبال. لم يكن مرضاً دبلوماسياً. وبعد مضي عشرة أيام دعى نابليون الثالث ضيفه إسماعيل باشا الذي أقام في مقصورة مارسان لكي يجلس إلى يمينه لاستعراض حامية باريس. ودعاه إلى الغذاء في سان-كلو حيث رافقه بنفسه في جولة بقصر فرساي، ثم ذهب فيما بعد لزيارته في المعرض برفقة أسرته.

درس في المصريات

احتل الجناح المصري الذي أسندت إقامته إلى مارييت ٦٠٠ متر مربع . واشتمل على عدة مبانٍ توضح مصر الفرعونية، والإسلامية، والحديثة في آن واحد. تم تعبئة حشد كبير من العلماء والمهندسين والمزخرفين ليجعلوا منه عملاً تعليمياً بل ومبهراً. وقال عنه إدمون آبو About [كاتب فرنسي ١٨٢٨-١٨٨٥] : «هذا العرض الفاخر يخاطب الروح كما يخاطب العينين: لقد عبَّر عن فكرة ماهرة[2]».

وابتغى المبنى الأول أن يكون توليفاً بين الإمبراطورية القديمة والجديدة، إذ شيد على نمط معبد فيله والنمط البطليموسي أيضاً. وكان ماريبت قد قام بعدة رحلات إلى صعيد مصر لكي يرسم أدق التفاصيل. وكلفه هذا العمل مناقشات عديدة مع المهندسين، مثل المناقشة التالية التي رواها بدعابة:

«كان الحوار التالي يدور بيني وبين مسيو شميتز في كل لحظة:

– مسيو ماربيت، ألا يبدو لك أن هذا الخط سيكون أكثر أناقة لو كان مستديراً من أعلى؟

–مسيو شميتز، لا تنزعج، لقد صنع المصريون هذا الخط مسطحاً؛ فإذا كان فظاً فهم المسئولون لا نحن.

1. Georges Douin, *Histoire du régne du Khédive Hsmail,* Rome, 1933-1938, t.11.
2. Edmond About, *Le Fellah,* Paris, 1869.

– ومع ذلك يا مسيو ماريت فإنه من المسلّم به أن الخط الذي يبدأ بهذه الطريقة لا يمكن أن ينحرف فجأة لكي ينتهي بهذه الطريقة المخالفة. فالذوق الجيد...

– مسيو شميتز، ضع الذوق الجيد في جيبك. نحن نقيم عملاً مصرياً قديماً وكان المصري القديم يضع على منظر جانبي للوجه العينين الظاهرتين على منظر الوجه الأمامي وكان يغرز الأذنين في أعلى الجمجمة مثل الريشة التي فوق رأس الحرس الوطني. إنها غلطة يسأل عنها المصري القديم(٣)...»

كان المعبد المقام في المعرض بناءاً من الجبص المخلوط بالرمل الملصوق لتقليد الحجر الرملي. ويوجد ممر من تماثيل «أبو الهول» يؤدي إلي مدخل المعبد الذي غطيت حوائطه بالحروف الهيروغليفية. ونعبر أعمدة زينت تيجانها برأس الإلهة حتحور قبل أن نمر تحت أعمدة الواجهة المزينة بثلاثة نصب أحضرت من معبد أبيدوس. أما البهو الداخلي فقد زين بأسلوب مقابر تي وبتاح–حوتب. ويصف شارل إدمون Charles Edmond هذا المشهد بقوله: «حين يخطو الزائر أربع خطوات فإنه يكون قد شق طريقه عبر أربعين قرناً مجسّدة بمعمارها ونحتها ورسومها(٤)».

لم يقنع ماريت بالاستنساخات وبالقوالب المصبوبة فأحضر من متحف بولاق في مصر عدداً من التحف الثمينة مثل مجوهرات آح–حوتب، والبقرة حتحور، وتماثيل إيزيس وأوزيريس وتمثال خفرع الذي يحمي الصقر رأسه. وقد عادت بعض هذه التحف إلى مصر في حالة سيئة: تحطم تمثال الملكة آمينيريتس في باريس وتشوه وجه شيخ البلد بسبب صب قالب له خفية(٥)...

وفي الدور الأول من مبنى حديث تم عرض ٥٠٠ جمجمة للمومياوات معروضة بترتيب الأسر. وإذا ما كان ماريت قد أراد أن يجعل من الجزء القديم «درساً حياً في الآثار»، إلا أنه بالأحرى درس في الأعمال. فحين يقوم الخديو بعرض جميع منتجات مصر وجميع الثروات الموجودة فوق أراضيها وتحتها فإنه يدعو التجار ورجال الصناعة إلى الاستثمار في بلاده. كان هذا الجزء نوعاً من القيسارية المستلهمة من وكالة أسوان تضم مقهى عربياً ودكاكين بها صياغ وسرّاجون وحصريون [صناع الحصير] وصناع الشُبُك [غليون تركي قديم] المنهمكون في أعمالهم تحت بصر الجمهور. لقد حقق الجناح المصري نجاحاً عظيماً. وصارت مصر لا تضاهى بالنسبة لمعروضات المصنوعات اليدوية.

3. Lettre à Charles Edmond, commissaire de l'Exposition, Le Caire, juillet 1866.
4. Charles Edmond, *L'Égypte à l'Exposition universelle de 1867.* Paris, 1867.
5. Henri Wallon, *Notice sur la vie et les travaux de Mariette pacha,* Paris, 1883.

وامتلأت الصحف الباريسية بالتفاصيل المثيرة والجذابة عن الجناح المصري. لم يكن تيوفيل جوتييه [كاتب فرنسي ١٨١١-١٨٧٢] هو آخر من افتتن أمام «هذا الاستعراض الشرقي العذب» حيث «لا بد وأن يجد التجار والزوار الراحة والهدوء والحيوية». وبعد مسافة قليلة ينضم جوتييه إلى الأطفال الذين يتدافعون نحو الاصطبل لرؤية جملين «حيوانان فاتنان جلدهما أبيض يتمتعان برشاقة عجيبة ولكل منهما عنق طويل معقوف تهتز فوقه رأس صغير ظريف بها عينان واسعتان كعيني الغزال»[٦].

وأمام الجناح المخصص لقناة السويس كانوا يصطفون في طابور. وكان فرديناند ديلسيبس يشرح بنفسه المشروع بالاستعانة بخريطة ضخمة مجسمة تظهر عليها نماذج مصغرة للجرافات والصنادل المسطحة والعربات القلابة. وكانت توجد «ديوراما» [لوحة أفقية رسمت عليها مشاهد وأشكال تسلط عليها أضواء متنوعة وفقاً لما كان سائداً في القرن التاسع عشر] صنعها مدير الأوبرا وتبين مراكب صغيرة بدأت بالفعل تعبر جزءاً من البرزخ. وبطبيعة الحال أن تحصل الشركة على إحدى ميداليات المعرض الذهبية على جناحها هذا.

واستقبل الخديو باريس كلها في مبنى من الطراز العربى مزخرف ببذخ. ندخل هذا المبنى من باب ذي مصراعين مغطى بالأرابيسك ومزين بالعاج والأبنوس والبرونز. بعض تكسيات الجدران الخشبية أحضرت من قصور القاهرة. وتتدلى من السقف ستة من قناديل الجوامع ويرى الزوار قرآناً فخماً مزخرفاً ومجلداً بجلد ماعز أحمر اللون. الرخام في كل مكان ومن جميع الألوان. وقد افتتن أعيان باريس بحفيد محمد علي الذي يتحدث معهم وهو جالس على أريكته يدخن النارجيلة. وقالت جريدة «لو مونيتور» عنه: «يتحدث إسماعيل باشا اللغة الفرنسية بأسلوب صحيح تماماً وبدون أى لكنة».

تفكيك قماط مومياء

حصل بعض المحظوظين -علماء وأطباء وكتاب وفنانين- على حق حضور جلسة عقدت في قاعة المجموعات الأنثروبولجية لفك قماط مومياء. وكتب الأخوان جونكور Goncourt [أخوان مؤرخان وكاتبان] في مذكراتهما وصفاً مذهلاً لهذه الجلسة: «ألقيت المومياء التي سيقومون بفك قماطها فوق منضدة بالعرض. ومن حولها تجمع أصحاب الردنجوت ذي الأوسمة. وبدأوا في عمل لا ينتهي وهو فك النسيج الملفوف حول اللفافة

6. Théophile Gautier, *L'Orient*, vol. 11.

المتصلبة. إنها سيدة عاشت منذ أربعة آلاف عام مضت...وهم يفكون ولا زالوا يفكون دون أن يبدو على اللّفافة بأنها تتضاءل، أو نشعر باقترابنا من الجسد. يبدو على نسيج الكتان كأنه يتجدد وبأن المساعدين سيظلوا يفكونه إلى ما لا نهاية. وبعد قليل وضعوا المومياء على قدميها من أجل الإسراع في الفك الذي لا ينتهي لكنها ارتطمت بالمنضدة فأحدثت صوتاً خشناً وكأن قدميها من خشب. ورأيناها تحوم وتستدير وتهتز بشناعة ثم توقفت بين أذرع المساعدين الملهوفة. أعادوا إضجاعها فوق المنضدة واستمروا يفكونها...» وتحت كل إبط لهذه الملكة الميتة كانت توجد زهرة. وقد علق الكاتب تيوفيل جوتييه في جريدة «لوريان» بأنها «زهور عمرها أربعة آلاف عام».

وتأمل الأخوان جونكور الحاضرين ليتفحصونهم بحثاً عن الأوصاف التي يدونونها في مذكراتهما مساء اليوم نفسه. ألم يلحظ ماكسيم دي كان وميضاً لامعاً تحت ذقن الجثمان؟ وها هو يسرع «إنه يصرخ: عقد! ويغرز المقص ليخرج قطعة صغيرة من الذهب عليها كتابة منقوشة ومقصوصة على شَكل الصقر...» وتستمر العملية فتنهال المقصات والسكاكين على هذا الجسد اليابس حتي يكشفون عن الصدر. «وجاء ألكسندر دوما الإبن لكي يمثل هنا ذكاء القرن التاسع عشر ولكي يبحث عن مزحة لكنه لا يجدها فيرحل عن المكان. وحين انتزعوا آخر شريط عن الوجه اكتشفنا فجأةً عيناً حيَّة أثارت الخوف. وبدت الأنف فطساء ومهشمة ومسدودة بالتحنيط: وظهرت ابتسامة رقاقة ذهبية على شفاه الوجه الصغير الذي يعلو جمجمته شعر قصير وصغير لا يزال رطباً ومبتلاً بعرق سكرات الموت.» واختتم الأخوان جونكور بقلمهما المخيف قائلين: «كانت هناك ممدة فوق هذه المنضدة، مهانة ومذلَّة. كانت حرمتها مكشوفة للضوء وللأنظار في وضح النهار. كنا نضحك، وندخن، ونتسامر». يا له من لقاء مصري–فرنسي غريب...

وكان من حق أسرة الإمبراطور أيضاً مشاهدة فك قماط مومياء. وفي يوم ٢٨ يونيو عقدت جلسة على شرف الأسرة لفتح مومياء عمرها ٢٧ قرناً. كان الأمير الإمبراطوري شغوفاً بصفة خاصة بهذه العملية: قام بنفسه بفك جزء من الشرط...كانت أمه الإمبراطورة أوچيني «المعروف عنها نسبية الكياسة طلبت بلا مواربة من إسماعيل باشا أن يمنحها مجوهرات آح–حوتب. وقع الخديو في حيرة أمام هذه الجرأة الفاتنة وبما أنه لا يستطيع الرفض الصريح أجابها قائلاً: «يوجد من هو أقوى مني في بولاق. إنه الرجل الذي يجب أن تلجأي إليه.»

وعندئذ بدأ نشاط مكثف حول ماربيت(٧)...». رفض الحارس على تراث مصر صراحة،

7. Élisabeth David, *Mariette pacha,* Pygmalion, 1994.

بالرغم من أنهم أغروه بمنحه لقب أمين متحف اللوفر ومخصصات هذا المنصب ويقول ماسبيرو Maspero [جاستون ماسبيرو عالم مصريات فرنسي وخليفة مارييت كمدير لمتحف بولاق]: «لم يخف على ماريت ولو للحظة واحدة أن رفضه مجاملة الإمبراطورة قد أضعف مركزه كثيراً، لكنه لم يأسف إطلاقاً على ما فعله. من المؤكد أنه كان يحب أن يرى في اللوفر الصروح التي أحبها أكثر من أبنائه، لكن فرنسا قد منحته إلى مصر لكي يحافظ على الآثار القديمة فوق الأرض التي حملتها: كان واجبه هو الدفاع عن هذه الآثار بإخلاص ضد الجميع حتى وإن كانوا من مواطنيه(٨)...»

سخاء عاهل شرقي

بدلاً من المجوهرات الفرعونية منح إسماعيل أسرة الإمبراطور «دهبية» فاخرة أحضرها خصيصاً من مصر. كان هذا المركب الكبير ذو الأشرعة مثلثة الشكل راسياً بالقرب من كوبري «دييناء» بباريس طوال فترة المعرض وكان قد تم قطره من الإسكندرية إلى مارسيليا ثم سلك قنوات وأنهار حتى وصل إلى باريس. وعرف الفرنسيون من الصحف أن الأميرة ماتيلدا Mathilde [ابنة چيروم بونابرت ١٨٢٠–١٩٠٤] صعدت فوق هذه الدهبية وأبحرت في نهر السين حتي سان–كلو باستخدام المجاذيف وفي حراسة ١٢ نوبياً يرتدون زياً رسمياً فاخراً.

وكانت الصحافة الفرنسية تتابع أخبار هذا العاهل الشرقي الجديد الذي لا يشعر بالغربة في باريس. كانوا يرونه في كل مكان: في المتاحف، وفي الأوبرا، وفي حديقة حيوانات البلاد الحارة، كما في سباق الحواجز في سان–ڤانسن. كانوا معجبين بسلوكه وعاداته المبهرة وبدعابته. وتروي جريدة «الفيجارو» كيف أنه «خلع طربوشه فجأة وأخرج قبعة مرنة من تحت معطفه لكي لا يفطن إليه أحد.» وكان التجار يتمنون زيارته لهم. ألم يطلب خلال زيارة واحدة لأحد الترزية ١٤ دستة بنطلونات و٨ دستات من الصديريات والعديد من السترات والمعاطف الردينجوت المتنوعة؟

وبعد انتهاء المعرض العالمي ذهب إسماعيل إلى العلاج في ڤيشي، وهناك أيضاً لم يخف على أحد. كان إسرافه يهز المشاعر. قام بتعويض صراف وقع ضحية لحادث سرقة، وأمّن دخلاً دائماً لطفل يتيم، بل وقام حتى بالتبرع لكنيسة يجري تشييدها...وبعد عودته

---

8. Gaston Maspero, AMariette (1821-1881)S, in *Bibliothèque égyptologique.* !8, 1904.

إلى باريس من زيارة رسمية قام بها إلى بريطانيا منح ٢٠ ألف فرنكاً للفقراء وقدم منحة دراسية لأحد الطلبة ثم منحة دراسية ثانية، كما قام ببعض المشتريات وقد اشترى بنوع خاص ٨٠ ثوباً لحريمه[٩]. وذكر محررو أخبار المجتمع أنه شاهد مسرحية «جراندوقة دي جيرولشتاين» ثلاث مرات التي تقوم ببطولتها مدموزيل شنايدر عشيقته خلال وقت قصير. إنه ليس أول من أقام علاقة مع هذه السيدة الجميلة فقد كانوا يسمون مقصورتها في كواليس المسرح «معبر الأمراء»...

ولقي إسماعيل في الإسكندرية استقبالاً حماسياً حيث ظلوا ثلاثة أيام يطلقون الألعاب النارية ويقيمون إضاءة الزينات. وفي يوم ١٣ سبتمبر عام ١٨٦٧ أعلن رسمياً أمام القناصل العامين الذين جاؤا للترحيب بعودته ولتهنئته بلقب الخديو: «سوف اجتهد لأمنح مصر الرفعة والرفاهية.» لقد وضع برنامجاً كاملاً كما سنرى!

9. Georges Douin, *Histoire du règne du khédive Ḥsmail,* op. cit.

(٧)

إسماعيل العظيم

ما أكثر ما استشهدوا بقول الخديو إسماعيل: «لم تعد بلادي في إفريقيا، نحن قطعة من أوروبا»! وفي الأعوام ١٩١٠، أي بعد وفاته بكثير كان هذا القول يظهر كل يوم في الصفحة الأولي من «چورنال دي كير» أحد أهم الصحف اليومية الناطقة بالفرنسية التي تصدر في العاصمة المصرية. فهل أدلى إسماعيل حقاً بهذا التصريح؟ على أي حال إنه يتوافق تماماً مع عقليته في سبتمبر ١٨٦٧ كان كل شيء في ذلك الوقت يحثه على منح مصر «السمو والرفعة»: لقب خديو الذي يحمله، وضمان توارث أسرته لعرش مصر، والاستقبال الذي لقيه فى كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وما رآه في پاريس التي تحظى بتغيير كامل بفضل أوسمان Haussmann [سياسي فرنسي قام بتجميل پاريس وإحداث تغييرات أساسية فيها ١٨٠٩–١٨٩١]*

وسرعان ما تجلى التغيير. ففي قصر رأس التين بالإسكندرية ظهر خدم جدد: خدم يرتدون سراويل قصيرة ويرتدون زياً موحداً أحمر أو ذهبي اللون. ويقف أمام مدخل الشقق السكنية بالقصر حاجب يرتدي زياً أسود ويضع سلسلة فوق صدره ويحمل سيفاً في جانبه. وبعد قليل رأينا صاحب الجلالة يركب عربة مكشوفة تجرها خيول ترتدي لباساً فرنسياً ويقودها حوذيون. ولم يعد السوّاس الذين يسبقون العربة حفاة الأقدام، بل أصبحوا سواساً يركبون الخيل.

وقد كتب قنصل فرنسا: «إن نائب–الملك يتقارب كثيراً مع الجالية الأوروبية ويفعل كل شيء من أجل تحبيذ عادات وممارسات أوروپا. ففي القاهرة تخرج زوجاته وبناته في عربات مغلقة أو مفتوحة مثله، ويقود هذه العربات التي من أحدث طراز حوذيون فرنسيون أو إنجليز يرتدون قبعات ويضعون حلية الشعر، ويسير الخدم خلفهن وترافقهن وصيفات ترتدين

---

* نود التذكير بأن كل ما بين القوسين [ ] هو إضافة من المترجم.

أحدث الأزياء.» وأورد القنصل الفرنسي سراً أباح به إسماعيل لأحد وزرائه: «أريد أن أفعل كل شيء لإحضار الموجة الأوروبية إلى مصر. إنها وحدها التي تستطيع دفعنا ومساعدتنا على إدخال المدنية إلى مصر.»

كان الفرنسيون المارون بمصر والذين يدعون إلى تناول طعام الغذاء بقصر عابدين يشعرون كأنهم في بلادهم. ويقول أحد هؤلاء الزوار: «في الساعة الثانية عشر نجلس إلى المائدة لتناول الغذاء. إنهم يقدمون الطعام بنفس الطريقة الپاريسية وبأناقة، وهو طعام جيد مصنوع بالطريقة الفرنسية بلا بذخ زائد. ولا توجد على المائدة من الأطعمة الشرقية سوى «البيلاف» [الأرز باللغة التركية] الطبق الوطنى الذى نجده يومياً على مائدة الخديو. ويقدمون نبيذاً ممتازاً مثلما يحدث في فرنسا...وبعد الغذاء ننتقل إلى الصالون لتناول القهوة والسيجار[1].» وإذا كان المدعوون المصريون يرتدون «الاستامبولي» التركى (سترة ذات ياقة ضيقة ويتم تزريرها من أعلى إلى أسفل) مثل الخديو ويضعون الطرابيش فوق رؤوسهم، فإن خدم المنزل يتباهون بأزيائهم الموحدة الخضراء وسراويلهم الحمراء وجواربهم الحريرية البيضاء. وبطبيعة الحال أن «الأوربة» لا تمنع الخديو من الاحتفاظ بحريمه وبخصيانه، وبأن يعامل الفلاحين الذين يستخدمهم –أو يستولي عليهم– للعمل في ممتلكاته كعبيد.

القاهرة بأسلوب أوسمان

أثارت المبتكرات الحضرية في پاريس اهتمام إسماعيل . إنه يود كثيراً أن تستلهم القاهرة هذه المبتكرات لكي تقدم صورة أفضل إلى المدعوين الأجانب أثناء افتتاح قناة السويس المحدد له عام ١٨٦٩ . وقد دفعه هذا إلى متابعة التحديث الذي بدأه منذ وصوله إلى السلطة، بل وأيضاً إلى اتخاذ قرارات جديدة.

طلب من ليبون Lebon الفرنسي إضاءة القاهرة بالغاز بعد أن أنجز ذلك في الإسكندرية. وفي عام ١٨٦٥ حصل فرنسي آخر هو كورديبه Cordier على حق توزيع المياه في العاصمة المصرية. وكان من بين أوائل الأحياء التي استفادت من هذه المبتكرات حي الإسماعيلية [منطقة وسط القاهرة اليوم] الذي يحمل اسم مؤسسه. لقد أراد الخديو استغلال الأراضي المهجورة الشاسعة الواقعة بين الأزبكية والقصور التى على

1. F. de Carcy, *De Paris en Égypte. Souvenirs de voyage*, Paris, 1875.

ضفة النيل: تم تسوية هذه الأراضي وتقسيمها إلى قطع أعطيت مجاناً لكل من يتعهد ببناء عمارة في قطعته تتكلف ألفي جنيه على الأقل. حقق المشروع نجاحاً. ظهرت العديد من المنازل الموسرة. وبرزت شوارع ظليلة تتقاطع في زوايا مستقيمة أو منحرفة وتتلاقى في ميدانين رئيسيين. وليس هذا الحي ثمرة لنزوة حاكم عابرة فقط، بل هو نواة حقيقية لمدينة–حديثة[٢].

كان يمكن لإسماعيل أن يقتصر على مبادأت من هذا النوع، لكن جنونه بالعظمة جعله يذهب إلى أبعد. لقد قام في باريس بزيارة مواقع عمل أوسمان وتحدث مع العديد من المهندسين والمعماريين وبخاصة مع باريبه–ديشان Barillet-Deschamps الذي أنشأ غابة بولونيا. ولجأ إسماعيل إلى ديشان لكي يغير منطقة الأزبكية. إنها تضم حوالي عشرين فداناً تقع في قلب العاصمة، وكان فيضان النيل فيما مضى يغرقها خلال جزء من العام. وحينذاك تتحول المساكن الشرقية الفاخرة المحيطة بالمكان إلى قصور شبيهة بقصور مدينة فنيسيا، وتشهد البركة احتفالات بحرية وأضواء المشاعل. «وفي الشتاء حين تنسحب المياه يصبح المكان حقلاً أخضر تبرز فيه أشجار الجميز بأوراقها الداكنة[٣].» ومنذ قيام محمد علي بتجفيف البركة تحولت الأزبكية إلى حديقة ضخمة برية في قلب المدينة أثناء النهار ومكان خطر يرتاده اللصوص والأشرار أثناء الليل. وبدأ باريبه–ديشان كل شيء من الصفر ليصنع من المكان منتزهاً على الطريقة الپاريسية تحيطه سياج عالية من القضبان المعدنية، وتعبره الطرق المحفوفة بالأرصفة. اختفت الأشجار المهيبة لتحل محلها «فوانيس تتخذ شكل زهور لوتس عملاقة ذات ورقات تويجية من الزجاج الملون أما أوراقها فمصنوعة من المعدن المسبوك[٤]». أقاموا جدول ومساقط مياه، ومغارة، وكشك للتصوير الفوتوغرافي، ومحل مشروبات، وكشك لهواة الرماية، وخيول خشبية. ولا يوجد ما يذكرنا بأننا في مصر إلا بعض أشجار السنط الضخمة. وعند حلول موعد النزهة تصل إلى كشك الموسيقي فرقة موسيقي عسكرية تعزف أيضاً بعض الألحان الشرقية.

وأعد علي مبارك –مثقف نابه تعلّم في باريس– إعادة تنظيم حضري للقاهرة يصحبها تقسيم إداري جديد للعاصمة. لكن لم يكن أمام الخديو سوى عامين بالكاد قبل افتتاح قناة السويس. لم يكن لديه الوقت ولا الوسائل اللازمة لتغيير المدينة القديمة، فاكتفى بلصق واجهة أوروبية على بعض الأحياء. قاموا بشق الشوارع الكبيرة وبهدم مبان، وشيدوا

2. Marcel Clerget, *Le Caire,* 1934, t. II.
3. Arthur Rhôné, *Coup d"oeil sur l'état du Caire ancien et moderne,* Paris, 1882.
4. *Ibid.*

باستعجال شديد مبان جديدة على النمط الايطالي. أما المساجد القديمة التي شحبت ألوان جدرانها فقد أعيد دهانها بطريقة صارخة وبخطوط حمراء وبيضاء[٥]...

وكانت جريدة «لو پروجريه إچيسيان» الأسبوعية الناطقة بالفرنسية والتي أنشأها فرنسيون تسخر من جميع المبادرات بحرية مذهلة. كانت دعابتها اللاذعة وتلميحاتها تكلفها غضب الخديو وفرض العقوبات عليها، ولكن أمكنها الانطلاق خلال ثلاثة أعوام من عام ١٨٦٨ حتي عام ١٨٧٠ وإلى أن حلت صحف أخرى محلها. وفي ذلك الوقت قام يعقوب صنوع وهو يهودي مصري منفي إلى پاريس بإصدار جريدة «أبو نضارة» المزينة بالرسوم اللاذعة والتي تنقد سياسة إسماعيل بعنف.

لكن هل توجد أسباب معقولة تدعو الفرنسيين في مصر إلى التذمر؟ إن الخديو يوفر لهم جميع أسباب الراحة حتى من أجل قضاء أوقات فراغهم. ولكي يتلافى انعدام المسارح بمدينة القاهرة قام في بداية عام ١٨٦٩ ببناء مسرح خلال بضعة أسابيع. حجزت بالمسرح الجديد أربعة ألواج للعاهل ولحريمه. تم إحضار كراسي الاوركسترا من پاريس وكذلك ستارة المسرح التي يتألق عليها اسم الخديو. تم تشييد هذا المسرح بالخشب وفي يوم الافتتاح عرضت مسرحية «لا بل هيلين» [هيلين الجميلة]. وفي الشهر التالى فتح السيرك أبوابه، وكان يشرف عليه فرنسي يدعي رانسي Rancy[٦].

وفي نهاية الستينيات من القرن التاسع عشر كان عدد سكان مصر ٥ مليون نسمة من بينهم حوالي ١٥ ألف فرنسي مقيم (من بين مجموع السكان الأوروبيين البالغ ١٥٠ ألف نسمة). كان الفرنسيون موجودين في جميع القطاعات الاقتصادية بالإسكندرية والقاهرة، وبطبيعة الحال في پورسعيد والإسماعيلية. كانوا يتولون أيضاً مناصب رئيسية في الإدارة. فقد حل ضباط فرنسيون محل سليمان باشا كمدربين للجيش (برناردى Bernardy ، ولارميك Larmec ، وميرشير Mircher ، وپرانستو Princeteau ، ورإپاتل Rapatel ، وپيران Perrin). وخلف كلوت بك أطباء فرنسيون لإدارة مدرسة الطب والمستشفيات ومجلس الصحة (جاياردو Gaillardot ، وجاستينل Gastinel ، وپيرون Perron). وعمل مهندسون فرنسيون في مصر مقتفين أثر لينان بلفون الذي كان وزيراً للأشغال فى أحد الأوقات (بوانيه Boinet ، وبارو Barrois ، وڤانتر Ventre). وكان فرنسيون أيضاً يديرون مدرسة المعلمين (پيلتييه Peltier) والمطبعة الأميرية (شيلو Chelu)، أو يعملون كمفتشين فى التعليم العام (برنار Bernard ، وميرجويه Mirguet).

٥- أندريه ريمون، القاهرة، تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.

6. Georges Douin, *Histoire du règne du khédive Ismail,* Rome, 1933-1938, t. 11.

رقصات البولكا وتسبيحة شكر في صحراء السويس

لا ريب أن النشاط الفرنسي الرئيسي في مصر كان هو قناة السويس. كانت جميع الأنظار تتجه نحو البرزخ حيث قام فرديناند ديلسيبس ومهندسوه بتغيير معدل سرعة العمل: إنهم لا يحفرون الآن بأذرع الرجال، بل باستخدام آلات مهيبة يفخر بها مستخدموها مثلهم كمثل مصمميها. كانت «العبقرية» الفرنسية موضع فخر وتكريم في عصر كانوا فيه يبجلون العلم والتقدم والصناعة. ولكي ندرك هذا يمكن أن نرى مدى الحماس الذي استقبلوا به «الجرافات ذات المجرى الطويل» التي صممها مسيو بوريل ومسيو لافال. فقد قال عنها ديلسبس أمام اجتماع للمساهمين في الشركة: «إنها لا تلقى بالرُكام فوق مراكب تنقله إلى حافة المجرى كما تفعل الجرافات العادية. لكن هذه الأجهزة الجديدة تقذف الرُكام دفعة واحدة ليصل مباشرة إلى حافة المجرى على بعد ٦٠ أو ٧٠ متراً. لقد تم التوصل إلى هذه النتيجة غير المسبوقة حتى اليوم بفضل إضافة مجرى طويل إلى الجرافة، وهذا المجرى هو قناة معدنية حقيقية...» وقال رئيس شركة قناة السويس وسط تصفيق الحاضرين: «يجري العمل على طوال القناة الملاحية من بورسعيد إلى السويس، فنحن نشقها بأقصى عمق وأقصى اتساع»(٧).

وبلغ عدد سكان البرزخ الدائمين وقتذاك ١٩ ألف نسمة مع أخذ النساء والأطفال في الحسبان. تم إحلال عمال من جميع الجنسيات محل الفلاحين المجندين، وأصبحت مواقع العمل تشبه برج بابل. من الممكن أن يكون قائد الجرافة فرنسياً أو ايطالياً أو يونانياً، والميكانيكى إنجليزياً أو ألمانياً، والسائقون أو الملاحون يونانيين أو مالطيين أو مصريين. ويؤكد ديلسبس أن مجموعة المستخدمين هؤلاء قد انصهروا معاً بطريقة مدهشة. «وهذا الانصهار هو من أفضل الهبات الطيبة للطباع والروح الفرنسية.»

وأدى وباء الكوليرا في صيف عام ١٨٦٥ إلى فرار العديد من العمال الذين اندفعوا نحو المراكب بمدينة بورسعيد. ولكن بعد هذه الكارثة عادت الأمور من جديد إلى طبيعتها واستتب النظام (اتسمت هذه الفترة بأعمال بطولية وبوفاة العديد من أطباء الشركة). بل وازداد عدد العمال لأن الدعاية التي قام بها الفارون قد جمّعت عمالاً جدداً.. واتسم يوم ١٨ أغسطس ١٨٦٥ بأول التقاء غير مباشر بين البحرين: فقد عبرت القناة أول قافلة قادمة من البحر المتوسط حاملة لشحنة فحم، ثم عبرت ترعة المياه الحلوة حتي وصلت إلى السويس دون القيام بنقل الشحنة من ظهر سفينة إلى أخرى. وقام الرؤساء الدينيون لمختلف

٧. تقرير مقدم إلى الجمعية العامة لشركة قناة السويس العالمية والمؤرخ أول أغسطس عام ١٨٦٦..

العقائد بمباركة القافلة. أقيم قداس وأنشدوا تسبيحة شكر لله بأبرشية القديسة-أوجيني بالإسماعيلية.

ومع ذلك لم يتم التغلب على جميع العقبات. ففي بداية عام ١٨٦٦ اصطدم المهندسون بصخرة عنيدة حجمها ٢٥ ألف متر مكعب. ومن أجل تفجير هذه الصخرة اضطرت الشركة إلى استخدام عمال مناجم متخصصين يعملون في منطقة «البيومون» [منطقة في جبال الألب تقع شمال غربي إيطاليا]. تجمّع أكثر من ٦٠٠ عامل للهجوم على هذه الدكّة الصخرية ونجحوا في التغلب عليها. وأخيراً وفي شهر مارس وصل نبأ طيب من القسطنطينية: .لقد تم نشر فرمان...يأذن بشق قناة السويس. يعتبر هذا إنهاءاً للخلافات. وتلقي فردينان ديلسبس «المدجيدية» العثمانية، كما حصل في الوقت نفسه على وسام فرنسي هو جوقة الشرف من رتبة كوماندوز.

وأصبحت الإسماعيلية مقر المركز الرئيسي لشركة القناة ضيعة فاتنة بالفعل تضم أربعة آلاف ساكن ويطلقون عليها اسم «ڤينيسا الصحراء». وبدلاً من البحر فإنها تطل على بحيرة التمساح حيث أقيمت حمامات. إن المدينة الرئيسية -التي تضم حياً يونانياً وقرية عربية- هي مدينة فرنسية حتى أخمص قدميها. قاموا بزرع شجر نخيل في ميدان نابليون. وفي حائط مدخل الكنيسة التي كرست باسم القديس فرانسوا دي سال والمشيدة على الطراز القوطي ألصقت محارتين من البحر الأحمر كجرن للماء المقدس. وأصبحت في المدينة تبادلات تجارية وحديقة وزهور. وفي الحي المسمى «حي الأولاد» أقيمت مساكن صغيرة للعزاب، كما أنه من حق المهندسين والفنيين والموظفين الذين يحضرون زوجاتهم وأطفالهم الحصول على مساكن أكثر اتساعاً مزودة بشرفات من الخشب.

وكانت الإدارة العامة للشركة تقيم حفلتين راقصتين سنوياً. كانوا يرقصون رقصات البولكا [رقصة بوهيمية بولونية الأصل] والكادري [رقصة يقوم بها أربعة أزواج من الراقصين] بمصاحبة البيانو، والكمان، والبوق الموسيقي...وفي باقي أوقات العام يتزاورون في بيوتهم حيث يستمعون إلى الموسيقي ويلقون الشعر أو يلعبون الورق ويحلون الألغاز والكلمات المتقاطعة. كانت تقام سباقات زوارق تشترك فيها فرق منافسة قادمة من بورسعيد، ويتم نشر أسماء الفائزين في جريدة «لونيون ديه دو مير» [اتحاد البحرين] التي تصدر في پاريس. أما هواة الصيد فقد كانت الصحراء بأكملها ملكاً لهم. وكانت كل طلقة تخرج من بندقية تجعل جيشاً من طيور البشروش وردية اللون تطير فوق البحيرة...

أول مدرسة للفرير

إذا كان برزخ السويس أصبح قطعة صغيرة من فرنسا، فقد شهدت القاهرة والإسكندرية تزايداً في النفوذ الفرنسي. ونرى هذا التزايد في مولد المدارس الأولى مثل مدرسة البون باستور [الراعي الصالح] التي أنشأها في عام ١٨٤٥ راهبات من منطقة آجيه الفرنسية لتعليم البنات. ولا ريب بأن الفرنسيين لم يكونوا الأوائل ولا الوحيدين الذي اتخذوا المبادرة في هذا المجال: فمنذ عهد محمد علي كان الأرمن واليونانيون والإيطاليون وكذلك الجاليه اليهودية قد افتتحوا في مصر منشآت مدرسية صغيرة. لكن شهد التعليم بدءاً من عام ١٨٥٤ بعداً جديداً حين قام رجال دين فرنسيون ورهبان المدارس المسيحية بافتتاح أول مدرسة ثانوية لهم في القاهرة. لم يعد الأمر يتعلق بمبادرة طائفية لصالح أبناء الطائفة وحدهم لكنه تعليم معدّ لتلاميذ من جميع القوميات ومن جميع الأديان.

وقد روت وثيقة تذكارية بدايات هذا المشروع بطريقة جذابة[٨]: «خلال الأيام الأولى من فبراير عام ١٨٥٤، وصل أربعة من مريدي القديس جان-بابتيست دي لاسال saint Jean-Baptiste de la Salle إلى محطة باب الحديد الصغيرة بالقاهرة. وسرعان ما استضافهم الآباء الفرنسيسكان الذين كانوا قد طلبوا مجيئهم، وبينما كانت أجراس كنيسة صعود العذراء تدق بعنف كانوا ينشدون في الداخل بحماس تسبيحة الشكر لله. وبعد انتهاء الحفل أقام الإخوة الأربعة في مقر لهم بدرب الجنينة بوسط القاهرة التجاري الزاخر. كان هذا المقر يضم أربع قاعات ضيقة للغاية، وهي قاعات الفصول الدراسية: ويتم الصعود عن طريق سلالم متهالكة إلى الدور الأعلى حيث توجد غرف أكثر ضيقاً وجدران متصدعة، وهذا هو مسكنهم...» تم فتح باب التبرع الأمر الذي أتاح بدء العمل بالمؤسسة التعليمية يوم ١٥ فبراير ١٨٥٤.

«وتحولت حبة الخردل إلى شجرة باسقة. كانت جميع طيور الرحمن تجيء بلا تفرقة للاحتماء بها. وبعد قليل كانت القاهرة كلها لا تتحدث إلا عن «المدرسة الكبيرة» إلى حد أن العاهل سعيد باشا الابن الخليق بوالده الشهير محمد علي علم بالأمر. وقدم له قنصل فرنسا تقريراً تقريظياً إلى أقصى حد. ما الذى يمكن عمله لصالح هؤلاء الرجال الذين تخلوا عن وطنهم المحبوب لكي يجيئوا إلى هذه الأرض الأجنبية؟ وطلب قنصل إمبراطور فرنسا إعطاءهم أرضاً واسعة حيث يمكنهم إنشاء مدرسة أكبر. ترك لهم الوالي حرية اختيار الأرض التي يرونها مناسبة من بين ممتلكاته. لفت أنظار «الفرير» [الإخوة

8. Frères des Écoles chrétiennes, *Souvenirs du centenaire*, Le Caire, 1947.

الرهبان] كومة أنقاض لا تبعد كثيراً عن مدرستهم. لم يكتف الوالي بالموافقة على اختيارهم فحسب بل وشارك أيضاً في نفقات إزالة الأنقاض.»

الواقع أن سعيد ساهم إلى حد كبير في إنشاء مدرسة الخرنفش هذه. وتزداد أهمية مساهمته هذه لا سيما أنه أهمل المدارس المصرية العامة. ويقول أحد الباحثين الإنجليز «من المحتمل ان تكون الأموال التي أعطاها سعيد إلى الفرير في القاهرة وإلى الإيطاليين في الإسكندرية أكثر من التي أنفقها على ميزانية التعليم طوال عهده[٩]». وفي المقابل قام خليفته إسماعيل باشا بتطوير المدارس الثانوية العامة بإلحاح من اثنين من الأعضاء السابقين بالبعثات التعليمية إلى فرنسا هما: رفاعة الطهطاوى وعلي مبارك. وهذا لم يمنعه من مساندة الفرير الذين أسند إليهم تعليم اثنى عشر فتى من بين مماليكه. وبعد مضي عدة أعوام منح الجيزويت [اليسوعيين] أيضاً أرضاً ليقيموا عليها مدارسهم.

وأتاح وباء الكوليرا الذي انقض على مصر عام ١٨٦٥ فرصة للفرير للحصول على شهرة وللتميز ولتدعيم مكانتهم نهائياً. فبينما كان الجميع يفرون من العاصمة المصرية -رأى إسماعيل باشا ذاته أنه من الحكمة أن يسافر إلى الخارج- قام الرهبان الفرنسيون بإقامة مستوصف لتقديم الخدمات الطبية المجانية بالتعاون مع آباء من الأرض المقدسة [فلسطين]، وراهبات من سان چوزيف والراعي الصالح. «كانت القاعات تشهد تجدد موتاها من المرضى مرتين كل أربع وعشرين ساعة. لم يخرج أحد من المرضى إلا على ظهر العربة النقالة التي استخدمت كعربة موتى. كان المحتضرون يحصلون على الأقل على تعزية بأنهم تلقوا عناية حانية ومعاونة دينية في هذه الأوقات المرعبة. وفي خلال أقل من أسبوع توفيت ثلاث راهبات من الراعي الصالح كشهيدات للرحمة. ومن الأمور الشبيهة بالمعجزات أن أحداً من الرهبان الفرير لم يصب بالمرض وكذلك تلاميذ القسم الداخلي البالغ عددهم حوالى ثلاثين طالباً وقد عزوا هذه الحماية الخارقة إلى قلب المسيح المقدس الذي كانت الطائفة قد لجأت إليه منذ بداية الوباء[١٠]» وبدءاً من ذلك الوقت وخلال عشرات السنوات كانت تقام في مساء أيام الجمعة من كل أسبوع خدمة دينية للتكفير عن الذنوب بالقربان المقدس في المصلى الذي وضع فيه كنذر وسام شرف ممنوح من نابليون الثالث.

9. J. Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt*, Londres, Luzac, 1939.

10. Frères des Écoles chrétiennes, Souvenir du centenaire, op. cit.

تعليم باريسي للأمير حسين

كان الخديو إسماعيل مهتماً بتعليم أبنائه الخاصين مع استثمار هذا التعليم في أغراض سياسية. إذا ما كان ولي العهد توفيق يتابع تعليمه في مصر لدى مدرسين خصوصيين، إلا أن حسين وحسن أرسلا إلى أوروبا خلال عام ١٨٦٨ . ذهب الأول إلى باريس «حيث يتم تلقي أفضل تعليم»، ولأن إسماعيل يريد ملاطفة الإمبراطور: وذهب الثاني إلى لندن حتى لا يغضب الإنجليز الذين قاموا على أية حال بمنحه نسق المعيشة الذي تعوّد عليه.

وتم تكليف نوبار باشا وزير الخارجية بالإعداد بنفسه لوصول الأميرين إلى أوروبا. فقد أرسله الخديو إلى باريس بينما ظل من القاهرة يتابع هذا الموضوع خطوة بخطوة، ويتبادل معه الرسائل التي يخدد فيها أدق التفاصيل[١١] كان الأمر يتعلق بعملية سياسية إلى حد كبير: ففيما هو أبعد من اهتمامه برعاية العلاقات الفرنسية–المصرية، كان إسماعيل يتمنى قدوم الإمبراطورة أوجيني إلى مصر لافتتاح قناة السويس.

وطلب من الجنرال فلوري Fleury مرافق الإمبراطور أن يتفضل شخصياً بالإشراف على تعليم حسين، وأن يوفر له اكتساب «جميع الميزات العظيمة التي يجب على أمير شاب التحلي بها»، وبأن «يتيح له الولوج إلى أفضل مجتمع في باريس». وكرس نوبار وفلوري جلسات عمل عديدة لوضع شروط وقواعد هذه العملية. وتقرر أن يسلك حسين نفس النظام الذي يتبعه الأمير الفرنسي. وأعرب نوبار عن أمنيته بأن يكون «مربي» حسين برتبة كولونيل أي يكون حاصلاً على نفس رتبة معلّم حسن في لندن.لكن فلوري شرح له بأن نظام الرتب في فرنسا يختلف عنه في إنجلترا: «يمكنك أن تجد في إنجلترا شباناً حاصلين على رتبة كولونيل؛ فهم يترقون هناك بشراء الرتب. لكن هنا إذا وصل المرء إلى رتبة كولونيل فسيكون عجوزاً لم يعد يصلح لشيء. هذا فضلاً عن أن المقدم في فرنسا يتعادل مع كولونيل إنجليزي.» وفي النهاية اختار نابليون الثالث بنفسه «المربي»: إنه المقدم كاستكس Castex عضو مجلس القيادة الذي «سرعان ما رقي إلى ليفتنانت–كولونيل.»

وكتب الخديو في إحدى رسائله إلى وزير خارجيته: «يجب أن تتناسب إقامة حسين باشا مع مكانته. يلزم أن يكون لديه فندقاً يتم تأجيره لمدة أربع سنوات إن أمكن، ويكون لديه «متر دوتيل» [رئيس خدم] وعدد كاف من الخدم، وثلاث عربات (ڤيكتوريا [عربة مكشوفة]، وكوبيه [عربة مقفلة]، ولاندو [عربة بأربع عجلات])، وسبعة خيول، من بينها خيول الركوب وحصان المربي. ومع ذلك لا أريد رفاهية مفرطة تتماثل مع التبذير...»

١١. تم نشر مقتطفات طويلة من هذه الرسائل فى كتاب: Van den Bosch, *Vignt Ans d'Égypte*, Paris, 1932.

وبعد أن تشاور الوزير مع الجنرال فلوري الذى وجد فندقاً خاصاً في شارع سان جرمان كتب رسالة إلى الخديو يقول فيها: ستتكون الخدمة في الفندق من كبير خدم «متر دوتيل» أول، وكبير خدم ثانٍ، وناظر للمالية، وخادمين مرافقين [بزيٍ موحَّد]، وعاملين يدويين، وسيدة للبياضات، وكبير حوذية، وحوذي صغير، وأربعة سوَّاس سيعمل أحدهما كوصيف تابع يركب حصاناً، وثمانية خيول من بينها خمسة لجر العربات وثلاثة للركوب، وعربة «بريك» [عربة بأربع عجلات يجرها جوادان، ويكون مقعد سائقها مرتفعاً وفي داخلها مقاعد باتجاه الطول] إلى جانب الثلاث عربات.» ويجب بخاصة عدم الإفراط في الرفاهية!...

وتم وضع المنهج الدراسي بعناية: «عدم تقديم تعليم متخصص بمعنى تعليم فني، بل توفير تعليم عام بحيث يخرج أميراً ورجل دولة. ومن أجل هذا يجب العناية بدراسة التاريخ العقلاني بصورة متعمقة. ويجب دراسة العلوم الطبيعية والرياضيات بحيث لا يكون الأمير غريباً عن أي اختراع أو تقدم مادي، وأخيراً تقديم دراسة متعمقة للأدب الفرنسي مشتملة على ترجمات لاتينية ويونانية حتى تتوهج لدى الأمير الحمية التي تبعث الحياة في كل شيء، سواء كانت رياضيات أو علوم طبيعية.»

وفي يوم ١٨ أكتوبر ١٨٦٨ تم تقديم حسين وحسن للإمبراطور والإمبراطورة بقصر سان-كلو. وكان تقرير نوبار للخديو إيجابياً للغاية: «إذا كان الأميران قد اغتبطا بالمقابلة، فإن الإمبراطور والإمبراطورة وجدا أنهما مهذبان وممتازان وأعجبا بهما أشد الإعجاب.» وأصبح حسين (سلطان مصر فيما بعد) رفيق لعب للأمير الفرنسي ابن الإمبراطور. وفي مارس ١٨٦٩ أرسل الوزير برقية ظافرة إلى الخديو بأن الدعوة قد قبلت: ستشارك الإمبراطورة أوجيني في احتفالات افتتاح قناة السويس.

(٨)

أوچيني فوق مؤخرة السفينة

شق قناة السويس يتقدم بطريقة ملاءمة. وفي مارس ١٨٦٩ ذهب الخديو إلى البرزخ -هذه هى زيارته الأولى- ليدشن دخول مياه البحر المتوسط إلى البحيرات المرة. وجرى استقباله بإقامة أقواس النصر وبواحد وعشرين طلقة مدفع. وكتب مراسل «إيستم دي سويز» [برزخ السويس]: «كان في استقبال جلالته مدموازيل ڤوازان التي قدمت له باقة زهور نبتت في حدائق صحرائنا، وقامت جوقة البواقين المكونة من موظفي الشركة بتقديم مشهد غنائي موسيقي على شرف عاهل مصر، من تأليف مسيو تيڤينيه ومسيو لاڤستر العاملين في إرسال الرسائل برقياً[1].»

وتأثر مهندسو وعمال القناة بصورة أكبر لوجود أمير ويلز (الملك إدوارد الثامن فيما بعد). يا له من نصر، بعد أن كانت إنجلترا قد أدلت بالعديد من التصريحات التي تحط من شأن المشروع! ولا يخفي أمير ويلز بأنه يرى بأن «اللورد پالمرستون قد ارتكب خطأً محزناً يدل على سوء التقدير». ومن ناحية أخرى كان اللورد ستانلي وزير خارجية إنجلترا قد قال علناً في العام السابق أمام مستوردي القطن: «ليس لدي أي نوع من الشك حول تنفيذ قناة السويس بصورة نهائية. من الواضح أنه لا توجد أمة ستستفيد من حركة المرور بالقناة بنفس القدر الذي ستستفيد به أمتنا.»

وواجه المسئولون عن الأعمال صعوبات غير متوقعة. ففي نقاط عديدة وبخاصة في سهل السويس تكشفت الأرض بأنها أكثر صلابة مما أظهرته الجسّات التي أُجريت من قبل. وكان يلزم الإسراع في تغيير تنظيم ساحات العمل وفي طلب مضخات قوية وآلاف العربات وكيلومترات عديدة من الخطوط الحديدية من أوروبا. كان هذا الأمر لا يتواءم مع

1. L'Isthme de Suez. *Journal de l'union des deux mers,* mars 1869.

ظروف الشركة التي تجاوزت ميزانيتها فاضطرت إلى طرح قرض جديد بمبلغ مائة مليون فرنك بتعضيد من الإمبراطور.

وبالرغم من كل شيء فالعمل يقترب من نهايته. وفي بداية أغسطس قال فرديناند ديلسپس أمام المساهمين «لم يتبق أمامنا سوى إزالة ٥ مليون متر مكعب». وقد أثار عاصفة من التصفيق حين أعلن بأنه قد تحدد يوم ١٧ نوڤمبر التالي كموعد لافتتاح قناة السويس. وعاد الخديو مرة أخرى إلى البرزخ قبل افتتاح القناة لكي يشرف على حدث آخر هو: دخول مياه البحر الأحمر إلى البحيرات المرّة في يوم ١٥ أغسطس. وحين أعطي فرديناند ديلسپس الإشارة بدخول المياه قال بحماسه المعهود: «منذ خمسة وثلاثين قرنا انحسرت مياه البحر الأحمر بأمر من موسى. واليوم تعود هذه المياه إلى مجراها تنفيذاً لأمر عاهل مصر.» وتم بالكاد تفادي كارثة ، فقد جرفت المياه الفائرة المنحدرات الرّكامية معها وكادت تحطم سلاسل الصنادل الجرّافة. ولحسن الحظ نجحوا في تعزيز السد الأخير، وهدأت الأمواج شيئاً فشيئاً وانتهت مياه البحرين بالامتزاج معاً في هدوء.

عند قدمي الإمبراطورة

لن يتم الانتهاء من شق القناة قبل الافتتاح، فلا يزال يلزم إزالة ٢،٨ مليون متر مكعب. ويتجاوز العمق في بعض أجزاء القناة خمسة أمتار بالكاد بدلاً من الثمانية أمتار المستهدفة. لكن الجميع –المساهمين والخديو– يتعجلون افتتاح الطريق المائي. إن إسماعيل الراغب في جعل الاحتفالات عملية دعائية كبرى لمصر ولتدعيم مركزه كعاهل كامل الاختصاصات، كتب إلى جميع ملوك أوروپا يدعوهم إلى زيارة وادي النيل. وفي النهاية لم يحضر غير أوچيني، وفرانسوا–چوزيف إمبراطور النمسا، وولي عهد پروسيا، وأمير وأميرة هولندا، وأمير هانوڤر، والأمير عبد القادر وبعض الشخصيات من المستوى الثاني. ولكن إلى جانب سفراء وممثلى مختلف الدول الكبرى حضر ٩٠٠ مدعو من العلماء والفنانين والكتاب والصحفيين.

كان الوفد الفرنسي –الأكثر عدداً والأكثر تألقاً– يضم ٢٧٥ شخصاً [٢]. إن جميع المؤسسات الكبرى ممثلة في هذا الوفد (المعهد، وكوليج دي فرانس، والهيئة القضائية، والجيش...) وكذلك بعض المدارس (مثل كلية سان–سير العسكرية)، ونادي الفروسية، وحوالي اثنى عشر صحيفة ،ومجلة هامة. ويمكن القول بالمثل عن المساحة الكبيرة التي

2. D'après la liste établie par Jean-Marie Carré, *Voyageurs et Écrivains françcais en Égypte,* Le Caire, IFAO, rééd. 1956.t.11.

احتلتها «تغطية» الحدث في الصحافة إلى أن يتم صدور كتب عديدة. في المقابل لم يدع أي فرد من السان-سيمونيين: لم يكن لدى فرديناند ديلسبس اللياقة الكافية لدعوة خصومه السابقين الذين مع ذلك تدين لهم القناة بالكثير. صحيح أن أنفانتان كان قد غادر هذا العالم عام ١٨٦٥ مثله كمثل آخرين غيره من السان سيمونيين...وقبل وفاته ببضع سنوات باح لماكسيم دي كان قائلاً: «كنت عجوزاً أحمق لكي أحزن لأن كل ما جرى كان في موضعه تماماً. لو كانت هذه العملية بين يدي لكانت قد فشلت. إنني أعتقد تماماً أنني كنت سأغرق في بحيرة التمساح ويغرق المشروع معي. إنني أشكر ديلسبس وأدعو له[٣]».

هبط المدعوون من السفينة إلى أرض الإسكندرية يوم ١٥ أكتوبر، وكانت أغلبيتهم مزودة بملابس وبتجهيزات كأنهم ذاهبون فى رحلة إلى المنطقة الاستوائية. ولم يمنع تيوفيل جوتييه [الكاتب الفرنسي] نفسه من التهكم على أغطية الرأس التي كان رفاقه في الرحلة يرتدونها على افتراض حماية رؤوسهم من ضربات الشمس: «كانت أغطية الرأس الأكثر شيوعاً عبارة عن خوذات ذات قاع مزدوج من النسيج الأبيض المبطّن والمضلع يرتد جزء منها فوق القفا مثل شبكات الخوذات العربية القديمة، ومزودة بمقدّمة لوقاية العين من ضوء الشمس، وعلى كل جانب من جانبي الرأس توجد فتحتان لمرور الهواء[٤]». أما بالنسبة لمرض رمد العيون فإنهم يكافحونه بارتداء نظارات كبيرة زرقاء، « ذات زجاج بلون الدخان كما لوكانوا يشاهدون كسوف الشمس، ومزودة بغمامات تمتد فوق ذراعي النظارة وتتكيف مع الأحوال الجوية». ولم ينسوا التزود بمعاطف من الفانلة البيضاء، وسترات من نسيج الكتان وصديريات من القطن «وببنطلونات منفوخة داخل قماطات جلدية ملفوفة فوق الساق وحتى الركبة، وبالنظارات المكبرة التي تحولت أجرابها إلى عقود يحيطون بها أعناقهم، وببنادق الصيد الملفوفة داخل أجرابها والملقاة فوق الكتف..»

طلب الخديو من ماريت أن يقوم بدور المرشد لمائة وعشرين شخصاً من المحظوظين الذين منحوا حق زيارة مصر العليا قبل افتتاح القناة. وأعد عالم المصريات كتيباً صغيراً ليتعلم منه هؤلاء الزوار بعض سمات الحضارة الفرعونية[٥]. لم يكن تيوفيل جوتييه [الكاتب الفرنسي] من بين هؤلاء كما أنه لن يتمكن حتى من زيارة برزخ السويس لأنه سقط على الأرض أثناء سفره بالباخرة وأصيب بكنسر في ذراعه. أمره الأطباء بعدم الحركة فقرر أن

3. Maxime du Camp, «Souvenirs...», *Revue des Deux Mondes,* 15 mai 1882.
4. Théophile Gautier, L'Orient, 1877.
5. Mariette pacha, Itinéraires de la Haute-Égypte, rééd.. avec une préface de Jean-Claude Simoën, Parid, Éditions 1900.

يكتب عن مصر من شرفة فندق شبرد بالقاهرة [شبرد القديم الذي كان يقع عند ناصية شارع الجمهورية وشارع الألفي حاليا]، ولم يخسر قراؤه شيئا من كتاباته. فقد اشتركت عين الصحفي مع حاسية الروائي ليقدما صفحات من المختارات. وبدت مصر كلها تتتابع أمام الشرفة الشهيرة: الأفنديات يعدون بزهو فوق الحمير، والسقّائون رازحون تحت القرب المصنوعة من جلد التيس، والفلاحات المهيبات حاملات الجرة فوق رؤوسهن، وعارضو القرود، وحواة الثعابين «والجواميس أردوازية اللون ذات القرون المقلوبة إلى الخلف»...

غادرت الإمبراطورة أوچيني پاريس وبصحبتها حاشية كبيرة، من بينهم حوالي ثلاثين خادماً وحلاق البلاط. توقفت في القسطنطينية حيث استقبلها السلطان عبد العزيز ببذخ لا يصدق، ثم أقلعت الباخرة «ليجل» متجهة نحو الإسكندرية. ساد الفرنسيين المقيمين في المدينة البالغ عددهم خمسة آلاف نسمة فوران وهياج شديدان. تكونت من بينهم لجنة خاصة لتنظيم استقبال «يليق بمشاعر الجالية الوطنية». بدأوا يتلقون التبرعات في القنصلية الفرنسية، وبنك درڤيو، وكافيه دي فرانس، وفندق آبا، وفي مكتب جريدة «لو نيل». كانت جميع المقار مزينة ودعي جميع المواطنين الفرنسيين إلى إقامة الزينات المضيئة.

وفي يوم ٢٣ أكتوبر ومنذ السابعة صباحاً حدث حشد عام. استقل ديلسپس والقنصل الفرنسي باخرة صغيرة للذهاب لاستقبال «الايجل» لأخذ التعليمات. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف عرف الناس أن الإمبراطورة سافرت إلى القاهرة في قطار خاص بصحبة الخديو، وأنها لم تتوقف في الإسكندرية. كانت خيبة الأمل ضخمة. وصاحت جريدة «لوپروجريه إچيپسيان» قائلة: «إنها السياسة هي التي أغلقت فم مدافع البهجة، وهي التي أطفأت الفوانيس. كم من الأمهات اللاتي قمن في هذا الصباح بتلبيس بناتهن الصغيرات، وكم من النساء قمن بتجربة انحناءات التقدير أمام المرايا، وكم من الرجال قاموا بتجريب ملابسهم وأربطة أعناقهم!» ولم تر الجالية الفرنسية في الإسكندرية إمبراطورتها إلا بعد مضي ثلاثة أسابيع حين جاءت لإصلاح الخطأ الذي ارتكبته...

ويبدو أن الخديو كان مغرماً بأوچيني مثله في ذلك مثل السلطان. على أية حال إنه لم يهمل شيئاً يمكن أن يسحرها. لقد ذهب إلي حد أنه طلب من وزير خارجيته أن يستخدم معلمات من پاريس بقصد تنفيذ مبادرة طموحة. ويقول نوبار باشا إن الخديو طلب منه «تأسيس وتشغيل مدرسة كبيرة لبنات الأهالي خلال شهر واحد وقبل افتتاح القناة لكي تراها الإمبراطورة». لكن نوبار باشا لم يذكر فيما إذا كان قد قام بتنفيذ هذا الأمر(٦).

6. Nubar Pacha, *Mémoires*, introduction et notes de Mirrit Boutros-Ghali, Beyrouth, 1983.

وأعربت أوچيني عن رغبتها في حضور عرس مصري. صاح إسماعيل «يالها من مصادفة سعيدة يا صاحبة الجلالة! يقام الليلة بالتحديد عرس في القصر.» وسرعان ما استأذن الإمبراطورة في انصرافه واستدعى موظف شاب وقال له: «أنت ستتزوج هذا المساء.» على أية حال هذه هي القصة التي كانوا يروونها في القاهرة. وهي قصة يصعب التحقق من صحتها. وتشير السجلات فقط إلى أن الإمبراطورة شهدت حفلة زواج في قصر الملكة الأم يوم ٢٤ أكتوبر.

وتوجد قصة أخرى كانت صالونات القاهرة تتسلى بها وهي صعبة التصديق لكن رواها بجدية تامة مقربون من الأسرة الخديوية: «هل تعرف لماذا يوجد بشارع الهرم المقام بمناسبة الافتتاح انعطافاً شديداً في مكان معين؟ ذلك لأن إسماعيل الذي سيجلس بجوار الإمبراطورة يتمنى رؤيتها وهي تتأرجح بين ذراعيه...»

وفي قصور التويلري بباريس كانت أوچيني قبل سفرها قد استدعت عالم مصريات شاباً هو جاستون ماسپيرو Gaston Maspero لكي يعطيها هي ووصيفاتها بعض الدروس عن الحضارة الفرعونية. وفي قصر الجزيرة بالقاهرة استمرت هؤلاء السيدات في التعلم على يدي أوجوست ماريت قبل سفرهن إلى صعيد مصر. ورافق الخديو ضيفته الجليلة حتى مدينة أسيوط، ثم تولى الأمير الشاب حسين تلميذ الچنرال فلوري مهمة تلبية طلبات الإمبراطورة أثناء باقي الرحلة. وكان مقياس الحرارة في الأقصر يشير إلى ٣٦ درجة حين وصلت برقية من الإمبراطور تقول بأن الجليد يسقط فوق باريس...

الشرق يذوب في الغرب

وفي يوم ١٦ نوڤمبر كانت ثمانون سفينة من مختلف الجنسيات موجودة في مرسى بورسعيد حيث لقيت «الإيجل» استقبالاً ظافراً وسط تحيات طلقات المدافع. وأرسلت أوچيني برقية إلى ناپليون الثالث: «استقبال ساحر. لم أر في حياتي مثل ذلك» لا جدال بأنها نجمة هذا الأسبوع التاريخي، وقد حجبت على الإمبراطور فرانسوا–چوزيف إمبراطور النمسا الشجاع الذي تمكن من مواجهة عاصفة مرهبة عند مغادرته يافا ليصل في موعده. وفي بعد الظهر أقيم على رصيف أوچيني حفل ديني مسلم–مسيحي غير مسبوق في الشرق. وإذا كان علماء الدين الإسلامي الذين أدوا الخدمة الدينية سريعين ومتزنين إلا أن المونسنيور باوير Bauer مرشد قصور التويلري كان يرتدي رداءاً أرجوانياً وطاقية مربعة وألقى موعظة طويلة ومغالية في التشدُّق.

وبعد أن حيا إسماعيل ومنح أوچيني ثناءاً جسوراً («روحك الشجاعة تفعل أكبر الأشياء في صمت»)، قام الكاهن بالإشادة «بفرنسا الكريمة والنبيلة التي أظهرت جميع طبقاتها الاجتماعية حماساً لشق برزخ السويس والتي منحت هذا العمل ملايينها وأذرعها وذكائها وطاقتها ومهندسيها وعمالها ومستخدميها ومعداتها...» ولم يبخل باوير في نعوته وأوصافه: «من المباح التأكيد بأن الساعة التي حانت ليست فقط من ساعات هذا القرن الأكثر مهابة، لكنها الأكثر عظمة وحسماً من بين الساعات التي شهدتها الإنسانية منذ أن أصبح لها تاريخ على الأرض. إن هذا المكان الذي تتجاور فيه إفريقيا وآسيا من غير أن يتماسا اطلاقاً، وهذا العيد الكبير للجنس البشري، وهذا الحضور المهيب والجامع لمختلف أجناس الأرض، وجميع الأعلام والرايات التي ترفرف في بهجة تحت هذه السماء المشرقة، والصليب المنتصب في مواجهة الهلال وسط احترام الجميع. كم من معجزات، وكم من مفارقات مدهشة، وكم من أحلام معروف بأنها خيالية أصبحت وقائع ملموسة!»

ومع ذلك كانت الكلمات الطنانة والمثيرة للسخرية إلى حد ما التي أدلى بها مرشد قصور التويلري تعبر عن روح العصر: «إن طرفي الكرة الأرضية يتقاربان، وفي تقاربهما يتعارفان، وفي تعارفهما يهتز جميع البشر أبناء الله الواحد الأحد، فرحاً بأخويتهم المتبادلة! يا أيها الغرب! ويا أيها الشرق! لتتقاربا، وتتأملا، ولتتعارفا، وتتصافحا وتتحاضنا!» هكذا دفعت قناة السويس الاستشراق إلى خاتمته كما يبين إدوارد سعيد عالم الاجتماع. لم يعد الإسلام عالماً بعيداً وعدائياً. إن هذا الساحر ديلسپس قد ألغى البعد وبدد التهديد. «تماماً كما يمكن لعائق بري أن يتحول إلى شريان سائل». لقد تغير جوهر الشرق وتحول «من مقاومة عدائية إلى مشاركة كريمة وخاضعة»(٧). لقد ذاب إلى حد ما في الغرب...

البيضة والكتكوت والدجاجة

كانت ليلة ١٦-١٧ نوفمبر ليلة مضطربة، بل وحتى مأساوية، لكن ضيوف الخديو لم يشعروا بشيء. لقد جنحت فرقاطة مصرية عند الكيلو ٢٨ من القناة بين پورسعيد والقنطرة. تعذر إزاحتها. وفي الثالثة صباحاً ذهب إسماعيل بنفسه إلى الموقع وبرفقته حوالي ألف بحار. وصرح إسماعيل بأنه مستعد إذا لزم الأمر أن يفجّر السفينة، ويؤكد فردينان ديلسپس أنه في تلك اللحظة وفي مواجهة مثل هذا العزم النبيل سالت الدموع من عينيه بل وحتى عانق الخديو(٨)...وفي هدوء خضعت الفرقاطة، وبذلك وفّرت على الخديو اللجوء إلى هذا

7. Edward Saîd, L'Orientalisme, L'Orient créé par l'Occident, Paris, Deuil, 1980.
8. Ferdinand de Lesseps, *Lettres, journal et documents,* Paris, 1875-1881.

العنف. وفي صباح يوم ١٧ أصبح في مقدور الأسطول الصغير دخول قناة السويس، وعلى رأسه سفينة «الايجل» تتبعها سفينة إمبراطور النمسا ثم أربعين سفينة أخرى.

كان سكان الإسماعيلية المحتشدون فوق الأماكن العالية على طوال حواف القناة ينتظرون في قلق. وأخيراً وفي نحو الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر تراءى من فوق التلال الرملية دخان خفيف وطرف صاري السفينة إنها «الايجل». احتبست الأنفاس. «إنها تمر تحت أقدامنا ببطء ، عجلاتها تدور بحذر ، ويزيد هذا الحذر من جسامة اللحظة. ودخلت أخيراً حوض السفن. أطلقت جميع بطاريات المدافع طلقات التحية وصفقت الجماهير الغفيرة. إنه حقاً شيء رائع. الإمبراطورة تقف فوق مؤخرة سفينتها تلوح بمنديلها. ويقف ديلسپس إلى جوارها(٩) ...» طارت القبعات في الهواء، إنهم يتبادلون العناق. مهندسون ووزراء يبكون كالأطفال. لقد تم عبور نصف القناة خلال ثماني ساعات ونصف.

وبدأت الأفراح. فإلى جانب الضيوف الذين دعاهم الخديو، وموظفى الشركة وسكان البرزخ والبدو الذين يعيشون فى المنطقة يوجد جميع أولئك الذين قاموا بالرحلة على نفقتهم الخاصة. وكتب أوچين فرومانتان Fromentin [كاتب ورسام فرنسي ١٨٢٠-١٨٧٦] بأسلوب تلغرافي: « فى المساء، الإضاءة الزينية فى كل مكان. إطلاق الألعاب النارية أمام قصر نائب-الملك [الخديو]. الموائد مفتوحة في كل مكان. خيمة كبيرة لإطعام خمسمائة شخص، وخيمة أخرى لمائتين أو ثلاثمائة شخص...مائدة قصر الحاكم هي أفضل الموائد جميعاً وأكثرها طرافة. الطعام باذخ. نبيذ فاخر، وسمك شهى، وحجال، وبط بري. إطعام سبعة أو ثمانية آلاف شخص في الصحراء...مزيج غريب بين بذخ شديد وفخامة غير مألوفة وبين فاقة لا تصدق(١٠)...»

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم ٢٠ نوڤمبر دخلت «الإيجل» البحر الأحمر. تم التغلب على برزخ السويس وتغيرت خريطة العالم. لم يعد لدى كتّاب الحوليات كلمات يصفون بها حماس الحاضرين. وأثار ناپليون الثالث عاصفة من التصفيق حين أعلن أمام مجلس الشيوخ والهيئة التشريعية: «إذا ما كانت الإمبراطورة لم تحضر اليوم افتتاح المجلسين، فهذا لأننى كنت حريصاً على وجودها في البلاد التي أشهرت فيها أسلحتنا فيما مضى لكى تعربعن تعاطف فرنسا مع عمل يعود إلى مثابرة أحد الفرنسيين وإلى عبقريته.» لقد نسي مصر. وقال نوبار باشا لڤيكتور دوروى وزير التعليم الفرنسي: «لقد

9. Eugène Fromentain, *Voyage en Égypte*, 1869.
10. *Ibid.*

تحدث الإمبراطور عن الكتكوت، لكنه لم يقل شيئاً عن الدجاجة التي أنتجت البيضة وحضنتها خلال أيام وليالي عديدة.»

وكان لدى فرديناند ديلسبس الذوق السليم لكي يرفض لقب «دوق السويس» الذي عرضه عليه نابليون الثالث. وبدأ هذا الرجل البالغ الرابعة والستين من العمر حياة جديدة في ظل المجد والفخار: ففي خلال مدة لا تزيد على أيام قليلة تلقى أعلى الأوسمة- فرنسية، وعثمانية، ونمساوية، وبلجيكية، وإيطالية..إلى أن تم استقباله كالأبطال في إنجلترا وانتخابه عضواً بالأكاديمية الفرنسية. لكن الرجل الكبير يقوم بالاحتفال بهذه المناسبة بطريقته الخاصة. ففي يوم ٢٥ نوفمبر عقد قرانه بكنيسة الإسماعيلية على لويز-هيلين الفتاة التي يبلغ عمرها عشرين ربيعاً.

يوجد بطل فرنسي آخر من أبطال هذا الاحتفال لاقى مصيراً غريباً: إنه المونسنيور باوير مرشد قصور التويلري الذي بعد مضي عدة سنوات تخلى عن الرهبنة. وكانوا حينذاك يرون هذه الشخصية الغريبة في غابة بولونيا يؤدي التحية العسكرية لكل ضابط يقابله. وكان الجنرال دي جاليفيه يرد التحيه «بإشاره من يده كأنه يمنحه البركة[١١]» ...

11. Abel Hermant, *L'Impératrice Eugénie*, Paris, 1938.

(٩)

تأليف أوبرا عايدة

قبل افتتاح قناة السويس بخمسة شهور كتب أوجوست مارييت إلى شقيقه إدوار: «تصور أنني وضعت أوبرا... أوبرا كبيرة سيقوم ڤردي بوضع موسيقاها... إن «نائب-الملك» ينفق عليها مليوناً. لا تضحك. هذا حقيقي.» ويؤكد إدوار مارييت أنه شعر بالقلق حين علم بهذا الموضوع. ويتماثل هذا النبأ إلى حد مذهل مع أقصوصة كتبها أوجوست بنفسه وتركها مبعثرة على منضدة في منزله بسقارة. فهل استلهم عالم المصريات هذه القصة لتأليف أوبرا عايدة؟ ويبقى إثبات حدوث سرقة أدبية («إننا نشهد في كل يوم مفاجآت مماثلة على الساحات الأدبية. وما جدوى النواح[1] ؟») ...

ومن جهة أخرى لم يتوقفوا على مر العقود من إسناد نص أوبرا عايدة إلى مؤلفين شتّي إن لم يكن للخديو ذاته الذي طلب وضعها. وقد ثبت اليوم انتساب هذا العمل إلى أوجوست مارييت[2]. لقد قام مدير الآثار المصرية بكتابة السيناريو، وصمم الملابس والديكور، ووضع الخطوط العريضة للإخراج. لكن على عكس الأسطورة الرائجة لم يتم عرض أوبرا عايدة عند افتتاح أوبرا القاهرة وذلك لسبب واضح هو أن إسماعيل طلب الاستعجال في وضعها ليعرضها أمام ضيوفه ولكن لم يكن قد تم صقلها بعد. وفي أول نوڤمبر عام ١٨٦٩ عند افتتاح أوبرا القاهرة صفق ضيوف الخديو لأوبرا أخرى هي «ريجولوتو» تلحين ڤردي Verdi [مؤلف موسيقي ايطالي ١٨١٣-١٩٠١] وقد سبقتها «غنائية» [مشهد غنائي بلا تمثيل] من تأليف الأمير بونياتوڤسكي Poniatovski .

ومن الملفت للنظر أن مارييت اختار اسم عايدة لبطلة قصته وهو اسم له رنين عربي. إن الأحداث تدور «على ضفاف النيل فى زمن سطوة الفراعنة». ويمنح هذا الغموض للمؤلف حرية أكبر والذي يبدو أنه استلهم بنوع خاص عهد رمسيس الثالث قبل المسيح باثنى عشر

1. Édouard Mariette, Mariette pacha, *Lettres et souvenirs personnels,* Paris, 1904.
2.Jean-Marcel Humbert, in *Revue de musicologie,* t. LV11, 1976, n° 2.

قرناً. عايدة هي أميرة إثيوبية أسيرة في مصر وأصبحت إحدى وصيفات آمنيريس ابنة الفرعون. وأحبت الفتاتان نفس الرجل وهو رادامس قائد الحرس الشاب الذي لا يهتم إلا بعايدة. وفسدت الأمور حين اندلعت الحرب بين مصر وإثيوبيا وحين وجد راداميس الذي هزم العدو أنهم يطلبون منه الزواج من آمنيريس. وبطبيعة الحال أنه يحب عايدة فيحاول الهرب معها. وتتوالى أحداث القصة لتصل إلى المأساة النهائية: فقد حكم على القائد بالدفن حياً في مدفن تحت أرض المعبد، لكن عايدة تلحق به وتموت بين ذراعيه...

هوس موسيقي بمصر

أوحت مصر القديمة بأوبرات عديدة حتى منذ قبل الحملة الفرنسية، من بينها أوبرا «المزمار المتهلل» لموزار، التي عرضت في باريس يوم ٢٠ أغسطس ١٨٠١ بعنوان «أسرار إيزيس». واختير لهذا العمل المبهم ديكورات عجيبة وملابس تمزج الرموز الماسونية بالهيروغليفية. وبعد الحملة الفرنسية حصل الفرنسيون على عملين آخرين حققا نجاحاً كبيراً: «موسى» للموسيقار روسيني (١٨٢٧) و«الابن الضال» لدانييل فرانسوا أوبير Auber (١٨٥٠). وقد أثار ديكور الأوبرا الأخيرة حماس الكاتب تيوفيل جوتييه فوصفه قائلاً: «إلى اليمين يرتفع معبد إيزيس حاملاً طابع المعمار المصري الخالد. إن الحروف الهيروغليفية الملونة تدور في مواكب غير متحركة حول الأعمدة الضخمة كالأبراج. ويفتح الصقر جناحيه فوق زخارف المدخل. وتحمل تيجان الأعمدة رؤوس نساء ينظرن بأعينهن المنحرفة، وتبسط تماثيل «أبو الهول» مخالبها المليئة بالألغاز، وتنتصب المسلات والنصب مزينة بنقوش رمزية. كل شيء منذر وغامض في هذه العظمة المرعبة التي تضيئها شمس محرقة[٣]..» وباختصار كل ما يمكن للفرنسيين أن ينتظروا من هذا البلد الساحر.

ومع ذلك فإننا بصحبة أوبرا عايدة ننتقل إلى بعد آخر. فهذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها عالم مصريات في مصر بتأليف أوبرا تتعلق بمصر. لقد شرع ماريت في هذا العمل بحماس العالم ودقته. وقضى ستة شهور في صعيد مصر لكي ينسخ بدقة صفوف أعمدة في المعابد، ويسجل جميع العناصر الموجودة على النصب وعلى النقوش الصغيرة واللازمة له، مدوناً تسريحة شعر، أو استدارة خنجر، أو تفاصيل منشّة ذباب. ويقول شقيقه إنه كان دقيقا للغاية إلى حد «أنه استخدم المطواة ليكشط بخفة عينات من الألوان التي استخدمها أحد المعاصرين لإسكندر[٤]».

3. *La presse*. 9 décembre 1850.
4.Édouard Mariette, *Mariette pacha...,op. cit.*

لكن ماريت فنان أيضاً، إذ كان منذ عهد قريب مديراً لمدرسة رسم بمدينة «بولوني سور مير» الفرنسية. ومن أجل الأوبرا الذي يضعها استأنف الرسم بالألوان المائية، ورسم بعض عناصر الديكور والملابس والمجوهرات. أعطى السيناريو الذي كتبه إلى كامي دو لكل Camille du Locle مدير «الأوبرا كوميك» [الأوبرا الهزلية] في باريس الذي قام بتجميله، وبتجزئته إلى مشاهد، وبتحديد بنيته في أربعة فصول. وفيما بعد تمت ترجمة النص إلى الايطالية وحولها أنطونيو جيسلانزوني Antonio Ghislanzoni إلى شعر ثم أعيدت ترجمتها إلى الفرنسية.

كان الخديو يريد أن يقوم ڤردي بوضع الموسيقى. وتم الاتصال به عن طريق وسطاء فأجاب بأنه ليس من عادته «تأليف قطع موسيقية للمناسبات». أعادوا المحاولة معه مرة أخرى بإلحاح وهددوا بأنهم سيلجأون إلى ڤاجنر أو جونود. وحين لذعه الكلام قبل بعد أن فرض شروطاً مالية. وقع ماريت العقد مع ڤردى نيابة عن الخديو يوم ٢١ يوليو ١٨٧٠ أي بعد افتتاح قناة السويس بثمانية شهور. ونص العقد على حصول الملحن الايطالي على ١٥٠ ألف فرنك مقابل هذا العمل تدفع بالذهب كما أنه ليس مضطراً إلى الذهاب إلى القاهرة لمشاهدة البروفات.

ووجد ماريت صعوبة في إخفاء شعوره بالمرارة. إنه يخشى أن يكون الضحية كما حدث في المعرض العالمي. ألم يقم حينذاك بإقامة الجناح المصري بأكمله وعرض نفسه لمخاطر ولطعنات في حين تبختر الآخرون وملأوا جيوبهم؟ وقد كتب إلى شقيقه: «صحيح أنني لا ألحن موسيقى هذه الأوبرا. لكن أنا الذي وضع السيناريو، أي أنني تصورت المخطط، ورتبت جميع المشاهد، وخرجت الأوبرا في جوهرها من جعبتي. ثم إنه أنا الذي يذهب إلى باريس لتنفيذ الديكورات ولصنع الملابس لكي أعطي لكل شيء اللون المحلي الذى يجب أن يكون مصرياً قديماً. وما الذى يحدث الآن؟ إنه ڤردي الذي وقع عقد بـ١٥٠ ألف فرنك مع نائب-الملك، وسيقبض مسيو دو كل حقوقه كاملة كمؤلف، وسيحصل صانعو الديكور والملابس على مستحقاتهم، كما أن الدكتور درانيث سيقتطع نسبته المئوية من جميع النفقات، في حين أننى سأفلس بسبب نفقات الفندق الذي أقيم فيه بباريس لأن نائب-الملك يعتقد ببساطة بأنه يكفينى أنني أقبض مرتبي.» إنه خطاب مؤثر من عالم مصريات وفنان لكنه إنسان أيضاً...

وبدأت الهموم. كان ماريت في باريس ولم يستطع مغادرتها بسبب حرب عام ١٨٧٠ بين فرنسا وبروسيا ثم بسبب كومون باريس [الحكومة الثورية]. والحال أنه يوجد بند في العقد ينص على أنه إذا لم يتم عرض عايدة في القاهرة في يناير ١٨٧١، يصبح من حق

ڤردي عرضها بنفسه في مكان آخر بعد مضي ستة شهور. ولحسن الحظ أنه على ضوء الظروف وافق الملحن على تجاهل هذا البند.

إن تقديم التاريخ المصري القديم على المسرح أمر سهل نسبياً. إذ يكفي توافر الإمكانيات بعد تجميع المعلومات الموثقة. لكن كيف يمكن العثور على الموسيقى التي كانت مستخدمة في زمن الفراعنة؟ إنها أصوات موسيقية مجهولة تماماً. لقد اكتفى روسيني حين وضع أوبرا «موسى» بخلق المحيط الفرعوني بالديكور والملابس ولم يبحث عن غرابة الموسيقى.

غير أن ڤردي لا يبدأ من لا شيء. ففي خلال العقود السابقة قام فرنسيان بإنشاء علم موسيقى مصرية قديمة[٥]. الأول جيوم أندريه ڤيلوتو Guillaume André Villoteau وكان مرافقاً لحملة بونابرت. كان منشداً بجوقة المرتلين بكنيسة نوتردام بباريس ثم أصبح بعد الثورة مغنياً مرموقاً في الأوبرا، وقد جمع في مصر جميع أوجه الموسيقى العربية الحديثة. وقام بوضع قائمة بالآلات الموسيقية التي كانت مستخدمة في العصور المصرية القديمة واستخدم خياله مستلهماً الألحان الدينية القبطية المنحدرة من هذه الحضارة المضمحلة.

وكان الرائد الثاني فيليسيان ديڤيد Félivien Davi [مؤلف موسيقي فرنسي ١٨١٠-١٨٧٦] وهو من السان سيمونيين وقد عاش عدة سنوات في مصر وتم استقبال سيمفونيته الغنائية «الصحراء» (١٨٤٤) باعتبارها ثورة وهي مستوحاة مما سمعه وشاهده محلياً. والواقع أنها ثورة فعلاً.. إنها تصور مسيرة قافلة في الصحراء: سيرها، وتوقفها، والليل المرصع بالنجوم، والاستيقاظ في الفجر...وذلك باستخدام فرق موسيقية مجمعة وإنشاد الشعر. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها الجمهور الفرنسي نداء المؤذن للصلاة. وابتكر الفنان السان سيموني في هذه السيمفونية أساليب موسيقية جديدة، وبذلك وضع نهاية لتركيبات ذلك العصر، وفتح ثغرة غاص فيها جميع الملحنين الفرنسيين. وتعتبر أوبرا الابن الضال التي وضعها أوبير تقليداً لهذه الموسيقى الجديدة المجلوبة من الشرق، مع إدخال بعض التغييرات على درجات السلم الموسيقي.

5. Jean- Pierre Bartoli, «A la recherche d'une représentation sonore de l'Egypte antique», in.*L'Égyptomanie à l'épreuve de l'archéologie,* Paris, musée du Louvre, 1996.

هكذا تتوصل مصر القديمة بطرق غير مباشرة إلى الحصول على واقع صوتي[٦] ويستطيع ڤردي بفضل موهبته أن يذهب إلى مدي أبعد من ديڤيد وأوبير. ومن أجل أوبرا عايدة أحضر من القسطنطينية لحناً تركياً، ومن القاهرة نغمة بالمزمار لتحركات الدراويش الجوالين. وقد حاول إعادة خلق جرسية الأبواق التي كان يستخدمها قدماء المصريين والتي تشبه نهيق الحمار (وفقاً لما يقوله پلوتاوكوس [مترجم سير يوناني متوفي عام ١٢٠ م.] وقام أحد الحرفيين بمدينة ميلانو بصنع آلات موسيقية طويلة مزودة بمكابس خصيصاً لڤردي، وقد لاحظنا بعد اكتشاف أبواق قدماء المصريين في مقبرة توت عنخ آمون فيما بعد بأن هذه الآلات أطول من اللازم.

العلم في خدمة الملابس

كان مارييت واعياً بالمخاطر الماثلة. وقد أباح بمخاوفه في خطاب أرسله إلى درانيت بك Draneth ، (وهو ليس إلا رجلاً فرنسياً يدعى تينارد Thénard وقد غير اسمه بتغيير موضع حروفه) مدير المسارح الخديوية: «يمكن لأحد الملوك أن يكون جميلاً كتمثال من الجرانيت يضع تاجاً ضخماً على رأسه. لكن حينما يتعلق الأمر بملك بقضه وبقضيضه يتم إلباسه وجعله يمشي ويغني، فإن الأمر يصبح مربكاً ويجب أن نخشى...أن يكون مضحكاً.» والواقع أنهم كانوا يبتسمون خلال أول عرض في القاهرة يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧١ حين رأوا قدماء مصريين ملتحين وذوي شوارب كثيفة فقد رفض الممثلون التخلص من خاصيات الرجولة هذه. وبالرغم من جميع بحوث علم المصريات التي ترتكز عليها أوبرا عايدة إلا أن ملابسها وديكوراتها كانت وظلت رديئة...

وحصل هذا العرض الأول في القاهرة على نجاح كبير. أعرب الخديو المحاط بالباشوات والقناصل عن حماسه، في حين كانت السيدات تجحظن عيونهن خلف المقصورات المسيَّجة بالشباك. انتهى الحفل في ساعة متأخرة من الليل ولاقى حماساً شديداً. تم التهليل للخديو ولڤردي أيضاً. أرسلوا برقية إلى المايسترو ڤردي الذي لم يتفضل بالقيام بالرحلة أو الذي كان يخشى ركوب السفينة.

وطلب مارييت عدم ظهور اسمه في الإعلانات. وكتب إلى درانيت في يوليو ١٨٧٠ : «أريد حتى ألا يتم النطق باسمي». ويدل هذا الموقف على الحذر من جانب عالم المصريات لا على تواضعه. فقد كان يخشى أن يصبح موضع سخرية في حالة

6. *Ibid.*

الفشل...ومن جهة أخرى فقد اشتكى إلى الشخص نفسه بعد مضي عام بأنهم يعتزمون عرض أوپراه في ميلانو بدون حتى إبلاغه: « عايدة من إنتاجي... أنا الذي جعل نائب-الملك يقرر عرضها: وباختصار لقد خرجت عايدة من نتاج عقلي ويبدو لي أنه كان يجب على الأقل مراعاة الكتابة إلي قبل عرضها(٧)». هل ندم عالم المصريات على أنه أراد أن يظل مجهولاً؟ وعلي مرّ السنين انتهى الأمر بنسيان دوره وظل اسم ڤردى وحده مرتبطاً بهذا العمل.

وفي ٢ فبراير ١٨٧٢عرضت عايدة في الاسكالا بميلانو، ثم بمدينة پارما [بوسط ايطاليا]. وقررت پاريس بدورها عرضها لكن مع استخدام ملابس وديكورات جديدة على خلاف العادة. وقد اغتاظ ڤردي لذلك: هل ما يصلح للايطاليين لا يصلح للفرنسيين؟

ابتغى مسرح جارنييه أن يجعل من هذا العرض حدثاً تاريخياً حقيقياً. ومن أجل ذلك كرسوا الوقت والأموال اللازمة. تم تكوين لجنة استشارية خاصة لمعاونة المخرج ومعاونيه. وحصلت الأوپرا على كتاب «وصف مصر» لأنه لا يجب الاكتفاء برسومات مارييت لإخراج مثل هذا العرض. يجب أن تتوافق الديكورات والملابس والمجوهرات مع المشهد، بل ويجب إعادة تكوين التاريخ بحيث لا تشوب أدق التفاصيل أية شائبة.

وتم اللجوء إلى أوچين لاكوست Eugéne Lacoste أفضل مصمم أزياء في پاريس وهو رسام سبق أن زار مصر. واتصلت اللجنة الاستشارية بالعديد من العلماء من بينهم جاستون ماسپيرو Gaston Maspero أستاذ المصريات بالكوليچ دي فرانس. التقى الرجلان عدة مرات ولم يكف لاكوست عن توجيه الأسئلة. قام ماسپيرو بوضع رسوم عديدة بنفسه. وتقرر أن ترتدي النساء نسيج من الكتان الأبيض أو الخام الشفاف في الأغلب مع ارتداء أوشحة ملونة محتشمة. أما بالنسبة للرجال فإنهم لن يظهروا في هذه المرة باللحي ولا بالشوارب، ولن يحملوا أسلحة يحصلون عليها من مخازن الأوپرا. يجب أن يكون كل شيء جديداً ومتوافقاً مع توجيهات المتخصصين. ومع ذلك...«تظهر التفاصيل الكثيرة بأن الفنان قد استسلم لحماسه: يبدو أن المساهمة العلمية لم تكن خالية من العيوب، فقد كانت ذقن فرعون وخوذات المقاتلين والدروع والأسلحة رومانية أكثر منها مصرية(٨).» لم يلاحظ الجمهور شيئاً. وتقول سجلات الأوپرا أن «حماساً يتعذر وصفه» قد ساد. وكتب ناقد جريدة «لار موذيكال» [الفن الموسيقي] بأنه لزم استعادة مشهد المسيرة في الفصل الثاني «بسبب الهتاف الجارف من جانب القاعة بأكملها.»

7. Saleh Abdoun, «Genesi dell' Aîda», *Quaderni dell' Instituto di Studi Verdiani* n° 4, 1971

8. Jean-Marcel Humbert, art. cit.

وأدى هذا النجاح الهائل إلى غوص العديد من المؤلفين الموسيقيين والمسرحيين في التاريخ المصرى القديم..فقام ڤيكتور ماسيه Victor Massé [مؤلف موسيقي فرنسي ١٨٢٢-١٨٨٤] بعرض «ليلة كليوباترة» في الأوپرا الهزلية منذ عام ١٨٨٤، ثم تلتها «كليوپاترا» تأليف ڤيكتوريان سازدو Victorian Sardo [كاتب مسرحي فرنسي ١٨٣١-١٩٠٨] في عام ١٨٩٠. وفي عام ١٩١٤ عرض ماسينيه Massenet أوپرا «تاييس» [استوحي ماسينيه هذه الأوپرا من قصة أناتول فرانس عن العاهرة المصرية التي أصبحت راهبة]، في حين قام كاميل سان-ساينز Camille Saint-Saëns [ملحن موسيقي ١٨٣٥-١٩٢١] «بتمصير» شمشون ودليلة لكي يساير ذوق العصر.

ولم يبق كلود ديبوسي Claude Debussy [ملحن فرنسي ١٨٦٢-١٩١٨] محايداً أمام هذه الموضة الجديدة، حتى وإن كان اندرج فيها بطريقة مبتكرة. فقد جرت أحداث الباليه «خمّة» Khamma الذي وضعه عام ١٩١٢ في معبد آمون رع وزاوج فيه المزامير بالقيثارات. وبالنسبة للقطعة الموسيقية «من أجل المصرية» فهي قطعة يلعبها ثنائي على البيانو، وتبتغي أن تكون محيّرة. وازدادت المسافة بعداً في قطعة «كانوبي» [وعاء فخاري كان المصريون القدماء يحفظون فيه أحشاء موتاهم] وهي إحدى المقدمات الموسيقية التي تبدو فيها الأوعية الفخارية الجنائزية المصرية غامضة تماماً. إن الاغتراب المنشود هنا ليس هو الاغتراب الذي نجده لدى موسيقيين آخرين. «بينما يسعى ماسينيه بالواقعية الدرامية لأن يجعلنا نقترب من هذا الماضي المطلق ومن هذه الأماكن البعيدة، فإن ديبوسي على العكس يبرز الابتعاد باستخدام أسلوب الشعر الغنائي الرمزي وعن طريق لغة موسيقية تتجه بحسم نحو الحداثة.[٩]» يبدو في الواقع أن الهوس الموسيقي بمصر يسمح بكل شيء، إذ يسمح بالشيء وبنقيضه.

9 Jean-Pierre Bartoli, «A la recherche...», art. cit.

(١٠)

الدائنون في السلطة

الأحداث تتدافع في مصر حيث يتزايد شبح الإفلاس مثولاً. لقد أنفق إسماعيل العظيم أموالاً بغير حساب أثناء افتتاح قناة السويس. وبالنسبة لهذا العاهل الشرقي تعتبر الأبهة والعظمة طريقة للحكم وللمعيشة أيضاً. ومثال ذلك أنه حين قرر تزويج أربعة من أبنائه في وقت واحد أمر بإقامة الاحتفالات في مصر طوال أربعة أسابيع...ولكن ليس كل هذا سوى بضع نقاط مياه في محيط من الديون.

ويمكن تأييد بعض النفقات. فلا يمكن لوم الخديو الطموح لأنه خلال ١٦ عاماً من حكمه أقام ١١٢ قناة و٤٣٠ جسراً وألف و٨٨٠ كيلومتراً من خطوط السكك الحديدية، وخمسة آلاف و٢٠٠ كيلومتراً من خطوط البرق، وكذلك إدخال المياه الصالحة للشرب وشبكات الصرف في أحياء كثيرة بالقاهرة والإسكندرية[1]. وذلك حتى وإن كان قد حصل منها على منافع خاصة، ويجب أيضاً وضع ٦٤ مصنع سكر في خانة إنجازاته. وخلال تلك السنوات ضاعفت مصر دخلها القومي. وتم أيضاً تخصيص أموال كثيرة للتعليم العام، فقد أنشئت مدارس عديدة كما أرسلت البعثات التعليمية إلى أوروبا وبخاصة فرنسا.

بل ويمكن حتى وضع الرشاوى التي دفعها إلى بعض الحكومات للدفاع عن سياسته في خانة ما له. لقد دفع مبلغاً كبيراً لشراء لقب خديو الذي لا يهدف إلى إطراء ذاته فحسب، بل وإلى تأكيد استقلال مصر في مواجهة الإمبراطورية العثمانية. بل يوجد ما هو أكثر. فإن الإصلاح التشريعي الذي انتزعه من الدول الكبرى عام ١٨٧٥ كان يستهدف التخفيف من الامتيازات الشائنة الممنوحة للمقيمين من الأجانب.

وكانت قناة السويس ورطة مالية. لقد ورث هذا المشروع عن سلفه، وكان مضطراً إلى

1.Anouar Abdel-Malek, Idéologie et Renaissance national. L'Egypte moderne, Paris, Anthropos, 1969.

إتمامه، مما أصابه بخسائر. فبالإضافة إلى الثمانية والثمانين مليون فرنك قيمة المساهمة في رأس المال، أضيفت ٨٤ مليون فرنك أخرى مستحقة للشركة وفقاً لقرار التحكيم الذي أصدره نابليون الثالث، ثم ٣٠ مليون فرنك دفعت لهذه الشركة ذاتها قبل حفل الافتتاح لإقامة منشآت متنوعة (مستشفيات ومساكن الخ.) في البرزخ. وقد أثقل كل ذلك بشدة على الميزانية المصرية.

وتتابعت القروض بفوائد متزايدة القيمة. وأصبح من الصعب عليه ابتكار الجديد في مجال الاقتراض. واقترح عليه أحد معاونيه علاجاً مدهشاً ينهي ديونه تماماً. فإذا ما قام أصحاب الأراضي بدفع مقدماً ستة أقساط سنوية من الضرائب المفروضة عليهم، فإنه يمكن تسديد جميع الديون. وسرعان ما قاموا بلهوجة قانون سمي «المقابلة» نص على تخفيض الضرائب ٥٠٪ مدى الحياة بالنسبة إلى جميع من يقرضون الدولة وذلك بقصد إغرائهم. وقد تم التحايل على هذه العملية بأساليب متباينة مما تمخض عن نتائج مفجعة، وأصبح يلزم البحث عن وسيلة أخرى...

أسهم السويس تنتقل إلى آخرين

أدى إفلاس تركيا عام ١٨٧٤ إلى إضعاف السندات المصرية بشدة. وقرر الخديو الذي أمسك بخناقه بيع أسهم قناة السويس التي اشتراها سلفه. لوكان قد باعها قبل ذلك بأربعة أو خمسة أعوام لكان قد خسر أكثر: كانت القناة قد بدأت العمل بصعوبة وواجهت مشكلات فنية وكان عدد السفن المارّة بها ضئيلاً. ففي نهاية عام ١٨٦٩ أرسل وكيل بنك «ورمز» Worms في بورسعيد برقية تقول: «هدوء قاتل، مشروع القناة فشل». كان المساهمون يحتجون، وجن جنونهم. لقد تكلفت القناة ضعف النفقات المقدرة لها ولم ترتفع دخولها إلى ذات المستوى. هبط سعر السهم من ٥٠٠ إلى ٢٠٨ فرنكاً خلال الفترة من ١٨٦٢ إلى ١٨٧١ لكي يعود للارتفاع بصعوبة فيصل إلى ٤٢٢ فرنكاً خلال الفترة من ١٨٧١ إلى ١٨٧٤ . لكن شيئاً فشيئاً بدأ عدد السفن في التزايد وبدأت الخزائن تمتلىء.

وعد إدوار ديرڤيو أحد أصحاب المصارف ببيع أسهم الخديو بسعر معين وبدأ يسعى في باريس للحصول على مجموعة من المشترين الفرنسيين. لجأ إلى العديد من المؤسسات البنكية لكنه لم يوفّق. تنبّه ديلسبس للأمر فلجأ إلى الحكومة الفرنسية يلح عليها بالشراء. وإذا كان ليون ساى Léon Say وزير مالية فرنسا يخشي ارتباط المصرف العقارى الفرنسى

بمشروع مرهق كهذا، فإن الدوق ديكازيس duc Decazes وزير الخارجية لا يريد إثارة حفيظة إنجلترا في الوقت الذي يحتاجون فيه إليها أمام تهديدات بسمارك الألماني. ويجري مشاورات مع زميله البريطاني اللورد دربي Derby الذي يحذره: إذا تم هذا الشراء ستصبح الشركة الدولية فرنسية خالصة، ولن يكون ذلك مقبولاً لدى لندن. ومع ذلك لم يقل اللورد دربي لزميله الفرنسي أن رئيس الوزراء الإنجليزي دزرائيلي يتفاوض سراً مع الخديو ليشتري منه الأسهم...

أعرب العديد من أعضاء مجلس الوزراء البريطاني عن لا معقولية دفع ثمن كبير للغاية لشراء أسهم تمثل حوالي ٤٤٪ من رأسمال الشركة مع حرمان إنجلترا من السلطة: الواقع أن اللوائح تنص على أنه لا يجوز لأي مساهم أن تكون له في الجمعيات العامة أكثر من عشرة أصوات (من بين عدة آلاف). لكن دزرائيلي يلح، ويهيج، ويجادل إلى أن حصل على القرار. لقد استغنوا حتى عن موافقة البرلمان الذي لم يكن في دورة انعقاده. وقام روتشيلد Rothschild بإقراض المال.

لقد عقد دزرائيلي الصفقة بحذق ومهارة وكانت ضربة معلّم. «تقررت الصفقة وانتهت بجسارة وسرعة لا تصدق: ففي خلال عشرة أيام تم الاتفاق على السعر والتوقيع على الصفقة وتسليم الأسهم[٢].» أجرى قنصل بريطانيا في القاهرة محادثات عديدة مع الخديو في سرية تامة. وفي يوم ٢٣ نوفمبر أعلن إسماعيل استعداده لبيع ١٧٦ ألف و٦٠٢ سهم بمبلغ ١٠٠ مليون فرنك. وفي يوم ٢٤ نوفمبر وافق مجلس الوزراء البريطاني. وفي يوم ٢٥ تم التوقيع على الصفقة مع الحكومة المصرية. وفي يوم ٢٦ نقلت الصناديق المحتوية على الأسهم إلى القنصلية البريطانية ثم شحنت فوق مركب قادمة من الهند عن طريق قناة السويس. وفي أول يناير ١٨٧٦ كانت الأسهم قد وصلت لندن ووضعت في خزائن بنك إنجلترا[٣]. وكتب دزرائيلي المنتصر إلى الملكة ڤيكتوريا: «تم ترتيب كل شيء، يا سيدتي. وقد حصلت عليها!»

كانت فرنسا موزعة بين الوجوم والكآبة. فقد حصل الإنجليز للتو وتحت بصرهم على ما يقرب من نصف هذه القناة التي لم يصنعوا فيها شيئاً، بل وطالما عارضوا إنشائها! ومن جانب آخر فإنهم المستخدمون الرئيسيون لها إذ تمثل سفنهم ثلاثة أرباع عدد السفن العابرة للقناة.

2. Charles Lesage, *L'Invasion anglaise en Égypte. L'achat des actions de Suez.* Patis, 1906.

3. Angelo Sammarco, *Les Règnes d'Abbas, de Saïd et d'Ismail,* t. IV du *Précis de l'histoire d'Égypte,* Rome, 1935.

ومن جهة ديلسپس فهو يفضل النظر إلى الأمور من جانبها الحسن. كان إسماعيل قد تنازل من قبل عن دخوله من الأسهم لمدة ٢٥ سنة قادمة وذلك لتسديد ديونه. وها هو الآن يحرم نفسه من الأسهم ذاتها. ويتبقى حق بلاده في الحصول على ١٥ ٪ من صافي أرباح الشركة. ولكن هذا الحق يتم بيعه بدوره إلى بنك فرنسا العقاري في عام ١٨٨٠ في عهد الخديو المقبل توفيق.

وصاية إنجليزية - فرنسية

إذا ما كان بيع أسهم القناة قد أنعش إسماعيل قليلاً ، إلا أنه سرعان ما قامت آلة الاستدانة الجهنمية بابتلاع هذه الملايين. وفي بداية عام ١٨٧٦ استدان من جديد بسعر فائدة يصل هذه المرة إلى ٣٠ ٪ [٤]. أين يجد المال؟ يجده أساساً في فرنسا وفي إنجلترا عن طريق وسطاء محليين. غير أنه يتم الحصول على القروض الجديدة بضمان ممتلكاته الشخصية وممتلكات أسرته وإيرادات السكك الحديدية وميناء الإسكندرية. هكذا «يصبح حاملو السندات الأجانب وهم أساساً من الفرنسيين والإنجليز سواء كانوا أفراداً عاديين أو مؤسسات ائتمان يمتلكون ديناً ضخماً على خزينة الخديو الممتزجة في الواقع مع خزينة مصر[٥]».

تم اقتراض الدين طويل الأمد من حاملي سندات بريطانيين، في حين كانت سندات القرض قصير الأمد بين أيدي دائنين فرنسيين[٦]. ومن هنا حدث نزاع بين الفريقين، إذ يسعى كل إلى الحصول على أضمن وسيلة لاسترداد دينه. أما بالنسبة لحكومتي لندن وباريس فقد سعت كلتاهما إلى التدخل في الشئون المصرية.

وجرى هذا التدخل في مواجهة خديو متواطيء أحياناً، ومنقاد في أحيان أخرى، إلى أن أصبح في النهاية في موقف يصعب التغلب عليه. بدأ هذا في مايو ١٨٧٦ بإنشاء صندوق للدين تحت إشراف ستة مندوبين أوروبيين. وتتابع هذا التدخل في نوفمبر من العام نفسه بتعيين مراقبين عامين: أحدهما إنجليزي مكلف بالحسابات العامة، والثاني فرنسي مكلف بالإيرادات. إنهما مأموري تفليسة تقريباً يسهرون على ضرورة دفع فوائد القروض. ويفترض هذا الأمر الحصول على إيرادات ضرائبية، ومن ثم استنزاف جديد للريف: فبالرغم من بؤس الفلاح إلا أنه المورد الوحيد للنقود في وادى النيل. وأدت المجاعة التي أصابت صعيد

4. David Landes, *Banquiers et Pachas*, Paris, Albin Michel, 1993.
5. Gabriel Hanotaux, *Histoire de la nation égyptienne*, Paris, Plon. 1931-1935.
6. Samir Saul, «La France et l'Égypte à l'aube du xxe sciècle» , in *Le Miroir égyptien*, Marseille, Éd. du·Quai, 1984.

مصر في عام ١٨٧٧ إلى جعل هذه العملية أكثر وحشية. فمن أجل جبي الضرائب كانوا يستخدمون السياط أكثر من أي وقت مضى.

وفي أغسطس ١٨٧٨ تم اتخاذ خطوة أخرى بإنشاء حكومة سميت «أوروبية»: تولى وزيران أحدهما إنجليزي اسمه ريڤرز ويلسون Rivers Wilson والثاني فرنسي يدعى بلينيير Blignières وزارتين رئيستين هما المالية للأول والأشغال العامة للثاني. وفي الربيع التالي قام الخديو تحت ضغط قوي من الضباط الوطنيين بعزل الحكومة وأحل محلها «حكومة مصرية خالصة». ولكن السلطان العثماني قام بعزل الخديو ذاته تلبية لطلب لندن وباريس: ففي يوم ٢٥ يونيو ١٨٧٩ وصلت برقية باسم «الخديو السابق إسماعيل» وضعت نهاية لهذا العهد المتسم بالتوهج والفوضوية.

وفي ظل خليفته توفيق عاد كل شيء إلى سابق عهده. توطدت الرقابة الأنجلو-فرنسية مكونة لحكومة مصر الحقيقية. تم توحيد مجمل الديون وإعادة تنظيمها: تم تخفيض الفائدة لكن من الآن فصاعداً أصبحت المدفوعات السنوية تمثل أكثر من نصف إيرادات ميزانية البلاد.

وفي عام ١٨٨٢ أصبحت الدولة لا تستخدم إلا ألف و٢٦٣ أوروبي (من بينهم ٣٤٥ ايطالي، و٣٢٨ فرنسي، و٢٧٢ إنجليزي) وكان هذا يكفي لإثارة سخط الموظفين المصريين الذين يحصلون على أجور أدنى ويهيمن عليهم الغربيون. يضاف إلى ذلك ثورة «الضباط-الفلاحين»، الذين لا يحصل الكثيرون منهم إلا على نصف مرتب بقصد التوفير. لقد شعر هؤلاء المصريون الأصلاء بأن حقوقهم مجحفة بالنسبة للضباط الذين من أصل تركي أو شركسي. ومن ثم تحولت مطالبهم الفئوية إلى حركة وطنية.

وسرعان ما اضطر الخديو الجديد إلى مواجهة شبه-تمرد. فقد أجبر على إسناد وزارة الحربية إلى عرابى زعيم الانشقاق. وبعد ذلك لم يستطع السيطرة على الموقف فأصدر نداءات استغاثة إلى كل من القسطنطينية ولندن وباريس.

وساهم وصول أسطول إنجليزي-فرنسي في تزايد خطورة الأحداث. ففي يوم ١١ يونيو ١٨٨٢ حدثت مشاجرة بالأيدي بين رجل مالطي وآخر مصري بمدينة الإسكندرية فتحولت إلى معركة مخططة. أخرجوا الهراوات، وأطلقت أعيرة نارية. وقع ضحايا عديدون. أصيب المقيمون الأوروبيون بالذعر فهرعوا نحو السفن للهروب من البلاد.

باريس ترفض التدخل العسكري

سادت أوروبا بعض الحيرة. جامبيتا Gambetta الذي يقود الحكومة الفرنسية يتمنى التدخل عسكرياً، والإنجليز يصمّون آذانهم. لكن بدءاً من اللحظة التي يحل فيها فريسينيه Freycinet محل جامبيتا تنعكس الأدوار: إنها لندن التي تحرض على التدخل وباريس تنفر منه. وكلما تدهورت الحالة في وادي النيل، تزداد إنجلترا تصميماً، وتزداد فرنسا تردداً.

كان فردينان ديلسبس الذي احتفظ بالاتصال مع الضباط الوطنيّين يعارض التدخل العسكري بشدة. ويشاركه في الرأي شخصية كبيرة بمجلس النواب الفرنسي هو: كليمنصو Clemenceau. وقد فرضت وجهة النظر هذه نفسها، لأن فرنسا لم تكن تشعر بأنها قوية بما فيه الكفاية لتقوم بمغامرة جديدة في الشرق. كانت تخشى رد فعل ألمانيا التي لم تكن قد هضمت هزيمة عام ١٨٧٠ بعد، وكانت تواجه صعوبات في تونس، هذا بالإضافة إلى تعرضها في ذلك الوقت إلى انهيار في البورصة...

وفي يوم ٩ يوليو صدر أمر إلى المقيمين الأوروبيين بالإسكندرية من حكوماتهم بركوب السفن خلال أربع وعشرين ساعة. «وبالرغم من اتمام جلاء العديدين إلا أنه كان هناك متخلفون. وفي أثناء الليل ذهبت قوات الانكشارية التابعة للقنصليات من باب إلى باب لتعجيل الرحيل، وأرسل قنصل فرنسا عربات لإحضار رعاياه المقيمين في الأحياء المتطرفة. وكان الرحيل في الظلام شاقاً بنوع خاص، إذ كان المهاجرون يتعرضون للشتائم ولجميع أنواع الإهانات، واضطروا إلى دفع أموال كثيرة للحصول على خدمات الحوذية وربابنة الزوارق(٧)...» وقد رفض البعض الرحيل وتحصنوا خلف المتاريس مزودين بالأسلحة. حدث ذلك في فندق آبا وفي مقر بنكي كريدي ليونيه والأنجلو اجبشيان. ولم يرغب الأطباء في التخلي عن المستشفى حيث توجد سبع راهبات يقمن بأعمال البر. وبقي رجال دين آخرون في المدينة.

وفي اليوم التالي عاد الأسطول الفرنسي على أعقابه تاركاً مدافع الأميرال سيمور Seymor [الإنجليزي] تطلق وحدها النيران على الإسكندرية بعد توجيه إنذار أخير إلى الوطنيين. لا يوجد لدى الوطنيين وسائل مقاومة قوة نيران كهذه. وفي المدينة تسود الفوضى. تم نهب أحياء عديدة وحرق أجزاء منها. لم يبق من ميدان محمد علي (ميدان القناصل سابقاً) رمز الوجود الأوروبي أي شيء تقريباً. تم تدمير قنصلية فرنسا من بين

7. Achille Biovès, *Anglais et Français en Égypte (1881-1882)*; Paris, 1910.

قنصليات أخرى. وفي النهاية نزلت القوات البريطانية إلى أرض الإسكندرية يوم ١٥ يوليو وفي تحت القانون العرفي.

وحاول ديلسيبس -عبثاً- منع السفن الحربية من دخول قناة السويس. لقد صعد بأبهة برفقة ابنه ڤيكتور الممثل العام للشركة فوق السفينة «لوريون» مرتدياً الفراك [لباس رسمي أسود وضيق] ومتباهياً بجميع أوسمته لكي يحتج على الأميرال هوسكينز Hoskins ويؤنبه. وقالت جريدة «اجيشيان جازيت»: «كان هذا الاحتجاج عديم الفائدة، بل وفي غير موضعه» ولم يؤد إلى أية نتيجة.

وفي الليلة من ٢٠ إلى ٢١ أغسطس نزل البريطانيون من السفن إلى أرض الإسماعيلية. تم سماع تراشق نيران وطلقات مدافع خلال عدة ساعات. كانوا يتساءلون على من وعلى ماذا يطلق المحتلون نيرانهم طالما أن القوات المصرية تعسكر على بعد عشرات الكيلومترات من هذا المكان؟ وفي يوم ٢١ استيقظت الإسماعيلية لتجد نفسها بصحبة آلاف عديدة من الجنود الإنجليز: كانت بحيرة التمساح مغطاة بسفن الحرب. وسرى نبأ استيلاء الأميرال هوسكينز على مقار الشركة. توقف العبور بالقناة. وتم استئنافه بعد بضعة أيام لكن ترك هذا الأمر آثاراً.

وفي يوم ٢٧ سبتمبر عاد الخديو توفيق إلى عاصمته حيث استقبله الجنرال ولزلي Wolseley والدوق كونوت Connaught ابن الملكة ڤيكتوريا. ذهب إلى قصر الجزيرة في ظل حماية الرماح الإنجليزية. وعلى طوال الطريق كانت الفرق الموسيقية تتناوب عزف النشيد الخديوي والنشيد البريطاني «ليحفظ الله الملكة». واختتم فصل جديد في مصر لعبت فيه فرنسا دور الممثل الصامت.

الجزء الثالث

ثقافة ذائعة

(١)

إنجلترا الخادعة

في يوم ٣٠ سبتمبر ١٨٨٢ كان فرنسي يسوعي حاضراً لأول استعراضاً عسكرياً تقيمه قوات الاحتلال في القاهرة. وقام رجل الدين هذا بإحصاء حوالي ١٨ ألف رجل من جميع الأسلحة يمشون في العرض بهدوء بلا طبول ولا أبواق خلف علمين مليئين بثقوب الرصاص. كان الخديو حاضراً مع وزرائه إلى جانب الدوق ديكونوت والأميرالات الإنجليز. كان المشاة ذوو السترات أرجوانية اللون يتقدمون الصفوف الأولى من الموكب، ويتبعهم الفرسان، والمدفعية، واللواء البحري، ومدفعية البحرية، والفرقة الهندية. ثم مشى في العرض البكوات والباشوات والقناصل حاملين لجميع أوسمتهم. إن صفحة جديدة تبدأ. ويدون اليسوعي في مرارة: «في أعماق القلب لا أستطيع أن أتمالك نفسي من الصياح هاتفاً: يا لتعاستك يا فرنسا! إنه أنت التي كان يجب عليها غزو هذه البلاد وغرس الصليب فيها. قد يكون عقاب من الله على جرائمك أنه أسند هذه المهمة إلى آخرين! الأمر الذي يبدو مؤكداً هو أنه بشكل أو آخر ستصبح مصر على أية حال إنجليزية إن لم تكن مسيحية[1].»

إن اليسوعيين الذين كانوا قد لجأوا إلى الإسكندرية وجدوا مدرستهم في القاهرة سليمة لم تمس: ففي العاصمة كان يوجد مدير شرطة كفء قام بعمل اللازم بحيث لا يحدث إزعاج للأوروبيين ولا عدوان على ممتلكاتهم. وفي الإسكندرية حيث عاد الجميع تم تعويض ضحايا أعمال السلب بسخاء. وسرعان ما زالت آثار التخريب من ميدان محمد علي حيث انهمك البناؤون والعمال في العمل. أعيد بناء المساكن التي أصبحت أكثر ترفاً عن ذي قبل، وحصلت فرنسا على قنصلية جديدة.

الأمن مستتب، لكن من يحكم؟ باريس تطالب بإعادة نظام الإدارة الأنجلو-فرنسي في مصر عن طريق صندوق الدين. البريطانيون لا يريدون ذلك: إنهم يرون أن نظام الحكم

1. Dans Compagnie de Jésus, *Relations d'Orient,* 1883.

الثنائي الذي كان قائماً من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢ قد انقضى. وبسبب الضغوط الأوروبية يضطرون إلى الاحتفاظ بالصندوق الشهير، لكنهم يعملون بحيث يسيطرون شيئاً فشيئاً على الشئون المالية مثلما يسيطرون بالفعل على أجهزة الدولة الأخرى.

وتؤكد إنجلترا أن احتلال مصر مؤقت. إن جنودها موجودون لتأمين الأمن، ولحماية المقيمين الأوروبيين، ولإحياء سلطة الخديو. ومع ذلك وقعت أحداث غير متوقعة (وباء الكوليرا، وثورة السودان...) جعلتها تطيل إقامتها. الواقع أن الشهور تمر لكن الإنجليز لا يرحلون. ويبدو بوضوح أكثر فأكثر أن الاحتلال قائم لكي يدوم. ويؤكد سادة البلاد الجدد أنه لا يمكن إصلاح الأوضاع العامة إلا بالإصلاحات العميقة التى بدأوها والتي لا تظهر نتائجها إلا بمضي الوقت.

مزايا ومناصب رئيسية

كان المقيمون الفرنسيون خائفين للغاية خلال أحداث عام ١٨٨٢، التي اتسمت باغتيال الأوروبيين فى مدن عديدة. وسيكون موقفهم سيئاً إذا ما اشتكوا من النظام السائد من بعد حتى وإن كان نظاماً إنجليزياً. إن امتيازاتهم لم تمس. وهى امتيازات ضخمة إن لم تكن مبالغاً فيها. أدى العرف خلال عقود عديدة إلى توسيع نطاق الامتيازات: وانتهت العادات السيئة إلى اكتساب قوة القانون.

كان للأجانب في مصر حق الإقامة وحرية الاتجار وكذلك حرية التنقل. كانت لمساكنهم حرمة: لا يمكن القبض على أحدهم أو اعتقاله إلا بحضور قنصليته. لا يمكن خضوعهم إلا لقوانين بلادهم أو للقوانين المصرية التي توافق عليها دولهم. إنهم يحاكمون أمام محاكم خاصة ـــ محاكم مختلطة أو محاكم قنصلية، وفقاً لطبيعة المخالفة وجنسية الأشخاص المعنيين. وأخيراً فهم لا يخضعون لأية ضرائب مباشرة. وحصل الأجانب على حق تطبيق هذه الامتيازات على الأشخاص الذين تحت حمايتهم القانونية بل وأيضاً على خدامهم وموظفيهم. وباختصار فإنهم يعتبرون «من النواحى القانونية والشرعية والمالية والإدارية ومن وجهة النظر الدينية، كما لو كانوا لم يتركوا أوطانهم الأم[٢]».

وظل وضع فرنسا في مصر قوياً. ففى بداية الاحتلال الإنجليزي كان يوجد ٣٤٠ موظفاً فرنسياً كبيراً[٣]. كانت وزارة الأشغال العمومية أحد حصونهم حيث يتولى روسو

2. Groupe d'études de l'Islam. *L'Égypte indépendante,* Paris, Paul Hartman, 1938.
3. Gabriel Hanotaux, *Histoire de la nation égyptienne,* Paris, Plon, 1931-1935.

باشا منصب وكيل الوزارة. وكانت أقدامهم راسخة في وزارة المالية وفي Rousseau العدل وكانوا يديرون مصلحة الآثار والمطبعة الأميرية ومدرسة القانون الخديوية، ودار المعلمين ومدرسة الفنون والصنايع. ويضاف إلى ذلك مكان مرموق في جميع المؤسسات الدولية التي عاشت بعد الاحتلال: صندوق الدين، وإدارة الملكيات الكبيرة، والمحاكم المختلطة. وقد انخفض عدد الموظفين الفرنسيين قليلاً خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، ومع ذلك ظلوا أكثر من الموظفين الإنجليز. لكن كان هؤلاء الأخيرون يحتلون المناصب الرئيسية، إذ كان يوجد إلى جانب كل وزير مصرى مستشار بريطانى قوي النفوذ يملي عليه قراراته.

وظل الفرنسيون يحتفظون بأغلبية أسهم قناة السويس. إنهم يديرون الشركة، حتي وإن كانت إنجلترا أصبحت تمتلك من الآن فصاعداً عشرة مقاعد في مجلس الإدارة الذي يضم ٣٢ عضواً. ويحمل الفرنسيون غالبية أسهم الدخول المصرية ويحتلون مركزاً متميزاً في قطاع البنوك عن طريق البنك العقارى المصري واسع النفوذ. إنهم يمتلكون مصانع تكرير السكر الرئيسية في البلاد. هذا في حين تهيمن بريطانيا على المبادلات التجارية، إذ تسيطر وحدها على ثلث الواردات المصرية وعلى ثلثي صادراتها.

وكان المقيمون الفرنسيون يعانون من انشقاقاتهم. ويقول مراقب يقظ: «كانت غالبية مصانع السكر فى الصعيد يدير كل منها فرنسيان هما المهندس والميكانيكي: إنهما دائماً على خلاف شديد.» كان المصريون يشعرون بأن الفرنسيين أقرب إليهم من الإنجليز، لكنهم يحترمون الإنجليز أكثر. ويضيف هذا المراقب قائلاً: «بينما يبقى الفرنسي بورجوازياً صغيراً مقتصداً وقلقاً بشأن مستقبله، ويقوم بإخماد احتياجاته حتى لا تضنيه النفقات، نجد الإنجليزي يجمع بين عادات السيد الإقطاعى والتاجر الناجح» وإذا كان الموظفون الإنجليز يحصلون على مرتبات أعلى من الفرنسيين «فإنهم أيضاً ينفقون أكثر ويحتفظون بخدم في المنزل يتناسبون مع مرتباتهم». إنهم يحيطون أنفسهم بخدّام عديدين «مما يعبر عن ميل للمظاهر الخارجية الأمر الكفيل تماماً بالتأثير في المصريين»(٤).

وفي وجود الإنجليز كانت فرنسا تجد صعوبة كبيرة في أن تلعب دوراً سياسياً في مصر. وفى عام ١٨٩١ قال الخديو توفيق للكونت دوبينى d'Aubigny ممثل فرنسا: «إنكم بعيدون، وهم يكبلوننى. لماذا لم تجيئوا عام ١٨٨٢؟» لكن توفيق رجل مستسلم لا يسعى إلى التخلص من الوصاية الإنجليزية. ولم يكن هذا هو شأن ابنه الشاب عباس حلمي الذي

4. Albert Métin, *La Transformation de l'Égypte*, Paris, 1903.

خلفه في يناير ١٨٩٢ والذي لا يتحمل أساليب القنصل البريطاني السلطوية، فقد كان اللورد كرومر Cromer هو سيد البلاد الحقيقي. وهذه حالة يمكن لفرنسا أن تستغلها. ألا توجد لدى الخديو الشاب ميول للاستقلال؟ وقد كتب الماركيز دى ريفرسو de Rever-seaux الممثل الفرنسى فى القاهرة إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول: «إنني أشجعه برفق علي هذا النسق من التفكير». لكن لم تكن پاريس تفعل شيئاً أكثر من إسداء النصح إلى عباس بالاعتدال حين يدخل فى نزاع صريح مع كرومر.

مجموعة من الصحف الفظّة

كان فرنسيو مصر يشعرون بعمق بعجز حكومتهم هذا. وأدى بهم هذا الشعور في أكثر الأحيان إلى اتخاذ موقف معاد تجاه المحتل البريطاني. وبما أنهم الأجانب الوحيدون الذين يمتلكون صحف بوفرة فإنهم لم يتأخروا عن نقد إنجلترا والتهكم عليها وتذكيرها بصفة دائمة أنه من المفترض أن تحزم حقائبها وترحل. وخلال التسعينيات من القرن التاسع عشر كانت جريدة «لو چورنال اجبسيان» تنشر صباح كل يوم على رأس صفحتها الأولى وعد ممثلى صاحبة الجلالة الذى كانوا قد أعلنوه بالجلاء.

وكانت صحيفة «بوسفور اجبسيان» التي أنشئت عام ١٨٨٠ من أكثر الصحف التي عانت منها السلطات الإنجليزية. كان توزيع هذه الصحيفة اليومية يصل إلى خمسمائة نسخة وهو توزيع محترم بمقاييس ذلك الزمان. كان يدير هذه الجرٖيدة رجل رهيب من مارسيليا والذي لم يكن قلمه موهوباً ومجادلاً فحسب بل وكانٔ هو ذاته من أكثر أعضاء المجتمع القاهرى نفوذاً (٥). إنه أوكتاف بوريللي Octave Borelli الذي وصل إلى مصر عام ١٨٧٩ وكان يعمل محامياً ومستشاراً بوزارة المالية ورجل أعمال وعضواً بجمعيات علمية عديدة، ومؤسساً مشاركاً فى لجنة تعضيد التعليم الفرنسي العلَماني. كان يحمل لقب البكوية ووسام جوقة الشرف الفرنسي ونصف دستة من الأوسمة الأجنبية. إنه محب لوطنه الفرنسي لا تتغاضى مقالاته الافتتاحية عن شيء يتعلق بالإنجليز ويقوم يوماً بعد يوم بتحليل أعمالهم بدقة لكى يدينها(٦).

لم يستطع القنصل البريطانى كليفورد لويد أن يحتمل تجريح هذه الجريدة اليومية أكثر

---

5. F. Garcin, «Un notable français du Caire à la fin du x1xe sciècle », in *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranné,* Aix en-Provence, no[e] 30. 2[e] semestre 1980.
6. ces articles sont réunis dans son livre, Choses politiques d'Égypte, Paris, 1895.

من ذلك فهي تتهكم حتى على مواقفه المعادية للرق فاستصدر قراراً وزارياً في عام ١٨٨٤ بمنع صدورها. لكن عادت الجريدة إلى الظهور من جديد بعد أن قبلت مبدأ «الرقابة الخفيفة[٧]». وسرعان ما هاجمت نوبار باشا رئيس الوزراء المعتبر بأنه رجل الإنجليز مما أدى إلي حظر صدورها مرة أخرى. تدخلت قنصلية فرنسا في الأمر وتبادلت برقيات دبلوماسية عديدة مع باريس. واتخذ النزاع بشأن جريدة البوسفور سمة رسمية مع الدولة[٨] وفي النهاية اضطر نوبار باشا إلى تقديم اعتذاره إلى الجريدة التي عادت إلى الظهور...

وكان فرنسيو مصر يستمتعون بميزة عذبة هي الانتفاع بالحياة الاستعمارية دون اعتبارهم استعماريين، بل وحتى يمكنهم تنصيب أنفسهم كخصوم للمحتل. وكانت إحدى مفاخرهم العظيمة....جريدة «الاجبشيان جازيت». إنها الجريدة اليومية الوحيدة التي تصدر باللغة الإنجليزية لكنها تضطر في الواقع إلى نشر نصف صفحاتها باللغة الفرنسية حتى تحصل على عدد كاف من القراء! هل يوجد دليل أكثر وضوحاً علي هيمنة إحدى اللغتين على الأخرى؟ أما بالنسبة للصحف الفرنسية فإن عددها يزداد بانتظام: «لا ريفورم» (١٨٩٤)، «ليكو دوريان» (١٨٩٦)، «لوكورييه ديجيبت» (١٨٩٧)، «لوچورنال دي كير» (١٨٩٨)، «لابورص اچيپسيين» (١٨٩٨)، «ليه پيراميد» (١٨٩٩)، «لو پروجريه اچيپسيان» (١٩٠٤). هذا بالإضافة إلى مجلات عديدة مثل «لو لوتس» (١٩٠١)، و «لا نوڤيل ريڤو ديچيبت» (١٩٠٢).

رد بريطاني جارح

إن الفرنسيين في مصر لا يلقون بسلاحهم في مواجهة الإنجليز. وذلك مثلما يؤكد أحد زوار مصر العابرين الذي يقول عنهم: «إنهم يشعرون بأنهم مدعوون إلى الصمود أمام هجمات قاسية[٩].» إن كل فرد منهم مهتم «بالعمل على المحافظة على عاداتنا، وعلى لغتنا، وعلى نفوذنا في مصر». وفي عام ١٨٩١ تم تكوين نادٍ فرنسي في القاهرة في فندق خاص جميل في مواجهة حديقة الأزبكية. ويقول هذا الرحالة: «كان جميع الأعضاء تقريباً يجتمعون يومياً في هذا النادي. إنهم يلعبون ويشربون ويقرأون، ويفرطون بخاصة في الحديث. وكانت الصحف الفرنسية التي تصل حديثاً بالبريد تثير مناقشات كثيرة.» - لقد قام

---

7. Jules Munier, *La Presse en Égypte (1799-1900)*, Le Caire, IFAO, 1930.
8. Archives des affaires étrangères, France, *Affaire du journal «Le Bosphore égyptien»*, 46 documents, Paris, Imprimerie nationale, 1885.
9. Louis Malosse, *Impressions d'Égypte*. Paris, 1896.

هذا النادي «بالتقريب بين جميع الفرنسيين المبعثرين، وبحشد قواهم، وأصبح مركزاً للمقاومة ضد جميع القوى المعادية».

كان يتم إبراز أقل خطأ يرتكبه الإنجليز. «يتحدث الكثيرون من الفرنسيين بصوت مرتفع، ويتشدقون بشجاعتهم، ويسعون نحو التراشق وإثارة المشاحنات في الحانات[١٠].» وقام اللورد كرومر بمنع ضباطه وموظفيه من الرد على الاستفزازات. ومع ذلك تولى أحد معاونيه وهو سير الفريد ميلنر Alfred Milner بإلزام مثيري الشغب حدودهم. كان يشغل منصب وكيل وزارة المالية في مصر، ثم قام بعد عودته إلى إنجلترا بنشر كتاب يلقي الأضواء الكاشفة على الاحتلال البريطاني. صدر هذا الكتاب في لندن عام ١٨٩١ وترجم بعدها ببضع سنوات في باريس ويضم عدة صفحات مليئة بالتهكم اللاذع على الفرنسيين[١١].

ويعترف ميلنر بأن بلاده أخلت بوعدها بالجلاء عن مصر. ويعزو ذلك إلى خطأ أساسي: «كنا نظن بأنه ليس علينا إلا قمع ثورة عسكرية»: والحال أن جوهر الموضوع يتعلق «بالفساد العميق في النظام الحكومي». واستهدفت الإصلاحات تعديل الأوضاع بينما كانت فرنسا تستغل كل مناسبة لمعارضة هذه الإصلاحات. وكانت معارضتها تشتمل على إثارة إزعاجات دنيئة وعلى ارتكاب «نقائص خطيرة». هكذا حاولت تعطيل إلغاء السخرة ومنع فرض ضرائب على الأجانب بطريقة عادلة، في الوقت الذي «كانت فيه موضع سخرية لأنها احتفظت بخدمة بريدية خاصة في مصر في حين كانت جميع الدول الكبرى الأخرى قد تخلت عن هذه الميزة المتخلفة».

ويضيف ميلنر قائلاً بأن فرنسا تتخيل «بأنها تتحدث باسم نصف العالم المتمدين»، في حين أنها الدولة الأوروبية الوحيدة التي تتخذ هذا السلوك. لا جدال بأن هذه السياسة «المقيتة» تعود إلى حقيقة أن «الغيرة قد استولت عليها». لكن لا يجب عليها أن تغضب إلا من نفسها لأنها في عام ١٨٨٢ «تهربت» في اللحظة الأخيرة بعد أن دفعتنا إلى التدخل عسكرياً في مصر.

ويعترف ميلنر بأن الفرنسيين كانوا «رواداً للنفوذ الأوروبي» في وادي النيل. لكن يجب عليهم ألا ينسوا بأنه «توجد حقوق خاصة أيضاً لأمم أخرى» تجعلها تهتم بهذه البلاد: مثل النمسا التي تتساوي تقريباً مع فرنسا في قيمة تجارتها مع مصر، أو اليونان وايطاليا اللتين لديهما رعايا في مصر أكثر عدداً من رعايا فرنسا. ومن جهة أخرى فإنه من غير

10.Jacques Berque, *L'Égypte, impérialisme et révo;ution,* Paris, Gallimard. 1967.
11. Alfred Milner, *L'Angleterre en Égypte,* Paris, 1898.

الممكن بأنْ تكون فرنسا غير مبالية. فإذا كانت قد قامت بأعمال طيبة، إلا أنها ارتكبت أيضاً شروراً كثيرة: « فقد التهمت قناة السويس الملايين من الأموال المصرية، كما أودت بحياة الآلاف من الضحايا المصريين.»

وأخيراً وليس آخراً لا توجد لدى الفرنسيين مروءة. ويؤكد ميلنر بأنه حينما «كنا نقوم معاً بإدارة مالية البلاد» كانت پاريس تبتغي «استنزاف المدين المصرى حتى آخر فلس يمتلكه»، بينما كانت لندن تطالب «ببعض الرعاية» لهذا الشعب البائس. ولم يخف هذا على رجال الدولة المصرية الذين يشعرون «بمقت شديد» تجاه السياسة الفرنسية. وها نحن نرى النتيجة: لقد فقدت فرنسا نفوذها لدى الطبقات المتعلمة، في حين كان يمكنها ممارسة «نفوذ ضخم» في مصر بسبب لغتها وثقافتها.

(٢)

المصري، هذا الطفل الكبير

كانت أغلبية الصحف والمجلات الناطقة بالفرنسية والصادرة في مصر تناضل ضد الاحتلال البريطاني. لكن هذا لا يعني أنها تؤيد استقلال البلاد. إذ يرى الفرنسيون أنه ليست لدى المصريين القدرة على حكم أنفسهم بأنفسهم، وقد برهنوا على ذلك خلال أحداث عام ١٨٨٢ المشئومة. وكتب أوكتاف بوريللي OCTAVE BORELLI في جريدة «لوبوسفور اجبسيان» بصراحة قائلاً: «إن عرابي رجل دجال يدعو إلى الرثاء، وهو دليل على عجز بني جنسه حين يتركون لتدبير شئونهم بأنفسهم.» لا ريب أنه يوجد مصريون «متميزون» و«متفوقون» ، لكنهم عاجزون عن «إدارة » الشئون العامة في مصر طوعاً وبمفردهم. لا يمكن لمصر «المنبثقة عن العمل الأوروبي منذ نصف قرن» أن تستغني عن المساهمة الأوروبية. وأوروبا هي في المقام الأول فرنسا.

وعلى هذا لا يمكن حل «مسألة مصر» إلا بالتدويل. وقد قدم أرنست رينان [كاتب فرنسي ١٨٢٣–١٨٩٢] تسويغاً شبه فلسفي لهذه الفرضية حين قال: إن مصر ملك للعالم ، وليس من حقها أن تكون أمة.

وحيث إن الصحافة الفرنسية كانت راغبة في فضح مساوىء الاحتلال البريطاني فقد اتجهت نحو التعاطف مع السكان المصريين. وتؤكد جريدة «لو بوسفور» بأن المصريين [illegible]ون، وعقلاء، ومتسامحون»، لكن هذا الإطراء يخفي في طياته الفكرة المترسخة تماماً [illegible] المصري رجل ضعيف الشخصية وسلبي يخضع بسهولة إلى جميع أنواع الهيمنة. ألم يقم في ظل قيادة عرابي «بثورته العسكرية كما قام ببناء الأهرام وهو نائم[1]» إن هذا الشعب السلبي هو أيضاً «شعب طفل بصفة دائمة» وفقاً لما كتبه العديد من المؤلفين.

1. Farida Gad aL-Haqq, «L'image de l" Égyptien dans la presses française d'Égypte (1882-1898), in Images d'Égyptr, Le Caire, CEDEJ, 1992.

ووصف دليل «لو جيد چان» السياحى المصريين في عام ١٨٩٤ بقوله : «جوهر الطبع المصري هو الطيبة المتهاونة، والميل نحو قبول كل شيء بلا تذمر ...الرضا بالأمر الواقع مهما كان» . ولم يكن ما قاله أوچين فرومانتان Eugène Fromentin [كاتب فرنسي ١٨٢٠-١٨٧٦] عن المصريين يختلف كثيراً: «هذا الشعب وديع، مرح إلى أقصى حد بالرغم من بؤسه ومن خضوعه. إنه يضحك من كل شيء، ولا يفور غضباً. صوته مرتفع ويصرخ كما يكثر من الإشارات والحركات مما يجعلنا نعتقد أنه غاضب، في حين أنهم يضحكون.»

وكتب فرومانتان : «هل هو شعب مجتهد؟»... «لا أعتقد ذلك، لا يوجد سوى عاطلين عن العمل في كل مكان في الريف كما في المدن.» إنه شعب متسول: «إنهم شحاذون بالسليقة، وكلمة «بقشيش» توجز مفردات اللغة المعتادة كما أن حركة مد اليد هي مجمل حركاتهم الإيمائية. إنهم يطلبون إحساناً ويلحون في الطلب ويتابعونك بقولهم «بقشيش» «بقشيش كتير» وينتظرون منك أن تعطيهم، وحين تعطيهم يطلبون مرة أخرى. لا يكلفون أنفسهم شيئاً. صبورون بصورة استثنائية، كما أن تطفلهم بلا حدود، لا توجد لديهم ذمة أو حياء بشري.»

جماعة شديدة البهيمية

في عام ١٨٩٣ نشر الدوق داركور duc d'Harcourt [كاتب فرنسي ١٨٨١-١٩٦٥] كتاب «مصر والمصريون» وهو كتاب مليء بالضلال ومشحون بالشتائم والازدراء. وعلى مرّ الصفحات نقرأ ملاحظات مثل: «السمة المميزة للجنس المصرى هي القدرة على تلقي الضربات...إنه جنس بائس! ويحكم عليه تخاذله بأن يكون مستغلاً ومستنزفاً بصفة دائمة من جانب الأجانب.» ونقرأ له أيضاً: «يتكون مجموع السكان من عبيد، ولا يحمل هذا الاسم غير خدم الأغنياء وحدهم، وهم في عبوديتهم أقل تعاسة من الآخرين.» ولو أنهم على الأقل طمحوا إلي المعرفة وحاولوا النهوض! «من الأمور الشائعة لدى المصريين عدم الاكتراث بالحقيقة، إنهم يرغبون في ألا يعرفوا وألا يفهموا، ويبدو أنه لا يمكن جعلهم يشعرون بقيمة الحقيقة ولا بشرف المعرفة والفهم.»

إن دليل السائحين «بايديكر» Baedaker وهو مرجع كل رحالة مثقف يقارن فى طبعته الفرنسية عام ١٨٩٨ بين الفلاحين المصريين وحيواناتهم فيقول : «بصفة عامة تصل قامة الفلاح إلى فوق المتوسط، كما أن مجموع عظامهم صلبة وبخاصة عظام

الجمجمة فهي صلبة وسميكة بصورة غير عادية. إن مفاصل القدمين واليدين قوية للغاية بل وشبه ثقيلة. وتتماثل جميع هذه السمات مع الحيوانات المنزلية التي تعيش معهم، لكنها تتباين بوضوح شديد مع سمات سكان الصحراء...»

فهل تنظر الطبقة المصرية الحاكمة التي أغلبها من أصل تركي إلى الفلاح المصري بطريقة مختلفة؟ إن عدداً من الزوار الفرنسيين لا يفعلون أكثر من ترديد ما سمعوه في قصور القاهرة. وهذا لا يمنعهم من ازدراء الحكام والفلاحين في آن واحد. فقد تحدث أرنست رينان أثناء استقباله لفردينان ديلسبس في الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٨٤ عن سعيد باشا الوالي المتوفي بالعبارات التالية: «لقد كنتَ تمارس سلطة غريبة عليه، وحينما صعد على العرش قمت بالسيادة معه. كان يتصل عن طريقك بشيء أرفع منزلة وأعلى مقاماً ويدركه جزئياً، وهذا الشيء هو هدف مثالي من المعرفة والعدالة تشعر روحه المتأججة بأنها تواقة إليه. لكن ضباباً قاتماً يخرج من هوة قديمة من الهمجية تحجب عينيه بصفة مؤقتة». وقد عبر رينان عضو الأكاديمية الفرنسية الشهير عن نفسه بوضوح أمام الصفوة الأدبية المنتقاة في باريس فوضع الفلاح الطفل في نفس السلة مع الأمير الهمجي وقال لأولئك الذين لم يدركوا ما يعنيه: «الهمجي هو دائماً طفل.»

وقد كشف كاتب–رحّالة هو ادوار شوريه Édouard Schuré عن هذه الهمجية لدى الراقصات المصريات. فقام بوصفهن وصفاً طويلاً ينم عن تلذذ المتلصصين لكن من أجل التشهير بهن بطبيعة الحال. كان قد دخل صدفة في مسكن يقع في نهاية شارع مظلم، وقد جذبه ايقاع موسيقى صاخبة، ولاهثة مثل خفقان نبض الحمى». إنه لا يخفي شيئاً عن القارىء: «كانت الراقصة ترتدي سترة مطرزة ومغطاة بصفائح معدنية تصنع نوعاً من الدرع فوق صدرها. وكانت التنورة مخططة بشرائط أفقية عريضة صفراء اللون على شكل أوراق الصبار..إنها تقف منتصبة. لكن الشيء الغريب أن أجزاء جسدها الثلاثة الرأس والصدر والأجناب لا تهتز إلا بالتتابع وعلى انفراد. تتحرك الرأس أولاً أفقياً وتلقائياً من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين مثل رأس ثعبان يستيقظ من النوم. وبعدها ينتعش الثديان ليتحركا الحركة الاهتزازية ذاتها دون مشاركة من باقي الجسم. ويبدأ الجانبان أخيراً في الحركة بذاتهما. ثم تسري ارتجافات وحركات عديدة متنوعة في الأرداف والكلى في حين تكون رأس الراقصة ساكنة تماماً....ومن ثم تصعد نشوة عميقة من الأجناب إلى الرأس لتعود من الرأس إلى الأجناب في تثاقل ثم في تسارع دائم...»

وقال ادوار شوريه الذي لم يذهب إلى ذلك المكان إلا للتزود بالمعرفة وللدفاع عن الأخلاق: «لقد شعرت بذهول مقرون بالشفقة أمام هذه العودة الطوعية للبهيمية، وهذا

الانحلال للشخصية الإنسانية...إن ما نشهده هو رقص تشنجي للغريزة الحيوانية، والتهام للروح بواسطة المادة». (٢)

وتحدث العديد من الرحالة الفرنسيين الآخرين بالطريقة الخبيثة ذاتها عن «رقصة النحلة» التي تتظاهر فيها شابات نوبيات بأن حشرة قد لدغتهن فيقمن بفحص أجسادهن ويخلعن أول قطعة من ملابسهن ثم قطعة ثانية بينما يلتوين بعمق متزايد وينتهين بالارتماء فوق ركب المشاهدين الذين يلصقون قطع النقود في نهودهن المبللة...يا لها من حيوانية بغيضة!

لوازم السائح

من المحتم أن يبدأ وصف كل رحلة إلى مصر برسم صور الضجيج والفوضى ذاتها التي يواجهها المسافر عند وصول السفينة إلى الإسكندرية. ولم يتخل الفرنسي مونبار Montbard المسافر على ظهر الباخرة «سعيد» في عام ١٨٩٠ عن ممارسته لهذه العادة المتبعة فهو يكتب: «رست الباخرة، صعد مرشد بحري على ظهرها. وبعد أن قامت ببضع دورات حلزونية عبرت المضايق الصعبة الكائنة عند مدخل الميناء، ثم ألقت بالمرساة وسرعان ما أحاط بها حشد من القوارب، وما أغار نوتية هذه القوارب على سطح الباخرة. كان هؤلاء غير عاديين فهم ثرثارون وصاخبون ويلهون فوق ظهر السفينة كأنهم أرجال من الجراد.» ويستمر مونبان مستخدماً نفس النغمة فيقول «تقوم هذه الجماعة بغزو سطح الباخرة وسط ضجيج مفزع. فهم يبرزون من جميع الجهات ويخترقون كوات الباخرة بحركات سريعة كالقطط. يصعدون فوق حبالها ويقفزون بعضهم فوق البعض ويتدافعون فيما بينهم وهم يضحكون ويتصايحون ويقومون بحركات كثيرة ثم يستولون على كل ما يقع بين أيديهم». إنهم جراد وقطط شبيهة بالقرود...

وفي خلال شتاء عام ١٨٩٥ جاء جوستاف پول Gustave Paul موثق العقود بمدينة نانسي الفرنسية لزيارة مصر برفقة ابنته مارجريت وقد أفضي بانطباعاته الأولي عن مدينة الإسكندرية إلى زوجته التي بقيت في فرنسا: «رأيت عديداً من السكان العرب قذرين ومقملين... إننا نري فيها خليطاً من كل أنواع الناس والأجناس والألوان ويتحدثون جميع اللغات...» وأصيبت مارجريت أيضاً بالهلع.، فقد حدث في الواقع أن انتقلت إليها برغوثة من أحدهم.

ولكن بعد مضي أسبوع واحد غيرت مارجريت لهجتها كما لو كانت قد وقعت أسيرة

2. Édouard Schuré, Sanctuaires d'Orient, Paris, 1898.

لسحر البيئة. فهي تتحدث الآن عن «أحيائنا العربية العزيزة في القاهرة»[٣]. ويقوم والدها بالتقاط صور لها وهي واقفة فوق هرم خوفو وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على ثغرها. إن موثق العقود يهوى التصوير بشدة ويقوم بنفسه بتحميض الكليشهات ويحمل معه معداته ولوازمه، لكنه يطلب الحصول على ألواح حساسة أخرى من مدينة نانسي وإرسالها له في مصر. وقد أحضر معه من مصر أكثر من ألف صورة للمشاهد!

ودعي الأب وابنته إلى حفل عشاء في القاهرة لدى فرنسيين من علية القوم؛ وهم معادون للبريطانيين بعنف. قام جوستاف بتصوير حفل عرس باذخ وكانت مارجريت مرتدية ثوب حفلة راقصة صنعته لها خياطة بالقاهرة...ثم صعدا فوق ظهر المركب «الخديو» للقيام برحلة نيلية إلى أسوان مدتها ثلاثة إسابيع. وفي المساء التفت السيدات على ظهر المركب حول البيانو ينشدن ألحان ماسينيه [ملحن فرنسي ١٨٤٢-١٩١٢].

ويظل اعتبار الذهاب إلى مصر في التسعينيات من القرن التاسع عشر بأنه مغامرة. هذا حتى وإن كانت تقوم بتنظيم الرحلة وكالات سياحية مثل كوك أو جازيه. ويخصص دليل «بايديكر» السياحي عدة فقرات «للاحتياطات الصحية» التي يجب اتخاذها. فهو يدعو السائحين الذين سيقومون برحلة طويلة إلى التزود بصيدلية حقيقية تشتمل على أدوية ضد الحمّى، والإسهال، وضربات الشمس، وحقن ضد لدغ الحشرات، بل وضد الإمساك المزمن، والدوزنتاريا، والتهاب العيون، والإنهاك...

وتوجد أيضاً قوائم بالأشياء التي يجب أن يحضرها السائح معه من أوروبا: كوب، وإناء معدني للماء، وسكين جيد، وميزان حرارة، وبوصلة، ومصباح ماغنسيوم لإنارة الأماكن المظلمة...

ويذكر دليل بايديكر أنه «من أجل القيام بزيارة سريعة للبلاد، يكفي من أربعة إلى خمسة أسابيع»، وقد أقام جوستاف پول وابنته في مصر مدة شهرين. وعاد موثق العقود إلى فرنسا وهو يحمل مسدساً. وفي مصر اكتشف «الكرباج» ، إذ قال في خطاب إلى زوجته أن هذه الأداة «تلعب دوراً هاماً في الحياة هنا» وبأن السائحين لا يستغنون عنها. لقد قام بنفسه بالاستفادة من استخدام «الكرباج» في صعيد مصر لكي يضرب حمّارة غير أمناء.

3. Geoffroy de Saulieu, *Deux mois en Égypte en 1895*, mémoire de maîtrise d'histoire université Paris IV-Sorbonne, 1997.

(٣)

في المدرسة الفرنسية

كيف يمكن منع الإنجليز من السيطرة على كل إفريقيا؟ لقد عضد الحزب الاستعماري في پاريس بشدة مبادرة ضابط البحرية الكابتن مارشان Marchand [١٨٦٣-١٩٣٤] الذي اعتزم الذهاب إلى الكونغو الفرنسي، وبأن يسلك طريقاً عبر الغابات والمستنقعات للصعود حتى السودان. ونجح الرهان: ففي يوم ١٩ يوليو ١٨٩٨ وصل إلى الفاشر على النيل الأبيض عقب رحلة قطع خلالها عدة آلاف من الكيلومترات وبرفقته عشرون ضابطاً وحوالي مائتان من القناصين السنغاليين والحمّالين. وقام بتوطين فرقته الصغيرة في حصن مهدم رفع فوقه العلم الفرنسي ثلاثي الألوان.

وشرع الإنجليز من ناحيتهم في غزو السودان الذي كان في السابق مصرياً. واتجه جيش كبير العدد نحو الجنوب وأخذ يستولي على مدينة بعد أخرى حتى وصل إلى العاصمة أم درمان. ودفع الجنرال كتشنر [١٨٥٠-١٩١٦] قواته إلى الجنوب أكثر حتى وصل يوم ١٨ سبتمبر أمام الفاشر ومعه تشكيلة من المدافع. وقد هبط على هؤلاء الفرنسيين الذين ظهروا فجأة. كان الاتصال الأول بين الجانبين مهذباً لكنه فاتر للغاية. قال كتشنر لمارشان بأن السودان قد عاد مصرياً وبالتالي إنجليزياً ثم دعاه إلى الرحيل. رفض الكابتن الفرنسي بعجرفة وأعلن أنه ينتظر تعليمات حكومته. وفي الحال بدأ جهاز الإرسال البرقي البريطاني في الطقطقة بينما أقام الجانبان معسكريهما وجهاً لوجه.

وفي پاريس كما في لندن تأججت الصحافة. هل سيدخلان في حرب من أجل الفاشر؟ كانت فرنسا منقسمة على ذاتها بسبب قضية دريفوس Dreyfus ، ولم تكن لديها الرغبة ولا الإمكانيات لشن حرب كهذه . إن عقد تحالف مع ألمانيا هو وحده الذي يسمح لها حقاً بإثارة مثل هذا التهديد، لكن ألمانيا تحتل الألزاس واللورين...وفي يوم ٣ نوفمبر قررت الحكومة الفرنسية الجلاء عن الفاشر. الرأي العام الفرنسي واجم. إنهم

يتظاهرون في شوارع باريس الكبيرة ويسودهم شعور بالغضب والعجز. لم يبق أمام حامية الفاشر الصغيرة إلا أن تحمل علمها ثلاثي الألوان وترحل . ومن بعد أنْ أصبح النيل ملكاً لإنجلترا وحدها.

ومع ذلك فتحت مهانة حادث مدينة الفاشر الطريق أمام ما سمي «بالاتفاق الودي» بين فرنسا وإنجلترا. ففي إبريل ١٨٩٩ عقد أول اتفاق فرنسي-إنجليزي. وفي يوم ٨ إبريل ١٩٠٤ وصلت باريس ولندن إلى تحقيق تسوية شاملة لمنازاعاتهما الاستعمارية، وتحديد منطقتي نفوذهما: أطلقت يد فرنسا حرة في المغرب كما يمكن لإنجلترا الاستمرار في احتلال مصر لأمد غير محدود. وتم تسويغ الاحتلال العسكري بمتابعة عمل إصلاحي طويل الأمد. هكذا أعفيت بريطانيا من تعهدها بالجلاء عن وادي النيل وحصلت على عذر لعدم تنفيذ وعدها.[١]

إن الاتفاق الودي المعقود بدون إخطار السلطان العثماني-في حين أنه لا يزال من ناحية المبدأ متولياً لشئون مصر- ينص على نقل اختصاصات صندوق الدين الأساسية إلى الحكومة الخديوية. هكذا وجدت فرنسا نفسها محرومة من ركيزتها السياسية الحقيقية. وفي المقابل حصلت على بعض الضمانات: فمدارسها بخاصة ستظل تتمتع بالحرية ذاتها، كما أن موظفيها سيحصلون على معاملة متماثلة مع نظرائهم الإنجليز.

وأدى الاتفاق الودي إلى اطمئنان المستثمرين. وشهدنا تدفقاً لرؤوس الأموال نحو مصر، وظهور شركات وبنوك فرنسية عديدة. وأصبح وادي النيل مكاناً جيداً لتوظيف رؤوس الأموال طالما أن نسبة الأرباح تتراوح بين ٨ و١٥ ٪ أي تزيد بمقدار الضعف عن نسبتها في فرنسا[٢]. لكن الوطنيين المصريين لا يغفرون لفرنسا أنها خذلتهم وتخلت عنهم. وكان مصطفي كامل من أشهر هؤلاء فهو مؤسس للحزب الوطني وحاصل على ليسانس في القانون من جامعة تولوز الفرنسية، وكان يتراسل بانتظام مع چولييت آدم الصحفية الفرنسية بباريس التي يسميها «سيدتي العزيزة» أو «ماما». وفي يوم ١٠ مايو عام ١٩٠٤ كتب لها خطاباً من فندق سان ستيفانو في الإسكندرية قال فيه بمرارة: «سيكون للاتفاق الودي المشئوم آثاراً سيئة على بلادنا التعيسة... مواطنو بلادي يبغضون فرنسا اليوم أكثر من إنجلترا ذاتها...إن فرنسا هي أول دولة كبرى في أوروبا تقر الاحتلال بعقد رسمي!...الإنجليز يسخرون منا لأننا كنا بلهاء حين وضعنا ثقتنا في فرنسا.»

1. Gabriel Hanotaux, *Histoire de la nation égyptienne*, Paris, Plon, 1931-1935.
2. Samir Saul, «La France et l'Égypte à l'aube du XX^{e} siècle», in le *Miroir égyptien*, Marseille. Éd. du Quai, 1984.

وعانت فرنسا في مصر فور خضوعها في مدينة الفاشر: فقد قامت عائلات عديدة بسحب أطفالها من الأقسام الفرنسية في التعليم العام ونقلتهم إلى الأقسام الإنجليزية لتأمين مستقبلهم. ووجدت الأقسام الإنجليزية نفسها تضم ثلاثة أرباع التلاميذ في حين كانت من قبل تضم الربع فقط . وأدى الاتفاق الودي المعقود عام ١٩٠٤ إلى تعضيد هذه الظاهرة. بما أن الطريق أصبح مفتوحاً أمام البريطانيين في مصر، فيجب تعلُّم لغتهم للعمل في الإدارة. اختفت الأقسام الفرنسية من التعليم العام بعض الوقت قبل أن تستعيد صعودها لكنها ظلت من بعد في المركز الثاني بعد الإنجليزية.

اللجوء إلى المحاكم المختلطة

كان الرجل الذي وضعه الإنجليز في وزارة التعليم المصرية لا يساهم في كسب محبة الناس لهم. إنه دوجلاس دانلوب Douglas Dunlop الذي اتخذ إجراءات حمقاء عديدة بأسلوب الرجل العسكري. وقد وصفه ممثل فرنسا في برقية أرسلها يوم ١٤ أغسطس ١٩١٨ بقوله: «أفق ضيق، وعقلية سطحية». كان المصريون الأكثر ثقافة ساخطون على اختيارات وأساليب هذا الموظف الكبير الذي يفضل ألا يعرف مرؤوسوه الإنجليز اللغة العربية: «إن معرفتهم للغة العربية سيوجد لديهم أفكاراً رومانسية بشأن أهالي البلاد، وسوف يضيعون وقتهم في استخدام اللغة العربية لشرح ما يجب عليهم تعليمه للأهالي بدلاً من جعل الأهالي يتعلمون الإنجليزية.[٣]» كان مستر دانلوب ينطلق من مبدأ أنه لا يمكن تعليم العلوم باللغة العربية ، فضلاً عن أن عدداً قليلاً من المصريين هم الذين يحتاجون إلى تعلُّم العلوم. وتندرج هذه السياسة في الرغبة في التوفير: مجانية تعليم أقل، ومدارس ثانوية أقل، وبعثات تعليمية للخارج أقل...وقد توصل المثقفون المصريون إلى استنتاج بأن هدف إنجلترا هو «استخدام موظفين صغار لا يقومون بمبادرات خاصة ومجردين من الحافز، وليس هدفها تعليم الشعب حقيقة[٤]».

كان المراقبون الإنجليز ذاتهم في غاية القسوة تجاه دوجلاس دانلوب الذي يجد تعضيداً من اللورد كرومر. وقد ذكر سير ڤالانتاين شيرول أن: «الاحتلال البريطاني لم يفشل بمثل هذه الصورة المحزنة مثلما فشل في مجال التعليم[٥]». وكان يبدو أن إنجلترا لا تسعى حتى إلى إقامة مدارس تجتذب أبناء البورجوازية المصرية. ولزم الانتظار حتي عام ١٩٠٨

3. Wilfrid Scaven Blunt, *My Diaries*, New York, 1921.
4. Ahmed Chafik, *L'Égypte moderne et les Influences étrangères*, Le Caire, 1931.
5. Valentine Chirol, *The Egyptian Problem*, Londres, 1920.

لكي نرى في الإسكندرية مولد كلية ڤيكتوريا الممتازة حيث يتم التعليم باللغة الفرنسية أيضاً تلبية لحاجة طالبي العلم.

واستفادت المدارس الفرنسية كثيراً من الإصلاح القضائي الذي أجري عام ١٨٧٥ في عهد الخديو إسماعيل. وهو الإصلاح الذي كانت فرنسا تعارضه -ياللتناقض!- خلال أمد طويل. كان إنشاء المحاكم المختلطة يستهدف التقليل من الامتيازات الشائنة التي يستمتع بها الأجانب المقيمون في مصر والذين كانوا يجدون دائماً الوسيلة للإفلات من العدالة المحلية حتى فى نزاعاتهم مع المصريين. وقد تصوروا حينذاك نظاماً مبتكراً يضم قضاة أجانب ومصريين معاً للفصل في المنازعات المدنية والتجارية بين أشخاص ينتمون إلى جنسيات مختلفة. حقق النظام الجديد نجاحاً باهراً. لم يعد يرغب أحد في المثول أمام المحاكم الأهلية. فإذا ما كانت الشركات المساهمة تخضع طبيعياً للنظام القضائي الجديد إلا أن بعض المصريين كانوا يختلقون «مصلحة مختلطة» لكي يلجأوا إلى محكمة مختلطة.

كانت اللغة الفرنسية مهيمنة في المحاكم المختلطة، سواء في المرافعات أو في الوثائق الرسمية. وكانت اللغة الايطالية هي الوحيدة التي تنافس الفرنسية، لكن فرنسا تمتلك ميزة حاسمة بالنسبة لايطاليا: إن مجموعة القوانين التي تبنتها هذه الهيئة القضائية المهيبة ليست سوى قوانين نابليون التي تم تبسيطها وتكييفها لتتوافق مع مصر.

وقد علق چاك دومال الذي كان ممثلاً لفرنسا في القاهرة خلال الفترة بين الحربين العالميتين على المحاكم المختلطة فقال: «لقد تضاعف النفوذ الفرنسى مائة مرة، وأصبحت مجموعات القوانين الفرنسية وكتب القانون الفرنسي أدوات العمل لجميع القضاة مما جعل لا غنى عن معرفة اللغة الفرنسية ...كانت العقود تكتب بالفرنسية بسبب احتمال اللجوء إلى المحاكم المختلطة. إن المرافعات التي يمكن نظرياً أن تكون باللغة العربية أو باللغة التي يعرفها القاضي تحولت شيئاً فشيئاً لتصبح باللغة الفرنسية وحدها وأصبح المحامي الحريص على كسب قضيته لا يستطيع المغامرة بالترافع بلغة أخرى غير الفرنسية.. هكذا هيمنت اللغة الفرنسية، والفكر الفرنسي والقانون الفرنسي[٦] ».

وتوفّر المحاكم المختلطة وظائف لقضاة ولمحامين بل وأيضاً لموثقي عقود وحُجّاب وسكرتيرين... ومن الطبيعي أن يساعد ذلك على نمو المدارس الفرنسية لقيامها بتزويد هذه المحاكم بالعاملين فكان الحاصلون على دبلومات مدارس الفرير والچيزويت الاختياريين

6. Jacques d'Aumale, *Voix de l'Orient*, Montréal, Variétés, 1945.

الالتحاق بالمدرسة الخديوية للقانون (إدارة إنجليزية لكنها تضم قسماً فرنسيا) أو المدرسة الفرنسية للقانون المنشأة عام ١٨٩٠ والتي تجتذب عدداً متزايداً من الطلبة. وكان يجب على طلبة القسم الإنجليزى بالمدرسة الخديوية أن يتابعوا أيضاً دراسة اللغة الفرنسية ليتمكنوا من الاطلاع على كتب القانون الفرنسية التي لا يمكن الاستغناء عنها. أما امتحانات مدرسة القانون الفرنسية فكانت تتم في فرنسا. وكان پيليسييه دو روساس مدير المدرسة يكافيء الطلبة في كل صيف بمرافقتهم إلى باريس لمشاهدة استعراض ١٤ يوليو [ذكرى الثورة الفرنسية] من منصات لونجشان...

رهبان وراهبات الجمهورية

في عام ١٩٠٨ كانت المدارس الفرنسية تضم ٢٥ ألف تلميذ، أي ما يساوي سدس مجموع عدد تلاميذ المدارس في مصر. ويجب أن نضيف إليهم حوالي ألفين و٥٠٠ تلميذ ملتحقين بمدارس غير فرنسية -مثل الأليانس اليهودية- لكنها تقدم تعليماً فرنسيا(٧). وتحتل مدارس الفرير المقدمة إذ كانت تضم ٦ آلاف تلميذ، تليها مدارس الچيزويت والفرنسيسكان. وتتوزع الفتيات بين مدارس تضم أقساماً داخلية هي «مير دي ديو» و«بون پاستور» و«بنات البر»، و«إرسالية مدينة ليون الإفريقية» و«نوتردام دي لا ديليڤراند». هذا فضلاً عن المدارس العلمانية الخاصة التي أضيف إليها بدءاً من عام ١٩٠٩ ثلاث مدارس ليسيه في القاهرة والإسكندرية وبورسعيد. ولا ريب بأن الحرب المدرسية التي كانت تزعزع فرنسا قد أثرت على هذا التعليم الفرنسى في الخارج. لم تكن الجراح قد اندملت بعد منذ منع الجمعيات الدينية (١٩٠٤) الذي لا يزال حديثاً للغاية. وحين افتتحت ليسيه الإسكندرية أبوابها كان الچيزويت يقولون إنها «عمل علماني وليس فرنسياً.» وكانوا يحذرون التلاميذ بأن من يلتحق بالليسيه لن يستطيع العودة إلى المدارس الدينية...لكن بدأت الخلافات تخف حدتها عاماً بعد عام بصورة أسرع مما في فرنسا. وقد شهدنا في عام ١٩٤٥ مدارس الفرير المسيحية في المنصورة تتنازل عن مبانيها للبعثة العلمانية. وأصبح تنافس المدرسة الكاثوليكية مع «المدرسة اللادينية» لا يزيد في حدته على تنافس المدارس الدينية مع بعضها البعض. ويلزم القول بأن العرض كان متوازناً مع الطلب: كانت الفرصة متاحة في مصر الإنجليزية أمام الطلبة الذين يرغبون في التعلُّم باللغة الفرنسية!

7. Léon Polier, «La France en Égypte», in *Revue des Deux Mondes*, 1er août 1914.

كانوا في باريس يتجنبون تماماً عرقلة المدارس الخاصة. فقد وجدت المدارس الدينية الفرنسية في مصر تعضيداً من الجمهورية الثالثة حتى خلال أكثر أوقات الحملة المعادية للكهنة حدة. وقد صرح قنصل فرنسا أثناء افتتاحه لكنيسة الچيزويت يوم ٣١ مارس ١٨٨٦ بأن: «كل مدرسة دينية تقام على ضفاف مصر هي قلعة محبة للسلام يشع منها حب فرنسا في ظل احترام علم بلادنا.» ولم يكن من الممكن تصور إقامة أي حفل هام في هذه المدارس ولا أي توزيع للجوائز في القاهرة أو في الإسكندرية دون أن يوجد في الصف الأول ممثل فرنسا الدبلوماسي.

ويتصدر ممثل الجمهورية الفرنسية ويسمونه «وزير فرنسا» رئاسة القداس الاحتفالي القنصلي الذي يقام أربع مرات في العام (عيد القيامة، وعيد العنصرة، وعيد جميع القديسين، وعيد الميلاد). وتتم دعوة جميع الفرنسيين المقيمين في القاهرة إلى هذا القداس، ويرى العديد من بينهم أنه من واجبهم الحضور بالرغم من أفكارهم المناهضة للكهنوت. ويلتقي الجميع في صالونات مقر وكالة الجمهورية. فيقف أمام باب المقر صف طويل من العربات. يستقل الوزير العربة الأولى ثم يتحرك الموكب عبر شوارع القاهرة للتذكير علناً بأن فرنسا هي حامية الكاثوليك في الشرق...يدخل الوزير الكنيسة يسبقه ثمانية «قواسين» يرتدون بنطلونات زرقاء منتفخة، وسترة صغيرة مخططة بخيوط ذهبية. ويحضر القساوسة ليقدموا إلى ممثل الجمهورية الإنجيل والصليب الذي يحمل المسيح ليقبله. ويقومون بتبخيره ثلاث مرات. وفي القداس الذي يستمر ساعتين كاملتين ينشدون باللغة اللاتينية نشيد («اللهم، احفظ الجمهورية»)[٨]. ولا يتبقى على وزير فرنسا بعدها سوى الذهاب خلال الأيام التالية ليتصدر ثلاثة قداديس أخرى في الكنائس الكاثوليكية الشرقية...

كانت المدارس الثانوية والداخلية تقبل تلاميذ من جميع الجنسيات والأديان. وعند منعطف القرن كان يوجد بها بطبيعة الحال فرنسيون وأوروبيون آخرون، بل وأيضاً نسبة كبيرة من المصريين والعديد من الشرقيين الذين من أصل سوري. كان الكاثوليك يمثلون نصف عدد التلاميذ الإجمالي. ويضم النصف الآخر مسلمين ويهود وبروتستانت قليلين وعدداً كبيراً من الأرثوذكس الأقباط أو اليونانيين، وكان مديرو هذه المدارس يسمون الأخيرين «المنشقين».

ولا يمتنع الرهبان والراهبات عن تدريس العقيدة والأخلاق الكاثوليكية لجميع الأطفال

8. Louis Malosse, *Impressions d'Égypte*, Paris, 1896.

الذين يلتحقون بمدارسهم. ولا تستطيع عائلات التلاميذ تجاهل هذا الأمر. إنها أحياناً تثور مثل هذين الوالدين اليهوديين اللذين أخرجا أطفالهما بصخب من مدرسة الجيزويت بالإسكندرية عام ١٨٩١ لأن إدارة المدرسة أجبرتهم على حضور القداس ولم تسمح لهم بالخروج في أعيادهم الخاصة. وقد أدى هذا إلى حدوث فضيحة صغيرة، ولكننا في مدينة الإسكندرية حيث كانت الجالية اليهودية تتمتع بنفوذ قوي. وعلى أية حال فقد انتهت مدرسة الجيزويت بالإسكندرية التى كانت تنشر تعليماً كلاسيكياً بإغلاق أبوابها في عام ١٩١٩ لأنها لم تتوافق مع الاحتياجات الاجتماعية والمهنية لهذه المدينة التي كانت جامعة لأجناس مختلفة[٩].

ولم يبدأوا في التمييز بين المسيحيين والمسلمين واليهود إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. كان الفرير وقتذاك «ينشرون نوعين من التعليم الديني»: أحدهما «خاص» يقتصر على الكاثوليك وحدهم بقصد «الحث على التناول أثناء القداس، والتحذير من بعض التأثيرات، وتنشيط روح الدعوة»، وكان النوع الثاني «عمومياً أكثر» وموجّهاً إلى مجموع التلاميذ. ولا تلقى الأسئلة إلا على المسيحيين، ويعفى الآخرون من دراسة وتلاوة العقيدة المسيحية. ويجري هذ كله «بدون أي ضغط على الصغار»، ومع «كامل الاحترام لعقائدهم».[١٠]

ولم يكن الأمر يتعلق بتبشير المسلمين، فقد كان رجال الدين الفرنسيون يأملون فقط «في صبغهم بالروح المسيحية». وعلى أية حال فقد تم تسجيل عدد قليل للغاية من حالات اعتناق المسيحية الذي كان يتم سراً في أكثر الأحيان. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لليهود التي كانت مراعاتهم أقل. أما بالنسبة «للمنشقين»، أي «المسيحيين الضالين»، فقد كانوا يستهدفون بوضوح «إعادتهم إلى الإيمان الحقيقى». وفي «نشرة المدارس المسيحية» الصادرة في فرنسا عام ١٩٢٥ يمكن أن نقرأ في الفصل المعنون «مصر»: «من مدرسة العائلة المقدسة في هليوبوليس: خلال العام تخلى تلميذ بالسنة الثانية عن الانشقاق القبطى، كما أن أخاه الصغير سيتبعه على الطريق ذاته بعدما يحصل على تعليمٍ كافٍ...ومن مدرسة القلب المقدس بمحرم بك بالإسكندرية: في نوفمبر ١٩٢٤ تخلى شاب قبطي بالسنة الأولي عن مذهبه. وفي ٢٠ ديسمبر جاء الدور على شاب يوناني منشق. يا لها من بهجة تلك التي تسود المبشرين حين يرون أعمالهم قد توجت بالنعمة!» وفي بعض الأحيان يذكرون أن هذا التحول الديني قد تم بموافقة الوالدين. وهذا يعني أن الشأن ليس دائما كذلك.

9. Robert Ilbert, *Alexandrie, 1830-1930,* IFAO, 1996, t.I.
10. Frères des Écoles chrétiennes, *Souvenir du centenaire,* Le Caire, 1947.

أفضل تعليم في مصر

كان الخديو إسماعيل يحبذ إقامة مدارس فرنسية عديدة. ولم يتأخر خلفاؤه عن تعضيد هذه المنشآت، وذلك بزيارتها بانتظام. هكذا قام السلطان فؤاد (الذي أصبح ملكاً بعد بضعة شهور حينما أعلن رسمياً استقلال مصر) في عام ١٩٢١ بجولة في المدارس الأجنبية بالإسكندرية. وقد أرسل قنصل فرنسا برقية لوزارة الخارجية الفرنسية يصف فيها هذه الجولة بأسلوب فكاهي لاذع فقال: «يبذل السلطان أقصى جهده للحصول على بعض الشعبية...وقد عرف كيف يحصل على تصفيق الأطفال. وبما أن مصوراً سينمائياً كان يرافقه في كل مكان فهو يعرف الآن كيف يحصل على التصفيق عند ظهوره على الشاشة. وفي خطاب قصير قامت تلميذات الراهبات بتشبيه السلطان بالملك شارل الأول، وكان السلطان مسروراً...ومن الطبيعي أن المشهد المقدم له مصطنع تماماً وأعد بعناية... وقد أعرب السلطان عن اغتباطه... وبطبيعة الحال إنني ذهبت لشكر العاهل في القصر بعد أن قمت باستقباله سبع مرات خلال ثمانية أيام أمام مداخل المنشآت الفرنسية[١١].»

كانت العائلات المسلمة الكبيرة ترسل أطفالها بطيب خاطر لدى الراهبات والفرير في المدارس المسيحية أو لدى الچيزويت [اليسوعيين] بمدرستهم بالقاهرة التي يعترف الجميع بأنها تقدم تعليماً ممتازاً. وفي مايو ١٩١٦ قام السلطان حسين سلف فؤاد بزيارة هذه المنشأة ويرفقته صهراه التلميذان السابقان بهذه المدرسة وهما الأمير إسماعيل داوود مرافقه العسكري ومحمود فخري بك حاجبه الأول، وقال السلطان لليسوعيين أمام اجتماع يضم جميع التلاميذ والعاملين بالمدرسة: «هاكم ثمرتان من ثمار مدرستكم. فليبارك الله مدارسكم وثمارها». أما الفرير فإنهم يفخرون بأنه من بين أوائل الحاصلين على البكالوريا لديهم رئيسان للوزراء هما إسماعيل صدقي وتوفيق نسيم.

وخلال تلك السنوات كان يتم لدى اليسوعيين تدريس جميع المواد باللغة الفرنسية. ومع ذلك كان يقوم بتدريس اللغة العربية رهبان سوريون كان مستواهم يفوق مستوى معلمي اللغة العربية في العديد من المدارس المصرية. ولكننا لا نستطيع قول الشيء نفسه عن مدارس الفتيات الداخلية، حيث ظلت اللغة العربية لغة أجنبية، بل وكن أحياناً يجهلنها. وكان يوجد بصفة عامة قسمان، أحدهما يعد لبكالوريا فرنسية، والآخر لبكالوريا مصرية. وكان من الممكن حتى الثلاثينيات من القرن العشرين إجراء امتحانات باللغة الفرنسية في الرياضيات والعلوم الطبيعية وفي التاريخ والجغرافيا.

11. Archives diplomatiques françaises, Affaires étrangères, «Alexandrie, 1er décembre 1921», *Correspondance politique*. Égypte.

وفي بداية القرن العشرين حاول اللورد كرومر فتح قسم إنجليزي لدى اليسوعيين، لكنه وجد الطريق مسدوداً. لم يفعل الآباء اليسوعيون أكثر من تحسين تعليم لغة شكسبير بناء على طلب عائلات التلاميذ. قد تكون رهبانية اليسوعيين عالمية، لكن مدرستهم في القاهرة ظلت فرنسية!

وفي مصر هذه التي يحتلها الإنجليز، كانت تذاكر السكك الحديدية وطوابع البريد تحمل كتابات باللغتين الفرنسية والعربية. كانت الفرنسية هي لغة العدالة، بل وأيضاً لغة الصالونات والأعمال. فقد كانوا يصرخون بالفرنسية في مقصورة بورصتي الإسكندرية والقاهرة[١٢]. ومنذ بداية القرن العشرين كانوا يحررون مستندات الحاخام اليهودي في المدينتين باللغة الفرنسية[١٣]. واستقرت لغة موليير حتى في الحياة العائلية الخاصة. ففي العديد من العائلات كانوا يتحدثون ويمزحون معاً بالفرنسية. أنشئت في الإسكندرية والقاهرة فرق مسرحية هزلية. كان الجمهور يقبل على العديد من المسرحيات التي يتحدثون فيها بالعربية والفرنسية معاً، وحيث يتحدث أحد الممثلين بالعربية ثم يرد عليه آخر بالفرنسية. وحتى الموظفين البريطانيين كانوا مضطرين إلي التأقلم مع هذا المناخ: فقد أقر وكيل وزارة المالية السابق بأن «الإنجليز الذين يعملون في خدمة مصر كانوا يتبادلون مراسلاتهم بلغة فرنسية ركيكة.»[١٤]

وأخيراً، بالرغم من أن فرنسا كانت مستبعدة سياسياً إلا أنها لم تفقد المعركة في مصر ومثلما قال بحماس أحد الزائرين العابرين « النفوذ الفرنسي في كل مكان..إنه في الهواء الذي نتنفسه. إنه مثل العطر الذي نستنشقه عند عبور سيدة جميلة[١٥]».

12. Léon Polier, «La France en Égypte», art, cit.
13. *Juifs d'Égypte*, Paris, Éd. du Scribe, 1984.
14. Alfred Milner, *L'Angleterre en Égypte*, Paris, 1898.
15. Louis Malosse, *Impressions d'Égypte, op. cit.*

(٤)

ماسپيرو في الموقع

يلزم هنا الارتداد إلى الخلف قليلاً لكي نفهم المنافسة الفرنسية-الإنجليزية في مجال شديد الرمزية هو: علم المصريات. كانت پاريس في نوفمبر ١٨٨٠ قلقة بشأن حالة أوجوست ماريبت الصحية التي تدهورت فجأة. فمن الممكن إذا ما فارق الحياة أن تفلت من فرنسا إدارة الآثار في مصر. الخطر ماثل وحقيقي، حتى وإن حاولنا إقناع أنفسنا بأن اكتشاف شامپليون العبقري جعل علم المصريات «علماً فرنسياً» بصورة نهائية. الواقع أنه يمكن لإنجلترا المطالبة بالمنصب ولها بعض المشروعية في ذلك لأن علماء مثل بيرش Birch أو ويلكنسون Wilkinson قاموا بأعمال جوهرية أدت إلى تطوير هذا العلم. وفيما يتعلق بألمانيا فإنها لم تقدم العالم الشهير كارل ريشارد ليپسيوس Lepsius صاحب الأعمال الحيوية فحسب، بل وقدمت أيضاً هاينريخ بروجش Brugsch مدير أول مدرسة مصريات في القاهرة الذي كان شقيقه إميل يعمل مع ماريبت. ويعتبر بروجش المرشح الأكثر خطورة لا سيما وأن مركز بلاده الدولي قد تعزز كثيراً.

وفي پاريس كان يبدو بأن جاستون ماسپيرو هو رجل الساعة، فهو عالم مصريات متألق يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر، يقوم بالتدريس في الكوليج دي فرانس. إنه ابن مهاجرين سياسيين ايطاليين وقد أظهر منذ وقت مبكر مواهب استثنائية. فاز في المسابقة العامة وهو في الثالثة عشرة، والتحق بدار المعلمين العليا، وقام بدراسة المصريات وحده باطلاعه على النصب المصرية بمتحف اللوفر والنقوش على المسلّة المصرية بميدان الكونكورد[1]. وقام خلال ثمانية أيام بترجمة ممتازة لنص اكتشفه ماريبت مما أثار إعجاب مدير الآثار المصرية.

---

1. Simonne et Jean Lacouture, introduction à Gaston Maspero, Égypte, 1900, Paris, rééd, 1989.

وأسند عالم المصريات الكبير ايمانويل دي روجيه Emmanuel de Rougé المعتبر المكمل لأعمال شامپليون إلى هذا العصامي ماسپيرو التدريس بمدرسة الدراسات العليا. وقد تعلّم ماسپيرو الكثير منه. وعند وفاة روجيه عام ١٨٧٢، فكروا في أن يشغل ماسپيرو كرسي علم المصريات بالكوليج دي فرانس. لكن بما أنه صغير السن قليلاً، فقد قرروا عدم منحه إلا لقب أستاذ مساعد لمدة عامين.

وكان ماسپيرو قد نشر أعمالاً كثيرة من قبل ويعرف اللغة العربية لكنه لم يذهب إلى مصر حتى ذلك الحين. وعلى هذا فقد سنحت الفرصة أمامه في نوڤمبر ١٨٨٠ عند مرض ماريت. لقد طلبوا منه دراسة إنشاء مدرسة فرنسية في القاهرة على غرار المدرستين الموجودتين في أثينا وروما. فإذا ما أفلتت من فرنسا إدارة مصلحة الآثار، فعلى الأقل ستكون لديها أداة لمتابعة إجراء بحوث مستقلة.

ووصل ماسپيرو إلى مصر يوم ٥ يناير ١٨٨١. توفي ماريت بعدها بثلاثة عشر يوماً بعد أن قضى أسبوعاً يحتضر. وكتب ماسپيرو إلى أحد أصدقائه عن وفاة ماريت يقول: «أقيمت له جنازة رائعة وأقيم قبره في حديقة متحفه أمام تمثال خفرع». لقد صمم تابوته الحجري المهندس المعماري أمبرواز بودري وكانوا ينقلون قبره إلى كل مكان جديد ينقل إليه المتحف: ففي عام ١٨٩١ نقل مع المتحف إلى الجيزة، وفي عام ١٩٠٢ نقل إلى قلب مدينة القاهرة (حيث لا يزال موجوداً هناك). وأقيم في مدينة «بولوني سور مير» الفرنسية ومسقط رأس ماريت تمثال غريب له من البرونز فوق قاعدة على شكل هرم مبتور، وحيث يظهر ماريت مرتدياً طربوشاً ولباس عضو أكاديمية علمية وهو الزي الذى لم يرتديه طوال حياته. وفي ١٦ يوليو ١٨٨٢ تم الاحتفال بافتتاح التمثال ولم يدع أي ممثل لمصر لحضور الحفل، كما لو كانوا أرادوا استعادة ماريت «بإقامة نصب لسوء التفاهم والريبة والمظاهر الكاذبة[٢]»...

المدرسة الفرنسية بالقاهرة

أتيحت الفرصة لجاستون ماسپيرو ليتحدث طويلاً مع ماريت الذي خلفه يوم ١٨ فبراير كمدير لمصلحة الآثار المصرية وكأمين لمتحف بولاق. وكان أيضاً أوّل مدير للمدرسة الفرنسية للآثار في القاهرة.

إن الأبوة الشرعية لهذه المدرسة مثيرة للجدل. ففي برقية مؤرخة ١٤ مارس ١٨٨٠

2. Jacques Cassar, in *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, Paris, n° 90, avril 1981.

أرسلها البارون دي رينج وزير فرنسا في مصر طالب بإنشاء هذه المدرسة وطرح حجتين في هذا الشأن. فمن ناحية قال «نحن نعاني لكوننا ندرس علم المصريات من منازلهم»، وإنشاء مدرسة في الموقع هو وحده الذي سيتيح لعلمائنا ولطلبتنا الذهاب إلى هذا الموقع. ومن ناحية أخرى سيؤدي إنشاء مدرسة إلى «تعاظم دورنا في مصر» لأن الناس سوف يوقرون فيه ماربيت الذي يعرف الآثار القديمة جيداً مثل توقيرهم لديلسبس الرجل الذي ربط بين البحرين. «إن حقيقة أن هاتين الشخصيتين فرنسيتان تعطي للفلاخين فكرة سامية عن شعبنا. سيكون أمراً مؤثراً أن يترك ماربيت باشا بعده مدرسة كاملة. أما بالنسبة للمجتمع المصري الذي أصبح لديه بعض الثقافة فأنه سيتأثر أيضاً بالشباب المتعلم القادر على نشر الأفكار النبيلة».

وفي العام التالي يقدم ارنست رينان Ernest Renan [كاتب فرنسي ١٨٢٣-١٨٩٢] حجة مشابهة لكن بنبرة مغايرة. إذ يعتقد هذا الكاتب الشهير والخبير بالعالم السامي بأن إنشاء مثل هذه المدرسة في القاهرة سيكون «مفيداً للحضارة ولتقدم السلوك الأخلاقي في الشرق». فقد كتب يقول إنه في الشرق «يقدرون كل شيء بما يجلبه من فائدة، ويقدرون كل رجل وفقاً للمال الذي يكسبه». ولهذا فإن «رؤية منشأة يعيش فيها رجال ذوو قدرات عالية حياة متواضعة، ويكرسون أنفسهم لأعمال غير شخصية ومع ذلك فهم محاطون بأكبر تقدير سيكون درساً مفيداً ومشهداً جديداً في الشرق».

ومن الغريب أن رينان يعتقد بأنه لا يوجد لدي العلماء المسلمين «ما يعلّمونه» للمستعربين في باريس أو لايبزيج: فهو يرى أنه يجب دراسة الشرق في أوروبا. لكن الحفريات في الموقع أمر ضروري، ويمكن إجراؤها بواسطة «الأمم المتمدينة»، أي الأوروبيين[٣]. ويرى أيضاً أنه لا يجب أن يقتصر إنشاء مدرسة شرقية على مصر القديمة ولا حتى على مجمل مصر، بل يجب دراسة جميع بلدان المنطقة وجميع المجالات. ويمكن أن يكون مقرها في القاهرة أو من الأفضل في دمشق أو بيروت أو القدس. ويرى رينان أن هذه المدرسة ستكون «خاناً علمياً كبيراً»، و «قيادة عامة لجميع فروع البحث الشرقي».

بدأ ماسپيرو ومعاونوه بالسكن في الفندق، ثم أصبحوا مستأجرين لدى مدام ظريفة افندي «مولّدة لدى حريم الخديو»، في منزل تعبث به الفئران «التي لا تكتفي بالهجوم على الشموع المشتعلة أو غير المشتعلة، بل وتهاجم أيضاً قُبعات مدام ماسپيرو[٤]». الواقع

3. Christian Decobert, «La lettre de Renan sur l'École du Caire», in D'un Orient l'autre, Paris, CNRS, 1991.
4. Jean Vercoutter, Centenaire de l'École du Caire, Le Caire, IFAO, 1981.

أن المدير الجديد كان أرملاً وقد تزوج حديثاً ابنة استورنيل دي كونستان أحد المفتشين الماليين في مصر. ويقول ماسبيرو: «بدأت مدرستنا ترتسم. لقد أقمتها في منزل تركي لونه أخضر فستقي ويقع بين حارتين. كنت أسكن بالدور الأول حيث توجد قاعتان للضيوف، وكانت المدرسة في الدور الثاني ولها سلّم مستقل. كانت لنا حديقة صغيرة مشتركة مزودة بنافورة ماء وشرفة تطل على أجمل منظر عريض يمكن أن نحلم به. ففي الأفق نري الأهرام الثلاثة بوضوح كما لو كانت تبتعد ألف متر في حين أنها تبعد ثلاثة فراسخ [الفرسخ يساوي أربعة كيلومترات تقريباً]. ومن الناحية الأخرى نري القلعة وتلال من الأنقاض ومنحدرات المقطم، وبين المنظرين نجد القاهرة تهيمن عليها غابة من المآذن(٥)».

ولم يحمل المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (IFAO) هذا الاسم رسمياً إلا في ١٧ مايو ١٨٩٨. فقد انتقل حينذاك إلى مقر جديد يقع في شارع ستعرفه أجيال قاهرية فيما بعد باسم الانتكخانة. لكن نمو المكتبة وإنشاء مطبعة تطلبا الحصول على مبنى آخر أكثر اتساعاً: وفي عام ١٩٠٧ استقر المعهد نهائياً في قصر الأميرة منيرة سابقاً الذي يتميز بأنه قد شيد في حي كان نابليون قد أطلق عليه نيران مدافعه أثناء ثورة القاهرة الأول.

ووصل أول «مقيمون بالقسم الداخلي» و«مكلفون بمهمة» إلى القاهرة عام ١٨٨١ خلال فترة اتسمت بالاضطرابات وأدت إلى الاحتلال البريطاني. وحيث إنه لم يكن مسموحاً بالتنقيب خارج العاصمة فقد باشروا العمل في نسخ ونشر النصوص المنقولة من مدينة الأموات بطيبة ومن معبد إدفو. وقام دارسو القبطيات من ناحيتهم بفك طلاسم الوثائق الأصلية المحفوظة في القاهرة، في حين قام المتخصصون في الإسلام بدراسة طبوغرافية الفترة الفاطمية وترجمة المخطوطات. هكذا قامت المدرسة بنشاط هام في مجال النشر إلى أن يجيء الوقت الذي يمكنها فيه افتتاح ساحات للتنقيب. ولم تتوقف أعمال النشر عن النمو على ممر السنين، وبخاصة بعد قيام إميل شاسينيه Émile Chassinat أحد المديرين بإنشاء أول مطبعة. كان شاسينيه عامل جمع حروف طباعة من قبل ورسم بيديه حوالي ٤ آلاف حرف هيروغليفي. وأضيفت تدريجياً على مجموعة الخطوط الهيروغليفية والبطليموسية هذه التي لا يوجد نظير لها في أوروبا، مجموعات خطوط أشورية وعبرية وعربية ويونانية بل وحتى أمهرية مما جعل هذه المطبعة أفضل مطبعة استشراقية في العالم.

5. Bibliothèque égyptologique, t. XV111.

الإنجليز يحاولون الترسخ

وعلى هذا كانت فرنسا في بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر تحتل مركزاً استثنائياً في علم المصريات مع ركيزتين هامتين: مدرسة القاهرة، ومصلحة الآثار. وقد تخلى ماسپيرو عن الأولى إلى المواطن الفرنسي أوچين لوفيبور lefébure لكي يتفرغ هو للثانية.

ومنذ وصول ماسپيرو إلى القاهرة كان مهتماً بجعل الأهرام تتكلم فقد اكتشفوا حديثاً أنها ليست صامتة تماماً. وقام باستكشاف خمسة أهرامات على التعاقب في جنوب سقارة: وتحتوي الأهرامات الخمسة على نصوص محفورة على جدران غرفها الداخلية. وقام ماسپيرو بمعاونة بروجش والعديد من الزملاء بتحليل هذه النصوص ونشرها وهي تقول الكثير عن الطقوس الجنائزية في الدولة القديمة. وكان هذا العمل الثمين للغاية للباحثين كافياً وحده لكي يحصل ماسپيرو على الشهرة.

وكانت مهمته الثانية باعتباره «مأمور» الآثار هي الكشف عن النهابين الذين يعيثون فساداً في صعيد مصر. والواقع أنهم قد تحققوا منذ بعض الوقت من ظهور بعض القطع الجنائزية في السوق الأوروبية تحمل اسم پيندچم الأول Pinedjem كبير كهنة آمون، في حين أنه لم يتم العثور على مقبرته ولا على مقابر ذريته. واتجهت الشكوك نحو شقيقين يعيشان في قرية الجرنة في مواجهة الأقصر. وقبض ماسپيرو على أحد الشقيقين وكشف الثاني عن السِّر: وفي الجرف الصخري المشرف على معبد حتشپسوت اكتشف علماء المصريات ورجال البوليس في ذهول قبراً طوله مائة متر يحتوي على كنوز لا تصدق. فقد شهدوا توابيت مكدسة تحتوي على جثث الفراعنة الأكثر شهرة في الدولة الحديثة! وأكب علماء المصريات بحماس على إجراء أبحاث لكي يفهموا لماذا تم إخفاء مثل هذه الجثث في الجُرف، ولماذا لا يوجد كل جثمان في مقبرته الخاصة المعدّة في وادى الملوك. وبدأت شيئاً فشيئاً تتكشف رواية بوليسية مثيرة عمرها ثلاثة آلاف عام[٦]... وقد قضوا عدة سنوات لجرد هذه الكنوز في متحف بولاق. ولم يتم فك أقمطة هذه المومياوات لدراستها إلا عام ١٨٨٦ وفي حضور الخديو توفيق.

وقد واصل ماسپيرو حفريات ماريت في معبدي إدفو وأبيدوس. افتتح ساحات جديدة، وأزال الرُّكام عن «أبو الهول» بالجيزة مستعيناً بتبرعات دولية، وقام بإعادة تنظيم متحف بولاق، ونشر دراسات عديدة من بينها كتاب «القصص الشعبية في مصر القديمة». وفي

6. Pierre Grandet, «Le pillage des tombes royales égyptiennes», in L'Égypte ancienne, Paris, Points-Seuil. 1996.

عام ١٨٨٦ عاد إلى فرنسا لمتابعة أعماله التي كان قد بدأها وتخلى عن إدارة الآثار إلى المواطن الفرنسي أوچين جريبو Eugène Grébaut. وقد واجه جريبو أول هجوم بريطاني لاحتلال موقع في هذا القطاع المرغوب فيه بشدة.

وفي نهاية القرن التاسع عشر كان علم المصريات يمثل «البقعة الثقافية البارزة» ويمكنه منح الإدارة الإنجليزية «عناصر ثمينة لاكتساب شرعية»[7]. كيف يمكنهم وضع أقدامهم في منطقة النفوذ الفرنسية هذه؟ يمكن ذلك بإنشاء إدارتين بدلاً من إدارة واحدة ، ومن البديهي أنه لا يمكن لفرنسا الحصول على الإدارتين معاً. وعلى هذا قدموا في عام ١٨٩٠ مشروعاً لإعادة تنظيم مصلحة الآثار مصحوباً بحجج جيدة: ألا يجب تزويد متحف القاهرة بمكتبة، وبقائمة بالموجودات؟ والعناية أكثر بالسائحين الذين يتزايد عددهم؟ والمكافحة بطريقة أفضل ضد عمليات النهب وضد التصدير غير الشرعي للأشياء القديمة؟

اعترضت فرنسا على هذا المشروع لأنها لا تريد النظر إليه إلا باعتباره رغبة في إضعافها. وتم الاعتراض بشدة على اقتراحات إنجليزية أخرى (مثل إنشاء وكالة وزارة للفنون الجميلة تسند إدارتها إلى الألماني بروجش). بدأت الصحف البريطانية وفي مقدمتها «التايمز» تهاجم تهاون وإهمال الموظفين الفرنسيين العاملين في الآثار المصرية. لم يكن جريبو [مدير الآثار الجديد] قادراً على مواجهة مثل هذه العاصفة، فقدم استقالته عام ١٨٩٢. ونجح خلفه چاك دي مورجان الخبير في الشئون الفارسية القديمة في تهدئة اللعبة خلال السنوات الخمس التي قضاها في منصبه. لكن ڤيكتور لوريه الذي جاء بعده كانت تعوزه المرونة. وفي مايو ١٨٩٨ قام وكيل الوزارة البريطاني بإهانته علناً حين أجبره على إعادة مومياوات إلى الأقصر بعد أن كان قد نقلها إلى الجيزة...

وطالب ممثل فرنسا بإلحاح شديد تعيين مدير جديد للآثار. بل وقام بتحديد أوصافه: يجب أن يتحلى «بروح مرنة ومتسامحة» ، وأن يكون عارفاً للشرق وعالماً في المصريات إن أمكن، وعلى أية حال يجب أن يكون عالماً معروفاً. باختصار إنه يطالب بعودة ماسپيرو. وضع ماسپيرو شروطاً مالية تم قبولها وعاد إلى مصر ليضع الأمور في نصابها. وكان لحسن الحظ : أنه وصل إلى القاهرة عام ١٨٩٩ في وقت كانت تمر فيه العلاقات الفرنسية-الإنجليزية بفترة انفراج بعد الاتفاق حول الفاشر. بل ووقع حادث خطير في الكرنك يوم ٣ أكتوبر لكنهم لم يوجهوا إليه اللوم بسببه. كان أسوأ من مجرد حادث: كان كارثة. كان المهندس المعماري الفرنسي چورچ لوجران يقوم بإزالة الأنقاض عن معبد آمون ويقوم

7. «Archéologie et politique», in L'Égyptologie et les Champollion, Presses universitaires de Grenoble, 1974.

بتدعيم المعبد كلما يبرز من الأرض حين انهار فجأة ١١ عموداً بالبهو المرتكز سقفه على الأعمدة. وقضى لوجران التعس عشرة أعوام من عمره لإعادة نصب الأعمدة. ومع ذلك حصل على تعويض يستحقه باكتشافه عام ١٩٠٣ مئات التماثيل المنتمية لعصور متنوعة.

ويقابل ماسپيرو كارثة الكرنك بمشروعات إصلاح. إنه يكثر من جولاته التفتيشية، ويضع برامج جديدة للترميم وينشط حركة نقل مجموعات الآثار إلى متحف القاهرة الجديد الذي افتتح عام ١٩٠٢. وقام ماسپيرو بتوجيه ضربة قوية إذ اقترح بأن يكون كل صرح وكل أثر قديم ملكاً للدولة. اختنق تجار الآثار غيظاً واحتج المشترون الأجانب «فشل المشروع لكن ماسپيرو ظل محمياً[٨]».

وخلال تلك السنين نمت مصلحة الآثار إلى حد كبير: زادت ميزانيتها ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وارتفع عدد موظفيها من ٢٤ إلى حوالي المائة. أجريت أعمال كبيرة لترميم رواق معبد إدفو ولإزالة الأنقاض عن مدينة الأموات المدنية في طيبة، وتنظيف الرامسيوم [معبد رمسيس الثانى الجنائزى]، وكسح الرمال عن معبد« أبو سمبل»[٩]...

وخص ماسپيرو شهرين أو ثلاثة شهور من شتاء كل عام للقيام بجولة تفتيشية. كان يبحر في النيل على ظهر «دهبية» قديمة شيدت فيما مضى لأحد أمراء الأسرة الخديوية، وكانت زوجته ترافقه في هذه الرحلة، كما كان يرافقه أحياناً بعض الأصدقاء، وقد أتاحت له اكتشاف إلى أي مدى تتطابق المشاهد التي سجلها المصريون على صروحهم مع الطبيعة. إنه لا يكل من التعليق على هذا الفن الفريد: «إنني أنظر على غير هدى إلى النهر وشطيه. هناك على جرف رملي أصفر يقف سرب من النسور الكبيرة في صف منتظم لكي تتدفأ في الشمس. إن أظفارها مفردة والظهر محني والعنق مثني والجناحين مسحوبين للأمام على كل جانب من الصدر، وهي تتلقى باغتباط تدفق الضوء الذي ينتشر فوق ريشها لكي يغمره بدفئه. هذا المنظر يتماثل مع ما كان النحاتون القدامى يقومون برسمه للنسر «نخابت» Nekhabit الإلهة الحامية للفراعنة والتي تظللهم بأجنحتها. قم بعزل أحد النسور من هذا السرب، وألبسه التاج الفرعوني، وضع صولجان القوة في مخالبه، ثم أبرز مظهره الجانبي فوق باقة من زهور اللوتس المتفتحة التي ترمز إلى مصر العليا. وبذلك ستحصل على النقيشة التي تزين أحد جوانب الباب الرئيسي لمعبد خونسو، بل وستحصل أيضاً تحت الأردية على نسر حقيقي. وبعد قليل يرى «مشهداً كأنه لوحة منزوعة من جدار

8. *Ibid.*
9. Maurice Croiset, « Un grand égyptologue français», in *Revue des Deux Mondes*, 15 août 1916.

عتيق عن الذهاب إلى السوق المجاور»: لقد رأى «البقر ذاهباً إلى الحقول في خطوات متزنة، وحرث الأرض، والصيادين المربوطين بشباكهم، والنجارين يصنعون مركباً. ويضع النجارون هياكل مراكبهم على شاطيء منحدر ويقومون بتسمير الغلاف الخارجي بالمطارق وهم جالسون القرفصاء»(١٠)

أن يكون الإنسان عالم مصريات، فهذا يعني أيضاً أنه قوي الملاحظة وأنه كاتب...

إغاثة معبد فيلة بمشاركة لوتي

حاول ماسبيرو خلال تلك السنوات -بلا نجاح كبير- تحريك مشاعر الأوروبيين تجاه مصير مختلف الصروح، التي يهددها خزان أسوان. كان بناء هذا الخزان الكبير بدءاً من عام ١٨٩٨ ثم تعليته مرتين متعاقبتين يغرق معبد فيلة تسعة شهور من كل عام. ومع ذلك نجح ماسبيرو في تدعيم أساسات المعبد الحجرية. وإذا ما كانت جدران المعبد في كل صيف تخرج هي ونقوشها من الماء سليمة إلا أن الرسوم فقدت ألوانها.

وأصدر بيير لوتي Pierre Loti [كاتب فرنسي ١٨٥٠-١٩٢٣] صيحة قوية في كتابه «موت فيلة» الصادر عام ١٩٠٨ لكنه لم يحدث أي تغيير في الموقف. كان إهداء الكتاب موجهاً إلى الزعيم الوطني مصطفى كامل، وكان أيضاً اتهاماً ضد الإنجليز بأنهم يشوهون مصر لا بمثل هذا النوع من الأعمال فحسب، بل وأيضاً بوجود السواح الإنجليز. ويقوم بتوبيخ شركة «كوك» [الإنجليزية] السياحية بعنف في إطار غير دقيق لكن بمهارة شديدة: «إن الفلاح هذا الحارس غير الواعي لهذا الماضي الهائل يغفو بلا رغبات جديدة وتقريباً بلا معاناة. فالزمن يمر بمصر في هدوء كبير تسوده الشمس والموت...لكن يوجد اليوم أجانب يهيمنون على البلاد وقد أيقظوا النيل العتيق لكي يستعبدوه...لقد شوهوا واديه...وفرضوا الصمت على شلالاته، وحبسوا مياهه الثمينة...»

ولا يقصر لوتي المتأثر بالشرق بلاغة أسلوبه على معبد فيله. فهو يستخدم إجادته الفنية ذاتها لاستنكار امتهان مدينة القاهرة، وهو موضوع كثيراً ما أثاره كتاب-رحّالة فرنسيون عند منعطف القرن: «يجري امتهان الشوارع، وتخلي بيوت ألف ليلة وليلة مكانها لمبانٍ مشرقية غثة. بدأت المصابيح الكهربائية في تبقيع الظلام ببريقها الممتقع والمزعج...ما هذا وأين نحن؟ هل نحن في مدينة نيس أو في الريڤييرا أم في مدينة ما من تلك المدن حيث يقوم الذوق السيء الموجود في العالم كله بالعبث في بيوتها المسماة بالأنيقة....

10. Gaston Maspero, *Ruines et Paysages d'Égypte.*

الأنوار الساطعة تنتشر في كل مكان، والفنادق القبيحة تتفاخر بترف واجهاتها المزيف والمغري، وعلى طوال الشوارع يزدهر التقليد، فنرى موكباً من جميع الأساليب والطرز: المحاري، والروماني، والقوطي، والفن الجديد، والفرعوني، وبخاصة المتكلّف والشاذ. كباريهات عديدة تفيض بالزجاجات: إن جميع أنواع خمورنا وجميع أنواع سموم الغرب تتدفق على مصر ...وإذن هل سيكون هذا السوق الجامع لخليط من الأجناس هو قاهرة المستقبل؟...يا إلهي، متى يستدرك المصريون خطأهم، ومتى يدركون أن الأجداد قد تركوا لهم تراثاً لا يجوز التصرف فيه من الفن والمعمار ومن الأناقة الرفيعة، وأنه بإهمالهم لإحدى هذه المدن التي كانت من أكثر مدن الأرض روعة فإنها سوف تنهار وتموت؟»

عالم في علوم متعددة

لقد حقق جاستون ماسبيرو لفرنسا مركزاً قوياً. ويحدد الاتفاق الودي المعقود عام ١٩٠٤ بأن تكون مصلحة الآثار المصرية محجوزة دائما لأحد الفرنسيين. لكن لا يعتبر هذا سبباً للتقليل من الحذر. فبعد مضي بضع سنوات حصلت السلطات البريطانية على قرار بإنشاء منصب سكرتير عام الذي تم تفسيره فوراً بأنه مناورة جديدة لتقسيم السلطة إلى قسمين.. وقد أسرعوا بتعيين فرنسي في المنصب الجديد مع احتمال تعيين رجل إنجليزي كأمين لمتحف القاهرة...كان الاتفاق الودي مستمراً، واستمرت معه مفاجآته ومكائده.

كانت آخر مهام ماسبيرو وضع قانون جديد أكثر تشدداً بشأن الآثار، والذى صدر عام ١٩١٢. ومن الآن فصاعداً أصبح لا يسمح للأشخاص بالقيام بالتنقيب: سيقتصر التصريح بالتنقيب على البعثات العلمية بعد الموافقة على مشروعها. لن يكون بعد ذلك من حق النقّابين الحصول على نصف اكتشافاتهم، لكنهم يحصلون فقط على القطع التي لها مثيل بمتحف القاهرة. لن يمنح القائم بالتنقيب تأشيرة بالخروج من البلاد إلا في حالة تركه الموقع في حالة مرضية.

عاد ماسبيرو إلى باريس عام ١٩١٤ مكللاً بالفخر، فقد عين في منصب السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب. لقد أصبح من غير الممكن تعداد مؤلفاته: فالقائمة التفصيلية لهذه المؤلفات تشتمل على ١٢٥ صفحة[١١]! ويذكر معجم Who Was Who في علم المصريات عن ماسبيرو بأنه «يحتل المكان الأول بين جيله في علم المصريات»، بفضل معرفته الواسعة للغاية. في الواقع أن ماسبيرو متعدد العلوم فبعد أن درس

11. Henri Cordier, *Bibliographie des oeuvres de Gaston Maspero,* Paris, *Geuthner* 1922.

علم اللغة غاص في التاريخ وفي علم الجمال. وهذا هو ما يفسر نجاحاته وما أتاح له – من بين أشياء أخرى– أن يطور بطريقة متقنة فرضيته عن الفن المصري وهي: كان الفراعنة على عكس الإغريق لا يسعون نحو الجمال المثالي، بل يستهدفون المفيد والدائم.

وفي يوم ٣٠ يونيو ١٩١٦ توفي هذا العالم الكبير أثناء اجتماع الأكاديمية بعد أن حزن حزناً شديداً على وفاة ابنه چان الذي قتل في معارك مدينة أرجون [الحرب العالمية الأولي]، وكان متخصصاً موهوباً في دراسة مخطوطات البرديات. وكان شقيق چان الأكبر هنري عالم بالحضارة الصينية ونفاه الألمان في بانشينڤالد حيث توفي عام ١٩٤٥. وبعد مضي عشرة أعوام ساهم حفيده فرانسوا الكاتب والمناضل اليساري في التعريف باسم ماسپيرو إذ أنشأ في پاريس دار نشر ومكتبة تحمل اسم جده.

(٥)

في مهمة لدى المنشقين

جاء اليسوعيون [الچيزويت] إلى مصر مرتين من قبل: جاؤا في القرن السادس عشر ثم في القرن الثامن عشر. وقاموا بمهمتهم الثالثة تلبية لطلب البابا. ولم يكن الهدف فتح مدارس، لكن مساعدة الكنيسة القبطية–الكاثوليكية شديدة الضآلة، والتي تكونت في مواجهة كنيسةِ مصر القبطية الكبيرة. فقد رفضت الكنيسة القبطية بيان مجمع خلدونيا (عام ٤٥١) حول أن للمسيح طبيعتين، وعلى هذا اعتبرتها روما بأنها كنيسة منشقة. وكان الفرنسيسكان منذ أمد طويل يوجهون الأقباط الكاثوليك في مصر بلا صعوبة، وقد جاء رهبان «بعثات ليون للتبشير في إفريقيا» إلى مصر لمعاونة الفرنسيسكان في هذه المهمة.

وطُلب من اليسوعيين إنشاء مدرسة إكليريكية صغيرة في القاهرة. وهذا هو ما فعلوه عند وصولهم عام ١٨٧٩ . لكن من أجل تمويل هذه المنشأة المجانية المخصصة لأبناء العائلات رقيقة الحال اتخذوا مبادرة لإنشاء مدرسة بمصروفات هي مدرسة العائلة المقدسة الأمر الذى أثار بشدة الفرير الذين يقيمون مدارسهم المسيحية في مصر منذ قبل. عُرض الأمر على الڤاتيكان. صدرت تحذيرات إلى اليسوعيين. لكن هذا لم يمنع رئيسهم الأب ميشيل چوليان من الذهاب إلى الإسكندرية لكي يضع أسس إقامة مدرسة جديدة اسمها مدرسة سان–فرانسوا–اكزاڤييه Saint-François-Xavier. لقد ذهب إلى الإسكندرية متنكراً «لا خوفاً من الفرير بل من الماسونيين» وفقاً لقوله[1] ...ولا يعنى أن يكون الإنسان مبشراً في مصر في بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر بأنه يشغل وظيفة بلا عمل!

وفي النهاية تم التوصل إلى تسوية. إذ يوجد في وادي النيل عمل لجميع خدّام الرّب. سوف تقوم كل من الرهبانيتين الدينيتين بعملها وفقاً لطريقتها الخاصة. وستتوجه مدارس

1. «Un jésuite en Égypte: Le père Jullien», in *Ittinéraires d'Égypte. Mélanges offerts au père Maurice Martin s.j.*, Le Caire, IFAO, 1992.

اليسوعيين نحو الجمهور الأكثر رفعة من جمهور الفرير وذلك بتدريسها للآداب الكلاسيكية وللغة اللاتينية.

أما فيما يتعلق بتلاميذ المدرسة الإكليريكية الصغار فيصفهم الأب چوليان كما يلي: «يرتدون فوق رؤوسهم الطربوش الأحمر الذي لا مفر منه والذي لا يخلعونه إلا أمام القربان المقدس. وتحت الرأس يوجد وجه صغير ذكي يميل لونه إلى السواد وتبرز جبة قطنية سوداء...ويخرجون مرتين كل أسبوع للنزهة في شوارع القاهرة برفقة أحد الآباء. إنه مشهد جديد تماماً بالنسبة لمسلمينا. فهم ينظرون إليهم بفضول متعاطف بصفة عامة، فيما عدا سخريتهم من قبعة الأب. إذ لا يستطيع المصري أن يغفر لنا قبعاتنا ذات الحواف العريضة والتي يوجه لها جميع الإهانات. إن الخديو ذاته ينظر إلى هؤلاء المتنزهين حين يقابلهم ويحييهم باهتمام خاص تماماً[٢].»

بشأن البروتستانت الناطقين بالإنجليزية

بعد أن أقام اليسوعيون مدرستهم وهذة المدرسة الإكليريكية الصغيرة التي أصبحت ملحقة بها، أمكنهم منذ عام ١٨٨٧ البدء في غزو جنوب مصر. واختاروا الإقامة في المنيا، وهي مدينة تبعد عن القاهرة ٢٤٠ كيلومتراً يقطعها القطار البطيء في ١٧ ساعة. وافتتح الأب چوزيف أوتيفاچيه هذه الإرسالية برفقة أخ ماروني قبل أن تنضم إليهم العديد من الراهبات السوريات. كانت المنيا تضم ١٦ ألف نسمة من بينهم ثلاثة أو أربعة آلاف قبطي أرثوذكسي، وبضع مئات من البروتستانت وبالكاد مائتي كاثوليكي. وكانت مبادرة المبشرين الأولى هي افتتاح مدرسة للبنات. «وبعد مضي أربعة شهور كانت لدى الراهبات ١٠٨ تلميذة، وأغلقت المدرسة البروتستانتية أبوابها.»

الهدف واضح: فالمقصود هو تحويل الأرثوذكس إلى الكاثوليكية، «بإنقاذهم من الخطر البروتستانتي» .ذلك لأن «الطوائف» البروتستانتية المختلفة المزوبدة بميزانيات كبيرة تباشر العمل بالفعل فى مصر الوسطى. إنها «توزع بوفرة كتيبات ونشرات محررة بطريقة جيدة للغاية ومؤذية كثيراً». إن هؤلاء «الخصوم» يقفون أمام مدرسة الزاهبات وهم مسلحون بصندوق كبير مملوء بالآلات الموسيقية للفت أنظار التلميذات وجذبهن نحو منشأة أخري.

يمتلك البروتستانت في المنيا مدرستين للأولاد. ولا يمتنع اليسوعيون في هذه الحرب

2. Père Julien, in *Relations d'Orient,* 1882.

الإعلامية عن استنكار أساليبهم. «مدرس بروتستنتي متعصب يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية وبخاصة التعاليم البروتستانتية لهؤلاء الأطفال التعساء. ويجب عليهم حضور مواعظه التي يدلي بها في المدرسة صباحاً ومساءاً كل يوم أحد. ويا لتعاسة ذلك الذي يذهب للصلاة بدلا من الاستماع إلى مواعظه! ففي اليوم التالي تعلّق له الفلقة (أربعون جلدة على أخمص قدميه) لكي يتعلم عملياً عذوبة الراعي البروتستانتي الإنجيلية الذي سيعطيه درساً قوي التعبير عن التسامح البروتستنانتي[٣].»

كان البروتستانت قد وصلوا قبل اليسوعيين بعشرين عاماً. وفي البداية كان الأخيرون حزانى لأنهم تأخروا، ثم لاحظوا في النهاية أن خصومهم قاموا بفتح الطريق أمامهم وبتسهيل مهمتهم: «فيما مضى كان أمراً خارقاً أن يقوم قبطي بالتخلي عن كنيسته: لم يكن يخطر على بال أحد إمكانية حدوث مثل هذا التغيير. وقد نجح البروتستانت في التغلب على هذه العقبة المنيعة[٤].»

هكذا كان الكاثوليك والبروتستانت يتخاطفون الأقباط الأرثوذكس. وكان تنافسهم معركة لغوية أيضاً بين الفرنسية والإنجليزية طالما أن الأمريكيين هم أساساً المحتكرون للميدان. وقد علق أحد الأعيان المحليين: «نحن الأرثوذكس نشبه شجرة نخيل مزروعة في حديقة لكن ثمارها تتدلى في الخارج. ويقوم كل عابر سبيل بقطفها[٥].»

وحصل البروتستانت بعدها على خصم هام ممثلاً في شخص الأب إيمانويل رولان الذي وصل المنيا عام ١٨٨٨ . كان هذا اليسوعي الذي لا يكل يطوف الأرياف المحيطة على ظهر حمار في «جولات تبشيرية» تستمر عدة أيام. كان سلاحه توزيع صور إيبنال [مدينة فرنسية] ذات الألوان الصارخة والتي تثير إعجاب الفلاحين. كان يتجاهل الحر القائظ ويقبل المبيت بين الحيوانات، ويجب عليه أيضاً مراعاة أوقات الصيام القبطية التي تستغرق... مائتي يوم في كل عام. «لكن أية ترضية!»

ويسجِّل الأب رولان مثل سابقيه من يسوعيي القرن السادس عشر والثامن عشر جهل الفلاحين شبه التام بحقائق الدين المسيحي. إنهم لا يعرفون كيف يرشمون الصليب ولا يستطيعون شرح من يكون يسوع المسيح. وحين يطلب منهم تحديد عقيدتهم يكتفون بإظهار وشم الصليب الموجود على معصمهم. كما أن كهنتهم بالكاد أكثر منهم علماً.

3. Extrait d'une lettre du père de Diannous s.j., Relations d'Orient, op. cit.
4. *Ibhd.*
5. Cité par le père Victor Chevrey s.j., dans son «Rapport sur la mission de la Compagnie de Jésus en Haute-Égypte», Minia, 1925.

تم بناء كنائس كاثوليكية بالطين المجفف بلا هيكل ولا شمعدانات. ومن أجل إقامة قداس الجنازات كانوا أحياناً يرسلون جملاً إلى كنيسة مجاورة لإحضار جرسها فوق ظهره. كان الرجال والنساء لا يصلّون معاً. وكانت القرويات المتدثرات ببرقع كبير أسود (حبرة) يصلن عن طريق باب جانبي من أجل تناول القربان المقدس، ويفصلهن عن محراب الكنيسة جدار توجد به طاقة تتيح للكاهن تقديم الخبز المقدس لهن.

قام اليسوعيون ببناء مقر في المنيا على قطعة أرض حصلوا عليها بفضل تدخل الكونت دوبيني d'Aubigny وزير فرنسا لدى الخديو توفيق. وفي كل أسبوع كانوا يحصون عدد الذين حولوهم إلى الكاثوليكية. لكن إلى جانب الإضافات كانت توجد خصومات: فقد حدث أن تحولت قرى بأكملها إلى «العقيدة الحقيقية» لكنها لم تلبث أن عادت مرة أخرى إلى «الانشقاق» بسبب مناورة ناجحة قام بها الخصم.

وفي عام ١٨٩٥ افتتح مستوصف وسرعان ما لاقى نجاحاً كبيراً. إن المقصود هو القيام بعمل تبشيري: «فإلى جانب العناية بالأجساد كانت الراهبات يقمن بعمل تبشيري حقيقي لدى النفوس، وجعلوا مسيحيين كثيرين يعرفون طريقهم إلى الكنيسة[٦].» وأنشأ اليسوعيون جمعيتين دينيتين، إحداهما للرجال والأخرى للنساء. كما وظفوا مواهبهم أيضاً في خدمة الطقوس القبطية. إن الأب جوزيف بلان الذي جاء إلى المنيا للعمل في التدوين الموسيقي للترانيم قد اضطر في البداية إلى طلب المعاونة من ...المطران «المنشق». إن المنشدين الأقباط فاقدو البصر بصفة عامة وتم تدريبهم منذ الصغر من أجل كسب قوتهم. كان أحد هؤلاء المكفوفين يقوم بالإنشاد يومياً أمام الأب بلان الذي يدون العلامات الموسيقية. وقد انتهى هذا العمل بعد مضي عشر سنوات على يدي عضو آخر برهبانية اليسوعيين.

الكوليرا، هدية السماء

كتب أحد المبشرين: «كانت أداتنا للتوغل في المنيا تحتاج إلى تحسين. وقد تلقينا أول وسيلة من العناية الإلهية: ففي ١٣ يوليو عام ١٩٠٢ ظهر وباء الكوليرا[٧].» كنا في بعض الأيام نحصي حالات وفاة تصل إلى الثلاثين. «الأب رولان لم يتردد. كان موقعه مناسباً تماماً. ما هي الحيلة التي استخدمها (لدي الكهنة كل الجرأة) لكي يحصل من

---

6. Père André de la Boissière s. j., *Les missions de la Compagnie de Jésus en Égypte*, 1925.
7. Père Victor Chevrey, «Rapport sur la mission...», *op. cit.*

السلطات على حقه في الدخول إلى المحجر الصحي؟ الذي حدث أنه سرعان ما أقام بجوار أسرة المرضى. كان يهدىء من روعهم ويخفف عنهم ويعدّهم للذهاب إلى السماء...بل وحدث أنه قام سراً بتعميد أطفال صغار حديثي الولادة وذلك قبل عودتهم مرة أخرى إلى الجنة[٨].» وبعد انتهاء الوباء حزم الأب رولان حقيبته وسافر في اتجاه الجنوب للانضمام إلى المبشرين المقيمين في طهطا وفي الأقصر تاركاً آخرين يحلون محله.

لم تعد توجد منافسة بين اليسوعيين والفرير. وفي عام ١٩٠٢ تنازل الأولون عن مدرستهم بالمنيا إلى الآخرين. وبعد مضي خمسة أعوام حلّت راهبات سان-چوزيف محل الراهبات السوريات في مدرسة البنات. لم يتقبل السكان وصول الراهبات الفرنسيات بصورة جيدة لتعلقهم بالراهبات الراحلات. وكان يجب مرور بعض الوقت لكي يجدن قبولاً وبعد أن تعلّمن اللغة العربية. لم تكن حياة اليسوعيين ذاتهم -«فرنسيون أكثر مما ينبغي، ورومانيون بإفراط، وأجانب الأصل، وأجانب العادات[٩]»- سهلة وذلك إلى أن حل محلهم كهنة من الأقباط-الكاثوليك.

ويعرض الأب ڤيكتور شوڤري في وثيقة داخلية محررة عام ١٩٢٥ رؤية طموحة في الأمد الطويل. فقد كتب يقول بأن العمل في مصر يتيح أيضاً إعادة ملايين المسيحيين في إثيوبيا إلى الإيمان الكاثوليكي. وفي وقت تالٍ ستتيح الكنيسة القبطية الموحّدة التبشير بالإنجيل في المناطق الوثنية في السودان وفي إفريقيا الوسطى. «وأخيراً لا يمكننا الاستخفاف بأهمية امتلاك كنيسة في وسط الإسلام، على أن تكون كنيسة كاثوليكية قوية ومنظمة من أجل اليوم -وسوف يجيء اليوم- الذي سينفتح فيه العالم الإسلامي على الإيمان[١٠].»

وفي الانتظار يقوم المبشرون بإحصاء رعيتهم. ازداد عدد الكاثوليك أربعة أضعاف خلال خمساً وعشرين عاماً في أبرشيات طهطا والمنيا. تضاعف عدد المدارس بعد توقف عنيف بسبب الحرب العالمية الأولى. وفي عام ١٩٢٥ كانت الإرسالية اليسوعية تدير في صعيد مصر خمساً وعشرين مدرسة من بينها ثلاث مدارس بنات يرتادها أصحاب «العقيدة الصحيحة» مثلما يرتادها «المنشقون» و«غير المؤمنين». وبعد قليل استطاع أحد المحنكين بإرساليات الشرق أن يكتب: «إن الأقباط ناضجون من أجل اقتطافهم وضمهم إلى إخوتهم في حظائر رب الأسرة.»

8. H. Pélissier et V. Barjon s.j., *L'Histoire d'un demi-siècle. Mission de Haute-Égypte (1887-1937).*
9. *Ibid.*
10. Père Victor Chevrey, «Rapport sur la mission...», *op. cit.*

(٦)

محميُّون ومحبون

عدد الفرنسيين في مصر يتراجع بالنسبة للجاليات الأوروبية الأخرى. كان عددهم في عام ١٨٨٢ قبل الاحتلال الإنجليزي يقدر بخمسة عشر ألفاً مما يجعلهم أقل من اليونانيين بكثير (٣٧ ألفا) ومن الايطاليين (١٨ ألفا)، لكن أكثر من الإنجليز (٦ آلاف). وبعد مضي خمسة وثلاثين عاماً، أي في عام ١٩١٧ أصبح عددهم (٢١ ألفا) أي أقل من جميع الجاليات الأوروبية الكبيرة الأخرى فهم أقل من اليونانيين (٥٦ ألفا)، والايطاليين (٥٠ ألفا) والإنجليز (٢٤ ألفا). ومع ذلك كان لا يوجد وجه للشبه في مجال الإشعاع الثقافى بين فرنسا والدول الثلاث الأخرى مجتمعة، واستمر هذا الإشعاع في التزايد حتى الحرب العالمية الثانية.

ويمكن تفسير ذلك جزئياً بوجود ناطقين آخرين باللغة الفرنسية -بلچيكيين وسويسريين- لكنهم قليلو العدد. كان البلچيك بنوع خاص نشطين للغاية. فمن بينهم قضاة في المحاكم المختلطة ومهندسون ومعماريون ورجال دين ورجال بنوك....إن الدستور المصري يحمل طابعهم. وقام أحدهم هو چاكيه Jaquet بتدريب بعض الدبلوماسيين البارعين في وزارة الخارجية المصرية أطلق عليهم اسم «أولاد چاكيه» ومن بينهم بطرس بطرس غالي الذي أصبح سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة فيما بعد.

وكان البارون إدوار إمپان Édouard Empain بلچيكياً أيضاً وقد أنشأ عام ١٩٠٠ في قلب الصحراء على بعد حوالي عشرة كيلومترات شمال-غرب القاهرة مدينة مدهشة أصبح لها مستقبلاً باهراً هي مدينة: هليوبوليس [مصر الجديدة]. إن هندستها المعمارية التي تجمع الأسلوبين الشرقي والغربي فريدة في نوعها. وتتوافق شرفات منازلها الحجرية مع الظروف المناخية، كما تحد شوارعها الواسعة نباتات وفيرة. وتوجد بهذه المدينة- الحديقة

كاتدرائية كاثوليكية لاتينية هي نموذج مصغر لكنيسة القديسة صوفي في القسطنطينية، كما يوجد فندق هليوپوليس پالاس (مقر رئاسة الجمهورية الآن). وقد أتاح الترام الذي يربطها بالعاصمة ويسمونه «مترو» نجاح مشروع البارون إمپان: وإذا كانت هليوپوليس تمتلك نادياً على الطراز الإنجليزي [نادي هليوپوليس] إلا أن لافتات محلاتها التجارية مكتوبة في الأغلب بالفرنسية. كانت هذه المدينة تجتذب سكانها من بين البورجوازية المغرّبة الذين وإن كانوا غير أوروبيين إلا أنهم يتبنون أسلوب الحياة الأوروبية. إنهم أيضاً يصفون الأسلوب المعماري في مصر الجديدة بأنه «أسلوب هيليپوليتاني»[1].

سوريون متمصرون ويهود محليون

خلال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن كان عدد الناطقين بالفرنسية في مصر يتجاوز عدد أعضاء الجاليات الفرنسية والبلچيكية والسويسرية بكثير. وهم ينتمون إلى العائلات اليهودية مثلما إلى العائلات المسيحية والمسلمة، وإلى أوضاع اجتماعية متباينة للغاية: مصريو المنبت، وحاصلون على الجنسية المصرية، وأجانب أو «تحت حماية» دولة أوروبية. ويوجد من بينهم أيضاً من بلا جنسية ولا يعرفون ماهيتهم لأن التشريع حديث وغامض. وكان اللورد كرومر يقول وهو يسد أنفه: هل هم مصريون؟ متمصرون؟ أم «نصف-أهالي» ؟...

وفي عام ١٩٢٢ قام موريس باريس Maurice Barrès [كاتب وسياسي فرنسي ١٨٦٢-١٩٢٣] عضو الأكاديمية الفرنسية بزيارة مدرسة الفرير بالإسكندرية وكتب بعدها يقول بإعجاب -وبالكثير من الاستخفاف: «هؤلاء المشرقيون الصغار الجالسون أمام نفس الطاولات وتقريباً أمام الدروس ذاتها التي كنت أتلجلج أمامها يثيرون اهتمامي...إنهم يحضرون جميعاً دروس المسيحيين الصغار الدينية باحترام ويشاركون فيها إن رغبوا. ويحدث أحياناً أن يصبح أحد اليهود الصغار الأول في التعاليم المسيحية. ومن ثمّ نلمس نقطة ضعف هؤلاء الأطفال وهي: أنه لا يوجد لديهم عمود فقري [بمعنى دعامة تسندهم]. إن محتواهم الإنساني ضعيف. غير أنهم يجعلونهم يحبون فرنسا، وعاداتها، والوفاء لها. إن الايطاليين هم الأكثر مقاومة: ذلك لأنه يوجد لهم وطن. أما الآخرون فإنهم يتجمعون حول فرنسا.» ويبالغ الكاتب الفرنسي في إظهار عواطفه فيضيف قائلاً : «نحن

1. Robert Ilbert, *Héliopolis* 1905-1922. *Genése d'une ville,* Paris, CNRS> 1981.

نعطيكم لغتنا وكل ما تحتويه من نور ومن مشاعر، ولا تطلب منكم في المقابل شيئاً آخر غير قلوبكم»(٢).

الواقع أن الذى تربط هؤلاء الفرانكفونيين بفرنسا هو قصة حب. ويقول جوزيف عسكر-نحاس المولود عام ١٩٠٠ الذي كان يعمل بقناة السويس: «إنها باريس التي تغلغلت داخلنا بلا ضغط، واستولت على حاستنا وعلى عقلنا بعذوبة لا تقاوم».(٣) إنها قصة حب لكنها بلا ريب مصلحة أيضاً...فاللغة الفرنسية مرتبطة بمركز اجتماعي: فيجب على كل فتاة مسلمة تنتمي لأسرة «كبيرة» في القاهرة أو الإسكندرية أن تتعلمها. كما أن الحديث باللغة الفرنسية بالنسبة لآخرين هو وسيلة للتميز ولتأكيد هوية حينما يكون الفرد من الأقليات أو حين يخشى -إن حقاً أو صواباً- الذوبان في الأغلبية المسلمة.

إن حالة المصريين الذين من أصل سوري أو لبناني هي حالة نموذجية. كانوا في غالبيتهم مسيحيين هاجروا إلى وادى النيل بحثاً عن الثروة أو هروباً من اضطهاد. كان البعض منهم نشيطاً للغاية في بداية القرن الثامن عشر ويشغل وظائف هامة في الجمارك المصرية. إن الفوضى التي كانت سائدة حينذاك في البلاد التي يحكمها المماليك جعلتهم يسعدون بوصول القوات الفرنسية. وقام البعض منهم بوضع نفسه في خدمة المحتل، بل وذهب إلى حد حمل السلاح إلى جانبه. ووجد الأكثر تورطاً من بينهم نفسه مضطراً إلى الرحيل مع جيش الشرق عند انسحابه من البلاد. لكن ظلت الأغلبية باقية في مصر حيث حصلت على مستقبل باهر في عهد محمد علي الذي حماها وانتفع من خاصياتها كوسطاء.

وظهرت موجات جديدة من «السوريين» بعد مذابح عام ١٨٦٠ في دمشق وفي الجبل اللبناني. كانت مصر وقتها مزدهرة وتجتذب المهاجرين. وإذا ما كان العديد من هؤلاء المسيحيين تجاراً فإنه يمكنهم أيضاً الحصول على وظائف كمرشدين ومترجمين بخاصة في القنصليات. ومن بينهم مثقفون أنشأوا في مصر صحفاً جديدة باللغة العربية: كانت صحفاً ذات أسلوب مباشر وسهل، خالٍ من العبارات المتكلفة التي كانت سائدة، وقد أقبل الجمهور عليها.

كان «السوريون» في مصر يعتبرون فرنسا حامية طبيعية لهم. وفي بداية الاستعمار الإنجليزي كانوا موزعين بين العقل والعاطفة. كان الإنجليز يحتاجونهم للعمل في الخدمة

2. Maurice Ascar-Nahas, Égypte et Culture française. Le Caire, Éd. de la Société orientale de publicité, 1953.
3. Joseph Ascar-Nahas, *Égypte et Culture française.* Le Caire, Éd. de la Société orientale de publicité, 1953.

المدنية حتى وإن كانوا لايحبونهم إلا قليلاً. وكتب اللورد كرومر بشأن موضوعهم صفحات طويلة متناقضة تماماً، إذ يغمرهم أحياناً بالزهور ثم يصفهم في أحيان أخرى بالطمّاعين...وتقوم بعض الصحف التى أسسها سوريون مثل جريدة «المقطم» بخدمة المحتل الإنجليزي. بينما تقوم صحف أخرى مثل «الأهرام» التي يمتلكها آل تكلا بمساندة فرنسا التي تساعدهم مالياً.

كان أحد الكهنة المارونيين في القاهرة يخاطب رعاياه في التسعينيات من القرن التاسع عشر بقوله: «فلنصلِّ من أجل السلطان عاهل الإمبراطورية كلها، ومن أجل الخديو عاهل البلاد، ومن أجل فرنسا حاميتنا. وليكن شعارنا دائماً: النفس للكنيسة، والقلب لمصر، والعقل لفرنسا [٤]». العقل فقط؟ إن العديد من هؤلاء الكاثوليك الذين من حلب ومن دمشق أو بيروت هم فرنسيون قلباً. وقد قال عنهم هنري جايار ممثل فرنسا بالقاهرة في العشرينيات من هذا القرن في إحدى برقياته «إنهم أفضل أنصار لنا في مصر». كان عدد السوريين وقتذاك يقدر بستين ألف نسمة، وبعد الحرب العالمية الثانية تجاوزوا الـ ١٠٠ ألف نسمة.

وتعتبر حالة يهود مصر مثيرة للاهتمام أيضاً وهي أكثر تعقيداً. فهذه جالية موجودة في وادي النيل منذ العهود القديمة. وقد صمدت أمام جميع أنواع الاحتلال، وجميع النظم السياسية، وعرفت هي ذاتها جميع أنواع المصائر. ولكن أضيف إلى هؤلاء المصريين الذين من أصل مصري طبقات متنوعة من المهاجرين: جاؤا من اسبانيا في القرن السادس عشر، ثم من جنوب إفريقيا، ومن الألزاس بعد عام ١٨٧٠، ومن روسيا بعد عام ١٩١٧...إنها جالية هامة -كان تعدادها ٦٣ ألف و٥٥٠ عام ١٩٢٧- لكنها مجزأة من جميع النواحي: اجتماعياً وقومياً ولغوياً.

وكان يهود يملكون غالبية محلات مصر التجارية الكبيرة: شيكوريل، وشملا، وهانو، وبنزيون، وجاتينيو، وأروزدى باك [عمر افندي]. وكانت لليهود مراكز قوية في البنوك (موصيرى، وكورييل)، كما في الصناعة (رولو، وسوارس). وكان بعض الأعيان يدورون في فلك السلطة مثل يوسف قطاوي باشا رئيس الجالية اليهودية بالقاهرة الذي أصبح في عام ١٩٢٥ وزيراً للمالية ثم للمواصلات. كانت هذه البورجوازية تتحدث الفرنسية وتفكر بالفرنسية في حين كان العديد من يهود الأحياء الشعبية لا يعرفون غير اللغة العربية، أو لغة بلادهم الأصلية. وكان هذا الأمر يتسبب أحياناً في صراعات عنيفة.

4. Cité par Louis Malosse, *Impressions d'Égypte,* Paris, 1896.

وكانت هذه الجالية تصدر صحفاً باللغة الفرنسية مثل جريدة «صوت اليهود». وكانت بعض مدارسها –مثل مدارس مؤسسة منشّة– تقدم تعليما باللغة الفرنسية حتي الحصول علي شهادة «البريڤيه». ومن الحقائق العجيبة أن مدرسة الأليانس اليهودية التى أنشئت فى القاهرة لنشر اللغة الفرنسية رحلت فى عام ١٩٢٣ لأنها رأت أن مهمتها قد انتهت(٥).

الفرنسية، لغة أجناس مختلفة

يوجد مسلمون وأقباط منتمين إلى هذا النطاق الفرانكفوني، حتى وإن كانوا يجيدون العربية تماماً. هذه حالة هدى شعراوى رائدة الحركة النسائية في مصر التي اختارت نشر مجلة «الاجبسيين» [المصرية] باللغة الفرنسية. وفي العدد الأول من هذه المجلة الصادر في فبراير ١٩٢٥ توضح هدى شعراوي قائلة : «حين نصدر هذه المجلة بلغة غير لغتنا، فإن هدفنا مزدوج: تعريف الخارج بالمرأة المصرية كما هي في أيامنا هذه –مع المخاطرة بانتزاع الغموض والسحر المحيط بها في نظر الأجنبي بسبب انزوائها السابق– وتنوير الرأى العام الأوروبي بشأن الحالة السياسية والاجتماعية الحقيقية في مصر.»

كانت الفرنسية لغة الأقليات، بل في الوقت نفسه لغة تفهمها أجناس متعددة، تتيح تبادل الاتصال بين أفراد ينتمون إلى جاليات مختلفة ولا يعرفون اللغة العربية جيداً. وهذا صحيح بخاصة في مدينة الإسكندرية حيث يحدد المرء ذاته بانتمائه إلى «جاليته» كما بانتمائه إلى «ديانته». وقد سجلت هذه المدينة تنوعها في أسماء پلاجاتها ومحطات ترامها: باكوس، بولكلي، شاطبي، كليوپاطرة، جليمونوپولو، لوران، مزاريطة، مظلوم، شوتز، ستانلي، سيدي بشر، ڤيكتوريا، زيزينيا... ومن بين سكان الإسكندرية البالغين ٤٠٠ ألف نسمة في عام ١٩٠٧ كان يوجد ٢٦ ألف يوناني و١٦ ألف إيطالي وما يقرب من ٩ آلاف إنجليزي و ٦ آلاف و٤٠٠ فرنسي يضاف إليهم العديد من الفرانكفونيين المنتمين لمجموعات اجتماعية أخرى (مسلمون، وأقباط، ويهود، وأرمن، وسوريون...).

وبدقة ومهارة قام روبير إلبرت Robert Ilbert بتحليل بنية هذا المجتمع البعيد عن كونه بوتقة(٦). فكل جالية (من أصل قومي) أو جماعة (معرّفة بانتماء ديني) لها هويتها (يحدث أحياناً أن يختلط الأصل القومي بالانتماء الديني). وكل جالية أو جماعة تمتلك مؤسساتها الخاصة لكنها تدخل في علاقات الواحدة مع الأخرى على جميع المستويات

5. *Histoire des juifs du Nil* sous la direction de Jacques Hassoun, 2e éd., Paris, Minerve, 1990.
6. Robert Ilbert, *Alexandrie, 1830-1930,* Le Caire, IFAO. 1996.

الاجتماعية: فالأعيان يتزاورون فيما بينهم، والمثقفون ينتمون إلى الجمعيات نفسها، ورجل الشارع على اتصال دائم بأناس ليسوا من دينه ولا من ثقافته الأصلية.

هذه العلاقات الأفقية بالإضافة إلى العلاقات الداخلية والرأسية تتضح في تشكيل مجلس إدارة فندق سان ستيفانو في بداية القرن العشرين. كان يرأس المجلس بوغوص نوبار باشا الأرمني، ونائبي الرئيس سينادينو Sinadino اليوناني، ومنشّة اليهودي من أصل مصري. ويوجد بين أعضاء المجلسإيطالي (ستاجني Stagni) وإنجليزي (كارفر Carv-er) وألماني (بوبيكوفر Pupjkofer) وسوري ارتفع إلى طبقة النبلاء (زغيب).

وشعر هؤلاء الأعيان بالإرهاق من الخلل الوظيفي بمدينة الإسكندرية فقرروا عام ١٨٩٠ تكوين نوع من البلدية «الخاصة» التي تولى سكرتيريتها إسماعيل صدقي المصري المسلم والتلميذ السابق بمدارس الفرير ورئيس وزراء مصر فيما بعد. هكذا كانت الإسكندرية حتى عام ١٩٢١ تعمل أساساً باللغة الفرنسية اللغة المهيمنة التي يستخدمها حتى بعض «الإيطاليين بجوزات السفر» (الذين حصلوا على الجنسية الإيطالية بوسائل مريبة) حين يلجأون إلي قنصلياتهم.

ولم يكن الجميع يتحدثون الفرنسية بنفس الطريقة. ففي داخل «النادي الأكثر انغلاقاً في المدينة» الذي هو مجلس البلدية كانوا يتناقشون بشأن البلاچات والبالوعات بلغة فرنسية مهذبة للغاية. بل وكان هؤلاء السادة يضمون شعراء هواة ينظمون شعراً وفقاً لهواهم...أما رجل الشارع فقد تعلم أن يرطن الفرنسية عندما يتحدث مع جيرانه. وبين هذين الضدين نجد جميع تلاميذ مدارس الليسيه الفرنسية السابقين ومدارس الرهبان والراهبات . وكنا نجد في العائلة الواحدة من يتحدث بلغة فرنسية ممتازة في حين يجد الآخرون أنه من الأسهل عليهم التحدث بالعربية أو الإنجليزية أو اليونانية أو الايطالية أو الأرمنية...

وقد درس چان–چاك لوتي Jean Jacques Luthi اللهجة الفرنسية المحلية في مصر بعناية شديدة(٧)، حيث يمكن أن يتفاوت النطق بين مجموعة وأخرى فحرف u يصبح ou لدى الإيطاليين و i لدى الناطقين بالعربية في حين أن ch لدى اليونانيين قد تنزلق نحو الحرف s... لكن تلاميذ المدارس الفرنسية الرئيسية من أى أصل كانوا فإنهم ينتهون إلى استخدام المدّة المصرية نفسها.

إنها لهجة فاتنة ورخيمة إلى حد ما. ولا يضعون المدّة على ذات المقاطع اللفظية كما

---

7. Jean-Jacques Luthi, *Égypte, qu' as-tu fait de ton français?*, Paris, Synonime, 1987.

يفعلون في فرنسا. وعند السرد يطيلون في نطق الحروف النهائية بقصد التعبير بوضوح. وهم يكثرون من الحركات المصاحبة للحديث ولا ينطقون حرف r بلثغته الفرنسية التي يعتبرونها نوعاً من التظاهر أو التكلُّف.

ويقوم أصحاب اللغات المتعددة هؤلاء بمزج اللغات فينتقلون بسهولة من لغة إلى أخرى. ويحدث أنهم يدخلون كلمة أو تعبيراً عربياً في جملة فرنسية بل ويقومون أحياناً بتصريف كلمات عربية بطريقة فرنسية (فيقولون مثلاً «bakchicher» أي يدفع بقشيش) . كما أنهم يستخدمون بعض الكلمات العربية مثل «مبروك» أو «معلهش» في وسط حديثهم بالفرنسية وقد يستخدمون كلمة «يا» للمناداة فيقولون «يا چورچ viens ici» [يا چورچ، تعالي هنا] أو «يا سمير ?où étais-tu» [يا سمير، أين كنت؟]...

وتستعير اللغة الفرنسية المتداولة في مصر العديد من الكلمات العربية ، بل وأيضاً من التركية وبالتبعية من الإيطالية واليونانية والإنجليزية والأرمنية... فرجل البوليس يسمونه «شاويش» ومنذ الاحتلال الإنجليزي أصبحوا يسمونه «كونستابل». وتتخذ الكلمات أحياناً منعطفات غير متوقعة: فكلمة «روبابيكيا» تستخدم في اللغة العربية الدارجة للدلالة على جمع الأشياء القديمة التي يستغنون عنها، ونجدها أيضاً في اللغة الفرنسية المتداولة في مصر وهي مأخوذة عن كلمة «روبا ڤيكيا roba vecchia » الايطالية. وتوجد كلمات أخرى تم استنباطها محلياً وقد ولدت عفوياً داخل أوساط محدودة مثل «عَجَميست» أي شخص اعتاد الذهاب إلي پلاچ العجمى.

وتوجد في هذه اللغة الفرنسية الخاصة بمصر تعبيرات عربية تمت ترجمتها حرفياً مثل «Il boit une cigarette» أي أنه «يشرب» سيجارة [في الفرنسية السليمة يقولون يدخن «fumer» وليس «يشرب»] ... ويقولون أيضاً أن الساعة الثالثة والنصف وخمسة أو الثالثة والنصف إلا خمسة في حين أن الفرنسيين يقولون الساعة الثالثة والخامسة والثلاثين أو الثالثة والخامسة والعشرين... بل وتوجد شتائم عربية مترجمة حرفياً إلي الفرنسية ويستخدمها بعض الناطقين بالفرنسية في مصر مثل «Que dieu te prenne» [ربنا ياخدك!]، بل وبعض المجاملات أيضاً «Tu eclaires la maison » [انت نورت البيت].

كوكبة من الشعراء والروائيين

لم يقنع الناطقون بالفرنسية في مصر بالحديث بالفرنسية. ففي خلال الفترة بين الحربين العالميتين أمسك بعضهم بالقلم لنظم القصائد الشعرية والقصص والروايات. أنشأوا

المجلات والحلقات الأدبية واستقبلوا بحرارة الكتاب الفرنسيين الذين يمرون بالبلاد. وفي الإسكندرية اعتادت جماعة «الأرجونوت» Argonautes على الاجتماع في شرفة مقهى هناك. وفي القاهرة كان كتاب المقالات الأدبية يأوون بصحبة مراجعهم إلى أحد صالونات معهد برجاند Bergünd...

وشارك في هذه الحركة ممثلون لجميع الجاليات والجماعات. قام اليوناني ستافروس ستراڤينوس Stavro Stravinos بتحويل مكتبته في القاهرة إلى حلقة أدبية فرانكفونية. وقام الايطالي چان موسكاتيللى Jean Moscatelli بنشر مختارات من إنتاج الشعراء الناطقين بالفرنسية في مصر. وعقدت سوريات-لبنانيات مثل مي زيادة وأمي خير الصالونات الأدبية. وكانت مصرية مسلمة هي قوت القلوب الدمرداشية تكتب بالفرنسية، وتستقبل المثقفين في قصرها على ضفة النيل. كانوا ينشرون عادة على نفقة المؤلف، لكن المؤلفات العلمية وحدها هي التي تتولي نشرها جمعيات ذات نفوذ مثل الجمعية الجغرافية الملكية.

وبدأ بعض الكتاب الذين يحضرون هذه الصالونات الأدبية في التأليف باللغة العربية ذلك مثل الشاعر أحمد راسم. وكان آخرون يعبرون عن أنفسهم جيداً بالفرنسية والايطالية مثل جيوسوب أونجاريتي Giuseppe Ungaretti واجوستينو سينادينو Agostino Sinadino ، أو بالفرنسية والأرمنية مثل آرسين يرجاث ألياس شمليان Arsène Yergath alias Chemlian...ومن أعظم هؤلاء الكتاب كاڤافيس Cavafis الذي كان يؤلف باللغة اليونانية، لكنه كان أحد أعضاء هذا النادي الجامع لأجناس متنوعة وحيث يمكننا الالتقاء مع الغامضة ڤالانتين دي سان- پوان Valentine de Saint-Point حفيدة شقيق لامارتين [الشاعر والكاتب الفرنسي الشهير ١٧٩٠-١٨٦٩] التي جاءت إلى مصر عام ١٩٢٤ لكي لا ترحل بعدها وأصدرت في مصر بعد مضي عشرة أعوام قصة Caravane des chimères [قافلة الأوهام] كما أصدرت مجلة Le phoenix [العنقاء].

الواقع أن فرنسيين اشتركوا بنصيب هام في هذا النشاط الأدبي، وكانوا هم في بعض الأحيان الموحين بالفكرة مثل هنري تويل Henri Thuile المولود عام ١٨٨٥ الذي وصل مصر وعمره عشرة أعوام . إن هذا التلميذ بمدرسة الفرير حصل على دبلوم في الهندسة ثم على وظيفة في مصلحة الموانى والمنائر بالإسكندرية. وبعد وفاة زوجته اعتزل في منزل على شاطيء البحر بالقرب من قرية المكس. وبدأ هناك في نظم الشعر واستقبال جميع الفنانين الموجودين بالمدينة. وقام شاعر شاب في ذلك الوقت هو جاستون زنانيري

بوصف المكتبة الضخمة والشرفة الدائرية «في ذلك المسكن الواسع العتيق والمنعزل في بيئة مقفرة كثيرة الأحجار وتتباين بصورة شاذة مع إشراق السماء والبحر[٨]».

ويعتبر «زاهد قرية المكس» إمام جيل من شعراء مصر الناطقين بالفرنسية. كان بعضهم يرتكبون خطأ استلهام الغابات المغطاة بالثلوج والمركيزة المتعاظمة . ولكن لم تكن هذه حالة الشاعر محمد خيري إذ نجد قصيدته *Rêves évanescents* [الأحلام المتلاشية] مترسخة تماماً في المشهد المحلي.

وفي عشيّة الحرب العالمية الثانية كانت توجد مجموعة مختارات شعرية لشعراء من مصر ناطقين بالفرنسية بلغ عددهم ٤٦ شاعراً من بينهم حوالى ثلاثين شاعراً مصرياً. وكان من بينهم رومانسيون وبرناسيون [حركة أدبية تؤمن بنظرية الفن للفن] ورمزيون بل وسرياليون وعلى رأسهم چورچ حنين ...إن قائمة الأسماء طويلة[٩]. لم تكن توجد جالية أخرى ناطقة بالفرنسية تنتج أعمالاً بمثل هذه الوفرة خلال الفترة بين الحربين العالميتين مثل جالية مصر التي يحتلها الإنجليز!.

لكن لماذا تقوم لغة موليير وكل ما تحمله باجتذاب العقول المثقفة إلى هذا الحد؟ يجيب على هذا السؤال المصرى چورچ دوماني المولود عام ١٨٨٢ وهو شاعر وصحفي ومؤسس مجلة «جحا» الأسبوعية، بل وكان أيضاً مناضلاً سياسياً وموظفاً كبيراً فيقول بأن السبب هو أنه توجد على ضفتي البحر المتوسط الحساسية ذاتها: «لأن هنا وهناك يحبون الوضوح الدقيق، والذكاء الشامل وتناسق الفكر والأسلوب وتناغمه، وترصيع نسيج الجمل بكلمات متناسقة: ولأن هنا وهناك –مهما تنوع العرق واختلفت المهارات– توجد حاسية السخرية، وميل نحو الحقيقة ، وتعلق بالحنان.» قد يكون هذا صحيحاً...لكن تمت صياغة هذا القول برشاقة كافية تجعله على أية حال يستحق الاستشهاد به.

8. Gaston Zananiri, *Mémoires*, Paris, Le Cerf, 1996.

9. Jean-Jacques Lutgi, *Introduction à la littérature d'expression française en Égypte (1798-1945)*. Paris. Éd. de l'Écple, 1974.

(٧)

باريس الصغيرة

شهدت العلاقات الفرنسية-البريطانية في مصر بعد الحرب العالمية الأولى تحسناً، لكن هذا لم يمنع حدوث بعض المناوشات. ويقول لنا دبلوماسي فرنسي كان يعمل في القاهرة وقتذاك أنه إذا كان الكاردينال ديبوا رئيس أساقفة باريس ذهب إلى وادى النيل في يناير ١٩٢٠ فذلك لتأكيد أن فرنسا «هي أكبر قوة كاثوليكية في الشرق ولإفشال مهمة المونسنيور روبنسون الأسقف البريطاني[1]». لقد استقبل السلطان فؤاد رئيس أساقفة باريس الذي زار المدارس الفرنسية، بل والتقطت صور له أمام الأهرام راكباً جمل وبصحبته جميع مرافقيه... إن لوفيفر-بونتالي وزير فرنسا وقنصلها العام الذي كان يستعد للرحيل لم يمنع نفسه من الاستمتاع بهذه الرحلة الكهنوتية: إنه يبغض الإنجليز، فحين كان ملحقاً شاباً بالقاهرة وقت مهانة الفاشر، كان هو ذاته الشخص الذي في عام ١٨٩٩ أبلغ مارشان [جنرال فرنسي ١٨٦٣-١٩٣٤] بأن فرنسا قررت الاستسلام.

ويعتبر هنري جايار خليفة لوفيفر-بونتالي من أفضل المستشرقين في وزارة الخارجية الفرنسية. إنهم يتشككون في تأتأته ويصفونه بأنه «رجل قصير، ضخم الجسم، أصبح متلجلجاً من فرط ما كذب من أجل الجمهورية». ويصفه جاك دومال الذي عمل مساعداً له خلال سنوات عديدة في القاهرة بأنه يضع طربوشاً عليَ رأسه ثم يذهب ليذوب وسط عامة الناس في الأسواق وفي المقاهى لكي يحصل على معلومات عن حالة الرأي العام. وكان الدرس الأول الذي لقنه لمساعده هنري جايار هو: «حين تذهب لدى أحد الوزراء سواء كان باشا أو بك، يجب أن تصل دائماً مبكراً، ولا تتحدث إطلاقاً عن الموضوع الذي يهمك، دخن سجائرك، واشرب قهوتك، وتحدث في أشياء تافهة. لا تخشى من فترات الصمت الطويلة واستخدم جميع صيغ الأدب واللياقة المممكنة، مثل «تفضل»

1. Jacques d'Aumale, *Voix de l'Orient*, Montréal, Variétés, 1945.

و«أهلاً وسهلاً» ، وعند الانصراف وعلى عتبة الباب غيّر رأيك وتذكر أنه كان لديك موضوع صغير غير ذي بال تود عرضه على الباشا، ثم قدم طلبك واذهب. سيكونون ممتنين لك لأنك اتبعت القاعدة.»

وفي بداية العشرينيات كانت وكالة فرنسا الديبلوماسية تشغل مبنى في القاهرة من أملاك الخديو إسماعيل السابقة. كانت النوافذ والنجف والسجاد والأشياء الأخرى الثمينة مأخوذة من قصور أو من جوامع أو من أشخاص عاديين بمبادرة من رجل فرنسي هو الكونت سان–موريس رئيس اسطبلات نائب الملك وقتذاك. وكانت هذه الأشياء المتنوعة العجيبة لا تخلو من الجمال. أما بالنسبة لطابع المبنى الوظيفي...«فقدكانت المكاتب كائنة في الدور الأرضى مكان المطابخ والحمام، وكانت باردة في الصيف. لكننا كنا نصاب بالروماتيزم في الشتاء(٢) ...»

شاي القُدامى

كانت فرنسا البلد الأولى التي تعترف باستقلال مصر في عام ١٩٢٢، وحصلت لممثلها في القاهرة على لقب عميد السلك الدبلوماسي. قد لا يعني هذا اللقب شيئاً عظيماً لكن من الحسن دائماً الحصول عليه. وفي ظل الوصاية الإنجليزية ستتمكن الصداقة المصرية–الفرنسية من الازدهار تحت عناوين أكثر فخامة: لقد منحت بريطانيا الاستقلال الوطنى لمصر تحت ضغط حركة وطنية واسعة النطاق. إن مصر التي انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١٤ لتتحول إلى محمية إنجليزية بصفة رسمية ستصبح من الآن فصاعداً مملكة ذات سيادة. إنها على الأقل ستكون صاحبة سيادة على الورق، لأن الإنجليز يحتفظون بقواتهم في وادي النيل، وأعلنوا أنهم يقومون بتأمين الدفاع عن البلاد وعن طرق المواصلات الدولية، ويحتفظون بحق حماية الأقليات والمصالح الأجنبية. ومع ذلك فقد ظهرت بعض التغييرات: لقد أصبحت الحكومة المصرية أكثر حرية في تصرفاتها فأعادت مثلاً تعليم اللغة الفرنسية إلى المدارس الثانوية الحكومية. وفي خلال عام واحد ازداد عدد التلاميذ الذين يدرسون هذه اللغة ستة أضعاف(٣).

وتم إجمال حالة اللغة الفرنسية في مصر في مقال بليغ نشر عام ١٩٢٣ بجريدة باللغة العربية وأرسلت نسخة منه فوراً إلى وزارة الخارجية الفرنسية. قال كاتب هذا المقال:

---

2. *Ibid.*
3. Delphine Gérard, «Le choix culturel de la France en Égypte», in *Égypte-Monde arabe* CEDEJ, no 27-28 3e et 4e trimestre 1996.

«بالرغم من أنني معجب بالحضارة وبالأدب الإنجليزي، إلا أنه يجب علي الاعتراف بأن دراسة اللغة الفرنسية أجدى للشاب المصرى من الإنجليزية. يجب تدريس اللغة الفرنسية منذ السنة الأولى بالمدارس الابتدائية . لماذا؟ لأنه بالرغم من محاربة اللغة الفرنسية منذ أربعين عاماً إلا أنها تحتفظ في مصر بمركزها الذي تستحقه.(٤)» ثم أعقب الكاتب ذلك بقائمة من البراهين والأمثلة التوضيحية. فيقول بأنه إذا تقدم مثلاً مرشحان لوظيفة في بنك الأنجلو-اجيشيان أحدهما لا يتحدث سوى الإنجليزية والآخر لا يتحدث سوى الفرنسية «فالآخر هو الذي سيتم قبوله بالتأكيد». ومن جهة أخرى فإن كل من يكتب خطاباً باللغة العربية إلى هذا البنك يتلقى الرد باللغة الفرنسية.

وأصبح لدى مصر المستقلة ملكاً (فؤاد الأول)، وعلماً جديداً (أخضر وعليه هلال وثلاثة نجوم)، و«وزيراً» في باريس هو فخري باشا صهر الملك الذي تولى منصب سفير لدى فرنسا حتى الحرب العالمية الثانية. وسرعان ما اعتمدت باريس هذا الأمير المغرّب الذي تربّى لدى اليسوعيين، والذى طلب من مصانع سيفر طاقم مائدة «مصرى» فاخر.

وفي عام ١٩٢٧ قام فؤاد الأول بزيارة رسمية إلى فرنسا، شعر خلالها براحة تشبه بالتقريب الارتياح الذي أحسه والده اسماعيل العظيم. فالملك فؤاد يعبر عن نفسه جيداً بالفرنسية المشوبة بلكنة إيطالية خفيفة اكتسبها أثناء دراسته بالأكاديمية العسكرية بمدينة تورين. وتعود على استخدام اللغة الإيطالية يومياً. وفي القاهرة كانوا يستخدمون الفرنسية في تحرير جميع العقود الموقعة بين المؤسسات والشركات حتى الإنجليزية منها. كانت الجمارك والبريد المصرية تتراسل مع مخاطبيها بالفرنسية، كما كان معهد مصر والجمعية الجغرافية الملكية ومجلس بلدية الإسكندرية يجرون مداولاتهم بالفرنسية أيضاً. حتي مجلس الوزراء ذاته كان يدون محاضر جلساته بالفرنسية. أما بالنسبة للملكة نازلى التلميذة السابقة لدى الراهبات فكانت تتحدث بالفرنسية مع مدام قطاوي باشا عضو الطبقة البورجوازية اليهودية الكبيرة المتواجدة بكثرة فى القصر الملكى. وحين قرر الملك تمويل كتابة تاريخ الأمة المصرية لجأ إلي أحد الفرنسيين هو: جابرييل هانوتو Hanotaux وزير الخارجية الفرنسية السابق الذى أشرف علي تنفيذ هذا العمل الصادر فى عدة مجلدات.

وكان فخري باشا قبل تعيينه سفيراً في باريس يرأس رابطة خريجي مدارس اليسوعيين. ولم تكن لدى هذه الرابطة أية رغبة في التدني فوضعت مكانه رجلاً من ذات المقام، هو سعيد ذو الفقار باشا حاجب الملك. إنّ حفلات الشاي والمآدب والحفلات الساهرة التي

4. Ministère des Affaires étrangères, «Alexandrie, 29 octobre 1923», série K-Afrique. 188-1940, sous-série *Égypte*, vol. 33.

تقيمها رابطة الخريجين تساهم في جعل القاهرة «باريس صغيرة» . وقد صرح ذو الفقار باشا في اجتماع عقد يوم ٢٤ مايو ١٩٢٤ قائلاً: «إن جماعتنا أيها السادة هي من أجمل جماعات القاهرة» ، بينما قدم الأب مارتمپري Martimprey مدير المدرسة اعتذارات أعضاء عديدين «الذين منعتهم مناقشات المجلس من الحضور بحكم وظائفهم الهامة» . وفي الربيع التالي، أقامت الرابطة احتفالها الخيري السنوي في مسرح الأوپرا الملكية. قدموا أوپرا عايدة، وهو العمل الذي كان مجتمع القاهرة يشهده ست مرات خلال الموسم.

وفي كل عام بمناسبة عيد ميلاد الملك يوجه الأب المدير برقية إلى القصر الملكي باسم المدرسة ورابطة الخريجين، ويقوم ذوالفقار بالرد باسم «جلالة الملك المعظم» . وفي عام ١٩٢٩ جاء الدور على الملك –وبالتالي ذو الفقار– ليرسل تمنياته إلى مدرسة العائلة المقدسة التي تحتفل بعيدها الخمسيني. وبمناسبة هذه الاحتفالات التي استمرت أسبوعاً رفعت فوق سواري المدرسة الأعلام المصرية والفرنسية والحبرية. وأقيم قداس بكنيسة المدرسة، وكان وزير فرنسا المفوض جالساً في الصف الأول. وتحدثت الصحف باستفاضة عن هذا الأسبوع المشهود. وكتب ادجار جلاد رئيس تحرير جريدة «لا ليبرتيه» وخريج المدرسة مقالاً افتتاحياً بعنوان: «في خدمة الله، والملك والنظام» .

الله، والملك...لكن لماذا النظام؟ لا ريب أنهم لم ينسوا في القاهرة اغتيال القائد البريطانى سير لي ستاك في نوفمبر ١٩٢٤ . وكل إنسان يعرف أن البلاد متعلقة بلعبة حاذقة بين ثلاثة أطراف (القصر، والمقر البريطاني، وحزب الوفد)، وأنهم يلعبون دائماً كطرفين ضد طرف مع تبديل التحالفات. في الواقع أنه من الممكن أن يبدو النظام بأنه غير مضمون. ومن جهة أخرى فإن الفرنسيين منقسمون حول المستقبل.

فقد وصل الصحفى الشاب جابرييل داردو Dardaud إلى مصر عام ١٩٢٧ وقال له هيبير Hébert «الصيدلي الشهير» : «اهرب قبل فوات الأوان..إنهم يستسلمون أمام العرب. عما قريب لن توجد أمة فرنسية. سيهبط مستوانا إلى مستوي اليونانيين والمشرقيين. لن تكون لقناصلنا محاكمهم الخاصة وسيمنعونهم من الاستعانة بقواسين يرتدون زياً موحداً. لأنهم سينهون الامتيازات[٥] .» وسمع الصحفي الشاب الرأي نفسه من پيوت بك Piot عميد الفرنسيين في القاهرة ورئيس الطب البيطري بوزارة الزراعة: «إنك حضرت إلى هذه البلاد متأخراً للغاية. العهد الذهبي كان قبل عام ١٩١٩ . انتهى الأمر. الحاميات الإنجليزية ستنسحب نحو قناة السويس، القطاع الوحيد الذي يهمهم في مصر. سنصبح خاضعين

5. Gabriel Dardaud, *Trente Ans au bord du Nil,* Paris, lieu commun, 1987.

لتعسف الموظفين أصحاب الطرابيش، وحتى الشاويشية على ناصية الشوارع لن يحترموننا. سوف يلغون صندوق الدين ولن نعفى بعد ذلك من دفع الضرائب.»

الألعاب النارية في عيد ١٤ يوليو

لكن أغلبية الفرنسيين في القاهرة لا يرون الأشياء بمثل هذا السوء. ففي مصر يشعرون أكثر من أي وقت أنهم في بلادهم. وفي يوم ١٤ يوليو عام ١٩٢٦ أقيم احتفال باذخ في حديقة الأزبكية اختتم بإطلاق الألعاب النارية التي استمرت أكثر من ساعة. وتقول جريدة «إلوستراسيون اجيبسيين» بأنهم شربوا «أنهاراً من الشمپانيا نخب فرنسا ورفعتها وسمو شأنها». وكان يتولى الأمن جمعية الكشافة الفرنسيين في القاهرة التي تفخر بأنها «تعتني بالمصلحة الخاصة لكل مواطن فرنسي بتنمية عضلاته وتنقية دمه وتحسين تنفسه»...وقد امتدت احتفالات يوم ١٤ يوليو هذا إلى هليوبوليس حيث أقيم مهرجان خيري لصالح أطفال الحرب اليتامى من الفرنسيين . وتم انتخاب عشر ملكات جمال.

ويقول الكاتب الفرنسي هنري بوردو Bordeaux [١٨٧٠-١٩٦٣] الذي عاد إلى القاهرة عام ١٩٢٣ بعد مضي ثلاثة عشر عاماً على زيارته الأولى بأن البروتوكول قد تغير. فلم يعد من الممكن الذهاب إلى القصر الملكي بلباس الرحّالة. وأعدت المفوضية الفرنسية مشجباً علقت فوقه قبعة عالية الشكل وسترة ردنجوت «عامة» لإسعاف الفرنسيين الذين لا يمتلكون ملابس رسمية. وكتب بوردو: «كنت أشعر بنفور من ارتداء ملابس تنكرية لا سيما وأن أندريه موروا Maurois [روائي ومؤرخ ١٨٨٥-١٩٦٧] الذي زار القصر قد حذرني. فقد كان يشعر أثناء الزيارة بأنه «عائم» داخل هذه الملابس العامة مما أصابه بالشرود لدرجة خشي معها أن يفقد أيضاً جميع ملكاته. وتذكرت شيئاً أخرجني من هذه الحيرة: أليس الملك عضو مراسلاً بقسم النقوش والآداب القديمة بمعهد فرنسا؟ وألست أنا بهذه الصفة أكون زميله المتواضع؟ لماذا لا أرتدي البدلة الخضراء التي اضطررت إلى إحضارها معي إذ أنني منتدب من الأكاديمية الفرنسية لحضور احتفال الإسكندرية على شرف موريس باريس Barrès [كاتب وسياسي فرنسي ١٨٦٢-١٩٢٣] ؟» لقد كان إحساسا سليماً: فقد استقبل الملك البدلة المطرزة بتحية وجهها إلى الأكاديمية. ففي باريس الصغيرة هذه الواقعة على النيل نجد أنفسنا مع رفاق وأصحاب.[6]

6. Henry Bordeaux, *Le Sphinx sans visage*, Marseille, Detaille, 1946.

وتظل مصر جنّة عدن لأولئك الذين يملكون الوسائل للاستفادة منها. من الصحيح أن نادي سباق الخيل *Turf club* مقصور على علية القوم الإنجليز الجالسين في فوتيات وثيرة من الجلد يقرأون جريدة «التايمز» بعويناتهم ذات المقبض الطويل والمحجوبين خلف دخان التبغ الإنجليزي. أما نادي الجزيرة الرياضي فهو محيط من العشب الأخضر على ضفة النيل وهو أيضاً قاصر على الإنجليز: إنهم لا يقبلون في عضويته سوى بعض الأمراء المصريين القليلين وبعض الأوروبيين ذوي المناصب الرفيعة. ولا يقل نادي محمد علي أناقة وهو يستقبل رجال السياسة بخاصة والديبلوماسيين. ولا يخصّص نادي السيارات إلا للمحظوظين من أصحاب السيارات «الليموزين»، و«التوربيدو» [المكشوفة]، و«الپانتيون» التي تثير الأتربة خلفها فوق الطرق غير الملائمة. بل وتوجد ألف جمعية وحلقة أخرى بغض النظر عن فنادق القاهرة الكبيرة التي يقيمون فيها الحفلات الراقصة مساء كل سبت: ففي فندق مينا هاوس يرقصون تحت ضوء القمر أمام الأهرام.

أما المجتمع الفرنسي «المحترم» في القاهرة فيضم بعض الأغنياء المصريين الذين يقومون بتسليته وإبهاره. مثل مظلوم باشا الذي ربح مليوناً في اليانصيب الوطني الفرنسي كما لو كان الأمر من أجل توطيد العلاقات الثنائية. وكان قصر محمود بك خليل المتزوج من فرنسية ورئيس مجلس الشيوخ المقبل يتزود بلا توقف باللوحات الانطباعية الموقع عليها من أكبر الرسامين: دوجا Degas، ومونيه Monet ، وبيسارو Pissaro ...وقد أفضى به الأمر إلى الحصول على وسام جوقة الشرف من الدرجة الأولى. أما بالنسبة إلى عزت باشا « فهو رجل رقيق الحاشية، مرهف الحس، كثير التسكع وهو مرتدياً لبنطلوناته ذات المربعات وطماقه أبيض اللون الملفوف حول ساقه(٧)» وتقول عنه إحدى صديقاته الفرنسيات: «إنه يقدم لنا في القاهرة طعام العشاء ذاته الذي قدمه لنا في باريس».

ومنذ البدايات الأولى لحر الصيف يلحق البلاط الملكي بأكمله والحكومة المصرية بالملك في الإسكندرية. تقوم مصر بتغيير عاصمتها لفترة تمتد بضعة شهور، وتنتظم حياة اجتماعية جديدة. ويحدث أن ينعقد مجلس الوزراء في فندق سان ستيفانو أحد أرقى أماكن المتعة في الصيف. ولا يمنع هذا العديد من الباشاوات من الذهاب للتصييف في مدن المياه المعدنية بأوروبا. ولكلٍ ميوله وعاداته: فقد يذهب إلى كارلزباد أو ڤيشي أو ڤيتل. وفي طريق عودتهم إلى مصر لا بد من التوقف في باريس للتزود بالملابس والكتب واللوحات.

7. Jacques d'Aumale, *Voix de l'Orient, op. cit.*

ويعتبر يوم الارتحال إلى أوروبا عيداً حقيقياً على رصيف الإسكندرية الذي يكون مُغطّى بالزهور. فالناس يجيئون لتوديع الأصدقاء ممسكين بباقات الورود في أيديهم. ويلتقي المصريون الأغنياء مع الأوروبيين على ظهر بواخر للركاب رائعة تجعل من الرحلة متعة صيفية لا حدود لها. وفي عام ١٩٢٥ دشّنت وكالة السفر «ميساچيري ماريتيم» باخرة الركاب «شامپليون»، وفي العام التالي دشّنت الباخرة «ماريت باشا». لقد كانت البواخر السابقة التي تخدم على هذا الخط اسمها سفانكس [أبو الهول]، والأقصر، أو سيناء. وأغلب الظن أنه من الآن فصاعداً أصبح لأسماء علماء المصريات سحر يفوق سحر موضوعات أبحاثهم!

وتم تصميم زخارف هذين القصرين العائمين بالأسلوب المصري: الأثاثات، والسجاد، واللوحات، ونجارة الجدران، والزخارف الحديدية. ففي بهو الباخرة شامپليون نجد أعمدة مصنوعة من الخشب على شكل زهرة اللوتس ومزينة بزخارف فرعونية، في حين أنها في قاعة الكتابة تحمل أواني مضيئة مصنوعة من المرمر الشفاف. وتزين مخطوطات البردي المزخرفة الشباك المحيطة بالمصعد والمصنوعة من الحديد المطروق(٨). وتوجد لوحة كبيرة من رسم الفنان چان لوفيڤر Lefeuvre تمثل مشهد إبحار حيث يجذف عبيداً زنوجاً ويقوم عبيد آخرون عرايا بالترويح بالمراوح لإحدى الأميرات. أما مقاعد غرفة الطعام فمستوحاة من المقاعد التي عثر عليها في مقبرة توت عنخ آمون. وتكفي رؤية الملصقات الإعلانية وحدها لكي تجعل الإنسان يرغب في الإبحار بهذه الباخرة الفاخرة التي يتصاعد الدخان من مداخنها على خلفية يظهر فيها أبو الهول والبحر المتوسط.

وعلى ظهر الباخرة «ماريت باشا» وصل المدعوون إلى معرض «مصر-فرنسا» الذي نظم في القاهرة عام ١٩٢٩. تميز هذا المعرض الكبير الذي ضم أكثر من ألف عارض بإقامة عرض للأزياء المبتكرة، ومحاضرات أدبية، وخمسين عرضاً سينمائياً، وحفلة موسيقية، وحفلة راقصة، وحفلات استقبال عديدة. وقد دخلت باخرة الركاب التي ترفع مجموع رايات العيد قناة السويس لأول مرة. واستقبلوا رؤساء شركة قناة السويس العالمية على ظهر الباخرة على مائدة الغذاء. وقام چورچ فيليپار رئيس شركة «مساچيرى ماريتيم» صاحبة الباخرة بشرب أحد الأنخاب: «نحن هنا في بيتكم طالما أننا في قناة السويس، لكن أنتم أيضاً في بيتنا طالما أنكم فوق ظهر هذه الباخرة.»

بيتكم، وبيتنا...لقد ضلوا وشردوا. إن الفرنسيين يشعرون بالراحة التامة في مصر إلى حد أصبحت معه مصر منسية.

8. Louis-René Vian, Arts décoratifs à bord des paquebots français, 1880-1960, Paris. Fonmare, 1992.

(٨)

أناس القناة

كان يستقبل السفن التي تدخل قناة السويس من البحر المتوسط تمثال عملاق لفردينان ديلسپس باسطاً لهم يده. صنع هذا التمثال من البرونز وتم تدشينه يوم ١٧ نوفمبر عام ١٨٩٩ بمناسبة العيد الثلاثيني للطريق المائي. يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار وينتصب فوق قاعدة تجعل ارتفاعه أكثر من عشرة. وكان ايمانويل فريمييهfrémiet [نحّات فرنسي ١٨٢٤-١٩١٠] الذي صنع هذا التمثال يتمنى أن يضع عند قاعدته تماثيل نصفية لأربعة خديوات مصريين متعاقبين (سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس). لكن تم اثنائه عن نيته حتى لا يُغضب المصريين: إن الرجل عظيم ومع ذلك لا يمكن وضع أربعة عواهل عند قدمية...

ويوجد نحّات فرنسي آخر هو أوجوست بارتولدي Bartholdi [١٨٣٤-١٩٠٤] كان مرشحاً لعمل تمثال في مصر. لقد أحب النحت المصري من الوهلة الأولى أثناء زيارته الأولى لوادي النيل عام ١٨٥٥ بصحبة الرسامين المستشرقين بيللي وچيروم. «ومنذ ذلك الوقت أصبحت لا تفارقه فكرة دفع جزيته الخاصة لهذا الفن الضخم[1].» كان بارتولدي يفكر في تمثال «مصر تنير الشرق». وفي خلال زيارته الثانية قبل افتتاح قناة السويس ببضعة شهور قدم للخديو إسماعيل مشروع إقامة تمثال ضخم يمثل فلاحة مصرية رافعة ذراعها وترتدي غطاء رأس فرعوني. كان إسماعيل موافقاً على الفلاحة وربما موافقاً أيضاً على ذراعها المرفوعة، لكنه غير موافق على غطاء الرأس الفرعوني. وتوقف الأمر عند هذا الحد. وبعد تقلبات عديدة تحول اتجاه هذا المشروع نحو أمريكا لكي يصبح تمثال الحرية الشهير بنيويورك. هكذا فإن مصر التي تنير الشرق هي منشأ الحرية التي تنير العالم.

1. Auguste Bartholdi en Égypte (1855-1856), Catalogue de l'exposition, Colmar, 1990.

أن يكون فردينان ديلسپس متصدراً مدخل القناة فهذا أمر يخفف آلام أسرته التي عانت كثيراً. لأنه منذ افتتاح قناة السويس الباهر جرت مياه كثيرة...في البداية تلقى مديحاً وفيراً. تم الاحتفاء بالمحرك الأول لمشروع القناة في جميع العواصم وانتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية. وأثناء استقباله تحت قبة الأكاديمية يوم ٢٣ إبريل ١٨٨٤ قال رينان: «إنني أعتقد أنك بعد لامارتين كنت الرجل الذي نال أكثر الحب في عصرنا، وكنت ذلك الذي تشكلت فوق هامته أكثر الأساطير والأحلام» رأضاف رينان عضو المجمع العلمي الفرنسي بلا تروٍ قائلاً: «لن يعاني مجدك من الانتكاسات. فإنك تكاد أن تكون بالفعل مستمتعاً بتقدير الأجيال المقبلة.» وبعد مضي عشر سنوات من هذه الاستقبالات والأمجاد الحافلة توفي ديلسپس وهو حزين أشد الحزن بعد أن تحطم بسبب فضيحة پناما.

كان قد بلغ الرابعة والسبعين من عمره حين تم اللجوء إليه ليرأس الشركة العالمية للقناة التي تهدف الربط بين المحيطين الأطلنطى والپاسيفيكى. لم يتمكن المناضل القديم من مقاومة إغراء اقتران اسمه بمشروع لإجراء تغيير جديد في الكرة الأرضية. لقد بدأ مشروع قناة پناما انطلاقاً من خطأ فني أدى إلى سوء تقدير للميزانية، ثم تحول إلى كارثة بعد وفاة العديد من المهندسين والعمال والفنيين بعد إصابتهم بالحمى الصفراء. لكنها كانت بالأخص فضيحة سياسية–مالية اتسمت بدفع أموال خلسة من أجل الحصول على قرض. استلزم الأمر توقف الأعمال وإعلان إفلاس الشركة. وقد أفلت ديلسپس من محكمة الجنايات ومن السجن على عكس ابنه شارل الذي أدين بالفساد. لم تعد الصحافة تهتم إلا بالأموال القذرة. أما العمل الذي تم تحقيقه في الموقع –والذى استأنفته الولايات المتحدة بنجاح بعد سنوات– فقد تبخر بسبب فضيحة غامضة ذات معالم غير محددة تماماً.

وفي برزخ السويس كانوا في بداية القرن العشرين لا يريدون سماع الحديث عن «پناما». ظل فردينان ديلسپس هو مؤسس الشركة الوحيدة ذات الاعتبار. إن تمثاله الضخم لا زال هناك كبرهان على ذلك. وأصبح بيته الخشبى [شاليه] القديم في الإسماعيلية مزاراً للسائحين وكانوا يحافظون عليه وعلى مكتبه الخشبي المتشقق، والسرير، والناموسية بعناية شديدة. ويتناقض مسكن مؤسس القناة مع المقار الفاخرة التي كان يقيم فيها خلفاؤه وكبار الضيوف، ذلك لأن الشركة مزدهرة. وكانت القناة في تلك الفترة تحت الإشراف الفرنسي وإن كان البريطانيون أعضاء بمجلس الإدارة والمستخدمين الأساسيين للقناة.

مساهمون منعَّمون

كان عدد السفن يتزايد كل عام، وهي سفن تتزايد في حجمها، كما بدأت تشتمل على نسبة جيدة من ناقلات البترول. ولم تتوقف القناة عن تحسين ذاتها من أجل استقبال هذه السفن. فإنها تزداد عمقاً واتساعاً وأصبحت في بداية عام ١٩٣٠ تتيح للسفن العبور من بحر إلى آخر خلال خمس عشرة ساعة فقط وهي مدة تقل ثلاث مرات عن مدة العبور عند إنشائها.

ويتم السماح لجميع الأعلام بالعبور بلا قيود، وذلك حتى في حالة الحرب وفقاً لما تقرر في اتفاقية عام ١٨٨٨ . ومع ذلك تحطم حياد القناة هذا أثناء الحرب العالمية الأولى حين قامت تركيا حليفة ألمانيا بإرسال ١٦ ألف جندي لمحاولة عبور القناة. فقد ردتهم المدفعية الإنجليزية. وتذكروا حينذاك قولاً آخر كان قد أدلى به رينان أمام الأكاديمية الفرنسية: «إن شق البرزخ سيصنع منه مضيقاً، بمعنى ميدان معركة. لقد كان مضيق البوسفور وحده كافياً حتى الآن من أجل إشاعة الاضطرابات في العالم. وها أنت قد أنشأت مضيقاً ثانياً أكثر أهمية بكثير من الآخر، لأنه لا يصل بين جزئين من بحر داخلي وحسب، بل إنه يستخدم كممر للمواصلات بين أكبر بحار الكرة الأرضية. ففي حالة نشوب حرب بحرية ستكون هذه المنطقة ذات فائدة قصوى وسيناضل الجميع من أجل احتلالها بأقصى سرعة. هكذا تكون انت قد حددت مكان معارك المستقبل الكبرى.»

لكن سرعان ما تم بعدها استئناف المرور بالقناة الذي تضرر بسبب الحرب بل وسجل أرقاماً قياسية جديدة. وازدادت دخول القناة نتيجة لذلك. وحيث إن الشركة لا تدفع ضرائب في فرنسا (إذ أنها تعتبر شركة مصرية) ولا في مصر (حيث تعتبر شركة أجنبية)، فقد كانت أرباحها ضخمة. وامتلأت جيوب المساهمين بالأموال مثلما أوضحه هوبير بونان الباحث الفرنسي الذي فحص بدقة جميع حسابات الشركة منذ إنشاءها. لا جدال بأنه كان «استثماراً مربحاً»(٢).

وبما أن دخول القناة ضخمة، وتقترن بإدارة جيدة فقد تمكنت من استيفاء جميع النفقات الاستثمارية. هكذا أمكن خلال الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٩ توزيع جميع أرباح المنشأة. فمن دخول القناة البالغة أربعة مليارات فرنك خلال تلك الفترة حصل المساهمون على الثلثين. وأصبحت العائلات الفرنسية التي تجرأت على الاستثمار في الرمال عام ١٨٥٨ أكثر من منعمة. فإذا كان السهم الذي اشترى بخمسمائة فرنك في

2. Hubert Bonin, *Suez. Du canal à la finance (1858-1987)*, Paris, Economica, 1987.

ذلك الوقت قد انهار مؤقتاً أثناء عمليات الحفر، إلا أنه عاد إلى الصعود وتجاوز الألف فرنك ابتداءاً من عام ١٨٨٠، وفي عام ١٨٩٥ تجاوز ثلاثة آلاف فرنك، لكي يصل في عام ١٩١٠ إلى خمسة آلاف فرنك، وفي عام ١٩٣٠ إلى ٦٥١٤ فرنكاً. تم كل هذا بينما حدث ارتفاع طفيف في تكاليف المعيشة. لقد أصبحت «أسهم قناة السويس» جوهرة من أثمن الممتلكات. إذ يتيح امتلاكها تزويج الأبناء والبنات زيجات طيبة.

وكانت الشركة خلال النصف الأول من القرن العشرين تبدو باعتبارها عملاً ناجحا فنياً ومالياً، ورمزاً للرأسمالية الظافرة. وكان مقرها الجديد الذي أقيم بشارع استروج بالحي الثامن بباريس يعبر عن هذا النجاح بصورة صارخة: «جميع السجاد الأخضر والأحمر مزين بالجعران شعار القناة. وعند المدخل نجد البواب مرتديا الردنجوت بصفة دائمة. وفي غرف الاستقبال لا يتخلى الحجّاب عن الزى الرسمى والبزة المصنوعة بالطريقة الفرنسية بزرايرها المذهبة[٣].» وتزين «رواق التماثيل النصفية» تماثيل المؤسسين ونماذج مصغرة للسفن، ويفضي هذا الرواق إلى قاعة مجلس الإدارة المهيبة. ففي هذه القاعة تجلس الأسماء الكبيرة في عالم المال والبنوك وشركات الملاحة والأوساط السياسية والأرستقراطية. إذ يتشرف هؤلاء السادة بالارتباط بمنشأة ذات هيبة ونفوذ، بالإضافة إلى أنهم يتقاسمون ٢٪ من الأرباح.

وكانت تدير الشركة إدارة عامة قوية النفوذ مقرها باريس. ومنذ أن تخلى ديلسبس عن مكانه «أصبح رئيس الشركة ملكاً في نظام برلماني بمعنى أنه يسود ولا يحكم[٤]». كان يذهب إلى مصر ستة أسابيع في كل عام ليثير حمية الموظفين. والحق يقال إنه لم يكن لدى هؤلاء أي سبب يدعوهم إلي فقدان المعنويات. إنهم فخورون بالانتماء إلى الشركة التي تدللهم للغاية.

وخلال الثلاثينيات كان يوجد موظفان فرنسيان من بين كل ثلاثة موظفين تقريباً، ومن بينهم بضع عشرات من خريجي المدارس الكبرى (البوليتكنيك، والسنترال، والجسور، والبحرية) وهم يشعرون بالانتماء إلى هيئة صغيرة لكنها مهيبة. كان الموظفون يعملون في ظل ظروف جيدة: فقد استفادت الحسابات مثلاً منذ وقت مبكر بالبطاقات المثقبة وبآلة لفرز هذه البطاقات وآلة لتنظيم الجداول المثقبة.

وخلال الفترة من مايو إلى أكتوبر لا يعملون إلا من السابعة والنصف صباحاً حتى الواحدة ظهراً بسبب الحر. ويستمتع الموظفون بامتيازات هامة بخلاف حصولهم على

3. J. Georges-Picot, cité *ibid.*
4. Hubert Bonin, *op. cit.*

حصة من الأرباح. تبني لهم الشركة مساكن، وتقدم لهم خدمات طبية مجانية. وتقدم أيضاً مساعدات للمدارس وللأنشطة الترفيهية، وتمنح قروضاً لموظفيها وتؤمن لهم معاشات مريحة.

لكن لا يعيش الجميع في مستوى واحد: أجور العمال المصريين -المرتفعة بالنسبة لمستوى الأجور في مصر- لا تصل إلا إلى نصف أجور زملائهم اليونانيين والإيطاليين أو النمساويين والمجريين. ويبرر جول شارل-روا نائب الرئيس هذا الأمر بقوله: «إنه ليس بسبب قانون العرض والطلب وحده، حيث إن عدداً كبيراً للغاية من الأهالي يطلبون في كل يوم الالتحاق بالعمل في الشركة، بل وأيضاً بسبب حقيقة أنهم موجودون في بلادهم الأصلية ومتعودون منذ طفولتهم على نمط المعيشة الزهيد السائد في المناخ الحار، ولهذا فأهالي البلاد غير مضطرين للإنفاق على نفقات معيشتهم إلا مبالغ تتساوى تقريباً مع نصف نفقات معيشة عامل أوروبي من نفس المهنة[5]».

حياة اجتماعية مغلقة

كانت الشركة حريصة على استقلالها، مما تسبب في حدوث بعض الاحتكاكات مع المفوضية الفرنسية بالقاهرة. وكان يوجد لدى موظفو القناة اتجاه لأن يعيشوا في عزلة وألا يتصلوا بما هو خارج محيطهم. ويروي ليوتي Lyautey [مارشال وقائد عسكري فرنسي كبير ١٨٥٤-١٩٣٤] الذي عبر البرزخ عام ١٨٩٤: «كنت بجوار فتاة مرحة محبة للحياة ومولودة منذ اثنى عشر عاماً، تحدثت معي عن لعبة التنس وعن مداومتها على القراءة وحضورها للحفلات الموسيقية ولمسرحيات الصالونات (المعتبرة بأنها مطمح الأنظار بالإسماعيلية أثناء الشتاء). فطلبت منها أن تحدثني عن القاهرة التي سأذهب إليها خلال خمس ساعات واعتقدت أنه يمكن لفتاة مطلعة إلى هذا الحد أن تعطيني فكرة أولية عنها. لكن منذ ثمانية عشر عاماً لم تذهب هي ولا شقيقتها ولا أمها إلى القاهرة اطلاقاً. إن مصر بالنسبة لهن هي الاشتراك في قاعات الاطلاع ببورسعيد وممارسة لعبة التنس في الإسماعيلية.» ولا ريب بأن هذه العزلة كانت أقل حدة خلال الفترة بين الحربين العالميتين لكن الاتجاه ذاته لم يتغير كثيراً.

ويضم البرزخ ذاته مدناً وكنائس عديدة. فمدينة الإسماعيلية هي العاصمة الإدارية لهذه المستعمرة الصغيرة، وتسمي نفسها «واشنطن» بعد أن سميت في البداية «فينيسيا

5. Jules Charles-Roux, *L'Isthme et le Canal de Suez*, Paris, 1901,t.2.

الصحراء». ولحسن الحظ لم تصبح هذه المدينة كما كانوا يتصورون لها في البداية ميناءاً كبيراً وسط الصحراء بين القارات. إن هذا التجمع السكاني الصغير (١٥ ألف ساكن في عام ١٩٢٦) يتمتع بسحر المستعمرة الريفية القديم. لقد بناها مهندسون ليقيم فيها مهندسون، فهي مدينة منظّمة مليئة بالزهور على الطريقة الفرنسية، عرفت كيف تزرع في قلب الصحراء شجر زهور الجركندة الزرقاء، وزهور البوانسيانا الحمراء والياسمين الأبيض...أما الحي السكنى فإنه يتميز عن الحي اليوناني الذي يختلف بدوره تماماً عن الجزء العربي.

وقام فرنان لوبريت وهو كاتب ومعلم فرنسي من سكان القاهرة بوصف مدينة الإسماعيلية في بداية الثلاثينيات فقال: «الأسفلت مصقول بصورة رائعة. لا توجد قصاصة ورق صغيرة واحدة ملقاة فوق الأرصفة. وتنذهل حين تسمع أجراس برج من القرميد الأحمر تدق بطريقة مبهجة. في البداية نفكر في الحدائق الإنجليزية ومقاطعة ساري [جنوبى لندن]. وسرعان ما يذكرك شيء لا مثيل لأناقته بمدينة صغيرة واقعة على حافة الماء بمقاطعة نورماندي [الفرنسية]. إننا في إقطاعية غربية ليست إنجليزية، بل فرنسية: فنحن في إقطاعية القناة. ولا تحتاج إلى وقت طويل لكي تدرك أن المدينة تدرك معنى المراتب الاجتماعية إلى أقصى حد. لقد احتفظ كبار الموظفين لأنفسهم بمنشآت باذخة تقع وسط مشهد أخاذ من الخضرة. والموظفون الذين يحصلون على مرتبات يسمونها متوسطة يقيمون في حي مرفّه للغاية. ويتجمع التجار تحت شرفاتهم الخشبية المزودة بالدعامات. أما صغار الموظفين فبالرغم من عدم استمتاعهم بالعزلة إلا أنهم يعيشون في مساكن لائقة للغاية. أما بالنسبة للأحياء الشعبية فإنها مبعدة إلى الأطراف. فالقناة تتجاهلهم[٦].»

ويعرف فرنسيو الإسماعيلية جيداً كيف يقرنون العمل بأوقات الراحة: «فرئيس الإدارة يركب الخيل كل صباح.» وعلى البلاج –في المكان الذي تختلط فيه مياه القناة الزرقاء ببحيرة التمساح–«تحرك الكبائن قبابها مع حركة الشمس». ولا تنقصهم أنواع التسلية: صيد السمك، والقنص والتنس، والألعاب الرياضية البحرية. وتستقبل الإسماعيلية الممثلين الهزليين والمحاضرين،كما تقيم كل يوم أحد حفلة راقصة. وفي هذه المدينة الاقليمية نجد رداء السموكن سائداً وهذا لا يمنع من أن تكون الحياة الاجتماعية قائمة على تسلسل المراتب. فزوجة كبير المهندسين ليست في منزلة زوجة رئيس الحسابات ولا زوجة مهندس عادى وتعرف عند الحاجة كيف تشعر الآخرين بذلك .

6. Fernand Leprette, *Égypte, terre du Nil,* Paris, 1932.

أما مدينة بورسعيد (٨٠ ألف نسمة في عام ١٩٢٦) فطابعها مختلف للغاية بسبب أحواض وأرصفة السفن، وهواء البحر الذي يذكرها دائماً بالبحر الممتد. وقد عانت طويلاً من سوء السمعة حين كانت السفن لا تستطيع عبور القناة ليلاً فتفرغ ركابها داخل المدينة. استسلمت المدينة التي كانت تضم وقتها أجناساً متنوعة من البشر لأنواع من التجارة المشبوهة. ويقول الكونت دي سيريون كبير وكلاء الشركة في مصر أنه بفضل الكهرباء الساحرة «وتأثير السلطات الحريصة على استتباب الأمن والأخلاق العامة، أصبحت بورسعيد ميناءاً شريفاً لا يزيد ولا يقل عن أمثاله من الموانى الأوروبية.»(٧). وكانت المدينة تفتخر بامتلاكها «لأجمل كنيسة في البلاد» . وتوجد بها فنادق كبيرة ، ومدرسة فرنسية وأخرى إيطالية وثالثة يونانية...وكانت المكان المفضل للاصطياف وتضم نشاطات اجتماعية متنوعة وجمخانة [سباق حواجز].

ويتميز طابع هذا الميناء الجامع لأجناس مختلفة والمفتوح على العالم -حيث يتحدثون عن «ضفة إفريقية» و«ضفة أسيوية»- بالأعياد الدينية والوطنية التي تتعاقب فيه. فتنزل الفرق الموسيقية إلى الشارع بمناسبة عيد سان-سيسيل وعيد سان-بارب. ويرفع النمساويون أعلامهم في يوم ٨ أغسطس، كما يرفع الإيطاليون أيضاً أعلامهم يوم ٢٠ سبتمبر...أما بالنسبة للفرنسيين فإنهم في بيتهم: لا يعتبر يوم ١٤ يوليو عيداً لجالية بمفردها لكنه عيد المدينة كلها. إنهم يجيئون حتى من دمياط لمشاهدة الطواف بالمشاعل والألعاب النارية التي يطلقونها من الكازينو. وبالإضافة إلى هذه الاحتفالات التي تجرى في تواريخ محددة، نرى أوركسترات السفن الحربية العابرة للقناة تمر بالشارع الرئيسي للمدينة طوال العام.

وعلى الطرف الآخر من البرزخ نجد مدينة السويس التي تفتخر «بمناخها الجاف ومستشفياتها الممتازة». لقد توقف فيها بول موران Paul Maurand [كاتب فرنسي عمل دبلوماسياً ١٨٨٨-١٩٧٦] أثناء ذهابه إلى الهند ويقول أنه استيقظ مذعوراً وقت القيلولة على صوت جرس غريب يدق لصلاة العذراء. ويضيف: «وباستمرار تنطلق صفارة قطار صغير ينطلق وكأنه يقوم برحلة حقيقية لكنه لا يقطع سوى ثلاثة كيلومترات لكي يتوقف عند أرصفة السفن في بورتوفيق»(٨).

وتعرف مدينة السويس أن ضاحيتها بورتوفيق قد خلعتها عن عرشها. فهذه الضاحية هي

7. *L'Égypte*, ouvrage collectif sous la direction de Joseph Cattaui pacha. Le Caire. IFAO, 1926.
8. Paul Morand, *La Route des Indes*, Paris, 1936.

مدينة مدير «القطاع الثالث» بشركة قناة السويس. أقيمت بها بنجالوات [بيوت من طابق واحد تقع علي شاطىء البحر] على طوال شارع هيلين وتحميها أشجار السنط. وكتب فرنان لوبريت: «تنساب السيارات الفاخرة أمام الأسوجة المزروعة والخضرة حسنة التشذيب». ونرى سفينة نادرة متجهة إلى ميناء هامبورج ويرفرف خلفها علم أسود وأحمر يحمل شارة الصليب المعقوف ولا تترك خلفها أي ضجيج سوى صوت ارتداد الأمواج على حافة القناة. ويرسو زورق سريع على الشاطيء: يقوم القبطان المرتدي «كَسْكيت» بيضاء بإلقاء حقيبته الصغيرة نحو الخادم الذي ينتظره. ويتقابل مع شباب مماثلين له متأنقين باحتشام ويمشون بقصد متعة التريض. إن بعضهم يذهب خلف الأسوجة المرتفعة للالتقاء مع فتيات يرتدين الشورت. إن مظهر كل شيء هنا ينم عن الظرف والأدب. لكنني اشتم رائحة الملل المتشامخ.»

ولا يوجد ما يمنع سكان البرزخ من التمتع بإحساسات أكثر قوة بالذهاب لاستكشاف سيناء أو لإقامة المعسكرات على شاطىء البحر الأحمر. وحتى بداية الخمسينيات لم يكن يوجد سائحون في المنطقة وكان هؤلاء المحظوظون يستمتعون بالشاطىء وحدهم تقريباً. وسيظل أكثر من فرد من بينهم محتفظاً بالانطباع بأنه قد عاش في الجنة.

(٩)

كاهن يدير مصلحة الآثار

إنه رجل إنجليزي وليس فرنسياً الذي قام في نوفمبر ١٩٢٢ -مائة عام كاملة بعد اكتشاف شامبليون لرموز الخط الهيروغليفي- بالاكتشاف الأكثر إثارة في مجال المصريات خلال القرن العشرين. يدعى هذا الرجل هوارد كارتر Howard Carter [١٨٧٣-١٩٣٩] وكان يمتهن التنقيب عن الآثار ويواجه نفقاته في آخر الشهر برسم لوحات بالألوان المائية يبيعها للسائحين. وكان منذ عشر سنوات يبحث بشدة في وادى الملوك عن مقابر ملكية، ويحصل من أجل ذلك على معونة مالية من إنجليزي آخر يرعى العلم والفن هو اللورد كارنافون Carnavon . وكان كارتر علي وشك التخلى عن مهنته حين أبرز عماله سلماً من ثلاث عشرة درجة يفضي إلى مقبرة مغلقة. إنها المقر الأخير لفرعون قاصر من الأسرة الثامنة عشر: توت عنخ آمون. بعث كارتر ببرقية إلى كارنافون الذي أسرع بالحضور. وفي يوم ٢٦ نوفمبر ولج الإنجليزيان غرفة مدخل المقبرة ولم يصدقا أعينهما: منقولات جنائزية خرافية مودعة هناك منذ ٣٢٠٠ عاماً.

وسرى النبأ في العالم كله. تم جمع عدد لا حصر له من القطع الثمينة خلال أربع سنوات من عمليات رفع الرُّكام. وأخيراً تم الوصول إلى المومياء الملكية التي أصيبوا أمامها بالذهول والانبهار: ثلاثة توابيت معشّقة الواحد في الآخر، ونعش من الذهب الخالص المنحوت والمنقوش وقناع جنائزي من الذهب الخالص أيضاً والمرصّع بحجر اللازوارد. وفي المجمل أمكن الحصول من اكتشاف كارتر على أكثر من ألفي قطعة: عقود، وأساور، وأوعية، وعصي، وخزائن، وتماثيل، بل وحتى عربات الملك...

اشتعل الهوس بمصر بحدة. واتسمت «سنوات توت عنخ آمون» بجميع أنواع المبتكرات والموضات بخاصة في باريس حيث ظهر «نسق» جديد من الملابس «المصرية» قام ملوك الأزياء الراقية في باريس بعرضه في خريف عام ١٩٢٣، في حين قام كارتييه بابتكار علبة أدوات زينة للنساء أسماها «توت عنخ آمون» مطلية بميناء عليها رسوم

ملونة مفصولة ومرصعة بالذهب والعاج والعقيق والياقوت [الأزرق] والزمرد[الأخضر] والماس.[١]

وإذا كان الذي حقق الاكتشاف رجل إنجليزي، فالذي أسندت إليه المهمة المرعبة الخاصة بإدارته هو الفرنسي بيير لاكو Pierre Lacau مدير عام مصلحة الآثار المصرية. فقد قضى الأخير ثلاثة عشر عاماً مشحونة بالهم والقلق بل وأحياناً بالكوابيس. يجب عليه أولاً نقل هذه المنقولات الخرافية من وادي الملوك في الأقصر ثم إحضارها إلى القاهرة، مع حمايتها من اللصوص وتجار الآثار والمتطفلين. وفي داخل المتحف يجب عليه تحليل كل قطعة وتسجيلها وتصويرها قبل معالجتها لتأمين المحافظة عليه [٢].

جرى هذا كله تحت بصر الصحافة العالمية...وفي ظل صياح كارتر وكارنافون اللذين يطالبان بجزء من الكنز. ولا تريد مصلحة الآثار منحهم إلا الحق المطلق في النشر والإعلام. أقيمت الدعاوى أمام المحاكم. كان لاكو في قلب الزوبعة. اتهم هذا العالم صاحب اللحية البيضاء تارة بعدم الكفاءة وطوراً بالرغبة في الاستئثار بالمغانم. ومرة أخرى أصبح الدور البارز الذي تلعبه فرنسا في مجال المصريات موضع اتهام.

وفي الوقت ذاته واجه مدير الآثار مشكلة أخرى دقيقة جعلت منه عدواً للألمان العاملين في التنقيب. ففي عام ١٩٢٢ ظهر في متحف برلين تمثال نصفي رائع لنفرتيتي منحوت في كتلة من الكلسيت. وقالوا إنه عثر على هذا التمثال أثناء التنقيب في تل العمارنة بمصر الوسطى. لكن كيف يمكن لقطعة بمثل هذه الروعة أن تخرج من مصر؟ أجاب بورشار عالم المصريات الألماني بأنها خرجت «بإذن من لاكو». وفي الواقع أن الوثائق تبين أن جزءاً من التحف التي وجدت في هذا الموقع قبل عشر سنوات مضت قد حصل على موافقة بالخروج من البلاد. فطبقاً للعرف السائد وقتها كان يمكن للمكتشف الاحتفاظ بقطع صغيرة من اكتشافاته. لكن تمثال نفرتيتي لا يندرج اطلاقاً في نطاق هذه المسموحات ولا بد أنهم قد أخفوه عن المفتش الذي ذهب لإجراء التفتيش القانوني.

وحين اكتشف بيير لاكو أن معاوني بورشار قد خدعوه أصدر أمراً بمنع الحفريات التي يجريها علماء المصريات الألمان. تدخلت السلطات النازية ومارست ضغطاً على الملك فؤاد لكي يلغي هذا الإجراء. نجحت هذه السلطات في مسعاها بعد أن قدمت وعداً بإعادة التمثال الشهير مع احتفاظها بنسخة منه. لكنهم لم يعيدوا إلى مصر سوى النسخة المقلدة. يبدو أن هتلر في تلك الأثناء كان قد افتتن بنفرتيتي[٣]...

1.*Égyptomania..L'Égypte dans l'art occidental.* 1730-1930. Musée du Iouvre, 1994.
2.Gabriel Dardaud, *Trente Ans au bord du Nil,* lieu commun, 1987.
3. *Ibhd.*

وَلَعْ چان- فيليب لوير

كان بيير لاكو ماراً بباريس خلال صيف عام ١٩٢٦ حينما تلقى زيارة من مهندس شاب خجول عمره أربعة وعشرين عاماً: اسم الشاب چان-فيليب لوير Lauer وهـو لا يعرف علم المصريات ولا اللغات الشرقية، لكنه يرغب بشدة في العمل على ضفاف النيل. كان مدير الآثار المصرية في حاجة إلى معاونة في موقع العمل بسقارة فاقترح عليه تعيينه لمدة ثمانية شهور. وافق الشاب بحماس. ومع ذلك استمرت مغامرته المصرية أكثر من سبعين عاماً.

وفي تلك الفترة كان الوادي المشرف على سقارة غارقاً في المياه خلال جزء من العام هي مدة فيضان النيل. ويستحق وصف لوير لإحساساته حين رأى هذا المشهد الفريد أن نقتبسه هنا: «في يوم ٢ ديسمبر ١٩٢٦ استقليت قطار الاكسبريس المتجه إلى صعيد مصر الذي نقلني إلى محطة البدرشين على بعد ٣٠ كيلومتراً جنوبي القاهرة، وحيث كان ينتظرني موظف وقور من مصلحة الآثار يرتدي الطربوش. وبعد أن ساعدني في نقل امتعتي، أرشدني إلى اتخاذ مكان فوق «الساند كار» [عربة تسير فوق الرمال يجرها حصان]، ثم اتجهنا نحو سقارة على مشية الحصان السريعة. وبعد أن اجتازت عربة المصلحة سوق البدرشين اتخذت طريقاً ترابياً ممهداً يمتد بمحاذاة بركة واسعة تحيطها أشجار النخيل وحيث يستحم قطيع من الجواميس...وفيما وراء البركة كان الطريق يمر وسط أطلال منف، وقد رأيت لأول مرة تمثالي رمسيس الثاني العملاقين الرائعين يتمددان تحت ظل النخيل. وعلى مسافة أكثر بعداً سار الطريق عبر منحدر ظهرت تحته بقايا معبد بتاح الكبير الذي يبرز بالكاد من الماء. وعلى مدي النظر امتدت في الوادى طبقة مائية يميل لونها نحو الزرقة ولا يحدها من ناحية الغرب إلا قرية سقارة وبستان نخيل وشريط من رمل الصحراء الشرقية الذهبي. وعلى قمة القرية بدت أطياف أهرام عديدة من بينها هرم زوسر المدرج. وسرعان ما وجدنا أنفسنا محاطين بالمياه وفي قلب مرآة ضخمة ينتشر فيها مزيج من آلوان متدرجة غير محدودة وتعكس كل ما يبرز من هذا الماء الهادئ والرائق: أشجار النخيل، والأثل، والسنط، التي تنساب خلالها في هدوء مراكب الصيادين والعابرين.»[٤]

أصبح الشاب لوير موظفاً مصرياً ، وطلب منه معاونة سيسيل فيرث Cecil Firth الإنجليزي وهو -رجل مرح ضخم الجسم- يعيش مع زوجته وابنته في بيت صغير في الصحراء ليس بعيداً عن الهرم المدرج الشهير المعتبر أقدم صرح من الحجر في العالم. إنه

4. Jean-Philippe Lauer, *Saqqarah. Une vie*, entretiens avec Philippe Flandrin, Paris, Payot, 1992.

يعسكر في هذا المكان البعيد لكي يحاول إعادة تشكيل المجموعة الجنائزية التي ابتكرها المهندس الشهير امنحوتب حوالي ٢٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح. استقبل فيرث المهندس الفرنسي الشاب ببشاشة وبنى له مسكناً متواضعاً بالقرب من مسكنه. وتولدت صداقة بينهما استمرت بلا خدش حتى وفاة فيرث عام ١٩٣١، وهذا دليل على أن مصر ليست فقط ساحة للمعارك الفرنسية-الإنجليزية...

وبينما كان العمال ينزعون الرُكام من المنطقة المحيطة بالهرم كان چان-فيليب لوير يدرس الشظايا المتناثرة من المبنيين اللذين تم إخراجهما من الأرض بالفعل. ويروى لوير: «كنت منذ البداية واعياً بضخامة العمل في سقارة. وقد استغرقت في تأمل نظام هذه العناصر الضخمة إلى حد أنني كنت «مأخوذاً» به. اقتصر الكون بالنسبة لي على ساحة من الأنقاض تتسلط عليّ نهاراً وليلاً. وبينما كنت أعيد تكوين الشكل تكشف لي مخطط المشروع المعماري. ودخلت في حالة من النشوة قريبة من الهذيان(٥)!»

وتجدد عقد المهندس الشاب لمدة ثمانية شهور أخرى. وظل يتجدد مرات عديدة بعدها...وفي عام ١٩٢٨ تمكن فيرث ولوير من الحفر حتى عمق ٢٨ متراً ووصلا إلى قبو جرانيت فارغ. وجدوا سلّماً مطموراً في الرمال يفضي إلى باب كاذب. أمر فيرث العمال بفتح ثغرة في الباب ثم انحنى على يديه وقدميه لكي يدخل القبر. لكن بدانته جعلته ينحصر في الفتحة . قاموا بدفعه ثم بسحبه إلى أن تمكن من الخروج. ثم نظر إلى لوير بابتسامة سيئة النية وقال: «أنت نحيف، فلماذا لا تمر قبلي؟» ويروي لوير: «انزلقت فوراً عبر الفتحة وغصت في الحُفرة وفي يدي شمعة. وقعت مرة أخرى مسافة مترين إلى أسفل في غرفة المدخل التي لم يدخلها إنسان منذ أربعة آلاف عام. وببطء انتصبت واقفاً ممسكاً بالشمعة في يدي لاستكشاف المكان. كان قلبي يدق بعنف حينما عبرت الغرفة الأولى ووصلت إلى ممر ضيق...وفجأة صرخت ليسمعني فيرث: «أوه! يوجد باب عليه البرتوكول الملكي مثل باب الهرم المدرج!». وفي غرفة مستطيلة وعمودية على الغرفة الأولى توجد ست لوحات محاطة بسلسلة عقود صغيرة موضوعة فوق أعمدة وقد فقدت الجزء الأكبر من الخزف الأزرق الذي كان يغطيها. إن هذا الخزف محطم ومتناثر فوق الأرض. وجدت ممراً آخر ينفتح على غرفة أخرى مستطيلة ورأيت حينذاك ثلاثة نصب تذكارية مغطاة بالنقوش البارزة دقيقة الصنع. طرت فرحاً وبدأت هذه المرة في الصياح: «هذا مدهش، يوجد ثلاثة نصب تذكارية! »...وصل فيرث في النهاية إلى جانبي . كان

5. Claudine Le Tourneur d'Ison. *Une passion égyptienne.Jean-Philippe et Marguerite Lauer*, Paris, Plon, 1996.

يتأمل النصب بعينين جاحظتين، ومشحوناً بالانفعالات مثلي...لقد اكتشفنا على التو مقبرة فرعون إلتذكارية»[٦]

وبعد مضي عام عشر فيرث ولوير على مقبرة ثانية مماثلة للأولى لكنها في هذه المرة تحت الهرم ذاته. ولم يجد المهندس الشاب صعوبة في الحصول على تجديد لعقد عمله، بل وحصل أيضاً على يد الابنة الصغري لپيير چوجويه المدير الجديد للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة. إنها قصة حب جميلة التي جمعت بين زوجيس عاشا في سقارة لأمد طويل بلا مياه جارية ولا كهرباء، وحيث كانا يتدفيان في الشتاء بمواقد الفحم. وأخيراً جاء اليوم الذي تم فيه تركيب تليفون يحمل رقم ١ ، لكن انقطع الخط ثانية أثناء الحرب العالمية الثانية لكي لا يعود مرة أخرى ...

تابع لوير حديثه الثنائي مع المهندس امنحوتب محاولاً بلا كلل تخيل المخطط المعمارى الذي وضعه هذا السلف العظيم، إلى أن تمكن من إعادة تشكيل المجموعة الجنائزية قطعة بعد أخرى. إن تجميع عناصر مثل هذا الصرح يستغرق عمراً بأكمله. وحتى بعد أن أحيل إلى المعاش استمر في قضاء عدة شهور بمنزله في سقارة حيث حل آخرون محله. وعندما كان في الخامسة والثمانين من عمره باح لأحد الصحفيين الفرنسيين: «آه، لو كان امنحوتب قد باح في أذني عن موضع العوارض فوق أعمدته، لكنت قد أعدت كل شيء إلى موضعه! لقد أصبت بالكلل...ولأنني لم أسمعه فقد تركت العوارض على حالتها. يجب أن تكون جريئاً عند إعادة التشكيل لكن بلا افراط[٧].»

اتيين دريوتون يرتدي الطربوش

من الذي سيدير مصلحة الآثار؟ تم طرح هذا السؤال من جديد في عام ١٩٣٥ بعد رحيل پيير لاكو. إن الاتفاق بين پاريس ولندن القائم منذ توقيع الاتفاق الودي لم يعد سارياً طالما أن مصر حصلت في تلك الأثناء على استقلالها. لقد أصبح القرار بين يدي الملك فؤاد الذي تعرض إلى جميع أنواع الضغوط حتى لا يترك هذا المنصب الإستراتيجي لفرنسا. وظهر واقع جديد: المصريون أيضاً يتحركون لأنهم يرون أن مهمة حماية التراث الوطني يجب أن تعود إلى أحد أبناء النيل وهو أمر معقول...

كان لدى الفرنسيين مرشح جيد يتمثل في شخص اتيين دريوتون Drioton أحد أكثر

6. *Ibid.*
7. *La vie* , 2 janvier 1997.

رجالْ متحف اللوفر لمعاناً. كان مولعاً بعلم المصريات منذ طفولته وكان خطيباً ممتازاً، وهو أيضاً باحث موهوب قام بتوضيح نظام الكتابة الرمزية. ولا يعيبه سوى عائق وحيد هو: ثوب الكاهن الذي يرتديه. في الواقع أن دريوتون كاهن قانوني لكاتدرائية نانسي.

إن عدداً من علماء المصريات الفرنسيين مدينون له بمراحل تعليمهم الأولى خلال العشرينيات. لم ينس چان سانت فار جارنGarnot إطلاقاً السحر الذي مارسه هذا الكنسي على تلاميذه المفتونين به. كان يجمعهم بعد ظهركل يوم اثنين في متحف اللوفر للقيام «بمحاضرات-جولات» أو في المعهد الكاثوليكي حيث تبدأ محاضراته بالصلاة. «جرى العرف بدءاً من عام ١٩٣٠ بقضاء العام الأول من دراسة المصريات مع الأب دريوتون، ثم ندخل بعدها مدرسة الدراسات العليا في ظل صولجان جوستاف لوفيبفر، وريمون ڤيل، أو الكسندر موريه. ومع ذلك كان تعليم الأب حياً ومنيراً لدرجة أننا كنا في غالبية الأحوال نسجل أسماءنا عاماً ثانياً من أجل متعة الاستماع إليه والاستزادة من علمه. وفيما يتعلق بدروسه في اللغة القبطية فلم يكن يوجد له مثيل في فرنسا كلها.»

كان دريويتون إذن قسيساً. وقرر الملك فؤاد تجاهل هذه الجزئية، واختاره مديراً للآثار المصرية. ولكن حين وصل هذا الكهنوتي -لقد أعفاه رؤساؤه من ارتداء ملابس الكاهن- إلى القاهرة لتولى مهامه، كان الملك فؤاد قد مات. واتخذ النواب المصريون قراراً ضد بناء ضريح من الجرانيت -بسبب تكلفته الغالية- لحماية مومياوات ملكية تمت تعريتها بطريقة مشينة وكانت تؤذي عيون زوار المتحف المصري. وحيث إنهم لم يعرفوا أين يضعوا هذه الأجسام المخزية فقد أودعوها في منزل مدير الآثار الذي كان خالياً. هكذا وجد دريوتون عند وصوله حوالي عشرين فرعوناً وأميراً وأميرة ممدين في صالون منزله وقد انتزعت عنهم الأقمطة ووضعوا في توابيت من الخشب مغطاة بلوح من الزجاج.

شعِر معاونو دريوتون بالحرج وطلبوا منه منحهم بعض الوقت لإعداد مخزن مناسب. قام بطيبته المعهودة بطمأنتهم. ويروي الصحفي جابرييل داردو (بظرافة زائدة؟) : «في صباح كل يوم كان الكاهن الطيب يلقي قداسه أمام الفراعنة الراقدين تحت قدميه؛ وفي نهاية الغرفة أقام المذبح ووضع صليباً يمثل المسيح مصلوباً وأحاطهما بشمعتين. وكانت أم دريوتون العجوز هي الوحيدة المسموح لها بحضور هذا القداس، والتي كانت تنهض في نهايته لتمر وسط التوابيت لتذهب لإعداد طعام الإفطار لابنها الكاهن. ويتم إطفاء الشمعتين ويعود الفراعنة إلى هدوء أبديتهم.»

هذا الكاهن ضخم الجسم، المحب للحياة، الذي يحب المزاح، يجتذب الكثير من الود. كما أن أمه قوية البنية القادمة من منطقة بورجوني الفرنسية تعد إحدى أفضل موائد

الطعام في القاهرة. وفي عام ١٩٣٦ وصل الملك فاروق إلى عرش مصر واستطاع الكاهن دريوتون اجتذاب إعجاب الملك الشاب منذ أن عمل معه كمرشد أثناء رحلة إلى صعيد مصر. وقد شارك في هذه الرحلة أيضاً كارتر مكتشف توت عنخ آمون الذي عرّض مصلحة الآثار للسخرية إلى الأبد. ويتذكر عادل ثابت ابن عم الملك فاروق هذا الرجل كارتر «العابس دائماً» و«القس دريوتون حاد الطبع» الذي يرتدي طربوشاً مائلاً على أذنه. أما المربية الإنجليزية فقد وجدت أن دريوتون «نموذج أصيل للرجل الفرنسي دائم الحركة».[8]

واستطاع القس دريوتون بمساندة فاروق أن يواصل مهمة أسلافه ويشجّع إجراء بحوث عديدة. ففي «عهده» تميّز علماء مصريات عديدون من الفرنسيين. فاكتشف بيير مونتيه Montet في عام ١٩٣٩ مدينة الأموات الخاصة بملوك تانيس (الأسرتان الحادية والثانية والعشرين) بالدلتا، وقد رقد أحدهم بزينته وجواهره كاملة داخل تابوت من الفضة. وقام برنار برويير Bruyère برفع الأنقاض عن قرية قديمة لعمال دير المدينة في صعيد مصر، في حين تحولت زوجته فرانسواز إلى ممرضة تعتنى بالفلاحين في المنطقة وهي مرتدية للنقاب. وعاش دي لا روك de La Roque في خيمة مع أسرته بالقرب من الكرنك بعد أن كشف عن أنقاض معبد مونتو. أما بالنسبة إلى چورج جويون Goyon فقد تسلق الهرم الأكبر حوالي مائة مرة لكي يسجل جميع النقوش والخربشات المدونة عليه.

ولم يتخل دريوتون عن متابعة أبحاثه الخاصة حول الكتابة الرمزية وحول المسرح المصري القديم وزودنا بمعارف جديدة غير مسبوقة في هذا الشأن. ونجح في إعادة تكوين «أجزاء من التراچيديا، والكوميديا، والأوبرا الغنائية بل وحتى قطع من الدعاية السياسية[9]».

واشتبك الكاهن في معارك متنوعة أثارتها أوساط معينة بشأن علم المصريات أو ما يزعمون بأنه علم مصريات. ولم يمتنعوا عن نصب الشراك له وتدبير المؤامرات ضده. وقد حدث في أحد الأيام أنه أخفى اثنين من مفتشي البوليس في دولاب ملابسه حتى يتمكنا من التأكد بأن إمرأة تجيد الإغراء يهيمن عليها مجهولون قد انفضح أمرها قبل أن تصبح شاكية من اغتصابها[10].

8. Adel Sabet, *Farouk, un roi trahi*, Paris, Balland, 1990.
9. Christiane Desroches-Noblecourt, *La Grande Nubiade ou le parcours d'une égyptologue*, Paris, Stock-Pernoud, 1992.
10. *Ibid.*

(١٠)

نهاية عصر

من علامات العصر: كان الأمير الشاب فاروق يتابع دراسته في لندن وليس في پاريس، حينما استدعي إلى القاهرة في ربيع عام ١٩٣٦ لكي يخلف أباه بعد وفاته. ومع ذلك فهو يتحدث الفرنسية بطلاقة. بل وتجري دماء فرنسية قليلة في عروقه طالما أن أمه الملكة نازلي هي ابنة حفيدة سليمان باشا الذي كان يسمى في السابق الكولونيل سيف. وفي صالونات القاهرة كانوا يرددون قصة صغيرة: حين كان فاروق في الخامسة من العمر... كانوا لا يعلمونه إلا العربية والإنجليزية، وحدث أنه بينما كانت أمه الملكة تثرثر بالفرنسية مع وصيفاتها قال الصغير لأمه: «إنني أفهم كل ما تقولون!». ضحكت الملكة ووصيفاتها ثم أحضروا له معلماً للغة الفرنسية.

إن هذه القصة حقيقية -أو جميلة- إلى حد أن مدير مدرسة الليسيه الفرنسية في القاهرة رواها في إبريل ١٩٣٩ في عدد خاص أصدرته جريدة «تان» Temps [أي الزمان] الفرنسية عن مصر. وقد تصدرت هذا العدد رسالة مؤثرة بعث بها الملك الشاب بالتوازي مع نص عادي للغاية كتبه البير لوبران رئيس الجمهورية الفرنسية. كتب فاروق: «إنني أخاطب فرنسا بتأثر شديد. وأود أن أقول لها إنني أعرفها وإنني أحبها. أعرفها من خلال تاريخها الطويل والرائع، ومن خلال آدابها وفنونها. أحب مثقفيها وفلاحيها وحرفييها. أحب أناقتها وبساطة حياتها الأسرية أيضاً. أحب وطنيتها ومروءتها. أحبها في أحياءها كما في أمواتها، من خلال شامپليون، ومارييت، وديلسپس، وسليمان باشا. إنني أحيي الأمة الكبيرة التي تربطها ببلادي وببيتي العديد والعديد من الروابط الوطيدة.» هل كتب هذا النص الملك البالغ التاسعة عشر من عمره؟ في الحقيقة هذا الأمر يعتبر قليل الأهمية. فهذه الكلمات التي تم اختيارها بعناية توضح مناخاً، إن لم يكن قصداً سياسياً.

وفي هذا العدد الخاص ذاته يتصدى كل من سفير مصر في فرنسا وسفير فرنسا في

مصر لحملة عام ١٧٩٨. يربط فخري باشا بين بونابرت ومحمد علي اللذين «بأيديهما القوية قاما بتشكيل أرض الفراعنة القديمة وجعلها دولة حديثة مزدهرة». ويعزو پيير دي ڤيتاس سفير فرنسا إلى مصر اكتشاف «العبقرية الفرنسية» مؤكداً بلباقة: «لقد أرسلنا إليها بونابرت، فأعادت إلينا نابليون.»

وفي هذه السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية، يتضح النفوذ الثقافي الفرنسي بصورة جلية من خلال الصحافة. ففي عام ١٩٣٧ كانت تصدر في القاهرة حوالي ٢٠٠ جريدة ومجلة باللغة العربية و٦٥ باللغات الأجنبية. ومن بين الأخيرة تصدر ٤٥ دورية باللغة الفرنسية و٥ فقط باللغة الإنجليزية. وكانت النسبة متماثلة تقريباً في مدينة الإسكندرية (٢٠ باللغة الفرنسية مقابل ٣١ باللغات الأجنبية) بينما كانت الصحف العربية قليلة. وبدءاً من هذا الوقت أصبح العديد من المجلات والصحف الفرنسية يديرها مصريون يجيدون الفرنسية والذين حلوا محل المؤسسين الفرنسيين.

وتتضح الثقافة الفرنسية أيضاً ودائماً في التعليم. ولا يجب أن تجعلنا المدارس الفرنسية -الدينية والعلمانية- ننسى الأساتذة الموهوبين الذين أعيروا للجامعة المصرية لبضع سنين (كاريه Carré، وجرونييه Grenier ، وجييمان Guillemin ، ولوران Henri Lorin...)، والمستعربين ذوي الكفاءة العالية القريبين للعالم الإسلامي والذين يتمتعون باحترام الدوائر الثقافية المحلية. الفيلسوف جوينون René Guénon [١٨٨٦-١٩٥١] الناقد للمادية الذي تحول إلى الإسلام وتزوج مصرية. ماسينيون Louis Massignon الأستاذ بالكوليج دي فرانس الذي يصعب تصنيفه وتلميذ المسلم الصوفي الحلاج وشارل دي فوكو، وقد أصبح قسيساً روم- أرثوذكس وأنشأ في القاهرة جماعة كنسية. كما شارك جاستون ڤييت Gaston Wiet مدير متحف الفن الإسلامي بالقاهرة في عام ١٩٣٨ في إنشاء مجلة شهرية أدبية رفيعة المستوى «لا ريڤو دي كير».

وكان طه حسين عميد كلية الآداب الذي قام بدور أساسي في ذلك العصر متزوج من فرنسية. وكشف طه حسين في كتابه «الأيام» عن مواهب غير عادية ككاتب. ولد طه حسين في قرية متواضعة، ودرس هذا الأعمى القرآن ثم درس في جامعة الأزهر الإسلامية وانتهى بالحصول على الدكتوراه من جامعة السوربون تحت إشراف دوركهايم. وفي باريس التقى مع سوزان بريسو Suzanne Bresseau صاحبة «الصوت العذب» التي كانت تقرأ له راسين وأحدثت تحولاً في حياته. وعندما عاد إلى مصر عام ١٩١٩ أثار استنكاراً لإصداره كتاب عن «الشعر الجاهلي» مما أدى إلى اتهامه بالردة وإلى طرده من الجامعة. تم رد اعتباره وأعيد من جديد عميداً ونشر في عام ١٩٣٨ كتاب «مستقبل الثقافة في

مصر». هل بلاده جزء من الشرق أم من الغرب؟ إنه يرى أنها تقع على البحر المتوسط ولهذا لا بد أن تكون لها روابط مميزة مع الدول الأخرى المحيطة بهذا البحر. إن الشرق والغرب يتكاملان ومسيرة حياته توضح ذلك[1].

وليس جيبمان الأستاذ بجامعة القاهرة المعجب الوحيد بهذا الرجل الذي يمزج بين المأثور الإسلامي والحداثة. إذ كتب عنه عام ١٩٣٨: «هذا الهدوء، وهذا الاعتزاز بالكرامة، وهذا الذكاء. وبما أنه تقدمي فالملك لا يحبه ولا يريده وزيراً للتعليم وهو الدور الذي يبرع فيه. إنني أكن له احتراماً شديداً وليس من طبيعتي احترام الرجال لأنهم مهمون أو ذوو اعتبار. بل أشعر تجاهه بما هو أكثر من الاحترام: أشعر بإعجاب غير محدود، وبمحبة كامنة[2].» وفي عام ١٩٥٠ أصبح طه حسين وزيراً للتعليم بعد تأسيسه لجامعة الإسكندرية.

دفن الامتيازات

من اللافت للنظر أن فرنسا ظهرت بمظهر شرير أثناء إعادة التفاوض في المركز القانوني للأجانب في مايو ١٩٣٧ تلبية لطلب الحكومة المصرية. كان المنطق يقول إن الدول الأربع الأجنبية المعنية بصفة أساسية سوف تتخذ موقفاً موحداً: اليونان التي لديها ٧٦ ألفاً مقيم في مصر، وريطاليا (٥٥ألفاً)، وبريطانيا العظمى (٣٤ ألفاً)، وفرنسا (٢٥ ألفاً). لكن وجدت الأخيرة نفسها أنها وحدها التي تثور ضدها انتقادات الأوساط الوطنية.

في الواقع أن كل دولة كانت تلعب لعبتها الخاصة. فقد عقدت إنجلترا في العام السابق معاهدة عسكرية مع مصر. وافقت على مبدأ إلغاء الامتيازات، وأعلنت أن هذا النظام القائم منذ أربعة قرون لا يتوافق مع الحالة في البلاد. وإيطاليا في ظل موسوليني تتطلع إلى قناة السويس وتستثمر الورقة الإسلامية وتدفع الحكومة المصرية نحو المزايدة. أما اليونان فهي مرتبطة بشدة بإنجلترا إلى حد أنها لا تستطيع التميز عنها، كما لا يمكنها في حالة خلافها مع مصر أن تتحمل رؤية رجوع عشرات الآلاف من المهاجرين إلى أراضيها.

وكانت فرنسا هي الدولة الوحيدة التي لديها أكبر المصالح في مصر. فإن رعاياها يستثمرون في قناة السويس، والائتمان العقاري، والدين، والشركات الاحتكارية الكبيرة (مياه، وغاز، وكهرباء) وصناعات متنوعة تقدر قيمتها بـ. ٢٧٠ مليون جنيه، أي ثلاثة أخماس مجمل الاستثمارات الأجنبية في مصر. ويعتبر هذا المبلغ ضخماً لا سيما وأنه

1. Bruno Ronfard, *Taha Hussein. Les cultures en dialogue*, Paris. Desclée de Brouwer 1955.
2. Henri Guillemin, *Parcours*, Paris, Seuil, 1989.

يمثل ربع إجمالي ثروة البلاد (أراضٍ، ومبانٍ، واحتياطي الدولة)[٣]. لم يكن لفرنسا سوى مصالح مادية: فمدارسها بصفة خاصة تمثل رأسمالاً يصعب تقديره ويمكن أن يتعرض للخطر إذا لم يكن محمياً بالحصانات الواردة في الامتيازات.

ساد المؤتمر المنعقد في مونترو بسويسرا توتر شديد. إذ شهد تراشقاً مصرياً-فرنسياً تسبب في ضيق وحرج مفاوضي الجانبين بينما ثارت الصحف في القاهرة كما في باريس. ألم تحصل فرنسا الحامية الرسمية للمصالح الكاثوليكية في مصر على تشجيع البابا لإثارة مسألة المؤسسات المدرسية والاستشفائية والدينية؟ ويعتبر هذا ضاراً بإيطاليا التي تطالب أيضاً بالقيام بهذه المهمة... وقد أعلن مثقفون مصريون بأنهم لا يفهمون كيف تسعى دولة علمانية إلى المحافظة على امتيازات دينية: ففرنسا بالنسبة لهم ليست مجسّدة في مؤسسات، لكنها تتمثل في الثورة وفي التنوير وفي فولتير وروسو.

ومع ذلك تم توقيع اتفاق في مونترو يوم ٨ مايو ١٩٣٧ تاركين مصير المؤسسات غامضاً. علي أية حال تقرر إقامة فترة انتقالية مدتها ١٢ عاماً: ولم تختف المحاكم المختلطة إلا في عام ١٩٤٩. ومن أجل إزالة الانطباع السيء المترتب على المؤتمر قامت الحكومة الفرنسية باستقبال الوفد المصري في باريس بحفاوة بالغة. وأكدت الحكومة المصرية من جانبها أن إلغاء الامتيازات بتحقيقه للمساواة بين المصريين والأجانب لا بد وأن يؤدي إلى الانسجام والتعاون. والحاصل أن الصداقة استمرت تحت حماية محمد علي ونابليون المجيدة. هذا هو على الأقل ما تظاهروا بأنهم يعتقدونه.

وكان الأكثر قلقاً بسبب هذه القضية الذين «تحت الحماية الفرنسية»، فقد شعروا بأن اتجاه الريح يتغير. وقد عبر عن هذه المشاعر ببراعة برتو فرحي [صحفي وكاتب فرنسي-مصري]. فوصف وضع هؤلاء «المحميين» بقوله:« نحن المواطنون العالميون المنسيون، الموعودون مقدماً بالتضحية، الذين كنا نتحدث العربية والفرنسية بصوت مكتوم، عرفنا كيف نصمت. كنا كمثل شعراء غير محظوظين يشتغلون عمالاً في منجم أصيب بانفجار، ومثل آخر تشكيل عسكري بقي في سفينة تائهة وسط العالم الأنجلو-ساكسوني»[٤].

وتوجد علامة صغيرة من بين علامات أخرى عديدة على حدوث تغيير في المناخ: ففي ٦ إبريل ١٩٣٩ ترافع حسن صبري باشا المحامي المصري ورئيس الوزراء الأسبق

---

3. *L'Égypte indépendante,* par le Groupe d'études de l'islam, Paris, Paul Hartmann, 1938.
4. Berto Farhi, «Hôtes de passages», *Le Nouvel Observateur.* no 30. *hors-série Spécial Égypte,* 1997.

باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة لأول مرة. وليس هذا مخالفاً للقانون لأن اللغة العربية هي إحدى اللغات الرسمية لهذه السلطة القضائية. وقد أثارت هذه المرافعة تعليقات عديدة في الدوائر الفرنسية التي مع ذلك كانت تجد علامات أخرى عديدة مطمئنة.

ويقول بلانبان الذي كان مدرساً بالليسية بالقاهرة حتى يوليو ١٩٣٩: «لم تبدُ لنا الفرانكفونية بأنها مهددة، بل بدت أنها تزداد انتشاراً. ففي شرفة جروبي بقلب المدينة لا تسمع أحداً يتحدث سوى بالفرنسية. وفي إحدى الأمسيات، وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً كنت مع بعض الأصدقاء بشقة الكاهن دريوتون مدير الآثار المصرية الكائنة فوق المتحف. دق جرس الباب. كان بالباب الملك فاروق مرتدياً ملابس السهرة المزينة بأوسمة عديدة وبرفقته زوجته المتألقة فريدة. قال الملك نحن قادمون من حفلة بريطانية رسمية مملة للغاية. شهدنا النور مضاءاً. قلنا لأنفسنا لا بد وأن أصدقاءنا الفرنسيين يلهون.»

غير أنهم بدأوا في الأوساط الفرانكفونية المصرية يدركون حقيقة البلاد. ففي عام ١٩٣٨ أصدر الأب اليسوعي هنري عيروط وهو ابن مقاول من أثرياء هليوبوليس كتاباً مميزاً «طبائع وعادات الفلاحين»، وهو كتاب يكشف حالة الريف أمام بورجوازية تربت في المنشآت الدينية الفرنسية. وفي غمرة حماسه قام بتأسيس جمعية لتنمية المدارس المجانية في الصعيد بتأييد فعّال من مسيحيي القاهرة. في الواقع كانت الحرب العالمية قد قطّعت وصول الإعانات من أوروبا، ويلزم الحصول على تمويل محلي. وتشكلت كتائب الأب عيروط أساساً من خريجات مدارس القلب المقدس ولا ديليفراند والمير دي ديو. إن هؤلاء السيدات الشابات اللاتي كن حتي ذلك الوقت غير مهتمات إلا بمصير فقراء مدغشقر أو الصين، كن يجمعن التبرعات في المكاتب والبنوك والنوادي والكنائس، وذلك قبل ذهابهن «في بعثة» إلى الريف. وبطبيعة الحال كانت اللغة العربية هي لغة الاتصال والتعليم الوحيدة في الريف لكن ظلت إدارة العمل لأمد طويل بالفرنسية مع إصدارها لمجلة تحمل اسماً ذا مغزى: *Eux et Nous* [أي هم ونحن].

وكان بورجوازيون فرانكفونيون آخرون من الثائرين. ففي يناير ١٩٤٠ شن الشاعر السريالي چورچ حنين وهو ابن سفير مصري هجوماً عنيفاً نشره في مجلة صغيرة اسمها «دون كيشوت». بعنوان «بشأن بعض الأدنياء»...الأدنياء المعنيون هم ...لافونتين La Fontaine ولابروير La Bruyère، لكن كل إنسان عرف بأن المقصودين هم أوسع نطاقاً. كتب چورچ حنين: «لا ينزع لافونتين إلى شيء آخر سوى تبني فلسفة المقعد المريح، ونحن لن نكف عن مواجهته بشعارات التشرد والحلم والثورة.»

وكان من بين المشاركين في مجلة «دون كيشوت» هنري كورييل المنتمي إلى أسرة

من البورجوازية اليهودية الكبيرة في القاهرة. كان أول التزام له في عام ١٩٣٥ عندما كان في الواحد والعشرين من عمره هو اختيار الجنسية المصرية. -بينما كان له الحق في الحصول على جواز سفر إيطالي- وأن يدرس اللغة العربية التي ظل يتحدثها دائما لكن بلكنة أوروبية...وكان أول اتصال له بواقع السياسة المصرية هو دخوله السجن بعد أن ناضل في تنظيم الاتحاد الديموقراطي الصغير. قام كوريل بمعاونة بعض الزملاء بتأسيس الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني نواة الحزب الشيوعي المقبل. وأصبحت المكتبة التي يمتلكها «لو رون پوان» [بميدان مصطفي كامل بالقاهرة] مقراً للاجتماعات وللمناقشات. وفي الوقت الذي كان يعمل فيه هذا المناضل الدولي بالبنك الذى يمتلكه والده ارتبط بحياة مشحونة بالمجازفات التى جلبت له سخريات كثيرة. قبض عليه في مصر مرة أخرى وأودع في السجن وطرد من البلاد عام ١٩٥٠ بالرغم من مصريته وباعتباره يهودياً وشيوعياً. وبعد مضي ٢٨ عاماً وعقب ارتباطات عديدة في النضال ضد الاستعمار، تم اغتياله واختتمت بصورة مأساوية مسيرة حياته كإنسان مهمّش[٥].

ديجوليون وبيتانيون

إذا كان دخول الألمان باريس عام ١٩٤٠ قد قلب أوضاع الفرنسيين في مصر فإنه أثار الفرانكفونيين المصريين بشدة. وقد كتب فرنان لوبريت [معلم وكاتب]: «أستطيع القول بكل ثقة وبدون الخضوع إلى نزعة حمقاء نحو المجاملة الوطنية إن مصر كلها شاركت في حدادنا في ذلك اليوم بمشاعر رقيقة مما زاد من اعتزازي بها إلى هذا الحد. فبالنسبة لمصر كل فرنسي هو دائماً وبالضرورة باريسي، كما أن فرنسا هي باريس[٦]». إن الحديث عن «مصر كلها» مغالى فيه. فإن عدداً من المصريين الوطنيين كانوا من أجل التخلص من الإنجليز يجربون التقارب من ألمانيا التي تقدم لهم وعوداً مغرية. لكن الكاتب طه حسين لا تغريه هذه الوعود. فبالنسبة له ما يدور على ضفاف السين أمر أساسى، وكتب صراحة: «إن قضية فرنسا مرتبطة بقوة بقضية العقل والحضارة. لقد تربيا في ظل المثل الأعلى التقليدي الذي تجسّده فرنسا تماماً. نحن الذين سننتصر حينما تنتصر. إنها قلعة حرية العقل[٧].»

شطرت هزيمة ١٩٤٠ الجالية الفرنسية في مصر شطرين مثلما حدث عندما اندلعت

٥. «رجل من نسيج خاص» تأليف چيل پيرو - ترجمة لطيف فرج. شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٨٨

6. Fernand Leprette, *La Muraille de silence*, Le Caire, Horus, 1942.

7. *La Revue du Caire*, nº 19 juin 1940.

الثورة الفرنسية قبلها بقرن ونصف. انضم المعلمون إلى الجنرال ديجول، في حين اصطفت غالبية الدوائر المالية والمصرفية وراء پيتان. وقالت مصرية منتمية للمجتمع الراقي حينذاك: «إننا نستطيع تمييزهم بسهولة: فالديْجوليين لا يعرفون كيف يرقصون...». أما السفير الفرنسي چان پوتزي فقد كان يتلقى أوامره من ڤيشي [مقر الحكومة الفرنسية في ظل الاحتلال الألماني]، ويطبقها بالتزام الموظف، بالرغم من أنه كان قد حارب في صفوف الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى.

كانت المقاومة تتمثل في العديد من الشخصيات الكبيرة من أعضاء الجالية الفرنسية بمصر. تولى رئاسة اللجنة الوطنية پيير چوجويه Pierre Jougouet مدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية الأسبق. وظهر من بين معاونيه البارون لوي دي بينوا Louis de Benoît الوكيل الأعلى لشركة قناة السويس العالمية، وجاستون ڤييت Gaston Wiet مدير متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، والأب كارييير Carrière الراهب الدومينيكي، وچورچ جورس Georges Gorse الذي أصبح وزيراً فيما بعد. قاموا باستقبال الجنرال ديجول بحماس عند حضوره إلى مصر في إبريل ١٩٤١ حيث قضى ستة عشر يوماً. كانت مصر وقتها تحت سيطرة القوات البريطانية تماماً: فقد اضطر الملك فاروق في مواجهة التهديد في فبراير من العام التالي إلى تغيير رئيس حكومته المعتبر موالياً للألمان.

وخلال صيف عام ١٩٤٢ كانت قوات روميل الألمانية تتقدم بصورة خطيرة نحو الإسكندرية. وأقامت قيادة الأسطول البريطاني العامة في البحر المتوسط بالإسماعيلية. بدأ الذعر يستولي على النفوس. ويبدي الجنرال ديجول الذي عاد إلى مصر في شهر أغسطس هدوءاً شديداً ووثوقاً قوياً في انتصار قوات مونتجومري. قام رئيس فرنسا الحرة بزيارة كنيسة البازيليك بهليوپوليس، ودير الدومينيك، والكاتدرائية اللاتينية، وراهبات نوتردام ديزابوتر...واغتنم الفرصة ليتناول طعام الغذاء مع تشرشل الذي كان هو الآخر ماراً بالقاهرة.

ومنذ ٦ يناير ١٩٤٢ لم تنقطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وحكومة ڤيشي الفرنسية لكنها «علّقت» فقط. وكان هذا كافياً لإثارة احتجاجات العديد من النواب المصريين من بينهم إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء الأسبق: فقد لفت الأنظار إلى أن فرنسا ليست حقيقة في حرب ضد بريطانيا العظمى وتحدث عن «الخدمات التي قدمتها فرنسا إلى مصر من الناحية الثقافية والمالية والسياسية». ولم يتخذ أي إجراء ضد المصالح الفرنسية. وأجرى الديجوليون الترتيبات مع الحكومة المصرية لكي تستطيع المؤسسات الفرنسية التي حرمت من الاعتمادات الخارجية الاستفادة من الأرصدة المجمّدة. وتحول وفد فرنسا الحرة إلى قنصلية تصدر وثائق مدنية وجوازات سفر.

أدت الهزيمة الألمانية في العلمين في أكتوبر ١٩٤٢ إلى تغيير كامل في الموقف. ابتعد شبح الحرب وشهدت مصر في الأفق انتصار الحلفاء، في الوقت الذي كانت تستفيد فيه إلى حد كبير من الأنشطة العسكرية: كانت مصانعها تعمل بطاقتها الكاملة، كما أن وجود عدد كبير من الجنود البريطانيين ساعد على رواج التجارة. وفي النهاية كانت أيام مرحة للغاية لمجموعة من فتيات الطبقة البورجوازية المحلية اللاتي اكتشفن جاذبية ضباط صاحبة الجلالة. كانوا يرقصون كثيراً في القاهرة بدءاً من عام ١٩٤٣. ولم تكن الإسكندرية أقل شأناً من القاهرة في هذا المضمار: شيد فيها المصيفون الأغنياء المحرومون من أوروبا ڤيللاً. كانوا يقبلون على الرقص بمحل «المونسينيور» وقت العصر، كما كان الأثرياء يقبلون على النزهات الشراعية الليلية.

وحيث إن الفرق المسرحية الپاريسية لم تكن قادرة على تقديم عروضها في الخارج فقد حل محلها الفرانكفونيون المصريون. هكذا ظهرت في إبريل ١٩٤١ فرقة «إيكولييه» المسرحية التي كونها بعض الأصدقاء ومن بينهم مؤنس وأمينة أبناء الكاتب طه حسين. كان القصد «إسماع صوت فرنسا العظيم عن طريق بعث الحياة في أجمل نصوصها المسرحية»، بل «والبرهنة أيضاً على أنه يمكن للشباب الجامعي المصري بوسائله الخاصة تقديم القطع المسرحية الأكثر تمثيلاً للعبقرية الفرنسية». وبدأوا بتقديم مسرحية «الكترا» لجان جيرودو. وقام إيتيامبل Étiemble [كاتب وروائي فرنسي ١٩٠٩-١٩٣٧] الذي يعيش في الإسكندرية بإنشاء مجلة «ڤالور» رفيعة المستوى وقد صدرت منها ثمانية أعداد.

وفي خضم الحرب لم يمض إلغاء تعليم اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية المصرية دون أن يفطن له أحد. فقد نشر الديجوليون مقالاً افتتاحياً عنيفاً في جريدة «لابورص إجپسيين» لفضح «الخطأ الذي لا يغتفر» وهو الاعتقاد بأن هزيمة فرنسا العسكرية -هزيمة مؤقتة- ستجعل لغتها أقل أهمية: «لا يستطيع أي إنسان القول بأنه متعلم ومتحضر حقيقة إذا ما كان يجهل الفرنسية.»

وفي نوڤمبر ١٩٤٣ حصلت فرنسا الحرة على بعض البهجة أثناء اجتماع روزڤلت وتشرشل في فندق مينا هاوس دون حضور ديجول معهما. ففي صباح اليوم الثالث من المؤتمر شاهد رئيسا الدولتين عند نظرهما من النافذة في الصباح مفاجأة. فقد رأوا العلم الفرنسي يرفرف على قمة الهرم. إنه عمل باهر نفذه فدائيون مجهولون، وظلوا مجهولين...

الجزء الرابع

قطيعة و تلاقٍ من جديد

(١)

هل القاهرة تحترق؟

وصل المؤرخ جاك شاستينيه Jacques Chastenet [١٨٩٣-١٩٧٨] مدير جريدة «لوتان» الفرنسية الأسبق إلى مصر في ربيع عام ١٩٤٥ مكلفاً بمهمة دبلوماسية. لم يصدق عينيه: «كنت قادماً من فرنسا الخاضعة منذ أكثر من أربع سنين إلى قيود من جميع الأنواع، محطمة مادياً، ومضطربة معنوياً، فرنسا حيث لا يأكلون دائماً حتى الشبع، وحيث لا زالوا يقتلون بالرصاص، فرنسا التي لا زال العديد من أبنائها مسجونين في ألمانيا. إن القاهرة تبدو لي بأنها تنتمي إلي عالم آخر[1].» كانت المحلات زاخرة بالبضائع، والحياة الاجتماعية متألقة بشدة.

يجب القول بأن الحرب كانت فترة مباركة لمنتجي القطن كما للعديد من رجال الصناعة والمال. وتضاعف أصحاب الملايين ثماني مرات إذ وصل عددهم إلى ٤٠٠ مليونير بعد أن كانوا خمسين. لكن في الوقت نفسه ارتفعت الأسعار ثلاثة أضعاف دون أن يواكبها ارتفاع المرتبات. ووجد العديد من سكان الريف أنفسهم بلا مورد بسبب هذا الازدهار المديني. أما التفاوت الذي كان شديداً منذ قبل الحرب فقد ازدادت حدته بصورة خطيرة.

وتحول الهياج الاجتماعي الذي تغذيه مجموعات سياسية إلى «عصيان» في بداية ١٩٤٦. قامت مظاهرة ضد الاحتلال البريطاني في القاهرة أسفرت عن عشرين قتيلاً. لكن شيئاً من هذا كله -ولا حتى وباء الكوليرا الذي تفشى في العام التالي- لم يمنع الحياة الاجتماعية والفنية من أن تستأنف أفضل إيقاعاتها. كانت الجالية الفرنسية تخضع لبرنامج مدهش: في عيد الميلاد يقيمون شجرة وحفلة استقبال في السفارة، وحفلة راقصة

1. Jacques Chastenet, *Quatre fois vingt ans (1893-1973)*, Paris, Plon, 1974.

تقيمها فرنسا الحرة، وحفلة راقصة للمحاربين القدماء، وفي منتصف الصيام الكبير تقام حفلة راقصة تنكرية تتخللها ألعاب وهدايا وتناثر قصاصات الأوراق الملونة. ثم الاحتفال بالقديسة چان دارك، واحتفالات ١٤ يوليو، وحفلة راقصة صغيرة شهرية ينظمها مجلس إدارة الجالية... ولا يمكن إحصاء عدد المحاضرين. بل وكان يجب توسيع «لا ميزون دي فرانس» [بيت فرنسا]: ففي يوم ١٨ يونيو ١٩٤٨ افتتحوا «رووف-جاردن» مزود بجاز [موسيقي راقصة صاخبة]. وبعد مضي عامين وبمناسبة عيد ١٤ يوليو أقام موريس كوف دي مورڤيل سفير فرنسا حفلاً في أوبرج الأهرام حضره ما لا يقل عن ١٥٠٠ مدعو. وكان هذا السفير البروتستانتي مثل سابقيه يرأس القداس القنصلي عدة مرات في السنة.

واستمر مصريون مزودون بالثقافة الفرنسية في تولي المناصب الرفيعة. ألم يكن سرّي باشا رئيس الوزراء المقبل رئيساً لرابطة خريجي مدرسة السنترال في پاريس والممثلين بشدة في برزخ السويس؟

وفي بداية الخمسينيات كانت بمصر ١٥٠ مدرسة فرنسية تضم ٥٥ ألف تلميذاً وتلميذة. ويمكن أن نضيف إليها ٥٠ منشأة تعليمية أخرى (يهودية، ويونانية، وأرمنية، وايطالية) حيث تحتل اللغة الفرنسية مكاناً هاماً. وكانت بالقاهرة أربع صحف يومية باللغة الفرنسية هي «چورنال ديچيپت»، و«الپروجريه اجبسيان» و«لابورص اجپسيين» و «لا پاتري» التي يمكن أن نضيف إليها المجلة الأسبوعية المصورة «إيماج» التي كانت تقدم موادّ مطلوبة للغاية. وكانت توجد مجلات أكثر صرامة تعتمد على قراء دائمين: «لا ريڤو دي كير»، و«ليچيپت نوڤيل»، «ليه كاييه ديستوار» التي أسسها شاب مصري مؤرخ لامع هو چاك تاجر. وكانت كل جامعة من الجامعات المصرية الثلاث لديها كرسي للأدب الفرنسي. وتزدحم المحاضرات التي ينظمها أصدقاء الثقافة الفرنسية بالحاضرين والتي تبلغ أكثر من ٢٠٠ محاضرة سنوياً. ويتم التهام الكتب الواردة من الجانب الآخر من البحر المتوسط بالرغم من ارتفاع أسعارها. وبالقاهرة كانت توجد حوالي عشر مكتبات فرنسية، وست مكتبات في الإسكندرية، وثلاث أو أربع في برزخ السويس(٢).

ولكن إذا ما دققنا النظر أكثر في هذه الصورة الفاتنة التي تبين نمو الفرانكفونية وانتشارها فإننا سنجدها ليست فاتنة إلى هذا الحد. فالسينما الفرنسية لا تهيمن اطلاقاً على الشاشات المصرية كما أنها كانت تجد صعوبات في هذا الشأن منذ قبل الحرب العالمية. فلم يكن يوجد بين ٤٥٠ فيلماً مستورداً في عام ١٩٥٠ سوى ٤٠ فيلماً فرنسياً أو ايطالياً

2. Joseph Ascar-Nahas, *Égypte et Culture Française.* Le Caire, Éd. de la Société orientale de publicité, 1953.

مقابل ٤٠٥ فيلماً أمريكياً أو إنجليزياً. ويحتل صوت أمريكا مكاناً متعاظما بين موجات الأثير، كما بدأت الجامعة الأمريكية في القاهرة في جذب أفضل التلاميذ. نحن لا نتحدث عن أولئك الذين يحصلونَ على البكالوريا الفرنسية ثم يستمرون في استخدام اللغة الإنجليزية بطريقة باهرة: فلا ريب بأن مستوى هؤلاء يفوق مستوى زملائهم في فرنسا. لكن من بين ٥٤ ألف تلميذ بالمدارس الحكومية اختار ١٧٥ فقط اللغة الفرنسية كلغة أولى في امتحان البكالوريا المصرية عام ١٩٤٨. ولا يبدو أن هذا الوضع سيتحسن في المستقبل طالما أنه تم إلغاء دراسة اللغات الأجنبية في المدارس الابتدائية بالتعليم العام.

ما الذي تمثله فرنسا بالنسبة لمجموع الطلبة غير الفرانكفونيين؟ إنها جزء من الغرب الساحق لأن مصر ليست مستعمرة بالمعنى التقليدي للمصطلح، لكنها تبدو أنها قد استعمرت من جانب العديد من الأمم الغربية في وقت واحد -البريطانية، والفرنسية، واليونانية، والايطالية، والأمريكية- وكل واحدة منها تمارس هيمنتها في بعض المجالات. لم يكن شباب المثقفين.بعد الحرب العالمية يعرفون فرنسا إلا من خلال مصدر وسيط. وعلى عكس العديد ممن هم أكبر منهم سناً لم يخضعوا لنفوذ فرنسا الثقافي، فهم يجهلون عاداتها وحضارتها وتاريخها «لكنّ القليل للغاية الذي يعرفونه عن فرنسا وعن تاريخها يكفي لتحديد موقفهم تجاهها [٣].». هذا القليل للغاية هو الثورة الفرنسية. ومن المفارقات «أن المركز الممتاز الذي تحتله فرنسا في نفوس الشباب لا يعود إلى مجهودات المنشآت التعليمية الفرنسية»، لكن إلى تاريخ فرنسا الثوري.

فرنسيون أكثر من اللازم

في أعقاب الحرب العالمية الثانية تلقى أعضاء حزب مصر الفتاة الأوامر التالية: «لا تتحدث غير العربية، لا تجب على أي انسان يتحدث إليك بلغة أخرى غير العربية ، ولا تدخل مؤسسة تكتب اسمها بلغة غير العربية». وتؤكد تتمة التعليمات بوضوح أن الأمر لا يتعلق بمجرد تفضيل لغة على أخرى إذ تقول: «لا تشترِ سوى من مصري. ولا ترتدِ سوى ما صنع في مصر. ولا تأكل سوى أطعمة وطنية.»

ولا يمر مثل هذا النوع من التعليمات دون أن يفطن إليه المصريون الفرانكفونيون. إنهم يدركون أن المناخ تغير ويجب التكيف معه. وتقدم حالة فتيان كشافة «وادي النيل» مثالاً طيباً في هذا الشأن، وهي الكشافة التي كان مرشدها العام يسوعي فرنسي وأُنشئت

3. Raoul Makarius, *La Jeunesse intellectuelle d'Égypte au lendemain de la deuxième Guerre mondiale*, Paris, Mouton, 1960.

كننسخة طبق الأصل للكشافة الفرنسيين. وفي هذه الحركة التي تضم أساساً مسيحيين شرقيين كانت حتى كراسات الأغاني لا تختلف عن الكراسات التي نجدها لدى الكشافة الفرنسية. ويرتدي الأولاد «شورت» كاكي وقميص مطرزة عليه زهور الزنبق، ويتعلمون كيف يشعلون النار أثناء المطر في حين أنها لا تمطر في مصر إلا نادراً. ولاحظ قادتهم أنهم يعتبرونهم في الشارع «خواجات» ، وهذا يثير قلقهم. وفي مارس ١٩٤٨ تحت عنوان «مجهود تمصير في القاهرة» كتب وليام أساسي المفوض العام في نشرة الحركة (المحررة باللغة الفرنسية بطبيعة الحال): «لا يمكن استمرار كشفيتنا في العيش على هامش المسائل المصرية متجاهلة للبلاد ومشاكلها ولغتها. يجب أن تندمج مع الأمة ومع المجتمع أو تختفي.» وقد طلب من فرق الكشافة تنفيذ أربعة أمور: إحلال الطربوش محل القبعة، واستخدام اللغة العربية لكن «دون قطع الصلة بالغرب وبالثقافة اللاتينية خاصة»، واللجوء في الأنشطة إلى موضوعات «عربية ومصرية» ، ثم تمصير الشارات. تم تنفيذ ذلك جزئياً إذ ظلت غالبية كشافة وادي النيل خلال سنوات عديدة تغني وتفكر وتحلم بالفرنسية. وكانوا في عيد الميلاد يقيمون الشجرة المغطاة بالثلج، كما كان لون المسيح الطفل في مزوده فاتحاً بشدة...

وبدأوا في مدارس الفرير واليسوعيين، وفي مدارس البنات الداخلية كما في الليسيه إدراك أن التلاميذ يعرفون جيداً كلوفيس [ملك فرنسي قديم] أو چان دارك لكنهم يجهلون تاريخ مصر. إن هذه الملحوظة صادقة حتى وإن كان يلزم الاعتراف بأن مجهودات كانت تبذل منذ أمد سابق لتكييف التعليم مع الجمهور إن لم يكن مع السياق المحلي. فقد كان الفرير مثلاً يستخدمون من أمد طويل كتب مدرسية موضوعة ومطبوعة محلياً. ومع ذلك يظل من الصحيح أيضاً أن العديد من التلاميذ -والتلميذات بخاصة- استمروا فى اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية.

وفي عام ١٩٤٩ أغلقت المحاكم المختلطة أبوابها وفقاً لاتفاق مونترو. وتم منح جميع قضاتها وسام النيل. انتهى عهد. انعقدت آخر جلسة للمحكمة القنصلية يوم ١٤ أكتوبر بحضور معظم المحامين الفرنسيين. وبالرغم من الكلمات التي أدليت بهذه المناسبة إلا أن مناخ الحزن كان سائداً. هكذا تم إنهاء الامتيازات التي دامت أربعة قرون. ومع ذلك لم يتم إعفاء كوف دي مورڤيل سفير فرنسا من رئاسة القداس القنصلي إذ ظلت فرنسا معتبرة كوصية على الكاثوليك الشرقيين.

وكان المناخ السياسى يتغيركلما ازداد وزن الملك فاروق -كان فاتناً فيما مضي- وكلما انغمس فيما يشبه الفجور. فلأول مرة تعرض لسخرية علنية عند خروجه من السينما.

وأدى مجونه الليلي وعشيقاته المصريات والأجنبيات وسياراته الحمراء «السپور» التي تمرق شوارع القاهرة أثناء الليل إلى إثارة الاستنكار أو القلق. كان يمكنه لعب البوكر حتى الصباح الباكر. وسرت جميع أنواع الإشاعات بشأنه، ومن بينها اتهامه بداء السرقة. وفي نهاية ١٩٥٠ سافر متنكراً إلى فرنسا لكن سرعان ما لفت الأنظار بسياراته الكاديلاك السبع وطائرته الخاصة، بعد أن حجز ٢١ غرفة في فندق جولف بمدينة دوڤيل[٤].

السبت الأسود

ليس فرنسيو مصر هم الوحيدين الذين يتحسرون على الملك فؤاد ذي الشارب المجعّد الذي قد يثير السخرية. إنهم يسمعون ويقرأون أشياءاً كان يصعب تخيلها قبل عشرة أو خمسة عشر عاماً. فالشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين يهاجم الإنجاز الذي يفخرون به ويقول: «إن قناة السويس هي السبب في جميع الويلات التي حلت بشعبنا، وفي فقدانه لمعنوياته، وخضوعه للمستعمرين، وإهماله لواجباته الدينية». وكان البنا قد أسس هذه الجماعة التمامية في مدينة الإسماعيلية عام ١٩٢٩./.وهو يرى أن القناة «هوة تقطع طريق حجاج إفريقيا المتجهين إلى مكة وتشطر فتوحات الرسول وخلفائه إلى جزئين»، وعائقاً «يبرر استيلاء الأجانب على أراضينا». كما أنه يوجه تهديداً: «من السهل علينا إغلاقها، هذه القناة الملعونة! فلن يفعل كل أخ من إخواننا أكثر من إفراغ كيس رمل في الطريق المائي الذي حفره أجدادهم بأيديهم»[٥].

ولم ينفذ الشيخ البنا تهديده هذا: فقد اغتاله البوليس السياسي عند خروجه من الجامع في فبراير ١٩٤٩. ولم يكن هذا هو الحادث الدموي الوحيد في تلك السنوات المتقلبة، والتي اتسمت بأول حرب بين دولة إسرائيل الجديدة وجيرانها العرب. فقد اغتيل سياسيون مصريون في القاهرة، وتحولت مظاهرات إلى مآسٍ. وشهدنا في تلك الفترة رحيل بعض الأوروبيين أو يهود مصر لاقتناعهم بأن عصراً قد انتهى.

وفي أكتوبر ١٩٥١ قررت الحكومة المصرية إلغاء المعاهدة المصرية- البريطانية في حين قام فدائيون وطنيون مسلحون بإنهاك القوات البريطانية المنسحبة إلى برزخ السويس. وقع هجوم آخر في يناير التالي مما نقل هذه الحرب الخفية إلى قلب مدينة الإسماعيلية تحت نظر الفرنسيين المذعورين. وجه البريطانيون إنذاراً إلى قوات الشرطة المعاونة «البلك نظام» المتهمين بالتعاون مع الفدائيين. أصدر وزير الداخلية المصرية أمراً بالمقاومة، وقع

4. Barrie Saint Clair, *Farouk of Egypt,* Londres, Robert Hale, 1967.
5. Cité par Gabriel Dardaud, *Trente Ans au-bord du Nil,* Paris, Lieu commun. 1987.

هجوم بريطاني على الشرطة المصرية مما أدى إلى مقتل حوالي خمسين شخصاً . وكان هذا كفيلاً بالوصول إلى ما يتعذر إصلاحه.

وعقب ذلك، وفي يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢، هبت رياح غاضبة على القاهرة. اقتحمت المحلات التجارية والفنادق والمقاهي ودور سينما -كل ما هو أجنبي أو ما قد يبدو بأنه كذلك- مجموعات صغيرة منظمة وجدت معاونة من الجماهير. البوليس لم يتدخل. احترقت أجمل دور السينما بالقاهرة الواحدة بعد الأخرى: ريڤولي، ومترو وديانا...تم نهب محلات كبيرة مثل شيكوريل وأڤرينو رموز الثراء الأوروبي وذلك قبل اشتعال الحرائق فيها. لاقى محل جروبي الشهير المصير ذاته. حاول نزلاء فندق شبرد الهروب من الجمهور الهائج في حين تحول صالون الفندق الرئيسي إلى أتون مشتعل.

ورجال إطفاء الحرائق؟ حين قاموا بالتدخل تم قطع خراطيمهم. بدا أن البعض يغذون النيران بدلاً من السعي إلى إطفائها. تم احتراق تسعة من الإنجليز أحياء في حريق نادي سباق الخيل. على الأرجح أنه وقع عشرات الضحايا. وفي النهاية قررت قوات الأمن التدخل لتطلق نيرانها عشوائياً. حدث تخريب في مئات العمارات من بينها الغرفة التجارية الفرنسية.

من الذي أشعل الحريق في القاهرة؟ من الذي حرضَ وشجع بل وحتى نظم هذه الفتنة الدموية؟ إن أحداً لا يعرف وتم اتهام الجميع الواحد بعد الآخر: الإخوان المسلمين، ثم وزير الداخلية، والملك الذي دعى رؤساء البوليس لحفل غذاء طويل الأمد بقصر عابدين احتفالاً بمولد ابنه...وفيما هو أبعد من الموجهين السياسيين، والمتطرفين، والنهّابين، شهدت القاهرة خلال هذا السبت الأسود ما وصفه چان وسيمون لاكوتور بأنه «انفجار ضغينة انتقامية لدى شعب تم تحديه في بؤسه الذي لا يحتمل، من جانب بذخ البلاط والأجنبي». ومهما كان المحرض «فالدولة التي سمحت بذلك هي دولة ميتة»[٦]. ولن يطول الأمد للتحقق من صحة ذلك.

6. Jean et Simonne Lacouture, *L'Égypte en mouvement*, Paris, Seuil, 1962.

(٢)

ثورة باللغة العربية

إنها الساعة السابعة صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢. أعلن شخص يدعى أنور السادات في الإذاعة أمام مصر المشدوهة أن ضباطاً قد استولوا على الحكم. وقال مؤكداً: «إنني حريص بنوع خاص على طمأنة إخوتنا الأجانب، وعلى التأكيد لهم بأن الجيش يعتبر نفسه مسئولاً مسئولية كاملة عن أمن أشخاصهم، وممتلكاتهم، ومصالحهم.»

وكان يلزم ما هو أكثر بقليل من ذلك لطمأنة «الإخوة الأجانب» الذين لا زالوا متأثرين بصدمة حريق القاهرة الذي اندلع فجأة قبلها بستة أشهر. من هم هؤلاء «الضباط الأحرار» ؟ من أين يخرجون؟ إنهم لم يرونهم ولم يخالطوهم من قبل. إن اللواء نجيب الباسم، وطيب القلب هو الوحيد الذي يتصدر الصفوف، ويشيع بغليونه «البريطاني» وعصاه التي تحت ذراعه الطمأنينة قليلاً . وسرعان ما يدركون أنهم لم يشركوه في الانقلاب إلا في آخر لحظة من أجل إشاعة الطمأنينة تحديداً، وأن السلطة توجد بين أيدي هؤلاء الشباب أصحاب الأجسام النحيفة الرياضية والمختلفين كثيراً عن باشاوات الأمس المغرَّبين.

ومن جهة أخرى لم يعد يوجد بكوات ولا باشاوات. فمن بين أولى الإجراءات التي اتخذها القادة الجدد إلغاء الألقاب البالية المنتمية لماضٍ يشنعون عليه. وتستهدف الثورة تحرير البلاد من الاستعمار وإقامة العدالة الاجتماعية. إنها ثورة بيضاء تم تنفيذها بسهولة مذهلة بلا نقطة دم تقريباً. أما الملك فاروق المكروب فإنه لم يقدَّم حتى للمحاكمة: لقد أُمر بالاختفاء من التاريخ ، ورحل على ظهر يخته بصحبة أسرته ومجوهراته متجهاً نحو كابري ضئيلة الشأن.

ولا تعتبر فرنسا من بين مكونات المشهد الذي يتطلع إليه «الضباط الأحرار» . فأبناء الثكنات البريطانية هؤلاء ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة، ونشأت غالبيتهم في أسر ريفية متواضعة بصعيد مصر، وهم مفتونون بأمريكا. أما الفرانكفونيون الموجودون بينهم فيمكن

عدهم على أصابع يد واحدة: ثروت عكاشة أو علي وحسين صبري اللذين كانا تلميذين بالفرير...وبالنسبة للآخرين -وبخاصة موجههم جمال عبد الناصر- فإن فرنسا يمكن إجمالها في بعض الكتب المترجمة: لقد قرأ هذا الشاب الجذّاب أثناء دراسته الثانوية روسو وڤولتير باللغة العربية، وقرأ كذلك قصة «البؤساء» لڤيكتور هوجو. وفيما بعد عندما كان في الأكاديمية العسكرية قرأ كتباً إنجليزية عديدة عن نابليون[1]. إنه لا يجهل دور بونابرت في مصر. فقد كتب في كتابه «فلسفة الثورة» الصادر عام ١٩٥٣: «جاءت الحملة الفرنسية، وتحطم الستار الحديدي الذي فرضه المغول علينا، وتدفقت علينا أفكار جديدة...وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد. وورثت أسرة محمد علي كل ظروف المماليك، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زي القرن التاسع عشر. وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد. وبدأت اليقظة الحديثة!...»

ولكن عبد الناصر ليس من النوع الذي يكرس للأبد اعترافه بجميل محتل سابق. لا تُعتبر فرنسا نموذجاً يحتذيه ولا موضعاً لمرجعيته. ففي كتابه يميز «ثلاثة دوائر»: الدائرة العربية التي «تحيط بنا، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها»؛ والقارة الإفريقية «شاء القدر أن نكون فيها» ؛ وعالماً إسلامياً «تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ». وسرعان ما اكتشف دائرة أكثر اتساعاً أصبح أحد زعمائها النشطاء: دائرة عالم عدم الانحياز. وليس لهذا علاقة بهوية البحر المتوسط التي كان يدافع عنها مثقف مثل طه حسين.

ولا يعرف عبد الناصر اللغة الفرنسية. إن أداة اتصالاته بالعالم الخارجي هي اللغة الإنجليزية الخاصة بأركان الحرب والتي كانت يحسّنها من خلال مقابلاته مع المتحدثين معه من الأجانب. بدت اللغة الفرنسية في القاهرة حينذاك بأنها لغة النظام القديم. وفي عام ١٩٥٧ حدث أن أصدر جمال عبد الناصر تكليفاً إلى الصحفي محمد حسنين هيكل ليتولى رئاسة جريدة «الأهرام»، وهو يروي بأنه لقي استقبالاً غريباً من مجلس إدارة هذه الجريدة اليومية الكبرى التى تصدر باللغة العربية. كانت من بين الحاضرين مدام تقلا وهي مصرية من أصل سوري وقد أسست أسرتها هذه الجريدة قبلها بقرن. سألته مدام تقلا: «هل تستطيع التحدث بالفرنسية؟». ويؤكد هيكل بأن الحديث أثناء الاجتماع استمر بعدها وحتى نهايته باللغة الإنجليزية...

وكانت ثورة عام ١٩٥٢ تتشكل باللغة العربية. وتؤكد إيرين فينوچليو «أنه تم التنديد

1. Georges Vaucher, *Gamal Abdel Nasser et son équipe*. Paris, Julliard, 1959, t.1.

باللغة الفرنسية لصالح العربية باللهجة المصرية، بل لهجة القاهرة على وجه التحديد التي تتلذذ الجماهير بسماعها، إذ تشد أزرها في نضالها الوطني والشعبي وتساهم بطريق غير مباشر في تدعيم سحر شخصية عبد الناصر[٢]». وحين وصل «الضباط الأحرار» إلى السلطة لم تكن لديهم سياسة لغوية، حتي وإن كان عبد الناصر في كتابه «فلسفة الثورة» قد استنكر نموذج الأسرة المصرية التي «الأب مثلاً فلاح معمم من صميم الريف. والأم سيدة منحدرة من أصل تركي. وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الانجليزي، وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي.» وعلى مرّ الشهور والسنين وضعت سياسة لغوية بطريقة طبيعية عن طريق نوع من منطق الأحداث.

وكان استخدام اللغة ذا أهمية كبيرة لا سيما وأنه لم يكن لدى هذه الحركة الثورية إيديولوجية محددة، وقد أوضح ذلك بصورة جيدة للغاية چورچ كورم Georges Corm: «يجسد عبد الناصر جسارة عامة شعب القاهرة الذي يعاني في فقره وفي عزلته الثقافية من زهو وبذخ هؤلاء الباشاوات المنتمين إلى البورجوازية الكبيرة، الذين يشعرون بارتياح شديد في مواجهة المستعمرين ويقتسمون معهم السلطة والثروة[٣].» ففي صوت هذا الخطيب منقطع النظير، يرى الشعب نفسه كأنه هو الذي يتحدث. «ليست الناصرية عقيدة سياسية ولا فلسفة اجتماعية. إنها بكل بساطة هذه الطريقة في التعبير حيث يقوم قيصر صغير قليل الخبرة ومنحدر من شعب حائر ثقافياً، بالتفكير بصوتٍ عالٍ أمام عامة الشعب باللغة الأكثر بساطة...»

شبح شمال إفريقيا

كان الكاهن دريوتون في إجازة بفرنسا خلال صيف ١٩٥٢ حين علم بأنه قد عزل من وظائفه كمدير عام لمصلحة الآثار المصرية. اتهمته جرائد القاهرة بأنه اختلس آثاراً من الحفريات ليضمها إلى مقتنيات الملك فاروق. احتج الكاهن بغيظ وقال: «هذا محض افتراء. وبطبيعة الحال لا يوجد الآن ما يدعو إلى عودتي إلى مصر[٤]». تم تعيينه في «الكوليچ دي فرانس» (مثل ماسپيرو)، وبعد قليل توفي اتيين دريوتون بمرض السكر (مثل ماريت) الذي كان قد أصيب به في مصر. هكذا أفلتت إدارة الآثار نهائياً من الفرنسيين

2. Irène Fénoglio, «Réforme sociale et usage des langues», in *Entre réforme sociale et mouvement national,* Le Caire, CEDEJ, 1995.
3. Georges Corm, *Le Proche-Orient éclaté.* Paris, Gallimard. 1991.
4. Lettre au *Monde,* 5 août 1952.

بعد مضي قرن من إنشائها. وفقد متحف الفن الإسلامي أيضاً مديره جاستون ڤييت الذي ذهب إلى «كوليج دي فرانس» لإلقاء محاضرات في علم الأثريات الإسلامية.

وبالرغم من القوانين الاجتماعية الجديدة والإجراءت المتخذة ضد كبار ملاك الأراضي، إلا أن الحياة الاجتماعية والثقافية استمرت في مصر مثلما كانت تقريباً. ظهرت مواهب: قام الشاعر ادمون چابس Edmond Jabès [كاتب وشاعر يهودي مصري ١٩١٢-١٩٩١] صديق ماكس چاكوب Max Jacob [شاعر فرنسي ١٨٧٦-١٩٤٤] بتأليف أعمال حققت له شهرة. ظلت مدام قوت القلوب تستقبل فى قصرها وبذخ الكتاب الفرنسيين العابرين. وقد دهش روچيه كايوا Roger Caillois [باحث فرنسي شهير في علوم الاجتماع والجمال ١٩١٣-١٩٧٨] حين رأى أن كل طبق طعام يقدم أثناء العشاء -وهي أطباق عديدة- يحمل عنوان كتاب من مؤلفاته...واستمر سفير فرنسا يجمع مواطنيه في أوبرج الأهرام احتفالاً بعيد ١٤ يوليو مع اختلاف وحيد هو أنه لم يعد يمثل الحكومة المصرية أحد الباشاوات بل ضابط يرتدى الزي الرسمي. وظل خليفة كوڤ دي مورڤيل يرأس دائماً القداس القنصلي وحفلة منتصف الصيام الكبير الراقصة التي تقام في «ميزون دي فرانس».

أما الشباب الفرنسي المقيم في القاهرة فإنه لم يغير عاداته. إذ ظلت مدرسة الليسية لا تعمل بعد الظهر، وظل نادي الجزيرة مصدر متعة، وفي المساء يذهبون للرقص في الرمال بالقرب من الأهرام وهم يحملون المصابيح. وبين وقت وآخر يقوم مجهول بإطلاق شرارة ماغنسيوم: ويظهر أبو الهول حينذاك أزرق اللون تماماً...وتتذكر الفرنسية دومينيك ميولان رقصاتها البطيئة الأولى [سلوز] في تلك المنطقة وتقول «كان لدي شعور بأنني في أجازة سرمدية».

هل لم يتغير شيء؟ إذا ما كان قد تم تجديد الاتفاقيات التجارية المصرية-الفرنسية إلا أن اختلال توازن المبادلات دفع السلطات إلى فرض القيود الشديدة على المنتجات الفرنسية. وجد الجمهور المصري نفسه شيئاً فشيئاً محروماً من الأفلام، بل وأيضاً من النبيذ، ومن العطور والسيارات. لم يستطع المغرمون بالسيارات الستروين الاستمتاع بموديلاتها الحديثة DS 19 التي كانوا ينتظرونها بفضول.

ويشيع اللواء نجيب الطمأنينة لدى الفرنسيين والفرانكفونيين بمظهره كرجل طيب، وبزياراته المتكررة للكنائس وتصريحاته الكاشفة عن التسامح. وقد نجح في رفع الرقابة والقانون العرفي قبل بضعة أسابيع من إعفائه في نوڤمبر ١٩٥٤. وحتى بعد أن تولى عبد الناصر السلطة صراحة كان المتفائلون يجدون ما يطمئنهم. ألا يقوم عبد الناصر بمقاومة

الإخوان المسلمين، إلى حد أنه حظر حركتهم وقبض بالجملة على هؤلاء التماميين الذين أرادوا اغتياله؟

وكان البكباشي يعرف كيف يجتذب إعجاب المتحدثين معه، وذلك بالإدلاء بالتصريحات التي يعرف أنهم يحبون سماعها. ففي يناير ١٩٥٤ استقبل لأول مرة چان وسيمون لاكوتور في غرفة مكتب متواضعة بقصر صغير على ضفة النيل اتخذ كمقر لمجلس الثورة[٥]. لم يكن وقتها سوي نائباً لرئيس الوزراء وقد قام علي التو بحل جماعة الإخوان المسلمين. قال: «بصراحة إنني بعد ١٨ شهرا من الوجود في السلطة لا زلت آتساءل كيف يمكن الحكم بالقرآن؟... يبدو لي أنه لا يصلح للاستخدام كعقيدة سياسية.» وجرى حديث آخر مع الصحفيين ذاتهما في نوفمبر ١٩٥٥. كان البكباشي في هذه المرة يجلس في رئاسة مجلس الوزراء في مكتب كبير تكسو جدرانه أخشاب فاخرة. كان قد اكتسب ثقة بالنفس أكثر، ولم يكن في حاجة لارتداء الزي العسكري. لكنه يتجنب القول بأنه اشتراكي ويذهب إلى حد الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود.

هل يجب الانزعاج؟ إذا ما كانت مدرسة الحقوق الفرنسية -التي لم يعد لها معنى منذ توحيد النظام القضائي- قد تحولت إلى معهد لدراسات قانونية عليا، فإننا في المقابل نجد المنشآت المدرسية مستمرة في أنشطتها. وفي يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٥٥ ترأس عبد الناصر الاحتفال بمرور مائة عام على وصول فرير المدارس المسيحية إلى القاهرة. وبهذه المناسبة تم افتتاح «كوليچ دي لاسال» جديدة يمكنها استقبال ٢٠٠٠ تلميذ. لكن أهمية القانون رقم ٥٨٣ الخاص بالمدارس الخاصة الذي صدر حديثاً لم تخف على أحد: إذ يجب تعليم كل تلميذ ديانته، وبالتالي تقديم دروس في الإسلام إلى المسلمين. لقد استسلم الرهبان الفرنسيون لهذا الأمر على مضض وبعد مناقشات داخلية محمومة.

ثم وقع أمران جديدان آخران أثارا قلقاً كبيراً لدى «المحميين» المسيحيين واليهود: الأول إعلان الإسلام كدين للدولة (١٦ يناير ١٩٥٦) والثاني إلغاء المحاكم الدينية. وبالرغم من أن هذا الإجراء الأخير يبدو في ظاهره إجراءاً علمانياً يمكن أن يكون موضع تقدير، إلا أنه في الواقع يحمل نتائج في غاية الخطورة لأنه تم إلغاء محاكم الجاليات المختلفة المختصة بالنظر في حالات الطلاق بنوع خاص. أما بالنسبة للقضاة المسلمين فإنهم سينضمون إلى المؤسسات المدنية. هكذا يمكن لقاضٍ مسلم أن يفسخ عقد زواج عقد في كنيسة. فضلاً عن أن الشريعة الإسلامية ستطبق على الأزواج والزوجات المنتمين

5. Jean et Simonne Lacouture, *L'Égypte en mouvement*, Paris, Seuil. 1962.

للدين المسيحي في حالة اختلاف المذهب، أو إذا اختار أحدهما الدخول في الإسلام من أجل تدعيم قضية طلاقه.

عارضت كنائس مصر هذا القانون على الفور. لم يعد يوجد «منشقون» : اجتمع جميع ممثلي المذاهب المسيحية في بطريركية الأقباط الأرثوذكس من أجل إرسال برقية احتجاج إلى عبد الناصر. بحثوا موضوع القيام بإضراب يوم «عيد الميلاد». لم يكن لدى فرنسا «حامية مسيحيي الشرق» أية وسيلة للاعتراض. لقد انقضى الزمن الذي كان فيه قنصل فرنسا العام يهدد بتدخل الأسطول لأن أحد رعاياه قد تكدر في ميناء الإسكندرية!

وكان يجب على القوات البريطانية الجلاء عن مصر في يونيو ١٩٥٦، وفقاً لمعاهدة عقدت قبل عشرين شهراً. وفي الأزمان الماضية كان الفرنسيون سيصفقون لرحيل «إنجلترا الخائنة». ومع ذلك تغير الوضع تماماً وبدءاً من الآن تبدو قوات صاحب الجلالة بإنها تمثل المتراس الأخير للدفاع عن المصالح الأوروبية. وبالرغم من ذلك فإن فرنسا تحرص على الابتعاد عن مناورات حلف بغداد التي تدبرها الولايات المتحدة بمساندة بريطانيا العظمى من أجل إقامة حلف في الشرق الأدنى، وهو موقف جعل القاهرة تشعر بالامتنان تجاه فرنسا.

وأعلن جمال عبد الناصر في يوليو ١٩٥٥ أنه «لا يوجد خلاف بين بلدينا» باستثناء مشكلة شمال إفريقيا. لكنه أضاف «نحن ندرك تماماً» أنه لا يمكن تسوية هذه المشكلة في يوم واحد[٦]. والواقع أن تورط فرنسا في أحداث المغرب –الأمر الذي أثار انتقادات عديدة في العالم العربي– لم يمنع باريس من التصرف بمهارة وفقاً لما قاله چان وسيمون لاكوتور اللذين وصلا إلى مصر بعد الثورة ببضعة شهور: «لقد أبدت الدبلوماسية الفرنسية في مصر شجاعة وواقعية والكثير من الصبر، ولعبت بأفضل مايكون بالأوراق الاقتصادية والثقافية التي تمتلكها. أن يكون سفير فرنسا رصيناً وبارداً، أو لطيفاً وودوداً، فضلاً عن أن الفريق الفرنسي الموجود بالقاهرة عرف كيف يسيطر على الضغائن المحتدمة في صحافة باريس وفي البرلمان مما أدى إلى الحصول على أفضل المناقصات (محطة كهرباء القاهرة في أوج الأزمة المغربية، ومشروع كهربة مجمل البلاد في خضم الخلاف التونسي، وبناء مصنع سماد في غمرة معركة الجزائر)، وإلى المحافظة على ذهاب البعثات الدراسية إلى فرنسا، وعلى وجود معلمين فرنسيين من أعلى مستوى في مصر[٧]».

غير أن أحداث شمال إفريقيا بدأت في تقويض العلاقات المصرية– الفرنسية. لاحظوا

6. Déclaration au *Monde*, 30 juillet 1955.
7. Jean et Simonne Lacouture, *L'Égypte en mouvement, op. cit.*

ذلك في أحاديث إذاعة صوت العرب العاصفة، وهي إذاعة فرعية رسمية تابعة لإذاعة القاهرة أسندت برامجها إلى مهاجرين مغاربة. كانوا يدينون السياسة الفرنسية في الجزائر والمغرب وتونس بعنف شديد، كما كانوا يلجأون في بعض الأحيان إلى التزييف. قدمت باريس احتجاجات عديدة مع اتهامها لمصر باستضافتها للثوار الجزائريين (بن بيللا وآيت أحمد)، وبتدريبها لفدائيين ينتمون لجبهة التحرير الجزائرية على أراضيها وقد نفى عبد الناصر هذا الأمر بالرغم من صحته(٨). كان هذا أحد أسباب المأساة القادمة: حملة السويس.

8. Mohamed Fathi al-Dib, *Abdel Nasser et la Révolution algérienne,* Paris, L'Harmatan, 1985.

(٣)

عملية «موسكيتير» Mousquetaire

ضَحك غير مألوف، وضحك يتعذر كبحه، استولى على الحاضرين قبل أن يلهبهم حماساً. كان ذلك يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ في بداية السهرة بميدان محمد علي بالإسكندرية (ميدان القناصل فيما مضى) حينما أعلن جمال عبد الناصر أمام جمهور مندهش تأميم شركة قناة السويس العالمية. لم يكن الأمر يتعلق بمشروع لكنه عملية يجري تنفيذها وقد انطلقت في اللحظة التي ذكر فيها الرئيس اسم فردينان ديلسبس. وقال عبد الناصر ما معناه: «في هذا الوقت الذي أحدثكم فيه تقوم عناصر حكومية بالاستيلاء على مقار الشركة... سيقوم مصريون في هذه الليلة بإدارة قناتنا...» هاج الجمهور مهللاً ولم يعد يسمع سوى أصوات صياحه. وسرعان ما كانت مصر كلها قد نزلت إلى الشارع تتساءل عن التحدي المذهل الذي وجهه «الريّس» إلى الدول الغربية الكبرى.

وفي هذا الخطاب باللغة العربية العامية ـ الخطاب المؤسّس للناصرية ولمصر المستقلة ـ ذكر عبد الناصر أن ١٢٠ ألف عامل مصري ماتوا من الإنهاك أثناء حفر قناة السويس وهو رقم لا يرتكز على أية معطيات. وقال بطريقة رصينة وصادقة أكثر أن بلاده لم تتلق في العام السابق سوى ٣٪ من دخل الشركة. وبعد تأميم الشركة ستتمكن من بناء السد العالي الذي كان سيتم تمويله بقرض من البنك الدولي لكنه لاقى اعتراضاً من الولايات المتحدة. «إن القناة ستمول بناء السد»، ولن تكون مصر في حاجة إلى «استجداء المال من واشنطن أو لندن أو موسكو»

ويروي چان لاكوتور: «تابعت جزءاً من رحلة عودة عبد الناصر إلى القاهرة. كان قطاره يتوقف في جميع محطات القرى حيث كانت الجماهير تقتحمه. كان قد تسلق فوق القاطرة، ويحاولون الصعود نحوه ويتعلقون بالمدخنة. ازداد عبد الناصر حمية بسبب الحماس المحيط به وقام بمبادرات هجومية متزايدة ضد فرنسا وإنجلترا. تحدث أكثر وأكثر

عن حرب الجزائر وعن الدسائس البريطانية في الخليج، واستغرق ستاً وثلاثين ساعة ليعود إلى القاهرة[1]».

وعلى هذا يكون «الريس» هاجم الفرنسيين والبريطانيين الذين يمتلكون قناة السويس انتقاماً من الأمريكيين. إنها مقامرة ضخمة. أكدت باريس ولندن على الفور أن التأميم غير شرعي: وكان للشركة دائماً طابعاً دولياً إذ لا يمكن لحكومة واحدة تأمين حرية الملاحة لجميع الدول وفقاً لاتفاقية ١٨٨٨ . وأعلنت مصر أنه سيتم تأمين حرية الملاحة وتعويض المساهمين تعويضاً مناسباً.

وتوجد لدى مصر أسباب عديدة للتذمر. فإنها حتى الآن لم تستفد كثيراً من هذه القناة التي كلفتها غالياً في حين انتفع المساهمون منها إلى حد كبير. وفي النهاية منحوا مصر ٧٪ من إجمالي الأرباح، وسبعة مقاعد في مجلس الإدارة (من بين ٣٢ مقعداً). ولكن الشركة التي يديرها فرنسي ظلت دولة داخل الدولة. وإذا كان أربعة أخماس العمال من المصريين إلا أن هذه النسبة لا تصل إلا إلى الثلث بالنسبة للفنيين والموظفين. ولم يتم تعيين مرشد مصري لأول مرة إلا في عام ١٩٤٥ ... ويمكن القول أيضاً إن القناة تمثل جرحاً في جنب مصر المستقلة اختار عبد الناصر التعجيل بعلاجه جراحياً.

مبعوث جي موليه السري

لم تكن شركة قناة السويس مستعدة لهذه المفاجأة. كانت لديها فكرة متأصلة بأن التأميم متعذر قانوناً وذلك على ضوء تقرير حصيف وضعه خبير سويسرى. لم يأخذ رؤساء الشركة في حسبانهم تسارع التاريخ. لم يعرفوا كيف يستبقوا الأحداث بالتفاوض مع مصر من أجل إعادة القناة إليها تدريجياً قبل حلول الموعد القانوني في عام ١٩٦٨ . ألم يكن من الواجب مثلاً تعيين مدير مصري جديد في كل عام، ومنح مصر نسبة إضافية من الأرباح سنوياً مع الإسراع في تمصير الوظائف الإدارية والفنية[2] ؟

وبعد أن انقضت المفاجأة ارتكبت الشركة خطأ في تقييم الحالة حين اعتقدت بأن المصريين غير قادرين على تشغيل القناة. وعلى هذا قامت بسحب الموظفين الأجانب وطلبت منهم عدم التعاون مع السلطات الحكومية حتى يضطر عبد الناصر إلى التراجع. والحال أنه سرعان ما نجح مرشدون محليون في الحلول مكان المنسحبين وفي تأمين المرور بالقناة بمعاونة اليونانيين والسوفييت.

1. Jean Lacouture, *Un sang d'encre,* Paris, Stock, 1974.
2.Hubert Bonin, Suez. *Du canal à la finance !1858-1987)*, Paris, Economics, 1987.

وفي منتصف أغسطس عقد اجتماع لمستخدمي القناة في لندن لم تحضره مصر. وافق المؤتمر على مشروع للتدويل، لكن عبد الناصر رفض هذا «الاستعمار الجماعي». تزايدت حدة اللهجة. وأكد «الريّس»: «نحن مستعدون لحرب شاملة،مثل تلك التي يشنها الشعب الجزائري حالياً ضد المستعمرين الفرنسيين».

وفي باريس هاجت النفوس. قامت الصحف ورجال السياسة بالتشهير بـ. «هتلر النيل»، وقالوا بأنه لا يجب أن تصبح السويس ميونيخ جديدة. دفع وسواس ميونيخ هذا قدامى المناضلين ضد النازية إلى تقديم اقتراحات عجيبة. ففي يوم ٢٠ سبتمبر كتب جاستون ديفير Gaston Defferre وزير فرنسا لما وراء البحار مذكرة سرية إلى جي موليه رئيس الوزراء: «يجب علينا إظهار القدرة على الإبداع... منابع النيل لا توجد في الأراضي المصرية...إن تعديلاً حتى ولو بسيطاً في مجري مياه منابع النيل يمكن أن يكون له آثار كبيرة على نظام الفيضان... ألا يمكن عمل شيء من هذه الناحية ؟»

إن جي موليه الذي لا يقر هذا الاقتراح ينشغل بهموم ثلاثة: الأول عدم ترك «جريمة دولية» بلا عقاب؛ ثم الدفاع عن إسرائيل التي يعتقد أنها مهددة بسبب تسلح مصر الجديد؛ وأخيراً وبصفة خاصة تسوية المشكلة الجزائرية. إنه من بين أولئك الذين يدافعون في باريس عن معادلة بسيطة: السبب في حرب الجزائر هو عبد الناصر؛ والتخلص من عبد الناصر سيضع نهاية لحرب الجزائر.

وبينما كانوا يتبادلون المجادلات والذم على جانبي البحر المتوسط، قام البريطانيون والفرنسيون في كتمان شديد بتكوين أركان حرب مشتركة بهدف احتمال التدخل عسكرياً. وبالتوازى تداول زعماء باريس (الاشتراكيون والراديكاليون) مع العمال الحائزين على السلطة في إسرائيل والمقربين إليهم للغاية. وفي لندن كانت حكومة انطوني ايدن ترتاب من إسرائيل كارتيابها من الوباء. إنها تتردد في التدخل عسكرياً في مصر خشية تهديد مواقعها في العالم العربى وإغضاب الولايات المتحدة. وفي باريس لا يوجد إجماع أيضاً: حاول الدبلوماسيون في وزارة الخارجية كبح جماح جي موليه، لكنه حصل على موافقة وزرائه الرئيسيين: كريستيان پينو (الخارجية) وموريس بورجيس-مونوري (الدفاع) وفرانسوا ميتران (العدل). أما بالنسبة للإسرائيليين فإنهم لا يترددون: أنهم يتحرقون شوقاً من أجل التدخل عسكرياً لتحييد مصر قبل أن تتمكن من الاستفادة من أسلحتها الجديدة المشتراة من الشرق.

وتفضي جميع هذه المؤامرات إلى عقد اجتماع في غاية السرية بمدينة سيڤر [الفرنسية] خلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٤ أكتوبر شارك فيه من الجانب الفرنسي جي موليه

وكريستيان پينو وموريس بورجيس-مونوري؛ ومن الجانب البريطاني سلوين لويد وزير الخارجية، ومن الجانب الإسرائيلي ديڤيد بن جوريون وشيمون پيريز وموشي ديان. تمت الموافقة على المخطط: تقتحم القوات الإسرائيلية الأراضي المصرية يوم ٢٩ أكتوبر. وفي اليوم التالي توجه باريس ولندن إنذاراً إلى المتحاربين بإلزامهم بالانسحاب إلى مسافة ١٥ ميلاً على جانبي القناة . إذا لم تذعن الحكومة المصرية -ولا يمكنها أن تذعن لأنها ستفقد مكانتها- تتدخل القوات الفرنسية-البريطانية بدورها «للفصل بين المتحاربين». لم يتم تحديد تاريخ هذه العملية المرموز لها باسم «موسكيتير» «Mousquetaire» [أى الفارس الملكى] اعتباطاً. إنه يقع قبل يوم ٦ نوڤمبر وهو تاريخ إنتخابات الرئاسة الأمريكية وسيكون الرئيس أيزنهاور مشلولاً عن العمل قبل هذا التاريخ.

ويبدو أنه تم اختيار الاسم الرمزي «موسكيتير» احتراماً للجنرال هيو ستوكويل Hugh Stockwell القائد الأعلي للقوات البرية. إن الإمكانيات التي يمتلكها الإنجليز في البحر المتوسط وبخاصة في قاعدة قبرص منحتهم قيادة العمليات. وعلى هذا كان كل رئيس وحدة فرنسية يرأسه زميل بريطاني، وقام كل جانب بحشد حوالي ٢٥ ألف رجل و٢٠ سفينة حربية معززين بـ٤٥٠ طائرة بالإجمال.

وعشية العدوان الإسرائيلى أرسل جي موليه سراً مبعوثَين إلى السودان. الأول چاك پييت Jacques Piette، وكانت مهمته مقابلة اللواء نجيب الذي أعفاه عبد الناصر قبل عامين وبأن يقترح عليه الحلول محل عبد الناصر كرئيس لمصر. أما چورچ پليسكوف Georges Plescoff فقد كُلِّف «بدفعِ أموال» بسخاء إلى الحكومة السودانية لتأمين مساندتها. وتم اللقاء فوق النيل الأزرق على بعد ثلاث ساعات من الخرطوم. إنه سفير فرنسا بذاته الذي يقود مركباً صغيراً بمحرك. كان نجيب يتحدث بلغة انجليزية مهزوزة. استمع إلى محدثيه ثم أعلن استعداده لتشكيل حكومة وحدة وطنية وإجراء مفاوضات مع إسرائيل لعقد سلام دائم معها، لكن بشرط حصوله على موافقة البريطانيين. وقد باح چاك پييت إلى المؤرخة چورچيت إلجي Georgette Elgy: «لم أتمكن مطلقاً من نقل الرسالة إلى باريس. الواقع أنه عند عودتنا إلى الخرطوم اكتشفت أنا والسفير أن الإدارات الفرنسية الخاصة ترى من الحكمة الذهاب إلى إثيوبيا...فالحال أنه لم يكن لدى السّفارة شبكة اتصالات مأمونة مع باريس.» وعلى هذا لم يستطع المبعوث إبلاغ جي موليه إلا بعد عودته إلى فرنسا بعد مضي عدة أيام. وبعد فوات الأوان[٣]...

3. Georgette Elgey, *Histoire de la IV e RÉpublique. La République des tourmentes (1954-1959)*, Paris, Fayard, 1997, t.11.

وجرى تنفيذ الخطة «موسكيتير» كما كان مقدراً لها. تقرر في اللحظة الأخيرة الهجوم على بورسعيد بدلاً من الإسكندرية لتجنب ذكرى عام ١٨٨٢ السيئة، فضلاً عن ارتباط بورسعيد أكثر بموضوع النزاع. ومع ذلك تمت فرملة العملية بسبب حذر البريطانيين لأنهم يبالغون في تقدير الجيش المصري الذين قاموا بتدريبه. إنهم يريدون إعداد العملية بعناية تماثل ما جرى أثناء نزول الحلفاء في نورماندي [خلال الحرب العالمية الثانية]. وتم طبع منشورات باللغة العربية مزينة برسوم كاريكاتيرية تسخر من عبد الناصر وضعها رونالد سيرل Ronald Searle.

وبدأ كل شيء كأنه نزهة عسكرية تلقى تعضيداً في باريس بصفة عامة. أبلغ جي موليه الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ ليلاً التي وافقت على هذا التدخل بـ ٣٦٨ صوتاً ضد ١٨٢. وأبلغ الجنرال ديجول المحيطين به موافقته من ناحية المبدأ، وإن كان يرى أنه من «الجنون المطبق» إسناد القيادة المشتركة إلى بريطانيا العظمي. ويظهر استقصاء أجري يومي ١ و٢ نوفمبر أن ٤٤ ٪ من الفرنسيين يحبذون العملية «موسكيتير» مقابل ٣٧ ٪، بينما كان ١٩ ٪ بلا رأي. وأعرب عدد أكبر عن اعتقاده بأن مصر غير محقة في تأميم القناة (٥٨ ٪).

ويروي چان پلانشيه مراسل جريدة «لوموند» الحربي أن الحماس يسود العسكريين: «إنهم يحاربون في الجزائر منذ عامين بالتمام. وكانوا يولّدون لديهم الإحساس بالخطأ: إنها حرب قذرة، قذرة في وسائلها، وليست واضحة في أهدافها. وها هم يقترحون عليهم حرباً صليبية حقيقية: إن عبد الناصر لا يمتلك مفتاح حرب الجزائر فحسب، لكنه ديكتاتور يقتدي بهتلر ويقلده. إنه يمتلك جنود ودبابات: ستكون حرباً حقيقية...كانوا يقولون لنا ذلك ويكررونه في «ميس» [مطعم] الضباط. كما أن مصر تنتظرنا من أجل تحريرها[٤].»

ومع ذلك فإن شيئاً لا يسير كما يجب في السيناريو، أو بالأحرى يسير بصورة جيدة أكثر مما يجب: فالإسرائيليون يتقدمون بسرعة مذهلة إذ لا تعرقلهم قيادة مزدوجة. وفيما يتعلق بالطيران المصري فسرعان ما تم تحييده بواسطة القذف بالقنابل من الجو. واستولى اليأس على الچنرال ماسو قائد فرقة المظلات العاشرة: «لقد تحطمت القوات الجوية المصرية، ووصلت العناصر الإسرائيلية الأولى إلى مدى العشرة أميال. الحرب سوف تنتهي قبل أن يتم إنزال جنودنا...إنها كارثة[٥]!»

وبدأوا على الفور في دراسة افتراضات متنوعة للقيام بهجوم معجّل، لكن الاتصالات

4. Jean Planchais, «Reporter à Suez», *L'Histoire,* Paris nº 38, octobre 1981.
5. Jacques Massu, *Vérité sur Suez.* 1956, Paris, Plon, 1978.

بين البريطانيين والفرنسيين لا تسير على ما يرام. يجب استشارة لندن وباريس...وفي النهاية أعطي الضوء الأخضر يوم ٥ نوفمبر في الصباح الباكر. هبط شاتو –چوبير قائد الفيلق الثاني لرجال المظلات مع جزء من رجاله فوق پورسعيد وقام بتحييد دبابات مصرية. وقفز اللفتنانت كولونيل فوسيه–فرانسوا مع باقي رجال الفيلق الثاني فوق پورفؤاد واستولى على ورش شركة القناة. ويتقدم الچنرال ماسو بقواته كطليعة في اتجاه الجنوب مع إبداء تذمره من البحرية الفرنسية التي يرى أنها تغلق أبوابها ليلاً مثل المكاتب. وفي انتظار العواقب بدأ الجيش يلهو. قامت فيالق اللفتنانت چان–ماري لو بن النائب الپاريسي المنتمي إلى الحركة الپوچادية السياسية تلهو بالمراكب في أحواض پورسعيد، في حين قام القناصون السنغاليون بصيد السمك بالصنارة في المرفأ. وفي تعجل زائد قام اللواء البحرى بارچو برفقة القائد موريس شومان المرتدي لزي المعركة بالتجول في سيارة القيادة التى تحولت قبل الآوان إلى مركبة النصر...

كانوا متعجلين أكثر من اللازم لأن الآليات الديپلوماسية انطلقت في عملها. أعيد انتخاب أيزنهاور وكان غاضباً فهو يخشى ردود الفعل البترولية –لقد بدأت بالفعل إذ قام السوريون بتخريب منشآت شركة البترول العراقية– وفيما هو أبعد من مصالح الولايات المتحدة المباشرة فإنها لا تريد أن يجرها الأوروپيون إلى نزاع عالمي للمرة الثالثة خلال أربعين عاماً. وفيما يتعلق بالسوڤييت فإنهم معتبطون بأن يروا اهتمام العالم يتحول عن القمع الدموي في بودابست. وقاموا بخدعة كبرى إذ أومأوا بتهديد لندن وباريس بالانتقام النووي. استولى الرعب على لندن بسبب انخفاض الجنيه الاسترليني وألقت بسلاحها من قبل أن تبلغ شريكتها. تم وقف إطلاق النيران في الساعة الخامسة والنصف من بعد ظهر يوم ٦ نوفمبر بينما كانت پورسعيد شبه محتلة.

طرد المقيمين الفرنسيين

ساد الذهول والوجوم بين العسكريين الفرنسيين. كانوا يظنون بأن الإسماعيلية لقمة سائغة والسويس أيضاً بالتبعية، بل وما الذي يمنع من التقدم حتى القاهرة. إن الطيران المصري قد اختفى من السماء. ويعتقد كل فرد بأن الخسائر الضخمة التي تكبدتها قوات العدو وبيانات النصر التي يذيعها راديو القاهرة مختلقة كلية. وكان لدى رجال المظلات انطباع بأنهم قد لعبوا دوراً ثانوياً في مأساة هزلية.

ووجد اللواء البحري بارچو Barjot صعوبة كبيرة في صياغة الكلمة التي سيدلي بها أمام قوات الحملة:

«أيها الجنود والبحارة والطيارون، في الوقت الذي قمتم فيه بدخول المدينة الرئيسية لقناة السويس منتصرين صدر أمر بوقف إطلاق النار لأسباب سياسية وبقرار من حكومتنا. لقد محت مجهوداتكم وشجاعتكم الإهانات، وأظهرت شجاعتكم أن فرنسا تعرف كيف تحترم نفسها. إنني مقتنع بأن نجاحاتكم سوف تثير الحماس لدى زملائكم في شمال إفريقيا الذين يحاربون هناك من أجل استتباب السلام. بالرغم من أن تدخلكم قد توقف إلا أنه نذير إيجابي بالنسبة لمستقبل فرنسا. احترموا وقف إطلاق النار لكن يجب أن تظلوا حذرين.»

وتسببت هذه الحرب الخاطفة في مقتل ١١ فرداً من الجانب الفرنسي و٢٢ من الجانب الإنجليزي. وتقدر الخسائر المصرية بـ ٢٥٠ عسكرياً وأكثر من ألف مدني. لكن الحساب الختامي لهذه الخيبة «السوبر» [العظيمة] لا يمكن حصرها. فبدلاً من إسقاط عبد الناصر، جعلوا منه بطلاً عظيماً. لقد نجح «الريّس» في تحويل الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسي باهر، وتم تكريسه زعيماً للعالم العربي.

من المخطيء؟ الفرنسيون يتهمون الإنجليز، والسياسيون يتهمون العسكريين، والعسكريون يتهمون بعضهم بعضاً...وسرعان ما رأينا أن فشل العملية يتمخض عن نتائج سياسية وجغرافية–استراتيجية هائلة. تعززت الحركة الوطنية الجزائرية، وازداد فقدان الجمهورية الفرنسية الرابعة لاعتبارها. وفي الشرق الأدنى حيث حلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى محل الدول الأوروبية الكبيرة تزايد ضعف فرنسا بشدة : فقد قطعت جميع البلدان –باستثناء لبنان– علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا.أصيبت الحكومة الفرنسية بصدمة بسبب تخلي الولايات المتحدة عنها فاتجهت نحو القارة الأوروبية. هكذا عجلت مسألة السويس –وهذا هو مظهرها الإيجابي الوحيد– من إقامة البنيان الأوروبي. وتم توقيع اتفاقية روما بعدها بعامين. ولم يجري إنشاء أوروبا وفقاً لمحور لندن–باريس بل محور باريس– بون.

وفي مصر عاش أصدقاء فرنسا حلماً كئيباً. كان البعض منهم مقتنعين بأن التدخل العسكري سيحررهم من عبد الناصر (كانوا يتمنون ذلك لكن لا يصرحون به). لكن الوطنيين من بينهم مذهولون. إنهم يتوقعون من الإنجليز ارتكاب أي شيء. لكن أن يحمل الفرنسيون السلاح ضد مصر فهذا أمر لا يمكنهم فهمه ولا الصفح عنه. شعر جورج حنين بالغضب والبلبلة يمزقانه فكتب في مذكراته: «يشعر المثقف المتأثر بالثقافة الأوروبية أنه مضطر إلى الشروع في الحكم بالإعدام على أحلامه وعلى احتياجاته. كل فرد سيقيم

محرقة شخصية مساهمة منه في الدمار الشامل. إنهم يتخلون عن خليط من الأصدقاء والأفكار والذكريات والمدن. إنهم يبحثون عن النقاء غير الموجود(٦)...»

طلب من المقيمين الفرنسيين في مصر -كما من نظرائهم الانجليز- بيع منقولاتهم ومغادرة البلد بأسرع وقت ممكن. لم يفت ضباطا مصريين فرصة الاستفادة من الموقف. كانوا يتقدمون لشراء أجهزة كهربائية منزلية بعشرين جنيهاً في حين تصل قيمتها إلى عشرة أضعاف هذا المبلغ، ثم عند التسليم لا يدفعون أكثر من ١٥ جنيهاً للبائع قائلين له: «اعتبر نفسك سعيداً بالحصول على هذا المبلغ». وفي المطار سمع عدد من الفرنسيين تحذيرات مثل: «لا تقل كلمة واحدة ضد مصر حين تصل إلى الخارج، وبخاصة للصحافة أو للوزارات، فقد يعاني أقرباؤك أو أصدقاؤك الذين في مصر من ثرثرتك،.وإذا كان لك ممتلكات في مصر فهذه هي الوسيلة الوحيدة للمحافظة عليها(٧).»

ولم ينج من الطرد الصحفي جابرييل داردو الذي يعيش على ضفاف النيل منذ ٢٩ عاماً بالرغم من علاقاته الطيبة مع السلطات المصرية. اقتحم رجال بوليس مصريون منزله وقطعوا خطوط التليفون وقاموا بتفتيش شقته للتأكد من أنه لا يمتلك أسلحة أو أجهزة إرسال. «لم يكن أمامنا سوى بضع ساعات للاستعداد للرحيل ...أكدوا بأن جميع منقولاتنا قد صودرت: الأثاثات والسجاد والملابس والفضيات وأدوات المطبخ... الخ. وأضاف حارسنا الفظ كذلك حساباتك في البنك وأشياءك الثمينة وذلك لصالح ضحايا وحشية الفرنسيين في پورسعيد...وفي المقابل سمح لنا بالاحتفاظ بساعة ودبلة لكل فرد(٨)».

ودبّر بعض المطرودين أمورهم مع أصدقاء مصريين لإنقاذ بعض الأموال. وبالرغم من خشية البوليس إلا أننا شهدنا علامات تضامن مؤثرة من كثيرين ومن بينهم بسطاء الناس: رفض بعض البوابين بإصرار أخذ البقشيش الذي أعطي لهم مما يكذب ما يقال بأن البقشيش يعتبر من مكونات الهوية الوطنية...وامتزج الهزلي مع المأساوي كما يحدث دائماً في مصر. ويروي جابرييل داردو أن أحد ضباط البوليس السياسي في المطار ضرب حذاءه الطويل بسوطه ومنع الحمالين من تقديم أية مساعدة للاستعماريين المطرودين «كان يجب علينا نقل حقائبنا بأنفسنا إلى الطائرة بعد قيام رجال الجمارك بتفتيشها بدقة. وبينما كان أحدهم يفتش قمصاني الواحد بعد الآخر رأى في كم أحدها أزراراً ذهبية. أبلغ عن اكتشافه وتلقى أمراً بأن يترك لي «زراً واحداً». قمت بجدية تامة بمنح هذا الزر إلى صندوق

6. Georges Henein, *Carnets, 1940-1973.*
7. Témoignage d'un industriel expulsé, *Le Monde,* 3 janvier 1857.
8. Gabriel Dardaud, *Trente Ans au bord du Nil,* Paris, Lieu commun, 1987.

تعويض خسائر سكان پورسعيد.» واحتفظ الفرنسي بصفة خاصة بذكرى موظف الجمارك الذي اعتذر له وبالابتسامة الصغيرة المتعاطفة التي تبادلاها.

واتخذت قوات الأمم المتحدة مواقعها في القناة. وفي يوم ١٢ ديسمبر أقام الچنرال ماسو حفل عشاء في مطعم الضباط بالقرب من پورفؤاد دعي إليه بعض المسئولين. ومن السخرية أن وجبة الطعام اشتملت على ما سمي «حملة مصر الثانية»[٩]. وبالرغم من الخسائر المحدودة ومن الانسحاب بنظام تام فوق سفن فرنسية إلا أن نهاية عملية الفارس الملكي أو «الموسكيتير» لم تحظ بمجد أكثر من حملة جيش الشرق في عام ١٨٠١ ...

ضخامة الكارثة

وفي يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ غادرت مصر آخر الدوريات الفرنسية والبريطانية. كان عيد ميلاد حزيناً. وسبقهم في صعود السفن فرنسيون لازالوا مقيمين في منطقة القناة في مشهد يتماثل مع ما رأيناه على رصيف الجزائر بعد مضي بضع سنين: «كان يوجد العديد من كبار السن الباكين. إنهم يتركون جميع ما يمتلكون للارتماء في المجهول. لم يعد للعديدين منهم أسرة ولا أصدقاء في فرنسا. كان الأطفال واجمين، والبالغون حائرين. ومن حولهم انهمك رجال المظلات في حمل الصناديق والحقائب والأطفال وفي تقديم المعاونة للأقل قدرة، وفي الإسراع إلى تقديم الخدمات بحمية[١٠]».

وتبدى الاضطراب الفرنسي– البريطاني حتى آخر دقيقة. وفي وسط صيحات الاستهزاء والسخرية غادر القسيس پورسعيد ومعه جنود فرنسيون وحوالي مائة أسير مصري. وفي وسط البحر تلقى أمراً بالعودة لأن الإفراج عن هؤلاء الأسرى هو من بين شروط الاتفاق الذى عقده الچنرال ستوكويل مع قوات الأمم المتحدة وحكومة الرئيس عبد الناصر...

وكان الجنود الفرنسيون قد حزموا جميع الأشياء الثمينة الموجودة بمبنى الشركة الكبير بپورسعيد. أخذوا معهم الأثاثات والتحف والأواني المزخرفة والساعة الدقاقة «أوچيني» التي كانت الإمبراطورة الفرنسية قد أهدتها عام ١٨٦٩ ، وكذلك تمثال نصفي لفردينان ديلسپس...وفي المقابل تركوا تمثال ديلسپس الكبير المقام عند مدخل القناة، لكن قاعدة التمثال كانت محاطة بشبكة سميكة من الأسلاك الشائكة. وظنت أيد مجهولة أنه يلزم وضع العلمين الفرنسي والبريطاني عليها، الأمر الذي تسبب في هيجان الجماهير فور مغادرة آخر سفينة.

9. Jacques Baeyens, *Un coup d'épée dans l'eau du canal*, Paris, Laffont, 1946.
10. *Ibid.*

وأدت شحنة ديناميت إلى نزع التمثال من فوق قاعدته وتحطيمه إلى أجزاء عديدة. إن ديلسبس الذي كانت تغطيه الزهور أصبح شيطاناً. ألم يكن «هذا المجرم المحاط بالسماسرة والمرابين» هو «أسوأ عدو لمصر خلال القرن التاسع عشر» وفقاً لتأكيد الدكتور حسين مؤنس عضو «لجنة تضم أساتذة جامعيين وكتاباً مصريين»[(11)]؟ فضلا عن أن ديلسبس لم يكن سوى حلقة في سلسلة، إذ تضيف اللجنة قائلة: «كان تاريخنا خلال الـ ١٥٠ عاماً الماضية هو تاريخ صراعنا ضد فرنسا وإنجلترا. لم يمر عام واحد دون حدوث صراع بيننا وبين الواحدة أو الأخرى.»

وبدأوا في باريس يدركون شيئاً فشيئاً مدى ضخامة الكارثة.

أولاً فيما يتعلق بالأشخاص: تم إخطار حوالي ٧٣٠٠ شخص من فرنسيي مصر بطريقة أو بأخرى بالمغادرة. وبقي حوالي ألف شخص نصفهم من رجال الدين. ويوجد بين المهاجرين ١٣٠٠ من موظفي القناة بالإضافة إلى عدد من اليهود الذين يتحدثون الفرنسية وتم رفض منحهم الجنسية المصرية، وقد اضطروا إلى ترك شبه مجمل ممتلكاتهم في مصر. منحتهم الحكومة الفرنسية إعانات وقروضاً لكن ذلك لا يعوض فقدانهم لأنشطتهم.

وكان الحساب الختامي بالنسبة للمؤسسات مفجعاً: فهي تحت الحراسة في انتظار «تمصيرها» بمعنى ما يشبه بيعها إلى هيئات محلية. بلغت الخسائر حوالي مائة مليار فرنك في ذلك الوقت. كانت ثلاثة بنوك «أعداء» مستهدفة: الكريدي ليونيه Le Crédit Lyonnais، والكونتوار ناسيونال ديسكونت دي پاري Le Comptoir national d'escompte de Paris، والكريدي دوريان Crédit d'Orient. كانت شركات التأمين الفرنسية وفروعها تجتذب ثلاثة أخماس السوق. واستثمرت شركات مثل شركة «الهواء السائل» أو «الأشغال العامة لمارسيليا» رؤوس أموال ضخمة في مصر. هذا مع عدم أخذ شركة السويس في الحسبان والتي كان أصحاب أسهمها البالغ عددهم مائة ألف مساهم يتساءلون بعصبية عن مصير مستنداتهم.

وأخيراً كانت كارثة للنفوذ الفرنسي الثقافي: تم الاستيلاء على المنشآت الست الخاصة بالبعثة العلمانية التي كانت تعلّم عشرة آلاف و٥٥٠ تلميذ سنوياً. تحولت مدارس الليسيه إلى «مدارس الحرية» (مثلما تحولت كليات ڤيكتوريا الإنجليزية إلى «مدارس النصر»). حرمت هذه المدارس من مدرسيها الفرنسيين وأصبحت تابعة للجنة حكومية. واجه المعهد الفرنسي للآثار الشرقية خطر التصفية. تمكنت المنشآت الدينية وحدها من الإفلات من

11. Comité des études sélectionnés, *Canal de Suez, faits et documents*. Le Caire, 1956.

هذه الإجراءات بفضل المفاوضات القانونية البارعة التي أجراها القاصد الرسولي: فمن الآن فصاعداً أصبحت مملوكة للفاتيكان، وأصبح أعضاؤها بالتالي رعايا للدولة الرسولية.

وفي باريس لا يهدأ غضب ارمان دي شايلا Armand du Chayla سفير فرنسا السابق لدى مصر من وزير خارجيته. ففي ساعة واحدة من يوم ٣١ أكتوبر عام ١٩٥٦ فقدت فرنسا نفوذاً نسجته بأناة خلال قرن ونصف. وعلى ضفاف النيل أصبح اسمها موضع سخرية وتقوضت حظوتها.

(٤)

مدرسة الچيزويت
مختومة بالشمع الأحمر

إن المصريين الذين سدوا القناة أثناء العدوان الثلاثي، أعادوا فتحها لمرور السفن يوم ٨ إبريل ١٩٥٧. انسحبت الشركة الدولية إلى باريس وتصرفت كأن شيئاً لم يكن: استمرت في الصياح بأن التأميم غير شرعي، ومحاولة جبي رسوم العبور ووضع، خطط للأعمال المقبلة بالقناة. لكنها شعرت بأنه تم التخلي عنها، من جانب أصحاب السفن الذين لا يفكرون إلا في أعمالهم، والحكومات الغربية التي لا تهتم إلا بالتوازن الاستراتيجي السياسى في الشرق الأدنى. ألا يجب عليها التفكير في التخلى عن القناة وفي التفاوض من أجل الحصول على تعويض كبير؟ إن البنك الدولي وسيط جاهز طالما أن مصر تطلب منه قرضاً.

بدأت المفاوضات بين وفد مصري ووفد من القانونيين بالشركة برئاسة چان-پول كالون المحامي لدى مجلس الدولة ومحكمة النقض. كانت البداية شاقة لكن بدأت الثقة تسود شيئاً فشيئاً في شرفات المطاعم الصغيرة المشمسة. وفي النهاية وصلوا إلى صيغة ماهرة تؤكد أن الشركة مصرية في مصر (وبالتالي قابلة للتأميم)، لكنها فرنسية في فرنسا (وبالتالي يمكنها الاحتفاظ بممتلكاتها في الخارج). والخلاصة هي أن مصر تأخذ القناة وتحتفظ الشركة بكل ما تمتلكه خارج مصر. ويتم دفع تعويض مريح للشركة قدره ٣٤ مليار فرنك فرنسي قديم أي ما يساوي أكثر من رأس مال الشركة بمرة ونصف تقريباً.

إن اسم السويس يعتبر اسماً ساحراً، فهو مفتاح سري حقيقي في الأوساط المالية في جميع أنحاء العالم. وتعتزم الشركة التحول إلى شركة مالية وترغب في الاحتفاظ بهذا الاسم. لجأوا إلى القاهرة. قام الرئيس عبد الناصر بحسم الموضوع بنفسه: «أعطيكم اسم السويس، وسأحتفظ بالقناة». ولم يبق سوى تصديق المساهمين على الاتفاق. كان من

الصعب على المساهمين رفض ما يعرضونه عليهم - في صورة نقود وأسهم في الشركة الجديدة- كما جرت ترتيبات مع إدارة الضرائب الفرنسية لمنحهم مزايا ضرائبية لا يستهان بها. تم توقيع الاتفاق يوم ١٣ يوليو ١٩٥٨ في جنيف.أما بالنسبة للشركة التي أسسها فردينان ديلسپس منذ قرن مضى، فقد بدأت مجازفة جديدة بلا قناة، قادتها نحو المشاركة في أحد الأيام في حفر نفق تحت بحر المانش بعد تأميمها مرة أخرى من جانب الحكومة الفرنسية في هذه المرة[1]...لكن هذه قصة أخرى لا تتعلق بمصر.

مبتكرات الأزياء السوڤييتية

لم يكن لدى الصحافة والإذاعة المصرية منذ حرب السويس كلمات قاسية بما فيه الكفاية لكي تستخدمها في التشهير بالاستعمار الفرنسي. وكانت إدارة البريد الفرنسية من ناحيتها ترسل خطابات تحمل طابع بريد «النصر»...ومع ذلك توجد العديد من المصالح على ضفاف النيل بحيث لا يمكن عدم التفاوض بالرغم من حرب الجزائر التي تسمم العلاقات بين البلدين. عقد اجتماع في جنيف في أغسطس ١٩٥٧. لم يكن يرأس الوفد الفرنسي سوى چان روبير المفتش المالي وذلك للتأكيد بأن الأمر لا يتعلق بإعادة العلاقات الدپلوماسية. اتسمت بدايات الأعمال بالتوتر الشديد. كان عبد الناصر يطالب «المعتدين» بدفع تعويضات.

وبعد مضي عام على هذا الاجتماع لم تعد كل من فرنسا ومصر كما كانت. ففي باريس أسلمت الجمهورية الرابعة الروح وتولى الجنرال ديجول السلطة. ترك كريستيان پينو أحد صانعي عملية «موسكيتير» الرئيسيين مكانه كوزير للخارجية ليحل محله كوڤ دي مورڤيل سفير فرنسا السابق لدى مصر المعروف بعدائه لما حدث. أما بالنسبة لمصر فقد تحالفت مع سوريا لتكوين الجمهورية العربية المتحدة. وهذا لا يمنع من وجود ريبة شديدة لدى الطرفين. فإننا لم نصل بعد إلى التعانق ولا إلى التصريحات الضخمة بشأن علاقات الصداقة.

ويقضي الاتفاق الموقع في زيوريخ يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٨ بدفع تعويض عن البنوك الخمسة وشركات التأمين الخمس عشرة والشركات الفرنسية المتنوعة التي انتقلت إلى أيدي المصريين. أما فيما يتعلق بالممتلكات الأخرى الموضوعة تحت الحراسة (حوالي ٧٥٠ مشروعاً و٢٠٠ عمارة وأراضي)، فإنها ستعاد إلى أصحابها. أعيدت العلاقات التجارية

1. Hubert Bonnin, Suez . Du canal à la financd (1858-1987(, Paris, Economica, 1987.

والمالية وأصبح في مقدور أصحاب المصانع الفرنسية استئناف مشترواتهم الضخمة من القطن المصري.

وسمحت مصر للمواطنين الفرنسيين بالعودة للإقامة في أراضيها، وأعادت إلى فرنسا معهد الآثار الشرقية ومعهد الدراسات القانونية العليا وكذلك مدرستي الليسيه بالقاهرة والإسكندرية. سيكون لكل من هاتين المدرستين مدير فرنسي بل ومدير للدراسات العربية تعينه السلطات المصرية التي تقوم بوضع المناهج بنفسها.

وإذا كان النزاع تمت تسويته إجمالاً، إلا أن هذا لا يعني عودة الأمور إلى ما كانت عليه. فالجمهورية العربية المتحدة لا تمتزج بمصر قبل عام ١٩٥٦ . أصبحت اللغة العربية إلزامية في جميع المعاملات التجارية. وازداد اتسام النظام بالطابع البوليسي. كان يبدو بأن أجهزة التسجيل موضوعة في كل مكان، وأصبح كل فرد لا يجرؤ على التعبير عن آراء سياسية خشية الوشاية به. بدا كل ما هو غربي بأنه موضع اشتباه. وفي يوم ١٥ ديسمبر ١٩٥٨ تم حرق ٨٠ ألف كتاب مدرسي في الصحراء لأنه رؤي بأنها تتضمن ما يتعارض مع القومية العربية أو الدين الإسلامي. وعانى الأقباط من مرارة الالتباس بين القومية والإسلام وبدأوا يعربون عن شكواهم من التفرقة المتصاعدة.

وقامت بلدان الشرق الموردة للسلاح بفتح ثغرة مميزة في وادى النيل، بالرغم من استمرار مطاردة الشيوعيين من جانب النظام. فتحت جميع الأبواب أمام الاتحاد السوڤييتى الذي سيقوم بالمعاونة في بناء السد العالى بأسوان. وجاءت عارضات أزياء سوڤييت ليعرضن في القاهرة مبتكرات حديثة مصنوعة من القطن المصري. لم تعد البعثات الدراسية المصرية تتجه نحو باريس أو لندن بل إلى موسكو. وفي ٦ أكتوبر ١٩٥٨ حلت اللغة الروسية محل الفرنسية كلغة أجنبية ثانية في المدارس العامة. من كان يتصور ذلك قبل أربع أو خمس سنين؟

زوال التعليم الأجنبي

أصبحت المدارس الدينية الفرنسية تابعة رسمياً للڤاتيكان وحصل جميع العاملين بها على مستندات تحقيق شخصية مطابقة. وأدت هذه الحالة الصورية إلى إثارة بعض المشكلات: فقد أوفد مصري يسوعي أقرباءه إلى السفارة البابوية موضحاً بأنه لا يريد أن يكون أجنبياً في بلاده الأصلية...يبقى أن المدارس الثانوية والداخلية أمكنها الاستمرار في أنشطتها بعد أزمة السويس تحت إشراف وزارة التربية والتعليم التي شكلت لجنة خاصة للامتحانات.

ومنذ عام ١٩٥٥ لم يعد العلم الفرنسي يرفرف فوق مدرسة العائلة المقدسة [الچيزويت] في أيام الأعياد. لقد حل علم الڤاتيكان محله. ومن أجل تأكيد الطابع العالمي للمنشأة قاموا بتعيين يسوعيين بلچيك وسويسريين وكنديين. وإذا كان الأب الرئيس لا يزال فرنسياً إلا أن المدير الجديد مصري.

وفي يوم ٢٥ يناير ١٩٥٩ -يوم أحد- اقتحم البوليس المدرسة مما أثار دهشة عامة. قام بتفتيش الأقباء بحثاً عن...أجهزة إرسال غير موجودة بطبيعة الحال ولم تكن موجودة في يوم من الأيام. وضعت أختام الشمع الأحمر على مكاتب عديدة. وصرح متحدث رسمي بوزارة التعليم بأن «التعليم الذي يقدمه اليسوعيون يتعارض مع مشاعر العرب القومية». والدليل على ذلك كتاب الجغرافيا الذي يشتمل في الواقع على مضمون عجيب: يصف هذا الكتاب لبنان بأنها «دولة مسيحية ذات غالبية مسيحية»، وإسرائيل بأنها «دولة حديثة نشيطة» ، وسوريا بأنها «دولة مسلمة صحراوية جزئياً» والأردن «بلاد رعوية». وبالنسبة إلى مصر يشتمل على تمييز بين الفلاحين «وهم مسلمون فقراء» والأقباط «الذين يسكنون المدن وهم متعلمون»(٢).

وعلى هذا تم الاستيلاء على المدرسة. ستقوم السلطات بتعيين مدير للمدرسة وحين علم اليسوعيون بأن المدير الجديد مسلم أصيبوا بالهلع. توقفت الدراسة مدة ثلاثة أيام. هل يجب عليهم استئنافها؟ أبدت منشآت دينية أخرى استعدادها للإضراب حين علمت بأنه لم يتم الاستيلاء على مدرسة العائلة المقدسة بلا تبصر: إن رئيس المدرسة هو سكرتير الهيئة التي تضم جميع المدارس الكاثوليكية في مصر. عبأ خريجو المدرسة أنفسهم وأرسلوا رسائل احتجاج إلى الرئيس عبد الناصر.

جنح اليسوعيون نحو الإضراب. قام القاصد الرسولي بثنيهم عن هذا الاتجاه وكذلك نائب الأسقف اللبناني الذي هرع إلى القاهرة. إن المدير الذي عينه الوزير رجل مهذب يعرف كيف يجعل هذه المعايشة محتملة. يجب تهدئة التلاميذ المسيحيين الذين أبدوا استعدادهم للخروج في جهاد ديني، والذين بدأوا فعلاً في الصلاة قبل دروس اللغة العربية. لم يبق سوى تحمل صخب التلاميذ الذي من ميزته أن الآباء الرهبان وحدهم القادرون على وقفه.

وفي الأوساط الحكومية كان الجميع لا يقرّون الاستيلاء على هذه المنشأة ذات الاعتبار التي تستقبل أبناء شخصيات كبيرة عديدة في الجمهورية: نائب رئيس الجمهورية،

2. Frédéric Abécassis, «École étrangère, éco;e intercommunautaire», in *Entre réforme et mouvement national,* Le Caire, CEDEJ, 1995.

ووزيري الشئون الاجتماعية والثقافة، وسكرتير عام الجامعة العربية والنائب العام، وسفير مصر لدى الأمم المتحدة(٣)...إن وزارة الخارجية تعارض وزارة التعليم والبوليس السري. ويجتهد القاصد الرسولي من ناحيته للوصول إلى اتفاق. وفي يوم ١٩ فبراير تصاعد التوتر فجأة حين تلقى الرئيس الأب ڤكتور پروڤوست Victor Pruvost أمراً بمغادرة البلاد خلال ثماني وأربعين ساعة. وصل الأمر حينذاك إلى حد اجتماع عدة مئات من خريجي المدرسة واحتلالهم لكنيسة المدرسة...

وخلال الأيام التالية انفرجت الأزمة. أقيمت محرقة لإلقاء خمسين كتاباً موضع خلاف في النيران. جاء مسئول كبير من وزارة التعليم بنفسه إلى المدرسة لكي يعيد الإدارة إلى اليسوعيين، ويهنئهم بهذه المناسبة على نظام تعليمهم...وأخيراً لم يحدث شيء. لقد خرجت مدرسة العائلة المقدسة أكثر توطداً من هذا النزاع الذي أظهر لها تعلّق وحب تلاميذها وأسرهم وخريجيها(٤).

ومع ذلك ظلت المنشآت الدينية تحت إشراف السلطات الوثيق. ففي مدرسة سان مارك التي يديرها الفرير في الإسكندرية كان يجيء ممثل الوزارة مصحوباً دائماً برجل غامض يضع نظارات سوداء على عينيه ويدون ملاحظات في صمت. قام ضباط المباحث العامة باستدعاء مدير المدرسة للحضور إلى القاهرة مرتين. وكان التدريب العسكري الذي يتم في المدرسة مثلها مثل جميع المنشآت المدرسية الأخرى يتسبب في خلل النشاط التعليمي. وفي الصيف كان يجب التخلي عن جزء من مقار المدرسة إلى الجيش من أجل إجراء دورة تعليمية للضباط. كانت المدرسة تعاني من الوشايات العديدة. وفي إحدى المرات اقتحم البوليس المكتبة لإعدام مؤلفات تتعارض مع القومية مثل أغنية «رولان».....ثارت أعصاب بعض الرهبان الذين أصبحوا لا يستطيعون تحمل هذا المناخ وأصيبوا باكتئاب وطلبوا مغادرة مصر أو حتي الرهبانية.

ويمثل القانون رقم ١٦٠ ولائحته التنفيذية الصادرة في ١٧ مارس ١٩٥٩ نهاية التعليم الأجنبي في مصر عملياً. إنه يشترط ضرورة أن يكون مديرو المدارس من المصريين ولا يمكن للمدرسين الأجانب القيام بالتعليم إلا بموافقة السلطات. لم تعد توجد سوى منشآت مصرية حكومية أو خاصة تقوم جميعاً بتدريس المناهج الرسمية. ولكن من أجل تلبية احتياجات البلاد يمكن السماح لبعض المدارس بتعليم لغة أجنبية بطريقة أكثر

3. *Nouvelles de la vice-province du Proche-Orient*, nº 3, juin 1959.
4. Frédéric Abécassis, «Une certaine idée de la nation». in *Itinéraires d'Égypte Mélanges offerts au père Maurice Marin s.j.*, Le Caire, IFAO, 1992.

تعمقاً. وليست هذه الاحتياجات تجارية فحسب لكنها سياسية أيضاً، إذ يرغب نظام عبد الناصر في نشر نفوذه في المغرب وفي إفريقيا السوداء. إن جامعة الأزهر الإسلامية ذاتها تهتم بتعليم اللغة الفرنسية بقصد نشر الدعوة.

أنشئت بكالوريا مصرية–فرنسية. لكن هذه الصيغة الشاذة لم ترض أحداً: فأولئك الذين يرغبون في متابعة دراساتهم العليا في أوروبا يعانون من ضعف لغتهم الفرنسية الشديد، وأولئك الذين سيبقون في مصر لا يعرفون اللغة العربية بدرجة كافية. ارتدوا مرة أخرى إلى بكالوريا مصرية مع إدخال بعض التعديلات...والواقع أن المدارس الفرنسية السابقة لم تستعد اطلاقاً مستواها القديم، إذ فقدت في آنٍ واحد حريتها في الحركة، وجزءاً من معلميها، ومجتمعِ الأجناس المختلفة الصغير المتجه نحو فرنسا والذي كان يمثل الجزء الأساسي من تلاميذ هذه المدارس.

(٥)

دپلوماسيون أم جواسيس؟

كانت سويسرا ترعى المصالح الفرنسية في مصر منذ قطع العلاقات الدپلوماسية بين البلدين. وعلى هذا كانت البعثة الصغيرة التي أرسلتها باريس إلى القاهرة لتنفيذ الاتفاقيات المالية والثقافية المعقودة في أغسطس ١٩٥٨ تعمل تحت حماية العلم السويسري. ولا يمكن القول بأن الأمور تسير إلى الأمام حقاً. فالإفراج عن الممتلكات الموضوعة تحت الحراسة يتباطأ . وبعد مضي ثلاث سنوات منذ توقيع پروتوكول زيوريخ لا يزال ٣٠ ألف حساب في البنوك مجمداً، ولا زالت المنازعات العقارية تنتظر التسوية. لم يتم بعد تعويض المساهمين في البنوك وشركات التأمين. وفيما يتعلق بالمممتلكات التي أفرج عنها أخيراً فإن مصلحة الضرائب المصرية تفرض عليها ضرائب ضخمة، ويلزم التصارع من أجل تحويلها إلى الخارج.

لم تكن طبيعة المناخ السياسي تبعث الطمأنينة لدى الفرنسيين في مصر. يسود القاهرة توتر شديد منذ انفصال سوريا في نهاية سبتمبر ١٩٦١ . ظلت الجمهورية العربية المتحدة قائمة بالرغم من «دسائس الخونة والاستعماريين» . ومن أجل نسيان الفشل تم شن حملة واسعة النطاق ضد «أصحاب الملايين» و«الإقطاعيين» التي كانت الصحف تنشر أسماءهم يومياً. ومن بين هؤلاء العديد من المصريين اليهود أو المسيحيين الذين من أصل سوري أو لبناني -أي المغرّبين القريبين من الثقافة الفرنسية. وقد وجد أعداء الأمة هؤلاء أنفسهم بين يوم وليلة مستبعدين: لم يتم وضعهم تحت الحراسة فحسب، بل وأبعدوا من جميع النوادي والجمعيات.

وفي يوم ٢٤ نوفمبر وقع حدث مفاجيء جديد: تم القبض على أعضاء البعثة الدپلوماسية الفرنسية بتهمة التجسس. لا يستطيع أحد مقابلتهم، ولا حتى سفير سويسرا. كان عددهم أربعة أشخاص: أندريه ماتي رئيس البعثة، ومساعداه چان-پول بيلليڤييه وهنري

موتون، والقائم بالأعمال الثقافية أندريه ميكويل. أما الدپلوماسي الخامس فهو كريستيان دومال الغائب عن مصر والذي ستجري محاكمته غيابياً. ومن بين المقبوض عليهم يوجد المحامي الفرنسي فرانسوا فيريه، ويوناني يدير مجلة «لا ريڤو دى كير» وأربعة مصريين من بينهم عدلي أندراوس سفير مصر الأسبق لدى فرنسا. تم أيضاً القبض على فرنسيتين هما آرليت بو سكرتيرة البعثة وچاسمان كانيرى المحامية أمام محاكم القاهرة.

احتجت الحكومة الفرنسية على الفور قائلة بأن المتهمين الأربعة الرئيسيين يتمتعون بالحصانة الدپلوماسية. لم يكن هذا هو رأي السلطات المصرية التي لديها تفسير آخر لاتفاقيات عام ١٩٥٨ يعتقد الفرنسيون أنه قاصر وخاطيء. كانت عناصر الاتهام شديدة الخطورة: التجسس لحساب فرنسا، والقيام بدعاية تخريبية، والتحريض على قلب نظام الرئيس عبد الناصر واغتيال رئيس الدولة.

وإذا كان قد تم طرد الفرنسيتين إلا أن المتهمين الآخرين ظلوا في الكتمان. ثم ظهر بعضهم على شاشات التليڤزيون يدلون باعترافات «مصطنعة ويصعب سماعها». وفي پاريس استنكر وزير الخارجية الفرنسية كوف دي مورڤيل هذه «المسألة الشائنة والمؤسفة» التي يرى أنها «تصيب الغرب كله». لكن فرنسا شعرت بأنها وحيدة إلى حد ما في الأمم المتحدة حين قدمت مذكرة إلى الدول الأعضاء للاحتجاج ضد «المكيدة التي ترتكز على مزاعم مثيرة للسخرية».

انتزاع اعترافات باستخدام العنف

في يوم ١٩ ديسمبر صدر أمر بمنع أي مواطن فرنسي من دخول الأراضي المصرية، حتى وإن كان عابراً. وأعلن الرئيس عبد الناصر وسط خطاب له: «تصور الفرنسيون أنهم باغتيالي، سيتمكنون من اغتيال الثورة.» وخلال الفترة بين عيد الميلاد والعام الجديد تم وضع الحراسة من جديد على مدراس الليسية التي كانت قد أعيدت إلى فرنسا. وردت فرنسا باستدعاء مدرسي اللغة الفرنسية من مصر، بعد أن منعت المواطنين المصريين من مغادرة فرنسا...وصل التوتر بين البلدين إلى ذروته.

وفي شهر مايو من العام التالي رأس عبد الناصر الاحتفال بذكرى هزيمة الملك سان لوى [لويس التاسع] في المنصورة. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحتفل فيها مصر بهذه المناسبة التي مضى عليها سبعة قرون! لكن يبدو أن القبض على «الجواسيس» يرتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث الجارية: ألم ترغب الإدارات المصرية الخاصة التي فاجأها

الانفصال السوري في استدراك ما فاتها بتقديم قضية جاسوسية كبيرة إلى «الريس»؟ كانوا يميلون في أوساط القاهرة الدپلوماسية إلى هذا التفسير حتى وإن كانوا يرون بأن بعض المقبوض عليهم من الفرنسيين كانوا متهورين وطائشين حينما أعربوا علناً عن أفكار يمكن إساءة تفسيرها.

تحدد يوم ١٥ يناير كموعد لبدء نظر القضية أمام قاضٍ بديل: لقد انتحر رئيس محكمة أمن الدولة في حادث يحيطه الغموض. إذ سقط من إحدى الشرفات. هل هو حادث، أم انتحار أم اغتيال؟ ظل السؤال بلا جواب.

ووصل إلى القاهرة نقيب المحامين الفرنسيين رينيه-وليام تورپ وسمح له برؤية الدپلوماسيين الأربعة المسجونين. لقد أسيئت معاملتهم بقصد انتزاع اعترافات منهم مثلما توقع أقرباؤهم. وروى أندريه ماكويل فيما بعد: «في الساعة الرابعة صباحاً تم إيقاظنا بضربات تدق على الباب إلى حد اقتحامه، واجتاح الشقة زمرة من الأشخاص الذين قاموا بوضع ضمادة فوق عيني والقيود في يدي، وبتفتيش الغرف ثم أخذوني. وهناك بدأ الكابوس: عشرة أيام في إستجوابات تقوم بها الإدارات الخاصة...لم أعرف لماذا قبض عليّ، ولم يكن لديّ ما أرويه؛ أو بالأحرى لم يكن لدي ما أخفيه، وما رويته لم يكن يهم رجال البوليس في شيء...وفي خلال العشرة أيام التالية حدث أنهم كانوا ينتزعوني في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل ليضعوني في شاحنة صغيرة، ويأخذوني إلى مقر لا أعرفه، وفي مرة أو مرتين وضعوني في قبو وربطوا يدي ورجلي بالحائط وأنا عارٍ أو شبه عارٍ. ومن حسن الحظ الكبير أنني نجوت من التعذيب الشديد[1]...» وفي السجن عاد هذا الماسوني إلى العقيدة المسيحية. ورفض التوقيع على محضر استجوابه.

وفي المحكمة روى هنري موتون أنه اضطر إلى الإجابة تحت وطأة الضربات، بينما كان يعاني من أزمة كبدية وجاثماً على ركبتيه ورأسه منحنية تجاه الأرض ويداه مربوطتان خلف ظهره. وقال له رئيس المحكمة بأنه قد ذهب إلى السفارة الايطالية للحصول على أموال بقصد إحداث انقلاب سياسي. ثم دار الحوار العجيب التالي:

«لم أدخل إطلاقاً سفارة إيطاليا ولا أعرف فيها أحداً...

-لكنك قلت ذلك في أقوالك.

-لقد أملى عليّ البوليس هذه الأقوال.

-كيف أمكن للبوليس أن يملي عليك مجمل اعترافك؟

1. André Miquel, *L'Orient d'une vie*, Paris, Payot, 1990.

– لا بد وأنه لدى رجال البوليس خيال خصب...كيف يمكنني أنا الموظف البسيط المكلف بموضوعات الحراسة أن أذهب إلى سفارة وأقرع بابها وأطلب أموالاً لقلب النظام؟

– لماذا إذن صرحت بذلك؟

– بعد ثلاثة أيام بلا نوم، وثلاثة أيام من المعاملة السيئة ، وبما أنني كنت مريضاً فقد فقدت قواي.

– هذا لا يبرر أنك أدليت بتصريحات خطيرة إلى هذا الحد...»

وبعد أن لاحقه القاضي بشأن مشروعاته الإجرامية التي اعترف بها صاح الدبلوماسي الفرنسي قائلاً: «لو كانوا طلبوا مني الاعتراف بأنني قتلت الرئيس عبد الناصر لفعلت ذلك!»

كابوس بشع

أوجد كل هذا انطباعاً سيئاً لدى الحاضرين في قاعة المحكمة. إن السفراء الموجودين والذين شجعهم الدفاع على حضور المحاكمة كانوا أكثر حساسية من حكوماتهم بشأن فظاظة الإدارات المصرية الخاصة. وكان يشق عليهم أن يروا في هؤلاء المتهمين الأفاضل الذين جاؤا إلى مصر مع زوجاتهم وأطفالهم سفاحين أو حتى جواسيس. فضلاً عن أن عناصر الاتهام كانت تبدو أكثر فأكثر ومن جلسة إلى أخرى بأنها غير معقولة. لا تشتمل التقارير التي تم العثور عليها في البعثة الدبلوماسية، وتسجيلات المكالمات التليفونية إلا على ما هو عادي للغاية. فحين يكتبون إلى وزارة الخارجية الفرنسية عن المناخ السياسي في مصر فالدبلوماسيون لا يفعلون أكثر من القيام بعملهم: كان يجب عليهم أن يفسروا لماذا توجد صعوبات في إعادة الممتلكات الفرنسية. وإذا ما كانوا يجيبون على صحفي عابر عن النتائج المتوقعة في حالة اختفاء الرئيس عبد الناصر فهذا لا يعني بالضرورة بأنهم يعدون لاغتياله! إن المسئولين عن التسجيلات –أو المترجمين– قد أساءوا فهم بعض الأحاديث. إن وصف الرئيس عبد الناصر في أحد الأحاديث بأنه «حيوان سياسي» لا يعني تشبيهه بالحيوانات...

وتحدث وكيل النائب العام عن سفير مصر الأسبق لدى باريس باعتباره عدواً للشعب. وقال الوكيل المحتد: «لقد أولجت فرنسا عناصر الخيانة في داخله.» وأضاف بأنه في وقت السلم يتم الحكم على المتهمين بالأشغال الشاقة عدة سنوات. ولكن بما أننا في حالة

حرب – حرب مع إسرائيل– فإنه يطالب بالأشغال الشاقة المؤبدة. واتهم وكيل النيابة إذاعة صوت مصر الحرة التي تبث إذاعتها من مدينة مارسيليا والتي تحصل على أخبارها من البعثة الفرنسية. ألا يستهدف هذا كله الوصول إلى إلغاء هذه الإذاعة؟ إن الحكومة الفرنسية ترفض الدخول في هذه المساومة.

وعلى ممر الأسابيع تباطأت المحاكمة مما قد يشير إلى تزايد الحيرة لدى السلطة[٢]. وفي يوم ٧ إبريل ١٩٦٢ عند افتتاح الجلسة الثامنة والثلاثين وقع حدث مفاجيء: أعلنت المحكمة تلبية لطلب النيابة تأجيل القضية «لاعتبارات سياسية تتعلق بمصالح البلاد العليا». تم الإفراج عن الدبلوماسيين الفرنسيين. حدثت دهشة وتعانق.

وفي الأوساط الحكومية فسروا ذلك بأنهم أرادوا توجيه التحية إلى اتفاقيات إيفيان التي عقدت قبلها بعشرين يوماً بين فرنسا والوطنيين الجزائريين. إنهم يتمنون أن يتمكن الدبلوماسيون من الوجود في باريس في اليوم التالي للإدلاء بأصواتهم في الاستفتاء! وصرح المحيطون بالرئيس عبد الناصر أنهم راضون بنوع خاص عن عنف الإجراءات التي اتخذها ديجول ضد «الأواس» [منظمة الجيش السري]. وأكدت جريدة الأهرام أن جمهورية مصر العربية تريد «فتح صفحة جديدة من التعاون مع فرنسا»...لم يكن إذن سوى كابوس بشع. قام الجانبان برفع جميع العقوبات. وأصبح من الممكن للسواح الفرنسيين زيارة صعيد مصر.

وبعد هذه المغامرة المؤلمة كان يمكن لشخص آخر غير أندريه ميكويل André Miquel أن يدير ظهره للشرق الأدنى. لكن المستشار الثقافي الشاب قرر العكس وهو أن يثبت لمتهميه بأنه «ليس كما كانوا يعتقدون». لقد انغمس فى دراسة اللغة العربية والعالم الإسلامي كما أنه يقوم برحلات وبالتعليم وبالنشر. لقد كان خريج دار المعلمين اللامع هذا هو الأول في شهادة الأستاذية في النحو. و أصبح أستاذاً للغة العربية الفصحى وللآداب العربية القديمة في «الكوليج دي فرانس».

2. René-William Thorp, *Le Procès du Caire*, Paris, Julliard, 1963.

(٦)

سيدة النوبة

عند القبض على الدبلوماسيين الفرنسيين، كان ثروت عكاشة وزير الثقافة على وشك تقديم استقالته. من المؤكد أن هذا الرجل الذي امتهن العسكرية ورفيق عبد الناصر القريب منه، هو أحد أفضل أصدقاء فرنسا خلال تلك السنوات الكئيبة. وبفضله أمكن لأكثر من باحث فرنسي جامعياً كان أو صحفياً أن يعمل في مصر بالرغم من صورة «الاستعمار الفرنسي» المقيتة. ففي نوفمبر عام ١٩٥٩ دق على بابه چان-فيليب لوير الذي اضطر إلى الهجرة من مصر بعد أزمة السويس. حضر حاملاً معه صور ساحة عمله وخرائط المشروعات التي يجب تنفيذها. ويروي الدكتور عكاشة: «وجدت نفسي أمام رجل يتحدث إلي باحتدام عن العمل الذي بدأه عام ١٩٢٦. كانت عيناه تلمعان بالدموع بقدر ما كانت رغبته شديدة في إقناعي. لم أكن أعرفه. ولا أعرف عمله أيضاً. لكن رغبته المحتدمة من أجل البدء في العمل أصابتني بالحيرة. لقد أسرني بالقوة المذهلة الصادرة منه، فأجبته بأنه يمكنه استئناف أعماله فوراً وبأنني سأتولى تسوية سائر الأمور[1].»

كان ثروت عكاشة ملحقاً عسكرياً سابقاً في پاريس وهو مغرم بالموسيقى الكلاسيكية وبالفن الشعبي. وفي مارس ١٩٦٩ ذهب سراً إلى العاصمة الفرنسية للدفاع عن أطروحته للدكتوراة في جامعة السوربون عن الكاتب العربي ابن قُتَيبة. كان جميع أصدقائه الپاريسيين حاضرين. تولى ريچي بلانشير رئاسة لجنة الامتحان وقد منحه درجة «الامتياز مع مرتبة الشرف». وانتهت هذه الزيارة المتنكرة بمقال شديد التقريظ كتبه في اليوم التالى چاك بيرك [عالم اجتماع ومستشرق فرنسي معروف] في جريدة لوموند الفرنسية.

وأراد ثروت عكاشة إقامة عرض بالصوت والضوء في الأهرام بالجيزة وأقنع عالمة المصريات كريستيان ديروش-نوبلكور بوضع سيناريو هذا العرض الذي تم تنفيذه بالكامل

1. Claudine Le Toutneur d'Ison. *Une passion égyptienne. Jean -Philippe et Marguerite Lauer,* Paris, Plon, 1966.

على ضفاف السين بفضل قلم جاستون بونور، وموسيقى چورچ ديلرو وصوت العديد من أعضاء فرقة «الكوميدي فرانسيز». ولم يبق سوى تكييفه مع اللغات الأخرى. وفي اللحظة الأخيرة قام الوزير بتصحيح الترجمة الإنجليزية بعد أن لاحظ بأن يداً غير أمينة أحلت اسم توماس يونج محل اسم شامپليون[٢]...وبعد افتتاح هذا العرض في ١٣ إبريل ١٩٦١ أعطى الرئيس عبد الناصر الضوء الأخضر لإنشاء مركز البحوث المصري– الفرنسي في الكرنك.

وإذا كان ثروت عكاشة قد لعب دوراً هاماً في تلك السنوات، فيجب أن نقول الشيء نفسه عن كريستيان ديروش نوبلكور. كانت عالمة المصريات هذه مستعدة دائماً للقفز في الطائرة وعبور البحر المتوسط–مع احتمال تعرضها للاتهام «بالتعاون مع العدو»– وكان نشاطها الذي لا يكل ذا أهمية لا تقل عن أعمال العديد من الدبلوماسيين. لقد تلاقت مصر وفرنسا من جديد عن طريق الثقافة وليس عن طريق السياسة أو الاقتصاد.

كانت كريستيان ديروش قد وصلت إلى مصر لأول مرة عام ١٩٣٧ على ظهر الباخرة «شامپليون». كانت في الرابعة والعشرين من عمرها ومكلفة بمهمة لمتحف اللوڤر. وقبل مغادرتها فرنسا قدم لها والداها ألف نصيحة لكي تتفادى «الالتقاء بأشخاص السوء». والحمدلله أن الكاهن دريوتون طيب القلب هو الذي كان ينتظرها في محطة القاهرة لكي يعد لها إقامتها في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية باعتبارها «مبعوثة»...وفي العام التالي عادت إلى وادي النيل مرة أخرى باعتبارها «موظفة مقيمة» معينة في حفريات إدفو. وكانت هذه بداية لحياة مهنية ثرية موزعة بين مصر ومتحف اللوڤر حيث تزوجت من نوبلكور وتولت على التوالي وظيفة أمينة بمتحف اللوڤر ثم رئيسة أمناء الآثار المصرية وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسند فيها هذه الوظائف إلى سيدة.

دعوة بصوت مالرو [وزير ثقافة حكومة الجنرال ديجول]

بعد اندلاع الثورة عام ١٩٥٢ تم إحلال مصطفى عامر العالم المصري بعصور ما قبل التاريخ محل الكاهن دريوتون في إدارة مصلحة الآثار. وقد لجأ المدير الجديد إلى اليونسكو طالباً معاونتها، فانتدبت رئيساً للبعثة ممثلاً في شخص كريستيان–ديروش نوبلكور. هكذا تم إنشاء «مركز دراسة وتوثيق مصر القديمة»، الذي سرعان ما سيبدأ في الانشغال بإنقاذ آثار النوبة المهددة بالغرق كلية بسبب السد العالي الجديد الذي سيجري تنفيذه. لقد كان جاستون ماسپيرو قبل نصف قرن يصرخ في الصحراء أثناء تشييد خزان أسوان السابق لكنه

2. Christiane Desroches-Noblecourt, *La Grande Nubiade ou Le parcours d'une égyptylogue*, Paris, Stock-Permoud, 1992.

لم يستطع إلا القيام بوضع رسوم للآثار التي ستغرق خلال جزء من العام. وفي هذه المرة توجد خطورة أكبر. وبفضل إرادة بعض الأشخاص والتعبئة العالمية تم وضع مشروع ضخم موضع التنفيذ: نقل موقع المنشآت الرئيسية المعرضة للخطر.

وكانت فرنسا وسط هذه المجازفة بالرغم من علاقاتها السيئة مع مصر. ذلك لأن مقر اليونسكو يوجد في باريس، ولأن رينيه ماهو René Maheu مديرها الجديد فرنسي. وكانت كريستيان ديروش-نوبلكور هي الشخصية الرئيسية في العملية الجريئة التي سيجري تنفيذها. وخلال صيف عام ١٩٥٥ لجأت عالمة المصريات الفرنسية إلى أفضل الخبراء العالميين لكي يشاركوا في وضع الرسوم. بدأ عمل مرهق شارك فيه فريق المعهد الوطني الفرنسي الجغرافي باستخدام طريقة حديثة، هي التصوير المسامي الضوئي photogrammétrie : يتعلق الأمر برسم أبعاد جميع الصروح التي يتم تصويرها. تم تكملة العمل عام ١٩٥٩ بوضع خريطة ضخمة مقاس ١ : ١٠,٠٠٠ انطلاقاً من الصور الجوية.

أصدر مدير عام اليونسكو نداءاً رسمياً إلى الجماعة الدولية في عام ١٩٦٠ . كان أندريه مالرو وزير الجنرال ديجول المكلف بالشئون الثقافية أول من لبى النداء. أصدر بياناً رائعاً بصوته الفريد: «لأول مرة تتم دعوة جميع الأمم -في ذات الوقت الذي تشن فيه العديد منها حرباً سرية أو معلنة- لكي تشترك معاً في إنقاذ منجزات حضارة ليست حضارتها...إن بقاء مصر يكمن في فنها وليس في الأسماء المشهورة أو في قائمة الانتصارات. وبالرغم من معركة قاديش وهي إحدى معارك التاريخ الحاسمة، وبالرغم من الخراطيش المطروقة والمنقوشة التي حاول الفرعون الجسور من خلالها فرض خلوده على الآلهة إلا أن سيزوستريس أقل حضوراً بالنسبة لنا من اخناتون المسكين. إن وجه الملكة نفرتيتي يلاحق فنانينا مثلما تلاحق كليوباترة شعراءنا. لكن كليوباترة كانت ملكة بلا وجه، ونفرتيتي وجه بلا ملكة...هذه هي المرة الأولى التي تكتشف فيها الإنسانية لغة الفن العالمية... وللمرة الأولى أيضاً تقترحون من أجل إنقاذ تماثيل ورسوم وصور تخصيص هذه الطاقات الضخمة التي لم تخصص من قبل إلا لخدمة الأحياء. قد يكون ذلك لأن دوام هذه الفنون أصبح بالنسبة لنا شكلاً من أشكال الحياة...»

وأثار نداء اليونسكو حركة سخاء واسعة النطاق، حتى لدى العامة من الناس. فقد استجاب تلاميذ بالمدارس. ووصلت أول مساهمة من فتاة عمرها اثنا عشر عاماً من مدينة تورنو الفرنسية تدعى ايفيت سوفاج Yvette Sauvage التي كسرت حصالتها من أجل النوبة. وقد دعاها ثروت عكاشة إلى زيارة مصر برفقة أمها. وجاء مارلو ذاته في ربيع عام ١٩٦٦ إلى مصر بعد عودة العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وباريس. ووصفت جريدة

«التايمز» استقباله أثناء هذه الرحلة بأنه «حماسي» مؤكدة بأنه لا أحد من الضيوف الغربيين لاقى مثل هذا الاستقبال. لقد بذل الوزراء المصريون جهدهم لكي يتحدثوا إليه بالفرنسية الأمر الذي أصبح نادراً للغاية منذ ثورة عام ١٩٥٢. واستقبل الرئيس عبد الناصر الوزير الفرنسي الذي سلمه رسالة شخصية من الجنرال ديجول ثم طار إلى الصعيد. وظلت بلاد الفراعنة تلاحق مالرو مؤلف كتاب «الأمل». فعند وفاته بعد مضي عشر سنين وضعوا من أجل ذكراه تابوتاً في فناء متحف اللوفر يضم قط من الخشب المذهب فسفوري العينين يمثل الإلهة باستيت...

توت عنخ آمون ورمسيس الثاني في باريس

وفي فبراير ١٩٦٧ اتضحت عودة التلاقي بين مصر وفرنسا بطريقة أخرى بمناسبة إقامة معرض توت عنخ امون في باريس. أقيم هذا المعرض في باريس وليس في لندن في حين كان المنطق يدعو إلى إعطاء الأولوية لبريطانيا العظمى إذ يعود الفضل في هذا الاكتشاف الخرافي إلى هوارد كارتر واللورد كارناڤون...لكن تمكنت كريستيان ديروش–نوبلكور من الحصول على خمس وأربعين تحفة رائعة بالرغم من تردد أمناء متحف القاهرة. كان يلزم التفاوض بشأن كل قطعة على حدة لكي يتم التخلي عن بعض القطع خشية اتلافها. تعهدت فرنسا بترميم التحف الثمينة وأرسلت اثنين من أكبر الخبراء إلى القاهرة لمدة ثلاثة شهور مزودين بمواد خاصة من أجل القيام بهذه المهمة.

اتخذت احتياطات لا حصر لها من أجل نقل التحف. تم نقل التحف الأكثر خفة في وزنها في أربع طائرات (يجب توزيع المخاطر!)، مع الاهتمام بتفادي مطبات الهواء حتى لا يحدث اهتزاز لهذه الكنوز. أما التحف الأثقل وزناً فقد تم نقلها بالبحر. وهذا هو ما جرى بالنسبة لتمثال توت عنخ آمون الضخم الذى يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ووزنه ثمانية أطنان والذي تمت تقوية أرضية «لو بيتى پاليه» [القصر الصغير] من أجل استقباله.

افتتح أندريه مالرو بصحبة ثروت عكاشة المعرض، وأدلى مالرو بخطاب آخر من خطاباته التي يحتفظ وحده بسر روعتها. قال: «إن ما بحثت عنه مصر في الموت هو تحديداً القضاء على الموت:..إنني باسم فرنسا أشكر مصر التي كانت أول من ابتكر الخلود...» وقف على باب المعرض طابور يضم ١٥ ألف زائر. لم يتوقع أحد مثل هذا الإقبال منقطع النظير! يجب اتخاذ إجراءات عاجلة لتحسين المرور والرؤية داخل القاعات. كان من المقدر لزيارة الجنرال ديجول وزوجته للمعرض عشرون دقيقة لكنها طالت إلى ساعة ونصف.

وفي كل يوم كان جمهور غفير يحاصر «لو بيتي باليه» حيث يقام المعرض. ولا تذكر باريس أنها شاهدت من قبل مثل هذا العدد الغفير من الناس ومن طلبة المدارس يزورن معرضاً فنياً. لقد تم دراسة كل شيء من أجل إحياء «توت عنخ آمون وعصره»: الصور، والإضاءة، والألوان، وأوراق البردي... وأتاح عدد التحف المحدود تجنب التجمهر. ومن البديهي أن تكون التحفة الرئيسية في المعرض هي القناع الجنائزي الشهير المصنوع من ورق الذهب المطروق، وغطاء الرأس المجزع بالزجاج الأزرق، واللحية المستعارة والثعبان والعقاب المرصع بالأحجار الفنية.

استمر معرض توت عنخ آمون ستة شهور ونصف، بعد إطالة مدته وبلغ عدد التذاكر مدفوعة الثمن ١,٢ مليون تذكرة. أرباح المعرض مخصصة لإنقاذ آثار النوبة. في غضون ذلك أدى اندلاع حرب عام ١٩٦٧ إلى توقف المعرض مؤقتاً خوفاً من وقوع حوادث. لكن لعنة توت عنخ آمون الشهيرة المفترض بأنها أودت بحياة العديد من علماء المصريات لم تثبت صحتها عند سفح برج ايفل. بل العكس صحيح. رأينا في المقابل ظهور تسريحة مبتكرة لدى مصففي الشعر اسمها «تسريحة الفرعون». قام صاحب مصنع شيكولاتة بانتاج توابيت صغيرة من الورق المذهب، كما ابتكر التليفزيون الفرنسي «كارتون توت» للأطفال، وابتدع المعلنون «ادخارات توت» لصالح صندوق الادخار(٣).

وفي عام ١٩٦٧ تزاحم الفرنسيون أيضاً لمشاهدة معرض «رمسيس الثاني» المقام في القصر الكبير «لو جران باليه». اتخذت الاستعدادات نفسها: قام خبراء من متحف اللوفر بترميم تحف في القاهرة تم نقلها إلى باريس بالطائرة أو بالباخرة. كان في استقبال الزائرين تمثال رائع للإله حورون، وصقر من الجرانيت رمادي اللون يحمي طفل الملك الذي يمص أصبعه. لكن الحدث الحقيقي يتعلق بموضوع آخر مستقل عن المعرض: إنه رحلة مومياء الفرعون التي ذهبت للعلاج في العاصمة الفرنسية.

ظل رمسيس الثاني العظيم حاكماً لمصر مدة ثلاثة وستين عاماً في القرن الثالث عشر قبل مولد المسيح. وقد عاني جثمانه من النقل عدة مرات منذ العصور القديمة، كما أن عرضه في متحف القاهرة لم يؤد إلا إلى زيادة إتلافه. وأكد الخبراء أن هذا العجوز الجليل لن يبقى حتى عام ٢٠٠٠. اعتزمت فرنسا القيام بعلاجه. وهنا أيضاً نلتقي مع سيدة النوبة: حصلت كريستيان– ديروش–نوبلكور على التصاريح اللازمة –في هذه المرة يستلزم هذا الموضوع الهام الحصول على موافقة رئيسي الجمهوريتين – وقامت بتنظيم العملية التي

3. Jean-Marcel Humbert, in *Bulletin de la Société française d'égyptologie*.nº 62, octobre 1971.

مولتها مؤسسة الف–اراب Elf-Erap التي يديرها في القاهرة روبير سوشيه Robert Sou-chet أحد تلاميذ كريستيان السابقين في علم المصريات...

اتخذت احتياطات لا نهاية لها فوضعت المومياء داخل صندوق مصنوع من زجاج خاص للوقاية من الأشعة فوق البنفسجية، وتم تثبيتها بمخدات من البوليسترين المعقّم. وتروي عالمة المصريات: «حين وصلت القاهرة بطائرة خاصة تابعة للجيش الفرنسي، كان كل شيء جاهزاً للشحن. الصندوق الذي يضم الملك العظيم مغطى بقماشة من الجوت وقد وضع في شاحنة مغطاة ومحاطة بحرس بقيادة «اللواء رمسيس» رئيس شرطة المتحف! إن الشارع الذي يربط القاهرة بهليوبوليس والمتجه نحو المطار اسمه أيضاً رمسيس! كان سفيرنا الكونت سينار ينتظر وصول القافلة لكي يوقع باسم الحكومة الفرنسية على أنها تأخذ بطل قاديش على عاتقها. هبت ريح عاصفة مما اضطر ممثل الحكومة المصرية وسفيرنا إلى الاحتماء في سيارة الوفد الفرنسي. كانت الظروف الجوية سيئة وقد تؤدي إلى جعل النقل الجوى غير مناسب لأنه لا يجب حدوث اهتزاز للشحنة. ومع ذلك فإن تطورات الأمور أخذت رمسيس الثاني في اعتبارها إذ المعروف عنه أنه رجل المعجزات. وحالما أقلعت الطائرة لم تعد تواجه أية عاصفة، لكن جواً هادئاً للغاية أتاح لي أن أجعل زوج نوفرتارى الجميلة يحلق فوق الأهرام الأمر الذي لم يتمكنوا أن يفعلوه له أثناء حكمه[٤]!»

وفي مطار بورچيه بباريس استقبلت رمسيس الثاني فرقة من الحرس الجمهوري أخرجت سيوفها من أجربتها، وهو الاستقبال الذي يلقاه رئيس دولة. وأدلت آليس سونييه–سيتيه وزيرة الجامعات بخطاب الترحيب. تحرك الركب يسبقه رجال الشرطة من راكبي الدراجات النارية. وفي الطريق قام الركب بجولة في ميدان الكونكورد لتحية المسلّة المصرية، ثم اتجه إلى متحف الإنسان حيث جهزت خصيصاً قاعة معقّمة مزودة بزجاج واقٍ من الأشعة فوق البنفسجية.

وخلال سبعة شهور انكب على المريض الشهير حوالي مائة من الخبراء المصريين والفرنسيين برئاسة ليونيل بالو Lionel Balout مدير متحف الإنسان ومعاونته كوليت روبيه Colette Roubet [٥]. وقد استبعدوا بعض الأطباء أو بعض مدعي الطب وعدد غير قليل من المستنيرين الذين عرضوا خدماتهم. جرى استخدام التقنيات الأكثر حداثة: التنظر الباطني، وعلم الطّلع (دراسة العضويات الصغيرة في الرسوبيات)، والاكزوراديولجي،

4. Christiane Desroches-Noblecourt, *La Grande Nubiade...op. cit.*
5. *La Momie de Ramsés 11. Contribution scientifique à l''égyptologie*. Paris. CNRS. 1976-1977.

والكرومودينسيتوجارفي... قدم معمل تحقيق الشخصية القضائي مساهمته في هذا العمل. ومن خلال الفحوصات تم اكتشاف بأنه لرمسيس الثاني شخصية غير متوقعة: لقد أصيب هذا الرجل العجوز النحيف، قني الأنف، بالانحناء بسبب أمراض الروماتيزم: كان أعرجاً ويعاني من أخرجة في أسنانه. وذهل علماء المصريات حين اكتشفوا أنه كان أشقر الشعر، وهو لون كان يعتبر شيطانياً في ذلك العصر، الأمر الذي يمكن أن يفسر مجرى حياته غير العادي(٦)...

كان حوالي خمسة عشر معملاً فرنسياً تجري دراساتها على شظايا من المومياء للبحث عن الفطر القاتل. وتمكن أخصائي كيميائي من أصل مصري هو چان مشاقة من اكتشاف هذا العدو الذي يصعب شرحه: لكن كيف تتم معالجة المومياء لحمايتها بصفة حاسمة من هذا المرض؟ من المستبعد استخدام العلاج الكيميائي الذي يمكن أن تكون له آثار مدمرة. وفي المقابل يفرض العلاج بالأشعة نفسه، لكن العلماء لا يمكنهم المخاطرة بإعادة رمسيس إلى مصر بلا شعر مثلاً أو بلا أظافر. لجأوا إلى مومياء موضع تجارب. استجابت بصورة جيدة للتجارب التي أجراها مركز الدراسات الذرية في جرينوبل. لم يبق سوى ممارسة العملية مع تمني النجاح. إن إجراء هذه العملية من شأن مهندسي وكالة الطاقة الذرية في ساكلاي. وفي عشية إجراء العملية قام رئيس الجمهورية جيسكار ديستان برفقة زوجته بزيارة الفرعون متمنين له حظاً سعيداً.

نجحت العملية وشفي رمسيس الثانى من مرضه وعاد إلى متحف القاهرة يوم ١٠ مايو ١٩٧٧ . قام رجال الفراشة بمتحف اللوفر بتغطية المومياء بغطاء رائع من القطيفة الزرقاء مزيناً بنوعي النبات اللذين كانت مصر القديمة تعرفهما والمطرزين بالذهب. وأصبحت في انتظار الفرعون–الشمس حياة مديدة...

6. Christiane Desroches-Noblecourt, *Ramsés 11. La véritable histoire.* Paris. Pygmalion,,1996.

(٧)

ديجول يغير الوضع

أصبحت الجزائر مستقلة، وانتهى موضوع الدپلوماسيين المروّع. ولم يعد يوجد ما يمنع العلاقات المصرية- الفرنسية من التحسن. نرى ذلك في البداية في مؤشرات صغيرة مثل «الميثاق الوطني» للجمهورية العربية المتحدة الصادر في مايو ١٩٦٢. يوجه هذا الميثاق تحية غير متوقعة إلى حملة بوناپرت التي «جاءت معها بزاد جديد لطاقة الشعب الثورية في مصر في ذلك الوقت. جاءت ومعها لمحات عن العلوم الحديثة [...] كذلك جاءت معها بالأساتذة الكبار الذين قاموا بدراسة أحوال مصر والكشف عن أسرار تاريخها القديم.» وليس هذا بالأمر الهين.

وأخيراً أعيدت العلاقات الدپلوماسية في إبريل ١٩٦٣ بعد انقطاع دام ست سنين ونصف. كان أول سفراء لمصر في پاريس من العسكريين في انتظار عودة الدپلوماسيين المهنيين الذين يتحدثون الفرنسية وفقاً للعرف القديم. وفي عام ١٩٦٥ أصبحت اللغة الفرنسية لغة أجنبية أولى في المدارس المصرية العامة مثلها مثل الإنجليزية. وفي هذا العام ذاته استقبلت پاريس المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثاني في النظام: إنها أول زيارة رسمية يقوم بها رجل دولة مصري بمثل هذا المقام منذ ثمانية وثلاثين عاماً. وفي أثناء حفل الغذاء الذي أقيم تكريماً له بقصر الاليزيه ترافع الجنرال ديجول عن «العمل المشترك» بين «مصر الجديدة التي تستوعبها الجمهورية العربية المتحدة»، وبين «فرنسا الجديدة التي تقوم الجمهورية الفرنسية الرابعة بتحقيقها». لا بد أن تقوم بين بلدين جديدين علاقات جديدة. إن الغيوم تنتمي إلى الماضي. ومن القاهرة أفاد الرئيس عبد الناصر بإلغاء اتهامات التجسس والتآمر ضد الدپلوماسيين الفرنسيين الأربعة التي كان قد تم نسيانها...

وفي يوليو ١٩٦٦ حدث تقدم جديد: تم تسوية الخلاف المصري-الفرنسي بشأن الحقوق المالية. وعقد اتفاق شامل ينهي في آن واحد عواقب موضوع السويس وآثار

التأميمات التي جرت في مصر بعدها. اطمأن الفرنسيون أنه سيتم تعويضهم بصورة مناسبة ويمكنهم ترحيل أموالهم خلال أمد معقول.

عبد الناصر يدين بيتان

إن زعماء القاهرة لا يضعون فرنسا على نفس مستوى بريطانيا العظمي. فإنهم يرون أن الدولة الأخيرة ترتكب إثم تقديم المساعدات لجماعات المقاومة التابعة لنظام الإمام السابق في اليمن. هذا فضلاً عن انحيازها أكثر من اللازم إلى الولايات المتحدة في حين أن الجنرال ديجول يتميز بتأكيد اختلافه عن الكتلة الغربية. كان الخلاف الوحيد -وليس بالخلاف الهين- يتعلق بإسرائيل التي تتلقى أسلحة فرنسية وبخاصة الطائرات الأسرع من الصوت.

وفي ربيع عام ١٩٦٧ كان الفرنسيون يتابعون بانفعال واهتمام التهديدات بالحرب بين الدولة اليهودية وجيرانها العرب. كان غالبية الفرنسيين ينظرون إلى عبد الناصر الذي قرر حصار خليج العقبة باعتباره المعتدي. وكانت الأغلبية الكاسحة تقف إلى جانب إسرائيل حين أعلنت الحرب الخاطفة في يونيو. واستقبل الرأي العام الفرنسي انتصار قوات موشى ديان بالرضا والحماس. لا جدال أن العقل الباطني الجماعي أراد بهذه الطريقة نسيان المذلة التي عاني منها عام ١٩٥٦، وعانى منها بالأكثر أيضاً في الجزائر. كانت الصحف تنشر صور الجنود المصريين الأسرى أو الذين هربوا من ميدان القتال تاركين أحذيتهم في أرض المعركة. وبعد مضي ثلاثة شهور، وبينما لم يكن هناك ما يهدد الوجود الإسرائيلي لم تتغير مشاعر غالبية الفرنسيين. فقد أظهر استقصاء للرأي العام أجراه «المعهد الفرنسي للرأي العام» أن ٦٨٪ يؤيدون إسرائيل مقابل ٦٪ يقفون إلى جانب العرب.

وفي شهر ديسمبرنشرت جريدة «اكسبريس» وثيقة لم تساهم في تغيير هذا الاتجاه. كانت عبارة عن شهادة بدون توقيع بشأن اليهود المصريين الذين اعتقلوا بعد العدوان في سجن «أبو زعبل» بالقرب من القاهرة . إنها شهادة مرعبة تصف سوء المعاملة وبخاصة الجنسية التي عانى منها مواطنون بسطاء والتي كانت تحدث أحياناً أمام أسرهم. كانت عاراً علي مصر وكارثة بالنسبة لصورتها [١]. وأدى تكرار نفي السفير المصري لدى باريس لهذه الوقائع إلى اضطرار جريدة الاكسبريس إلى إفشاء اسم كاتب المقال وهو برتو فارحي الصحفي الموهوب المعروف جيداً في القاهرة...

1: L'article est reproduit en annexe dans *Histoire des juifs du Nil,* sous la direction de Jacques Hassoun, 2e éd., Paris, Minerve, 1990.

كان الجنرال ديجول قد نصح الزعماء الإسرائيليين بشدة بعدم شن الحرب. وقد استاء لأنهم لم يستمعوا إلى نصائحه، ولأنه كان مهتماً بأن يؤمّن لفرنسا مكانة جيدة في العالم العربي فقد أدان عدوان ٢١ يونيو. وفي الوقت الذي دعا فيه البلدان العربية إلى الاعتراف بوجود إسرائيل طلب من إسرائيل الجلاء عن الأراضي المحتلة. أدى هذا إلى حدوث جلبة حتى في داخل الأغلبية الديجولية. وفي يوم ٢٧ نوڤمبر أعاد رئيس الجمهورية الفرنسية الكرة خلال مؤتمر صحفي إذ وصف اليهود بأنهم «شعب نخبة واثق من نفسه يميل نحو الهيمنة». أثارت هذه الجملة القصيرة انفعالات شديدة في إسرائيل ولدى الجالية اليهودية في فرنسا، لكنها ولّدت شكراناً دائماً له في البلاد العربية وبخاصة في مصر. وأصبح ديجول بالنسبة لرجل الشارع في القاهره صديقاً بل أخاً وأكثر رؤساء الدول شهامة.

ووصف الرئيس عبد الناصر في خطابه أمام مجلس الأمة يوم ٢٠ يناير ١٩٦٩ الرئيس ديجول بأنه: «وطني عظيم ومن أكثر الأشخاص سمواً في عصرنا.»[٢] ولا تكتفي الصحافة بالترحيب بتصريحات ديجول غير المحبذة لإسرائيل: إنها تربط عن طيب خاطر بين الرئيس الفرنسي ورئيس المقاومة الفرنسية [أثناء الحرب العالمية الثانية][٣]. وقد تحدث «الريّس» ذاته عن ديجول باعتباره مثالاً وذلك من أجل شد أزر المصريين حتى لا يستغرقون في الانهزامية، وقال: «لقد قام ديجول بالمقاومة. أما بيتان فقد استسلم. وقد انتهى ديجول بإحراز النصر[٤]...»

كان يربط رئيسي الدولتين اهتمام مشترك بعدم الانحياز إلى إحدى الكتلتين الأمريكية أو السوڤييتية. إنهما يعتقدان بأن من مصلحتهما أن يتقاربا. فإذا كان ديجول يعتمد على القاهرة لكي تفتح له العالم العربي، فإن عبد الناصر مقتنع بأن إجراء تسوية متوازنة في الشرق الأدنى يستلزم إشراك فرنسا. وقد نصح القذافي رئيس ليبيا بالتقارب مع فرنسا. ومع ذلك لم تتمكن فرنسا من تلبية توقعات مصر إلا جزئياً، ولهذا احتفظ «الريّس» بعلاقات مع موسكو في الوقت الذي كان يرتاب فيه من الروس...

وتلقى الجنرال ديجول بمناسبة عيد ميلاده التاسع والسبعين في نوڤمبر ١٩٦٩ وبعد خروجه من الحكم رسالة حارة للغاية من عبد الناصر أعرب له فيها عن «تقدير واحترام مجموع شعب جمهورية مصر العربية». وفي العام التالي توفي الزعيم المصري دون أن

---

٢. خطاب الرئيس أمام مجلس الأمة يوم ٢٠ يناير ١٩٦٩.

3. Armand Pignol, De Gaulle et la politique de la France vue d'Égypte (1967-1970), Le Caire, CEDEJ, 1985.

٤. خطاب الرئيس أمام مؤتمر اتحاد الصحفيين العرب بالقاهرة يوم ١٥ فبراير ١٩٦٨.

يلتقي إطلاقاً بالجنرال ديجول. فهل كان يتمنى حدوث مثل هذا اللقاء؟ يقول چان لاكوتور عن الرئيس عبد الناصر: «لم يكن يعرف الكثير عن فرنسا...ربما مما كان يعزيه عن عدم الذهاب إلى باريس بنفسه أن اسمه كان يثير فيها أصداء عديدة حماسية ...لقد تعلم قراءة الفرنسية بصعوبة في سن متأخرة. ورغب في أن تكون اللغة الفرنسية من بين المواد التي تشملها مناهج أبنائه الدراسية. وإذا ما كان قد اغتبط بمقابلة سارتر عام ١٩٦٧، ومهتماً بمبادرات الدبلوماسية الديجولية تجاه العالم العربي إلا أن فرنسا كانت بالنسبة له بعيدة[٥]».

ولم يفت العديد من المصريين أن يقرنوا عبد الناصر بديجول اللذين توفيا بفاصل زمني ٤١ يوماً. وتقارن هدى عبد الناصر إحدي بنات الرئيس المصري بمرارة بين الرغبة في مسح ذكري والدها في مصر وبين الطريقة التي يحافظ بها الفرنسيون على ذكرى رئيسهم السابق[٦]. وتعمل هدى مدرسة للعلوم السياسية بجامعة القاهرة وأصبحت عضو مراسل في مصر لمؤسسة شارل ديجول.

رحلة چيسكار ديستان إلى مصر

لم يكن لچورج پومپدو شعبية على ضفاف وادي النيل مثل شعبية سابقه، لكن في عهده لم يتغير اتجاه العلاقات المصرية- الفرنسية مطلقاً. وحدثت التغيرات عند تولي چيسكار ديستان للحكم. يجب القول بأن الرئيس السادات يقوم بهدم كل البناء الناصري قطعة بعد أخرى بتحرير الاقتصاد وبإدارة ظهره للاتحاد السوفييتي بعزم وإقدام.

كانت زيارة السادات الرسمية لپاريس في يناير ١٩٧٥ أول زيارة يقوم بها رئيس دولة مصري منذ ما يقرب من نصف قرن، حتى وإن كانت تمت وهو في طريق عودته من واشنطن. لا يزال الرئيس المصري مكللاً بالحرب التي شنها -وانتصر فيها نصفياً- منذ عامين ضد إسرائيل. إنه يستعد لإعادة فتح قناة السويس إلى أن يمد يده إلى عدو الأمس بقيامه بزيارته التاريخية للكنيسيت.

وفي پاريس قام بالتسوُّق. وافقت فرنسا على أن تبيع له طائرات ميراچ ومعدات عسكرية أخرى مما قد يثير غضب إسرائيل. فقد كتبت صحف إسرائيل بأن «چيسكار قد ذهب إلى مدي أبعد من پومپيدو، بل وتجاوز حتى ديجول» إن التلاقي المصري- الفرنسي يتم باللغة الإنجليزية، مع استخدام بعض الجمل الفرنسية ، وهى اللغة التي أدخلتها مصر في

5. Jean Lacouture, *Nasser*, Paris, Seuil, 1971.
6. *Al Ahram Hebdo*, 25-31 décembre 1996.

مؤتمر السلام العربي- الإسرائيلي المنعقد في جنيف والتي يؤكد خليفة عبد الناصر بأنه يعرفها مما يثير ابتسامة خفيفة لدى المحيطين به. على أية حال إنه مجهود حميد: وحين استقبل ڤاليري چيسكار ديستان في القاهرة بعد مضي إحدى عشر عاماً أدلى السادات ثلث خطابه العام باللغة الفرنسية ذكر فيه شامپليون بل وأيضاً رامبو وشاتوبريان.

إن «ديستان» الذي كُتب اسمه على اللافتات المعلقة في الطريق إلى المطار هو أول رئيس أو ملك فرنسي يهبط أرض مصر . إن لويس التاسع هو الملك الوحيد الذي جاء إلى مصر قبله، لكن كان ذلك في ظل ظروف مختلفة تماماً! وخلال الشهور السابقة لزيارة ديستان قامت حوالي عشرين شركة فرنسية بفتح مكاتب تمثلها في القاهرة. لقد أصبحت فرنسا تحتل المركز الثالث كمورد تجاري لمصر بعد الولايات المتحدة والاتحاد السروڤييتي. وباعت فرنسا لمصر نظامها «سيكام»: هكذا تزامنت زيارة ڤاليري چيسكار ديستان مع الصور التلفزيونية الملونة الأولى في وادي النيل.

وبعد كارثة السويس بتسعة عشر عاماً لم يعد للثقافة الفرنسية التأثير ذاته في مصر. إن الجريدتين اليوميتين الباقيتين والناطقتين بالفرنسية هما «لو چورنال ديچيپت» و«لو پروجريه اچپسيان» وقد فقدتا جزءاً من جمهورهما الذي هاجر أثناء الناصرية. وإذا كان يوجد ٥٠ ألف تلميذ في المنشآت الدينية التعليمية أو في مدارس الليسيه حيث يحصلون على تعليم فرنسي-عربي فإن المستوى قد انخفض بصورة محسوسة. ومع ذلك يمكن ملاحظة أن جامعة الأزهر الإسلامية تستقبل الآن العديد من مدرسي اللغة الفرنسية كما أنها ترسل مدرسيها الخاصين إلى الدول البترولية لتعليم لغة ڤولتير.

ولا يعتزم الرئيس الفرنسي سوى التحليق بالطائرة فوق منطقة السويس التي لا تزال تعاني من صدمة الحرب العربية-الإسرائيلية الأخيرة. وفي النهاية استجاب إلى رغبة مضيفيه وقرر زيارة مدينة الإسماعيلية التي تهدمت جزئياً بسبب قذفها بالقنابل. واشتمل «إعلان الصداقة والتعاون» الذي تم توقيعه في نهاية الزيارة على العديد من المشروعات. قبلت فرنسا المشاركة في إنتاج الأسلحة محلياً مؤكدة بذلك أنها قررت أن تلعب أساساً بالورقة المصرية.

فرانسوا ميتران، مواطن أسواني

لم يرحب العرب بانتخاب فرانسوا ميتران في مايو ١٩٨١: يعتبر الرئيس الفرنسي الجديد صديقاً قديماً لإسرائيل. هل يتعرض كل ما تم عمله منذ ديجول - وبخاصة الاعتراف

«بحق تقرير المصير» للفلسطينيين- للخطر؟ كان فرانسوا ميتران قد وعد قبل انتخابه بزيارة إسرائيل. والواقع أن إسرائيل كانت أول بلد يستقبله في الشرق الأدنى بعد انتخابه بعشرة شهور. ولا يسترعي انتباه المصري العادي سوى هذه الزيارة، فهو لا يلتفت إلى خطابه أمام الكنيسيت الذي دافع فيه عن حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته. ومع ذلك وبسبب تأثير كلود شيسون وزير الخارجية ثم أحداث لبنان تقيد فرانسوا ميتران بمواقف سابقيه.

وحصلت مصر على رئيس جديد هو حسني مبارك الذى تولى السلطة بعد اغتيال السادات في أكتوبر ١٩٨١. ويبدو أن الرئيسين مبارك وميتران ينتميان إلى كوكبين مختلفين. فميتران الأديب الذي تغذى بالثقافة الكلاسيكية يبعد فراسخ عديدة عن مبارك الضابط الذي نشأ في الثكنات وفي الطائرات الحربية. ومع ذلك تولدت علاقات حارة بينهما، وذلك حتى منذ قبل وصول الرجلين إلى الحكم، وحينما كان أحدهما سكرتير أول الحزب الاشتراكي والآخر نائب رئيس الجمهورية. وقال الرئيس مبارك فيما بعد «كنت أضحكه» ، إذ يبدو أن ميتران كان يضحك كثيراً للفكاهات التي يرويها الرئيس مبارك عن رؤساء الدول(٧).

وفي عام ١٩٨٢ استقبل الرئيس الفرنسي في مصر بحرارة. كان البلدان وقتها مرتبطين باتفاقيات صناعية وتجارية وعسكرية عديدة. أصبحت فرنسا المورد الثاني لمصر بعد الولايات المتحدة. تضاعفت المبادلات خلال بضع سنوات وجرى تنفيذ مشروعات كبيرة مثل إصلاح ميناء دمياط، ومجمع السكر في كفر الشيخ، ومستشفى عين شمس الجديد والشق الأول من مترو القاهرة. وصارت مصر العميل الرئيسي لفرنسا في شراء الأسلحة. وبعد مضي شهر على هذه الزيارة الرسمية تم اتخاذ خطوة رمزية: انضمت مصر إلى وكالة التعاون الثقافي والفني، أي النادي الفرانكفوني.

إنه الرئيس مبارك الذي يفتتح مع جاك شيراك رئيس وزراء فرنسا الشق الأول من مترو القاهرة في سبتمبر ١٩٨٧. ويقوم جمهور متحمس بالهتاف للرجلين المفتونين واللذين يقطعان مسافة أربعة كيلومترات في حجرة القاطرة. إنها نهاية سعيدة لمشروع كان يثير خلال بضع سنوات سابقة قلقاً شديداً. كانت الخرائط المسلّمة للمهندسين الفرنسيين خاطئة... لم يكن من السهل الحفر في هذه المدينة التي تسودها الفوضى والمزدحمة بالشبكات المعقدة تحت الأرض. انفجرت أنابيب أثناء العمل مما تسبب في اجتياح المياه أو في قطع مياه الشرب عن جزء من العاصمة. ثارت الصحافة ضد المترو المتهم بأنه

---

7. Entretien avec Élisabeth Schemla. *L'Express,* 19 décembre 1996.

السبب في مصائب مدينة القاهرة. ومن أجل وقف هذه الحملة كان يلزم تدخل الرئيس مبارك بالحديث في التلفزيون وبزيارة موقع العمل بنفسه في عام ١٩٨٤...

تأخرت الأعمال مدة عامين وتكلفت أكثر بكثير من المتوقع. لكن النتيجة باهرة. ففي هذه المدينة المختنقة بمرور السيارات الصاخبة والملوثة، أصبح من الممكن الذهاب من ميدان التحرير إلى مصر القديمة خلال دقائق. إن العربات المجهزة بمراوح الهواء مستوحاة من مترو باريس: فهي تحمل اللونين الأزرق والأبيض ذاتهما، والمقاعد-القوقعة ذاتها حقق المترو «الفرنساوي» نجاحاً من جميع النواحي، ويعتبر نموذجاً للنظام والنظافة. يوجد رجال شرطة في جميع المحطات يقومون بفرض غرامة على من يلقي بأصغر ورقة على الأرض وهو أمر استثنائي في القاهرة. بالإضافة إلى أنهم يعملون كممرضين يهرعون لمساعدة كبار السن...وإذا كانوا يسمونه «مترو» وليس «صابواي» – يضعون حرف M في كل محطة– إلا أن العلامات الإرشادية مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية.

وتعوّد فرانسوا ميتران على الأقامة في صعيد مصر كل عام خلال فترة عيد الميلاد بصحبة بعض أصدقائه الشخصيين. إنه يحب ركوب فلوكة للنزهة في النيل. وفي أسوان –مكانه المفضل– يقيم في مقر الرئيس حسنى مبارك بالقرب من الخزان القديم أو في شقة خاصة محجوزة له بفندق كتاراكت القديم. إنه مفتون بالفراعنة، وتجتذبه الصحراء، لكن لا يبدو أنه مهتم بالفن الإسلامي. وفي يوم عيد الميلاد عام ١٩٨٧ هبط بالهليكوبتر فوق قمة جبل موسى في سيناء. ولم يفت حسني مبارك إطلاقاً القيام ببادرة ترحيب في كل زيارة. وكان أول من هنأ صديقه فرانسوا عند إعادة انتخابه في ٨ مايو ١٩٨٨ في الساعة الثامنة وخمس دقائق عن طريق محادثة تليفونية بقصر-شينون.

وكان المصريون يتأثرون ويشعرون ببعض الزهو لاهتمام فرانسوا ميتران ببلادهم. ومع ذلك فإن البعض ينتقدون انحيازه للأمريكيين أثناء الحرب ضد العراق عام ١٩٩١ . أن تكون حكومتهم قد اتخذت الموقف نفسه لا يغير من الأمر شيئاً. كانت فرنسا تنتظر بعد حرب الخليج حدوث نوع شبيه باتفاق يالتا في الشرق الأدنى، وبالتالي أرادت أن تحصل على مركز جيد. لكن آمالها تبددت إلى حد كبير. كانت عملية السلام عملية أمريكية: لقد واجهت سياسة ديجول العربية صعوبات في البقاء بعد زوال الاتحاد السوفييتي...

وكانت رحلة ميتران إلى أسوان في ديسمبر ١٩٩٥ هي رحلته الأخيرة إلى الخارج قبل وفاته ببضعة أيام. كانت ترافقه زوجته دانييل وابنته مازارين وطبيبه. وتبيّن الصور أنه كان واهناً للغاية، يرتكز على العصا، ويرتدي قبعة من الخوص موشحة بشريط أسود. وفي أحد الأيام باح إلى فرانز-أوليفييه چيسبير : «أريد أن أموت في أحد أجمل الأماكن في العالم،

في أسوان حيث تشعر بأنك كبير للغاية لأن السماء تخصك، أو في ڤينسيا حيث تشعر بقدر كبير من الصغر بل وبأنك مغمور[٨].» من زاوية ما توفي فرانسوا ميتران في أسوان.

شيراك رجل خارق (سوبرمان)

عند الاختيار بين چاك شيراك وليونيل چوسپان Lionel Jospin في مايو ١٩٩٥، أيد المصريون بلا تردد الأول الذي يعتبرونه كابن لشارل ديجول. إن عمدة پاريس معروف في العالم العربى ويعتبر صديقاً للعديد من زعمائه.

واستقبل انتخاب شيراك بالتهليل في مصر. قالوا إن أحداً غيره لا يمكنه الحلول بصورة ايجابية محل فرانسوا ميتران. وخلال الشهور التالية كانوا لا يفهمون لماذا ينتقد الفرنسيون رئيس الدولة الذين اختاروه. وحرصت مصر من ناحيتها على استنكار استئناف التجارب الذرية الفرنسية في الپاسيفيكى.

وكان الرئيس حسني مبارك هو أول رئيس دولة أجنبية يستقبله رئيس الجمهورية الفرنسية الجديد في قصر الإليزيه. وتم الرد على المجاملة في العام التالى بقيام شيراك بزيارة للقاهرة، وبهذه المناسبة تم إطلاق اسم شارل ديجول على أحد شوارع القاهرة. إن فرنسا ترغب في تبني سياسة بحر متوسطية كبيرة، ومن البديهي أن تكون مصر شريكاً أساسياً. وفيما يتعلق بالتعاون الاقتصادي والمالي بين البلدين فإنه لا يكف عن التقدم. لقد فازت فرنسا بعقود عديدة كبيرة مثل عقد التليفون المحمول أو مصنع الاسمنت بالسويس. توجد حوالي مائة مشروع من هذه المشروعات في السوق المصرية. وتقدم فرنسا إلى بلاد حسني مبارك مساعدة مالية قدرها ٥٠٠ مليون فرنك فرنسي بالاضافة إلى مساعدة غذائية تمثل ربع المساعدات المماثلة التي تقدمها فرنسا لبلدان العالم...

وفي يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٩٦ ظهر چاك شيراك على المسرح حقيقة، ولم يحدث ذلك في القاهرة بل في القدس. إن الرئيس الفرنسي الذي يزور المدينة القديمة والأماكن المقدسة قد اغتاظ من ضخامة عدد رجال الشرطة الإسرائيليين. ورفض بحزم دخول كنيسة القيامة إذ سبقه إلى الدخول رجال مسلحون. وعلى درجات سلّم الكنيسة أمسك جزء من ياقة رجل الشرطة الإسرائيلي الذي أراد أن يقف بينه وبين كبار رجال الدين الحاضرين. ثم صاح بغضب في وجه رئيس الأمن قائلاً باللغة الإنجليزية: «ماذا تريد؟ أتريد أن أركب الطائرة وأعود إلى فرنسا؟ كفى هذا. ليس هذا بأمن لكنه استفزاز».

8. Franz-Olivier Giesbert, *Le Vieil Homme et la Mort, Paris*, Gallimard, 1996.

وأدى غضب الرئيس الفرنسي إلى إلهاب حماس المصريين وباقي العالم العربي. كان هذا أفضل من مائة خطاب، وعرض التليفزيون المصري لقطات هذا المشهد مرات عديدة.

علاقة غير متوازنة إلى حد كبير

ومع ذلك لا يجب أن تنسينا الشراكة بين مصر وفرنسا التي بدأها الجنرال ديجول ونمت في عهود خلفائه، أن العلاقات بين البلدين تظل غير متوازنة إلى حد كبير. من الصحيح أن الأمر لم يعد يتعلق «بالعبقرية الفرنسية» ولا بمهمة فرنسا «التمدينية» في وادي النيل. لكن إذا ما كان عدد سكان مصر قد وصل إلى نفس عدد سكان فرنسا بل وحتى تجاوزه إلا أن الهوة الاقتصادية تظل ضخمة. إذ تشير إحصائيات البنك الدولي عام ١٩٩٥ إلى أن إجمالي الناتج الداخلي للمواطن يزيد في فرنسا ٣١,٦ مرة عنه في مصر. وحتي إذا ما قمنا بإجراء التصويبات المرتبطة بتكلفة المعيشة في كل من البلدين فإن النسبة تصبح ١ إلى ٥,٥. إن الظروف الصحية والغذائية والمادية شديدة الاختلاف تجعل متوسط العمر يصل إلى ٧٨ عاماً في فرنسا مقابل ٦٣ عاماً في مصر. ويوجد رقم آخر يظهر أكثر من أي رقم غيره التفاوت الشديد في العلاقات المتبادلة: يزيد عدد السائحين الفرنسيين الموجودين علي ضفاف النيل ٢٥٠ مرة عن عدد السائحين المصريين علي ضفاف نهر السين.

وتضاف إلى عدم التوازن هذا الاختلافات الثقافية التي ازدادت حدتها بسبب نمو التأسلم. ويدل موضوع الختان المؤلم وحده على بعد المسافة بين المجتمعين. لقد حاولت الحكومة المصرية جعل هذا السلوك غير قانوني لكن بلا جدوى. إنها عادة تنتمي إلى عصر آخر، وتستهدف منع متعة المرأة الجنسية، في حين أن فرنسا تعتبر الختان جريمة.

إن الاتصال بين الشعبين أكثر صعوبة مما قد يبدو في الظاهر، فالمصريون يصابون عادة بالانسحاق أمام البيئة المحيطة بهم: الثراء، والنظام، والمنطق، والموظفين الحازمين، والمروج الخضراء بصورة مطلقة، والبيوت المتحاذية بصورة واضحة...وفي مصر يحدث العكس فالفرنسيون يتوهمون أنهم يعيشون في بلادهم وبأنهم مفضلون على غيرهم من الغربيين. حتي أولئك الذي يعرفون اللغة العربية -بلكنة يسهل التعرف عليها- يقعون في الشرك بسبب رقّة المصريين الطبيعية وبفضل طابع الثقافة العربية الجازم: إنهم يأخذون الأمور باعتبارها أمراً مفروغاً منه في حين أنه ليس إلا «كلام»، ودون أن يدروا بأنهم في نظر المتحدثين إليهم يظلون أوروبيين وأجانب.

(٨)

نسمات عَطِرة من مصر

كم من الفرنسيين يعرفون المصريين المعاصرين؟ من هم أولئك الذين أثروا بطريقة أو أخرى فى رؤيتهم لمصر؟ إذا ما بحثنا جيداً لا نجد سوى ما يقرب من الاثنى عشر شخصاً مع احتساب رؤساء الدولة الأخيرين (فاروق، وعبد الناصر، والسادات، ومبارك)، وسكرتير عام الأمم المتحدة السابق بطرس بطرس غالي. وبعيداً عن السياسة يمكن عد الوجوه المألوفة على أصابع اليد الواحدة.

إن الكاتب الذي كان له أكبر التأثير على المغرمين بالأدب ليس مصرياً ولا فرنسياً لكنه بريطاني. منذ أربعين عاماً مضت لم يكن أحد يستطيع الحديث عن مدينة الإسكندرية دون أن يفكر فوراً فى لورانس داريل Lawrence Durell [شاعر وروائي بريطاني ١٩١٢-١٩٩٠]. «خمسة أجناس، وخمس لغات وحوالي عشر عقائد دينية؛ وخمسة أساطيل تتلاقي في مياه الميناء المخلوطة بالشحم، لكن يوجد أكثر من خمسة أنواع من الخصائص الجنسية التي يبدو أنه لا يمكن التمييز بينها إلا باللغة اليونانية الديموطية أي باللغة الشعبية.» إن سحر الروايات الأربع الشهيرة يجعل من المحتم إدراك هذه المدينة باعتبارها عالماً حيوياً وفاسداً ذا ألوان فاقعة وروائح نافذة تسوده المؤامرات والانحرافات.

كان هذا الروائي يلقَى المديح في بلاده، لكنه لقي تقريظاً أكبر في فرنسا التي عاش فيها منذ عام ١٩٥٧ حتى وفاته. لقد كتب الروايات الثلاث الأخيرة من رباعيته بقرية سوميير الفرنسية الواقعة عند سفح جبل سيڤين. ويؤكد البريطاني أنطوني بارجيس أن: «الفرنسيين يقدرون عمل داريل أكثر من البريطانيين لأنه يعبر عن الحساسية الأوروبية وبسبب ثراء أسلوبه الذي ينفِّر الإنجليز قليلاً[1].»

لقد أقام داريل في مصر من عام ١٩٤١ حتى ١٩٤٥، وكان موظفاً بريطانياً خامل

1. Anthony Burgess, «Lawrence Durell. La mort en son jardin», in *Paris-Match,* 22 novembre 1990.

الذكر في إدارات الاستعلامات. وكان يكفيه أربع سنوات لكي يغزو الإسكندرية ويحتويها. لكن أية إسكندرية؟ إن المفاجآت الأولى عند قراءته هي أنها عن سكان سابقين لهذه المدينة التي لا مثيل لها. إن الكاتب المصري إدوارد الخراط الذي ترتبط مؤلفاته بمدينة الإسكندرية يعترف بأن داريل قد كتب «عملاً رائعاً بديعاً وموجعاً»، لكن الأمر لا يتعلق إلا بأسطورة «من إنتاج الخيال». إن الإسكندرية كما يصفها قلم الكاتب البريطاني هي أساساً «وهماً غريباً»، وإعادة خلق للشرق وفقاً لما يتخيله الغربيون، فهي «عالم مسكون بمخلوقات غفيرة غريبة، يصعب إدراكه ويتأرجح بين العنف والعبودية والخضوع»(٢).

اكتشاف نجيب محفوظ

إن المؤلفيْن المصريين الذين يُقبل الفرنسيون على قرائتهما أكثر من غيرهما منذ الخمسينيات -ألبير قصيري وأندريه شديد- لا يعتبران مصريان يعيشان في مصر. ذلك لأنهما من أصل أجنبي، ولأنهما غادرا البلاد ولا يحرران مؤلفاتهما باللغة العربية.

لقد وصل ألبير قصيري إلى باريس عام ١٩٤٥، وكان في الثانية والثلاثين ويقيم منذ ذلك الوقت في غرفة بفندق بشارع السين. إنه لم يطلب الحصول على الجنسية الفرنسية علي الإطلاق. ويؤكد هذا الزاهد: «لست محتاجاً لأن أعيش في مصر، ولا لأن أكتب بالعربية، فإن مصر في داخلي وهي ذاكرتي(٣).» وفي عام ١٩٩٠ حصل على الجائزة الفرانكفونية الكبرى من الأكاديمية الفرنسية بسبب رواياته الست التي كتبها عن عامة الشعب بمدينة القاهرة. وأكثر هذه الروايات الشهرة اسمها «شحاذون ومتغطرسون» وقد أخرجتها اسما البكري كفيلم سينمائي.

وأقامت أندريه شديد في باريس منذ عام ١٩٤٦ منذ أن كانت في السادسة والعشرين. إنها تنتمي إلى أسرة مسيحية من أصل لبناني، وأجرت دراساتها في المدارس الفرنسية بالقاهرة ثم في الجامعة الأمريكية. وكتبت أشعارها الأولى بالإنجليزية، لكنها سرعان ما تبنت الفرنسية. وتسود مصر القديمة وريف مصر الحديثة أعمالها الوفيرة دقيقة الصياغة والتي يتجاور فيها الشعر مع القصص القصيرة والمسرحيات والروايات. إنها مصرية ولبنانية وفرنسية في آن واحد.-وهي أم المطرب لوي شديد- ولا تعرف الحدود بين البلدان. إذ تقول في أحد مصنفاتها الشعرية: «إنني أنتمي إلى بلد بلا علم وبلا حبال تربطك»(٤). وتتسم سيدة الأدب هذه بالتميز والفطنة وقد حصلت على جوائز عديدة.

2. Édouard al-Kharrat, revue *Méditerranéenne*, Paris, n^os^ 8-9, automne 1996.
3. Entretien avec Marie-José Hoyet, *Rive*, Paris, n^o^ 1, Décembre 1996.
4. Andrée Chedid, *Seul, Le visage*, Paris, Seuil,1960.

ومن بين الكتاب المصريين الذين ترجمت أعمالهم إلى الفرنسية قبل الثمانينيات يبرز اسمان: طه حسين وكتابه «الأيام»، وتوفيق الحكيم بكتابه الشيق «يوميات نائب في الأرياف». إن هذين العملين الكبيرين في الأدب العربي لم يلقيا مع ذلك سوى جمهوراً محدوداً في فرنسا لا يتماثل اطلاقاً مع أهمية هذين العملين على ضفاف النيل. والكاتب الثالث هو نجيب محفوظ الذي اجتذب العديد من القراء منذ حصوله على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٨٨. وكانت فرنسا هي أكثر البلدان التي بيعت فيها روايات نجيب محفوظ المترجمة(٥).

وتروي ثلاثية محفوظ الشهيرة تاريخ مصر عبر نصف قرن من خلال أسرة بورجوازية تعيش في حي شعبي بالقاهرة. شخصية الرواية الرئيسية هي أحمد عبد الجواد الأب المستبد في منزله الذي يتحول إلى رجل مرح ومتحدث بارع منذ أن يصبح في صحبة آخرين. وأصبح أحد أحفاده شيوعياً والآخر إسلامياً مما يظهر اضطرابات المجتمع المصري عشية الثورة.

وفي بداية السبعينيات بدأت دار نشر سندباد في فرنسا تنشر لنجيب محفوظ بمبادأة من بيير برنار. لكن جائزة نوبل وحدها هي التي منحته الشهرة. ليس من السهل ترجمة أعمال هذا الكاتب، الذي جدد الرواية العربية بسخريته وبقلبه للمعاني وبطريقته في التشتيت بين تركيب الجملة والسرد. إننا لا نجد دائماً نكهة الحديث المصري في النصوص المترجمة إلى الفرنسية، ولكن القراء الذين يعرفون اللغتين هم وحدهم الذين يمكنهم التحسر على عدم ترجمة هذه النكهة.

إن مؤلف قصة «ثرثرة فوق النيل» أصبح أكثر شعبية في فرنسا بعد محاولة الاغتيال الذي كان ضحية لها في القاهرة في أكتوبر ١٩٩٤. إن طعنات الخنجر التي وجهها أحد الإسلاميين إلى هذا السيد العجوز البالغ الثالثة والثمانين قد ذكّرت الناس بأنه كان فيما مضى قد اتهم بالتجديف لأنه أظهر في روايته «أولاد حارتنا» شخصيات من القرآن ومن التوراة. وفي فراشه بالمستشفى أظهر محفوظ– على كره تام من جانبه– أن مصر أصبحت دولة تمثل خطورة وحيث أقل محاولة لاغتيال أحد الأجانب تؤدي إلى انهيار عدد السواح على الفور...

وبدأت فرنسا تتعرف على جيل جديد من المؤلفين المصريين بفضل الترجمات. ومن بين هؤلاء المؤلفين الموهوبين جمال الغيطاني وصنع الله ابراهيم اللذان يجددان الرواية

---

5. Alexandre Buccianti, «Naguib Mahfouz dans ses quartiers, *Le Monde*, 10 novembre 1989.

العربية ولا يترددان في إلقاء نظرة لاذعة على المجتمع الذي يعيشان فيه. لكن جمهورهما في هذا الجانب من البحر المتوسط لا يزال ضعيفاً.

داليدا، ذهاب - إياب بين القاهرة وباريس

توجد مجموعة من الفنانين المولودين في مصر وهبطوا على باريس في الخمسينيات. ومن بينهم ريشارد أنطوني مغني الشباب الصاخب وكلود فرانسوا ابن أحد مهندسي قناة السويس الذي اكتشف الضيق والعوز في مونت كارلو بعد أن عرف بحبوحة العيش في القاهرة. وكان يجب مرور بعض الوقت وبأن يقوم بعدد لا بأس به من «الأعمال الصغيرة» قبل أن يصبح نجماً للأغنية. وكان كلود يثير معجبيه حين يحكي لهم عن طفولته في مصر.«حينما كنت غلاماً كنت أسبح سباحة سريعة عدة مرات في القناة التي تفصل إفريقيا عن آسيا...وحين نريد قليلاً من الملح نضع الماء في قصعة ونتركها في الشمس الحارقة. يتبخر الماء ثم نحصل على الملح البحري[٦]. ويروي أيضاً: «يالها من متعة أن تجلس بالطريقة العربية. إنني احتفظ بهذه الجلسة منذ طفولتي، فهي طريقة للاسترخاء وللراحة. هذه رياضة. وفي مدرسة الليسيه بالقاهرة كنت الأكثر سرعة وكدت أن أصبح بطل مصر في الجري لمسافة ١٥٠٠ متر لكنني انتهيت بأن أصبحت الثاني[٧].» وقد كرس لمصر إحدى أغنياته واسمها *Alexandrie, Alexandra* [اسكندرية، الكسندرا]. وهي أغنية من بين أغنياته العديدة التي قد تكون بعضها ألمانية أو مكسيكية.

أما جورج موستاكي فإنه لم يبرأ اطلاقاً من طفولته التي قضاها في الإسكندرية التي ولد بها عام ١٩٣٤. كان يوناني الجنسية وتلميذاً بالليسيه الفرنسية وهاجر إلى باريس في السابعة عشر من عمره حيث عمل في حانة ثم بائع كتب في البيوت ولاعب جيتار في شرفات المقاهي ومغنياً في الكباريهات. وحققت أغنيته «مستوطن في غير بلده» نجاحاً هائلاً، وكشفت عن شخصيته كفنان. إنه ملحن إذ قام بتلحين حوالي ٣٠٠ أغنية. إن موستاكي الذي لعب دوراً في فيلم «شحاذون ومتعجرون» المأخوذ عن رواية آلبير كامو قد روى بانفعال في كتاب أصدره عن عودته الأولى إلى الإسكندرية حيث بدا أن عدد الذين يعرفونه قليل[٨]...

لكنها داليدا هي التي أكثر من أي إنسان آخر جعلت الفرنسيين يتخيلون مصر الجامعة

---

6. Entretien avec léon Zitrone, *Jours de France*, 20 juin 1972.
7. *France-Soir*, 19 juillet 1977.
8. Georges Moustaki, *Filles de la mémoire*, Paris, Calmann-Lévy, 1989.

لأجناس مختلفة. إن سيرة حياتها تشبه حكاية مصورة. فهي ابنة لاعب أول للكمان بأوبرا القاهرة من أصل ايطالي. اسمها الأصلي يولندا چيجوليوتي Yolanda Gigoliotti وقد ولدت في حي شبرا الشعبي. هذه الفتاة التي كانت تعمل بمحل خياطة تنطبق عليها مقاييس النجمة السينمائية وتم انتخابها ملكة جمال مصر عام ١٩٥٤ بالرغم من حوَل في عينها يعود إلى طفولتها. بدأت حينذاك مهنتها كممثلة سينما متواضعة في فيلم مصري قليل القيمة فنياً اسمه «قناع توت عنخ آمون». لعبت دورها باسم «دليلة» مما يجعلنا نفكر في شمشون: حولت اسمها إلى داليدا وسافرت إلى باريس تلبية لنصيحة من مدير أعمال للفنانين غير محترف وهو كولونيل فرنسي على المعاش وقد طالبها فيما بعد بعشرين في المائة من أجورها لكن بلا جدوى(٩)...

وكانت بقية الحكاية المصورة هي انغلاق الأبواب في وجهها، ثم لقاءها المعجزة مع لوسيان موريس المدير الفني لإذاعة أوروبا ١، الذي افتتن بهذا الصوت الضعيف ذي اللكنة اللاتينية- الشرقية. يمكن لداليدا أن تنافس رينا كيتي أو جلوريا لاسو في الوقت الذي لا تقل فيه بشيء عن المغنيات الشهيرات والأكثر إثارة على الشاشة. وحين ارتدت البيكيني أثارت هرجاً. وعرف لوسيان موريس بمساعدة إدي باركلاي كيف يستغل أوراق مصر وإيطاليا الرابحة لكي يجعل من أغنية «بامبينو» نجاحاً ضخماً. وبعدها أغنية «جوندوليبه» [صاحب زورق البندقية] وألحان أخرى عديدة كانت تذاع على موجات الأثير بلا كلل. وقام أورلاندو أحد أشقاء داليدا بدوره بتأدية أغاني فرانكو-اچيسيان باعتبارها نسخة من أغنية «مصطفي» المعروفة وكان يتنافس مع بوب عزام وهو مهاجر آخر من مصر. إنهم يسبحون في خضم مياه النيل.

ومنذ عام ١٩٥٥ ظهرت صورة داليدا على غلاف مجلة «عالم السينما» الفرنسية *Cinémonde*. وقد تبنتها الصحافة الفرنسية التي تعتبرها «بريچيت باردو الغناء». وكانت أول سيدة تحصل على الأسطوانة الذهبية والأولى التي يكون لها ناد لمعجبيها. وقد وجهت إليها القليل من الانتقادات اللاذعة مثل «لقد فعل ناصر ما هوأسوأ من السويس، إذ أرسل إلينا داليدا»، وهي انتقادات يصعب سماعها وسط جوقة من التهليل. وقامت المهاجرة الصغيرة بالغناء في الجزائر للعسكريين الفرنسيين وأصبحت مراسلة لفرقة المظلات الثامنة عشرة، مما جعلها هدفاً للعنات النظام الناصري. وأدت رحلتها إلى إسرائيل بعدها بأربعة شهور إلى إتمام القطيعة معها.

---

9. Catherine Rihoit, Dalida: «Mon frère, tu écrirais mes Mémoires», Paris, Plon. 1995.

وأمكن لداليدا الشرقية أن تصبغ شعرها باللون الأشقر، إذ أن جمهورها يتقبل منها كل شيء. وأظهر استقصاء للرأي العام في عام ١٩٦٥ بأنها المغنية المفضلة لدى الفرنسيين. لكنها تغني أيضاً بلغات أخرى، وأصبح نجاحها عالمياً، وسجلت مبيعات اسطواناتها أرقاماً قياسية. وفي عام ١٩٨٨ صعد فرانسوا ميتران المرشح للرئاسة فوق مسرح الأوليمبيا لكي يقبلها وذلك قبل انتخابه ببضعة أسابيع. ودخلت الإيطالية المنتمية إلى مصر قصر الإليزية ودعت رئيس الجمهورية بكل بساطة لتناول العشاء بمنزلها بحي مونمارتر. وقامت فيما بعد بتصويب التزامها السياسي الواضح أكثر مما يجب بأن اكتسبت صداقة جاك شيراك أيضاً...

هل لا تزال داليدا مصرية في نظر الفرنسيين؟ على أية حال فقد عادت لتصبح مصرية في نظر المصريين. حققت حفلتها الغنائية الأولى في القاهرة عام ١٩٧٦ نجاحاً باهراً. ووعدت داليدا جمهورها بأنها ستغني بالعربية في المرة القادمة. أوفت بوعدها: فقد حققت أغنيتها «سالمة يا سلامة» نجاحاً ساحقاً لا في القاهرة فحسب بل في العديد من البلاد العربية. وقد ردد الإسرائيليون هذه الأغنية أثناء استقبالهم للرئيس السادات في مطار بن جوريون في نوفمبر ١٩٧٧!

وبعد مضي تسع سنين لعبت داليدا في مصر دوراً في فيلم «اليوم السادس» من إخراج يوسف شاهين والمأخوذ عن رواية لأندريه شديد. ارتدت زي الفلاحات الأسود وقامت بدور جدة تقع في الحب وسط انتشار وباء الكوليرا. وكان أحد أساتذة اللغة العربية يقوم قبل كل لقطة بجعلها تكرر إلقاءها بالعربية لكنه لم ينجح تماماً في تصويب لكنتها الأوروبية. واستقلت يولندا جيجوليوتي سيارة مكشوفة طافت بها في حي شبرا المولودة فيه. استقبلها جمهور غفير من السكان استقبال الملكات. وكان هذا هو آخر نجاح تشهده.

كانت تعيسة في الحب ولم يخفف إجهاضها المقصود في نهاية الستينيات من أحزانها. كانت فريسة للوحدة في ظل أكاليل الغار. توفيت منتحرة يوم ٣ مايو ١٩٨٧. كانت مكبرات الصوت تذيع أغانيها حول منزلها حيث هرع جمهور كبير دامع العيون. وقبل أن تبتلع يولندا القادمة من شبرا المنومات كتبت إلى جميع معجبيها «إن الحياة لا تطاق، سامحوني». هكذا تركت المسرح نهائيا وهي في الرابعة والخمسين من عمرها بعد أن باعت أكثر من مائة مليون اسطوانة. وأطلق اسمها على ميدان بحي مونمارتر. وفي الذكرى العاشرة لوفاتها، وبمناسبة ظهور اسطوانة تحمل أغانيها الرئيسية رأيناها تظهر بتسريحة شعر فرعونية على لافتات الإعلانات في المدن الفرنسية الرئيسية.

من عمر الشريف إلى أم كلثوم

في أحد الأيام قالت داليدا لعمر الشريف: «هل تعرف من أين يجيء كل منا!»، ومع ذلك فإن عمر الشريف عاش طفولة بورجوازية في الإسكندرية. اسمه الحقيقى ميشيل شهلوب وينتمي إلى أسرة روم-كاثوليك من أصل سوري. وقد درس بكلية ڤيكتوريا قبل أن يعمل كممثل هاوٍ في مسرح يقدم چان انوي Anouilh [مؤلف ومخرج فرنسى ١٩١٠-١٩٨٧] بالفرنسية. وفي عام ١٩٥٤ أسند إليه يوسف شاهين الدور الأول في فيلم «صراع فى الوادى». كانت بطلة الفيلم الممثلة الرائعة فاتن حمامة التي وقع الممثل في حبها. أصبح مسلماً ليتزوجها وتحول اسمه إلى عمر الشريف.

اكتشفه الفرنسيون بعد مضي عدة سنوات في فيلم «لورانس العرب» الذي دفعه بين النجوم العالميين في انتظار ظهوره في فيلم الدكتور زيڤاجو. يتمتع عمر الشريف ببنيان جسماني يتناسب مع جميع الأدوار مما سمح له بتمثيل شخصية البدوي بصورة جيدة مثلما يمثل دور أمير نمساوي في فيلم *Mayerling* أو زعيم ثوري في أمريكا الجنوبية (شي جيڤارا). ولم يؤد طلاقه من فاتن حمامه ولا مشاكله مع النظام الناصري إلى تغيير صورته. وبالنسبة للفرنسيين هو شخصية مألوفة، خفيف الظل، مهذب، يعشق الخيول، ويتردد على سباق الخيل في أوتوي ويكسب في الرهان المثلوث [الرهان على الخيول الثلاثة الأولى]. إنه لاعب بريدج ماهر يلعب مع مجموعات صديقة في أركان العالم الأربعة. وفي النهاية ينسون بأنه مصري.

ولا يوجد أي وجه للتشابه بين عمر الشريف وأم كلثوم، فهي فنانة بعيدة عن فرنسا التي لم ترها سوى مرة واحدة في نوڤمبر ١٩٦٧ بمسرح الأوليمپيا. وحين وصلت «العندليب العربي» و«كوكب الشرق» و«المغنية المدللة» من الخليج العربي إلى المحيط الأطلنطى إلى پاريس، أرسلت برقية إلى الجنرال ديجول حيث فيها عمله «من أجل العدل والسلام». ورد عليها قائلاً: «لقد أحسست في صوتك بنبضات قلبي وقلوب جميع الفرنسيين». إنه قول مبالغ فيه قليلاً فالجمهور الذي جاء إلى مسرح الأوليمپيا في تلك الليلة كان قادماً بخاصة من المغرب والشرق الأدنى. لقد جاء بعض المعجبين بالطائرات من بريطانيا وألمانيا. وحضر هذا الحفل غير المسبوق جميع السفراء العرب في پاريس.

وكشفت الصحافة والإذاعة والتلڤزيون أمام فرنسا المنذهلة عن هذه السيدة البالغة الستين من عمرها ذات عقيصة الشعر الأسود في مؤخر رأسها والتي يصف أحد المعجبين موهبتها بأنها تكمن في «تكرارها إلى ما لا نهاية للجمل ذاتها، بالنغمة ذاتها لكن ليس

بالطريقة ذاتها مطلقاً.» إنهم يشرحون بأن نبرات صوتها تشتمل على أربع طبقات مما يثير عواطف الجماهير. وكتب عنها اريك رولو الذي من أصل مصري في جريدة «لوموند»: «متصلبة، ونظرتها آمرة، تنتقل نغمات صوتها من طبقة إلى أخرى في تعاظم وشموخ، ويكمن سحرها في صوتها الرقيق ونطقها البلّوري. إنها لا تأسر المستمعين كلاً منهم على حدة. وينشأ حوار حميم وعاطفي وعاصف...ويثير الإيقاع بطريقة لا تقاوم تقلصات بدنية، ولا يتمكن بعض المفتونين الذين يبلغون قمة الإثارة من منع أنفسهم من مغادرة مقاعدهم للقيام ببعض الرقصات[١٠].» وفي نهاية الحفل وقف الجمهور وهو يصيح بحماس. «هرع بعض الشباب للإطاحة بقوات حفظ النظام وصعدوا إلى المسرح لكي يغمروا يديها وأهداب ثوبها بالقبلات». كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً.

شاهين يخرج فيلماً عن بونابرت

إن يوسف شاهين هو المخرج المصري الوحيد المعروف حقيقة في فرنسا. إنه يشعر في فرنسا كأنه في بلاده، بل وحتى سمح لنفسه في عام ١٩٩٢ بأن يخرج مسرحية «كاليجولا» [تأليف ألبير كامو عام ١٩٣٩] بمسرح الكوميدي فرانسيز... لكن كم كانت الجهود التي بذلها كبيرة لكي يصل إلى هذا المدى! إنه اسكندراني ويصف نفسه بأن «طول أنفه ستة أمتار، وأذنية تشبه شراع المركب» كان يوسف شاهين يرغب في أن يصبح ممثلاً لكنه سرعان ما اكتشف أن مكانه يقع على الجانب الآخر من آلة التصوير.

ينتمي يوسف شاهين إلى أب من أصل لبناني مذهبه روم-كاثوليك، ووالدته من أصل يوناني مذهبها روم-أرثوذكس، وزوجته فرنسية اسمها كوليت فاڤودون-Colette Favaudon وتنتمي إلى أسرة تقيم في مصر منذ ثلاثة أجيال: كان «چو» شاهين تلميذاً بالفرير، يعرف بالضرورة عدة لغات وهو أفضل ممثل لمدينة الإسكندرية متعددة الجنسيات فيما سبق. أخرج أول فيلم له حين كان في الرابعة والعشرين، ثم انتج أفلاماً عديدة: أفلام جيدة وأخرى أقل جودة وأفلام سيئة ومن بينها فيلم مشين للاستعمار، فقد أخرج فيلم «جميلة الجزائرية» (١٩٥٨) الذي استنكر فيه بشدة التعذيب الفرنسي في الجزائر، وأخرج فيلم «صلاح الدين» المعتبر بأنه إشادة بالرئيس عبد الناصر. ومع ذلك لم يفلت هذا السينمائي من مضايقات الرقابة مما أدى به إلى الذهاب للإقامة في لبنان. لكنه لا يستطيع البقاء بعيداً عن مصر فعاد إليها وأخرج فيلم «الأرض» (١٩٦٩)، عن الفلاحين الذي استرعى

10. *Le Monde,* 15 novembre 1967.

الانتباه في مهرجان كان، ثم فيلم «إسكندرية ليه» ؟ (١٩٧٨) المشحون بذكريات شخصية وإستحق عنه الحصول على الدب الفضي والجائزة الكبرى في مهرجان برلين[١١].

وحصل شاهين من جاك لانج وزير الثقافة الفرنسي على مساعدة مالية لإخراج فيلم طموح. إنه فيلم «وداعاً بونابرت» (١٩٨٥) أول انتاج مصري–فرنسي مشترك اشترك فيه ١٠ آلاف ممثل صامت جاء أغلبهم من الجيش المصري. وكان المقصود إظهار التصادم بين ثقافتين أكثر من عملية الغزو. وبدت مصر في هذا الفيلم أنها قد اعتدي عليها وتم تلقيحها من جانب الاستعمار الفرنسي الثوري[١٢]. ولم يكن بطل الفيلم بونابرت –الذي قلم بدوره پاتريس شيرو وظهر كشاب طموح صاحب ضمير متسامح–، بل كان البطل هو الچنرال كافيريللي الكسيح الذي جعل منه شاهين لواطياً يستميل المراهقين من الشباب المصري. وقام ميشيل پيكولي بدور هذه الشخصية الشاذة والذي قال له الشاب «علي» ساخراً «وداعاً بونابرت!»

وبالرغم من قسوة المخرج الشديدة ضد الاحتلال الفرنسي إلا أنه أراد توضيح وجه آخر للاستعمار يسمح بالتلاقي وبالتبادل وبالرغبة الجنسية بل وحتى بالحب. وقد رفض عمدة مدينة كان حضور عرض هذا الفيلم الذي اعتبره معادياً لفرنسا. وانقسم النقاد. كتب سيرج داني في جريدة «ليبراسيون» : «وداعاً بونابرت لا يشبه شيئاً، ولا يمكن أن يشابه شيئاً، لأن هذه اللوحة حميمية، وهذه الرؤية جدلية، وهذا الماخور منطقى[١٣].» أصاب هذا الفيلم الجمهور الفرنسي بالحيرة بسبب غموضه والحوارات الأدبية التي جعلت المشاهد يفقد معالمه. لا نستطيع القول بأنه فيلم ناجح. والفيلم التالي هو «المهاجر» (١٩٩٤) قام فيه ميشيل كولي بالدور الثاني وقد عرض في فرنسا ٢ خلال ساعة من الإنصات الشديد. وقد هاجم الإسلاميون فيلم «المهاجر» وتم منعه في مصر. ولكن شاهين انتصر بإخراجه لفيلم «المصير» (١٩٩٧) وهو فيلم رمزي عن الفيلسوف المسلم ابن رشد. وقد منحته لجنة تحكيم مهرجان كان الجائزة الخاصة بالعيد الخمسيني، وصفق له الجمهور وهم وقوف. وفي هذه المرة رسمه النقاد الفرنسيون نهائياً «كأفضل مخرج سينمائي مصري».

---

11. *Cahiers du chnéma,* n° spévial consacré à Youssef Chahine, octobre 1996.
12. Yves Thoraval, *Regards sur le cinéma égyptien,* L'Harmattan, 2e éd., 1996.
13. «Chahine, champagne d'Égypte», in *libération,* 17 mai 1985.

(٩)

بقايا من الفرانكفونية

تعاني مدينة هليوبوليس الساحرة القريبة من القاهرة من إتلاف حقيقي منذ الخمسينيات. إنهم لا يقومون ببناء أي شيء كان فحسب، وبأية طريقة كانت، لكنهم يشوهون أيضاً روائع معمارية بتزويدها بإضافات خرسانية. وقد أفلتت سينما نورماندي من هذا الانتهاك. فقد تم تجديدها حديثاً واستعادت نمطها الأصلي، بل وحتى اسمها الفرنسي. إن خطأها الوحيد هو خطأ إملائي: إذ أصبح اسمها Normandi [الاسم الصحيح: Normandy]. أن يحدث هذا في مدينة كانت إحدى قلاع الفرانكفونية في مصر، فهذا يقول الكثير بشأن حال الجماعة...هل يجب أن نضيف بأن شارع شارل ديجول بالقاهرة لا يحمل هذا الاسم إلا في جانب واحد منه هو الجانب الذي توجد فيه السفارة الفرنسية؟ إذ توجد قبالة السفارة لوحة معدنية معلقة على سور حديقة الحيوان كتب عليها «Charles de Gualle street» [الاسم الصحيح للزعيم الفرنسى الراحل هو de Gaulle وقد حرفته اللوحة إلي «ديجوال»]. وإذا ما أرجعنا ذلك إلى سهو بعض الموظفين ذوي المرتبات الضئيلة الذين لا يعرفون سوى الإنجليزية فهذا يعني أننا ندفن رؤوسنا في الرمال. فهذه الإهانة الموجهة إلى الجنرال ديجول توضح للأسف انهيار اللغة الفرنسية على ضفاف وادي النيل.

فهل مصر مؤهلة لكي تنضم في ديسمبر ١٩٨٣ إلى منظمة التعاون الثقافي والتقني، أي إلى الأسرة الفرانكفونية؟ لم يتم طرح هذا السؤال كثيراً. إن المنظمة تضم البلدان التي تستخدم اللغة الفرنسية بطريقة أو بأخرى. والبعض ليسوا فرانكفونيين إلا بالتعاطف أو للمصلحة.

ويشرح بطرس بطرس غالي معنى هذا الانضمام الذي كان أحد صانعيه الرئيسيين. من الصحيح أن مصر تتحدث العربية أولاً، ثم تتحدث الإنجليزية، ويجيء الحديث بالفرنسية

[أي الفرانكفونية] في المرتبة الثالثة. لكن إذا ما كان ٢ ٪ من السكان يتحدثون الفرنسية فهذا يعني أنهم أكثر من مليون شخص، وأن المطبوعات باللغة الفرنسية توزع أكثر من مثيلاتها في البلدان الإفريقية الأخرى. وفيما هو أبعد من الأرقام ومن العوامل التاريخية التي أدت إلى اختيار مصر للفرانكفونية، فإنه يرتكز أيضاً على اختيار ثقافي وسياسي. ثقافي أولاً «داخل النطاق الذي يمكن فيه تعريف الفرانكفونية باعتبارها ترابط منطقي للحزم، ووضوح في الفوارق الدقيقة، الأمر الذي يتوافق مع طابع مصرالبحر متوسطي». ثم اختيار سياسي «داخل النطاق الذي تستخدم فيه الفرانكفونية كجسر بين جنوب وشمال البحر المتوسط، وبين إفريقيا التي تتحدث العربية والفرنسية والبرتغالية، وبين العالمين العربي والإفريقي».

وفي الثمانينيات وصف الرجل الذي كان يقود الدبلوماسية المصرية وقتذاك اللغة الفرنسية بأنها «لغة غير منحازة» .ومنذ اختفاء الكتلتين، يحددها باعتبارها «لغة العالم الثالث»، القابلة لأن «تشجع على مقرطة العلاقات الدولية». إن حقيقة أنهم قد فكروا فيه قبل أي شخص آخر كأول سكرتير عام للفرانكفونية يدل على المكانة الممنوحة لمصر في هذا العالم الثقافي.

وينتمي بطرس (بيير) غالي إلى أسرة من أكثر أسر البورجوازية القبطية الكبيرة شهرة. فإن جده الذي يحمل الاسم ذاته كان رئيساً لوزراء مصر حين اغتاله أحد الإسلاميين في عام ١٩١٠. وكان عمه واصف بطرس غالي مثقفاً نابهاً متزوجاً من فرنسية وتولى وزارة الخارجية المصرية أربع مرات بعد تميزه بين صفوف الوطنيين. وقد رباه عمه في المدارس الفرنسية بالقاهرة، ثم درس العلوم السياسية في باريس حيث كان يسكن بشارع ڤوچيرار، وبعدها حصل على الدكتوراه في القانون الدولي. قام بتدريس العلوم السياسية في جامعة القاهرة لكنه تمسك بتقاليد أسرته واتجه نحو وزارة الخارجية المصرية. وقد جازف هذا الرجل الغني في شبابه بمستقبله حين تزوج يهودية من مدينة الإسكندرية، اسمها ليا هي الأخرى من أسرة مرموقة مثله...

ويؤكد بطرس غالي: «كانت مقابلتي مع أنور السادات هي أكبر تحول في حياتي. كان يدعوني «بطرس» حين يكون معتدل المزاج، و«بيير» حين يكون غاضباً أو عند حدوث تعثر في المفاوضات.[1]» وفي حين تقاعس آخرون كان بطرس غالي هو الذى رافق الرئيس المصري أثناء رحلته التاريخية إلى القدس عام ١٩٧٧. وقد أصبح بعدها قائد الدبلوماسية المصرية الحقيقي بالرغم من مركزه المذل كوزير دولة إلا أنه يبدو بأن القصد هو حمايته.

1. Entretien avec Josette Alia, *Le Nouvel Observateur*, 8 avril 1993.

وقد وضعت فرنسا كل ثقلها من أجل انتخابه سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة في عام ١٩٩١. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها عربي أو إفريقي هذه الوظيفة. وفي الأمم المتحدة انزعج بطرس غالي حين لاحظ أن ٣٨ وفداً فقط يعملون باللغة الفرنسية (مقابل ١٠٨ وفد يعملون بالإنجليزية) في حين أن اللغتين رسميتان. بل ويحدث أيضاً أن بعض الموظفين الفرنسيين يتراسلون فيما بينهم بالإنجليزية. ولكنه لا يملك وسيلة للاعتراض: «لا يستطيع سكرتير عام الأمم المتحدة القيام بدور شرطي لغوي(٢)».

وفي عام ١٩٩٦ صارعت فرنسا مرة أخرى من أجل تجديد تعيينه في الأمم المتحدة لكن بلا طائل، فواشنطن لا تريد أن تستمع إلى أي حديث عن «هذا العجوز الأرستقراطي الفرنسي» صاحب الأفكار الموالية للعالم الثالث والذي أظهر استقلاله عن الوصاية الأمريكية. وليس لبطرس غالى في بلاده سوي أصدقاء. إن البعض لا يغتفر له أن كان أحد صانعي السلام مع إسرائيل. واتهمه إسلاميون بأنه بدا «معادياً للمسلمين» في النزاع البوسني. وهم لا يهضمون أيضاً بأنه يمكن لقبطي أن يتولى مثل هذه الأعباء رفيعة المستوى.

إن بطرس غالي يجيد اللغات الثلاث تمام الإجادة، وهو أحد هؤلاء المصريين الذين يستطيعون تدريس اللغة الفرنسية في جامعة السوربون. ومن المؤسف أن عددهم يتضاءل عاماً بعد آخر. إنهم يشبهون الطيور النادرة.

المدارس الكاثوليكية تنقذ الموقف

في يونيو ١٩٨٩ وقعت أحداث هستيرية في قاعات الامتحانات أثناء امتحان اللغة الفرنسية (لغة أجنبية ثانية) في الثانوية العامة المصرية. كان التلاميذ غير قادرين على الإجابة على الأسئلة الموضوعة. وخرجت بعدها المظاهرات في مدن عديدة، واضطرت السلطات إلى الرأفة في التصحيح لتهدئة التلاميذ. هل كان الامتحان صعباً حقاً؟ على أية حال من المؤكد أن مستوى التلاميذ كان شديد الضعف.

واليوم يقوم ١٠٠ ألف صبي وفتاة بدراسة اللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى، كما يدرسها ٢ مليون كلغة أجنبية ثانية. ومن المبالغ فيه القول بأنهم يستطيعون القراءة والكتابة والإعراب عن أنفسهم بلغة موليير. إذ يتعلق الأمر بمعرفة سطحية أخذوها خلال عامين فقط عن معلمين هم أنفسهم لم يأخذوا قسطاً وافراً من تعلم اللغة. وتقوم الإدارات الثقافية

2. Entretien avec Marianne Payot, *lire*, avril 1992.

الفرنسية بتوزيع شرائط مسجّلة لدعم هؤلاء المعلمين وللتخفيف من قصورهم، لكن الأمر لا يزال بعيداً عن إمكانية تداركه.

أما مستوى الـ ٤٤ ألف تلميذ الملتحقين بالمدارس الفرنسية سابقاً والتي يتم التعليم فيها باللغة الفرنسية فإنه مختلف تماماً. لا تزال مدارس الليسيه تمارس أنشطتها بعد انقلابات وتغيرات متنوعة. فقد تم تأميمها عام ١٩٥٦ وسميت «مدارس الحرية»، وتحولت مدارس البعثة الفرنسية العلمانية إلى تعاونيات تحت إشراف وزارة التربية والتعليم. وتم إنشاء حوالى سبع مدارس جديدة منذ ذلك الحين يديرها مصريون. وإذا ما كان التعليم يتم فيها باللغة الفرنسية من الحضانة حتى الثانوية العامة إلا أنها تلتزم بالمناهج المصرية الرسمية. إن هذه المدارس ذات الجدران البالية ينقصها الكثير. ولا جدال بأن اختلاط الأمور يفسر جزئياً نزوح المدرسين المؤهلين عن مصر المتأثرة بنفوذ المتأسلمين.

وتظل المدارس الكاثوليكية هي عنصر الثقافة الفرنسية الأكثر نشاطاً في مصر. لقد تغير جمهور هذه المدارس كثيراً على مرّ السنين، كما ازداد عدد تلاميذها المسلمين. يستمر الأعيان المصريون في إرسال أبنائهم إليها بطيب خاطر. ففي خلال السنوات الأخيرة التحق ابن وزير التعليم مثلاً بمدارس الفرير. لكن في غالبية الحالات لا يتم اختيار هذه المدارس لأنها تعلم مختلف المواد باللغة الفرنسية، بل لأنها مدارس جيدة. إن نتائج تلاميذها في امتحان الثانوية العامة المصرية قد يتجاوز أحياناً ١٠٠٪ بفضل المواد الاختيارية.

لقد هبط مستوى اللغة الفرنسية خلال الأربعين عاماً الماضية. حدث هذا تدريجياً بسبب العجز في المدرسين المؤهلين ورحيل العديد ممن يتحدثون الفرنسية. في الواقع أن هبوط المستوى ملحوظ بالنسبة إلى جميع اللغات. ويعزون ذلك إلى المناهج المشحونة، وازدياد كثافة الفصول وإلى التليفزيون الذي يلهي التلاميذ عن الدراسة.

ويتحدث تلاميذ المدارس الدينية الفرنسية فيما بينهم باللغة العربية. لم يعد يوجد لديهم هذا الخليط من الحب والافتتان بفرنسا الذي كان موجوداً لدى الأكبر منهم سناً والذي كان يثير إعجاب باريس Barrès [كاتب وسياسي فرنسي ١٨٦٢-١٩٢٣]. ولا ينطبق هذا الأمر بالحدة ذاتها على طالبات الأقسام الداخلية في مدارس الراهبات. لقد بدأوا في مصر يتحدثون -أو يتحدثون من جديد- عن أن اللغة الفرنسية هي «لغة الفتيات»، فهل يجب توضيح بأن المصريات البالغات الخمسين أو الستين من العمر لا يقرأن كتب نجيب محفوظ إلا في نسخها المترجمة إلى الفرنسية؟

وتشهد القاهرة نوعاً جديداً من المدارس الخاصة. لقد اقتحمت هذه المدارس المسماة استثمارية الميدان مزودة بوسائل ضخمة مستهدفة الجمهور البورجوازي. وبما أنها حرة في

تحديد المصروفات الدراسية فهي لا تتردد في دفع أجور مرتفعة لمدرسيها مما يساعدها على تعيين مدرسين أكفاء. وفي عام ١٩٩٧ كان يوجد ثلاث مدارس من هذا النوع تتخذ اللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى، وكانت توجد مشروعات لإنشاء مدارس أخرى.

وتضم جامعة القاهرة أربعة أقسام فرنسية: قانون، إدارة وتجارة دولية، وعلوم طبيعية واتصالات. لكن هذا يشمل عدداً قليلاً من الأشخاص. إن أفضل الحاصلين على الثانوية العامة يتجهون إلى الجامعة الأمريكية التي تتفاخر بقوة في وسط المدينة قبالة مبنى معهد مصر العتيق الذي كان نابليون قد أنشأه والذي سقط عنه ملاطه...أما جامعة الإسكندرية الفرانكفونية التي افتتحت عام ١٩٩٠ وسط حفاوة كبيرة بمشاركة مالية من فرنسا وبلچيكا وكندا وبلاد أخرى فإنها خارج نطاق المسيرة. لا تضم أقسامها الأربعة (تغذية–صحة، وبيئة، وإدارة–مالية، وتراث ثقافي) سوى بضع عشرات من طلبة المرحلة التالية للبكالوريا يجيء أغلبهم من إفريقيا السوداء. وسرعان ما اطمأن الإسلاميون الذين كانوا قد استنكروا «هذا المنبر الذي ينشر الفكر والثقافة الفرنسية» وهذا الوكر «الذي يضم الكافرين والمبشرين»...

لغة بورجوازية تتجه نحو الأفول

تخصص فرنسا ٥٠ مليون فرنك سنوياً للتعاون الثقافي والفني مع مصر. وتضم كل دورة من دورات مركزها الثقافي في القاهرة ٢٠٠٠ طالب. لكن هذا كله لا يتشابه في شيء مع «باريس الصغيرة» التي كانت منذ عهد قريب. ويمكن إدراك ذلك من الصحافة الناطقة بالفرنسية في مصر. لقد صارعت جريدة «چورنال ديچيپت» ببسالة بلا معونة ثم توقفت بوفاة ليتا جلاد عام ١٩٩٤. ولم تبق سوى «الپروجريه اچبسيان» وهي جريدة عمرها مائة عام تحصل على معونة وجمهورها قليل للغاية ومضمونها هزيل إلى حد كبير. وفي عام ١٩٦٨ اختفت مجلة «ايماچ» الأسبوعية المصورة ولم تحل أخرى محلها.

وفي المقابل ظهرت مطبوعتان جديدتان: «ليچيپت أوچوردوي» L'Égypte au-jourd'hui وهي مجلة حسنة المظهر بالرغم من طابعها شبه الرسمي. أما فيما يتعلق بالجريدة اليومية الكبيرة الناطقة بالعربية «الأهرام» فقد أصدرت جريدة أسبوعية ناطقة بالفرنسية نابضة بالحياة ومتوطدة هي «الأهرام إبدو» Al Ahram Hebdo. ومن الأمور الغريبة أن يكون الكاتب محمد سلماوي رئيس تحرير هذه الجريدة الأسبوعية الفرنسية خريج كلية ڤيكتوريا وجامعة أكسفورد. وقد صرح بأن الجريدة توزع ١٠٠ ألف نسخة يباع

نصفها في الخارج. ويمكن تفسير هذا النجاح بأن سعر البيع منخفض واقبال جماهير عديدة على شرائها: خريجو المدارس الكاثوليكية أو مدارس الليسيه؛ وشباب من الأقاليم يتعلمون الفرنسية في مدارس نموذجية؛ ثم مثقفون يجدون فيها تحرراً في اللهجة أكثر من غيرها من المطبوعات.

ويؤكد محمد سلماوي بأن «الإنجليزية لغة، لكن الفرنسية في مصر هي أكثر قليلاً من لغة». ومع ذلك يصعب أن نرى بأن اللغة الفرنسية في مصر ضرورة اجتماعية مثلما كانت بالأمس. إنها بالأحرى لغة تمنح الهيبة، وفقاً لما أوضحه استقصاء أجري أخيراً. فقد سئل أحد الأشخاص في هذا الاستقصاء: «متى تتحدث الفرنسية ؟» فأدلى بهذه الإجابة ذات المغزى: «حين أريد أن أكون شخصية مرموقة»(٣).

كانت اللغة الفرنسية لغة بورجوازية والباقون يتحدثونها للضرورة. إنها لم تتغلغل إطلاقاً في الجماهير المصرية. لقد أراد العديد من الرحالة الفرنسيين في القرن الماضي إقناع انفسهم بالعكس، إذ خدعوا حين رطن بعض المتحدثين إليهم في الأرياف ببضع كلمات فرنسية ذكروا فيها اسم بونابرت. والجديد هو أن اللغة الفرنسية لم تعد بالضرورة لغة «النخبة» ذاتها. لقد كانت هي اللغة المهيمنة في ظل الاحتلال الإنجليزي -الأمر الذي كان غريباً- لكن بعد استقلال مصر حلت محلها اللغة الإنجليزية...«لغة الاستعمار»! لكن يجب القول بأنها اللغة الأمريكية، لأنه من البديهي أن الولايات المتحدة هي التي تفرض نموذجها الثقافي أكثر فأكثر على ضفاف النيل. كانت هذه الظاهرة واضحة في ظل الناصرية -التي كانت مع ذلك معادية للأمريكيين بشدة- ويتضح ذلك في دور السينما: فمنذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٦٨ استوردت مصر ٣ آلاف و٦٦٩ فيلماً أمريكياً (و٢٥٦ إنجليزياً) مقابل ٤٦١ فيلماً ايطالياً و٢٦٤ فرنسياً(٤).

هل مصر بلد فرانكفوني؟ إنها بالأحرى بلاد تتعرض فيها الفرانكفونية للخطر. كانت الفرنسية التي يتحدثونها في مصر عذبة ومثيرة للإعجاب وهي تخلي مكانها أكثر فأكثر إلى فرنسية مترددة ومتخمة بالأخطاء في تراكيب الجمل(٥). لم يعد الأمر يتعلق باستعارات عذبة تتخذ من اللغة العربية، لكنه يعطي الانطباع بأنهم يتحدثون اللغة العربية بالفرنسية.

---

3. Enquête coordonnée par Marie Franchs-Saad, *État de la francophonie dans le monde*. Paris, La Documentation Française, 1993.
4. Yves Thoraval , *Regards sur le cinéma égyptien*. Paris, L'Harmattan, 2e éd., 1996.
5. Jean-Jacques Luthi, Égypte, *qu' as-tu fait de ton français?*, Paris, Synonyme, 1987.

أساليب لوضع سياسة

في عهد الخديو إسماعيل كانت أوروبا هي مركز العالم، وكان من الممكن أن تبدو باريس بأنها منارة أوروبا. ومنذ الحرب العالمية الثانية لم تعد فرنسا سوى دولة متوسطة القوة، يجب عليها الدفاع عن نفوذها في مصر في مواجهة الولايات المتحدة. ويجب عليها أن تركز على مواطن قوتها، دون أن تقتصر على تدخلاتها «لدى المستويات العليا» وفقاً لعادتها القديمة. إن الوصول إلى الجماهير الشعبية يفترض وجوداً ثقافياً أقل «نخبوية» عن طريق استخدام الوسائل السمعية البصرية إلى أقصى حد: لا يمكننا مواجهة هوليوود ببعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تصل إلى جمهور محدود للغاية.

إن الأشخاص الأكثر شهرة والذين حظوا بأكبر الإعجاب في مصر خلال السنوات الأخيرة، هم ميشيل پلاتيني وجان-پول بلموندو ، وبريچيت باردو وداليدا. هل عرفنا كيف نجعل منهم سفراء؟ لا يمكن أن ترتكز شعبية إحدى البلدان على رئيس جمهوريتها وحده، حتى وإن كان يحظى باحترام مماثل للاحترام الذي يحظى به الجنرال ديجول...

ولا تمنع الثقافة الشعبية من العمل أكثر في مجال التعليم العالي. يجب أن نعرف أن مصر احتفظت بمأثور قانوني فرنسي، وأن هذا الأمر يهم الشرطة في المقام الأول، طالما أن ضباط الشرطة حريصون على الحصول على ليسانس في القانون. وحين تقدم فرنسا معلمين ومنحاً دراسية فإن مجهوداتها ستؤدي إلى نتائج متضاعفة: إذ يمكن للثقافة القانونية الفرنسية أن تنتشر في البلدان العربية الأخرى عن طريق مصر.

إن إقامة جامعة فرانكفونية في القاهرة وحده هو الذي يتيح مواجهة الجامعة الأمريكية على أن يتم تزويدها بأساتذة كبار مثلما كان الأمر منذ وقت قريب، وليس بأخصائيين معاونين فقط. هذا بشرط تزويدها أيضاً بالإمكانيات، فلا يمكن للفرانكفونية أن تدافع عن نفسها بأشياء تافهة.

إن توطيد اللغة الفرنسية في مصر يعني أولاً...التحدث بالفرنسية. ونحن نخطيء إذا ما اعتقدنا بأن هذا سيكدر المصريين. إنهم على العكس ينزعجون حين نحدثهم بلغة إنجليزية ركيكة. لقد قال أحد الأخصائيين المعاونين في الثمانينيات: «إنني أفضل الحديث إلى تلاميذي بالإنجليزية، لأنني أشعر حين اتحدث بالفرنسية أنني أمثل استعماراً جديداً. إن اللغة الإنجليزية لغة أكثر حيادية(٦)». لا جدال بأن هذا الأخصائي لم يفهم شيئاً.

---

6. Cité par Jean-Pierre Péroncel-Hugoz, «L'Égypte, bastion inconnu de la francophonie», *Le Monde*, 26-27 avril 1981.

إن الدفاع عن الفرانكفونية مرتبط بعمق بصورة فرنسا. ومن يقول فرنسا في مصر فهو يفكر في پاريس. ويقول الممثلون في حلقات الإعلانات بالتليڤزيون المصري «هذا من باريس» وذلك للإشادة بجودة المنتج المعلن عنه. إن المصريين يجهلون في غالبية الأحوال أن سيارات «البجو» [البيجو] الشهيرة التي تستخدمها أغلب التاكسيات في القاهرة بأنها سيارات فرنسية. وقد حدث منذ بضع سنوات أن تفننت شركة رينو الفرنسية في إعلاناتها لترويج سياراتها فأظهرت بأنها أنجلو-ساكسونية. وليست شركة رينو الوحيدة التي ارتكبت خطأ التأمرك. ففي مجال الفندقة لا يوجد ما يشبه فندق هيلتون أكثر من فندق الميريديان...لماذا تتم الإشارة إلى الأعمال الفرنسية الكبيرة في مصر بالانجليزية؟ فإذا لم نتخذ الإجراءات الكفيلة بتذكير القاهريين فإنهم سرعان ما سينسون أن مترو القاهرة أو تليفونهم المحمول اللذين يعتزون بهما يومياً هما إنجازات فرنسية.

(١٠)

زمان الغواصين

في عام ١٩٩٤ قدمت مصر إلى الفرنسيين فرصة جديدة لكي يستغرقوا في الأحلام وذلك بمناسبة الاكتشافات الجديدة في الإسكندرية. فهذه هي المرة الأولى التي لا ترتبط فيها آثار العصور القديمة برمال الصحراء: لكنهم سوف ينقبون الآن في البحر. وقد أذاعت جميع وسائل الإعلام هذه العملية التي أثارت ضجة.

بدأ الأمر كله في أوائل الستينيات حين صادف الغطّاس المصري كامل أبو السادات آثاراً عند مخرج الميناء، في حين أنه بعيد تماماً عن كونه أخصائي آثار. وقد انبهر بشدة بما اكتشفه مما جعله ينشر النبأ بحماس، فأرسلوا فريقاً إلى الموقع أمكنه استرداد تمثال ضخم لإيزيس من أعماق المياه. إن موقع الاكتشاف ليس تافهاً ولا عادياً: فعلى رأس جزيرة فاروس القديمة توجد إحدى عجائب العالم السبع وهي المنارة الشهيرة التي يبلغ ارتفاعها ١٢٠ متراً وكانت توجد على قمتها شعلة من نيران الخشب دائمة الاشتعال، ومن المعتقد أنها تداعت وتهدمت في القرن الرابع عشر بسبب زلزال أرضي.

ولم تقرر السلطات المصرية أن تطلب مساعدة اليونسكو إلا في عام ١٩٦٨. تم حينذاك تكليف عالم الآثار البريطاني أونور فروست Honor Frost برسم خرائط لهذه المواقع. وقد أنجز عملاً ضخماً بالتعاون مع الغطاس المصري بالرغم من الوسائل التقنية المحدودة للغاية. وقد توفي هذا الغطّاس بعدها ببضع سنين خلال مهمة تحت البحر عند أبو قير حيث كان يبحث عن كنوز سفينة «لوريان» L'Orient وهي سفينة أمير البحر للحملة الفرنسية. ثم توقف الحديث عن المنارة.

وفي عام ١٩٩٣ قرعت أسماء البكري المخرجة السينمائية المصرية ناقوس الخطر. إذ بينما كانت تجري أبحاثاً تمهيدية لعمل فيلم لصالح المتحف الإغريقي الروماني بالإسكندرية اكتشفت أن عمليات تشييد حاجز ضد العواصف ستؤدي إلى ردم الآثار تحت

كتل الخرسانة. ثارت عاصفة من الصخب. وطلبت الحكومة المصرية من عالم الآثار الفرنسي جان-ايف أمپيرور Empereur مؤسس مركز دراسات إسكندرانية بأن ينظم سريعاً إجراء حفريات في هذه المنطقة الواقعة شرقي قلعة قايتباي المملوكية القديمة.

إن أمپيرور رجل عاشق للإسكندرية لدرجة الجنون بها. فهو حائز على الدكتوراه في علم الآثار، وشهادة الأستاذية في الآداب القديمة، وبدأ على الفور في تنفيذ المهمة الموكولة إليه بمساعدة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (IFAO) بالقاهرة، وبمعونة مالية من مؤسستي «إلف» ELF و«أود» EDE. تم تشكيل فريق يضم عدة تخصصات من بينهم جغرافي وطبوغرافيين وأخصائيي آثار ورسامين وغطاسين محترفين مصريين وفرنسيين. وانتدب المعهد الفرنسي اثنين من علماء الآثار المصرية التابعين له هما چان- پيير كوتيچياني وچورچ سوكسيان اللذين تحولا هما أيضاً إلى غواصين.

وفي يوم ٤ أكتوبر ١٩٩٥ جاء وزير الثقافة المصري وبرفقته مجموعة من الشخصيات ومن العلماء إلى المرفأ لمشاهدة إخراج القطع الأولى من قبرها. الرياح تهب والبحر هائج. قارب إنزال علماء المصريات-الغواصين يتأرجح فوق الأمواج. مضت ساعة ونصف دون ظهور أية نتيجة. إن الرسميين الذين شعروا بالإرهاق ساروا بضع خطوات للجوء إلى مكان آمن. وفجأة صعد إلى السطح جسم من البلاستيك المنفوخ بالهواء المضغوط. ويروي وليم لوريش: «عاد الوزير ومرافقوه إلى الرصيف بتعجل شديد. ومع اهتزازات القارب كانت السلسلة ترتخي وتتصلب محدثة صريراً ينذر بالشؤم...كان الغطاسون يتبادلون الإشارات الآمرة فيما بينهم وأمكننا التعرف على أمپيرور بقناعه الأبيض وقفازاته وأنبوبته...تصلبت السلسلة. وبلغت رافعة الأثقال حدود قدراتها حين انزلقت حمولة الأحجار نحو السطح. لكن فجأة غطست مقدمة القارب في الماء، فارتخت السلسلة واختفت ظلال الكنوز الدفينة تحت الماء بعد أن لمحناها بالكاد. وبعدها برز جسم. ومن على الشاطيء لم ير الحاضرون في البداية سوى قطعة مبتورة: تبدو كأنها رقبة انفصلت عن رأسها. وسرعان ما تبين لنا نموذجاً مجسماً لأكتاف قوية محزومة بمجموعة من الأسلاك المربوطة بالسلسلة. انتشرت همهمة جديدة بين مجموعة الشاهدين تلتها علامات التعجب والدهشة حين ظهر صدر إلهة رائعة ترشح منه بالمياه، وسرعان ما طغت عواصف التصفيق[(١)]».

وأعقب صعود هذا التمثال النصفي النسائي من أعماق البحر صعود ثلاث وثلاثين قطعة أخرى: تماثيل لأبي الهول، وقطع من مسلات، وتماثيل، وأعمدة...وتخلت الحكومة

1. William Lerriche, Alexandrie, *septième merveille du monde,* avec des photos de Stéphane Compoint, Paris, Robert Laffont, 1996.

المصرية عن بناء الحاجز الخرساني وأعلنت أن الساحل بأكمله من الإسكندرية حتى الحدود الليبية منطقة أثرية. وفي يوم ٨ أبريل ١٩٩٦ تم سحب رأس ضخم لأحد البطالمة من تحت المياه بحضور چاك شيراك رئيس الجمهورية الفرنسية.

ويعتقد علماء المصريات-الغواصين على ضوء الدراسات الأولية أن تماثيل «أبو الهول» التي عثر عليها في قايتباي مأخوذة من هليوبوليس، وأعيد استخدامها لتزيين منشآت البطالمة في الإسكندرية. أما بالنسبة للتماثيل فهي أكثر حداثة إذ أمر الحكام البطالمة الأوائل بصنعها لتوضع على جوانب المنارة وفيما يتعلق بالمنارة ذاتها...فإن أمپيرور مقتنع بأن حوالي عشرين قطعة من الكتل الضخمة التي قام فريقه باستعادتها هي قطع من نوافذ وأبواب وأعمدة المنارة الشهيرة.

علماء مصريات من بين علماء مصريات آخرين

لا يوجد ما يزعج چان يويوت Jean Yoyotte أستاذ كرسي شامپليون بالكوليچ دي فرانس مثل الضجيج الذي يثيرونه جول الاكتشافات المصرية. فهو يؤكد بأن أهم هذه الاكتشافات ليست هي الأكثر إثارة. إن فك رموز نقش كتابي واحد على شظية إناء فخاري يمكن أن يفيد في تقدم العلم أكثر من الكشف عن عدد لا يحصى من تماثيل رمسيس. إن هذا العالم الكبير الذي قاد خلال سنوات عديدة البعثة الفرنسية للحفريات بتانيس [بالدلتا] لا يحتمل أيضاً التزمت الوطني [الشوفينية]. فإذا ما أخطأنا وقلنا أمامه بأن «المصريات علم فرنسي»، انفجر سارداً قائمة طويلة من الزملاء الأجانب، ثم يزمجر قائلاً: «لا يوجد لأي علم جواز سفر.»

وتحتل ألمانيا اليوم مكاناً عظيماً في المصريات. وهي مدينة في ذلك إلى مأثورها الجامعي والإمكانيات الكبيرة التي تكرسها لهذا القطاع وإلى تنظيم ممتاز. يقوم مركز وحيد هو معهد برلين للآثار بتنسيق جميع أبحاث علمائها في العالم. وتمتلك العديد من المنشآت كرسي أستاذية في المصريات، وتلقى المتاحف تعضيداً قوياً من الأفراد والمؤسسات الخاصة. وفي مواقع العمل يمارس الباحثون الألمان أفضل من أي باحثين آخرين استخدام فروع علمية عديدة. المطبوعات التي يصدرونها عديدة. ويؤكد يويوت «لم يعد من الممكن أن يكون الإنسان عالم مصريات دون أن يعرف اللغة الألمانية.»

وتمتلك بريطانيا إمكانيات أقل ، لكن يتم استخدام خبرائها في البحث كما في مواقع العمل بأقصى فاعلية. إن موطن القوة لدى الإنجليز يكمن في تعميمهم الممتاز ووضعهم

للمعلومات في متناول الجميع، ولا يمنع هذا من أنهم في الطليعة في بعض المجالات مثل مجال الآثار الحضرية. ويجب أن نأخذ الولايات المتحدة في الحسبان أيضاً حتى وإن كانت لم تبذل جهداً كبيراً في المصريات يتناسب مع قوتها. يمكن للولايات المتحدة أن تقوم بالنشر أكثر من ذلك لكن ما تعرضه يتصف بالجودة الممتازة. وتجري الأبحاث لديهم على أساس اللامركزية التامة. وتتنوع الإمكانيات وفقاً لكل جامعة وكل متحف إذ تعتمد الجامعات والمتاحف الأمريكية على رعاتها الذين يقومون بدعمها.

وإذا كان اليابانيون قد جاؤا إلى المصريات متأخرين فيمكن في الوقت الحالي أخذهم في الحسبان قليلاً ، ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الأستراليين والبلچيكيين والإيطاليين والپولنديين. أما فيما يتعلق بالمصريين فأمامهم طريق يجب أن يقطعوه، بالرغم من التقدم المستمر الذي أتاح لهم القيام باكتشافات كثيرة منذ أن أخذوا على عاتقهم موضوع تراثهم. إنهم يقومون بإدارة كنز ضخم وحيد من نوعه في العالم. وهذا ليس بالأمر السهل نفسياً. إن العصور المصرية القديمة ساحقة. ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نرسل لهم هذا الانطباع بمراءاة، مع احتفاظنا بسؤال واخز يطرحونه هم بأنفسهم على أنفسهم: حينما يكون لنا مثل هذا الماضي فهل من المسموح به ألا نكون متميزين؟

وتحتفظ فرنسا بمركز في المصريات تحسد عليه. فهي في المرتبة الثانية بعد ألمانيا فيما يتعلق بالإمكانيات المستخدمة. وتكمن قوتها في مؤسساتها التي أنشأها السابقون الكبار (شامپليون، وماسپيرو...) والتي قامت بتطويرها شخصيات كبيرة (مثل سيرج سونيرون Sauneron) وهي مستمرة في الاستمتاع بشهرة عالمية تستحقها.

وفي مصر ذاتها سيحتفل المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام ٢٠٠٠ بمرور مائة وعشرين عاماً على تأسيسة. إنه مستقر ومتوطد في قصر المنيرة السابق بمكتبته التي تضم أكثر من ٧٠ ألف مجلد ومطبعته الفاخرة. وقد أصدر أكثر من ٧٠٠ وثيقة منذ إنشائه. إن بيان مواقع العمل وبرامج الأبحاث –سواء بالنسبة لمصر الفرعونية أو الدراسات القبطية والعربية والإسلامية– التي يشرف عليها هذا المعهد يضمها كتاب من مائة صفحة ينشر سنوياً.

وفي پاريس تتابع الكوليچ دي فرنسا دروسها مرتفعة المستوى وحلقاتها الدراسية للباحثين المتعمقين، في حين تقوم المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بتعليم إجراء البحوث وتقود نحو الدكتوراه. وأخيراً توجد مدرسة متحف اللوڤر التي تعلّم وتعد من يمتهنون العمل في المتاحف إن جميع هذه المنشآت –بالإضافة إلى المراكز الموجودة في الأقاليم مثل معهد دراسة لغة مخطوطات البردي بمدينة ليل أو معهد ڤيكتور–لوريه

للمصريات بمدينة ليون- يمكنها الحصول على مساعدة المركز القومي للبحوث العلمية (CNRS) الذي يلعب دوراً أساسياً في علم المصريات[٢].

ويقدم معهد المصريات الطيبية (INET) مثالاً على التعاون بين عدة فروع علمية، وهو وحدة تقوم بالبحوث أنشئت فى متحف اللوڤر بالاشتراك مع المركز القومي للبحوث العلمية. وسمحت هذه المشاركة بتكوين إحدى فرق المصريات الأكثر أهمية في فرنسا، والتى تعمل في ثلاثة مواقع على الضفة اليسرى لمدينة طيبة مسجّلة باعتبارها تراث ثقافي عالمي. وقام المجلس الأعلى للآثار بمصر بتسليم هذه المواقع إلى هذا المعهد الفرنسى بلا منازع وهي: الرامسيوم المكرس لعبادة رمسيس الثاني ومساحته حوالي ١٢ فداناً ونصف. ثم قبر هذا الفرعون الذي لم يتم استكشافه بالكامل ويقع في وادى الملوك. والموقع الثالث هو وادي الملكات، وضيعة من عهد رمسيس، ودير قبطي[٣].

ويعمل الباحثون الفرنسيون بالتعاون مع فريق مصري، ويقضون أربعة شهور من كل عام على الضفة اليسرى لطيبة. ويمكنهم الاعتماد على مجموع إمكانيات متحف اللوڤر (مجموعات من التحف، ووثائق، وقاعدة البيانات، والمكتبة)، بل وأيضاً على الشبكة العلمية التابعة للمعهد الفرنسي للبحوث العلمية المنتشرة في جميع أنحاء فرنسا الأمر الذي يمنح «قوة ضاربة» كبيرة. ويتقاسم الباحثون إجراء الحفريات، والدراسة في المعمل، والمحاضرات، والمعارض، وتوجيه رسائل الدكتوراه، والمحافظة على الصروح والمواقع والتحف وترميمها، في الوقت الذي تستشيرهم فيه السلطات المصرية بشأن التخطيط لإقامة متاحف جديدة.

إن الرامسيوم [معبد رمسيس الثاني الجنائزى] هو الأكثر اكتمالاً من بين مجموعات الصروح التي لا تزال باقية من العصور المصرية القديمة. فإلى جانب المعبد المشيد بالحجر توجد ملحقات مبنية بالطوب النيء كانت تضم محلات وورش ومدرسة. ويحاول الباحثون المصريون والفرنسيون ليس فقط إعادة تكوين طرق المعيشة في طيبة الشرقية أثناء الإمبراطورية الجديدة في العهد القبطي، بل وإعادة رسم أدق تفاصيل الحقيقة التاريخية بشأن ساحة تعمير كبيرة في عهد رمسيس الثاني. وهذا يتطلب اللجوء إلى التقنيات الأكثر تعقيداً في علوم عديدة من غير إهمال للأساليب القديمة الجيدة للبحوث الأثرية.

فمن أجل دراسة الأساسات مثلاً، تم طلب معاونة معمل آليات التربة بمدرسة المناجم بمدينة نانسي. ومن أجل مكافحة تدهور الملاط، لجأوا إلى معمل علم التربة بجامعة

---

2. Dominique Valbelle, *L'Égyptologie*, Paris, PUF, coll.«Que sais-je?», 1991.
3. *Culture & Recherche*, musée du Louvre, nº 53. juillet 1995.

باريس ٧، وإلى المعمل المركزي للجسور والطرق. وتطلب تجديد مجموعات الطوب النيء التعاون مع أفضل فرق العالم في هذا المجال وهي فرق مدرسة الهندسة بمدينة جرينوبل. وأخيراً تم إسناد أعمال معالجة الرسوم الملونة على الجدران –ومن بينها معركة قاديش الشهيرة– إلى مركز تجديد ومعالجة الأعمال الفنية بمدينة أڤينيون.

ويميل علم الآثار المصرية إلى نسيان الأعمال التي تم إنجازها في العصرين القبطي والإسلامي الأكثر حداثة. إنه يحجب أيضاً الأبحاث الجارية عن المجتمع المصري في أيامنا الأمر الذي يمثل أكثر الأعمال الفرنسية إثارة للاهتمام على ضفاف النيل. إذ يكرس «السيديج» CEDEJ (مركز الدراسات والتوثيق الاقتصادي والقانوني والاجتماعي) – وهو مركز نموذجي– أعماله منذ عام ١٩٩٠ لإجراء أبحاث عن مصر والسودان والشرق الأدنى. وقد عرف كيف يندمج مع الطبيعة المحلية ويصبح مقبولاً. إذ يقوم بتنظيم ندوات باللغة العربية في مقاره مع الباحثين المصريين، الذين لم يدرسوا المؤلفين الفرنسيين إلا من خلال أعمالهم المترجمة. وفي يوم أول نوڤمبر ١٩٩٦ اختارت هدى عبد الناصر يوم «الأبواب المفتوحة» بالسيديج لكي تعلن إنشاء مؤسسة لتخليد ذكرى والدها...وتتناول الأبحاث موضوعات متنوعة للغاية مثل إعادة أسلمة مصر، والسياحة في وادي النيل، وتنظيم المياه في الدلتا، وعمل الأطفال، والجالية الأرمنية في مصر قبل العهد العثماني، أو رحلة الجمال وحيدة السنم القادمة من السودان. ويتم هذا بلا ضجيج مع أخذ مناخ العلاقات المصرية–الفرنسية الجديد في الحسبان. إن العصر الراهن لا يحتمل الصخب وصياح الديوك. يجب أن تعرف كيف تكون كتوماً بل وألا تبرز في بعض الأحيان. فهل يجوز لنا القول بأن زمان الغواصين قد أقبل.

الراهبة إيمانويل تقيم في كوخ للماعز

ويسري هذا الكتمان على جميع المجالات: علمية وتعليمية، واجتماعية. لكن ما القول بشأن الأخت الراهبة إيمانويل، هذه الفرنسية التي احتل اسمها الأنباء حتى تقاعدها في عام ١٩٩٣؟ من الصحيح أن إقامتها خلال ثماني وعشرين عاماً سابقة بين الزبالين في القاهرة تمت بلا ضجيج (يقيم جامعو القمامة هؤلاء وسط القمامة التي يجمعونها ويفرزونها ويعيدون بيعها). كانت هذه الراهبة المعارضة لكاتدرائية نوتردام، في الستينات من عمرها حين تركت ديرها لكي تعيش في كوخ ماعز مساحته أربعة أمتار مربعة، يقع «في حي حيث كل شيء فيه قذر، حتى الماء الذي يغتسلون به[٤]» كان هدفها الوحيد هو مشاركة هؤلاء المحرومين في حياتهم ومساعدتهم على الخروج من البؤس.

---

4. Soeur Emmanuelle, *Entretiens avec Marlène Tuininga*, Paris, Flammarion,1995.

لم يكن ممكناً أن تسمح لنفسها بالتبشير. ومن جهة أخرى كان هذا الحي المبني بأكواخ الصفيح يسكنه مسيحيون أقباط. وفيما بعد قالت هذه الفتاة المنتمية لأسرة بورجوازية بشمال فرنسا وقامت بتربيتها مربية إنجليزية: «إن هؤلاء الفقراء واللصوص ومدخني الحشيش والمشاغبين بدوا لي في بساطتهم أنهم أكثر قرباً إلي الله من غالبية «الشرفاء» والأمناء الذي قابلتهم حتى ذلك الوقت. لقد أصبح إخوتي وأخواتي الزبالين في عزبة النخل أساتذتي في الدين.[٥]»

وحصلت الأخت إيمانويل على الشهرة حين سعت إلى إثارة تعاطف البورجوازية المحلية مع عالم الزبالين وإلى إنشاء شبكة تضامن في الخارج. فمنذ ذلك الحين لم تتخل عنها أجهزة الإعلام. بل وحتي أحبت هذا المنبر الذي أتاح لصوتها أن يكون مسموعاً في أماكن بعيدة جداً، مع احتمال إزعاج الجمعيات المسيحية المحلية التي ليس من حقها التصوير ويحذرونه في بلاد لا يجب أن يهيمن فيها غير صوت المؤذنين.

إنها حرم الرئيس السادات التي جاءت شخصياً في عام ١٩٨٠ لافتتاح مركز السلام الاجتماعي في مدينة الصفيح التي تعيش فيها الأخت إيمانويل. ومن بروكسل حقق لها الكاثوليكي چاك ديلور رئيس اللجنة الأوروبية تعضيداً عاماً. وبالرغم من أن زوجة رئيس جمهورية فرنسا دانييل ميتران «علمانية ضارية» إلا أنها لم تتوان عن إعلان إعجابها بهذه الراهبة ووصفتها بأنها «رمز لجميع أولئك الذين يحبون الإنسانية ويرفضون الظلم الواقع على المحرومين». وقد افتتن بها برنار كوشنر الذي قابلها عام ١٩٨٥ في السودان في خضم مجاعة هناك: « إنها تهزك وترهقك بصفة دائمة! لكنها كم تكون رائعة الجمال حين تنحني على الأطفال بخمارها الصغير الموضوع فوق كتفيها وبأحذيتها القديمة المصنوعة من القماش وبالنظارات التي فوق عينيها[٦] !»

وقد اجتذبت الأخت إيمانويل العديد من المتطوعين في مصر وأموال غير قليلة. وعند رحيلها وضعت قائمة مدهشة بنتائج عملها: ثلاثة دور حضانة للأطفال، وثلاث مدارس، ودار توليد، ومركزان لحماية الأمومة والطفولة، وأربعة مستوصفات، ودار لكبار السن، وثلاثة دور للخياطة، ومصنع سماد وآخر للسجاد...ومهما كان رأينا في أسلوبها وفي عملها، فيجب أن نسجل بأن هذه الراهبة الزبّالة كانت الوحيدة خلال عشرين عاماً التي استطاعت إثارة تعاطف ملايين الفرنسيين مع فقراء القاهرة.

---

5. Id., *Jésus tel que je le connais,* Paris, Desclée de Brouwer-Flammarion, 1996.
6. *Le Monde,* 21 décembre 1995.

(١١)

الهوس بمصر

تجتذب مصر الفرنسيين إلى حد أنهم يتزاحمون لمشاهدة غرامهم. فقد استقبل معرض «الهوس بمصر» الذي أقيم عام ١٩٩٤ بمتحف اللوفر أكثر من ٢٠٤ ألف زائر دفعوا ثمن تذاكر دخولهم...لكن لا يجب تكريس كائناً ما كان بأنه هوس بمصر. فالهوس بمصر هو حب مصر، كما أن الغرام بمصر هو أيضاً حب مصر، وليس الهوس بمصر بالضرورة نوعاً من «الجنون» الناتج عن حالة مرضية.

ويعتبر استثمار هذه البلاد لأغراض فنية وتجارية أو خفية شيئاً آخر. إن الهوس بمصر -بحصر المعنى - يفترض إدخال تعديلات في الأشكال والنماذج المصرية وتكييفها لتتلاءم مع ذوق العصر أو تغيير وظيفتها الأصلية: ويدخل في نطاق هذا المعنى صنع تمثال لأبي الهول ثم تلبيسه زياً غريباً كغطاء رأس فرعوني، أو تزويده بصدر امرأة، وذلك مثل تمثال نفرتيتي الذي تحول إلى نافورة مياه أو براية قلم. لقد أصبحت هذه الظاهرة متسعة النطاق إلى حد أصبحت معه تتخذ مناهج علمية.

والهوس بمصر ليس جديداً ولا خاصاً بفرنسا. فقد لاحظ چان-مارسيل أومبير Jean-Marcel Humbert أحد أفضل الخبراء أن «مصر ذاتها قد استسلمت لهذا الهوس[١]». فضلاً عن أن مظاهره الأكثر إفراطاً تبدت في عصور أخرى وتحت سماوات أخرى. إن روما القديمة لم تنتزع مسلات من وادي النيل فحسب، بل قامت بتبني معتقدات وصروح مصرية بعد أن أدخلت تعديلات عليها. أما بالنسبة للأمريكيين فقد وجدوا الوسيلة في عام ١٩٩٣ لبناء فندق-كازينو في لاس ڤيجاس، عبارة عن هرم من ثلاثين دور مزود بتمثال «لأبي الهول» أكبر من تمثال الجيزة وتصدر من عينيه إشعاعات من الليزر...

---

1. Jean-Marcel Humbert, «L'égyptomanie: actualité d'un concept de la Renaissance au post-modernisme», in *Égyptomania. L'Égypte dans l'art occidental, 1730-1930.* Paris, musée du louvre, 1994.

وبالرغم من أن الهرم المشيد بمتحف اللوڤر أصغر حجماً إلا أنه آثار ضجيجاً أكبر. فأمام هذا الهرم نجد أنفسنا في مواجهة حالة بلغت أقصى مدى، إذ نرى شكلاً منتمياً للعصور القديمة يصدمنا بعصريته الشديدة. وفي عام ١٩٨٥ ثار في فرنسا جدل غاضب حول أن هذه التحفة المستقبلية المنتمية «إلى الطابع الفرعوني لنظام حكم بحر متوسطي» تمثل تهديداً بإتلاف تحفة رائعة منتمية لعصر النهضة الأوروبية [متحف اللوڤر ذاته].

ولم يتوان المعارضون عن استنكار الهوس بمصر: لقد وجد أن الهرم نفسه قد تحول عن وظيفته الأصلية -من صرح جنائزي إلى مدخل لمتحف- بل وانقلبت رمزيته إلى العكس تماماً. فقد جعلوه يتحول من العتامة إلى الشفافية، ومن الكتلة إلى الخفة، ومن الامتلاء إلى الفراغ. وفقد وجهه الخامس المتجه نحو الأرض الذي كان هاماً للغاية لدى الفراعنة. لم يعد سوى بئر من الضوء خالٍ من الغموض. فهو مناقض للهرم من جميع الوجوه. وقد دافع المهندس المعماري ايوه مينج بي Ieoh Ming Pie -أمريكي من أصل صيني- عن نفسه بأن اعترف من الإرث المصري، مشيراً إلى أن هذا الشكل أصبح عالمياً...

وخمدت المجادلات بمجرد سقوط أشعة الشمس الأولى على القمة الزجاجية. وتم قبول التحفة التي أصبحت باريسية، وانتهت إلى أن أحداً لا يفطن إليها تقريباً. كان يوجد لدى باريس مسلّة مزروعة وسط السيارات. وقد ربحت هرماً شفافاً إلى أن تحصل ربما على «أبو هول» الكتروني أو افتراضي... هكذا يسير الهوس بمصر.

ويقول چان-مارسيل أومبير: «إذا كان الهوس بمصر قد حقق هذا النجاح الكبير، فذلك لأنه يمكنه التعبير عن ذاته جيداً في المغالاة المعمارية، مثلما في أصغر الأشياء، وفي الكماليات الصارخة كما في أية بضاعة زهيدة القيمة، ذلك دون أن يفقد قوته الإيحائية. لكنها بخاصة قدرته العجيبة على التكيف هي التي تساعده على مقاومة تقلبات الأذواق، وتفسر دوامه، وتحقق أفضل فرصة مواتية له من أجل البقاء[٢]».

الإعلان، والسينما، والرسوم المتحركة

ينغمس الفرنسيون في الهوس بمصر منذ طفولتهم. ولا ريب أنهم يفعلون ذلك أكثر من الغربيين الآخرين بصفة عامة، بسبب ارتباطات بلادهم الخاصة بمصر منذ قرنين من الزمان. وليست صدفة أن عشرات الحانات (التي تبيع التبغ أيضاً) تسمى «الخديو»...ويظهر

---

2. Id., *L'Égyptomanie dans l'art occidental,* Paris, ACR, 1989.

هذا الهوس بمصر كما كان يحدث قديماً من خلال الرسم، والمعمار، والنحت، والزخرفة الداخلية، أو الموسيقى، لكنه أصبح أكثر تعاظماً بفضل وسائل الاتصال الحديثة.

ولم يستطع تجار الأحلام تجاهل موضوع مملوء بالثمار مثل مصر. إنهم يستخدمونه ويستغلونه منذ أمد طويل. ففي عام ١٨٨٠ طرحت شركة پورتلاند للسماد منتجات تحمل اسم «أبو الهول»، و«أبو الهول سوبر». وبعد مضي عشرين عاماً أتاح هذا الحيوان ذاته -الذي يحمل رأس إنسان- لماكينة سنجر للخياطة غزو الأسواق. الواقع أن مصر الفرعونية تعبر عن المتانة وهي أحد الموضوعات التي يشتهيها المعلنون.

إنها لا تعبر عن المتانة فحسب بل وحتى عن الخلود، بل وأيضاً عن الغنى، والجمال، والشرود. إن صابونة كليوباترة التي ينتجها كولجيت-پالموليڤ توحي بالمرأة الشرقية الخبيرة بالعناية بالجسد، التي تمتلك العطور والسحور الخفية اللاتي يتخيلنها متمددة باسترخاء في حوض من الرخام. وقامت اعلانات التلفزيون بتعظيم شأن «المرأة الخالدة» التي تستخدم الصابونة الجديدة «الدهنية كالقشدة، والشهوانية كالعطر» التي «يمكن أن تغير وجه العالم». وتقول كلود-فرانسواز برونون الأستاذة بجامعة مونبلييه أن الحملات التجارية التي تستخدم مصر لا تتوجه إلى المستهلكين النمطيين، والمقترين، والمسمّرين في بيوتهم: «لا يمكن المزج بين كليوباترة والراهبة الأم دينيس بأية طريقة كانت[٣]». لا جدال بأن مصر المتلونة تتلاءم مع كل شيء: ففي عام ١٩٨٦ ابتكرت سلسلة محلات دارتي «نفرت پري» «Néfertiprix» لكي تبرز رخص أسعار منتجاتها....

وربطت سجاير «كامل» Camel اسمها بمصر، باستخدام علبة بلون الصحراء مما يجعل المرء يتخيل البدو. وقامت سجاير جولواز Gauloises بمحاكاتها. واستخدم أحد الجواهرجية الهرم «المسنون كالماسة» لكي يفخّم من منتجه «الخالد». وأتاحت مصر القديمة أيضاً للمجلة السينمائية «ستوديو» Studio بأن تشتهر بفضل مومياء من نوع خاص: ففي الخمسينيات برزت فتاة الغلاف من شرائط فيلم سينمائي بدلاً من شرائط قماط مومياء[٤].

ومنذ أن ولدت السينما (المسماة بالفن السابع) وقعت في غرام مصر من الوهلة الأولى. وتم إخراج ٤٠ فيلماً خلال عشرين عاماً: ففي فيلم «نبي طيبة» (١٩٠٩) من إخراج چورچ ميلييس Méliès [١٨٨١-١٩٣٨] نرى شبحاً ملتفا بثياب على الطريقة

---

3. Claude-Françoise Brunon, «Égypte et publicité, in *Images d'Égypte*. Le Caire, CEDEJ, 1992.
4. *Ibid.*

اليونانية يظهر أمام مدخل مقبرة فرعونية. وقد أثار افتتان السينما الصامتة بحضارة اضمحلت تحليلات عديدة وبارعة. بل وكانت أحياناً بارعة للغاية. كانوا يتحدثون عن عبادة الموتى و«استحضار الموتى بالأفلام». كانوا يشبهون صحراء مصر بشاشة السينما الصامتة والناصعة، وجدران المعابد «بأفلام من الحجر»، وحزمة السينما الضوئية بمصباح عالم المصريات الذي يدخل مقبرة فرعونية...وكانت للسينما منابتها الخاصة، ألم يتم اعتبارها «عالماً خاصاً من الكلام الذي يتم التعبير فيه بلغة مرئية مكونة من أشكال من اللغة الهيروغليفية المضيئة(٥)» ؟

وفي السنوات ١٩١٠-١٩٢٠ تمت زخرفة العديد من قاعات السينما بطراز يحمل الطابع المصري. كانت زهور اللوتس تزين هذه القاعات. وبدت بلاد الفراعنة بأنها لا تتوافق جيداً مع السينما الناطقة، لكنها استعادت مواقعها فيما بعد بظهور السينماسكوب والتكنيكولور. وفي الإجمال تم تكريس ٤٠٠ فيلم لبلاد الفراعنة.

وبدءاً من الخمسينيات تأثر الفرنسيون بطابع هوليوود الذي يستخدم ألوف الممثلين الصامتين، والمعابد المتوهجة، والمركبات الرومانية، والعروش والكنوز. هكذا قام سيسيل دي ميل [مخرج أمريكي كبير ١٨٨١-١٩٥٩] في عام ١٩٥٦ بإخراج نسخة ثانية من فيلم «الوصايا العشر» (١٩٢٣) الذي تم تصويره في هذه المرة في مصر وليس في هوليوود. ومن أجل اجتذاب الجمهور أخرج السينمائيون الأمريكيون أفلاماً عديدة. لم يكن يتعلق الأمر بإخراج أفلام تروي الحقيقة بل أفلام تبدو أنها فرعونية فحسب. ففي فيلم «أرض الفراعنة» (١٩٥٥) قام هوارد هوكز باستخدام الجمال وهي حيوانات لم تكن معروفة في زمن أبطال الفيلم. وفي فيلم «سليمان وملكة سبا» (١٩٥٩) الذي أخرجه ڤيكتور ڤيدور نرى الأهرام من قصر تانيس الذي يبعد عنه ١٥٠ كيلومتراً...إنهم يخلطون باستخفاف بين الأماكن والعصور والطرز(٦). وكان لدى علماء المصريات العديد من الأسباب التي تدعوهم إلى المجادلة بل وإلى اليأس من القدرة على عمل شيء. وهذا لا يمنع من ظهور صروح بطريقة صادقة مثل قاعة أمينوفيس الرابع (أخناتون) في فيلم «المصري» (١٩٥٤) من إخراج ميخائيل كورتيز.

وألهمت مصر العديد من مؤلفي قصص الرسوم المصورة الفرنسيين والبلچيكيين. وفي النهاية من الذي ابتكر هذا الفن غير نقاشي الخطوط الهيروغليفية؟ إن القراء الأكثر شباباً

5. Antonia Lant, «L'Antiquité égyptienne revue par le cinéma», in *L'Égyptomanie à l'épreuve de l'archéologie,* Paris, musée du Louvre, 1996.
6. Jean-Luc Bovot, *L'Égypte ancienne au cinéma. Le péplum en pagne,* Paris, Lattès, 1993.

يتأثرون بصفة خاصة بالغموض المحيط بالحضارة الفرعونية المأهولة بكائنات غريبة نصف-إنسان ونصف-حيوان التي تتوافق جيداً مع عالم الطفولة(٧). إن قصص «سيجار الفرعون» للمؤلف هيرچيه لا تزال قائمة في ذاكرة الكبار، كما أن القصة المصورة الرائعة «السر الخفي للهرم الكبير» لمؤلفها إدجار-پيير چاكوب قد طبعت الخيال الجماعي وولّدت أكثر من رغبة في اتخاذ المصريات كمهنة...

وتدور سيناريوهات عديدة حول الموضوع ذاته: اكتشاف ورقة بردي يضع الصالحين والطالحين على درب كنز خرافي، بينما قد يؤدي انتهاك مقبرة أو هرم إلى جلب لعنة رهيبة. إن مؤلفي الرسوم المصورة المصرية يجتهدون كثيراً من أجل الاطلاع على معلومات موثقة. ومع ذلك يحدث أحياناً أنهم يخطئون أو يغشون، مثل چاك مارتن في «أبو الهول الذهبي» الذي يجعل مياه النيل تنساب في مدينة الإسكندرية.(٨) إن مصر القديمة تتوافق مع الشطحات الخيالية بصورة أفضل من العالم الإغريقي-الروماني. إذ استلهم بلال Bilal الحضارة الفرعونية لتدعيم رسوم الخيال العلمي في «المرأة الشرك» وفي «سوق الخالدين» حين تخيل الهرم الطائر والآلهة الذين يقومون بدور رجال الفضاء.

وتوجد حالة مثيرة للاهتمام هي حالة الرسام البلچيكي لوسيان دي جيتر Lucien De Gieter مؤلف سلسلة «مغامرات ورق البردي» التي بدأها عام ١٩٧٨. إن المجموعات الست الأولى تقود القارىء إلى مصر خيالية مليئة بالمسوخ وبالآلهة غير المعروفة وبالمقابر الفارسية. كنا بذلك نعيش في خضم الهوس بمصر بالمعنى الأكثر تشويهاً للكلمة. وبدءاً من المجموعة السابعة حدث تغير جذري: لقد ذهب هذا الرسام إلى مصر ووقع في غرام هذا البلد، ثم شرع في دراسته بدقة، وقد غير ذلك من أسلوبه. ففي قصة انتقام رمسيس «ظهر علم المصريات في مغامرات ورق البردي(٩)». ومن جهة أخرى لم تعد المغامرات توصف بدءاً من الكتاب التالي بأنها «عجائب خارقة»: إن قصة «تحول امنحوتب» هي أيضاً تحول لهذا المؤلف للرسوم المصورة، الذي يستلهم من الآن فصاعداً الأشكال الدقيقة التي وضعها چان-كلود جولڤان المدير السابق للمركز المصري-الفرنسي بالكرنك.

---

7. Philippe Joutard, «L'Égypte à travers la bande dessinée», in *Le Miroir égyptien.* Marseille, Éd. du Quai, 1984.
8. Jean-Pierre Corteggiani, «L'Égypte antique dans la bande dessinée», in *Images d'Éypte*, Le Caire, CEDEJ, 1992.
9. Luc Delvaux, «Les Aventures de papyrus», in *L'Égyptomanie à l'épreuve de l'archéologie,* Paris, musée du Louvre, 1996.

علم المصريات، علم شعبي

حققت جميع المعارض التي أقيمت عن مصر في باريس نجاحاً بدءاً من «توت عنخ آمون» (١٩٦٧) إلى «الهوس بمصر » (١٩٩٤)، مروراً بـ. «رمسيس الثاني» (١٩٧٦) و«قرن من الحفريات الفرنسية» (١٩٨١)، و«تانيس» (١٩٨٧) و«أمينوفيس الثالث» (١٩٩٣)، ولا ننسى المعارض التي أقيمت في مدن فرنسية أخرى وحصلت على جمهور غفير مثل «مصر الفراعنة» بمدينة مارك آن بارويل (١٩٧٧)، و«إعادة اكتشاف مصر» بمدينة أوتان (١٩٨٨)، أو «ذكريات مصر» في ستراسبورج (١٩٩٠).

ولم تتوقف السياحة إلى مصر عن التزايد خلال العقود الثلاثة الأخيرة. إذ تقوم حوالي مائة وكالة سياحية بتقديم رحلات تشتمل في أغلبها على رحلة نيلية، لكن الفرنسيين تعلموا أيضاً زيارة شواطيء البحر الأحمر ودير سانت كاترين في سيناء، بل وحتى واحات الصحراء الغربية. وحدث توقف غير متوقع عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ بسبب حوادث اعتداء الجماعات المتأسلمة على الزوار الأجانب. وقامت إدارات السياحة المصرية حينذاك بحملة إعلانية في فرنسا حول شعار: «مصر، ذاكرتنا تقتضيها» الذي يتشابه تقريباً مع أمر استدعاء. لكن الفرنسيين لم يكونوا ينتظرون سوى ضمانات بالأمن. ومنذ عام ١٩٩٥ استؤنفت أفواج السائحين لكي يصل عددهم إلى ٢٤٢ ألف زائر فرنسي في العام التالي.

ويتجلى الولَع بمصر بطريقة واضحة في مكتبات بيع الكتب وفي مكتبات الاطلاع، حيث يتبارى علماء المصريات مع الروائيين ذوي الشعبية. وبعد الأعمال المختلفة التي ترجمت فيما مضى مثل «سنوحي المصري» تأليف ميكا ڤالتري [روائي وقصصي فنلندي ١٩٠٨-١٩٧٩] أو «موت فوق النيل» لأجاثا كريستي، أعقبتها مؤلفات كريستيان چاك Christian Jacq التي تلقى اقبالاً شديداً وأصبحت خلال بضع سنوات ظاهرة ملفتة للنظر في عالم النشر. إن هذا المؤلف الحاصل على دكتوراه في علم المصريات والمستبعَد من جانب زملائه السابقين والمحتقر من جانب النقاد حققت سلسلة رواياته عن رمسيس الثاني مبيعات خرافية، بالرغم «من أسلوبه التافه وحواراته الموجزة، وإثاراته الجنسية الساذجة، وعلم نفس سطحي، وهذه الجسارة على التسلسل التاريخي للأحداث الذي يجعل رمسيس الثاني يعيش في نفس الفترة مع موسى وهوميروس[١٠]».

إن كريستيان چاك المليونير الذي يعيش في عزلة بمدينة إكس لا پروڤانس يترك الآخرين يتحدثون بينما هو مستمر في الإنتاج لتغذية أسطورة عصر الفراعنة الذهبي التي

10. François Lebrette, *Le Figaro Magazine,* 17 août 1996.

يرفضها الباحثون. ويقول إن ولَعه بمصر جاءه من جدته التي كانت صاحبة محل بقالة بمدينة روموارنتان، ثم أسرته هذه البلاد خلال رحلته إليها لقضاء شهر العسل (كان في السابعة عشر من العمر!). ويقول إنه يدوّن يومياً ملاحظات باللغة الهيروغليفية كما يتناقش مع كلبه الذي يحمل اسماً مصرياً. وقد اتهم هذا المؤلف بأنه يترأس إحدى الطوائف المتعصبة لكنه يدافع عن نفسه بحماس مؤكداً بأن معهده المسمى رمسيس الثاني ومنزله «ليسا سوى محفلين ماسونيين[11]».

وبالرغم من أن نسخ التحف القديمة أعلى سعراً من الكتب إلا أنها تلقى أيضاً رواجاً كبيراً. وتمثل نسخ الأشكال المصرية نصف مبيعات متحف اللوفر في هذا المجال. وفي فندق درووا يتم بانتظام تخاطف القطع الواردة من وادي النيل. وفي يونيو ١٩٩٦ تجاوز ثمن رأس كاهن مصنوعة من الديوريت مليون و٣٠٠ ألف فرنك. ويستثمر التجار هذا الافتتان بمصر فيعرضون مجموعات من قطع المقالم-التوابيت والأقنعة الجنائزية التي يمكن تجميعها وتركيبها[12]...

وفي عام ١٩٨٦ قام مهندسان معماريان فرنسيان بتقديم نظرية جديدة عن الهرم الأكبر جعلت مواطنيهم يستغرقون في الأحلام. إنهما يعتقدان بأن «خوفو مثله مثل غالبية فراعنة الإمبراطورية القديمة بنى غرفة حقيقية وغرفاً أخرى كاذبة، وبنى ممرات حقيقية وأخرى مسدودة، ومداخل مزدوجة. وباختصار قام باستخدام ترسانة من أساليب الخدع والتمويه السائدة في عصرهم[13]». وتخيل هذان المهندسان شبكة من الممرات تؤدي إلى غرفة الفرعون الجنائزية الحقيقية، وقاما بإعادة تشكيلها على مكتبهما. وجرى اتخاذ الإجراءات اللازمة لعمل قياسات للجاذبية داخل الهرم للتحقق من صحة هذه النظرية الجسورة التي تتناقض مع جميع الدراسات السابقة. وأسفاه، فقد ثبت عدم صحتها، مما أتاح لعلماء المصريات المحترفين فرصة أخرى لمهاجمة الهواة الذين يزعجونهم.

من يكون العالم بالمصريات؟ يجيب آلان زيڤي (مؤسس ومدير البعثة الأثرية الفرنسية في تل بسطا بسقارة ومكتشف مقبرة الوزير آپل-إل[14]) أنه يجب توافر ستة شروط: يجب عليه معرفة حل رموز المصادر المدوّنة، مع احتمال وجود تخصصات مثل اللغة القبطية أو الديموطية؛ ويجب أن يكون قادراً على قراءة المطبوعات باللغات الأجنبية وبخاصة اللغة

11. Entretien, *Libération,* 9 mai 1996.
12. *L'Expresse,* 19 décembre 1996.
13. Gilles Dormion et Jean-Patrice Goidin, *Khéops, nouvelle enquête. Propositions préliminaires.* Paris, Recherche sur les civilisations, 1986.
14. Alain Zivie, Découverte à Saqqarah. Le vizir oublié, Paris, Seuil, 1990.

الألمانية؛ وأن يكون حاصلاً على مؤهل جامعي رسمي ومعترف به ؛ وأن يكون متولياً لمنصب مرتبط بالمصريات سواء في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (IFAO) أو المركز القومي للبحوث العلمية (CNRS) ، أو الجامعة، أو المدرسة التطبيقية للدراسات العليا أو في أحد المتاحف؛ وألا يقتصر على الإطناب في الحديث عن مصر بل يحقق تقدماً في البحوث عن طريق اكتشافات مبتكرة أو تأليف مطبوعات علمية؛ ويجب عليه في النهاية أن يحظى بالاعتراف الدولي.

ولا ريب أن هذه الشروط تنطبق على عدد قليل من الفرنسيين. ومع ذلك فالعديد منهم مغرم بعلم المصريات الذي في طريقه لأن يصبح علماً شعبياً. إن الدروس التي تقدمها مدرسة اللوفر أو معهد باريس الكاثوليكي تجتذب جمهوراً متزايداً. ويجب أيضاً ذكر مدرسة «خوفو» الخاصة التي تضم حوالي ٦٠٠ تلميذ، يدرس نصفهم بالمراسلة. وبالرغم من أن هذه المدرسة تقدم تعليماً للهواة بدون تخصص إلا أنه تعليم أمين ينتهي بالحصول على شهادة، كما تجري تدريباً خاصاً للذين بلغوا التاسعة عشرة من العمر. إن اللغة الهيروغليفية تجتذب اليوم أعداداً أكثر من اللغة اللاتينية...

وقد عرف تييري لوي بيرچيرو أحد عشاق مصر كيف يجسد غرامه بمدينة أڤينيون حيث يقيم. كان يعمل ممثلاً وموسيقياً، وبدأ يجري دراسات في التاريخ وفي المصريات بجامعة مونپلييه ثم ذهب لتعليم الهيروغليفية لمجموعات من طلبة المدارس. وفي أكتوبر ١٩٨٨ أنشأ المركز الڤوكلوزي [نسبة إلى مقاطعة ڤوكلوز الفرنسية] للمصريات(١٥)، في مقر صغير يقع تحت دعامات قصرالباباوات. وقام بالتعاون مع علماء المصريات الپاريسيين بتنظيم دروس في اللغة المصرية ومحاضرات وندوات للتدريب على البحث. وأصدر مجلة جيدة اسمها «مصر»، اختفت بعدها بسبب قلة الموارد لكي تولد من جديد بعد بضع سنوات باسم «مصر وإفريقيا والشرق». وفي عام ١٩٩٢ كان مركز المصريات الڤوكلوزى يجتذب «جمهوراً مثقفاً أكثره من الناضجين ومن النساء ومن الأثرياء الذين لديهم أوقات فراغ ويعرفون كيف يتذوقون ثمار المجهود الثقافي». ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الجمهور يضم الأكثر شباباً بانضمام الطلبة إليه. وعلى مر السنين أصبح هواة المصريات هؤلاء أكثر تخصصاً وأكثر معرفة.

15. Centre vaulusien d'égyptologie, 10, rue de la croix. 84.000 Avignon.

أجدادنا الفراعنة

إن الولَع بالحضارة المصرية يثير الدهشة لا سيما وأنها حضارة منقرضة على عكس حضارة اليابان أو الصين. وإذا كانت تجتذب الناس بمثل هذا القدر فذلك لأن الخيال يجد فيها دعماً غير عادي. إن هذه المعابد المدهشة، وهذه التماثيل الرائعة، وهذه الرسوم الملونة الباقية بطريقة تثير العجب توحي إلينا بالجمال والحب، وبالحكمة وعذوبة الحياة، وبالنظام والعدالة.

ويقول آلان زيفي إن مصر القديمة «آلة رائعة تثير الخيال» ، ومكان يجد فيه كل فرد ما قد أحضره إليه. فإذا كان الشرق هو تسمية مجازية لعوالم مفقودة يتعذر إدراكها، فإن مصر تمثل أفضل جزء فيه: فهي شرق عريق، وشرق كامل(١٦).

إنها أيضاً الغموض واللاعقلانية. إن قراءة الهيروغليفية يمكن أن تعطي الشعور باللعب، وبحل لغز، وكأنك تقترب من حقيقة مخفية، بل وتنتمي إلى عالم من العالمين ببواطن الأمور. لا جدال بأن الحضارة المصرية تقدم جواباً مطمئناً على الأسئلة الواخزة بشأن الحياة، والموت، والخلود. وكما يذكر فيليب جوتار «المومياء هي الميت الذي ينام، بل الواقع أنه في منتصف الطريق بين الحياة والموت وأنه لم يختف في العدم بلا رجعة. لقد أمكن تطويع ما لا يمكن احتماله وأصبح مألوفاً. توجد حالة انتقالية بين الوجود والعدم: بل وأكثر من ذلك فإننا نعبر بسهولة من عالم الأموات إلى عالم الأحياء مثل هؤلاء العلماء الذين يدخلون المقابر ويخرجون منها أحياء أو هؤلاء الفراعنة الذين يستمرون في الحياة داخل توابيتهم(١٧).»

لقد عاش الافتتان بمصر وظل باقياً بعد كل شيء كان مفروضاً بأنه سيبدد الغموض: حل الرموز الهيروغليفية، واكتشاف العديد من المقابر، والتصوير، ثم التصوير بالأشعة...وعاش وبقي أيضاً بعد تضاعف الرحلات وتعاقبها. لم تؤد المعرفة والإدراك والرؤية واللمس إلى إضعاف الجاذبية بل العكس صحيح. أن أعداداً متزايدة أكثر فأكثر من الفرنسيين يذهبون إلى وادي النيل ويعودون إليه ولا يكلون، ويغمرهم شعور غريب بأنهم في عالم مألوف لديهم. لا يوجد بلد في المغرب يجمع بهذه الصورة بين السحر الشمسي والشعور بالخلود.

16. Alain Zivie, *Revue française de psychologie,* nº 1, 1993.
17. Philippe Joutard, «L'Égypte à travers la bande dessinée», art. cit.

إن مصر العصور القديمة هي الدوام وهي نقطة استدلال في عالم يتحرك بسرعة متزايدة. لا جدال بأنها لم تستحق مطلقاً من قبل وصف «الخلود» مثلما تستحقه اليوم. يبدو أنها ملك لكل فرد. إن هذا التراث قديم إلى حد أنه يستمتع بنوع من الحصانة. فلا تبدو مصر بأنها حضارة مدهشة فحسب، بل وأنها أم الحضارات الأخرى: وتنتهي بأنها ترمز للعصور القديمة بصفة عامة. فإلى «جدودنا الغالين» يمكن إضافة جدودنا الفراعنة. بل وحتى يمكن إحلالهم محلهم...

خاتمة

ثمار الغرام

شهدت مصر الجنود الفرنسيين يقتحمون بابها ثلاث مرات: الأولى عام ١٢٤٩ بقيادة سان لوي [لويس التاسع]؛ والثانية عام ١٧٩٨ بقيادة بونابرت؛ ثم مغامرة السويس التعسة التي وقعت عام ١٩٥٦. ومع ذلك لا يفكر أحد في معالجة العلاقات المصرية-الفرنسية من الزاوية العسكرية! لقد توقفت هذه المغامرات الحربية الثلاث بلا نتيجة، كأنها كانت من الحوادث التاريخية العارضة.

ولننس الملك لويس التاسع بحكم التقادم. إن غزو عام ١٢٤٩ الفاشل قديم للغاية كما أنه مرتبط بشدة بالحملات الصليبية مما يدعونا إلى عدم أخذه في حسباننا اليوم.

وكانت حملة نابليون شيئاً آخر تماماً، فهي بلا آثار عسكرية دائمة، لكنها حاسمة على مستويات أخرى لا يزال المؤرخون منقسمين بشأنها. إذ يرى البعض أنها أدخلت مصر في الحداثة مما أعاد البلاد إلى ذاتها وإلى العالم. ويرى آخرون أنها لم تكن سوى حادث اعتراضي بلا آثار. في حين يرى آخرون أيضاً أنها قد أضرت بمجتمع لم يكن في حاجة إلى الفرنسيين لكي يعرف طريقه إلى التحضر...يبقى أن الحملة الفرنسية قد قلبت الأوضاع في مصر وأخرجتها من عزلة قديمة وفتحت الطريق أمام محمد علي. وأن يلجأ -محمد علي- إلى الفرنسيين فيما بعد لمساعدته على إقامة دولة حديثة فهذا أمر جوهري ذو مغزى. لقد أمكن لنفوذ فرنسا الثقافي حينذاك ممارسة تأثيره كلية. وأتاح ذلك لفرنسا -بين أشياء أخرى- إقامة شبكة غير عادية من المدارس، وبأن تلعب دوراً من الطراز الأول في المصريات. وبدلاً من أن تعاني فرنسا من الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ فقد استفادت من كونها ليست استعمارية. وخلال عقود شهدنا هذه الحالة الغريبة: بريطانيا تسيطر على مصر التي كانت نخبها تحلم بالفرنسية.

وحين غزا الفرنسيون هذه البلاد، ثم حين درسوها بعناية واهتمام، وقاموا بتنفيذ مشروع قناة السويس، وبخاصة حين حاولوا غرز لغتهم وثقافتهم، فقد كانوا على نحو ما يستنفدون

من غرامهم بمصر. وهو غرام قوي لا سيما أنه كان متبادلاً: ففي عهود معينة وفي أوساط معينة، كانت فرنسا تقوم بدور المرجِع والنموذج. كان تبني لغتها والتعلُّق بثقافتها أسلوباً للمعيشة.

ومن الاستخفاف بالأمور أن نعزو تقويض هذا النموذج إلى حرب السويس عام ١٩٥٦ وحدها. فمنذ عشرين عاماً سابقة كان قد بدأ إدراك نهاية هذا العهد. كانت مصر تصبو بحرقة إلى أن تكون مصرية، وإلى الحصول على استقلال حقيقي، وتمحو قروناً من الإذلال. وحتى بدون خيبة السويس، لم يكن في إمكان فرنسا إطلاقاً المحافظة على مثل هذا الوضع على ضفاف النيل.

وقد وجد مصريون فرانكفونيون يعرفون باريس أكثر من بلادهم ذاتها إنهم في موقف خطير. ودفعتهم الأمور إلى الهجرة إلى فرنسا وسويسرا ولبنان أو كندا. هكذا حرمت مصر من جزء هام من أولئك الذين يصلون بينها وبين الضفة الأخرى من البحر المتوسط. ولحسن الحظ أنه تبقى لها «رجال-جسور» يعرفون اللغة الفرنسية على نحو رائع دون أن يفقدوا ثقافتهم الخاصة على الإطلاق. وفي عام ١٩٩٣ قام البعض منهم بتأسيس مركز الأعمال المصرية-الفرنسية (Café) بالقاهرة الذي يقوم أعضاؤه الأربعمائة -مصريون وفرنسيون- بمساعدة مؤسسات البلدين على العمل معاً بصورة أفضل.

في الواقع أن مصر وفرنسا شريكتان بالضرورة. ويجوز لنا اعتبارهما قطبين كبيرين في شمال وفي جنوب البحر المتوسط. إن مصالحهما تتلاقى، واهتماماتهما أيضاً، بالرغم من الفوارق الكبيرة في الثروات وفي السلوكيات الاجتماعية. إن التطرف الإسلامي يحث الدولتين أكثر على التعاون، وعلى الاهتمام بمراقبة ما يدور في منطقة المغرب التي تعنيهما مباشرة. وتظل كل منهما منفذاً للآخر: فإذا كانت فرنسا تحتاج إلى مصر من أجل توطيد مواقعها في العالم العربي، فإن مصر تحتاج إلى فرنسا من أجل تسهيل علاقاتها مع الجماعة الأوروبية. وفي عالم اختفت فيه التكتلات، ولم تعد توجد فيه غير دولة كبرى وحيدة، لا تريد القاهرة أن تنغلق في ثنائية مع واشنطن.

لم تكن العلاقات بين مصر وفرنسا في يوم من الأيام جيدة مثلما هي الآن. ويقتصر الخلاف على موضوعات ثانوية غير جوهرية، مثل موضوع تصدير البطاطس المصرية. ويتعلق أحد موضوعات الخلاف النادرة بتمثال فرديناند ديلسبس الذي كان حتى عام ١٩٥٦ يتصدر مدخل قناة السويس. لقد تم تفجير هذا التمثال بالديناميت وتحول إلى قطع صغيرة، ثم استعاده سراً موظف مصري بشركة قناة السويس ووضع في أحد العنابر. ومنذ بضع سنوات أتاح تحسن العلاقات الثنائية لاثنين من الفرنسيين المتعاونين مع مصر بأن

يقوما بترميمه. وفي عام ١٩٩٥ قام رئيس الشركة المصري بمبادرة تصالحية فأخرج التمثال إلى الهواء الطلق أثناء زيارة قامت بها جمعية تخليد ذكرى فرديناند ديلسبس. بقي العثور على مكان للتمثال، إذ لا يرغب المصريون في إعادة وضعه على قاعدته عند مدخل القناة...

وإذا كانت العلاقات بين البلدين ممتازة ومستقرة، إلا أن تنافس فرنسا مع شركاء آخرين لمصر قد ازداد كثيراً. لم تعد بريطانيا العظمى -المتحفظة منذ رحيل قواتها- هي المنافس لكنه الولايات المتحدة التي تمتلك امكانيات هائلة. تبلغ قيمة المساعدة التي تقدمها إلى مصر ٢ مليار دولار سنوياً، أي تزيد عشرين مرة على قيمة المساعدة الفرنسية. لن تكون قيمة المال هامة لو لم يكن المصريون (مثلهم مثل عديدين آخرين!) مفتونين بأمريكا منذ أكثر من نصف قرن.

وفي مواجهة هذا الوجود الساحق «للعم سام» لا يعوز فرنسا الأوراق الرابحة. فقد احتفظت في مصر بأرصدة جيدة. إن مراكزها للأبحاث وبعثاتها العلمية تؤمن لها العرفان والاحترام. لا تزال عشرات المدارس المستمرة في التدريس باللغة الفرنسية معتبرة بأنها من أفضل المدارس، بالرغم من الصعوبات العديدة. لا ريب بأنه يجب تعضيد هذه المدارس أكثر، ويجب امتدادها بإنشاء جامعة فرانكفونية في القاهرة. ليس من الطبيعي أن يتدافع أفضل تلاميذ المدارس الفرنسية للذهاب إلى الجامعة الأمريكية...

وفي عشية الحرب العالمية الثانية كان يقيم في مصر ٢٥ ألف فرنسي، في حين أنهم لا يزيدون اليوم على أكثر من أربعة آلاف. إنهم في أغلبهم مغتربون مؤقتون وليسوا «فرنسيي مصر» المقيمين بصفة دائمة في بلاد يتطابقون معها. لكن الغرام بمصر اتخذ أشكالاً أخرى، يكون أحياناً من على بعد. هل حدث إطلاقاً أن وجدنا في فرنسا مثل هذا العدد من الفرنسيين الذين يقرأون اللغة الهيروغليفية؟

ولم يفرغ الفرنسيون من اكتشاف مصر، التي لم يعرفوها بصفة عامة إلا من جانب واحد. هل يجب التذكير بأن مصر لا تقتصر على الفراعنة، ولم تتوقف عند البطالمة؟ لقد عرف كبار علماء المصريات كيف يهتمون بالأهالى الذين يعمّرون وادي النيل بعيداً عن البقايا العظيمة لحضارة منقرضة. فقد تأثر ماسبيرو حين وجد المشاهد الريفية المعاصرة التي سحرته على أحجار منقوشة منذ ثلاثين قرن سابقة، فذهب إلى صعيد مصر ليجمع نصوص الأغاني خلال سنوات عديدة. إن الغرام الذي تتم معايشته بهذه الصورة، والذي يربط الماضى بالحاضر، يتجدد بلا انقطاع، وينجو من مخاطر الولَع العقيم. ذلك لأننا نسعى اليوم مثل الأمس إلى الحكم عليه من ثماره. فما هى ثمار هذا الغرام؟

ملحقات

ملحق ١

صحافة مصر الناطقة بالفرنسية

صدرت في مصر منذ حملة نابليون عام ١٧٩٨ العديد من الصحف والمجلات والنشرات باللغة الفرنسية. لم يدم الكثير منها طويلاً، لكن البعض الآخر استمر لفترة طويلة، إذ يبلغ عمر جريدة يومية مثل «لو پروجريه اجبسيان» *Le progrès égyptien* أكثر من مائة عام.

من المؤكد أن القائمة المذكورة أدناه غير كاملة. ومع ذلك فهي تعطي فكرة عن نشاط اللغة الفرنسية على ضفاف النيل في عهود معينة. وبعد ذكر تاريخ إنشاء المطبوع نذكر في بعض الأحيان تاريخ اختفائه حينما نعرف هذا التاريخ. ولا تشتمل هذه القائمة على النشرات الداخلية التي تصدرها المنشآت التعليمية وجمعيات خريجي هذه المدارس ومنظمات أخرى متنوعة.

في ظل الاحتلال الفرنسي

Courrier de L'Égypte [أنباء مصر]، جريدة أنباء موجهة إلى جيش الشرق (١٧٩٨–١٨٠١)، وقد رأسها على التعاقب فورييه، وكوستاز، ودينييت. صدر منها ١١٦ عدداً.

La Décade égyptienne [عشرة أيام مصرية]، مجلة علمية، كانت تصدر كل عشرة أيام ثم أصبحت شهرية (١٧٩٨–١٨٠٠)، واشتملت على محاضر جلسات «معهد مصر» ومقالات كتبها أعضاء لجنة العلوم والفنون. تم تجميعها في ثلاث مجلدات مهداة إلى بونابرت، وكليبر، ومينو.

L'Écho des Pyramide [صدى الأهرام]، أصدرها بوسكويه-ديشان (١٨٢٧) وظهرت منها أربعة أعداد.

Le Moniteur [المرشد]، جريدة أسبوعية أنشأها كاميل تورل للدفاع عن سياسة محمد علي (١٨٣٣-١٨٣٤).

Miscellanae Aegytica [منوعات مصرية]، مجلة أدبية وعلمية أسسها إميل بريس دافين (١٨٣٧- ١٨٣٩).

Bulletin de L'Institut égyptien [نشرة المعهد المصري]، سنوية (١٨٥٩-١٩١٨).

Le Sphinx égyptien [أبو الهول المصري]، مجلة صدرت في الإسكندرية (١٨٥٩).

La Presse égyptienne [الصحافة المصرية]، مجلة صدرت في الإسكندرية (١٨٥٩).

L'Égypte [مصر]، أصدرها الطبّاع موريس (١٨٦٣).

Le Nil [النيل]، نصف أسبوعية لصاحبها المحامي نيكولو (١٨٦٦).

Le Journal du canal [جريدة القناة]، صدرت في بورسعيد، وأسسها فرديناn ديلسيس (١٨٦٧).

Le Progrès égyptien [التقدم المصري]، أسبوعية، (١٨٦٨-١٨٧٠).

Le Moniteur de la publicité en Égypte [المرشد للإعلانات في مصر]، دليل إعلانات نصف أسبوعي، أصدره فرانسوا لافرناي (١٨٦٨).

L'Impartial [المنصف]، أسبوعية ، أسسها الطبّاع أنطوان موريس.

L'Indépendant [المستقل] ، أسبوعية، معادية للخديو، أسسها الكونت مايار دي مارافى (١٨٧١).

L'Avenir commercial de Port-Saïd [المستقبل التجاري لبورسعيد] (١٨٧١).

L'Ezbékieh [الأزبكية]، مجلة ساخرة أسسها باربييه (١٨٧٣).

L'Économiste [الاقتصادي]، (١٨٧٤).

Le Commerce [التجارة]. (١٨٧٤).

Le Moniteur égyptien [المرشد المصري]، يومية (١٨٧٤)، عادت إلى الصدور عام١٨٨١ تحت اسم *Journal officiel* [الجريدة الرسمية].

Le Phare d'Alexandrie [فنار الإسكندرية]، يومية، أنشأها المحامي اليوناني هايكاليس (١٨٧٤-١٩١٢).

La Gazette des tribunaux [جريدة المحاكم] (١٨٧٥)، وأصبحت في عام ١٩١٠ تحمل اسم *La Gazette de tribunaux mixtes d'Égypte* [جريدة المحاكم المختلطة في مصر] برئاسة المحامي راؤول بانجالو.

La Réforme [الإصلاح]، أسسها ج. باربيه (١٨٧٦).

Bulletin de la Société khédivale [نشرة الجمعية الجغرافية الخديوية] (١٨٧٦).

La Jurisprudence [أحكام القضاء]، كانت تصدر ثلاث مرات أسبوعياً (١٨٧٦-١٨٨٩).

Le Bosphore égyptien [المضيق المصري]، ولدت في بورسعيد، وانتقلت إلى القاهرة وأصبحت يومية (١٨٨٠-١٨٩٥).

Bulletin mensuel de la Société d'agriculture [النشرة الشهرية للجمعية الجغرافية] (١٨٨٠-١٨٨١).

Le Sport [الرياضة]، مجلة صدرت في الإسكندرية (١٨٨١).

Le Darabouk [الدَّرابُكة]، أسبوعية ساخرة ومصورة (١٨٨١).

Le Cultivateur [المزارع]، مجلة مصرية-فرنسية طبعت في الإسكندرية (١٨٨١).

من عام ١٨٨٢ إلى الحرب العالمية الثانية

Le Courrier égyptien [الأنباء المصرية] (١٨٨٣).

L'Indispensable [الضروري]، أسبوعية تزود السائحين بالمعلومات، صدرت في الإسكندرية (١٨٨٨).

Bulletin de législation et de jurisprudence égyptiennes [نشرة التشريعات وأحكام القضاء المصرية]، نصف أسبوعية (١٨٨٩-١٩١٨).

Le Petit Égyptien [المصرى العادي]، يومية إسكندرانية (١٨٨٩).

Le Scarabée [الجُعران]، أسبوعية أصدرها دي لاجارين بالإسكندرية (١٨٨٩).

Révue égyptienne littéraire et scientifique [المجلة المصرية الأدبية والعلمية]، شهرية (١٨٨٩).

Les Moustiques [البعوض]، أسبوعية صدرت بالإسكندرية (١٨٩٠).

La Correspondance égyptienne illustrée [رسائل مصرية مصورة]، أسبوعية رأسها دي لاجارين (١٨٩٢).

Le Réveil égyptien[الصحوة المصرية]، مجلة نصف شهرية (١٨٩٢).

Bulletin mensuel de la chambre de commerce française d'Alexandrie [نشرة الغرفة التجارية الفرنسية الشهرية بالإسكندرية] (١٨٩٢).

Le Progrès égyptien [لو پروجريه اچيسيان]، يومية أسسها كيرياكوپولو (١٨٩٣).

La Vérité [الحقيقة]، پورسعيد (١٨٩٣).

L'Égypte [مصر]، مجلة نصف شهرية أنشأها ڤيكتور نوريسون وفريد سيمون (١٨٩٤-١٨٩٥).

L'Égypte. Revue industrielle et commerciale [مصر، مجلة صناعية وتجارية]، كانت تصدر ثلاث مرات أسبوعياً (١٨٩٤).

Revue d'Égypte [مجلة مصر]، شهرية أصدرها شارل جاياردو (١٨٩٤-١٨٩٧).

La Réforme [الإصلاح]، يومية صدرت بالإسكندرية برئاسة راؤول كانيڤيه (١٨٩٥-١٩٦٤).

L'Écho d'Orient [صدى الشرق]، يومية (١٨٩٥-١٨٩٧).

Bourriquot [الحمار الصغير]، جريدة هزلية مصورة (١٨٩٥).

Revue internationale de législation et de jurisprudence musulmannes [المجلة الدولية للتشريع وأحكام القضاء الإسلامي] (١٨٩٥-١٨٩٦).

La Correspndence égyptienne illustrée [الرسائل المصرية المصورة]، أسبوعية (١٨٩٥-١٨٩٧).

Al Fardos [الفردوس]، نصف شهرية نسائية أنشأتها لويزا حبّالين (١٨٩٦).

Le Courrier d'Égypte [أنباء مصرية]، أسبوعية (١٨٩٧).

Le Parnasse oriental [البرناسية الشرقية]، مجلة أسسها الرسام إميل برنار.

La Bourse égyptienne [سوق المال المصرى]، يومية أسسها بوتيني (١٨٩٨).

Le Journal du Caire [جريدة القاهرة]، يومية يرأسها چورج ڤايسييه(١٨٩٨).

Les Pyramides [الأهرام]، يومية ، نسخة فرنسية من جريدة الأهرام للأخوان تقلا (١٨٩٩-١٩١٤).

La Famille égyptienne [الأسرة المصرية]، ملحق نصف شهري لجريدة الأهرام. [نشرة الجمعية الطبية بالقاهرة] (١٨٩٩-١٩٠٠).

Bulletin de la Société médicale du Caire [مجلة مصر والشرق]، برئاسة فرنان برون وچورج ڤاقسييه (١٩٠٠).

Bulletin commercial [النشرة التجارية]، أسبوعية، (١٩٠٠-١٩١٦).

Bulleti n d'Égypte [نشرة مصر]، أسبوعية تجارية (١٩٠٠).

Les Bluettes [الشرار]، مجلة أدبية (١٩٠١)؛ وتحول اسمها فى العام التالي إلى [مجلة *La Nouvelle Revue d'Égypte* [مصر الجديدة] برئاسة فرنان برون، ثم إلى *la Revue d'Égypte et d'Orient* [مجلة مصر والشرق] (١٩٠٥).

Le Lotus [اللوتس] مجلة أدبية أسستها في الإسكندرية الكسندرا أفرينو (١٩٠١).

Bulletin de la Socété Khéxiviale de médcine [نشرة جمعية الطب الخديوية] (١٩٠١-١٩٠٤).

Bulletin de l'Union syndicale des agriculteurs d'Égypte [نشرة الاتحاد النقابي لمزارعي مصر]، شهرية (١٩٠١).

La Nouvelle Revue littéraire, artistique et social [المجلة الجديدة الأدبية، والفنية، والاجتماعية (١٩٠٢).

Bulletin de la chambre de commerce internationale [نشرة غرفة التجارة الدولية]، شهرية (١٩٠٣-١٩١٤).

Moniteur des travaux [مرشد الأعمال]، أسبوعية (١٩٠٤-١٩٠٥).

La *Revue international d'Égypte* [مجلة مصر الدولية]، شهرية (١٩٠٥-١٩٠٧).

La Finance égyptienne [المالية المصرية]، أسبوعية (١٩٠٦).

L'Étenard égyptien [العلم المصري]، يومية سياسية أسسها مصطفي كامل (١٩٠٧).

Nouvelles égyptiennes [أخبار مصرية] (١٩٠٧).

Courrier d'Égypte [أنباء مصر] (١٩٠٩).

La Presse médicale d'Égypte [صحافة مصر الطبية]، نصف شهرية (١٩٠٩-١٩١٤).

Journal du commerce et de la marine [جريدة التجارة والبحرية]، يومية أسسها ف. رزق (١٩٠٩).

L'Égypte contemporaine [مصر المعاصرة]، مجلة دراسات سياسية، واقتصادية، واجتماعية. (١٩١٠).

L'Écho sportif [الصدى الرياضى] (١٩١٠).

La Dépèche égyptienne[البرقية المصرية] (١٩١٠).
Revue théâtrale et sportive [مجلة مسرحية ورياضية] (١٩١١).
Le Courrier [الأنباء]، يومية (١٩١٢).
Isis [إيزيس]، شهرية أدبية (١٩١٢-١٩١٣).
Bulletin mensuel de la chambre de commerce française du Caire [نشرة شهرية للغرفة التجارية الفرنسية بالقاهرة] (١٩١٢).
La Revue israélite d'Égypte [المجلة الإسرائيلية بمصر]، أصدرتها جمعية يهودية ثقافية (١٩١٢-١٩١٨).
Delta [الدلتا]، يومية عربية-فرنسية أصدرها في المنصورة جابرييل إنريكي (١٩١٢).
La Revue égyptienne [المجلة المصرية]، نصف شهرية (١٩١٢).
La Revue médicale d'Égypte [مجلة مصر الطبية] (١٩١٣-١٩١٤).
Cinégraphe-Journal [جريدة فن الصور المتحركة]، أنشأها روجيه ليونكاڤالو (١٩١٣).
L'Illustration égyptienne [الصور المصرية] (١٩١٤).
La Renaissance juive [النهضة اليهودية] (١٩١٧).

ملحق ٢

الوجود الفرنسي في مصر

يقيم في مصر اليوم حوالي ٤ آلاف فرنسي، مقابل ٢٥ ألف عشية الحرب العالمية الثانية. ويعيش أغلبهم في القاهرة.

مبادلات اقتصادية

كانت فرنسا في عام ١٩٩٦ تحتل المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة وألمانيا في التوريد لمصر. وقد وصلت صادراتها إلى ٢ ,٧ مليار فرنك. التوريدات الرئيسية: هياكل الطائرات [أجنحة وأجسام]، يليها القمح والمعدات التليفونية. وتتكوّن أكثر من ثلث الواردات الفرنسية (٢ ,١ مليار فرنك) من المنتجات البترولية المكررة.

وتحتل فرنسا المرتبة الخامسة في الاستثمارات الأجنبية بعد أن حصلت على عقود مترو القاهرة والتليفون المحمول ومصنع أسمنت السويس. وتوجد في السوق المصري حوالي مائة مؤسسة فرنسية.

مساعدة مالية

تم توقيع ٢٥ بروتوكولاً مالياً خلال الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٩٦تتعلق بمبلغ إجمالي يزيد على ٢٠ مليار فرنك. إن مصر من أوائل الدول المستفيدة من المساعدة الفرنسية إذ تحصل على ٥٠٠ مليون فرنك سنوياً. يضاف إلى ذلك مساعدة غذائية تمثل ربع المساعدة الغذائية الفرنسية العالمية. فضلاً عن أن جزءاً هاماً من المساعدة الفرنسية يمر عبر الاتحاد الأوروبي شريك مصر الأول على المستوي التجاري.

تعاون ثقافي

تكرس فرنسا أكثر بقليل من ٥٠ مليون فرنك لتعاونها الثقافي والتقني مع مصر. تضم كل دورة لمركزها الثقافي بالقاهرة (المشتمل على مركز آخر في مصر الجديدة) حوالي ٢٠٠٠ طالب.

مدارس خاصة

تتبع مدرسة الليسيه بالمعادي التي تضم ١٢٠٠ تلميذ المنهج الدراسي الفرنسي كاملاً. بل وحتى تدريس اللغة العربية فيها ليس إجبارياً. ولا يمكن للتلاميذ المصريين -وهم أقلية- الالتحاق بهذه المدرسة إلا بإذن خاص، ولا تعتبرهم الحكومة المصرية بأنهم تلاميذ مدارس. وتستخدم الإدارات الثقافية الفرنسية هذه المدرسة كقاعدة لخدمة التعاون مع مؤسسات التعليم المحلية.

ويوجد أكثر من ٤٤ ألف تلميذ في المنشآت التعليمية التي تستخدم اللغة الفرنسية كلغة للتعليم. هذه المنشآت هي في أغلبها مدارس كاثوليكية يتفوق مستواها على مستوى مدارس الليسيه السابقة والتابعة للبعثة العلمانية الفرنسية.

تعليم عام

يدرس حوالي ١٠٠ ألف تلميذ اللغة الفرنسية كلغة حيَّة أولى في المدارس الحكومية، بينما يدرسها ٢ مليون تلميذ كلغة حيَّة ثانية. وفي عام ١٩٩٥ تم إدخال تعليم اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية. وخلال السنوات الأخيرة اتخذت الحكومة المصرية المبادرة بإنشاء بعض مدارس اللغة الفرنسية التجريبية.

تعليم عالٍ

تضم جامعة القاهرة أربع قنوات تعليمية نوعية: قانون، إدارة وتجارة دولية، علوم طبيعية واتصالات. وهم يعتزمون إضافة قسم للغات الأجنبية التطبيقية لمساعدي الإدارة. وتم وضع منهج الاقتصاد والعلوم السياسية مرتبط بمعهد العلوم السياسية بباريس. وتعتبر القناة القانونية هي الأكثر طموحاً: إن طلبتها مسجَّلون في جامعة باريس-١ (پانتيون-سوربون)، التي يتابعون دراسة جميع مناهجها؛ وتسري عليهم الامتحانات ذاتها كزملائهم الپاريسيين، ويحصلون على الدبلومات نفسها، بالتوازي مع ليسانس الحقوق المصرى.

المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (IFAO)

يعمل هذا المعهد تحت هذا الاسم منذ ١٨ مايو ١٨٩٧، خلفاً لمدرسة القاهرة الفرنسية التي أنشئت بمرسوم صادر عن چول فيري Jules Ferry [رئيس الوزراء الفرنسي] بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٨٨٠. هدف المعهد تشجيع جميع الدراسات والاستكشافات والحفريات الخاصة بالحضارات التي تعاقبت على مصر وفي المناطق المجاورة، منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر العربي-الإسلامي. ويستقبل المعهد أعضاء علميين، وباحثين، وأعضاء بعثات دراسية للحصول على الدكتوراه أو ما قبل الدكتوراه كما يأويهم. ويشرك في أعماله أيضاً باحثين وجامعيين مصريين.

ويضم (الإفاو) مكتبة مزودة بأكثر من ٧٠ ألف كتاب. إنه أيضاً دار نشر مزودة بمطبعتها الخاصة التي تنشر حوالى عشرين مؤلفاً علمياً سنوياً. وتصدر صحافته أربع مجلات أهمها نشرة الايفاو (BIFAO). أما بالنسبة للدراسات ذات الصبغة العربية فإنها تحظي بدوريتين هما «الحوليات الإسلامية» Les Annales islamologiques و«نشرة الحوليات الإسلامية» Le Bulletin des Annales islamogolique.

وأقام المعهد حوالي ثلاثين ساحة عمل أثرية. وحيث أنه يمتلك معمله الخاص للترميم، فإنه يقدم أيضاً المساعدة الفنية اللازمة لأعمال التنقيب الفرنسية في مصر.

وقد تولى إدارة هذا المعهد منذ إنشائه باسم «مدرسة القاهرة» على التتابع كل من: جاستون ماسپيرو (١٨٨٠-١٨٨١)، أوچين لوفيبور (١٨٨١-١٨٨٣)، أوچين جريبو (١٨٨٣-١٨٨٦)، أورباَن بوريان (١٨٨٦-١٨٩٨)، إميل شاسينيه (١٨٩٨-١٩١٢)، المونسينيور لوي دوشين (١٩١٢)، پيير لاكو (١٩١٢-١٩١٤)، چورچ فوكار (١٩١٤-١٩٢٨)، پيير چوجويه (١٩٢٨-١٩٤٠)، شارل كوينز (١٩٤٠-١٩٥٣)، چان سانت فار جارنو (١٩٥٣-١٩٥٩)، فرانسوا دوما (١٩٥٩-١٩٦٩)، سيرچ سونيرون (١٩٦٩-١٩٧٦)، چان ڤيركوتر (١٩٧٧-١٩٨١)، پول بوزنر-كريجر (١٩٨١-١٩٨٩) ونيكولا جيرمال Nicolas Girmal (منذ ١٩٨٩).

العنوان: قصر المنيرة، ٣٧ شارع الشيخ علي يوسف. القاهرة. ت. ٣٥٧١٦٠٠

مركز الدراسات والتوثيق الاقتصادي والقانوني والاجتماعي «السيديج»

نشأ هذا المركز منذ توقيع اتفاق التعاون المصري-الفرنسي عام ١٩٦٨ . وتدور أنشطته البحثية حول مصر والشرق الأوسط والسودان المعاصرين. وبالإضافة إلى مطبوعات الأعمال، فإنه يستهدف تجميع إرث وثائقي وتدريب الباحثين على شئون العالم العربي والإسلامي. ويقوم بإجراء الدراسات فريق مصري-فرنسي تمت إعارته من مؤسسات متنوعة في البلدين. إن المرصد الحضري للقاهرة المعاصرة الذي تأسس عام ١٩٨٤ داخل «السيديج» يمتلك قاعدة من المعطيات الفريدة في الجهاز الفرنسي للأبحاث حول البلدان النامية: فقد تم تبويب وتوثيق المعلومات حول ٥ آلاف و٢٠٠ قرية ومدينة مصرية التي يسهل الاطلاع عليها من خلال أعمال إعلامية متكاملة إحصائية وخرائطية.

ومنذ عام ١٩٩٣يدير فيليب فارج Philippe Fargues أعمال السيديج التي تنشر مؤلفات وملفات بالإضافة إلى مجلة Egypte\Monde arabe التي تصدر بالفرنسية كل ثلاثة شهور، وأخرى نصف سنوية تصدر باللغة العربية اسمها «مصر والوطن العربي».

العنوان: ١٤ شارع الدكتور عبد الرحمن الصاوي- المهندسين. القاهرة. ت: ٣٦١١٩٣٢. فاكس: ٣٤٩٣٥١٨.

البعثات العلمية

فضلاً عن ساحات العمل التابعة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية (إيفاو)، يتضح الوجود الفرنسي في حوالي اثنى عشر موقعاً أثرياً في مصر.

المركز المصري-الفرنسي لدراسة معابد الكرنك: تأسس عام ١٩٦٨، وهو بعثة دائمة يديرها فرانسوا لارشيه مهندس أبحاث بالمركز القومي للأبحاث العلمية (CNRS) .

معهد المصريات الطيبي [نسبة إلي مدينة طيبة]: أنشيء عام ١٩٦٧، وهو وحدة أبحاث يشترك فيها قسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر والمركز القومي للأبحاث العلمية . ويكرس هذا المعهد أعماله لإعادة تكوين أساليب حياة قدماء المصريين في طيبة-الغربية بدءاً من الإمبراطورية الجديدة وحتى العصر القبطي.

مركز الدراسات الإسكندرانية: يديره چان-إيف أمپرور ويقوم بالتنقيب عن صروح العصر الإغريقي-الروماني في إطار مشروع أثري للإنقاذ الحضري.

البعثة الفرنسية للحفريات في تانيس: تقوم بدراسة عاصمة مصرية في العصر المتأخر وذلك تحت رئاسة فيليب بريسو مهندس أبحاث بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

البعثة الأثرية الفرنسية بسقارة: يديرها چان لوكلان السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب القديمة ، وتقوم بدراسة أهرامات تحمل نصوصاً من الأسرة السادسة، كما تجري أبحاثاً على زوجات الفرعون بيبي الأول.

البعثة الأثرية الفرنسية بتل البسطا بسقارة: تقوم بدراسة وتنقيب وترميم مقابر منحوته في الصخر تعود إلى الإمبراطورية الجديدة وذلك برئاسة آلان زيڤي مدير أبحاث بالمركز القومي للأبحاث العلمية.

البعثة الأثرية المصرية- الفرنسية بتل الهِّر: يرأسها دومينيك ڤلابل، الأستاذ بجامعة ليل٣، وتدرس بنية معمارية عسكرية من العصر الوسيط الثالث حتى العصر البيزنطي.

ملحق ٣

علم المصريات في فرنسا

يعني علم المصريات عادة دراسة العصر الفرعوني الممتد إلى العصر الروماني حتى المسيحية. والواقع أنه لا يمكن فصله عن دراسة عهود أخرى أكثر حداثة (القبطي والإسلامي والحديث)، والتي يكرس عدد من العلماء أنفسهم لها.

وإذا كانت الأبحاث الفرنسية في مصر تستفيد من وجود المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، فإنها تعتمد في فرنسا ذاتها على دعامات هامة مؤسسية ومالية.

الكوليج دي فرانس Le Collège de France

يشغل جان يويوت Jean Yoyotte كرسي علم المصريات بالكوليج دي فرانس الذي أنشأه شامپليون. الدروس مفتوحة لجمهور كبير، بينما تقام حلقة دراسية للباحثين المتبحّرين فرنسيين وأجانب. ولا تمنح هذه المؤسسة الشهيرة دپلوماً.

ويشغل أندريه ميكويل André Miquel كرسي اللغات والآداب العربية الكلاسيكية.

11, place Marcelin-Berthelot, 75005 Paris. Tel.01.44.27.12.11.

المدرسة التطبيقية للدراسات العليا L'école pratique des hautes études

تقوم بتعليم إجراء البحوث أو بالتدريب عليها وتمنح دپلوماً أو دكتوراه. ونجد علم المصريات بهذه المدرسة في:

-الشعبة الرابعة حيث يقوم مدرسون بتدريس اللغة المصرية الكلاسيكية (پاسكال ڤيرنوس)، واللغة المصرية الجديدة (فرانسوا نوڤو)، والهيرية [خط هيروغليفي استعمله كهنة مصر القدامى] (إيڤان كوينج)، والقبطية (چيرار روكيه) بالإضافة إلى محاضرات في فن العمارة المصري.

- الشعبة الخامسة حيث يوجد فرع لدراسات ديانة مصر في العصور القديمة (كريستيتيان زيفي-كوش)، وفرع آخر لدراسات الديانة المصرية في العصرين الإغريقي والروماني (چان-كلود جرينييه)..

Sorbonne, 45-47, rue des écoles. 75005 Paris. Tel. 01. 40. 31.25 et 01.40. 46. 31. 37.

الجامعات

يتم تدريس علم المصريات في سبع جامعات تشتمل أغلبها على مراكز متخصصة تقود إلى الدكتوراه. ويرتبط المركز القومي للأبحاث العلمية (CNRS) بهذه المراكز عن طريق وحدات عديدة للبحوث.

جامعة باريس ٤ - سوربون Université Paris 1V-Sorbonne

يتبع «مركز بحوث المصريات» كرسي علم المصريات (نيكولا جرمال)، في حين يتبع «معهد مخطوطات البردي» الكرسي المسند إلى آلان بلانشار Alain Blanchard. وتمتلك الجامعة معملاً بالاشتراك مع المركز القومي للبحوث العلمية وحدة الأبحاث ٩٩٥ «وادي النيل، والواحات، والصحراء الليبية» يديرها أندريه لاروند وتضم ثلاثة أقسام يرأسها أودران لابروس، وإليزابيث وچاك لاجارس، وآلان زيفي.

18, rue de la Sorbonne, 75230 Paris, Cedex o5.

جامعة ليل-٣ Université Lille-111

معهد مخطوطات البردي والمصريات (دومينيك ڤلابيل). وتمتلك بالاشتراك مع المركز القومي: وحدة الأبحاث ١٢٧٥ «المساكن والمجتمعات الحضرية في مصر والسودان».

BP 149, 59653 Villeneuvw-d'Ascq, Cedex 5. Tél. 03. 20. 41. 61. 12.

جامعة المعرفة ليون-٢ Université Lumière Lyon-11

معهد علم المصريات (چان-كلود جويون).

Maison de l'Orient méditerranéen: 7, rue Raulin, 69007 Lyon. Tél. 04. 72. 71. 58. 60.

Université Paul-Valéry, Montpellier-٣ – جامعة پول-ڤاليري، مونپلييه 111

معهد المصريات (چان-كلود جرينييه. ويمتلك بالاشتراك مع المعهد القومي وحدة الأبحاث ١٠٦٨، «دراسة الديانة المصرية في عصر البطالمة والرومان».

Route de Mende, 34199 Montpellier, Cedex 5. Tél. 04. 67. 14. 24. 20.

Université Strasbourg-11٢-جامعة ستراسبورج

معهد مصريات (چان-كلود ترونيكر).

Palais de l'Université, 67000 Strasbourg. Tél. 03. 88. 25. 97. 79.

Institut catholique de Paris معهد باريس الكاثوليكي

مدرسة لغات وحضارات الشرق القديم (ELCOA) وتقدم دروسها لمدة ثلاث سنوات، وتعطي دروساً في اللغة الهيروغليفية المصرية (آني جاس)، وفي اللغة القبطية (آن بودأور)، وفي اللغة العربية (إميليو-چوزيف پلاتى). تمنح دپلوما يؤهل للحصول على الدكتوراه.

21, rue d'Assa, 75270 Paris, Cedex 06. Tel 01. 44. 39. 52. 61.

Université catholique de l'Ouest جامعة الغرب الكاثوليكية

تقوم بتدريس علم المصريات (پيير جرانديه) في إطار ليسانس دراسات متخصصة عن مصر الفرعونية بكلية الآداب (چان-إيڤ كاريز-ماراترای).

3, place André-Leroy, BP 808, 49008 Angers, Cedex 01. Tél. 02. 41. 81. 66. 61.

L'École du Louvre مدرسة اللوڤر

مدرسة اللوڤر منشأة عامة للتعليم العالي غير الجامعي. تقدم تعاليم عن الآثار المصرية (چان لوك بوڤو)، ودراسات في علم النقوش المصرية والقبطية. تمنح دپلومات للمرحلة الأولي في علم الموسيقى وفي البحث.

34, quai du Louvre, 75038 Paris, Cedex 01. Tél. 01. 40. 20. 56. Minitel: 3615 EDL.

التعليم الخاص

يقدم معهد خوفو دروساً في اللغة والحضارة المصرية. ويقدم أيضاً دروساً بالمراسلة في اللغة المصرية الهيروغليفية، وتدريباً لمن بلغوا التاسعة عشر عاماً.

6, rue Albert-Bayet, 75013 Paris. Tél. 01. 44. 24. 87. 90.

مكتبات الاطلاع

مكتبة المصريات بالكوليج دي فرانس -الأكثر اكتمالاً- وهي ليست مفتوحة إلا للمهنيين ولطلبة الدكتوراه. وتضم باريس مكتبات للمصريات أخرى عديدة: مركز ڤلاديمير-جولينيشيف (المدرسةالتطبيقية للدراسات العليا، الشعبة الخامسة)، ومركز أبحاث المصريات بالسوربون (باريس ٤)، ومكتبة متحف ومدرسة اللوفر، وكذلك مكتبة المعهد الكاثوليكي. وفي الأقاليم تمتلك مراكز أبحاث المصريات الأربعة (ليل، وليون، ومونپلييه، وستراسبورج) مكتباتها المتخصصة.

المجلات

Bulletin de la Société française d'égyptologie , Paris.
Revue d'égyptologie , Paris.
Cahiers de recherches de l'Institut de papyrologie et d'égyptologie, Lille.
Le Nil moyen, Paris.
Archéo-Nil, Paris.
Bulletin du Cercle lyonnais d'égyptologie Isis, Angers.
Égypte, Afrique & Orient, Avignon.
Le Monde copte, Paris.

ملحق ٤

مصر في المتاحف الفرنسية

العدد الإجمالي للتحف المصرية المعروضة في فرنسا غير معروف. ويعود انعدام هذا الإحصاء العام إلى حقيقة أنه بالإضافة إلى حوالى ألف متحف «رسمي» قومي موضوعة تحت إشراف الدولة أو الجمعيات المحلية، أو معترفاً بها من إدارة متاحف فرنسا– يوجد ثمانية آلاف متحف أو مجموعات لا تخضع للإشراف ويمكن أن نجد بها قطعاً مصرية. ومن البديهي أن هذا باستثناء ما يقتنيه الأفراد وتجار العاديات.

اللوڤر

تمتلك باريس ثاني متحف مصري في العالم بعد القاهرة، وذلك بالتساوي مع المتحف البريطاني في لندن ومع متحفي برلين مجتمعين. ويضم قسم الآثار المصرية في اللوڤر الذي يديره كريستيان زيجلر حوالي ٥ آلاف قطعة، غالبيتها ذات قيمة كبيرة. ويمثل هذا حصيلة قرنين من الحفريات في مصر ونتيجة للاقتناء أو للحصول على هبات. وإلى جانب التسع آلاف قطعة التي كان المتحف يضمها عند وفاة شامپليون عام ١٨٣٢، أضيفت المجموعات المشتراة مثل مجموعة كلوت بك (٢٥٠٠ قطعة في عام ١٨٥٣)، والستة آلاف قطعة التي وجدها مارييت في سرابيوم منف، والجزء الأكبر من مقتنيات المكتبة الوطنية التي نقلت إلى اللوڤر عام ١٩٢٢. وانتفع متحف اللوڤر أيضاً من الهبات الخاصة وأهمها هبة كورتيس Curtis التي أوصى بها وتشتمل على ١٥٠٠ قطعة من بينها نصب نفرتيابت التذكاري، ومجموعة أخناتون ونفرتيتي.

وبفضل إعادة التجهيز والتنظيم التي انتهى إنجازها في خريف ١٩٩٧، وتوسيع المساحة ارتفع عدد القطع المعروضة من ٣٥٠٠ قطعة إلى ٤٠٠٠. فإلى جانب طريقة العرض القديمة التي كانت أساساً وفقاً للتسلسل التاريخي أضيف عرض وفقاً للموضوع.

ففي الدور الأرضي يتم عرض موضوعات بعينها مثل النيل، والزراعة، والعلوم، والموسيقى والمعمار، الخ. ووقع الاختيار على فنون للعرض طموحة: هكذا يتم عرض التوابيت بطريقة متراصفة ومنصوبة ... وتوجد قاعة مخصصة لضعاف البصر للتعرف عن طريق اللمس على أعمال فنية مصنوعة من الجرانيت ومن الديوريت.

ومن بين الأعمال الهامة في اللوفر التي يتوقف أمامها المحاضرون والزوار الأفراد بسرور شديد يمكن ذكر:

– ما يخص قبل التاريخ والعصر القديم: النصب التذكاري للملك سربان.

– ما يخص الإمبراطورية القديمة: تمثال الكاتب الجالس القرفصاء، تمثال «أبو الهول» الكبير من تانيس المصنوع من الجرانيت الوردي، مصطبة اخيتتب، رأس ديدفوري من الصلصال الرملي

– ما يخص الإمبراطورية الوسطى: كنز تود، تماثيل ناشتي وهاپيدچيفا. التوابيت وحاملات العطايا.

– ما يخص الإمبراطورية الجديدة والعصر المتأخر: تمثال سيتس الثاني، التماثيل الثماني للإلهة سخمت، ورمسيس الثاني الطفل، وتمثال نصفي ضخم لأمينوفيس الرابع، آمون وتوت عنخ آمون، تمثال الملكة كاروماما من البرونز المرصع بالذهب، تمثال من الخشب لأوزيريس ومجموعة من المجوهرات.

–ويضم القسم القبطي باللوفر الذي تديره ماري–هيلين روتشو Marie-Hélène Rutchows من بين أشياء أخرى عذراء البشارة من نهاية القرن الخامس منحوت من خشب شجر التين، وجزء من جناح كنيسة باويت بمصر الوسطى. وتزود هذا القسم في الثمانينيات بكمية كبيرة من السيراميك الذي عثر عليه في تود.

في الأقاليم

يحدث أحياناً ألا يوجد في بعض المتاحف الفرنسية سوى قطعة مصرية واحدة، في حين أن متاحف أخرى قد جمعت على مر السنين مجموعات هامة. وقد اخترنا فيما يلي حوالى عشرين متحفاً. ومن أجل الحصول على معلومات أوفى يمكن الرجوع إلى:

Pierre Cabane, *Le Nouveau Guide des musées de France*, Larousse, 1997.
Brigitte Lequeux, Monique Mainjonet-Brun et Suzanne Rodcian, *Les Collections archéologique dans les musées de France*, Éd. du CNRS, 1989.

«Répertoire des collections égyptiennes conservées dans les musées Français», *Bulletin de l'Association angevine d'égyptologie Isis,* n^os^ 1 et 2, 1994-1995.
Michel Dewaechter, «L'Egypte dans les musées, châteaux , bibliothèques et sociétés savantes de province», *Bulletin de la Société française d'égyptologie,* n° 103, juin 1985.

Aix-en-Provence (Bouches-du-Rhône) : **Musée Granet.** Palais de Malte, place Saint-Gean-de-Malte, 13100 Aix-en-Provence. Tél. 04.42.38.14.70.
نقيشتان من سقارة، تمثال أوزيريس من البرونز (الأسرة السادسة والعشرون).

Amiens (Somme): **Musée de Picardie.** 48, rue de la République, 80000 Amiens. Tél. 03.22.91.36.44.
تابوت الكاتب نسكافع (الأسرة الحادية والعشرون)، أوراق بردي اميان (الأسرة العشرون)، تمثال من البرونز لإيزيس وهي ترضع حورس (الأسرة السادسة والعشرون).

Angers (Maine-et-Loire): **Musée Turpin de Crissé.** dit musée Pincé, Hôtel Pincé, 32 bis, rue Lenepveu, 49000 Angers, Tél. 02.41.88.94.27.
غطاء تابوت داخلي للمغنية آمون ديستياو (الأسرة الخامسة والعشرون)، خابية الأموات لرئيس القضاة نختيم (الأسرة الثامنة والعشرون)، تمثال صغير من الخشب لبتاح-سوكار-أوزيريس (الأسرتان الخامسة والسادسة والعشرون.)

Annecy (Haute-Savoie): **Musée-Château.** Place du Château. 74000 Annency, Tél.04.50.33.87.30.
تماثيل صغيرة لإيزيس-ديميتر ولأوزيريس، تحف خاصة بالعقائد الجنائزية، أقنعة توابيت، وثائق خاصة بإميل بريس دافين.

Avignon (Vaucluse): **Musée Lapidaire**. Rue de la République, 84000 Avignon. Tél. 04.90.85.75.38.
رأس الوزير من البازلت الأسود (الإمبراطورية الوسطى)، نصب تذكاري أثري من

الكلس (الأسرة الثالثة عشرة)، تمثال للإله سوكاريس من الجرانيت، فرس النهر من المرمر، قالب من الطمي باسم الوزير أوسر،منسوجات قبطية.

Besançon (Doubs): **Musée des Beaux-Arts et d'Archéologie.** 1, place de la Révolution. 25000 Besançon. Tél. 03.81.82.39.89.

تابوت مزدوج لسيرامون (الأسرة الحادية والعشرون)، تحف عديدة من الإمبراطورية الجديدة.

Bordeaux (Gironde): **Musée d'Aquitaine.** 20, cours Pasteur, 33000 Bordeaux. Tél. 05.56.01.51.00.

نصب تذكاري مكرس للإلهة رينونتيت في عهد رمسيس الثاني، مجموعة هامة من المنسوجات القبطية من بينها بساط مزين بالطيور (القرنان الخامس والسابع).

Bourges (Cher): **Musée du Berry.** Hôtel Cujas, 4, rue des Arènes, 18000 Bourges. Tél.02.48.57.81.15.

تجليد لمومياء تيوس (القرن الثالث قبل المسيح)، خابيات أموات لبسميتك.

Figeac (Lot): **Musée Champollion.** Rue des Frères-Champollion, 46100 Figeac. Tél.05.65.50.31.08.

أقيم هذا المتحف فى المنزل الذي ولد فيه شامپليون. ....لرامسيسمن (الأسرة التاسعة والعشرون)، نصب لپاديشاهديدت (الأسرةالسادسة والعشرون) أدوات الكاتب، وثائق حول حياة وأعمال الأخوين شامپليون.

Grenoble (Isère): **Musée de Grenoble.** 5, place de lavalette, 38000 Grenoble. Tél. 04.76.63.44.44.

نصب لكوبان ولأوسر، تابوت پسمتيك، أقنعة جنائزية لأنطونيو (العصر البطلمي).

Laon (Aisne): **Musée archéologique municipal.** 33, rue Georges-Ermant, 02000 Laon. Tél. 03.23.20.19.87.

أواني منذ ما قبل التاريخ (٣٥٠٠ سنة قبل الميلاذ)، منقولات جنائزية من الإمبراطورية القديمة.

Limoges (Haute-Vienne): **Musée de l'Évêché.** Place de la Cathédrale. 87000 Limoges. Tél. 05.55.34.44.09.

ما يقرب من ١٢٠٠ قطعة من مجموعة بريشون بك (١٨٦٠-١٩٢٩)، مدير مصنع السكر بالروضة في مصر الوسطى: الحلي الخاصة بالجنرال باديسماتوي (الأسرة السادسة والعشرون)، تابوت إريت-هوريو (الأسرة السادسة والعشرون).

Lyon (Rhône): **Musée des Beaux -Arts.** Palais Saint-Pierre. 20, Place des Terreaux, 69001 Lyon. Tél.04.72.10.17.40.

قطع عديدة من الإمبراطورية القديمة في العهد القبطي، توابيت إنسانية الشكل من الإمبراطورية الجديدة، بابان لمعبد ميدامود (٢٣٠ عام قبل الميلاد)، ساكف باب معبد سيزوستريس الأول، رأس رجل من الخشب المرصع (الأسرة الثامنة والعشرون)، نصب، حلي كوبتوس (القرنان الثاني والثالث).

Marseille (Bouches-du-Rhône): **Musée d'Archéologie méditerranéenne.** Centre de la Vieille-Charité, 2, rue de la Charité, 13002 Marseille. Tél. 04.91.56.28.38.

ما يقرب من ٢٠٠٠ قطعة تقدم نظرة شاملة وكاملة عن الحضارة المصرية منذ ما قبل التاريخ وحتى العصر القبطي. نصب جنائزية للجنرال كاسا (الأسرة التاسعة عشرة)، مائدة عطايا لكنيهويشوف تحمل أربعاً وثلاثين خرطوشة ملكية (الأسرة السادسة)، مجموعة ثرية من العصر المتأخر، تمثال لرجل من خشب الأرز (الإمبراطورية القديمة)، تمثال نصفي من الجرانيت الأسود للإلهة نيت (الأسرة الثانية عشرة)، تمثال نصفي للإلهة سخمت بأنف لبؤة وجالسة على العرش (الأسرة الثامنة عشرة)، توابيت عديدة، منسوجات ومصابيح قبطية، أقنعة جنائزية يونانية-رومانية.

Orléans (Loiret): **Musée historique et archéologique de l'Orléanais.** Square Abbé-Desnoyers, 45000 Orléans. Tél. 02.38.53.39.22.

تحطمت عدة مئات من القطع الأثرية المصرية أثناء قذف القنابل في يونيو ١٩٤٠؛ ومع ذلك يحتفظ المتحف بحوالي ١٧٠٠ قطعة من العصرين الفرعوني والقبطي.

Rennes (Ile-et-Vilaine): **Musée des Beaux-Arts et d'Archéologie.** 20, quai Émile-Zola, 35100 Rennes, Tél.02.99.28.55.85.

أكثر من ٤٥٠ قطعة من عصر ما قبل الأسرات والعصر الفرعوني، وأكثر من ٢٠٠ قطعة من العصرين الإغريقي والقبطي—البيزنطي وتجيء غالبيتها من منطقة الشيخ عبادة.

Roanne (Loire): **Musée Joseph-Déchelette.** 22, rue Anatole-Francd, 42300 Roanne. Tél.04.77.70.00.90.

مجموعة فريدة من الحلى من الدير البحرى.

Toulouse (Haute-Garonne): **Musée George-Labit.** 43, rue des Martyrs-de-la-libération, 31000 Toulouse. Tél. 05.61.22.21.84.

أواني عديدة،حلى، جعارين، تمائم، نصب جنائزية ومجوهرات، مجموعة جميلة للغاية من المنسوجات القبطية، من بينها قطع عديدة قادمة من الشيخ عبادة.

Varzy (Nièvre): **Musée Grasset.** 18, rue Saint-Jean. 58210 Varzy. Tél. 03.86.72.03.

يمتلك المتحف أوراق بردي نفيسة تحمل نصوصاً باللغة الهيرية من الإمبراطورية الجديدة، وكذلك خابية حاكم مدينة أتريبيس.

مصنع ومتحف سيفر: منذ القرن الثامن عشر يبين العدد الكبير من صيني السيفر اهتمام الجمهور بالأشكال وبالزخارف وبجميع ما يصور مصر الحقيقية أو المختلقة. هكذا تم انتاج وتوزيع قطع مثل «المسلة المصرية» أو «المقلمة» منذ ما يقرب من مائتي عام. ومنذ عام ١٩٩٣ أعيد انتاج طقم المائدة الذي كان نابليون قد أهداه إلى القيصر الكسندر الأول عام ١٨٠٨. وفي عام ١٩٩٥ ابتكر لاكالمونتي رسوماً جديدة لأطباق هذا الطقم.

ويوزع مصنع سيفر جميع هذه الأدوات وعنوانه:

4, Grand-Rue, 92310 Sèvres. Tél.45.34.34.00. et 4, Place André-Marlaux, 75001 Paris. Tél. oi.47.03.40.20.

وتعرض بعض هذه القطع على الجمهور في مجموعات المتحف الوطني للسيراميك والزجاج وعنوانه:

1, Place de la Manufacture, 92310 Sèvres.

ملحق ٥

كُتّاب مصر

١. الأدب العربى المترجم إلى الفرنسية

الأدب المصرى غير معروف كثيراً في فرنسا، حتى وإن كان يحظى بتراجم أعلى بكثير من أدب البلاد العربية الأخرى. فقد ظلت رواية شهيرة مثل «الأرض» للكاتب عبد الرحمن الشرقاوي غير متاحة للقراء الفرانكفونيين لمدة تقرب من نصف قرن بعد صدورها.

وفي عام ١٩٧٢ أسس أحد الرواد هو بيير برنار دار نشر «السندباد» وجعل مواطنيه يكتشفون العديد من الكتاب المصريين. وحتى ذلك الحين لم تكن قد عبرت البحر المتوسط سوى بعض كتب طه حسين وتوفيق الحكيم أو محمد تيمور. ولم يكن معروفاً في فرنسا سوى نبذات من بعض الأعمال بفضل كتاب «مختارات من الأدب العربي المعاصر» الذى أصدرته دار« سوي» Seuil للنشر في ثلاثة أجزاء خلال الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٧ . ثم أعقبتها دار «أكت سود» Actes Sud للنشر التي تعاونت مع العديد من المترجمين مثل باربوليسكو، وكاردينال، وريشار جاكمون. وقد كشفت مجلة «أوروبا» Europe (العدد رقم ٧٨٦ الصادر في أكتوبر ١٩٩٤) نصوصاً أخرى، وأبرزت بأن المؤلفين المصريين موزعون بين استخدام اللغة العامية واللغة الفصحى.

وفيما يلي أعمال الكتاب المصريين المعاصرة (روايات وقصص) المتاحة باللغة الفرنسية.

ابراهيم عبد المجيد (١٩٤٦). ولد بالإسكندرية، شغوف بالفلسفة وحصل على شهرة عن طريق نشره للعديد من الروايات والقصص حول البؤس الاجتماعي وصعوبة بث الأفكار. إن قصته «البلدة الأخرى» تروي قصة شاب مصري يكتشف مآسي الهجرة إلى السعودية.

L'Autre Pays, Actes Sud, 1994.

أحمد بهجت (١٩٣٢). صحفي، قريب من التيار الإسلامي، ونشر كتباً عديدة موجهة للأطفال. ويصور كتاب «مذكرات صائم» مشهد صراع موظف بسيط مع ذكرياته.

Mémoires de Ramadan, L'Harmattan, 1991.

أحمد البساطي (١٩٣٧). من عداد الكتاب الشباب الذين أرادوا في الستينيات تجديد الكتابة الأدبية. إنه بصفة خاصة قصصي يقارن بين مشاهد الطبيعة الرائعة وبؤس وأسي شخصياته. إن «صخَب البحيرة» هي مجموعة من أربع قصص مستلهمة من عالم الطبقة الدنيا والصيادين في قرية الكاتب على ضفة بحيرة المنزلة.

La Clameur du lac, Actes Sud, 1996.

حسين فوزى (١٩٠٠-١٩٨٨). كان هذا الأستاذ الجامعى مديراً لجامعة الإسكندرية. وفي كتابه الأكثر شهرة «السندباد العصري» يصف بفكاهة رحلة علمية فى المحيط الهندي على ظهر مركب شراعي قبل الحرب العالمية الثانية.

Un Sindbad moderne, Gallimard, 1988.

سليمان فياض (١٩٢٩). مولود بالمنصورة، وفي أولي رواياته «أصوات» يصف المآسي التي يمكن أن يسببها اقتحام الثقافة الغربية لقرية تقليدية في الدلتا. ويجسّد الغرب سيدة فرنسية زوجة مهاجر عاد إلى بلاده.

Clameurs, Denoël, 1990.

جمال الغيطاني (١٩٤٥). رسام سجاد سابقاً، ومراسل حربي سابقاً، ويرأس في مصر تحرير الملحق الأدبي «أخبار الأدب». وفي عام ١٩٩١ نشرت له دار السندباد بپاريس ترجمة كتابه عن أحاديثه مع الكاتب نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للأدب، كما

نشرت له رواية تدور أحداثها في حي شعبي بالقاهرة فقد سكانه من الرجال قواهم الجنسية فجأة. وقام المخرج شريف عرفة بصنع فيلم مميز مأخوذ عن هذه الرواية التي تتهم النظام السياسي بطريقة مستترة إلى حد ما.

Zayni Barakat, Seuil, 1985;
Épître des destinées, Seuil, 1993;
La Mystérieuse Affaire de l'impasse Zaafrani, Sindbad-Actes Sud, 1997.

توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧). كان طالباً في باريس، وأصبح قاضياً، وموظفاً كبيراً، وتولى منصب أمين عام دار الكتب بالقاهرة. وكتب توفيق الحكيم حوالي ٣٠ مسرحية. قصة «يوميات نائب في الأرياف» المستوحاة من تجربته الريفية جلبت له الشهرة. وهي سرد عذب لتحقيق جرى في البيئة الريفية تبرز الهوة التي تفصل السكان عن رجال الإدارة.

Un substitut de campagne en Égypte, Plon et Presse-Pocket, 1993;
Théâtre de notre temps, Nouvelles Éd. Latines, 1960;
L'Oiseau d'Orient, Nouvelles Éd. Latines, 1960;
Souvenirs d'un magistrat poète, Nouvelles Éd. Latines,1961;
L'Âne de sagesse, L'Harmattan, 1987.

يحيى حقي (١٩٠٥-١٩٩٢). أقام هذا الدبلوماسي في بلدان أجنبية عديدة من بينها فرنسا وذلك قبل أن يصبح مديراً للفنون الجميلة بالقاهرة. رأس تحرير مجلة «المجلة» ونشر قصصاً عديدة من بينها قنديل أم هاشم والبوسطجى المترجمتان إلي الفرنسية. تتسم أعماله بالانقلاع عن الجذور وبالتباين بين الشرق والغرب.

Choc, Denoël, 1991.

كامل حسين (١٩٠١-١٩٧٧). طبيب مشهور، ومؤلف لدراسات متنوعة اجتماعية وفلسفية، وكان مديرا لجامعة عين شمس. تصف قصته «المدينة الباغية» المترجمة إلى الفرنسية تأملات مسلم في آلام المسيح وفي موته.

La Cité inique, Sindbad, 1986.

طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣). مؤلف لأعمال وفيرة، وكان يعتبر «عميد الأدب العربي». كان أعمى منذ طفولته المبكرة. درس بجامعة الأزهر قبل حصوله على الدكتوراه من السوربون. كان وزيراً للتعليم في بداية الخمسينيات بعد أن عانى من انتقادات الأوساط التمامية. تتسم العديد من أعماله بطابع السيرة الذاتية.

Le Livre des jours, Gallimard, 1984'
Adib ou l'Aventure occidentale, Clancier-Guenaud, 1988;
L'Appel du karaouan, Denoël, 1989;
Au-delà du Nil, Gallimard-Unesco, 1990;
La Traversée intérieure, Gallimard, 1992.

صنع الله ابراهيم (١٩٣٧). هذا المناضل القديم الذي سجن خلال أعوام عديدة كثيراً ما أثار الفزع بسبب جرأة أو سخرية كتاباته ونظرته القاسية إلى المجتمع المصري. في قصة «نجمة أغسطس» يكتشف القصاص المسافر من القاهرة إلى أسوان جبروت وعملقة السد العالي، في حين يقدم في قصة «ذات» مشهد سيدة شابة حائرة بسبب مصاعب الحياة اليومية.

Étoile d'aout, Sindbad, 1987;
Cette odeur-là, Actes Sud, 1992;
Le Comité, Actes Sud, 1992;
Les Années de Zeth, Actes Sud, 1993.

يوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١). طبيب نفسي، ثم كاتب إخباري ملتزم سياسياً. ويعتبر في مصر أستاذ القصة القصيرة.

Le Tabou, Lattès, 1987;
La Sirène, Sindbad, 1986;
Maison de chair, Sindbad, 1990.

إدوار الخراط (١٩٢٦). مولود بالإسكندرية ، مصري قبطي، يدقق في التجويد، ولغته متقنة، كان مسئولاً سابقاً عن منظمة تضامن الشعوب الإفريقية-الأسيوية. ترك تأثيراً لدى عدد من شباب الكتاب المصريين. ونجد مؤلفاته غنية بذكريات فترة المراهقة بالإسكندرية في الأربعينيات.

Alexandrie, terre de safran, Julliard, 1990;
La Danse des passions, nouvelles, Actes Sud, 1997;
Les Belles d'Alexandrie, Actes Sud, 1997.

نجيب محفوظ (١٩١١). موظف سابق، ومناضل وطني في عهد الاحتلال الإنجليزي، كتب حوالى ثلاثين رواية وخمسة عشرة مجموعة قصصية. واستلهم نجيب محفوظ الكثير من حي الجمالية الشعبي، لكي يصف حياة عامة الناس في القاهرة. وبعد حصوله على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨ أصبح الكاتب المصري الأكثر شهرة في فرنسا، وتضاعفت ترجمة أعماله.

Impasse des deux palais, Lattès, 1987;
Le Palais du désir, Lattès, 1987;
Récits de notre quartier, Sindbad, 1988;
Le Voleur et les chiens, Sindbad, 1988;
La Chanson des gueux: épopée, Demoël, 1989;
Dérives sur le Nil, Denoël, 1989;
Le Jardin du passé, Lattès, 1989;
Le Jour de l'assassinat du leader, Lattès, 1989;
Passage des Miracles, Sindbad, 1989;
Miramar, Denoël, 1990;
Les Fils de la médina, Actes Sud, 1995;
Chimères, Denoël, 1992;
Le voyageur à la malette, nouvelles, L'Aube, 1996;
La Danse des passions et autres nouvelles, Actes Sud, 1997;
L'Amour au pied des pyramides, nouvelles, Sindbad-Actes Sud, 1997;
Le Mendiant, Sindbad\Actes Sud, 1997.

محمد مستجاب (١٩٣٨). ولد بديروط بالصعيد، ومارس مهناً عديدة صغيرة (عامل زراعي، ومساعد ترزي، وحاجب)، قبل أن يصدر كتابه «من التاريخ السري»، وهو كتاب طريف أكسبه جائزة الدولة للآداب.

Lès Tribulations d'un Égyptien en Égypte, Actes Sud, 1997.

نبيل ناعوم (١٩٤٤). مولود بالقاهرة، وقد عمل هذا المهندس القبطي لمدة عشر سنوات في الولايات المتحدة، ثم أقام محل تحف فنية في مصر الجديدة. تأثرت كتاباته بالصوفيين كما بكُتّاب مثل بورج Borges [بورج، كاتب أرجنتيني ١٨٩٩-١٩٨٦) وكاواباتا Kawabata (كاتب ياباني ١٨٩٩-١٩٧٢). ويعتبر نبيل ناعوم من أكثر الكتاب المصريين المعاصرين تأثراً بالعالمية.

Le voyage de Râ, Actes Sud, 1988;
Retour au temple, Actes Sud, 1991;
Le Rêve de l'esclave, Actes Sud, 1994.

يوسف القعيد (١٩٤٤). مولود في أسرة ريفية متواضعة، ويتميز بتراكيب أدبية مبتكرة إذ يجعل عدة رواة يتجابهون.إن «شكاوى المصرى الفصيح» رواية قصيرة تروي مغامرة تعسة لفلاح شاب ذهب إلى الحرب بدلاً من شاب آخر.

Masri, l'homme du Delta, Lattès, 1990.

نوال السعداوي (١٩٣١). مناضلة نسائية، وطبيبة نفسية، وكانت مديرة للصحة العامة. وضعت في السجن في الثمانينيات مما ألهمها كتابات متنوعة.

Douze Femmes dans Kanater, théâtre, Éd. des femmes, 1984;
Ferdous, une voix en enfer, Éd. des femmes, 1984;
Femmes égyptiennes: tradition et modérnité, Éd. des femmea, 1991.

محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣). كاتب قصص، تلميذ لأخيه محمود تيمور ويعتبر مكملاً لأعماله بعد وفاته قبل الآوان. عرف هذا الكاتب الذي حصلت أعماله على رواج كبير كيف يصف المجتمع المصري خلال النصف الأول من القرن بأسلوب رشيق وواضح.

Le Courtier de la mort, Nouvelles Éd. latines, 1951;
La Belle aux lèvres charnues, Nouvelles Éd. Latines, 1952;
La Fleur du cabaret, Nouvelles Éd. latines 1953;
Bonne Fête, Nouvelles Éd.latines,1954;
La Vie des fantômes, Nouvelles Éd. latines, 1958

نجيب طوبيا (١٩٣٨). مولود بالمنيا ومؤلف سيناريوهات أفلام عديدة. اقتحم عالم الخيال عن طريق الأساطير والروايات الشعبية المأثورة في صعيد مصر. ترجمت مجموعة من قصصه في كتاب واحد من بينها قصته تروي سيرة حياة مأساوية لفلاحة عاقر في الصعيد أصيبت بالجنون.

Combat contre la lune, Lattès, 1986.

٢. أدب مصري كتب بالفرنسية

قد يكون جوزيف آجوب (١٧٩٥-١٨٣٢) هو أول كاتب مصري يكتب بالفرنسية، وقد وصل إلى فرنسا مع أسرته عند انسحاب جيش نابليون. وحصل على شهرة بعد قصيدته Dithyrambe sur l'Égypte : [قصيدة مدح فى مصر]

إن القائمة التي تضم جميع الأعمال الأدبية المنشورة بالفرنسية لكتاب مولودين في مصر طويلة للغاية. إذ تحتل عناوين مجموعات الشعر التي نشرت خلال الفترة بين الحربين العالميتين وحدها صفحات عديدة. وللحصول على تفاصيل أكثر يمكن الرجوع إلى الدراسة التى أجراها چان چاك لوتى: Jean-Jacques Luthi, Introduction à la littérature d'expression française en Égypte (1798-1945), Paris, Éd. de l'École, 1974.

Abou-Khater, Fouad, *Shagare-el-dorr et Baybars,* Éd. de la Rèvue du Caire, 1951.
Adès, Albert, et Josipovici, Albert, *Le Livre de Goha Le Simple,* Paris, Calmann-Lévy, 1919.
Arcache, Jeanne, *L'Égypte dans mon miroir,* Paris, Cahiers Libres, 1931.
Assaad, Faouzia, *L'Égyptienne,* Paris, Mercure de France, 1975;
-, *Des enfants et des chats,* Paris, Favre, 1987;
-, *La Grande Maison de Louxor,* Paris, L'Harmattan, 1992.
Bonjean, François, et Deif, Ahmed, *Mansour,* Paris, Rieder, 1924;
-, Mansour à l'Azhar, Paris, Rieder, 1927.
-Chamla, Yves, *Cléopâtre-les-Bains,* Paris, Desclée de Brouwer, 1997.
Chedid, Andrée, *L'Autre,* Paris, Flammariom, 1969;
-, *Néfertiti et le Rêve d'Akhenaton,* Paris, Flammarion, 1969;
-, *Bérénice d'Égypte ,* Paris, Flammarion, 1981;
-, *Le Sixième Jour,* Paris, Flammarion, 1985;
-, *Le Survivant,* Paris, Gallimard, 1987;
-, *L'Enfant multiple;* Paris, Gallimard, 1989;
-, *La Cité fertile, Paris,* Gallimard, 1992;
-, Les Saisons de passage, Paris, Gallimard, 1996.
Cohen, Shalom, *Inchirah, une fille d'Alexandrie,* Paris, L'Aube, 1992.
Cossery, Albert, *Les fainéants dans la vallée fertile,* Paris, Laffont, 1964;
-, *Mendiants et Orgueilleux,* Paris, Gallimard, 1979;
-, *Une ambition dans le désert,* Paris, Gallimard, 1984;
-, *Un complot de saltimbanque,* Paris, Losfeld, 1993;
-, *Les Hommes oubliés de Dieu,* Paris, Losfeld, 1994;
-, *La Violence et la Dérision,* Paris, Losfeld, 1993;
-, *La Maison de la mort certaine,* Paris, Losfeld, 1994.
Dumani, Georges, *Monsieur Bergeret au Caire,* Le Caire, 1948.
Finbert, Elian-Guda, *Le Batelier du Nil,* Paris, Grasset, 1928;
-, *Un homme vient de l'Orient,* Paris, Grasset, 1930.
Guirguis, Renée, Rythmes, *Poésie,* Paris, Librairie Bleue, 1985.
Hassoun, Jacques, *Alexandries,* Paris, La Découverte, 1985.
Henein, Georges, *La Force de saluer,* poésie, Paris, La Différence, 1978.
Ivray, Jehan d', *La Rose du Fayoum,* Paris, 1921.

Jabès, Edmond, *Je batis ma demeure,* poémes, Paris, Gallimard, 1959;
-, *Le livre des questions,* Paris, Gallimard, 1963;
-, *Le Seuil le sable,* poésies complètes, Paris, Gallimard, 1990.
Jacques, Paula, *Lumière de l'oeil,* Paris, Mercure de France, 1980;
-, *Un braiser froid comme la lune,* Paris, Mercure de France, 1983;
-, *L'Héritage de tante Carlotta,* Paris, Mercure de France, 1987;
-, Deborah et les Anges dispersés, Paris, Mercure de France, 1991;
-, *La Descente au paradis,* Paris, Mercure de France, 1995.
Khairy, Mohamed, *Les Rêves évanescents,* poémes, Paris, 1922.
Kheir, Amy, *Salama et son village,* Paris, Éd. de la Madelaine, 1936.
Latif Ghattas, Mona, *Les Voix du jour et de la nuit,* Montréal, Boréal, 1988.

المحتويات

الجزء الرابع